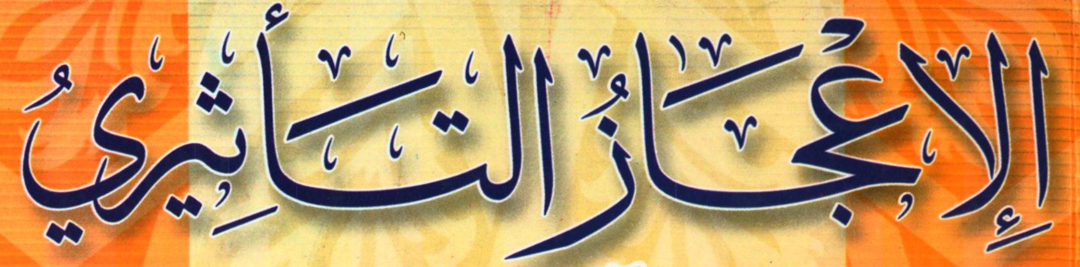


للقرآن الكريم

وأثره في الدعوة إلى الله تعالى

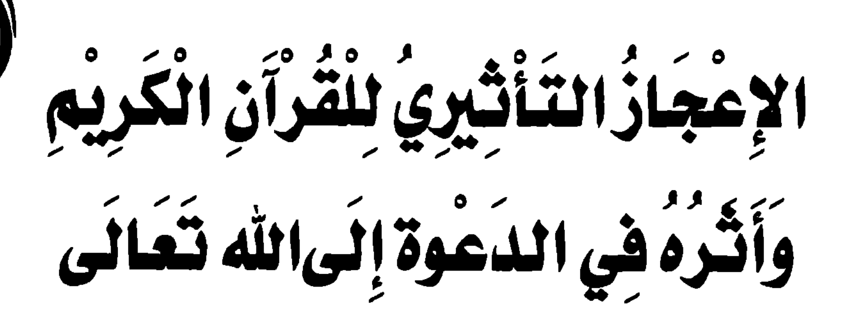
تقديم

أ.د/عبد الله المصلح

تأليف

د/مصطفى السعيد





المؤلف

د/ مصطفى السعيد مصطفى خليل



الطبعة الأولى
١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م

رقم الإيداع: ٢٩٢٨/٢٠٠٩

شركة أجيالنا
للنشر والتوزيع

ت: ٠١١٤٩٨٨٥٦٩ - ٠١٠٥٠٢٩٥٧٠ - ٣٥٤٠٠٥٢

إهـداء

إلى روح والدي الذيْن ربياني على حُـبِ العلـم، وحِفـظِ القـرآن الكريم، إلى من كانا خيرَ سندٍ لى فى حياتهما لمواصلة رحلتى العلميـة، وكانا يتوليانى بالرعاية والتوجيه في معارج العلم والإيمان، أقدم لهما هذه الثمرة من غرسكما ولاءً وعرفاناً. كما أهدي هذا البحث إلي من كانـت سـبباً في مواصـلة رحلتـي العلميـة حتـي وصـلتُ إلي هـذه الدرجة.إلي زوجتي الغالية التي كانت مصدر الإلهام والأمـل وفـاءً وتقـديراً أدام الله بقائهـا.وحفظهـا مـن كـل مكـروه كـما أُهـدى هـذا العمل إلى ابنتي العزيـزتين وأخـي وإلي روحِ شـيخي الـذى حَفظـتُ القرآن على يديه رحمه الله ﷻ كما أهديه إلي من عـاونني أو ربـت عـلي كتفي أو أضاء لي شمعة في طريق العلـم إلي كـل هـؤلاء مـن الله خـير الجزاء.

والله أسأل أن ينفعنا بما علمنا إنه نعم المولى ونعم النصير.

من الدستور الإلهي

- قال الله ﷻ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (١)
- وقال ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢)
- وقال ﷻ ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾ (٣)
- وقال ﷻ ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ (٤)
- وقال ﷻ ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٥)

* * *

---

(١) سورة الأنفال الآية رقم ٢ .

(٢) سورة يونس الآية رقم ٥٧ .

(٣) سورة الإسراء الآية رقم ٩ .

(٤) سورة ص الآية رقم ٢٩ .

(٥) سورة الزمر الآية رقم ٢٣ .

مقـدمة

بقلم: أ.د/ عبد الله المصبح

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد..

فالقرآن الكريم معجزة خالدة باقية إلى يوم القيامة، وهو خاتم الكتب السماوية؛ ليس لإعجازه عصر معين أو وقت محدد. ومن هنا فإن فيه إعجازاً لكل العصور .. إعجازاً لمن عاشوا قبلنا، وإعجازاً لعصرنا هذا، وإعجازاً لمن سيأتون بعدنا.. حتى تنتهي الدنيا وما فيها.. وصدق الله : ﴿ **ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ .

وإعجاز القرآن بأي وجه من الوجوه لا يحتاج إلى كثير عناء؛ وذلك لأن إعجازه حقيقة ثابتة وقضية واضحة لا غَبَشَ فيها إلا لمن كان بعينه رمد، فهو معجزة كبرى تحدى بها البلغاء والحكماء وأهل الكتب السماوية فعجزوا عن تحديها وأقروا بصدقها وتساميها، ويكفي للدلالة على علوّ شأنها قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾ . وها هي القرون تلو القرون تمر، وها هي العلوم قد ازدهرت والفنون قد أينعت ولم يقدر أحد أن يأتي بمثل هذا الكتاب في أسلوبه أو منهجه أو هديه.

كما أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم للتدبر والتأثر حيث قال

سبحانه وتعالى: ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُواْ الأَلْبَابِ** ﴾.

والكتاب الذي أقدم له الآن لمؤلفه د. مصطفى السعيد إعجاز من نوع جديد غفل عنه كثير من الناس ألاَ وهو صنيع القرآن في القلوب، وهو دعوة إلى تدبر القرآن، واستنفار للعقل الذي هو مناط التكليف وأداة النظر والاعتبار، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾.

فالكتاب محاولة جادة لإبراز جانب الهداية في القرآن، واستدعاء القرآن الكريم للساحة الإسلامية يهديها للتي هي أقوم، وإنهاء لحالة الهجر والخصام التي شكاها رسول الله ﷺ لربه: ﴿ **وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً** ﴾، ومن ثَمَّ فإن القرآن لا يزال فيه من جوانب الإعجاز ما لا يعلمه إلا الله، وصدق الرسول ﷺ: «**ولاتنقضي عجائبه، ولا يُخْلَقُ على كثرة الردِّ**».

فهيا بنا نتدبر كلام الله ونتأثر بآياته.

والله الموفق،،

أ.د/ عبد الله المصلح

مقدمة الطبعة الأولي

الحمد لله الوهاب ﷻ علم الإنسان ومنحه العلم والفهم والأناة، والصلاة والسلام علي خير الأنام ﷺ وبعد

فمن آلاء الله ﷻ علي مثلي أن وفقه للحديث عن إعجاز القرآن الكريم فالقرآن كلام الله رب العالمين، ومن منّة الله ﷻ كذلك أن منحني حفظه وأنا صغير في التاسعة من عمري وكل هذه النعم توجب علي أصحابها أن يقدروها حق قدرها، وأن يوظفوا جهدهم ووقتهم لشكر هذه النعمة وليس ثمت نعمةٌ أعظم من القرآن حيث توجه له الطاقات وتحشد؛ لإبراز ما فيه من جمال الجهود المخلصة

وإني إذ أوقن بهذه النعم أقوم بشكرها عرفانا بجميل الله ﷻ وتقديراً له علي ما وهب

وموضوع الإعجاز القرآني لا يزال بكراً مهما كتب فيه، وإني ارتأيت أن يكون حديثي من نوع جديد فآثرتُ أن يكون عن الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم حيث إن هذا الشطر من العنوان يشترك فيه كل الناس علي اختلاف أجناسهم وألوانهم حيث معناه والعوامل المعينة علي ذلك وكذا الوسائل والموانع

وكان الشطر الثاني من العنوان يخص فرقة اصطفاها الله وجعل قولها أحسن القول حيث قال الله ﷻ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهَّ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ألا وهم الدعاة إلي الله ﷻ فالاستفهام في الآية يحمل معني النفي والمعني لا احد أحسن قولاً ممن يدعوا إلي الله تعالي.

والكتاب دعوة للناس جميعاً أن يحسنوا علاقتهم بالقرآن ولا يجعلونها علاقة تحكمها الحاجة والمصلحة وإنما هي حب الله ﷻ

وكذا دعوة لإخواني الدعاة أن يتدبروا كلام ربهم فهو مصدرهم الأول في الدعوة إلي الله ﷻ وأن تكون علاقتهم به وثيقة وليست علاقة مجهولة

والله أسأل أن يحسن أعمالنا وأن يُخَلِقنا بالقرآن

المؤلف

د / مصطفي السعيد مصطفي خليل

أبو إيمان

mustafakhalel@yahoo.com

المقدمـــــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل علي عبده الكتاب نورًا وهديً، وبين فيه الأحكام لعباده ولم يتركهم سديً الحمد لله الذي أنعم علينا بحفظه وتلاوته وهداه، وأمرنا بتدبر آياته والتأثر عند تلاوته واستماعه فقال الله تعالي ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ [1] وأصلي وأسلم علي خير الأنام سيدنا محمد ﷺ الذي أنزل عليه القرآن هديً للناس وبيناتٍ من الهدي والفرقان، فتأثر به رسول الله ﷺ وأثر به في الناس وعمل بأحكامه وتمثل قول ربه عز وجل ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [2]

وبعـــد

فإن الإعجاز القرآني بكافة أشكاله وألوانه لهو من أقوي الأدلة علي أن القرآن من عند الله، قال الله تعالي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[3] وهذا هو السر الذي تحدي الله به العرب أن يأتوا بمثل هذا القرآن فعجزوا، فتحداهم أن يأتوا بسورة من القرآن ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا ذلك؛ لأنه كلام الله تعالى ولذا قال تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [4] هؤلاء هم العرب أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان، ورغم ذلك فهم عاجزون عن الإتيان بسورة مثله، بل لقد تحدى الله به الإنس والجن مجتمعين

---

(١) سورة ص الآية (٢٩)

(٢) سورة الأنعام الآية (٩٢)

(٣) سورة فصلت الآية رقم (٤٢)

(٤) سورة يونس الآية رقم (٣)

ومتعاونين ولكنهم عجزوا ومن هنا قال تعالى ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[1] وحتى لو عاون بعضهم بعضاً وذلك لأن القرآن هو كلام الله تعالي فأنّي لهم أن يأتوا بكلامٍ مثل كلام الله تعالي، ومن يتأمل ما ترمي إليه هذه الآية ؛ حيث إنها تذكر العجز الكامل من كل البشر أمام عظمة القرآن الكريم، ونظم عباراته ونسق ألفاظه، ولهذا كان تأثر القلب بالقرآن حاصل؛ لأنه كلام الله تعالى ومن ثم كان الحديثُ عن الإعجاز التأثيرى للقرآن الكريم حديثاً يأخذ بمجامع القلوب، فيجعلها تتأثر بالقرآن، حتى تفهم المراد وتنزل علي الأمر المطلوب، فالإعجاز التأثيرى للقرآن الكريم يتجلى واضحاً في قوة الجذب الشديدة التي تحدثها آيات الذكر الحكيم في النفوس عند تلاوته أو الاستماع لآياته، وهذا ما يجعل القلوب تتأثر والعقول تخضع ومن ثم تجبر على الإقناع والاقتناع، عند سماع القرآن أو عند تلاوته وهذا سر إعجازه، وهذا يعطى دليلاً قوياً على تأثيره في الناس، وبالوسائل التي ذكرها الله في القرآن وهذا ما دعا الناس بادئ الأمر أن يبهروا من قوة الجذب الشديدة التي وجدوها فيه وكانت الآية تتلى فيسمعها الواحد منهم فلا يملك نفسه من التأثر والتدبر والخضوع والخشوع عند تلاوته

أولاً: أهمية الموضوع:- تظهر أهمية الموضوع من خلال عدة أمور منها:

١ - إنه يتحدث عن القرآن الكريم وتأثيره في النفوس:

وهذا يكفيه أهمية بل إنه يكسبه إجلالاً ومزيد اهتمام ، فهو يخدم من يعيش مع كتاب الله ﷻ بالدرجة الأولي فهو كتابُ هدايةٍ وإرشادٍ، كتابٌ فيه خير البشرية قاطبة؛ وذلك لأن به حلاً لجميع المشاكل التي تمور وتموج على الساحة البشرية في جميع مجالات الحياة إلي قيام الساعة، فالبشرية في حاجةٍ ماسةٍ وملحةٍ إلي التمسك التام بهدي القرآن والتأثر بآياته والتدبر لمعانيه والعمل بما جاء به، ولعل هذا هو أهم المقاصد التي نزل لأجلها القرآن الكريم، حيث قال الله ﷻ ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا

(١) سورة الإسراء الآية رقم (٨٣)

﴿الْأَلْبَابِ﴾[1] فهو كتاب للتدبر والتأثر والانقياد لأمر الله وكيف لا؟ فهو كلام الله رب العالمين قال الله تعالي ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[2]

فالقرآن الكريم هو مصدر هدايتنا في الدنيا والآخرة، ومهما اختلفنا في أمر من الأمور فإننا لن نختلف في النتيجة السعيدة التي تثمرها العناية بالقرآن الكريم، للفرد والأسرة والمجتمع وصدق الله إذ يقول ﴿إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾[3] ولقد صدق النبي ﷺ حين قال «فيه نبأُ ما قبلكمْ وخبرُ ما بعدكم هو الحقُّ ليس بالهزلِ، من تركهُ من جبَّارٍ قصمهُ اللهُ، ومن ابْتغى الهُدى في غيرهِ أضلهُ اللهُ، هو حبلُ الله المتينُ ونورهُ المبينُ والذكرُ الحكيمُ وهو الصراطُ المستقيمُ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواءُ، ولا تلتبس به الألسنةُ، ولا تتشعبُ معه الآراءُ، ولا يشبعُ منه العلماءُ ولا يمله الأتقياءُ، ولا يخلق علي كثرة الرد، وهو الذي لم تنته الجنُ إذ سمعتهُ إلا أن قالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً ، منْ علمَ علمَهُ سبقَ، ومن قالَ به صدقَ، ومنْ عَمِلَ بهِ أُجِرَ ، ومن دَعَي إليهِ هُدِيَ إلي صراطٍ مستقيمٍ، وهو عصمةٌ لمن تمسكَ بهِ، ونجاةٌ لمن اتبعهُ لا عِوَجَ فيُقَوَّمُ ولا يَزيغُ فيُسْتَعْتَبُ»[4]

وهذا الحديث وغيره ينص علي أهمية القرآن وأهمية التأثر به، ومما لا شك فيه أن أسعد وقتٍ يقضيه الإنسان في حياته هو ما يعيش فيه مع القرآن الكريم، وأمتع اللحظات التي يحياها المرء المسلم هي لحظاتُ عيشه في رياض القرآن بروحه وعمله ووجدانه؛ وذلك عن طريق تطبيق مبادئه ومثله وقيمه علي نفسه وعلي أهله وذويه، ومحاولته جاهداً أن يطبقها كذلك علي المجتمع الذي يعيش فيه فالقرآن الكريم هو النبراس الذي يضيء لنا جوانب الحياة، والقبس الذي نمشي علي ضيائه ونحيا في ظلاله ورياضه والنور الذي

---

(١) سورة ص الآية رقم (٥٧) .

(٢) سورة الشعراء الآيتان رقمي (١٩٣ : ١٩٥) .

(٣) سورة الإسراء الآية رقم ٩ .

(٤) أخرجه الترمذى في السنن كتاب فضائل القرآن باب ما جاء في فضل القرآن ج ٥ / ١٧٢ ، قال أبو عيسي حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول ٠ دار إحياء التراث العربي بيروت تحقيق أحمد شاكر.

يوضح لنا معالم المعرفة والهداية، والسبيل الذي يرشد إلي الصواب إذ هو الجامع لكل ألوان المعرفة وأنواعها مما يتصل بحياة الإنسان ككلٍ متكاملٍ لا يتجزأ، وما ينفعه في دينه ودنياه وفي معاشه ومعاده؛ وهو الذي نقل إلينا النظام الإلهي ،وهو الدستور السماوي لكل البشر فالقرآن الكريم عند نزوله وهو محط أنظار العلماء، ومناط أفكار الفضلاء، وموضع عنايتهم في القديم والحديث حتى استفادوا منه علوماً كثيرةً وفنوناً غزيرةً وإن تعددت وجهات نظرهم إليه وتباينت مشاربهم منه وكثرت في ذلك علومهم حول القرآن الكريم ، فمن العلماء من يبحث في ضبط ألفاظه وكلماته وتحقيق رواياته وعدِّ آياته وهؤلاء هم علماء التجويد، ومنهم من يبحث في معربه ومبنيه وتخريج وجوهه اللغوية وهؤلاء هم علماءُ اللغة، ومنهم من عني بما فيه من البلاغة وأسرارها والفصاحة وضروبها وهولاء هم علماء البلاغة حيث استخرجوا منه علم المعاني والبيان والبديع بكل ما يشتمل عليه كل علمٍ من هذه العلوم، ومنهم من وجَّه عنايته في أماكن متفرقة من مؤلفاتهم إلي روعة نظمه وقوة أثره في النفوس، ولكنها للأسفِ صفحاتٌ متناثرةٌ أو إن شئت فقل هي سطور متناثرة بين كتبهم المؤلفة، لم تنل حظاً واسعاً من الجمع والتنقيح والترتيب حتى تخرج للنور، ولذا آثرت الحديث عن هذا الموضوع الذي لم ينل من الدراسة ما يستحق فأردت أن أفتح الباب ، وأشعر أن هذا البحث بداية ميلادٍ جديدٍ لأبحاثٍ متعاقبةٍ متتاليةٍ، فهو موضوعٌ يخدم كلام الله بالرجة الأولي ولن يترك أحدٌ الكتابة فيه، إذ كيف يزيغ عقل عاقل عن الحق وهو يراه، إني أريد أن أؤكد عظمة القرآن داخل القلوب والتأثر به مستعيناً بالله ﷻ ومستلهماً من ثنايا القرآن الكريم ما يفتح الله تعالي به علي أن أخرج ما يدور بصدري عن هذا الموضوع، لأن المسلمين قد أصبحوا يعيشون في مأساةٍ حقيقية وهذه المأساة تبرز في بعدهم عن القرآن، وجفوهم لآياته وعدم التأثر بكلماته وعظاته، ولقد شكا الرسول لربه هجر أمته للقرآن قال تعالي ﴿**وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً**﴾ [1] وكنت في بحثي هذا جامعاً منسقاً مرتباً مبتكراً شيئاً ما أكثر مني مخترعاً أو مبدعاً، وذلك لحرصي علي إخراج الموضوع في صورة ترضي الله ﷻ.

---

(١) سورة الفرقان الآية رقم ٣٠.

٢ - إن القرآن الكريم يفتح الآفاق لمخاطبة القلوب .

إن القلب الذي يتأثر بالقرآن وينفعل بتلاوته هو قلب مملوء بالإيمان وحب القرآن، وما رقّ قلب للقرآن وتأثر إلا كان سبّاقاً للخيرات، وما ذكّر الإ تذكَّرَ تجده أرقُّ ما يكون بقراءة القرآن أو الاستماع إليه، وصدق الله تعالي ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾[1] أما الذي يقرأ القرآن ولا يتأثر به؛ ولا يتحرك قلبه معه ولا يحرك له ساكنا؛ فهو صاحب القلب القاسي - والعياذ بالله - وصاحب هذا القلب بعيد عن الله -تعالي - وفي هذا ما يؤكد بما لا يدع مجالاً للريب أن رقة القلب شئ جميل يعين علي التأثر بالقرآن، وأن القسوة شئ ذميم يحجب القلب عن التأثر بالقرآن، ولذا يجب علي المسلم - عند قراءته للقرآن - أن يكون بينه وبين تلاوته علاقة حميمة ووطيدة يقرأ فيتأثر فيعمل، ولذا عاب بعض العلماء علي بعض الدعاة الذين يجعلون بين قرآن ربهم وبين حياتهم الدعوية علاقة مجهولة، يقف الداعية بين يدي ربه غائب القلب شارد الذهن ومن ثمّ تزداد حركته قسوةً وجفاءً وبعداً عن التأثير والتأثر، وهذا شئٌ مشينٌ إذا ما قورن بما يجب أن يكون ولذا لن يكون له أدني تأثير إلا إذا تدبر هو أولاً وهذا التدبر محله القلب، وفي كل مواد الأرض تستطيع أن تدفع كل شئ بيدك فيندفع إلا القرآن، فإنه لابد من التأثر به قبل كل شئ ومن ثمّ كانت عبادة القلوب هي أروع عبادة، وليس معني هذا أني أنقص من عمل الجوارح ولكني أرشد إلي جماع الأمر كله وعموده وذروة سنامه إنه القلب الذي هو محل التأثير والتأثر.

٣ - القرآن الكريم غذاءٌ للروح ومِلاكُ القلوب:

فكما أن الجسد الإنساني لا يعيش بدون روح؛ فكذلك المسلم القارئ للقرآن أو المستمع له علي حد سواء لا يمكن له هو الآخر أن يحيا بدون تدبر وتأثر، ولذلك أردت أن أوضح أن الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم وجهٌ مستقلٌ بذاته، كباقي وجوه الإعجاز الأخرى للقرآن الكريم؛ مثل الإعجاز البياني والإعجاز العلمي والتشريعي .الخ ولذا

---

(١) سورة الزمر من الآية ٢٣ .

فإن الإعجاز التأثيري لا يقل أهمية عن باقي وجوه الإعجاز الأخرى ، بل إني أري أنه أهمها وأجلها علي الإطلاق ، وذلك لأني أعتبر الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم محوراً قلبياً للإعجاز عامة بل هو قطب الرحى ومن هنا كان الاهتمام بالتأثير القرآني - في نظري - هو استعادة مجد الأمة الإسلامية الضائع؛ فإذا ما أرادت الأمة أن تصبح ذات شأن وأن تعيد أمجادها؛ وأن تجبر المجتمع الدُّولي علي احترامها؛ وأن تنشر دعوة الله العالمية في الأرض؛ فعليها الاهتمام بنبراس حياتها ووسيلة بقائها؛ ألا وهو كتاب الله ﷻ الخالد الذي هو سبب سعادة البشرية في العاجل والأجل، وأعظِم به من اهتمام فالقرآن الكريم خير كتاب أنزله الله علي أشرف مخلوق وخاتم رسله ﷺ؛ ليبين لهم الخير ويجلي لهم الحق كما أنزله الله ﷻ؛ وليكون للعالمين مبشراً ونذيراً، فالاهتمام بالقرآن الكريم تلاوةً وقراءةً وحفظاً وتدبرًا وتأثرًا؛ هو واجب الأمة الإسلامية جمعاء، ولقد وعد الله حملة كتابه وقارئيه ومتدبري معانيه؛ بالأجر الجزيل والثواب العظيم في الدنيا والآخرة وهذا الأجر مذكور في القرآن حيث قال الله ﷻ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[١] فالاهتمام إذن بهذا الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم هو بمثابة صمام أمن وأمان للإسلام وللمسلمين وجلاء للعبادات والتكاليف فالقرآن منهاج خلقي كامل فيه سعادة الفرد والمجتمع.

ثانياً: أسباب اختيار الموضوع:

فيما سبق ذكرت أهمية الموضوع ، وأنه ضروريُ للغاية حيث إن الهدف من إنزال القرآن الكريم -كما سبق بيانه - وتقريره من آيه وأهم أسباب اختياري له تتجلى في النقاط التالية

أ/ حبي للقرآن الكريم - كلام لله رب العالمين - وإبراز بعض ما في القرآن الكريم من إعجاز؛ فوجدت العلماء قد بحثوا في هذا الجانب؛ إذ ذكروا الإعجاز البياني والعلمي

---

(١) سورة فاطر الآية رقم (٢٩)

والبلاغي والتشريعي ، ولكني وجدت الإعجاز التأثيري لم ينل من الأهمية مثل ما نال غيره من أوجه الإعجاز القرآني الأخرى، فحاولت إبراز ما في القرآن من إعجاز تأثيري ومن ثم كان اختياري لهذا البحث.

ب / إبراز وتجلية العلاقة الوثيقة بين الدعوة الإسلامية من جهة وبين الإعجاز القرآني من جهة أخري وانطلاقاً من حبي للدعوة إلي الله تعالي، وحبي لأن أكون جندياً مساهماً ولو بالكلمة؛ وحبي لأن أضيف إلي المكتبة الإسلامية عملاً متواضعاً أرجو من الله ﷻ أن يكون جديداً في شكله ومضمونه، كما أرجو أن يكون خالصاً وصواباً، وذلك لأن هذا الموضوع يمس كلام الله رب العالمين؛ أفضل الكلم وأطيب الحديث وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

ج / العمل علي إظهار الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم كوجهٍ مستقلٍ قائمٍ بذاته:

وذلك في صورةٍ واضحةٍ للعيان، وهذا الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم ميزةٌ قد امتاز بها كلام الله تعالي؛ لم توجد في كتاب غيره، وهذا قول الله ومن أصدق من الله قيلا حيث قال الله ﷻ ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[١] فإعجاز القرآن الكريم يتأتي من خلال تأثيره في النفوس وسيطرته علي القلوب، فأنت عندما تقرأ أو تسمع القرآن الكريم؛ تجد وقع تأثيره شديدًا قويًا علي الإنسان، بل إنه يتعداه إلي الحيوان والجماد كما سيأتي بيانه.

د / إبطال ما يثيره أعداء الإسلام عن القرآن:

حيث إن كثيراً من أعداء الإسلام يثيرون كثيراً من الشكوك، والمزاعم الباطلة حول القرآن وذلك بغرض التقليل من أثره؛ وصرف الناس عن التأثر بآياته، فهم يعملون جاهدين للقضاء علي القرآن الكريم بكافة السبل وشتي الطرق؛ لأنهم رأوا أن له تأثيراً غريباً لا يقاوم ويعلمون أن تأثيره علي النفوس عجيباً، وهذا شئ يؤرقهم ويقض مضاجعهم، ويقلق راحتهم لذا قاموا بأخس ما يمكن لك أن تتصوره فذكروا ما يقرب

---

(١) سورة ص الآية رقم (٢٩) .

من مائةٍ وخمسين شبهة حول آيات القرآن الكريم، وغرضهم من ذلك إضعاف أثر القرآن في نفوس الناس، وهذا ما يحاول به أهل المادية الملحدة بكل إمكانياتها وطاقاتها أن تجعل القرآن نسياً منسياً، ولكن هيهات لهم أن يصلوا إلي ذلك، وما حدث في فينا خير شاهدٍ علي مكرهم ونواياهم السيئة الخبيثة «حيث قال جلاد ستون في المؤتمر العالمي في فينا إن أعضاء المؤتمر ناقش تأثير القرآن العجيب الذي يسيطر علي الناس فعمد أحد أعضاء المؤتمر ومزق المصحف، فقال له رئيس المؤتمر لا أريد ذلك بل أريد محوه من صدور المسلمين»[1] ولذا رأيت أن أوجه جهدي وعملي لبيان الإعجاز التأثيري للقرأن الكريم؛ وبقائه ما بقيت الحياة في وقت اضطربت غيوم سمائه وتكاثر غبار أرضه، وتطاير شرر أهله، فأصبح الناس في دوامة من الحيرة والاضطراب، والقرآن الكريم وحده هو الذي يحمل الدواء الشافي، والبلسم النافع لما أصاب الإنسانية من تدهور وانحلال لكن الله حافظٌ قرآنه من أيدي العابثين والحاقدين قال تعالي﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[2].

ز / القرآن الكريم هو السلاح الأول الذي استخدمه النبي ﷺ في دعوته :

وبالفعل قام الرسول ﷺ يدعو بهذا السلاح القوي الذي لا تملك القلوب معه إلا أن تسلم، والأفئدة إلا أن تتأثر والآذان إلا أن تنصت وتصغي، والعقول إلا أن تفكر وتتدبر، وهذا كله كان له أكبر الأثر في أن يدخل كثير من المشركين في الإسلام، ومن ثم قال الله تعالي ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾[3] وإني أهيب بإخواني الدعاة أن يستخدموا هذا السلاح - الآن - فما أحوجنا إليه وحتى تكون الدعوة أنفع والكلام أوقع وأعمق أثراً ، فالقرآن الكريم كان عاملاً أساساً في إيمان من آمن من المسلمين الأوائل تأثراً به عندما تُلي عليهم؛ خضوعاً لسلطانه واستجابةً لقوةِ تأثيرهِ وإيماناً

(١) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين ص ١٤٤ مجموعة من العلماء ط المجلس الأعلي للشؤون الإسلامية الطبعة الثالثة ١٤٢٧ هـ/ ٢٠٠٥ م..

(٢) سورة الحجر الآية رقم ٩ .

(٣) سورة الفرقان الآية رقم ٥٢ . .

بربانيته، واقتناعاً بما جاء به الرسول ﷺ من عند الله ﷻ.

ثالثاً: الغرض من الكتاب: يهدف هذا الكتاب إلي عدة أمور أهمها:

١- إثبات الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم علي الخلق أجمعين: وذلك من خلال الأسلوب المؤثر الذي انفرد به كتاب الله تعالي، فهو ذو أسلوب فريد يؤثر في كل المخلوقات، ولعل هذا أهم أهداف البحث..

٢- بيان آراء العلماء قديماً وحديثاً حول هذا الإعجاز التأثيري: الذي أتحدث عنه الآن مع بيان اختلافهم حول كونه إعجازاً يتبع غيره؛ أم هو إعجاز مستقل بنفسه وذكر المؤيد منهم والمعارض مع الترجيح.

٣- فتح آفاقٍ جديدة ومجالٍ أرحب لدراسة هذا النوع من الإعجاز التأثيري - أمام إخواني الباحثين - في مجال الإعجاز القرآني، وليكون المجال حينئذ أرحب، فيصوبوا ما أخطأت فيه ويتموا ما قصرت فيه

٤- استخدام الإعجاز ألتأثيري كأسلوب دعوى روحي: ولذا فهو يستولي علي القلوب فيخاطبها برفق وتأثر؛ ومن ثمّ يصبح سلاحاً قوياً للسيطرة علي عقول وقلوب المدعوين، هذا إذا ما علمنا أن الإعجاز التأثيري كأسلوب دعوى يشعر النفوس بحلاوة القرآن .

٥- ابتغاء الأجر من الله ﷻ في الدنيا والآخرة فليس هناك من ثواب يعطي للعبد - علي عمل قام به - أفضل من خدمة كتاب الله ﷻ ففي الحديث «إذا مات ابنُ آدمَ انقطعَ عملهُ إلا من ثلاثٍ. صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ ينتفع به،أو ولدٍ صالحٍ يدعو له »[1]

رابعًا: المنهج المستخدم في الكتاب:

مفهوم المنهج: لغة: الطريق البين الواضح ، ومنه نهج الطريق يعني أبانه وأوضحه

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الوصية باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ج٣/ ١٢٥٥

وسلكه ومنه قوله تعالي ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ (١)

اصطلاحاً:«هو الطريق البين الواضح المؤدي إلي الكشف عن الحقيقة في العلوم، وذلك بواسطة القواعد العامة التي تهيمن علي سير العقل، وتحدد عملياته حتى يصل إلي نتيجة معلومة»(٢) ولا أريد أن أزيد في تعريف المنهج، فهذا البحث حسب طبيعته يقتضي استخدام عدة مناهج وهذه المناهج تكون كالتالي:

أولاً : المنهج التأصيلي: حيث الحديث عن تأصيل الإعجاز التأثيرى فى القرآن الكريم، وكذلك السنة النبوية ، ويظهر هذا واضحاً في الفصلين الأول والثاني من الباب الأول .

ثانياً :المنهج التحليلي:حيث تحليل المادة العلمية التي كتبها السابقون والقيام بتحليل هذه التراكيب حتى يستطيع أن نصل إلى المطلوب ، وهذا يظهر واضحاً في الفصلين الثالث والرابع من الباب الأول

ثالثاً: المنهج الاستنباطي: حيث استنباط أصول الإعجاز التأثيري من خلال آي القرآن الكريم واستخراج الأثر الناتج عنه، يظهر هذا في فصول الباب الثاني .

***

---

(١) سورة المائدة الآية رقم (٥٦)

(٢) ميادين علم الاجتماع ومناهج البحث العلمي ، د : حسين عبد الحميد رشوان ص١٣٨ ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، فرع الإسكندرية ، الطبعة الأولى ١٩٧٧م .

أولاً: مفهوم الإعجاز التأثيري:

هذا المصطلح - الذي هو صلب البحث وعهوده - يتكون من شقين هما - إعجاز، تأثير وكلٌ من هذين المصطلحين يحتاج إلى تعريفٍ خاصٍ به على حدة، ثم يجمعهما تعريفُ شاملٌ أستطيع من خلاله أن أقول: إن هذا المفهوم هو حقيقة الإعجاز التأثيرى الذي أنا بصدد الحديث عنه.

(أ) **الإعجاز: لغة**: مشتق من العجز وهو ضد القدرة، وأصبح اسماً للقصور عن فعل الشيء، فيقال عجز الرجل عن الأمر، بمعنى أنه حاول أن يفعل شيئاً ولم يستطع وهذا هو المعنى الذي تحدثت عنه الآية الكريمة ﴿فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾[1].

وجاء في لسان العرب عدة معانٍ للعجز وكلها تدور حول معنىً واحد وهى:

١ - العجْزُ: «نقيض القدرة والحزم، فيقال عجز عن الشيء يعجز عجزاً أي بمعنى أنه غير قادر على فعله فهو عاجز، وهى اسم فاعل من عجز».

٢ - العجْزُ: «يعنى الضعف، عجزت عن كذا أي ضعفت عنه، ويؤكد هذا قول عمر بن الخطاب ﷺ «لا تلثوا بدارِ مُعْجَزَةٍ» أي لا تقيموا ببلدة تعجزون فيها عن الاكتساب والتعيش، ويقصد «لا تلبثوا بدار ضعيفة».

٣- العجْزُ: «بمعنى التثبيط، تقول عَجَزَ الرجل أي ثبطت همته، أو عجَّزَ الرجل غيره أى صار الخصم ضعيفاً عاجزاً عن متابعته»[2]. والملاحظ من خلال ما جاء في لسان

(١) سورة المائدة: الآية رقم (٣١).

(٢) لسان العرب، ابن منظور جـ ٤/ ٦٩١/ ٦٩٢ دار صادر بيروت، الطبعة الأولي بدون.

العرب؛ أن العجز يدور حول معنى الضعف وعدم القدرة، ولعله هو المقصود من إعجاز القرآن وهو عدم قدرة الثقلين عن أن يأتوا بمثله. ولقد جاء في القرآن الكريم قال تعالى ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾[1]

وقال – تعالى – ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[2]

إن القرآن قد سما في علوه إلى شأو بعيد بحيث تعجز القدرة البشرية عن الإتيان بمثله، سواء كان هذا العلو في بلاغته أو تشريعه أو مغيّباته أو غير ذلك.

ومن ثم يُفهم أن الإعجاز القرآني يعنى: «ارتقاء القرآن فى البلاغة والفصاحة وأمور الإعجاز الأخرى حداً كبيراً، إلى أن يخرج عن طوق الإنسان والجن، فيعجزوا عن معارضته أو الإتيان بمثله، لأنه بلغ مستوى لا يصل إليه كلام آخر، بمعنى أنه يعلو على كل كلام، ولا يُعلى عليه كلام»[3] ومن ثم يفهم أن الإعجاز هو الفوت والسبق، فعندما تقول مثلاً أعجزني فلان أى سبقني وفاتني، وجعلني عاجزاً عن طلبه.

الإعجاز: اصطلاحاً: إن إعجاز القرآن الكريم – من خلال ما سبق الحديث عنه عند أهل اللغة – يعنى «إثبات عجز الخلق عن معارضته، وإظهار قدرة المعجز وهو الله ﷻ، الذي أنزل القرآن الكريم على رسوله محمد ﷺ وبهذا تقوم الحجة على المعارضين لدعوة النبي، ويكون القرآن الكريم معجزة النبي الكبرى التي تدل على صحة نبوته وصدق رسالته ﷺ»[4] كما أن هناك فى هذا التعريف ملحظاً مهماً: وهو أن المقصود من إعجاز القرآن الكريم إظهار أن هذا الكتاب حق لا شك فيه ، وأن الرسول ﷺ الذي جاء به رسول صادق، وإثبات أن الذي جاء به الرسول ﷺ إنما هو وحى يوحى من الله ﷻ.

---

(١) سورة التوبة الآية رقم (٢) .

(٢) سورة الشورى الآية رقم ٣١ .

(٣) الظاهرة القرآنية ، مالك بن بنى ص٦٠ بتصرف ، طبعة دار الفكر ، دمشق ١٤٠٢/ ١٩٧٩م.

(٤) المعجزة والإعجاز في سورة النحل ، عبد الحميد طهار ص٤٦ ، ط بدار القلم ط أولى ١٩٨٧م.

(ب) التأثير: لغة: ورد في بعض معاجم اللغة أن التأثير مشتق من أَثَرتٌ وأَثَرَ «أَثَر أي تتبع أثره، وأَثَر في الحديث هو ما نقله الرواة عن غيرهم وآثره اختاره وفضله على غيره، ويقال آثره على نفسه وفى التنزيل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ.الآية﴾ [1].

«أَثَّر» أي ترك فيه أثراً، وتأثر بالقرآن أي ظهر فيه أثره. و«استأثر بالشيء» أي خص به نفسه ولم يتعداه إلى غيره. «الإثارة» العلامة، وتعنى بقية الشيء وفى التنزيل الحكيم ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [2] وفى المثل «لا تطلب أثراً بعد عين» وهو مثل يضرب لمن يطلب أثر الشيء بعد فوات عينه.

«الأثرةُ» الأثر في الأرض يقال هو ذو أثرةُ عندي أى من خلصائى وأصدقائي.

«الأثر» عند علماء النفس «يعنى اتجاه اهتمام الإنسان، وميول الحب فيه نحو غيره، سواء كان ذلك عن فطرة واكتساب وهذا المعنى هو ما اختاره المجمع اللغوي مؤخراً»[3]

وخلاصة ما سبق: أن التأثير في اللغة مأخوذ من الأثر، والنتيجة أو المحصلة الدالة على وجود مؤثر ما؛ سواء كان المؤثر حسياً كما في قولك أثرت البعير، أو معنوياً كما في - قول الله تعالى - ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ الله ...﴾[4]

«التأثير» مركب إسنادي من أثر الشيء أي طلب حصول ما يدل على وجوده، يقال أثر في الشيء، والجمع آثار ومنه - قوله تعالى - ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا.....﴾[5] وقوله ﷻ ﴿وَآثَاراً فِي الأَرْضِ ...﴾[6] .ومن ثم يقال للطريق المستدل عليه من تقدم آثار

---

(١) سورة الحشر : من الآية ٩ .
(٢) سورة الأحقاف : من الآية ٤.
(٣) راجع المعجم الوسيط ، إصدار مجمع اللغة العربية ص٥،٦ ، مكتبة الصحوة المنوفية بدون ، وأساس البلاغة الزمخشرى ص١٩ دار صادر بيروت ١٣٩٩/ ١٩٧٩م.
(٤) سورة الروم : من الآية ٥ .
(٥) سورة الحديد : من الآية ٢٧ .
(٦) سورة غافر : من الآية ٢١.

- قال تعالى - ﴿هُمْ أُولَاءِ عَلَىَ أَثَرِى ...﴾[1] «وآثرت اليقين: أى جعلت على فقه أثره أي علامة تؤثر فى الأرض، ليستدل بها على أثره وأَثَرْتُ العلم: أى رويته»[2].

ومما سبق يُفهم أن التأثير اصطلاحاً: يعنى العلامة التي يتركها الأثر في أي شيء كان، فمن القرآن الأثر الذي يتركه في قلوب سامعيه وقارئيه وكذا في غيره.

الإعجاز التأثيرى:

لقد تقدم تعريف لمصطلح الإعجاز لغة واصطلاحاً، وكذلك تعريفُ لمصطلح التأثير لغةً واصطلاحاً، ومن البدهى في الأبحاث العلمية أن يقدم الباحث تعريفاً لعنوان بحثه، وهاأنذا أحاول جاهداً أن أضع تعريفاً للإعجاز التأثيرى - فأقول - الإعجاز التأثيرى للقرآن: «هو أن للقرآن الكريم تأثيراً بأسلوبه على سامعه وقارئه من خلال سلطانه العجيب الذي يؤثر في القلوب المؤمنة والكافرة، فهو وجه مستقل من أوجه الإعجاز القرآني، قد أشار إليه السابقون، ويظهر هذا الإعجاز التأثيرى فيما يتركه من أثر على سامعه وقارئه ظاهراً وباطناً، فما أن يقرأ الإنسان آيات من الذكر الحكيم أو يسمعها تتلى عليه، إلا ويشعر في نفسه وقعاً خاصاً، ويحس فى قلبه تأثيراً خاصاً، وسلطاناً عجيباً، لا يكون أبداً لغير آيات القرآن الكريم، لأنه كلام رب العالمين»[3] .وهذا التعريف يحتاج إلي شرحٍ، في أسلوب وجيز غير مخل، حتى يتضح المعنى المراد.

شـرح التعـريـف

« له تأثر قوى» لأنه كلام الله تعالى، ومَنْ أصدقُ مِنَ الله قولاً، فهو يؤثر لأنه من كلام الخالق - عز وجل - وذلك لأن القرآن صادرٌ عن الذات الإلهية، التي تعلم علم اليقين أسرار الكون والحياة والإنسان وصدق الله إذ يقول ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾[4] فمن الطبعي إذن أن يكون للقرآن هذه القوة

---

(١) سورة طـــه : من الآية ٨٤ .

(٢) المفردات فى غريب القرآن ، للراغب ص٨ ، تحقيق محمد سعيد كيلاني ، ط دار المعرفة ، بيروت ، بدون.

(٣) وقد ساعدني في ذلك مقال بمجلة الشريعة ، بعنوان الإعجاز التأثيري دراسة تطبيقية ص ٢٢.

(٤) سورة الفرقان الآية رقم ٦.

التأثيرية المنقطعة النظير والمثيل وهو مليء بالأسرار التي لا يعلمها إلا الله تعالي، لكن الله من نعمته ومنته كشف بعض هذه الأسرار لمن يتدبرون ويتأملون ويتعظون ويتفكرون في آيات الله، بينما بقي الكثير والكثير من هذه الأسرار في علم الله الخبير ومن ثمَّ كان للقرآن هذه القوة التأثيرية، وأما «وجه مستقل من وجوه الإعجاز القرآني» حيث إن بعض العلماء والباحثين في قضية الإعجاز القرآني؛ قد عدُّوا وجوهاً لإعجاز القرآن الكريم واختلفوا في عددها، فمنهم من عدّها أربعة وجوه كحدٍ أدنى من مثل الإمام «الخطابي»[1] - ومنهم من عددها كحد أقصى إلى ثمانية وعشرين وجهاً مثل - هبة الدين الحسيني - في العصر الحديث[2].

و «قد أشار إليه السابقون» هي لمحة وضيئة لمن أشار إليه أولاً - أقصد أول من أشار إلى الإعجاز التأثيرى - إشارة واضحة هو الخطابي إذ يقول ما نصه «فى إعجاز القرآن الكريم وجه آخر ذهب الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ فى آحادهم، وذلك صنيعه فى القلوب وتأثيره فى النفوس .... الخ آخر ما قال»[3] و «ما يتركه القرآن من أثر ظاهر» مثل قوله تعالى ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾[4].

و «باطني» من مثل الكشف عن بواطن النفوس، وخفايا القلوب وذرات الصدور، فيعالج ما بها من خلل، بعدما يكشف زيفها.وله «تأثير على سامعه وقارئه» ولقد قدمت السمع في تأثره بالقرآن على البصر وهى القراءة لعدة أسباب:

أولها: أن الله - تعالي- قدَّم السمع قبل البصر في القرآن فقال تعالى ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[5] فهو التزام بأسلوبه.

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، الإمام الخطابي ، والرماني ، والجرجانى ص٢٢،٢١ طبعة دار المعارف مصر ١٣٧١/ ١٩٨٠ م تحقيق محمد زغلول وآخرون.

(٢) راجع نظرات في القرآن محمد الغزالي ص١٥٨/ ١٦٠ ، دار الكتب الحديثة ، الطبعة الخامسة ، بدون .

(٣) ثلاث رسائل في الإعجاز ، ص٧٠ ، مرجع سابق .

(٤) سورة الإسراء الآية رقم ٤٦ .

(٥) سورة الإسراء الآية رقم ٣٦ .

ثانيها: أن الرسول ﷺ قد تلقي القرآن أولاً من جبريل سماعاً ثم قرأه بعد ذلك، وفى سماعه ﷺ.

كان التأثير الحقيقي، مما حدا به أن يقول زملونى - زملونى(1).

ثالثها: أن السامع للقرآن أكثر تأثراً من القارئ، وذلك لانشغال القارئ بجودة التلاوة وأحكامها

و «يؤثر في القلوب المؤمنة والكافرة» وذلك أن السامع للقرآن لا يستطيع مدافعة عظمته ولا مقاومة عذوبة ألفاظه، ومن ثم يكون التأثير على النفس الإنسانية أيا ما كانت مؤمنة أو غير مؤمنة، و في السنة النبوية شواهدُ صدقٍ على ذلك كما سيأتى بيانه داخل البحث من مثل إسلام عمر بن الخطاب - و أبى ذر الغفاري وعبد الله بن سلام ﷺ وغير هؤلاء كثير أذكرهم فيما بعد - إن شاء الله - وكذا من سمعه ولم يؤمن به وهم كثير منهم الوليد بن المغيرة، وما قاله بشأن القرآن وكذلك عتبة بن ربيعه ... وغيرهم. وبهذا التعريف السابق أكون قد وضعت تصوراً صحيحاً عن الإعجاز التأثيرى للقرآن الكريم. ولست أدعى انه تعريف خال من الخطأ، فورود الخطأ عليه جائزٌ وعِلة ذلك أنى بشر بيد أنى اجتهدت، فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن الشيطان.

ثانياً: القرآن الكريم:

إن القرآن الكريم عَلَمٌ يطلق على كلام الله ﷻ فهو كلام منزه عن التحريف والتبديل، وهو محفوظ بحفظ الله تعالى له إذ قال ﷻ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(2)

القرآن لغة: «قرأ» الكتاب قراءة وقرآناً، أي تتبع كلماته نظرا ونطقاً بها، وقرأ تتبع الكلمات ولم ينطق بها، وسميت حديثاً بالقراءة الصامتة، وقرأ الآية من القرآن أي نطق بألفاظها عن نظر وتبصر. والقرآن هو كلام الله المنزل على رسوله ﷺ المكتوب في

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب نزول الوحي على رسول الله، جـ1/ 43، طبعة عيسى الحلبي.
(2) سورة الحجر الآية رقم 9.

المصاحف المتعبد بتلاوته وفى التنزيل ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (١)

« والقرَّاء » الحسن التلاوة «ويقال قرأت الكتاب واقترائته، وأقرأته غيري، أي تلوته، وهو من قرأة الكتاب أي ناسك متعبد وعليه قال جرير يأيها القارئ المرخى عمامته..هذا زمانك أتى قد مضى زمني وقد تقرأ فلان أي تنسك، وأقرِأ سلامي إلى فلانٍ أي أبلغه سلامي وانقله إليه» (٢)

ومن ثم يفهم أن القرآن في اللغة مصدر على وزن فُعلان بالضم تقول قرأته - قراءة - وكلها تدور حول معنى واحد وهو القراءة. ثم أصبح القرآن الكريم عَلَماً خاصاً يطلق على كلام الله تعالى، ولا يمكن أن يطلق على كتاب آخر - قال تعالى - ﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾ (٣) .ومن ثم فقد اختلفت آراء أهل اللغة حول أصل كلمة «قرآن» ويمكن إجمالها في اتجاهين رئيسين هما:

الأول: يرى أصحاب هذا الاتجاه أن القرآن الكريم اسم لكتاب الله تعالى غير مشتق من أى مادة كانت سواء من قرأ أو من غيرها، ومن ثم فهو علم على كتاب الله تعالى مثل التوراة والإنجيل والزبور ...

والثاني: يرى أصحاب هذا الاتجاه أنه مشتق واختلفوا في نوع المشتق منه، هل هو مصدر أو وصف ... أو غيره» (٤)

ويمكن جمع ما سبق ببراعة فيما قال الإمام الزرقانى في مناهل العرفان حيث قال «أما لفظ القرآن فهو في اللغة مصدر مرادف للقراءة، ثم نقل من هذا المعنى المصدري، وجعل اسماً للكلام المعجز المنزل على النبي محمد ﷺ وهو من باب إطلاق المصدر على مفعوله.

---

(١) سورة القيامة الآية رقم ١٨ .

(٢) المعجم الوسيط ، إصدار مجمع اللغة العربية ، ص٧٥٠ ، مرجع سابق .

(٣) سورة الإسراء الآية رقم ٩ .

(٤) انظر في هذا الإتقان فى علوم القرآن ، السيوطى ، جـ١/ ٦٧-٦٨ ، ط الحلبي ط ع ، وانظر مدخل إلى علوم القرآن وتفسيره ، د : فاروق حمودة ص٥ ، ١٦ ط مكتبة المعارف ، الرياض ط١/ ١٣٩٩هـ

وهذا ما نختاره استناداً إلى موارد اللغة، وقوانين الاشتقاق. أما القول بأنه وصف وغيره فكل ذلك لا يظهر له وجه وجيه، ولا يخلو من كلفة، وعليه فلفظ قرآن علم على كتاب الله تعالى، ويمكن تخفيف همزته»[1].

وخلاصة ما سبق عند أهل اللغة للفظ القرآن - أنه عَلَمٌ على كتاب الله تعالى - لا يتعداه إلى غيره، وذلك حيث إن الأدلة تؤيد هذا الرأي ولعله الرأي الذي أصل إليه. فالقرآن كلام الله رب العالمين، فالقرآن إذا أُطلق لا ينصرف الذهن إلا إلى كلام الله.

القرآن اصطلاحاً: تقدم بنا تعريف القرآن عند أهل اللغة، ومدارسة ذلك وخلصنا إلى أن القرآن عَلَمٌ على كتاب الله تعالى، والقرآن الكريم قد حوى من العقائد والشرائع والمعارف والآداب والعلوم والفنون والأخلاق ما يجل الوصف عن ذكره، لقد تضمن بين جنباته الحديث عن الأولين والآخرين، وما كان وما سيكون، ورسم للإنسان منهجاً واضحاً، وطريقاً سليماً، وصراطا مستقيماً يسير عليه ويهتدي به، ويدعو إليه، كما اشتمل القرآن على الأمن والأمان والطمأنينة وراحة البال، كما تميز بالإعجاز الذي تحدى به الخلق أجمعين، وهنا أتسائل: من ذا الذي يستطيع أن يضع تعريفاً للقرآن الذي حوى كل هذه الأمور وغيرها الكثير؟!!!. إذن فكل تعريف يوضع للقرآن الكريم ليس جامعاً ولا مانعاً لأنه إن شمل أمراً سيترك أموراً، ولكني سأذكر بعض التعريفات.

أ/ هو «الكلام المنزل على سيدنا محمد ﷺ المكتوب فى المصاحف، المنقول إلينا بطريقة التواتر، المتعبد بتلاوته، المتحدى بأقصر سورة منه، المبدوء بالفاتحة المختتم بالناس»[2].

ب/ كلام الله المعجز الموحى به على خاتم الأنبياء، والذى أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير للتعبد بتلاوتها، والعمل بمقتضاها فى جميع جوانب الحياة، وفى كل

---

(١) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، للإمام الشوكانى جـ١/ ٨٥، تحقيق أحمد عناية، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

(٢) نور من القرآن فى طريق الدعوة والدعاة د/ محمد الحسنين ١٢ سلسلة دعوة الحق العدد ٨٨ ١٤٠٩هـ.

زمان ومكان»[1]

ج / وعرفه آخرون «هو كلام الله المعجز وحيه، المنزل على نبينا محمد ﷺ المكتوب فى المصاحف المنقول إلينا بالتواتر المتعبد بتلاوته، ومن خلال هذه التعريفات السابقة للقرآن الكريم، يمكن لي أن أقول «إن القرآن الكريم يُتَعذر تحديده بالتعاريف المنطقية - ذات الجناس والفصول والخواص - بحيث يكون تعريفه حداً حقيقياً، والحد الحقيقي له هو استحضاره معهوداً فى الذهن أو مشاهدا بالحس، كأن تشير إليه مكتوباً فى المصحف أو مقروءاً باللسان، فنقول هو ما بين دفتى المصحف الشريف أو نقول هو من ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى قوله تعالى ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ وبهذا يتضح أنه يصعب وضع تعريف مانع جامع للقرآن الكريم»[2]

ومن خلال ما سبق ذكره يجدرُ بي أن أقول.. إن القرآن هو كلام الله تعالى المعجز الموحى به إلى محمد ﷺ لينذر به الخلق أجمعين؛ ويدعوهم إلى توحيد الله رب العالمين، المكتوب بين دفتي المصحف والمنقول إلينا تواتراً، تعبداً بتلاوته، والمحفوظ إلى آخر الدهر بحفظ الله له، والمشتمل على خيري الدنيا والآخرة، فكل كتاب يَرِثُّ كلامُه بكثرة البحث فيه، وتنضو الأفكار منه وينضب عطاؤه إلا القرآن الكريم، فإنه كلما قرأته ألفيت نفسك غير التي كانت بالأمس تقرأ، فالقرآن هو هو، وما تَلَقَّاه قارئه اليوم غير ما فتح عليه منه بالأمس، فإنك لا تجد واحدا من الكتب غير القرآن يعطيك هذا، يؤتيك كل يوم نفسا تقرأ في كل مرة أول مرة، إذ حين تقرؤه ألف مرة تكون كمن قرأ ألف كتاب، ومن يستزده يزده. «ومن إعجاز القرآن أن يظل مشغلة الدارسين والعلماء جيلا بعد جيل، ثم يبقى أبدا رحب المدى سخيَّ المورد، كلما حسب جيل أنه بلغ منه الغاية امتد الأفق بعيداً وراء كل مطمح، عاليا يفوق طاقة الدارسين».

وتجلت عظمة الإسلام في كون معجزتِه الخالدةِ هو القرآن، والقرآن كلام، وكل ما

---

(١)انظر مباحث فى علون القرآن ، الشيخ مناع القطان ، ص٢١،٢٠ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الخامسة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م و مناهل العرفان في علوم القرآن الزرقانى ، جـ١/ ٢٧ ط الكليات الأزهرية ، بدون .

(٢)من كتاب الإعجاز البياني للقرآن – عائشة عبد الرحمن . بنت الشاطئ صـ١٧ . .

عدا الكلام في تغير وتطور مستمر، والكلام البشرى وحده الذي إن لم يقل في عطائه لم يزد، وكل كلام له حد يبلغه معناه، والقرآن لا حد لمعناه وإن حصر كلامُه بين دفتي المصحف .

ثالثاً : مفهـوم الدعـوة :

الدعـوة: لغـة: «الدعوة مصدر للفعل الثلاثي دعا - يدعو - دعوة، وبعض العرب يؤنث الدعوة بالألف فيقول الدعوى، وتأتى بمعنى الدعاء»[1] قال تعالى ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2] كما تكون الدعوة بمعنى الطلب والحث على الشيء. «دعا بالشيء أي طلب إحضاره، ودعاه إلى الشيء حثه على قصده، يقال دعاه إلى القتال والصلاة والدين، ودعاه إلى المذهب أي حثه على اعتقاده وساقه إليه»[3] وتطلق الدعوة على الدعاء حيث تكون ثمت قضية يُراد إثباتها أو الدفاع عنها سواءً كانت حقاً أو باطلاً ، فمن الحق قوله تعالى ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾[4] ومن الباطل حكايةً عن يوسف عليه السلام قوله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾[5]

أي من طاعة النسوة والوقوع في الإثم.والأصل فى الدعوة لغة أن تعتمد على البيان والكلام، وفصاحة اللسان وبلاغة المنطق «الدعوة: أن تُميل الشيء إليك بصوت وكلامٍ يصدر منك، فهي إذن بمعنى البلاغ والبيان، ومنه قوله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً﴾[6]

وتأتى بمعنى الدين أو الرسالة، وكل تعريفٍ لغويٍ يقابله مثله في الاصطلاح.

---

(١) مختار الصحاح ، الرازي ص٢٠٥، ٢٠٦ ، دار الكتاب العربي ، بيروت الطبعة الأولى ١٩٦٧م.

(٢)سورة يونس : الآية رقم ١٠ .

(٣) القاموس المحيط ، الفيروز ابادى ، جـ ٤ / ٣٢٩ التراث العربي ، بيروت ، ط الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

(٤) سورة الرعد : من الآية ١٤ .

(٥) سورة يوسف الآية رقم ٣٣ .

(٦) سورة نوح : الآية رقم ٥

اصطلاحاً: لقد وردت تعريفات عدة للدعوة إلى الله تعالى وذلك بحسب معناها اللغوي، ولذلك يكون تعريف الدعوة في الاصطلاح حسب المدلول اللغوي لها؛ لأن كثيراً من الأساتذة الأفاضل قد تناولوا الدعوة تعريفاً وخصائص ..الخ، وحتى لا يكون كلامي هنا من قبيل التكرار فإني لن أستطرد في تعريفها كثيراً، ولكني أختار تعريفاً أو اثنين للدعوة في الاصطلاح:

١- الدعـوة: بمعنى البلاغ والنشر.. من المعلوم بداهة أن الدعوة بمعنى البلاغ والنشر قد صارت علماً مستقلاً له موضوعه، وخصائصه وأهدافه، وأساليبه ووسائله، وميادينه ومجالاته، وهو بذلك يواكب سائر العلوم الإسلامية، يفيد منها ويشاركها فى خدمة الإسلام، ويرسم له طريقاً منهجياً يكفل الانتشار والذيوع، ولقد ورد فى تعريفها بهذا المعنى «هى إنقاذ الناس من ضلالة، أو شر واقع بهم، وتحذيرهم من أمر يُخشى عليهم الوقوع فى بأسه»[1] وكلمة الدعوة تعنى «اتجاهاً من شخصٍ إلى غيره بأمرٍ من الأمور يرى أن فيه الخير له، يعرضه عليه لاتباعه، فهو بهذا التوجيه إليه وترغيبه فيه يعتبر داعيةً يدعو الناس لاتباع دعوته»[2] فهي فى مجملها تحث الناس على الخير والهدى وتقبله، وتحث الناس على أن يعتادوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ليفوزوا بسعادة الدارين، كما أنى أرى أنه لا منافاة البتة بين التعريفات الاصطلاحية الواردة عن الدعوة، ليست من باب اختلاف التضاد، ولكنها من باب اختلاف التنوع حيث أن كل تعريف من هذه التعاريف عُنى بجانب معين جوانب الدعوة وركز عليه.

الدعوة: بمعنى الدين أو الرسالة: من المعلوم أن الدعوة بمعنى الدين إذا أطلقت لا يراد منها إلا الإسلام بتعاليمه وشرائعه. وعلى ذلك يكون هذا التعريف بهذا المعنى مغايراً للتعريف الأول الذي هو بمعنى البلاغ. وعلى ذلك عرفها العلماء بهذا المعنى

---

(١) الدعوة إلى الإصلاح، د: محمد الخضر حسين، ص١٧، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٦ه الدعوة الإسلامية في عهدها المكي، مناهجها وغاياتها رؤوف شلبى، ص٢٧ ط دار القلم، الكويت١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م.

(٢) مباحث في علم الدعوة، د: عبد الخالق إسماعيل .ص ١٦٠ بدون

عدة تعريفات، أختار منها قيل «هي الضوابط الكاملة للسلوك الإنساني، وتقرير الحقوق والواجبات» وقيل «الدعوة إلى الله: نداء الحق للخلق، ليوحدوا المعبود ﷻ، حنفاء لله غير مشركين به، متبعين غير مبتدعين في ذلك»[1] وعلى ذلك أكون قد عرضت لتعريف الدعوة الإسلامية بمعانيها اللغوية، وقد أكدت من خلال التعريفات التي سبق ذكرها أن الدعوة - في عمومها - تعنى حمل الناس على الخير، وإبعادهم عن الشر.

***

(١) التخطيط للدعوة الإسلامية وأهميته، د: محمد الأحمدي أبو النور ص١٩، دار التوفيق النموذجية، القاهرة ط١ ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.



الباب الأول

الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم

ويشمل أربعة فصول:

الفصل الأول: نشأة علم الإعجاز التأثيري وتطوره

الفصل الثاني: معالم الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم

الفصل الثالث: وسائل الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم

الفصل الرابع: موانع التأثر بالقرآن الكريم





الفصل الأول

نشأة علم الإعجاز التأثيري وتطوره

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: نشأة علم الإعجاز التأثيري

المبحث الثاني: التطور العلمي للإعجاز التأثيري

المبحث الثالث: علاقة الإعجاز التأثيري بأوجه الإعجاز الأخرى

إن القرآن الكريم من لحظة نزوله وإلي أن تقوم الساعة بحرٌ متدفق يغدق الخير والهدي المعرفة علي العالمين، إنه بُغية كل دارسٍ حسب ما يلائم ثقافته ويتلقى منه كل باحث ما يشبع نهمه العلمي وما يوائم حاجته الملحة من معرفة الأحكام والغايات والأخلاق والآداب، إنه منذ نزوله وهو ينابيع ثرّة لنشأة علومٍ شتى وكان هو الحافز إلي النهضة العلمية التي أشرقت علي العالم كله شرقه وغربه وصدق الله إذ يقول **﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾**[1] وهذه الآية توضح بجلاء أن إعجاز القرآن لن ينتهي عند بحث معين ولا يقف عند فكرٍ معين، بل هو مداد لا ينقطع إلي أن تقوم الساعة، كلٌ يأخذ منه حسب مشاربه وأفكاره، والذي يقرأه بتفكرٍ وتدبرٌ وتأملٍ يخرج منه بما يثير إعجابه ويستولي علي لبه وفؤاده، حتى لو كرر القراءة آلاف المرات؛ لأنه في كل مرة يستشعر معنيً جديداً لم يتكشف له في قراءته السابقة، ومن ثم يزداد تأثره ويأخذ القارئ منه موضوعات جديدة، وألواناً من المعارف في شتي المجالات، وهذا الباب الذي أتحدث فيه عن الإعجاز التأثيري للقرآن إنما هو قطرةٌ من بحر القرآن الزاخر باللآلئ والدرر، وأسأل الله أن يكون تبصرة لأولي الألباب وذكري للغافلين وتحذيراً للسادرين.

المبحث الأول: نشأة علم الإعجاز التأثيرى والتأصيل العلمي له:

إن نشأة أي علمٍ تتم بإخراجه إلى الناس،ومعرفتهم به وتجلية ما هو غامض فيه،لإظهار محاسنه ومحامده وينشأ ذلك على يد علماء مخلصين، يوفقهم الله لهذا العمل ولعل موضوع الإعجاز التأثيرى كان من هذا القبيل حيث وفق الله العلماء المخلصين فقاموا بذكر إشاراتٍ واضحةٍ عنه فأخذها عنهم تابعوهم وهكذا.ولكن نشأة هذا الإعجاز التأثيرى للقرآن الكريم قد مرت بمرحلتين هامتين:

المرحلة الأولى: مرحلة النشأة الواقعية: وأعنى بها مرحلة الولادة الأولى لهذا العلم منذ أن كان زيقة[2] صغيرة جداً، فهذا الوجه الإعجازى للقرآن الكريم الذي

(١) سورة الكهف الآية رقم ١٠٩

(٢) هي من كل شئ بدايته وأوله.

أتحدث عنه الآن نشأ أول مرةٍ عند نزول القرآن الكريم على قلب سيدنا محمد ﷺ والأثر الذي أحدثه فيه. فهذا الإعجاز مرتبط ارتباطاً وثيقاً بلحظة نزوله على قلب سيدنا محمد حيث تعلق قلبه بالقرآن تعلقاً يلفت النظر، ويثير الانتباه، ويدعو إلى التعجب والسؤال، ترى ما الذي حدث؟!! حيث ارتبطت قلوب المؤمنين بل والكافرين بالقرآن من أول وهلة؛ حتى عتاةِ المكذبين له - كما سيأتي بيانه - وعلى ذلك يُفهم أن نشأة الإعجاز التأثيرى قديمة قِدَم القرآن الكريم، ومرتبطة ارتباطاً أساساً بلحظة نزول القرآن على قلب النبي ﷺ أو إن شئت فقل لحظة تلاوته وإسماعه للناس وذلك لعدة أمور.

الأمر الأول: ما جاء في الإتقان للإمام السيوطى قوله «إن الله قد أمر في كتابه الكريم الرسول ﷺ بالحرص على إسماع المشركين هذا القرآن فقال ﷻ ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [1] «فهذا الإسماع بمثابة الشعاع الذي يضيء الطريق أمام الحاملين لدعوة الإسلام، ولذلك لا خلاف بين الناس مطلقاً على أن القرآن معجزٌ بنظمه وأسلوبه» [2] وبهذا يُفهمُ أن نشأة الإعجاز التأثيرى للقرآن الكريم ليست وليدة اللحظة، ولكنها قديمة في مهدها، حيث التأثر الحقيقي المنبثق من قلب الحبيب محمد ﷺ تجاه القرآن الكريم بطريق عملي، وكذا فعل أصحابه الكرام - رضوان الله عليهم أجمعين -

الأمر الثاني: إن النبي ﷺ قد اتخذ من هذا الإعجاز التأثيرى للقرآن الكريم، وسيلة قويةً وفعالةً في نفوس المستمعين والمتقبلين لهدى القرآن بطريق الأولى، ولقد أدت هذه الوسيلة دورها المنوط بها وكان لها رد فعلٍ قويٍ في كل من استعملت معه إما قبولاً واعتناقاً للإسلام كما حدث مع سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ وغيره؛ وإما نفوراً وإعراضاً عنه كما حدث مع أبي جهل عليه - لعنة الله - وغيره من الكافرين ممن طمس الله على قلوبهم وأعمى بصائرهم فصدوا عنه وإما إقراراً دون تصديق كما حدث مع الوليد بن المغيرة وكل هذا سيأتي بيانه - إن شاء الله تعالي- في موضعه.

---

(١) سورة التوبة الآية رقم ٦.

(٢) الإتقان في علوم القرآن، الإمام السيوطى، جـ١، ص١١٧، بتصرف، مرجع سابق.

الأمر الثالث: إن الإعجاز التأثيرى في هذه المرحلة - أعنى مرحلة النشأة أو الولادة الأولى - كان يتمثل - وبشكل أساس - في الممارسة العملية أو إن شئت فقل السلوك الفعلي للإعجاز نفسه وذلك بغض النظر عن التأليف فيه، أو وضع قواعد وأصول له، وإنما تدل الشواهد كلها على أن المسلمين كانوا يمارسون هذا النوع من الإعجاز التأثيرى في حياتهم اليومية «وظل الأمر على هذا الحال لمدة قرنين من الزمان، أعنى القرن الأول والثاني الهجريين، يتعظ الناس بالقرآن ويتأثرون به، وتفيض دموعهم خشيةً وخوفاً عند تلاوته، وتستبشر قلوبهم فرحاً عند قراءته، ولقد اتخذ حملة الدعوة الأوائل من قراءة القرآن وتلاوته أمام الناس طريقاً مؤثراً في نفوس من يستمع إليهم، وهذه كانت وسيلةً هامةً بل أهم وسائل الدعوة في ذلك الوقت على الإطلاق». «حتى جاء القرن الثالث الهجري وبالتحديد في الربع الأول منه، لما جاء الجاحظ فألف كتابه «البيان والتبيين» فأشار إشارات عامة وسريعة إلي هذا النوع من الإعجاز وهو الإعجاز التأثيرى فوضع بذلك علامة حمراء أمام الباحثين»[1] وكذلك فعل الإمامان الخطابي والرماني في مطلع القرن الرابع الهجري وبهذا يستبين لكل ذي لبٍ وعقل أن الإعجاز التأثيرى في تاريخه يرجع إلى نزول القرآن الكريم نفسه على قلب النبي ﷺ كما يرجع إلى تلاوة النبي ﷺ على الناس، ولك أن تتخيل معي مدى التأثير العميق الذي يحدث لقلبك عند قراءة القرآن، فما بالك حينما تسمع من النبي ﷺ فالناس في هذا العصر المبكر قد اتخذوه طريقةً مؤثرةً في حياتهم، دون أن تكون له قواعد وأصول يسير عليها الناس سوى التذوق النقى والسليم لكتاب الله تعالى، حتى جاء القرن الثالث الهجري ودخل الإعجاز التأثيرى مرحلةً جديدةً وهذه المرحلة التالية تعنى - في نظري مرحلة التأصيل العلمي للإعجاز التأثيرى.

المرحلة الثانية: التأصيل العلمي للإعجاز التأثيرى:

لقد مر الحديث فيما سبق عن النشأة الأولى للإعجاز التأثيرى، وأكدت أنه ظل هكذا لا يتحدث عنه أحد حتى جاء القرن الثالث الهجري ودخل هذا النوع من الإعجاز مرحلةً جديدةً في أبعادٍ متباينةٍ، فتحدث فيه العلماء منهم من عده وجهاً مستقلاً بذاته

---

(1) انظر البيان والتبيين الجاحظ ج١ / ٢٧٤ دار الجيل بيروت تحقيق عبد السلام هارون ط ١ ١٤١٥ هـ

للقرآن؛ وهم:

١- الإمام الخطابي. ٢- الإمام الباقلانى. ٣- الإمام الجرجاني ٤- الإمام السيوطى.

٥- الإمام ابن القيم.— عليهم جميعاً سحائب الرحمة والرضوان من الله.

وأبدأ الحديث مع هؤلاء العلماء الأعلام اللذين أظهروا للبشرية جمعاء؛ عظمة القرآن الكريم ومقدار أثره في نفوسهم، وأبدأ بالإمام الخطابي حيث أنه أول من أشار إلى هذا.

أولاً: الإمام الخطابي[1] والإعجاز التأثيرى:

إن الإمام الخطابي هو أول من أشار إلى الإعجاز التأثيرى للقرآن الكريم، وعده وجهاً مستقلاً بذاته من وجوه الإعجاز القرآني الأخرى، وذلك بعد أن ذكر أوجه الإعجاز القرآني وحدودها وبيَّن معالمها؛ عاد فأكد أن أهم وجهٍ منها بل أهمها على الإطلاق هو الإعجاز التأثيرى، حيث قال في رسالته «قلت في وجوه إعجاز القرآن الكريم وجهاً آخر؛ ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه في القلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن الكريم منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص له القلب، من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في حال أخرى ما يخلص فيه إليه. تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفَرَقْ، تقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين عقائدها الراسخة فيها، فكم من عدوٍ لرسول الله ﷺ من رجال العرب قد أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، ولما سمعوا آيات الله تتلى لم يلبثوا حين وقعت على مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا

---

(١) الإمام الخطابي هو أبو سليمان حمدُ بن محمد بن إبراهيم الخطابي، ولد في عام ٣١٩هـ له مؤلفات كثيرة يغلب عليها الحديث والفقه مثل معالم السنن، وغريب الحديث، وشرح أسماء الله الحسنى .. الخ، توفى عام ٣٨٨هـ. راجع في هذا سير أعلام النبلاء، جـ١ـ١٧٨، وانظر شذرات الذهب، ابن العماد جـ٣/ ١٢٧، وانظر طبقات الشافعية، السبكي جـ٢/ ٢١٨، وانظر تذكرة الحفاظ للذهبي جـ٢/ ٢٢٤،٢٢٣

إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم مولاةً وكفرهم إيمانا»[1]

وأزيد هذا الكلام تأكيداً وتأييداً بالواقع العملي وهو إسلام عمر بن الخطاب ﷺ عندما سمع القرآن وقع تأثيره في قلبه ووجدانه أيما موقعٍ فأسلم من فوره، وهذا يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن وقْعَ تأثير القرآن الكريم لم يقتصر على المؤمنين فقط؛ بل تعداهم إلى المشركين، فأحدث فيهم الأثر البالغ عندما تقع تلاوته على مسامعهم، ولعل هذا ما دعاهم أن يتواصوا فيما بينهم على عدم سماعهم له؛ حتى لا يتأثروا به، فكانوا يحدثون ضجة وصراخاً مريعاً عند تلاوة النبي ﷺ للقرآن،وكذا أحدثوا تشويشاً على بعض الصحابة الذين كانوا يقرؤون القرآن في ناديهم؛ خوفاً من أن يؤثر في قلوبهم فيؤثرهم ويجذبهم إليه، وهذا مصداق قول الله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[2] وبعد هذا العرض الإجمالي لرأى الإمام الخطابي في الإعجاز التأثيرى أستنتج من كلامه ما يلي :

(أ) إن الإمام الخطابي قد ذكر تعذر تحديد وجه الإعجاز في أول رسالته، وعلى الرغم من ذلك أقر جميع علماء البلاغة بوجوده.

(ب) لم يقبل الإمام الخطابي وجوه الإعجاز في القرآن الكريم برغم أنه ناقشها وفنّد بعضها، وذلك واضحٌ داخل رسالته في الإعجاز .

(ج) أنهى الإمام الخطابي كلامه ببيان رأيه في الإعجاز القرآني علي وجه العموم، وفي الإعجاز التأثيري علي وجه الخصوص ، وهذا واضحٌ في قوله «صنيعه في القلوب، وتأثيره في النفوس»، «ولعله بهذا قد سمي الإعجاز التأثيرى، وله فضل السبق في هذه التسمية.

(د) إن الإمام الخطابي ليس أول من أشار إلى هذا النوع من الإعجاز بل قد سبقه الجاحظ بقوله «الأثر النفسي للكلام » ولكن الإمام الخطابي هو أول من تحدث في هذا

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم (الخطابي – الجرجاني – الرماني) ص٧٠ : ٧٢ .
(٢) سورة فصلت : الآية رقم ٢٦ .

الإعجاز وأسماه.

ثانياً: الإمام الباقلاني[1] والإعجاز التأثيري:

يعتبر القرن الخامس الهجري **«العصر الذهبي»** لفكرة الإعجاز القرآني - حيث نضجت الدراسات وبدأت حركة التأليف ومن العلماء الذين ألفوا في هذا الوقت الخطابي في رسالته في الإعجاز، والباقلاني في إعجاز القرآن، والجرجاني في دلائل الإعجاز..وغيرهم ممن تحدثوا عن إعجاز القرآن الكريم.

لقد ألف الإمام الباقلاني كتاباً مشهوراً أسماه **«إعجاز القرآن»** حيث كان رداً على مطاعن الملاحدة في القرآن الكريم وتضمن هذا الكتاب أهم أفكاره عن فكرة الإعجاز ألخصها فيما يلي:

١ - إن القرآن الكريم هو المعجزة الباهرة عبر الأجيال إلى يوم القيامة، لأن الله قد تحدى به الإنس والجن مجتمعين إلى يوم القيامة وهذا قوله ﷻ **﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾**[2].

٢ - إن القرآن معجزٌ بأسلوبه وبلاغته التي لا سبيل إليها بالتعلم، وأما ما يدرك بالتعلم فلا يعتبر سبيلاً إلى معرفة الإعجاز عن طريقه، وأنه تحدى العرب فعجزوا عن معارضته؛ وأنهم لم يكونوا معروفين عنه، وأنهم لو نجحوا في المعارضة لنقل عنهم **﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**[3].

٣ - إن أقل المعجز في القرآن الكريم هو أقصر سورة منه قال ﷺ **﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾**[4]

---

(١) الإمام الباقلانى هو : محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر القاسم البصرى المعروف بأبى بكر البقلانى ، جتتكم على مذهب الأشعري ولد بالبصرة عام ٣٣٨ هـ وتوفى عام ٤٠٣ هـ . لـه الكثير من المؤلفات منهـا : إعجاز القرآن ، ،أسرار الباطنية ، وغيرها – انظر معجم المؤلفين المجلد ٥/ جـ ١٠ ص ١١١ .

(٢) سورة الإسراء الآية رقم (٨٨)

(٣) سورة هود الآية رقم ١٣ .

(٤) سورة الكـوثـر كاملة .

٤ -أقر الباقلانى بأنه على العربي أن يدرك إعجاز القرآن بإطلاعه على عجز العرب عن مجاراته

٥ - حصر الإمام الباقلانى وجوه الإعجاز القرآني في عشرة أوجه، ذكر فيها نَظْم القرآن وأسلوبه وبلاغته، وتوسع في ذلك كثيراً، ثم أتضح أن القرآن احتوى على تنبؤات عن المستقبل، ثم ذكر أن القرآن معجز في حديثه عن الأحداث الماضية وقصص السابقين.

وأرجع هذا التأثير إلى بلاغة القرآن، حيث وصل إلى أعلى مراتبها فقال «فالقرآن أعلى منازل البيان وأعلى مراتبه فأجمع وجوه الحسن وأسبابه، وطرقه وأبوابه من تعديل النظم، وسلامته، وحسنه ومنهجه، بحسن موقعه في السمع وسهولته على اللسان ووقوعه في النفس موقع القبول، وإذا علا الكلام في نفسه كان له من الوقع في القلوب؛ والتمكين في النفوس ما يذهل ويبهج ويقلق، ويُفرح ويؤنس ويضحك ويُبكى ويُحزن ويُفرح، ويُسكن ويُزعج، ويُشجى ويُطرب، ويهز العواطف ويستميل نحوه الأسماع، ويورث الأدعية والعزة، وقد يبعث على بث المهج والأقوال شجاعةً وجوداً ويرمى السامع من وراءه مرمى بعيداً وله مسالك في النفوس لطيفة، ومداخل إلى القلوب دقيقة»[1]

ومن خلال كلام الإمام الباقلانى أستنتج عدة أمور أهمها:

أ / أن الباقلانى قد عدد أوجه الإعجاز في القرآن الكريم.

ب / عدَّ الإمام الباقلانى الإعجاز التأثيرى ضمن الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم.

ج / ولم يفته أن يذكر قوته التأثيرية علي النفوس والقلوب ، وهذا واضح من كلامه.

ثالثاً: - الإمام الجرجاني[2] والإعجاز التأثيرى:

رائد في علوم البلاغة القرآنية، والنظم القرآني، ولعل أهم كتبه في هذا المجال هو

---

(١) إعجاز القرآن ، الباقلانى ص١٩٢.مرجع سابق

(٢) هو أبو بكر عبد القاهر بن محمد بن عبد الرحمن الجرجاني ، كان شافعياً ، كان عالماً بالعربية ، له مؤلفات عديدة اشهرها دلائل الإعجاز ، وقد ولد عام ٣٩٠ ه ، وتوفي عام ٤٧١ ه

«دلائل الإعجاز» ونظراً لجهوده الفريدة في الحديث عن إعجاز القرآن، أصبح القرن الخامس الهجري أكثر العصور حديثاً عن الإعجاز القرآني، حيث توسع في ذلك، وخطى خطواتٍ واسعةً في ذلك، فأثبت أن إعجاز القرآن في تلاقي الألفاظ بعضها مع بعض، وتآخيها لتدل على المعنى المراد في أسلوبٍ بلاغي بديعٍ فعوّل كثيراً على الحس والتذوق الفني واللغوي للألفاظ والأساليب، وإدراك خصائصها. فيقول «فهو إذن نظمٌ فيه مراعاة حال المنظوم» بعضه مع بعض وليس هو النظم الذي معناه «ضم الشئ كيف جاء واتفق» [1] والواضح لي من خلال قراءة كتاب دلائل الإعجاز أنه كان حريصاً كل الحرص على بيان مكانة الذوق الأدبي، والطبع والحس الفني والمتعة الفنية، لذلك بنى نظريته على فكرة النحو ومعاني النحو؛ متوخياً في ذلك استشارة العقل ومنطقه، ثم النفس ورضاها وفطرة الإنسان التي ترتاح لها، ويجد في نفسه هزة عندما يشعر بجمال النظم وبديع القول، وبالتالي فهو إذن يقرُ بالقوة التأثيرية للقرآن الكريم في النفوس، ويشهد لهذا الأستاذ سيد قطب فيقول «كاد الجرجاني أن يصل في كتابه دلائل الإعجاز القرآني على القارئ والمستمع من خلال حديثه الإبداعي في الأسلوب الذي امتاز به القرآن، فلولا أن قضية المعاني والألفاظ ظلت تخايل له من أول كتابه إلى آخره، فصرفته عن كثيرٍ مما كان وشيكاً أن يصل إليه، ولكنه على الرغم من ذلك كله كان أنفذ حساً من كل من كتبوا في هذا الباب على وجه العموم حتى في العصر الحديث» [2] والواضح لي أن الجرجاني قد تأثر كثيراً بسلفه الخطابي في نظرته الرائعة حول إعجاز القرآن الكريم، حتى قال بعض العلماء «إن مما يتميز به الإمام الخطابي أنه أبرز وجها للإعجاز وهو الأثر النفسي، وأصبح هذا الرأي أساسا من أسس نظرية الجرجاني في النظم في كتبه وكتب بعض المعاصرين في الأدب» [3] ويؤكد هذا أيضاً الخطيب فيقول «إن عبد القاهر الجرجاني لم يتحدث عن الإعجاز حديثاً مباشراً، وإنما جعل وجه الإعجاز عنده يقوم على الذوق الوجداني، وهذا الأمر كان من الجديد الذي أضافه الجرجاني للبلاغة العربية، حيث كان المفهوم السائد أن

(١) - دلائل الإعجاز الجرجاني صـ ١٥٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب تعليق محمود شاكر

(٢) - التصوير الفني للقرآن سيد قطب صـ ٢٩ دار المعارف الطبعة التاسعة بدون تاريخ

(٣) في إعجاز القرآن الكريم د محمد بركات صـ ١٠٨ في المكتبة الدولية مؤسسة الخافقين ١٤٠٣هـ

البلاغة تقوم على الجدار اللفظي البعيد عن الذوق الجمالي، ولو لم يكن الجرجاني إلا هذا لكان فضلاً كبيراً له يعرف به ويحمد عليه»[1].

لقد تحدث الإمام الجرجاني في دلائل الإعجاز عن الإعجاز التأثيرى للقرآن وذلك بعد أن ساق عدة أمثلة في رسالته (الشافية) من كتابه ودلل بهذه الأمثلة على أن الإعجاز التأثيرى من أهم وجوه الإعجاز القرآني ومثل لذلك بالوليد بن المغيرة، عتبة بن ربيعة وغيرهم، وسيأتي ذكر هذا في موضعه - إن شاء الله -.

ومن خلال ما سبق أستطيع أن ألخص نظرية الجرجاني في الإعجاز فأقول:

١ - أكد الانتصار لقضية المعنى والنظم على قضية اللفظ.

٢ - حاول الانتصار لفكرة إعجاز القرآن الكريم وإثباتها بنظريات قوية ومقبولة.

٣ - أقر بالنزول على رأى أهل السنة والجماعة من خلال ما قام به حول نقضه لفكرة المعتزلة التي كانت تقول بخلق القرآن الكريم.

٤ - أثبت الجرجاني أن التحدي واقعٌ في النظم والتأليف، وحصر النظم في معاني النحو وأحكامه، فيما بين الجمل والكلمات والفقرات، فالكلمات في الجملة لا يجمعها ويؤلفا إلا النحو، وحصره أيضاً في دروب المجاز والبديع والاستعارة، كل ذلك من لوازم النظم ومقتضياته وألوانه.

وإني أستنتج من خلال هذه النظرية الموجزة والمختصرة للإمام الجرجاني عدة نتائج أهمها:

أ/ للقرآن الكريم أثرٌ جلي علي القارئ والسامع له، وهذا قد بدا واضحاً جلياً في كلام الإمام الخطابي.

ب/ ما تحدث به الجرجاني عن النظم البلاغي وتحليله تحليلاً لغوياً يبرز من خلاله الأثر اللغوي على من يقرأ أو يسمع، وفى هذا دلالة على الإعجاز التأثيرى للقرآن الكريم،

---

(١) الإعجاز في دراسات السابقين، عبد الكريم الخطيب، ص٢٧٩، دار الفكر، بيروت.

ومما يؤكد صحة استنتاجي هذا كلام الإمام الخطابي نفسه حيث يقول في رسالته في باب اللفظ والنظم قوله «لهذا الوجه أثر في النفس، وحسناً وقبولاً له، ثم ذكر قوله تعالى ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1]

وقال الجرجاني «وليس بخاف أن لتقديم الشركاء حسناً وروعةً ومأخذاً للقلوب، أنت لا تجد منه شيئاً إن أنت أخرت فقلت وجعلوا الجن شركاء لله، وأنت ترى حالك حال من نُقل عن الصورة المبهجة والمنظر الرائق، والحس الباهر، إلى الشيء الغُفْل الذي لا تحلى منه بكثير طائل، ولا تصير النفس به إلى حاصد والسبب في ذلك أن كان ذلك كذلك، وأن للتقديم فائدة شريفةً، ومعنىً جميلاً لا سبيل معه إلى التأخير، وإن كنا نرى جملة المعنى ومحصوله أنهم جعلوا الجن شركاء وعبدوهم مع الله تعالى، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم، فإن تقديم الشركاء يفيد هذا المعنى، ويفيد معه معنى آخر هو أنه ما كان ينبغي أن يكون لله - تعالي - شريك لا من الجن ولا من غير الجن»[2] .

وذكر أيضاً في قوله تعالى ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[3]

ويقول الجرجاني «إذا أنت راجعت نفسك، وأذكيت حسك وجدت لهذا التنكير» حياة «حسناً وروعة وجمالاً، ولطف موقعٍ لا يُقادر قدره، وتجدك تعدِم ذلك الحس الجليل مع التعريف وتخرج عن الأريحية والأنس إلى خلافها، والسبب في ذلك أن المعنى على الازدياد من الحياة لا الحياة من أصلها، وذلك أنه لا يحرص عليه إلا الحى، فأما العادم للحياة فلا يصح منه الحرص على الحياة ولا على غيرها»[4]

---

(١) سورة الأنعام : الآية رقم ١٠٠.
(٢) دلائل الإعجاز ، الجرجاني ص٢٨٦ ، مرجع سابق .
(٣) سورة البقرة : الآية رقم ٩٦ .
(٤) دلائل الإعجاز ،ص٢٨٨ ، مرجع سابق .

ج- أن الجرجاني قد جعل وجه الإعجاز في النظم، وجعل النظم سبباً هاماً من أسباب التأثير في النص القرآني عند السامع والقارئ له حتى قال في رسالته (الشافية) من دلائل الإعجاز «من ذا الذي يرضى من نفسه أن يزعم أن البرهان الذي بان له - العرب - والأمر الذي بهرهم، والهيبة التي ملأت صدورهم، والروعة التي دخلت عليهم فأزعجتهم حتى قالوا «إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة» إنما كان لشيء راعهم من موقع حركاته، ومن ترتيله وبيان سكناته، أو التواصل في أواخر آياته»[1].

وأنت بهذا تلحظ بأنه بنى التأثير للقرآن الكريم على قارئه وسامعه على النظم في اللفظ، ولذلك جعل في دلائل الإعجاز باباً كاملاً أسماه باب اللفظ والنظم.

ولما كانت اللغة مطايا للمعاني تبدى لدى الأوائل أن الكلام من حيثيات مختلفة مقصود التحدي فأبدى المختصون منهم وجوه الإعجاز فيما يتعلق بلغة القرآن ونظمه، وأساليب الكلام وسائر ما عَنَّ لهم وعَرض في دراستهم . فتشعبت في ذلك الفنون والعلوم، ونشأت المعارف.

وحين تَحَوَّل العرب من جودةٍ إلى اختلالٍ في أركان القريحة العربية في قواعدها وألفاظها نجد تحولاً عجيباً يؤكد بقاء هذا الكتاب على نفس صورة عظمته لدى الأوائل، فكانت وجوه الإعجاز مضيئة لعمر الأمة الخاتمة منذ عهدها الأول وحتى عصرنا هذا، وإلى ما شاء الله.

لذلك كان علينا أن نستزيد من العلم بالقرآن بكثرة مدارسته، فإنه لا يخلق على كثرة الرد، بل تَرْكُه دون التأثر به والتدبر لآياته هو - في نظري - أفدح خسارة وأي خسارة!!!

رابعاً الإمام السيوطى[2] والإعجاز التأثيرى:

تحدث- رحمه الله تعالى - عن وجوه الإعجاز القرآني المتعددة وذلك في كتابه «معترك

---

(١) المرجع نفسه ص٣٨٨ .

(٢) هو أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، ولد عام ٨٤٩ ه وأخذ علمه عن شيوخ كبار وتوفي عام ٩١١ ه أي عن عمرٍ يناهز الستين ، وله مؤلفات كثيرة منها «تفسير الدر المنثور» وكتاب « الإتقان في علوم القرآن» وغيرها .... انظر في هذا «شذرات الذهب» لابن عماد الحنبلي ج ٨/ ٥١.

الأقران» وذكر منها وجهاً يتمثل في الروعة التي تلحق قلوب وعقول سامعيه، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوة القرآن؛ بقوة حاله وإبانة خطره، وهي على المكذبين به أعظم حتى كانوا يستثقلون سماعه ويزيدهم نفوراً، قال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[1].وقال الإمام السيوطى «أما المؤمن فلا تزال تأخذه روعة القرآن، وهيبته عند سماع تلاوته فتوليه انجذاباً، وتكسبه هشاشةً لميل قلبه إليه، قال تعالى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[2] ويدل على هذا شيء خُصَّ به بحيث يتأثر به من لا يفهم معناه، ولا يعلم تفاسيره، كما روى عن نصراني أنه مر بقارئ فوقف يبكى فقيل له لم بكيت؟ قال للشجاعة والنظم، وهذه الروعة قد اعترف بها جماعة قبل الإسلام ....فمنهم من أسلم بها لأول وهلة وآمن به، ومنهم من كفر.ويستشهد الإمام السيوطى لذلك بالراوية التي وردت في الصحيح.عن جبير بن مطعم قال سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب﴿وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ فلما بلغ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾[3] قال كاد قلبي أن يطير وفى رواية أخرى قال « ذلك أول ما دخل الإيمان قلبي»[4].

وإني أستنتج من خلال ما سبق «من كلام السيوطى» ما يلي:

أ / تحدث الإمام السيوطى عن وجوه الإعجاز القرآني وعددها جميعاً أعني أنه ذكر كل أوجه الإعجاز .

ب / يؤكد الإمام علي القدرة التأثيرية للقرآن الكريم وقد عده وجهاً مستقلاً بذاته من أوجه الإعجاز القرآني

ج / أكد على الإعجاز التأثيرى تأكيداً هاماً في بعض صفحات من كتبه بالتصريح

---

(١) سورة فصلت الآية رقم ٢٦.

(٢) سورة الزمر الآية رقم ٢٣ .

(٣) سورة الطور الآيات من ١ إلي ٣٥ .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحة كتاب تفسير ، سورة والطور ، ج ٤ / ١٨٩٣ برقم ٤٥٧٣ .

تارة وبالتضمين أخري.

خامساً: الإمام ابن القيم[1] .والإعجاز التأثيرى.

لقد تحدث الإمام ابن القيم عن التأثير القرآني في نفوس من يسمعه أو يقرأه، وذلك في أول كتابه الفوائد «عندما تحدث عن الفائدة الجليلة التي سماها» شروط الانتفاع بالقرآن «ومما جاء في هذه الفائدة قوله «إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به - ﷻ- من إليه فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ﷺ قال تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[2] وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثرٍ مقتضٍ ومحلٍ قابلٍ وشرطٍ لحصول الأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأوله على المراد «وقوله» إن في ذلك لذكرى «إشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى هنا وهذا هو المؤثر، وقوله ...«لمن كان له قلب» فهذا هو المحل القابل والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله كما قال تعالى ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[3] أي حي القلب وقوله «أو ألقى السمع» أي وجه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثر بالقرآن. وقوله «وهو شهيد» أي شاهد القلب حاضر غير غائب. قال ابن قتيبة «استمع كلام الله وهو شاهد الفهم حاضر القلب، ليس بغافلٍ ولا ساهٍ، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب وغفلته وغيبته عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله، فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحى ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب. وذهوله عن معنى الخطاب، وانصرافه

---

(١) هو محمد بن أبي بكر بن سعد بن حريز الزرعي – نسبة إلي بلدة أزرع – الدمشقي ، كان من أجلة العلماء ، وكان أبوه كذلك ، وقد كان قيّماً علي مدرسة الجوزية وهي مدرسة بدمشق ، وأخذ العلم عن علماء أجلاء كلٌ في تخصصه ففي العربية قرأ علي أبي الفتح البعلي ، والفقه علي إسماعيل الحرابي ، وهكذا ولد في عام ٦٩١ هـ/ ١٢٩٢ م وتوفي في عام ٧٥١ هـ/ ١٣٥٠ م .وله في فنون العلم المختلفة ما يربو علي الستين مؤلفاً .

(٢) سورة ق الآية رقم ٣٧ .

(٣) سورة يس الآية رقم ٧٠.

عنه إلى آخر حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر» ومن خلال كلام ابن القيم يفهم أنه يركز على مسألة حصول المؤثر القوى وهو القرآن، فالإعجاز التأثيرى للقرآن قوةٌ كبيرةٌ تزلزل الكيان الإنساني كله: وعليه فهو يعلق على مسألة القلب فيقول: «القلب الحي: إذا كان التأثير إنما يتم بمجموع هذه، فما وجه دخول أداة «أو» في قوله «**أو ألقى السمع**» والوضع موضع واو الجمع لا موضع «أو» التي هي لأحد الشيئين؛ قيل هذا سؤال خير، والجواب عنه أن يقال: خرج الكلام باعتبار حال المخاطب المدعو، فإن من الناس من يكون حي القلب واعيه تام الفطرة، فإذا فكر بقلبه، وجال بفكره دله قلبه وعقله على صحة القرآن وأنه الحق، وشهد قلبه بما أخبر به القرآن الكريم، فكان ورود القرآن على قلبه نورا على نور الفطرة، وهذا وصف الذين قيل فيهم ﴿**وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾[1] وقال في حقهم ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾[2] «فهذا نور الفطرة على نور الوحي، وهذا حال صاحب القلب الحي الواعي فهو يجمع بين قلبه وبين معاني القرآني، فيجدها كأنها قد كتبت فيه، فهو يقرؤها عن ظهر قلب ومن الناس من لا يكون تام الاستعداد، واعيَ القلب، كامل الحياة، فيحتاج إلى شاهد. ليميز له بين الحق والباطل، ولم تبلغ حياة قلبه ونوره وذكاء فطرته بلغ صاحب القلب الحى الواعي فطريق حصول هدايته أن يفرغ سمعه للكلام وقلبه للتأمل والتفكر فيه وتعقل معانيه، فيعلم حينئذ أنه الحق

فالأول: حال من رأى بعينه ما دُعي إليه وأخبر به.

والثاني: حال من علم صدق المخبر وتيقنه وقال يكفيني خبره، فهو حينئذٍ في مقام الإيمان، والأول في مقام الإحسان، هذا قد وصل إلى علم اليقين وترقى قليلة منه إلى منزلة

---

(١) سورة سبأ الآية رقم ٦ .

(٢) سورة النور الآية رقم ٣٥

عين اليقين، وذاك معه التصديق الجازم الذي خرج به من الكفر ودخل به في الإسلام، فعين اليقين نوعان نوع في الدنيا، ونوع في الآخرة فالحاصل في الدنيا نسبته إلى القلب كنسبة الشاهد إلى العين، وما أخبرت به الرسل من الغيب يعاين في الآخرة بالأبصار، وفى الدنيا بالبصائر، فهو عين يتعين في المرتبتين»[1].

وفى نهاية كلام ابن القيم: أستطيع أن أستنتج من كلامه عدة أمور أهمها

١ - أنه أقام الإعجاز التأثيرى للقرآن الكريم على أركان، هذه الأركان هي في نظره طرق التأثر بالقرآن الكريم - وهذه الأركان كما يرى هو:

.(أ) المؤثر القوى الذي تحدث عنه فقال: فإذا حصل المؤثر وهو القرآن فهو يعنى بالمؤثر القوى القرآن.

(ب) أدوات التلقي الذي تحدث عنها فقال المحل القابل وهو القلب الحى والشرط هو الإصغاء يعتبر ابن القيم أن أدوات التلقي تكمن في القلب كوعاء يدخله القرآن، والإصغاء هو الإشارة التي يعطيها السمع للقلب

(ج) الرغبة القوية والملحة من السامع فيما يسمع أو يُتلى عليه ويتعقله جيداً، حتى يحصل التأثر القوى

٢ - نبه ابن القيم على انتقاء الموانع التي تعرقل حصول التأثير على السامع من خلال استماعه للقرآن أو تلاوته له، أي ما كانت هذه الانحرافات.ولم ينبه ابن القيم في كلامه على أثر القرآن الكريم على الكافر، ولعل هذا الأثر من أهم مظاهر الإعجاز التأثيرى.

* * *

(١) الفوائد ابن القيم صـ ٧ مرجع سابق

المبحث الثاني: تطور الإعجاز التأثيري:

في المبحث السابق تحدثت عن التأصيل للإعجاز التأثيرى كوجه مستقلٍ بذاته من أوجه الإعجاز القرآني، وذلك من خلال أقوال العلماء القدامى - الأُوَل - الذين أضاؤا لنا الدنيا بنور العلم والمعرفة؛ وإني في هذا المبحث أعنى بالتطور ما تناوله العلماء المحدَثون من قضية الإعجاز التأثيرى ومراحل هذا التطور، وذلك أيضاً من خلال أقوال العلماء في ذلك وبيانه على الوجه التالي:

أولاً: الأستاذ محمد فريد وجدي[1] والإعجاز التاثيرى:

إنه يقرر- رحمه الله - وجه الإعجاز التأثيرى للقرآن الكريم في النفوس، ويعده الوجه الأول من وجوه إعجاز القرآن الكريم، ويخالف من اعتبر البلاغة والبيان الوجه الرئيس لإعجاز القرآن الكريم، فهو يعتبر أن من قال إن البلاغة هي الناحية الوحيدة لإعجازه، وهى أكثر نواحي الإعجاز سلطاناً على النفس فقد جانب الصواب، لأنه يعتبر أن هذا الإعجاز الناتج عن هذا الوجه يأخذ في هذا الضعف والتقلص شيئاً فشيئاً بتكرار سماعه، فلم يُحدث في النفس ما يُحدثه في أول سماعه، وقد أثبت أن تكرار تلاوته تزيده تأثيراً وبالتالي يتضح أنه معجزٌ بالسلطان العجيب الذي يملكه القرآن في تأثيره داخل النفوس عند استماعها لآياته المرتلة، وهى في نظر الشيخ وجدي «أن القرآن روح من أمر الله - تعالى - وذلك قوله ﷻ

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2] ، فهو يرى

---

(١) محمد فريد مصطفي وجدي ولد ١٢٩٥ه/ ١٨٧٧ م ونشأ بالآسكنرية وتعلم بها ثم انتقل إلي القاهرة لاتمام تعليمه ، وكان باكورة أعماله «الاسلام والمدنية» الذي كان مثار إعجاب المنصفين شرقاً وغرباً وقد جعله بعضهم في مرتبة رسالة التوحيد ، وقد ترأس تحرير مجلة الأزهر ثمانية عشر عاماً فارتفع مستواها وأدخل بها فصولاً لكتاب الغرب تحمل شبهاتٍ مغرضة وتناول الرد عليها ، وكان له اتجاه حول الأبحاث الروحية حول التنويم المغناطيسي وغيره وتوفي عام ١٣٧٣ ه/ ١٩٥٤ م ومن مؤلفاته مهمهة الإسلام في العالم ، معالم الإسلام ، الوجوديات ، الحديقة الفكرية ، إعجاز القرآن.

(٢) سورة الشورى : الآية رقم ٥٢.

أن القرآن يؤثر في النفوس تأثير الروح في الجسد فتحركه ثم يقول «إن للقرآن فوق البلاغة والعذوبة والحكمة والبيان» روحانية «يدركها من لهم فهم القرآن، وتقدير الحكمة وإدراك البلاغة، وترى الطفل والعامي كيف يعتريهما تهيبٌ عند تلاوته، ولو بغير صوتٍ حسنٍ حتى أنهما ليكادان يفرقان بين ما هو قرآن وما ليس بقرآن فيما إذا أراد التالي أن يغشهما؛ وتظهر هذه الروحانية ظهوراً جلياً واضحاً عندما تكون آية من آيات القرآن بين السطور فتظهر وكأنها الشمس في رابعة النهار مهما كانت درجة تلك الصفحة من البلاغة والبيان وجمال الأسلوب، هذه الروحانية التي امتاز بها القرآن تظهر للعارف باللغة العربية وللجاهل بها، أما ظهورها للعارف فبيّنٌ واضح ولا يحتاج إلى بيان، وأما ظهورها للجاهل من الأمم الأعجمية فبتأثيرها ونتيجتها»[1].

ثانياً: سيد قطب[2] والإعجاز التأثيري:

لقد أوضح سيد قطب - صاحب الظلال - أن الإعجاز القرآني ظاهر وواضح في كل آيات القرآن، حتى في الآيات الأولى التي خلت من العلوم الكونية والتشريعات، ويرى أن الإعجاز في بيان القرآن، وأسلوبه ونسقه البياني، وتصويره الفني المؤثر في النفوس، وعبرَّ عن ذلك بمصطلح (تأثير القرآن على سامعيه) وأرجع هذا التأثير إلى تذوق الجمال الفنى في القرآن الكريم، ووضعه تحت عنوان **«كيف نفهم القرآن»** وذكر أن الجمال الفنى في القرآن الكريم؛ والسحر البياني والتأثير الحقيقي للقرآن الكريم قد مرّ بمراحل ثلاث ذكرها باستفاضة، وألخصها فيما يلي:

المرحلة الأولى: مرحلة التذوق الفطري المباشر:

وهذه المرحلة هي التي قام بها الصحابة الأجلاء، حيث لم يعللوا ما كانوا يجدونه

---

(١) إعجاز القرآن الكريم، محمد فريد وجدي، ص٣٤٨،٣٤٤، بتصرف، نقلاً عن دائرة المعارف، القرن العشرين جـ٧ـ٦٧٥.

(٢) الشيخ سيد قطب ولد في بداية القرن التاسع عشر ثم أنهي دراسته وعين في عام ١٩٣٣ مدرساً بإحدي المدارس، وانضم للإخوان المسلمين عام ١٩٤٦، وتم القبض علي وأعدم عام ١٩٦٦ م. ومن مؤلفاته في ظلال القرآن، والتصوير الفني في القرآن

من أثرٍ للقرآن في نفوس المؤمنين به، ونفوس الذين أوتوا العلم من قبله وتأثيره البالغ فيهم.

المرحلة الثانية: مرحلة إدراك بعض مواضع الجمال الفنى في القرآن:

وهذه المرحلة تعنى باختصار العصر الذي يلي عصر الصحابة، وفى ذلك يقول سيد قطب «فإذا تجاوزنا عصر نزول القرآن، رأينا بعض الصحابة يتعاطون تفسير القليل منه اعتماداً على القليل المنقول عن النبي ﷺ، وبعضهم يحاول في حذرٍ خشية أن يؤول بعض الآيات، وبعضهم يُمنع من هذا خيفة أن يكون فيه مأثم ديني»[(١)] وقد ساق أمثلة على هذا منها ما روى عن سعيد بن المسيب «أنه كان إن سئل عن شيء من القرآن قال أنا لا أقول في القرآن شيئاً»[(٢)] وقال ابن سيرين «سألت عبيدة عن شيء من القرآن فقال اتق الله، وعليك بالسداد، فقد ذهب الذين يعلمون فيمَ أُنزل القرآن »[(٣)] وعن هشام بن عروة بن الزبير قال «ما سمعت أبى تأول آية من كتاب الله»[(٤)] وهذا كله إن دل على شيء فإنما يدل على مباشرة التأثير القرآني للقلوب، وروعة الانبهار التي تؤثر في النفوس، وأمارات المفاجأة بهذا النسق المعجز إلى حد الدهشة والاستسلام، ثم ذكر أن بعض الأدباء والمفسرين أدركوا مواضع الجمال المتفرقة في القرآن الكريم فقال «فهذا رجل متأخر نوعاً ما كان يقع له بين الحين والحين شيءٌ من التوفيق في إدراك بعض مواضع الجمال الفنى في القرآن، يقصد بذلك الزمخشرى وذلك كقوله في تفسير قوله تعالى ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[(٥)] كأن الغضب كاد يغريه على ما فعل، ويقول له قل لقومك كذا وألق بالألواح، وجر برأس

---

(١) التصوير الفنى في القرآن الكريم ، سيد قطب ص٢٤ ،٢٥ ، مرجع سابق .

(٢) أخرجه بن سعد في الطبقات الكبرى ، جـ٢ ص٣٨١ ، باب ذكر من كان يسقى بعد أصحاب رسول الله ﷺ من أبناء المهاجرين والأنصار ، دار صادر بيروت ، بدون تاريخ .

(٣) أخرجه بن منصور في سننه جـ١ / ١٨٥ كتاب فضائل القرآن ، برقم ٤٥ ، دار العصيمى ، الرباط ، ط١ ١٤١٤هـ ، تحقيق سعد بن عبد الله آل حميد ، أخرجه ابن أبى شيبة في مصنفه جـ٦/ ١٣٥ ،كتاب فضائل القرآن ، باب من كره أن يفسر القرآن ، برقم ٣٠٠٩٩ ، مكتبة الرشد ، الرياض ، بدون تاريخ .

(٤) انظر تفسير الحافظ بن الكثير جـ ١ صـ ٧ مرجع سابق

(٥) سورة الأعراف الآية رقم ١٥٤ .

أخيك إليك، وهو توفيق كما ترى محدود، ينقصه التبلور والوضوح، فإن أبرز وأجمل ما في التعبير هو تشخيص الغضب كأنه إنسان يقول ويسكت، ويغرى ويصمت، فهذا التشخيص هو الذي أكسب التعبير جمالاً، وهو الذي أدركه الزمخشرى، فهذا نوع من التوفيق في تصوير التناسق النفسي بين الأحاسيس المتابعة المنبعثة من تتابع الآيات، وهذا لون من ألوان التناسق الفنى في القرآن الكريم»[1].

المرحلة الثالثة: مرحلة إدراك الخصائص العامة:

يقول «وهذه المرحلة التي لم يصل إليها أحد لا في الأدب ولا في القرآن، وبذلك بقى أهم مزايا القرآن الفنى مغفلاً خافياً، وأصبح لابد لدراسة التعبير في هذا الكتاب المعجز من منهج للدراسة من جديد، ومن بحثٍ عن الأصول العامة للجمال الفنى فيه، ومن بيان السمات المضطردة التي تميز بها هذا الجمال عن كل ما عرفته البشرية من قول البشر»[2] فهو يعنى أن هذه المرحلة لم يصل إليها أحد من السابقين ولم يبينوها، فهي تكمن في التصوير الفنى للأسلوب القرآني، ويعتبر التصوير الفنى في القرآن من أمور الإعجاز التي امتاز بها القرآن على غيره من الكلام، حيث ورد في الكثير من الآيات القرآنية تصوير المعنى الذهني في صورة حسية، وكأنها واقعة ملموسة وشاهدة أمام القارئ، فتنطبع في ذاكرته ووجدانه، وهذا أبلغ في التأثير، وأوقع في النفوس، فالإنسان قد ينسى قصة يسمعها ولكنه لن ينسَ مشهداً أو صورةً رائعةً رآها، ويحصل الإعجاز التأثيرى للقرآن في النفوس بمجرد السماع لتلاوته؛ حتى في الذين لا يعرفون العربية، وفى عوام الناس، عندما يستمعون إليه فإنه لا يطرق عقولهم فقط ولكنه يطرق قلوبهم بإيقاعه، ثم تظهر في ملامحهم آثاره، وبخصوص هذا أكد سيد قطب في الظلال قضية الإعجاز التأثيرى فقال «إن كل آية وكل سورة تنبض بالعنصر المستكن العجيب المعجز في القرآن الكريم، وإن الكيان الإنساني ليهتز ويرتجف ويتزابل، ولا يملك التماسك أمام هذا القرآن كلما تفتح

(١) التصوير الفنى في القرآن، سيد قطب، ص٣٠، مرجع سابق.
(٢) المرجع نفسه، ص٣٢،٣١.

القلب، وصفى الحس، وارتفع الإدراك، وارتقت حساسية التلقي والاستجابة»[1].

ثالثاً: الشيخ محمد الغزالي[2] والإعجاز التأثيري:

إن الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - من العلماء الذين تحدثوا عن الإعجاز التأثيرى باستفاضة، وكان متدبراً لكتاب الله تعالى، حتى إني سمعته في إحدى محاضراته يذكر أنه لم ينته بعد من ختم القرآن الكريم تدبراً، وله كتاب ألفه تحت عنوان «**نظرات في القرآن**» عقد فيه فصلاً كاملاً عن الإعجاز في القرآن الكريم، وبدأ أول حديث له عن الإعجاز، بالإعجاز التأثيرى الذي أطلق هو عليه اسم «الإعجاز النفسي» ثم عقب بعد ذلك بالإعجاز العلمي، ثم الإعجاز البياني، وتحدث عن الإعجاز النفسي فقال «إن الوحي الإلهي ليس مجموعة من العلوم رصت في كتاب ثم قُدمت للناس، إن عماد هذا الوحي - بعد تقدير الحق الذي جاء به - هو كيف يغرس هذا الحق في النفوس، وكيف يفتح أقطارها له، وكيف تبقى عليه وإن تعرضت للفتن، وكيف يبقى فيها وإن زاحمه الباطل وضيّق عليه الخناق بصنوف المرحات ...»[3]

وهكذا يؤكد الشيخ على أن الأحكام الواردة في القرآن يجب أن تتشربها القلوب وتعيها النفوس ولذا يقول «إن وحدانية الله - ﷻ - أمُ العقائد الإسلامية، ومبدأ التوحيد لا يحتاج في بيانه إلى كراسات أو مجلدات، بل كلمة التوحيد تكتب في سطر وتنطق في لحظات، فهل كذلك الأمر في إشراب القلوب حقيقة التوحيد؟!! الأمر هنا يحتاج إلى إفاضة واستطراد، حتى يُستطاع التغلب على طبيعة الإنسان المعاندة، وإغلاق كل منفذ

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، جـ٥/ ٢٨٠٥، دار الريان، ط١٩ / ١٤١٢هـ.

(٢) محمد الغزالي السقا الداعية المجدد ولد عام ١٣٣٥هـ/ ١٩١٧م بقرية نكلا العنب مركز إيتاي البارود محافظة البحيرة، وقد سماه أبوه بهذا السم تيمنًا بحجة الإسلام «أبو حامد الغزالي» تعلم بالأزهر وتدرج في التعليم حتي وصل إلي الشهادة العالية بكلية أصول الدين عام ١٩٤١م، وتلقي التعليم علي يد الزرقاني، ومحمود شلتوت، وكان يوجز الحديث وتوفي عام ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، وله مؤلفات كثيره تصل إلي ٥٥ مؤلفاً منها، نظرات في القرآن، من معالم الحق، هموم داعية.

(٣) نظرات في القرآن الكريم، محمد الغزالي ص١٢٢، دار الكتب الحديثة، ط٥، بدون تاريخ.

يمكن أن تهرب منه»[1] ولذلك يقول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾[2].

وحديث الشيخ الغزالي في الإعجاز يحمل عدةَ نقاطٍ هامةٍ يدور حولها حديثه عن هذا الموضوع، فهو يقول عن مكانة الإعجاز التأثيرى «قد تجد في القرآن حقيقة مفردة، ولكن هذه الحقيقة تظهر في ألف ثوب وتتوزع تحت عناوين شتى، كما تذوق السكر في عشرات من الطعوم والفواكه، وهذا التكرار مقصود وإن لم ترد به الحقيقة العلمية في مفهومها، وذلك أن الغرض ليس تقرير الحقيقة فقط، بل بناء الأفكار والمشاعر عليها، والتقاط آخر ما تختلقه اللجاجة من شبهات وتعلات، ثم الكر عليها بالحجج الدامغةحتي ينقي النفس وليس أمامها مفر من الخضوع للحق والاستكانة لله، وعندي أن قدراً كبيراً من إعجاز القرآن الكريم يرجع إلى هذا؛ فما أظن أن امرأ سليم الفكر والضمير يتلو القرآن ويستمع إليه ثم يزعم أنه لم يتأثر به، قد تقول: ولمَ يتأثر به؟ والجواب أنه ما من هاجس يعرض للنفس الإنسانية من ناحية الحقائق الدينية إلا ويعرض القرآن له بالهداية وسداد التوجيه، ما أكثر ما يفر المرء من نفسه، وما أكثر الذين يمضون في سبيل الحياة هائمين على وجوههم، ما تمسكهم بالدنيا إلا ضرورات المادة فحسب»[3].

وهكذا يمضى الشيخ فيؤكد مكانة الإعجاز التأثيرى للقرآن الكريم، فهي مكانة رفيعة عالية، فقال «إن القرآن الكريم بأسلوبه الفريد يرد الصواب إلى الناس جميعاً، وكأنه عرف حقائق كل ذي حقيقة، وزلة كل ذي زلل، ثم تكفل بإزاحتها كلها، كما يعرف الراعي أين تاهت خرافه، فهو يجمعها من هنا وهناك، لا يغيب عن بصره واحد منها، وذلك سر التعميم في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾[4]، حتى الذين يُكذِّبون بالقرآن ويرفضون الاعتراف بأنه من

---

(١) المرجع نفسه، ص١٢٥.

(٢)سورة الكهف: الآية رقم ٥٤.

(٣) نظرات في القرآن، محمد الغزالي، ص١٢٣، مرجع سابق.

(٤) سورة الكهف: من الآية ٥٤.

عند الله، إنهم يقفون منه كما يقف الماجن أمام أبٍ ثاكلٍ، قد لا ينخلع من مجونه الغالب عليه ولكنه يؤخذ فترة ما يصدق العاطفة البالية، أو مثلما يقف الخلي أمام خطيبٍ يهدر بالصدقِ، ويحدث العميان عن اليقين الذي يرى ولا يرون، إنه قد يرجع مستهزئاً، ولكنه يرجع بغير النفس التي جاء بها، والمنكرون من هذا النوع لا يطعنون في التأثير القوي للقرآن الكريم كما أن العميان لا يطعنون في قيم الأشعة»[1] ومن ثم يقول الله ﷻ ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** ﴾[2] وبهذا يكون الإعجازَ التأثيري له أكبر الأثر علي البشرية قاطبةً ويمضي الشيخ فيتحدث عن وسائل الإعجاز التأثيري فيقول «تعريف الأمثال للناس ترديدهم لها بين صنوف المعاني الرائعة، قال العلماء في شرح الآية «**ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل..**» أي رددنا وكررنا من كل معنى كالمثل في غرابته وحسنه، أو سقنا لهم وجوه العد والأحكام والوعد والوعيد، والقصص وغير ذلك.والمقصود أن القرآن يملك على الإنسان نفسه بالوسيلة الوحيدة التي تقهر تفوقه في الجدل، أي بتقديم الدليل المفعم لكل شهية، وتسليط البرهان القاهر على كل حجة، فالنكوص عن الإيمان بعد قراءة القرآن يكون كفراً عن تجاهل لا عن جهل، وعن تقصير لا عن قصور.والجدل آفة نفسية وعقلية معاً، والنشاط الذهني للمجادل غيره حراك نفسي خفي قلما يهدأ بسهولة، وجماهير البشر لديها من أسباب الجدل ما يفوق الحصر، وأسلوب القرآن في استلال الجفوة من النفس، وإلقاء الصواب في الفكر أوفى على الغاية في هذا المضمار، ذلك أنه لوَّنَ حديثه للسامعين تلويناً يمزج بين إيقاظ العقل والضمير معاً.ثم تابع سوقه متابعة إن أفلت المرء منها أولاً لم يفلت آخراً وذلك هو تصريف الأمثال للناس. إنه يحيطه بسلسلة من المغريات المنوعة، لا مفدى له من الركون إلى إحداها، أو معالجة القلوب المغلقة بمفاتيح شتى، لابد أن يستسلم العقل عند واحدٍ منها، وتراكيب القرآن - التي تنتهي حتماً بهذه النتيجة -

---

(١) نظرات في القرآن، محمد الغزالي ص١٢٤ . مرجع سابق

(٢) سورة الزمر : الآية رقم ٢٣.

تستحق التأمل الطويل، ولسنا بصدد الحديث عن بلاغتها، بل بصدد الحديث عن المعاني التي تألفت منها، فكان من اجتماعها هذا الأثر الساحر»[1] ثم يستطرد فيقول «إن حقيقة هذا القرآن لا تلبث أن تقهر برودة الإلف، وطول المعرفة، فتتعرى أمامه النفوس، وتنسلخ من تكلُّفها وتصنُّعِها، وتنزعج من ذهولها وركودها، وتجد نفسها أمام الله ﷻ يحيطها ويناقشها، ويعلمها ويؤدبها، فما تستطيع أمام صوت الحق المستعلن العميق إلا أن تخشع وتخضع»[2].

ويتحدث عن وسيلة هامة من وسائل الإعجاز التأثيرى للقرآن الكريم وهى القضاء على الملل يقول «والقرآن الكريم في تحدثه عن النفس الإنسانية، حارب الملل وأقصاه عنها إقصاءً، وعمل على تجديد حياتهم بين الحين والحين، حتى إنه ليمكنها أن تستقبل في كل يوم ميلاداً جديداً ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾[3].

ومن وسائل التأثير - أيضاً - الترغيب والترهيب يقول «والشعور بالرغبة والرهبة والرقة تغمرك وأنت تستمع إلى قصص الأولين والآخرين تُروى بلسان الحق، ثم يتبعها فيض من المواعظ والحكم والمغازى والعبر، تقشعر منه الجلود»[4] وإني أستنتج من خلال هذا الكلام ما يلي:

أ / أفصح الشيخ عن مكانة الإعجاز التأثيرى للقرآن الكريم وذلك بطريق الإيجاز الشديد، حيث كان الأمر في بداية الطريق، وهذا يلحظه القارئ لكتاب الغزالي - رحمه الله-.

ب / ألمح إلي عن الأثر الذي يحدثه القرآن الكريم في الناس المؤمن منهم والكافر، بطريقة سلسة تؤثر في النفوس، وذلك بإيجاز شديد.

---

(١) نظرات في القرآن، محمد الغزالي، ص١٢٥، مرجع سابق.
(٢) المرجع نفسه، ص١٢٦.
(٣) طـه : الآية ١١٣.
(٤) نظرات في القرآن، محمد الغزالي، ص١٢٨، مرجع سابق.

ج- أشار إلي عن وسائل تأثير القرآن الكريم في النفوس من مثل الترغيب والترهيب، وتعريف الأمثال، والقضاء على الإلف والعادات الذميمة وذلك في سطور لا تتجاوز العشرة أسطر --- الخ

رابعاً: د /عبد الكريم الخطيب والإعجاز التأثيري:

إن الخطيب كان كسابقيه من العلماء الذين تحدثوا عن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، حتى أنه عند حديثه عن الإعجاز التأثيرى وقف وقفات دقيقة جداً، أكاد أجزم أنه يرجحه على سائر وجوه الإعجاز الأخرى، فنراه يحاول أن يكشف عن سر تأثير القرآن الكريم فيمن يسمعه من المؤمنين والكافرين على حد سواء، فيقول «إن كلمات القرآن التي كانت على أفواه الناس، كان لها رحلة إلى الملأ الأعلى من الأرض إلى السماء، من أفواه الناس إلى عالم الروح، والحق والنور، وهناك عاشت تلك الكلمات دهراً طويلاً بين ملائكةٍ وولدانٍ وحورٍ عين، فنفضت عليها هذه الحياة روحاً من روحها، وجلالاً من جلالها، ونوراً من نورها، حتى أذن لها الحكيم الخبير أن تعود أدراجها إلى الأرض وتلقى بأفواه الناس مرة أخرى، وتطرق أسماعهم وتدخل بعقولهم وقلوبهم، لم ينكروا شيئاً من وجودها وإن سرى إليهم من هذا الوجود ما يخطف الأبصار ويخلب الألباب، فالمؤمنون في شوق يتجدد إليه قطفوا من أدبه أدباً عالياً، ومن علمه علماً نفعاً، ومن شريعته ديناً قيماً، وغير المؤمنين في عجب من أمره ودهش يتناولونه بألسنةٍ حدادٍ، ويرمونه بسهامٍ مسنونةٍ، وبكيدٍ عظيمٍ، فما يصل إليه من كيدهم شيء»[1].

في هذا الكلام السابق أجد أن لكلماتِ القرآن أثرٌ عظيمٌ على من يسمعها فيظهر عليه الأثر الواضح الذي لا يجده عند سماعه لكلام آخر، فالمؤمنون به في شوق دائم إلى سماعه، وغير المؤمنين في عجب ودهشة من أمره ومما يؤكد أن الخطيب يقدم الإعجاز التأثيرى على غيره؛ أنه ذكر معلقاً على كلام الخطابي عن الإعجاز التأثيرى فقال «وهذا الوجه من وجوه الإعجاز هو المعجزة القائمة في القرآن أبداً، الحاضرة فى كل حين وهى التي تسع

(١) الإعجاز في دراسات السابقين ، د عبد الكريم الخطيب ، ص٦٨، ٦٧ .

الناس جميعاً، عالِمهم وجاهلهم، عربيهم والأعجم، إنسهم وجنهم قال تعالى

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾[1] كما أنه يقول «وهذا الوجه عمدة وجوه الإعجاز فى القرآن، فالروعة التي تلحق قلوب سامعيه عند سماعه، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته هي مثال إعجازه، وهى المعجزة القائمة أبد الدهر»[2] وبهذا يمكن لي أن أقول:

إن الخطيب يرى أن الإعجاز التأثيرى للقرآن الكريم هو أهم وجوه الإعجاز القرآني وأولها، وذلك لأن حديثه كان ينصب وبصفة أساسية على ما يحدثه القرآن من أثر في النفوس، كما رأينا ذلك واضحاً في مقارنته بين أثر كلام البشر وكلمات القرآن على النفوس البشرية المؤمنة بالقرآن، والمنكرة له على حد سواء، حيث يقول في هذا الشأن من كتابه «إن آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، ومواقف الصحابة، بل وما في واقع الحياة البشرية – في عصرنا هذا – وكل ما ذكره الخطيب يثبت ويرصد مظاهر هذا الوجه من وجوه الإعجاز في حياة البشر وتؤكد اختياره له»[3].

والمتأمل في كلام الخطيب يلحظ عدة استنتاجات هامة منها:

أ – أن القرآن الكريم وأثره في النفوس هو المعجزة القائمة في كل حين.

ب– أن هذه المعجزة – التأثير القرآني – يسع الناس بكل لغاتهم عربيهم وعجميهم.

ج– أن هذه المعجزة لا تقتصر على الإنس وحدهم، بل إنها تعدتهم إل الجن أيضاً .

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما قرأ رسول الله ﷺ سورة الرحمن على أصحابه حتى فرغ قال: ما لي أراكم سكوتاً، لَلجنُ كانوا أحسنَ منكم رداً ما قرأت عليهم من مرة **﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾** إلا قالوا و لا بشيء من نعمتك ربنا نكذب فلك

---

(١)سورة الجن : الآيتان ١ ، ٢ .

(٢) الإعجاز في دراسات السابقين ، د عبد الكريم الخطيب ص١٩٣ ، مرجع سابق.

(٣) المرجع نفسه ، ص٥٨، ٦٠.

الحمد»[1] مما يؤكد هذا الأمر.

خامساً: فضيلة الشيخ / محمد متولي الشعراوى[2] والإعجاز التاثيرى:

لقد تحدث الشيخ / محمد متولي الشعراوى - رحمه الله - عن هذا الإعجاز للقرآن الكريم، وذلك من خلال كشف القرآن لحواجز الغيب ثم قال «إنه برهان علمي قاطع على أن القرآن الكريم هو كلام الله رب العالمين، وتحدث في ذلك حديثاً طويلاً ملخصه أنه حصر الحواجز الغيبية في ثلاثة أمور.

الأول: حاجز المكان: ويُقصد به الأشياء التي تحدث في نفس اللحظة ولا يعرف الإنسان عنها شيئاً وسبب ذلك ببساطة أنها تحدث في مكان آخر.

الثاني: حاجز الزمان: ويقصد به كلام الله عن الأمم السابقة في الأزمنة الماضية، ويقصد أيضاً حاجز المستقبل، ويُعنى به أن القرآن تحدث عن أشياء وأحداث ستقع في المستقبل، ووقعت بالفعل كما أخبر عنها.

الثالث: حاجز النفس الإنسانية: ويُقصد به كشف القرآن الكريم عما يدور في قلوب المنافقين ونفوسهم فقال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ومعصية الرَّسُولِ وَإِذَا جاءوك حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[3] وأخبر القرآن بما قاله المنافقون في أنفسهم عندما خالفوا رسول الله ﷺ ولم يخرجوا لغزوة تبوك فقال ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاتَّبَعُوكَ وَلَـكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، جـ٢/ ٥١٥، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الرحمن، تحت رقم ٣٧٦٦، وقال عنه الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، الطبعة الأولى. تحقيق مصطفى عبد القادر عطا.

(٢) الإمام محمد متولي الشعراوي العالم المجدد، عاش حياته في خواطر حول ا قرآن الكريم ولد في ١٦ من إبريل ١٩١١ م بقرية دقا دوس ميت غمر الدقهلية وتوفي في ١٩٩٨ م، وله مؤلفات كثيرة أهمها خواطره حول القرآن، وقصص الحيوان في القرآن، ومعجزة القرآن وغير ذلك من المؤلفات الكثيرة.

(٣) سورة المجادلة: الآية رقم ٩.

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[1] .

وأوضح القرآن أنهم يحلفون وهم كاذبون ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾[2] وبهذا يتضح أن الشيخ الشعراوى يؤمن بالإعجاز التأثيرى للقرآن ويسميه الإعجاز النفسي من خلال كشف القرآن لحواجز الغيب الذي ذكرناها آنفاً»[3].

* * *

---

(١) سورة التوبة : الآية رقم ٤٢ .

(٢) سورة التوبة : الآية رقم ٥٦.

(٣) المعجزة الكبرى ، الشيخ الشعراوى ، جـ١ ص١٠٨/ ١٠٩ ، بتصرف.

المبحث الثالث: علاقة الإعجاز التأثيري بأوجه الإعجاز القرآني الأخرى:

الإعجاز القرآني يعنى إثبات عجز الخلق عن معارضته، وإظهار قدرة المعجز وهو الله الذي أنزل القرآن على رسوله محمد ﷺ «وبهذا تقوم الحجة على المعارضين لدعوى النبي ﷺ، ويكون القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى التي تدل على صحة نبوته، وصدق رسالته ﷺ»[1] ولعل من الواضح الذي لا يُقبل معه شكٌ أن تعداد أوجه الإعجاز القرآني إنما هو من قبيل الإعجاز القرآني ذاته؛ وليعطي دلالة صادقةً علي أن القرآن من عند الله تعالي، والغرض من الإعجاز هو إظهار أن هذا الكتاب حقٌ، وأن الرسول ﷺ الذي جاء به إلي الأمةرسولٌ صادقٌ، وأن معجزات الأنبياء الكرام التي يعجز عنها البشر، ليس الغرض منها إلا إظهار صدقهم، وأن الذي جاءوا به إنما هو وحى من الله ﷻ[2].

وتعدد أوجه الإعجاز القرآني قد ظهر من خلال اختلاف مدارك البشر، واختلاف ثقافتهم وتفكيرهم «يجب أن نعلم أن المعجزة القرآنية لا تقع موقعاً واحداً عند جميع البشر، وذلك لاختلاف مداركهم، وتباين مستويات تفكيرهم، وأنه إذا كان من الناس من ينكشف له الحق منها من أول وهلة؛ فإن كثيراً من الناس لا يهتدي إلى موقع الحق من تلك الكلمات إلا بعد زمنٍ قد يطول وقد يقصر، ولهذا كان من حكمة العليم الخبير أن يفسح الوقت للناظرين في المعجزة القرآنية؛ وألا يأخذهم بالعذاب في هذه الدنيا حتى تتاح لهم الفرصة لمواجهة تلك المعجزة إلى آخر يوم من حياتهم»[3].

وهذا هو الهدف الأسمى من تعدد أوجه الإعجاز القرآني كما سبق بيانه، وإني قد يطيب لي الحديث وتعذب على لساني العبارات عندما أذكر بعض أقوال العلماء في الإعجاز القرآني ومنهم القرطبى، والقاضي عياض وهدفي من ذلك الربط بين الإعجاز التأثيري وأوجه الإعجاز الأخرى .

---

(١) المعجزة والإعجاز في سورة النحل، عبد الحميد طهماز، ص٤٨، بتصرف دار القلم، ط١/ ١٩٨٧م.
(٢) التبيان فيعلوم القرآن، للصابوني ص٧٦، مكتبة الصابوني ط٢/ ١٩٨٦م.
(٣) المرجع نفسه، ص٧٩.

أولا: الإمام القرطبي [1] وأوجه الإعجاز القرآني:

للإمام القرطبي قول في أوجه الإعجاز القرآني، ذكره في مقدمة كتابه التفسير المسمى «الجامع لأحكام القرآن» جاء فيه: «الإعجاز القرآني على عشرة أوجه هي:

الوجه الأول: النظمُ البديعُ المخالفُ لكل نظمٍ معهودٍ في كلام العرب؛ لأن نظمه ليس من نظم الشعر في شيء، ولذا قال تعالى ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ * لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [2].

الوجه الثاني: الأسلوب البديع المخالف لجميع أساليب العرب حيث قال تعالى ﴿حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [3]

الوجه الثالث: الجزالة التي لا تصح أن تصدر عن أي مخلوق بحالٍ من الأحوال، قال تعالى ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [4]

الوجه الرابع: التصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي؛ حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته في وضع كل كلمة أو حرفٍ في موضعه.

الوجه الخامس: الإخبار عن الأمور التي تقدمت في أول الدنيا إلى وقت نزول القرآن؛ ما كان النبي يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه، فأخبرهم بقصص السابقين وأخبار اللاحقين.

الوجه السادس: الوفاء بالوعد المدرك بالحس في العيان في كل ما وعد الله به،

---

(١) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي ولم يذكر العلماء تاريخ ميلاده ولكنهم يتفقون علي أنه توفي عام ٦٧١ هـ وولد في قرطبة من بلاد الأندلس ومن أشهر مؤلفاته كتاب الجامع لأحكام القرآن، وعاش حياة زهد وورع وصلاح، وسمع الحديث عن عدد من الحفاظ الثقات، ثم رحل إلي المشرق العربي لطلب العلم حتي استقر به المقام بمصر ومن مؤلفاته التذكرة في أحوال الموتي .....

(٢) سورة يسن : الآية رقم ٦٩ .

(٣) سورة الشورى الآيتان رقمي ١ ، ٢ .

(٤) سورة ق : الآية رقم ١،٢ .

وينقسم إلى أخباره المطلقة كوعده بنصر الرسول وذلك واضح في قوله إن نصر الله قريب.

الوجه السابع: الإخبار عن المغُيبات في المستقبل التي لا يطلع عليها إلا بالوحي، من ذلك ما وعد الله نبيه ﷺ أنه سيظهر دينه على الأديان - قال تعالى - ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً**﴾[1] .

الوجه الثامن: ما تضمنه القرآن من العلم الذي هو قوام جميع الأنام في الحلال والحرام وفى سائر الأحكام

الوجه التاسع: الحكم البالغة التي لم تجرِ العادة بأن تصدر في كثرتها وشرفها عن آدمي.

الوجه العاشر: التناسب في جميع ماتضمنه ظاهراً وباطناً من غير اختلاف - قال تعالى ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾[2]

فهذه عشرة أوجه في الإعجاز القرآني»[3].

ومن يقرأ هذا الكلام للقرطبى يجده قد وضعه تحت بابٍ عنون له بقوله «باب ذكر نكتٍ في إعجاز القرآن وشرائط المعجزة وحقيقتها» والواضح أن من تتبع الكلام السابق يلحظ أن صاحبه قد ذكر هذه الأوجه كلها من خلال آيات القرآن الكريم، وكأنه إعجاز تأثيري.

ثانياً: القاضي عِياض[4] والإعجاز القرآني:

ذكر القاضي عياض - رحمه الله - في كتابه الشفا بتعريف حقوق المصطفى في الجزء

---

(١) سورة الفتح : الآية رقم ٢٨.

(٢) سورة النساء : الآية رقم ٨٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبى جـ١ ، ١٢٦ وما بعدها ، بتصرف ، دار الفكر العربي ، بيروت ١٩٧٤م.

(٤) هو القاضي عياض ابن موسي بن عياض بن عمر عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته ، ولد بسبته من بلاد المغرب عام ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م وتولي قضاء سبته ، ثم غرناطه وكان من أعلن الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم ، وتوفي بمراكش عام ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م ومن مؤلفاته « الشفا بتعريف حقوق المصطفي » ، «طبقات المالكية» ، «شرح صحيح مسلم» ، «مشارق الأنوار» .

الأول منه عنون باباً أسماه «أوجه الإعجاز في القرآن» ومما قال «اعلم - وفقك الله - أن كتاب الله العزيز منتظم على وجوه من الإعجاز كثيرة، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها أربعة أوجه:

الوجه الأول: حسن تأليفه والتئام كلماته، وفصاحة إيجازه، وبلاغته الخارقة عادة العرب، وذلك أنهم كانوا فرسان الكلام خُصُّوا بالبلاغة، جعل الله ذلك طبيعةً وسجيةً فيهم، فمنهم البدوي ذو اللفظ الجزل، والقول الفصل، والكلام الضخم، والطبع الجوهري، والمنزع القومي، ومنهم الحضري ذو البلاغة البارعة، والألفاظ الناصعة، والكلمات الجامعة، والطبع السهل، والتصرف في القول، وكلا البابين له في البلاغة الحجة البالغة، ولذا ما كانوا يشكون أن الكلام طوع أمرهم والبلاغة ملك قيادهم»[1].

ومن ثم ظهر لهم أن القرآن الكريم حقٌّ، قال ﷻ ﴿الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[2]، وفي موطنٍ آخر يقول الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[3].

«فظهرت بلاغته للعقول، وظهرت فصاحته على كل مقول، وتضافر إيجازه وإعجازه، وتظاهرت حقيقته ومجازه، وحوت كل البيان جوامعه وبدائعه، واعتل مع ايجازه حسن نظمه، ثم استدل بعدة أدلة منها أن الأصمعي سمع كلام جارية فقال لها - قاتلك الله - ما أفصحك! فقالت أبعد كلام الله فصاحةً، وهو القائل ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[4].

فقالت جمع الله في آية واحدة بين أمرين ونهيين، وخبرين وبشارتين، فهذا نوع من

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، جـ١/ ٥٠، مؤسسة الرسالة، بيروت، بدون تاريخ

(٢) سورة هود: الآية رقم ١

(٣) سورة فصلت: الآية رقم ٤٢.

(٤) سورة القصص الآية رقم ٧

إعجازه متفرد بذاته غير مضاف إلي غيره علي التحقيق والصحيح من القولين»[1].

وهو يشير بهذا إلي الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم.

الوجه الثاني: «من إعجازه صورة نظمه العجيب، والأسلوب الغريب، المخالف لأساليب العرب، ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء به، وانتهت فواصل كلماته إليها، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له، ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه، بل وحارت عقولهم فيه»[2] وأرى أنه يشير بهذا إلى الإعجاز الأول وهو الإعجاز البلاغي الذي بدأ به الحديث أول كلامه عن الإعجاز القرآني.

الوجه الثالث: من الإعجاز القرآني ما انطوى عليه من أخبار المغيبات ولم يقع فوُجِد كما ورد على الوجه الذي أخبر به فقال ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[3] ، وهو يقصد بهذا الإعجاز التاريخي.

الوجه الرابع: أن القرآن باقٍ ما بقيت الحياة الدنيا؛ لأن الله تكفل بحفظه فقال ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[4] والواضح من كلام القاضي عياض أنه يتحدث عن الإعجاز التأثيري وإن لم يسمِّه، لكن الظاهر من خلال هذا البيان الذي ذكره من أوجه الإعجاز ذو علاقةٍ وثيقةٍ بتأثير القرآن الكريم وبعد هذا أقول: إن كتاب الله تعالى لا تنقضي عجائبه، كتاب حوى علوم الدنيا والدين، كتاب أودع الله فيه أسراراً وكنوزاً يتوالى الكشف عنها يوماً بعد آخر، فأوجه الإعجاز القرآني - في رأيي - لا يحدها حدٌّ ولا يحصيها عد، بل هي أسرار يأذن الله - عز وجل - بإظهارها على يد من يريد في أي وقت يريد، وصال العلماء وجالوا في ذلك عبر الأزمنة المتعاقبة منذ أن نشأة فكرة الإعجاز القرآني، التي تحدثت عنها في الفصل الأول من هذا الباب، فمنهم من عدها إثنى عشر

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى جـ١/ ٥١ مرجع سابق .
(٢) المرجع نفسه ، ص٥٤.
(٣) سورة يوسف : الآية رقم ١١١
(٤) سورة الحجر : الآية رقم ٩.

وجهاً كالإمام الزركشي في «البرهان»، ومنهم من أوصلها إلى خمسة وثلاثين وجهاً كالإمام السيوطي في «معترك الأقران في إعجاز القرآن» ولكني أقول هذه الأوجه جميعها تكاد تنتظم في أربعة أمور هي بمثابة الكليات الجامعة وما تفرع عنها يندرج تحتها وبيانها كالتالي:

أولاً: الإعجاز التأثيري. **ثانياً: الإعجاز العلمي.**

ثالثاً: الإعجاز البياني. **رابعاً: الإعجاز التاريخي.**

١ - الإعجاز البلاغي وعلاقته بالإعجاز التأثيري:

يُقصدُ بالإعجاز البلاغي سمو القرآن في نظمه وأسلوبه البلاغي، وألفاظه بما فاق به العرب جميعاً فصيحهم والأعجم، وهذا هو سر بلاغة القرآن الكريم، كما أن الإعجاز البلاغي يعنى بدراسة البلاغة في القرآن لإظهار المعاني الجليلة، وإبراز المعاني الخفية الدقيقة، ولا عجب في ذلك، «فقد نزل القرآن على قوم عُرفوا بالفصاحة والبلاغة والبيان وسلامة التعبير، وجودة التركيب، نزل عليهم وهم في الذروة من البلاغة والبيان، كما أن القرآن جاء بألفاظ بلاغية جديدة لم يكن للعرب معرفة بها من قبل»[١].

وهذا قوله تعالى ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[٢].

كلفظ فُعَّل من صيغ المبالغة ولم يكن للعرب معرفة به من قبل حتى جاء القرآن.

مجالاتــه: من أهم مجالات الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم ما يلي:

أ / إبراز المعاني الخفية وإظهار القيم الجليلة في القرآن.

ب / تصوير المعنى وتشخيصه وتجسيمه من خلال أساليب البلاغة المتنوعة من

---

(١) الإشارات العلمية في القرآن الكريم، د/ كارم غنيم، ص٤٤ بتصرف دار الفكر العربي، ط ١ / ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.

(٢) سورة الفتح الآية رقم ٢٩.

استعارة إلى كناية إلى تشبيه الخ، وذلك كقوله تعالى ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً﴾[1] فهو يضع المعاني الذهنية في صورة حسية تشبه الأعمال وهى أمر ذهني بالهباء المنثور وهو أمر حسى.

ج- إظهار بلاغة القرآن لفصحاء العرب وبلغائهم وذلك من حيث الكشف عن مواضع بلاغية لا يمكن لبشر مطلقاً أن يأتي بمثلها، وذلك مثل قول الله تعالى ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَركَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2] ووجه البلاغة في الآية قوله «أمم ممن معك» تجد هنا البلاغة في قمتها وذروة سنامها حيث اجتماع ثماني ميمات متتاليات دون أن يكون لذلك أدنى ثقل على السمع أو اللسان، ورغم أن هذا التكرار العجيب والغريب للحروف يعرف عند العرب بالتنافر مثل قول الشاعر: وقبرُ حربٍ بمكان قفرِ وليس قُربَ قبرِ حربٍ قبرُ[3]

ترى أن تكرار الراء هنا سبع مرات رغم أنه في جملتين، قد جعل ثقلاً على اللسان، وخروجاً على مألوف البيان، علماً بأنك لن تجد هذا في القرآن وهذا سر من أسرار بلاغته، وقد تحدث في هذا الوجه الإعجازى كثير من العلماء منهم الخطابي والجرجاني والسكاكى والباقلانى .... الخ

علاقته بالإعجاز التأثيرى:

إني أرى - والله أعلم - أن كل الإعجاز القرآني في حد ذاته إعجاز تأثيري، فصاحب البلاغة يتأثر بنظم القرآن وأسلوبه العذب الفريد، فعُلم إذا أن القرآن معجز بنظم أسلوبه وجرس ألفاظه، وأصوات كلماته وهذا التأثر يتألق روعة وبهاءً وجمالاً في الوليد بن المغيرة لما سمع القرآن من النبي ﷺ والمعروف أن الوليد من أفصح العرب بل هو أفصحهم كما قيل، لذا حذروه من الاستماع إلى محمد، لكنه لما سمع القرآن - وهو قبل كل شئ رجل بليغ - قال قولته الشهيرة «ما هذا من كلام الإنس ولا من كلام الجن ولا يمكن أن يكون

(١) سورة الفرقان الآية رقم ٢٣.
(٢) سورة هود الآية رقم ٤٨.
(٣) هذا البيت للشاعر امرئ القيس

من كلام البشر»[1] وبهذا يفهم أن العلاقة بين الإعجاز البلاغي والتأثيرى علاقة قوية، بل هي علاقة مشاركة وتأثير.

٢ الإعجـ. ر. .علمي وعلاقته بالإعجاز التأثيرى:

يُقصد بالإعجاز العلمي إظهار الحقائق الكونية العلمية التي لم يكن للعرب معرفة بها من قبل ولها شاهدٌ في القرآن منذ زمن بعيد، وهو يعنى بتجلية الحقائق العلمية من خلال الاستدلال بالآيات القرآنية.

«إذا كان التفسير العلمي معناه الكشف عنها بمعان الآيات في ضوء ما ثبتت صحته من نظريات العلوم الكونية فإن الإعجاز العلمي معناه إخبار القرآن الكريم لحقيقة علمية أثبتها العلمي التجريبي مؤخراً، وثبت عدم إمكان إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول محمد ﷺ»[2] وذلك من مثل «الذرة» حيث كانت هنالك نظرية معروفة في الذرة «هي النظرية التي طورها الفلاسفة اليونانيون ولا سيما الفيلسوف (ديموقريطس) وكان هو والذين جاؤوا من بعده يعتقدون بأن المادة تحتوي علي أجزاء صغيرة لا تري بالعين تدعي (الذرات atoms) وهي غير قابلة للإنقسام، وكان العرب يحملون هذا المفهوم، والحقيقة أن كلمة (ذرة) في العربية تشير عادة إلي أصغر جزء معروف من المادة، ولكن العلم الحديث اكتشف بأن هذا الجزء الصغير من المادة (أعني الذرة) التي تحمل نفس خصائص عنصرها ويمكن تجزئتها إلي مكوناتها، وهذه الفكرة جديدة ومن نتاج تطور العصر الأخير، ولكن المثير للاهتمام أنها موجودة في القرآن الكريم حيث يقول تعالي ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[3] ولا شك أن مثل هذا التصريح كان يبدوا غريباً وغير

---

(١) السيرة النبوية ابن هشام جـ ٢ ١٦٨ مرجع سابق.

(٢) المعجزة القرآنية للقرآن والسنة، عبد المجيد الزنداني، ص٢٠، من بحوث المؤتمر العالمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، إسلام آباد، باكستان ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

(٣) سورة يونس الآية رقم ٦١ .

عادي قبل أربعة عشر قرناً للعربي الذي كان يعد الذرة أصغر شيء موجود، وهذا في الحقيقة برهان ساطع، ودليل واضحٌ علي أن الزمن لم يسبق القرآن الكريم؛ ولن يسبقه يوماً ما، تبارك منزّل القرآن[1].

ضوابط الإعجاز العلمي في القرآن:

للإعجاز العلمي في القرآن ضوابط لابد من مراعاتها منها:

أ- أن يعلم الناس جميعاً عالمهم وجاهلهم أن علم الله هو العلم الشامل الذي لا يعتريه خطأٌ ولا قصورٌ وعلم الإنسان - مهما كان - محدودٌ وضئيلٌ ويقبل الازدياد ومعرض للخطأ والنقص.

ب - لا يقع صدام مطلقاً بين نصوص الوحي سواء كانت قطعية الثبوت - أو ظنه - وبين الحقائق العلمية المكتشفة سواء كانت قطعية - أيضاً - أو ظنية.

ج- التوافق الدقيق بين ما في نصوص الكتاب والسنة، وبين ما كشفه العلم التجريبي من حقائق علمية - وذلك مثل البروفسير كيث- لي.مور وهو من أشهر علماء علم الأجنة وقد ترجم كتابه في علم الأجنة إلى ست لغات من لغات العالم.

د- تصحيح القرآن لما شاع بين الناس في أجيالها المختلفة من حقائق مزيفة عن الكون، وذلك مثل أن الأرض تحمل على قرن ثور كلما أراح قرناً زلزلت الأرض، وعن النفس مثلما شاع بين الناس من أن الجنين يتكون من دم الحيض، حتى اكتشف المجهر عام ١٦..م يعنى في القرن السادس عشر الميلادي فأثبت أن الجنين يتكون من المنى، وقد أشار إليه القرآن الكريم من قديم في قوله تعالى ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾[2]، ولقد رد ابن القيم وابن

---

(١) راجع في هذا القرآن المذهل بقلم البروفسور / غاري ميللر بجامعة إساك ، ص ٧ ترجمه عن التركية / أورخان محمد علي ، دار الكلمة المنصورة الطبعة الأولي ١٤٣٢ ه / ٢٠٠٢ م .

(٢) سورة السجدة الآيات من رقم ٧ إلي رقم ٩ .

حجر على هذه الخرافات في وقتها.

هـ- سن التشريعات الحكيمة التي قد تخفى حكمتها على الناس جميعاً وقت نزول القرآن، وذلك مثل ما كشفه العلم حديثاً مثل تحريم أكل لحم الخنزير، وكذا اعتزال النساء في المحيض ... الخ، كل هذا اكتشف مؤخراً بأن القرآن قد أشار إلى هذا أيضاً من أول لحظة نزل فيها.

علاقته بالإعجاز التأثيري:

من الواضح أن هذا الإعجاز القرآني المتمثل في الإعجاز العلمي والحقائق العلمية يجعل الشعور أرهف حساً والقلب أكثر تأثراً؛ لأنه مجالٌ يخوض صاحبه به في آفاق الكون فيبعث على التأثر والتأثير، وهذا قوله تعالى ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [(1)] فيجول في أغوار وأعماق النفس البشرية وصدق الله ﷻ إذ يقول﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [(2)] فالنظر في الأنفس وكيفية تركيب الجهاز الجسمانى للإنسان يؤدى إلى التأثر حقاً، لاسيما إذا ما علم أن القرآن قد أشار إلى ذلك، فالعلاقة إذاً بين الإعجاز العلمي والتأثيرى علاقة وطيدة، وليس أدل على ذلك من العلماء الذين يسلمون من مثل بروفسير موريس بوكاى ... بروفسير إلكسس ... الخ، وسيأتي ذكرهم بعد.

٣ - الإعجاز التاريخي وعلاقته بالإعجاز التأثيرى:

يذهب كثير من الباحثين إلى أن الإعجاز التاريخي يقصد به «إخبار القرآن الكريم عن الأمور والأحداث الماضية، وما جاء من أخبار تتعلق بالمستقبل وما حدث في عهد الرسول - ﷺ - ولم يكن حاضراً وقت حدوثه» [(3)] وبعض العلماء يعرضون للإعجاز التاريخي من خلال ما جاء في القرآن الكريم مع حركة التاريخ، ويتعرضون للإعجاز

---

(١) سورة الروم : من الآية رقم ٤٣.

(٢) سورة الذاريات : الآية رقم ٢١.

(٣) الإعجاز في دراسات السابقين ، د عبد الكريم الخطيب ، ص٨٠ ، مرجع سابق.

الظاهر فيه من هذا المعنى.

مجالات الإعجاز التاريخي:

المجال الأول: مجال يتعلق بالمستقبل للقرآن الكريم، قال تعالى ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً**﴾[1].

وقوله تعالى ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[2].

المجال الثاني: مجال يتعلق بالدعوة الإسلامية وفيه عن الإخبار عن ظهور الإسلام مثل قوله تعالى﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً**﴾[3].

المجال الثالث: مجال يتعلق بمستقبل حزب الله تعالى وهو مجال يتعلق بالإخبار عن الإخوة والألفة بين أصحاب الرسول ﷺ وصدق الله حين أخبر أن القرآن هو الشرف والذكر القائم للرسول -ﷺ- وصحابته الكرام فقال تعالى ﴿**وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ**﴾[4]

علاقته بالإعجاز التأثيري:

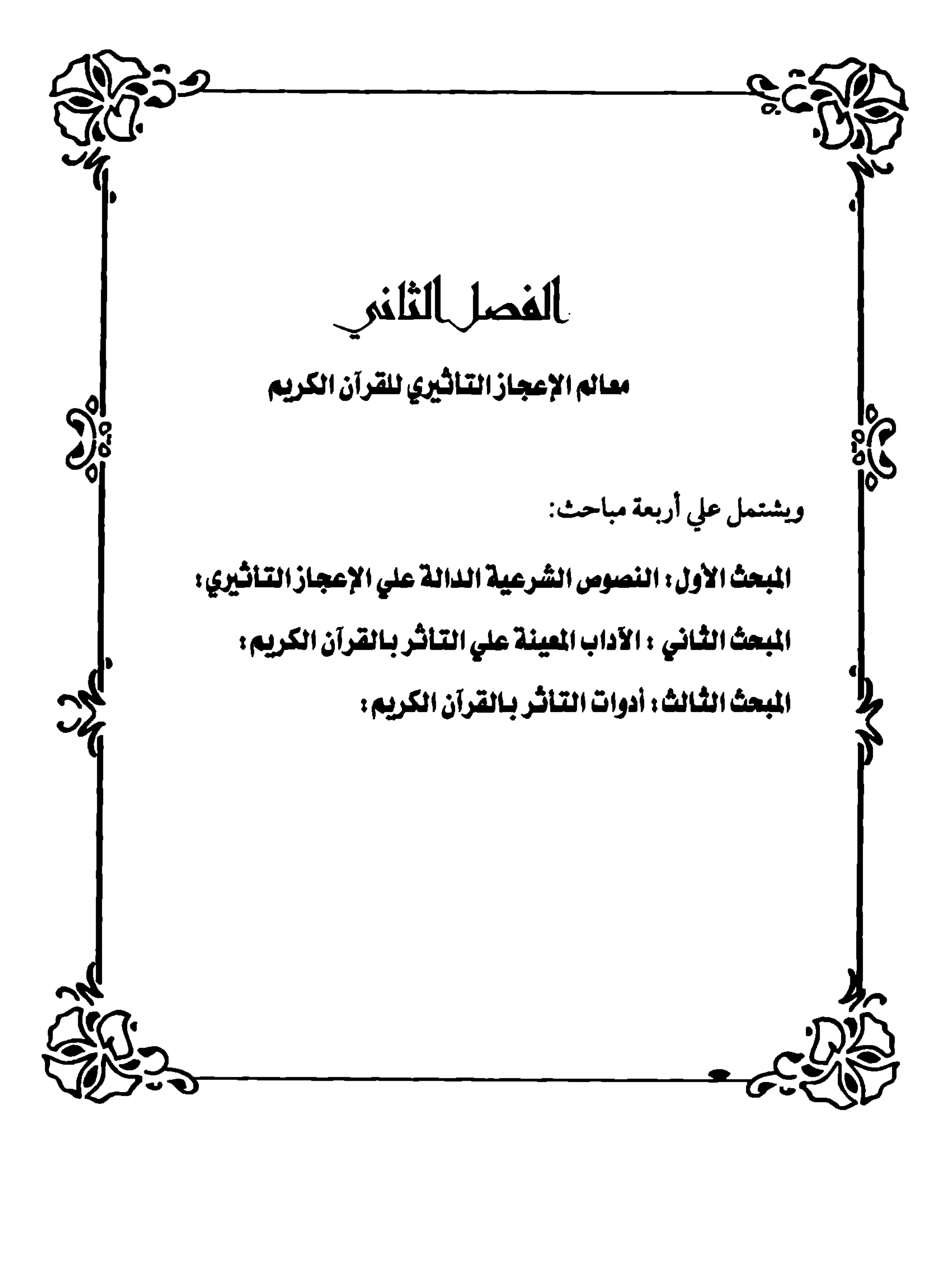
إن الحديث القرآني عن أمور ستقع في المستقبل القريب أو البعيد أمر معجز لاشك فيه، وهو من الإعجاز الذي اختُصَّ به القرآن الكريم فمجرد أن يقرأ الإنسان قول الله تعالى ﴿**الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ**﴾[5] ثم يدرك الإنسان المسلم أن هذا قد تحقق؛ فإنه لن يجد بداً في أن يتأثر قلبه ويخشع فؤاده ساعة

---

(١) سورة الإسراء : من الآية رقم ٨٨.
(٢) سورة الحجر : الآية رقم ٩.
(٣) سورة الفتح : من الآية رقم ٢٨ .
(٤) سورة الزخرف : الآية رقم ٤٤.
(٥) سورة الروم : الآيات من ١ إلي ٣ .

تلاوته أو استماعه لهذه الآيات التي عبرت عن هذا الأمر بلفظ سيغلبون، فالعلاقة بين الإعجاز التأثيرى والتاريخي علاقة معاونة ومساهمة، ومن ثم يكون الإعجاز التأثيرى مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بأوجه الإعجاز الأخرى، ولذا رأيت أن الحديث عن هذه العلاقة أمر مهمٌ تحتمه الدراسة ولذا سارعت بالإشارة إليه، ولم أفصل القول فيه تفصيلاً.

* * *



الفصل الثاني

معالم الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم

ويشتمل علي أربعة مباحث:

المبحث الأول: النصوص الشرعية الدالة علي الإعجاز التأثيري:

المبحث الثاني : الآداب المعينة علي التأثر بالقرآن الكريم:

المبحث الثالث: أدوات التأثر بالقرآن الكريم:

المبحث الأول: النصوص الشرعية الدالة علي الإعجاز التأثيري:

إن القرآن الكريم والسنة النبوية هما عماد الاستدلال في هذا الموطن، ولقد ذكر القرآن الكريم كثيراً من الآيات التي تحث الناس جميعاً بطريق العموم؛ علي التدبر لآياته والتفهم التام لمعانيه، والتأثر الكامل عند تلاوته أياما كان التأثر سواء كان قلبياً أو خارجياً، وكذلك التأثر عند سماعه فله ذات الأهمية، ومن ثم كان التدبر لآيات القرآن الكريم؛ والعمل بمقتضاه أمر ضروري لا مهرب منه ولا فكاك؛ إذ أنزل الله ﷻ القرآن الكريم للتدبر والتفهم والتذكر قال الله تبارك و تعالي **﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾**[1] ومن ثم يعلم أن الله قد خلق الإنسان، وحباه بالعقل وميزه علي باقي المخلوقات بالفهم «ولذا جعل الله- ﷻ- العقل مناط التكليف وأداة النظر والاعتبار والتدبر فقال - ﷻ- **﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾**[2] ونعى على الذين يعطلون عقولهم ويغلقون نوافذ المعرفة فقال سبحانه وتعالى **﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً صم بكم عمى فهم لا يعقلون﴾**[3].

كما نعى ربنا- ﷻ -على الذين يقرأون القرآن الكريم ، ولا يتدبرون معانيه ، ويكتفون منه بالقراءة التي لا تتجاوز تراقيهم إلى قلوبهم وعقولهم فقال الله تعالى **﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾**[4] فالمصيبة الآن في عدم فهم القرآن الكريم ، وتدبر معانيه ، بل غدت هي المشكلة الأكبر عند المسلمين اليوم »[5] والمؤكد الذي لا يقبل شكاً ولا ريباً أن القرآن الكريم ذاته يهيب بالناس من خلال - النصوص القرآنية أن يتدبروا معانيه، ويتعظوا بكل ما جاء فيه ويتفهموا آياته، ويتأثروا بتلاوته وسماعه. «فواقع

---

(١) سورة ص الآية رقم- ٢٩.
(٢) سورة القمر الآية رقم- ١٧ .
(٣) سورة البقرة الآية رقم- ١٧١.
(٤) سورة محمد الآية رقم- ٢٤.
(٥) كيف نتعامل مع القرآن محمد الغزالي ص ١٣ دار الوفاء الطبعة الثالثة ، ١٤١٣ ه/ ١٩٩٢ م.

معظم المسلمين اليوم مع القرآن مؤرق، وعلاقتهم به يحكمها الهجر والعقوق إلى درجة نخشى معها أن نقول: إن علل الأمم السابقة التي حذر منها القرآن، ونبه عليها - الرسولﷺ تسربت إلى العقل السليم.

قال تعالى ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾[1].

أي لا يعلمون الكتاب إلا قراءةً وتلاوةً وترتيلاً، قال ابن تيمية -رحمه الله -في قوله تعالى «ومنهم أميون ... الآية» أي غير عارفين بمعاني الكلمات، ومعاني الكتاب الذي أنزل إليهم، يعلمونها حفظاً وقراءة دون فهم أو تدبر، لا يدرون ما فيها، وقوله «إلا أماني «أي تلاوة لا يعلمون فقه ا إنما يقتصرون علي ما يتلى عليهم»[2].

ومن خلال هذا الكلام آنف الذكر أستطيع أن أجزم أن مشكلة المسلمين اليوم؛ تكمن من وجهة نظري في عدم فهمهم للقرآن، ومن ثمّ فليس هناك تدبر أمثل لكتاب الله - ﷻ - لأن القلوب ران عليها الجمود، ولذا فكسر الأقفال التي عليها غدا أمراً عسيراً، وكان من نتيجة ذلك أن تأخر المسلمين في بعض مجالات الحياة، فهم ليسوا في مستوى القرآن الكريم، وبالتالي لن يستطيعوا مواكبة العصر، ولن يحققوا الشهود الحضاري؛ حتى يتخلصوا من الحال التي استنكرها القرآن الكريم عليهم، وشكا الرسولﷺ لربه منها، فقال تعالي ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾[3] «فالمشكلة إذن تكمن في افتقاد وسائل الفهم الصحيح، وأدوات التوصيل ، وكيفية التأثير، والتأثر بالقرآن الكريم وكيفية تعامل الناس مع القرآن الكريم»[4] ومن هذا المنطلق كانت هنالك آيات من القرآن الكريم تحث المسلمين حثاً أكيداً علي فهم آيات القرآن الكريم وتدبر معانيه، والوقوف عند كلماته وأخذ العظة والعبرة منه فهو تنزيل من حكيم حميد، وهاك بعض هذه النصوص.

---

(١) سورة البقرة الآية رقم ٧٨.

(٢) انظر تعارض العقل والنقل ، للإمام ابن تيمية ، ص١٠٨ دار الفكر بيروت ، بدون.

(٣) سورة الفرقان الآية ٣٠.

(٤) - كيف نتعامل مع القرآن ، الشيخ محمد الغزالي ص ١٦ مرجع سابق .

أولاً: نصوص القرآن الكريم الدالة علي التأثر بالقرآن:

إن المتتبع لآي القرآن الكريم يلحظ أن آياته كلها من الفاتحة إلي الناس؛ تدعو إلي التدبر والاعتبار سواء كان ذلك صراحة أم ضمناً، وإن كنت أشعر أن الجملة بهذه الصيغة ربما تكون خطأ إذ كل كلمة في القرآن الكريم بل كل حرف ذو تأثير خاص لمن كان له بقية من عقل أو مسحة من قلب حي ينبض ويخفق، ومن ثم يفهم أن كل القرآن الكريم بكل مكوناته؛ من آياته وجمله وكلمه وحرفه حتى النقط والشكل، كما أني أحب أن أنبه علي أني حينما أستدل بآية علي تأثير القرآن الكريم، فليس معني ذلك أن ما عداها غير مؤثر. كلا وألف كلا، إذ أني أقرر حقيقة لا محيص منها، ألا وهي أن كل القرآن الكريم مؤثر، وإن اختلفت القلوب عند استقبالها للآيات، ولتسمح لي أن أعتذر مقدما عن أي خطإٍ يقع مني دون قصد، وذلك لأن الحديث عن كلام الله - ﷻ- والآن أذكر بعضاً من النصوص التي تؤكد علي تأثير ألآيات القرآنية، والتي تدعوا الناس جميعاً إلي تدبرها، وتأملها والوقوف عندها ملياً، مراعياً عند ذكري لهذه الآيات ترتيبها حسب السور .

الآية الأولي قال الله ﷻ ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1]
في هذه الآية الكريمة يأمر الله ﷻ بالاستماع والإصغاء عند تلاوة القرآن الكريم والاستماع إليه، ومن يتأمل الآية يلحظ أن الله تعالي قد ذكر الاستماع ثم عقب بعده بالإصغاء، ليؤكد علي حصول التأثر بالقرآن الكريم ، ومعني الإصغاء أنه لابد معه من التدبر والتأثر الحاصلين بعد الاستماع . يقول الحافظ -ابن كثير -«لما ذكر تعالي أن القرآن الكريم بصائر للناس وهدي ورحمة -في الآية السابقة علي هذه الآية -أمر بعدها بالإنصات عند تلاوته إعظاماً له واحتراماً، لا كما كان يعتمده المشركون في قولهم «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه» ولكن يتأكد ذلك من الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة حيث قال رسول الله - ﷺ - «إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا وإذا قرأ فأنصتوا »[2]. وتختلف الروايات المأثورة في موضع هذا الأمر بالاستماع والإنصات إذا قرئ القرآن.. بعضهم

---

(١) سورة الأعراف الآية رقم ٢٠٤ .

(٢) صحيح البخاري كتاب أبواب تقصير الصلاة ، باب صلاة القاعد ج ١ / ٣٧٥ برقم ١٠٦٣ واللفظ له .

يرى أن موضع هذا الأمر هو الصلاة المكتوبة. حين يجهر الإمام بالقرآن الكريم، فيجب أن يستمع المأموم وينصت ولا يقرأ هو مع قراءة الإمام الجهرية. ولا ينازع الإمام القرآن الكريم! وذلك كالذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال:«هل قرأ أحد منكم معي آنفاً به» قال رجل:نعم يا رسول الله. قال: «إني أقول:ما لي أنازع القرآن» فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ »[1].

عن بشير بن جابر قال:صلى ابن مسعود، فسمع ناساً يقرأون مع الإمام. فلما انصرف قال:«أما آن لكم أن تفهموا ؛ أما آن لكم أن تعقلوا» «إذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا كما أمركم الله»! وبعضهم يرى أن هذا كان توجيهاً للمسلمين أن لا يكونوا كالمشركين الذين كانوا يأتون رسول الله ﷺ إذا صلى ، فيقول بعضهم لبعض بمكة: (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون). فأنزل الله ﷻ جواباً لهم: (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا)..

وقال القرطبي في التفسير:قال محمد بن كعب القرظي:كان رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن في الصلاة أجابه من وراءه. إذا قال:بسم الله الرحمن الرحيم. قالوا مثل قوله،حتى يقضي فاتحة الكتاب والسورة، فلبث بذلك ما شاء الله أن يلبث فنزل:(وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون). وهذا يدل على أن المعنى بالإنصات ترك الجهر على ما كانوا يفعلون من مجاوبة رسول الله ﷺ .:كان الرجل يأتي وهم في الصلاة فيسألهم:كم صليتم؟كم بقي؟ فأنزل الله تعالى: (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا..) وعن مجاهد أيضاً:كانوا يتكلمون في الصلاة بحاجتهم ، فنزل قوله تعالى: ... (لعلكم ترحمون).[2] والذين يرون أنها خاصة بقراءة القرآن الكريم في الصلاة يستشهدون بما رواه

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحة كتاب الصلاة ، باب صفة الصلاة ، ج ٥ / ١٥٥ ، وأخرجه الترمذي في سننه أبواب الصلاة ، ترك القراءة في الصلاة إذا جهر الإمام ، ج ٢ / ١١٨ وقال الترمذي عنه:هذا حديث حسن، وصححه أبو حاتم الرازي ، من حديث الزهري عن أبي أكثمة الليثي، وقال عنه الألباني صحيح .

(٢) الجامع لأحكام القرآن الكريم القرطبي ج ٧/ ٣٠٩ . مرجع سابق .

ابن جرير: عن طلحة بن عبيد الله بن كريز قال:رأيت عبيد بن عمير وعطاء بن أبي رياح يتحدثان والقاص يقص [يعني والقارئ يقرأ] فقلت:ألا تستمعان إلى الذكر وتستوجبان الموعود، يعني قوله تعالى(لعلكم ترحمون)] قال:فنظرا إلي ثم أقبلا على حديثهما ؛ قال فأعدت، فنظرا إلي وأقبلا على حديثهما! قال فأعدت الثالثة، قال:فنظرا إلي فقالا:إنما ذلك في الصلاة: (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا)[1]. وبعضهم يرى أنها في الصلاة وفي الخطبة كذلك في الجمع والعيدين، ونحن لا نرى في أسباب النزول التي وردت ما يخصص الآية بالصلاة المكتوبة وغير المكتوبة ذلك أن العبرة بعموم النص لا بخصوص السبب. والأقرب أن يكون ذلك عاماً لا يخصصه شيء، فالاستماع إلى هذا القرآن الكريم والإنصات له - حيثما قرئ القرآن الكريم- هو الأليق بجلال هذا القول، وبجلال قائله سبحانه! وإذا قال الله تعالي أفلا يستمع الناس وينصتوا؟ ثم رجاء الرحمة لهم: (لعلكم ترحمون).. ما الذي يخصصه بالصلاة؟ وحيثما قرئ واستمعت له النفس وأنصتت، كان ذلك أرجى لأن تعي وتتأثر وتستجيب ؛ فكان ذلك أرجى أن ترحم في الدنيا والآخرة جميعاً.. إن الناس يخسرون الخسارة التي لا يعارضها شيء بالانصراف عن هذا القرآن. وإن الآية الواحدة لتصنع أحياناً في النفس - حين تستمع لها وتنصت - أعاجيب من الانفعال والتأثر والاستجابة والتكيف والرؤي»[2] ولقد قيل إنهم كانوا يتكلمون في الصلاة، فلما نزلت هذه الآية ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [3] أمروا بالإنصات والفهم ، وتؤكد هذه الآية علي أنه يجب علي المسلمين وغيرهم عند قراءة القرآن أن ينصتوا ويفهموا، ويتدبروا ما يتلى عليهم، فيجب الإنصات حتى يحدث التأثر بالقرآن الكريم، ولعل هذا المعنى هو المستفاد من قول الله تعالي «وأنصتوا» ثم عقب بقوله تعالي «لعلكم ترحمون» فالرحمة الكاملة من الله - سبحانه وتعالي - تغمر الإنسان الذي أنصت إلي القرآن وتأثر به، وحصل في قلبه شيء من ذلك ، وهذه دلالة واقعة وصادقة علي مدي أهمية الإعجاز التأثيري الحاصل في القلوب من

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن الطبري ج ٩/ ١٤٠ ، دار الفكر بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٩١م
(٢) في ظلال القرآن سيد قطب ج ٣/ ١٤٢٠ وما بعدها مرجع سابق .
(٣) سورة الأعراف الآية ٢٠٤ .

خلال آي القرآن الكريم، وذلك لأنه من كلام الله تعالي.

يقول الإمام الطبري «وإذا قرئ القرآن فاستمعوا» أي فأصغوا له سمعكم لتفهموا آياته وتعتبروا بمواعظه، وأنصتوا إليه لتعقلوه وتتدبروه، ولا تلغوا فيه؛ لعلكم ترحمون، أي ليرحمكم ربكم؛ لاتعاظكم بمواعظه، واعتباركم بعبره»[1]. وهذا الأمر عام في كل من سمع كلام الله تعالي، يتلى أو يرتل عليه، فإنه مأمور بالاستماع والإنصات وإني أفرق بين هذه الكلمات استماع، وإنصات.

الاستماع: هو مقصود ومخطط له مسبقاً وله هدف وغاية فهو سماع بعناية؛ لحصول الاستفادة والتعلم ومنه قوله تعالي ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ وهي ملكة خاصة يعطيها الله تعالي لمن يحب من عباده، وهي شرط للوصول إلي مرحلة أعلي من القراءة، ومن ثم فلا بد من الاستماع للقرآن الكريم كي نتأمل معانيه، ونتدبر ما جاء فيه وعند اللغة زيادة المبني تدل علي زيادة المعني والله أعلم .

الإنصات: هو الامتناع عن الكلام لغرض الفهم كما في الآية، وليعلم أن الصمت عبادة؛ إذا ما كان في تفكر وتدبر أو لالتقاط الأنفاس، والله أعلم

ويقول السعدي «والفرق بين الاستماع والإنصات أن الاستماع في الظاهر بترك التحدث، أو الاشتغال بما يشغل من استماعه، وأما الاستماع له فهو أن يلقي سمعه يحضر قلبه ويتدبر ما يستمع، فإنه من لازم علي هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله تعالي، فإنه ينال خيراً كثيراً، وعلماً غزيراً، وإيماناً مستمراً، ولهذا رتب الله -ﷻ- حصول الرحمة علي التأثر بالقرآن الكريم وفهم معانيه، فدل ذلك علي أن من يتلى عليه الكتاب فلم يسمع ولم ينصت فهو محروم من هذه الرحمة، وقد فاته خير كثير، ومن أوكد ما يؤمر به مستمع القرآن الكريم أن يصغي له في الصلاة، وذلك إذا قرأ الإمام في الصلاة، حتى إن أكثر العلماء قالوا إن اشتغاله بالإنصات أولي من القراءة»[2].

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن الطبري ج ٩ / ١٦٢ ، مرجع سابق .
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان الإمام السعدي ، ج٢ / ١٦٧ دار الفكر بيروت بدون .

ومن جملة ما سبق من أقوال المفسرين حول الآية السابقة من سورة الأعراف ، يفهم أن التأثر بالقرآن أمر لا بد منه ، فقد أصبح فريضة شرعية وضرورة عصرية لا مهرب منها أبداً، أما فرضية التأثر بالقرآن الكريم فذلك أمر منصوص عليه في القرآن الكريم، من قوله تعالي «ليدبروا» إذ هو أمر من الله بالتدبر والتأثر والاتعاظ وهذا واضح من خلال النص القرآني، ومن ثمّ كان ذلك أمراً واجباً علي أمة القرآن الكريم وفرض عليها، وصدق الله تعالي ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[1] وأما عن ضرورة التأثر بالقرآن فليس يخفي الآن علي أحد ما تموج فيه الأمة من الفتن، والآلام الموجعة لها في كل المجالات، ولا منقذ لها من كل ذلك إلا العودة إلي آيات القرآن الكريم، تقف عند آياته وتتأمل في كلماته وتتأثر بما فيه، حيث إن القرآن الكريم منهج عام وشامل لم يترك صغيراً ولا جليلاً إلا وضحه وبينه علي أكمل وجه، وصدق الله إذ يقول ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[2].

الآية الثانية: قال الله – سبحانه وتعالي – ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون﴾[3].

هذه الآية الكريمة من أول سورة الأنفال، وتلاحظ أنها السورة التي تلي الأعراف مباشرة وتوجيه ذلك أن الله تعالي لمّا أمر بالاستماع والإنصات للقرآن الكريم، والإصغاء والتدبر عند القراءة عقب بعدها بذكر الله تعالي في الأنفس والآفاق جهراً وسراً، بكرةً وعشياً وهذا كله يتحصل لمن يتلوا آيات الله تعالي أو يسمعها فأوقعت في قلبه تأثراً خاصاً، واتعاظاً لا مثيل له ولا نظير، وهؤلاء يقول عنهم رب العالمين «**إن الذين عند ربك**» وتأمل هذه العندية التي تشعر بمدي قربهم من الله تعالي، وأنسهم بآياته، وفهمهم التام لمعانيه، وقوم شأنهم هذا فهم لا يستكبرون عن عبادة ربهم أبداً، ومن ثمّ كان هذا مدعاة لهم إلي السجود خشية وخضوعاً وتدبراً لما يتلي عليهم، ومن يتحقق فيه هذا فهو

(١) سورة القمر الآية رقم ١٧ .
(٢) سورة النحل من الآية رقم ٨٩ .
(٣) سورة الأنفال الآية رقم { ٢ }.

مؤمن، ثمّ يزيد الله تعالي الأمر وضوحاً وبياناً في الآية التالية من الأنفال، إذ من لوازم السجود ومقتضياته الخشوع، ووجل القلوب، ومن هنا زيد المعني توكيداً، وإحكاماً في الآذان، وفهماً في الأذهان، فقال تعالي «إنما المؤمنون الذين......الآية» وكأن الله - جلت حكمته - يريد أن ينبه العباد بأن الاستماع والإنصات إلي القرآن حق لا مرية فيه؛ لأنه يؤدي إلي أمر جليل؛ وهو التأثر به والتدبر له، وهذا التأثر والتدبر للقرآن الكريم يثمر ثماراً في غاية الروعة والجمال، تزداد تألقاً وجمالاً بالتدبر والتفهم للقرآن الكريم، ومن أهم هذه الثمار المبدعة والمورفة الظلال؛ أنها تزيدك إيماناً راسخاً ويقيناً صادقاً، وهذا سر من أسرار التأثر بآي القرآن الكريم. يقول الإمام الطبري «ليس المؤمن الذي يخالف الله ورسوله، ولكن المؤمن الذي يتبع وينقاد للحكم، وإذا ذكر الله - سبحانه وتعالي - عنده وجل قلبه خوفاً منه وفرقاً من عقابه، وإذا قُرئت عليه آيات الكتاب العزيز صدق بها وأيقن أنها من عند الله تعالي، ولزمه التأثر بهذه الآيات والوقوف عند مقتضاها»[1] ويؤكد هذا المعني الذي ذكره الطبري صاحب الظلال فيقول «والقلب المؤمن يجد في آيات القرآن الكريم ما يزيد ه إيماناً، وما يفضي به إلي الاطمئنان، إن هذا القرآن الكريم يتعامل مع القلب البشري بلا واسطة، ولا يحول بينه وبين التأثر القلبي به إلا الكفر الذي يحجبه عن القلب ويحجب القلب عنه، فإذا رُفع هذا الحجاب بالإيمان وجد القلب حينئذ حلاوة هذا القرآن الكريم، ووجد في إيقاعاته المتكررة زيادة في الإيمان تبلغ إلي الاطمئنان، وكما أن إيقاعات القرآن الكريم علي القلب المؤمن تزيده إيماناً فإن القلب المؤمن هو الذي يدرك هذه الإيقاعات التي تزيده إيماناً، ولذلك يتكرر في القرآن الكريم تقرير هذه الحقيقة في أمثال قوله تعالي «إنّ فِي ذَلكَ لآيَاتٍ للمُؤمنين..» وغير ذلك من الآيات التي تؤكد هذا المعني السابق»[2].

وبهذا يُفهم أن التأثر بالقرآن الكريم، يزيد القارئ أو المستمع للقرآن الكريم إيماناً علي إيمانه، ويقيناً فوق يقينه، وصدقاً يباشر قلبه وفؤاده، وذلك يحدث بسبب التأثر بآيات

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن الإمام الطبري ج ٩ / ١٧٩ مرجع سابق.

(٢) في ظلال القرآن سيد قطب ج ٣ / ١٤٧٥، دار الشروق، الطبعة الثانية عشرة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م.

القرآن الكريم.

ويقول السعدي في قوله تعالي ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ﴾ ووجه ذلك أنهم يلغون السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره، فعند ذلك يزيد إيمانهم؛ لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلونه، أو يتذكروا ما كانوا قد نسوه، أو يحدث في قلوبهم رغبة الخير، واشتياقاً إلي كرامة ربهم، أو وجلاً من العقوبات وازدجاراً من المعاصي، وكل هذا مما يزيد به الإيمان»[١].

وبالجملة أقول: إن تدبر القرآن الكريم مما يزيد معه إيمان المسلم، ويزداد به يقيناً، وهذه من أعظم فوائد التدبر للقرآن الكريم، بل إنها الهف الأعلي الذي ترمي إليه آيات القرآن الكريم، والمرتبة العليا التي يجاهد المسلم من أجلها، حتي يحققها داخل وجدانه، وليعلم أن هذه المرتبة إنما هي منزلة سامية لا يصل إليها أي أحد؛ إنما يصل إليها من يكون للقرآن الكريم تأثيرٌ خاصٌ في قلوبهم ووجدانهم، وتدبرٌ كامنٌ داخل أفئدتهم، وعاش حياً داخل صدورهم.

وقوله «وإذا تليت عليهم آياته» يفهم منها أي آية كانت تزيد المسلم إيماناً وطمأنينة نفس، وهذا يدل علي أن القرآن الكريم كله مؤثر، وهذا يدل علي خير كثير لهذه الأمة.

«إن كلمات القرآن الكريم كلها تأثير؛ لأنها من كلام الله -رب العالمين - الذي هوكلام الناس، لكن الله تعالي أفاض عليها من فيضه، ونفخ فيها من روحه، ومن ثمّ تفعل هذه الكلمات هذا الفعل العجيب في النفوس، ويزداد تعميق هذا السلطان القاهر علي القلوب»[٢].

فليس هناك أفضل ولا أعمق ولا أعظم أثراً من كلام الله -رب العالمين -، وما يقصده الإمام أبو السعود إنما يعني الحروف المستخدمة، وإن كان الفارق هو ذلك النور الذي أفاضه الله تعالي علي كلامه، مما دعا الناس أن يتأثروا به، ويتدبروا معانيه، وكل هذا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان الإمام السعدي ج ٣ / ٢٧٨ مرجع سابق .

(٢) إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الكريم الإمام أبو السعود ج ٤ / ٦ :٨ ، بتصرف ، مرجع سابق

يؤكد مدى ما للقرآن الكريم من تأثير قوي علي النفوس والقلوب والعقول «ومن أصدق من الله حديثاً»[1].

الآية الثالثة: قال الله تعالي: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

من يتأمل هذه الآية الكريمة يجد أنها قد ذكرت بالأسلوب الصريح أن القرآن الكريم شفاء لما يحاك في صدور العالمين ولا يغب عن بالنا عموم النداء يا أيها الناس لكنه في ذات الوقت هدايةُ ورحمةُ للمؤمنين، فالموعظة لكل الناس لكن الهداية للمؤمنين خاصة؛ وذلك لأنهم تأثروا وتدبروا، وعاشوا في رحاب القرآن الكريم، فاستحقوا بذلك الهداية والرحمة التي منحهم الله تعالي إياها، زد علي ذلك شفاء ما بالصدور مما يعجز عنه الأطباء.

يقول القرطبي «أي وعظ من ربكم، فالقرآن الكريم فيه مواعظ ربكم، وشفاء لما في الصور أي من الشك والنفاق، والخلاف والشقاق، وهديً أي رشداً لمن اتبعه، ورحمة أي نعمة للمؤمنين خصهم بها؛ لأنهم المنتفعون بالإيمان، وكلهاصفات القرآن الكريم»(٣) فأثر القرآن الكريم واضح للعيان من خلال الآية الكريمة.

يقول ابن كثير - رحمه الله - «إن الله - تباركت أسماؤه - امتن علي خلقه بما أنزله من القرآن العظيم ، علي رسوله الكريم، ﴿ يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم...﴾ الآية أي زاجر لهم عن الفواحش﴿وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾أي شفاءً من كل شك؛ وهو ازالة ما فيها من رجس ودنس﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾أي يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالي»[4] وهذا هو التأثير الفعلي الذي يقصده الله تعالي داخل آيات القرآن العظيم، إذ إن الآية الكريمة قد نبهت علي عدة أمور لايستغني عنها أحد من الخلق - فضلاً عن المؤمنين - ألخصها مجملة فيما يلي..

(١) سورة النساء من الآية رقم

(٢) سورة يونس الآية رقم

(٣) الجامع لأحكام القرآن الكريم الإمام القرطبي ج ٨ / ٣٥٣ بتصرف مرجع سابق .

(٤) تفسير القرآن العظيم الإمام ابن كثير ، ج ٢ / ٤٢٢ بتصرف ، مرجع سابق .

١ - الموعظة: فالقرآن الكريم يذكر الموعظة فتهتز لها القلوب - لا سيما المؤمنة - وذلك لأنها صادرة من الله - سبحانه وتعالي - .

٢ - الشفاء لما في الصدور: فالقرآن الكريم فيه الشفاء لما يعتلج في الصدور من الأمراض والتعلاّت؛لأنه كلام الله تعالي، وهذا الشفاء لا يتأتى لكل الناس، وإنما يفوز به من أحسن تدبر القرآن الكريم، ومن أنصت وتمتع بآياته، وذاق حلاوة التأثر بها، ومن ثمّ يحدث له الشفاء بأمر الله - سبحانه وتعالي - فهو إذن شفاء إذا ما أحسن المريض تناوله، لكن انتبه لنوع المرض، إنه مرض من نوع خطير جداً، وفي موضع حساس جداً، ومن هنا كان لابد من علاج قوي حتي يتأتي معه الشفاء، وليس هناك أدل علي ذلك من آيات القرآن الكريم.

٣ - الهداية والرحمة: وهما من لوازم الشفاء، للدلالة علي الأثر القوي الذي يحدثه القرآن الكريم حيث قد اختفى الداء تماماً وحل محله الشفاء التام، فهذا هوالإعجاز التأثيري للقرآن الكريم ، فهل امتثل الناس هذا المنهج أم إنهم ابتعدوا عن ذلك؟

ومن ثمّ يعلم أن التأثير القرآني يصل بصاحبه إلي درجة الشفاء لما في الصدور، فالآية دالة علي وجود الإعجاز التأثيري كوجهٍ مستقلٍ بذاته من أوجه الإعجاز القرآني.

يقول الإمام الألوسي «والمراد قد جاءكم كتابٌ جامعٌ لهذه الفوائد والمنافع، كاشفٌ عن أحوال الأعمال حسناتها وسيئاتها، مرغبٌ في الأولي ورادعٌ في الأخري، ومبينٌ للمعارف الحقة المزيلة لأدواء الشكوك، وسوء مزاج الإعتقاد، وهادٍ إلي الطريق الحق واليقين؛ بالإرشاد إلي الإستدلال بالدلائل الآفاقية والأنفسية، ورحمة للمؤمنين حيث نجوا به من ظلمات الكفر والضلال إلي نور الإيمان، وتخلصوا من دركات النيران، وارتقوا إلي درجات الجنان»[1] وهذا هو قمة التأثير فيهم حيث قام هذا التأثير القرآني بأدواره، فبدل حالهم من حال الضلال إلي حال الهداية والرشاد .

وقال الإمام السيوطي «أخرج أبو الشيخ عن الحسن - رضي الله عنه - قال: إن الله -

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ج ١١/ ١٤٠ دار إحياء التراث العربي بيروت.

سبحانه وتعالي - جعل القرآن الكريم شفاء لما في الصدور ولم يجعله شفاء لأمراضكم، وقال عليكم بقرآة القرآن الكريم فإنه شفاء لما في الصدور»[1]. ومن هنا يعلم أن القرآن ذو تأثير قوي في شفاء الصدور من أمراضها، التي لا يقدر عليها علاج بشري ولا عقاقير طبية وإنما يفعل ذلك القرآن الكريم؛ لأنه كلام الله - تعالي -، لكنني أعتذر لإمامنا السيوطي عندما قصر شفاء القرآن الكريم علي ما في الصدور فقط، لأني أحس حينئذ أنه ضيق واسعاً - وإن كانت له وجهة نظر - والأمر من وجهة نظري - والله أعلم - أن الله تعالي لما ذكر أن القرآن الكريم شفاء لما في الصدور عطف علي ذلك بقوله إنه هدايةٌ ورحمةٌ لكل من آمن بالله ورسوله، فنهاية الآية تدل علي عموم الرحمة للمؤمنين؟ ومن لوازم الرحمة ومقتضياتها الشفاء، والصحة وغيره، ومن ثمّ كان القرآن الكريم شفاء لكل ما يعن للإنسان من مصائب وآلام وأوجاع، سواءً كان ذلك في الصدور أو في غيرها .

الآية الرابعة: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[2].

وهذه الآية صريحة في الأمر بتدبر القرآن الكريم، والتأثر بآياته حيث قد جعل الله تعالي الغاية من نزول القرآن الكريم هو قوله «ليدبروا» فالام هنا لام الأمر، والأمر للوجوب، ومن ثمّ وجب علي الأمة تدبر القرآن الكريم والتأثر به. يقول الإمام القرطبي «وهذه الآية دليل علي وجوب معرفة معاني القرآن الكريم، ودليل علي أن الترتيب أفضل من الهذّ والقرآن الكريم من أوله إلي آخره تحذير وتخويف، لايتفكر فيه متفكر إلا ويطول حزنه، ويعظم خوفه إن كان مؤمناً بكل ما جاء فيه».

والآية الكريمة تحث الناس علي تدبر آي القرآن الكريم، وتحذر من هذّه هذّ الشعر، كما أنها تحذر من التقعر في إخراج الحروف، ومن التناظر علي خفض الحروف ورفعها دون النظر إلي معناها، ودون الإلتفات إلي تدبرها، والوقوف عندها ليعيها الفؤاد، لأن القرآن الكريم ما أنزل إلا للتدبر. ويؤكد هذا الإمام الشوكاني إذ يقول «في هذه الآية دليل علي أن

(١) الدر المنثور السيوطي ج٤ / ٣٦٦ دار الفكر العربي بيروت ١٩٩٣ م
(٢) سورة ص الآية ٢٩

الله - سبحانه وتعالي - إنما أنزل القرآن الكريم للتدبر والتأثر، والتفكر في معانيه، لا لمجرد التلاوة بدون تدبر، وعلل ذلك بقراءة الإدغام وفكه في لفظ «ليدبروا»[1] ففي هذه الآية يريد الله تعالي من المؤمنين أن يتدبروا آياته، ويتفهموا معانيه، وهذا التدبر لا بد أن يكون في أعلي مقام «التدبر الأمثل»، وذلك ليتناسب مع ما يتدبره إنه كلام الله - تعالي - وهذا المعني لا بد أن يكون في الذهن عند التدبر ولا يخرج عن هذا الإطار المحدد، ومن ثمّ شددت الكلمة، لأنها أدل علي المعني المراد، وأبلغ في الوصول إلي المعني، لأن زيادة المبني تدل علي زيادة المعني ومن هنا أتي التشديد، وقال ابن الجوزي «ليدبروا آياته» أي ليتفكروا فيها، فيتقرر عندهم صحتها، وليتذكروا بها فيه من المواعظ والحكم مَنْ هم أولوا الألباب»(٢) ومن هذا المنطلق يستبين المعني ويتضح وهو التأثر والتدبر للقرآن الكريم، ومن يفقد هذا التدبر والتأثر عند تلاوة آي القرآن الكريم، فليبك نفسه ويقف عندها وقفة محاسبة، لأن فقد الروح التي تتأثر بالقرآن الكريم.

ويقول الإمام النسفي «في هذه الآية قوله» ليدبروا «ومعناه ليتفكروا فيها؛ فيقفوا علي ما فيه ويعملوا به، وعن الحسن قال: قد قرأ هذا القرآن الكريم عبيد وصبيان لاعلم لهم بتأويله، لكنهم حفظوا حروفه وضيعوا حدوده»[3] وعلي ذلك يعلم أن تدبر القرآن الكريم والتأثر بآياته غاية لا تدرك بسهولة، وطلب لا ينال إلا لمن التزم حدوده، وداوم علي طرق القلب بالتذكر حتي يتم له التأثير المراد، ولذا كان ختام الآية «وليتذكر أولوا الألباب» وكأن فهم القرآن الكريم أمر لا يدركه إلا أصحاب العقول الراجحة، والأفئدة المتيقظة والقلوب الوجلة، من يتعظ في موطن العظة، ويتذكر إذا استدعي المقام التذكر.

الآية الخامسة: قال الله تعالي ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾

---

(١) الجواهر الحسان في تفسير آي القرآن الإمام الثعالبي ج٤ / ٣٧ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بدون.

(٢) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ج ٢ / ١٢٦ المكتب الإسلامي بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٤.

(٣) تفسير انسفي للإمام ألنسفي ج ٤ / ٣٨ بدون.

(٤) سورة الزمر الآية رقم ٢٣.

في هذه الآية الكريمة يوضح الله -تعالي - أن القرآن الكريم هو أحسن الحديث، فلا يوجد أعذب ولا أحسن حديثاً من القرآن الكريم كلامِ الله تعالي، ثمّ عقب الله تعالي بعد ذلك علي أنه تقشعر منه الجلود عند تلاوته، لكن الله - جلت حكمته - وضح أن هذه القشعريرة لا تحدث لأي أحد إنما تتأتى لفئة بعينها، والتي عبر عنها القرآن الكريم بقول الله تعالي «الذين يخشون ربهم» فهذه الخشية أورثتهم تدبراً وتأثراً اقشعرت عندئذ منه الجلود، ووجلت منه القلوب.وذكر البغوي في تفسيره قائلاً «هذا نعت أولياء الله تعالي نعتهم بأن تقشعر جلودهم وتطمئن قلوبهم بذكر الله تعالي، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما ذلك في أهل البدع وهو من الشيطان»[1] وكلام الإمام البغوي في غاية الخطورة، وفي غاية الأهمية في نفس الوقت، أما عن أهميته فتأتي من خلال ما يفعله أهل البدع والأهواء والخرافات من الغشيان، والتردد بألفاظ لا تليق بمقام القرآن الكريم، وكأنه في حفل رقص يتمايل يمنة ويسرة، ومن ثمّ يُخدع الناس بهذا الصنيع، فيعتقدون أنه يعيش في جو النص القرآني ويتأثر به وهذا وهم وضلال، والقرآن الكريم برئ من مثل هذه الأعمال براءة قرص الشمس من ضوء القمر، فالقرآن الكريم كتاب تدبر وتأثر، وموطن ذلك القلب، ويترجم ذلك علي هيئة بكاء.

أما خطورته: فتأتي من خلال الفهم الخاطئ الذي ينقل للناس عن هذا المنظر الذي رأوه بادياً أمامهم أو يحكي لهم ، من ذهاب العقل والغشيان، وأنا أتسائل كيف تذهب عقول هؤلاء ويقولون هذا تدبر؟ والله تعالي يقول «ليتذكر أولوا الألباب» إني أشعر بخلط عجيب، يجب أن نربأ بكلام الله تعالي عنه، وليكن التأثر كما وصف الله تعالي في هذه الآية أهل الإيمان، بأنه ينتابهم الخوف والوجل عند تلاوة القرآن الكريم، وهذ الخوف إنما يدل دلالة قاطعة علي وجود تأثيرٍ قويٍ للقرآن في قلوبهم، ومن ثمّ ناسب أن ترتجف منه الأفئدة، وتهوى سماعه الآذان، وتتمتع بذكره الأفهام فهذا كلام الله تعالي.

وبهذا تكون الهداية تابعة للتأثر بالقرآن الكريم، فمن يستمع إلي أحسن الحديث تجده قد لان قلبه، وخشع فؤاده، ولانت جلوده، وفاضت عينه من الدمع حزناً، ومن ثمّ

---

(١) معالم التنزيل الإمام البغوي ج ٤ / ٧٧ دار المعرفة بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٧ ه / ١٩٨٧ م .

الهداية. ويقول الإمام أبو السعود «والمعني أنهم إذا سمعوا القرآن الكريم وقوارع آيات وعيده؛ أصابتهم هيبة وخشية تقشعر منها جلودهم، وإذا ذكروا الله تعالي تبدلت خشيتهم رجاءً، وتحولت رهبتهم رغبةً، وذلك قوله تعالي **«ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلي ذكر الله»** أي ساكنةً مطمئنةً إلي ذكر رحمته تعالي، وإنما لم يصرح بها إيذاناً بأنها أول ما يخطر بالبال عند ذكره تعالي، ذلك أي الكتاب يهدي به من يشاء أن يهديه، ذلك أن الهداية أثر من هداه، وهو يهدي بهذا الأثر من يشاء من عباده، ومن يضلل أي ومن لم يؤثر فيه هذا القرآن الكريم لقسوة قلبه وإصراره علي الفجور فما له من هادٍ، أي من مؤثرٍ يُؤثر فيه بشئ قط»[١].

الأحاديث الدالة علي الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم :

لقد ذكر النبي ﷺ جملة من الأحاديث التي تؤكد وجود التأثير القرآني علي قارئه وسامعه، وهذه الأحاديث توحي لكل ذي عقل أن للقرآن الكريم أثر لا ينكر ه إلا جاحد، فالسنةُ مبينةٌ لما أجمل في القرآن الكريم، وشارحة لما غمض فيه، ومن ثمّ فإني أقوم بذكر طرفٍ من هديه بشأن هذا الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم، مع شرحٍ موجزٍ لما يتضمنه الحديث من دلالة علي المعني المراد، مع مراعاة الإختصار، وحسن الإستدلال...

الحديث الأول: وأعنون له بعنوان **«في كم يقرأ القرآن»** **«سئل رسول الله ﷺ في كم يُقرأ القرآن ، قال الرسول ﷺ إقرأ في سبعٍ ولا تزيدنَّ علي ذلك»**[٢].

وموطن الإستدلال في هذا الحديث، أن النبي ﷺ يرشد السائل أن لا يختم القرآن الكريم في أقل من سبع، لأن ذلك مدعاةً إلي التأثر بالقرآن الكريم ومراعاةً لتدبره، ولذا فإن هذا الحديث فيه الإرشاد إلي الإقتصاد في العبادة مع الإرشاد إلي تدبر القرآن الكريم، فقد كان للسلف الصالح عاداتٌ مختلفةٌ فيما يقرأون كل يوم حسب أحوالهم وأفهامهم ووظائفهم، فكان بعضهم يختم القرآن الكريم كل شهر وبعضهم في عشرين يوماً .

---

(١) إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ج٧ / ٢٥٢ مرجع سابق .
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب فضائل القرآن ، باب في كم يقرأ القرآن ، ج٤ / ١٩٢٧ برقم ٤٧٦٧.

هذا نص صريح من رسول الله ﷺ الذي أنزل علي قلبه القرآن الكريم فوعاه - يوضح منه عمق تدبر القرآن الكريم، ومدي التأثر به، فيأمر الرسول ﷺ أن يقرأ علي فؤاده وطمأنينه،ولا يهز الشعر، حتى يحدث التأثر المطلوب عند قراءته، وتتحول النفوس من كدر إلى صفاء، ومن شغل بالدنيا إلى اقبال على الله . فلما قال النبي ﷺ للسائل اقرأ في سبعٍ أو سبعة أيام ومن ثم قال النبي ﷺ - لا يفقه أى السائل - لايفهم معانى القرآن الكريم ولا يتدبر فيها، ولا يتفكر فيما يقرأه ، في أقل من ثلاثة أيام، وهذا نص صريح من النبي ﷺ في أن القرآن الكريم لا يختم في أقل من ثلاثة أيام. وإني أقول في ثلاثة أيام من قول النبي ﷺ حيث لا تعارض بينها وبين سابقتها، وذلك لآن من يقرأ في ثلاثة قد وعاه قلبه مراراً وتكراراً، ومن ثم سهل ترديده علي لسانه، فالمسألة تكاد تكون هينة عليه؛ لأن فهمهم أعلي من فهمنا، وعلي ذلك يكون الحديث دلالة صريحة على فهم آيات القرآن الكريم وتدبر معانيه وفهم مقاصده،والاحتكام إلى شرائعه، والنزول على أوامره،وكيف لا؟ فهو كلام الله رب العالمين.

الحديث الثاني: تعلم القرآن قال ﷺ «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[1].

في هذا الهدي النبوي يعلم الرسول ﷺ أمته أن أفضل التعليم، وأكمله تعلم كلام الله تعالي، لأنه في حد ذاته شرف لا يدانيه شرف، وهذا المعني يؤكده لفظ «خيركم» إذ هي بمعني أخير، والمعني فيما يبدوا - والله أعلم - أنه لا أحد أخير ولا أفضل ممن يتعلم القرآن الكريم، ولعل دلالة الحديث علي الإعجاز التأثيري تتأتي من خلال الخيرية التي فاز بها من يتعلم ويعلم القرآن الكريم للناس، فمن يتعلم ويداوم عليه تقوي صلته بالقرآن الكريم، ومن قويت صلته بالقرآن الكريم فتأثره به وارد لا محالة، وليت الأمر يقتصر علي ذلك بل إنه يتعدي إلي تعليمه للناس، وهذا أيضاً أبلغ في التأثر بالقرآن الكريم .قال ابن علاّن- رحمه الله - **«من تعلم القرآن»** أي علمه وتدبر معانيه وهو يطلق

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب فضائل القرآن ، باب خيركم من تعلم القرآن . ج ٤ / ١٩١٩ ، وأخرج الترمذي كتاب فضائل القرآن باب ما جاء في تعليم القرآن برقم ٢٩٠٧ ، ج ٥ / ١٧٣ وقال حديث حسن صحيح .

علي بعضه وعلي كله، ويصح إرادة البعض هنا باعتبار أن من وجد ما يأتي؛ ولو كان في آية خيرٌ ممن لم يكن كذلك وقوله «وعلّمه» أي مخلصاً وداعياً إلي تدبره وفهمه، ومبتغياً به وجه الله - تباركت أسماؤه - ، عاملاً بما فيه من الأخلاق والآداب والأحكام»[١].

وهذا الكلام السابق يؤكد بما لا يدعُ مجالاً لقول قائل أن الحديث يدل علي الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم، زد علي ذلك ما يحوزه العبد من الثواب العميم، والأجر العظيم، هذا بالإضافة إلي الخيرية التي ذكرها النبي في الحديث، ووجه هذه الخيرية ما ورد عن النبي ﷺ في موضعٍ آخر إذ يقول «من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحي إليه»[٢].

ومن ثمّ فإن من حاز هذه الخيرية؛ فتعلم القرآن الكريم وعلمه للناس فقد التحق ببعض درجات الأنبياء، وكان من جملة الصديقين والشهداء، ومن هنا فإن الحديث يبين أفضلية التأثر بالقرآن الكريم وفضل من يؤثر به في الناس، وهنا يتأكد أن للقلب تأثرٌ بالقرآن الكريم عند العلم وعند التعلم، فلو طهرت القلوب حقاً من الغل والحقد ؛ لن تشبع من التأثر بالقرآن الكريم.

يقول الإمام السيوطي عن تدبر القرآن الكريم عند قراءته وتعلمه «وتسن قراءة القرآن الكريم بالتدبر والتفهم فهو المقصود الأعظم من القراءة، إذ هو المطلوب الأهم، فبه تنشرح الصدور، وتستير القلوب.. وصفة القراءة: أن يُشغل قلبه بالتفكر في معني ما يتلفظ به، فيعرف معني كل آية، ويتأمل ما بها من الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك، فإن قصر عنه فيما مضي اعتذر واستغفر، وإذا مرّ بآية رحمة استبشر وسأل؛ أو عذاب أشفق وتعوذ،أو تنزيه نزه وعظم، أو دعاء تضرع ودعا»[٣] وعلي ذلك أصبح المفهوم من الحديث

---

(١) دليل الفالحين بشرح رياض الصالحين ابن علاّن المكي ج ٣ / ٤٨٨ دار الكتب العلمية بيروت بدون .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك كتاب فضائل القرآن باب أخبار في فضائل القرآن جملة ج ١ / ٧٣٨ ، وقال حديث صحيح ، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان باب فضائل القرآن ، فصل في ذكر فضائل القرآن ج ٢ / ٥٢٢
(٣) الإتقان في علوم القرآن السيوطي ج ١ / ١٠٦ بتصرف مرجع سابق .

أن تعلم القرآن يجب أن يقرن بالتدبر، فمن يتعلم القرآن الكريم أو يعلمه دون تدبر، يجعله كأن لم يكن، ومن ثم لا بد من استحضار القلب عند القراءة حتي يتم التأثر والتفهم لكلام الله تعالي، وهذا ما يرمي إلي الحديث - والله أعلم.

الحديث الثالث: فضل من يتأثر بالقرآن:

قال الرسول ﷺ: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة، ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو،ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مر»[1].

في هذا الحديث يوضح الرسول ﷺ أن المؤمن الذي يقرأ القرآن لا بد أن يقرأه بتدبرٍ وفهمٍ، حتي يتأثر بآياته ويخشع عند تلاوته وهذا هو المؤمن الكامل الإيمان «وعبر بالمضارع يقرأ لإفادة تكريره لها ومداومته عليها، حتي صارت دأبه وعادته، وفي رواية يقرأ القرآن الكريم ويعمل به، كمثل الأترجة وهي أحسن الثمار الشجرية وأنفسها، وشبه المؤمن بالأترجة لأنها أفضل الثمار، أو لأنه الشائع في كل البلدان وذلك لأسباب كثيرة جامعة للصفات المطلوبة منها.. الخواص الموجودة فيها فمن ذلك كبر حجمها، وحسن منظرها، وطيب طعمها، وبين التناول تجد أن أكلها يفيد مع التلذذ الكامل بطعمها ونكهتها الجميلة فهنا اشتراك الحواس كلها في هذه الثمرة البصر السمع الذوق اللمس.. ومن ثم كان مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن»[2].

والواضح أن هذا التشبيه من رسول الله ﷺ لقارئ القرآن الكريم؛ إنما يقصد من ورائه أن قارئ القرآن الكريم كله منافع، وكله خير ولك أن تؤكد هذا - إن أردت - من الحديث ففيه.........قراءة «تدبر» تأثر وكل ذلك يحمله الحديث من الرسول ﷺ إما بالتصريح، أو بالتلميح، وهذا يعني أن المؤمن الذي يقرأ القرآن الكريم شأنه كالغيث أينما

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأطعمة باب ذكر الطعام ج٥ / ٢٠٧٠ برقم ٥١١١ .وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة حافظ القرآن ج١ / ٥٤٩، برقم ٧٩٧ .

(٢) تحفة الأحوذي المبارك فوري ج ٨ / ١٣٣ بتصرف مرجع سابق .

حل نفع، ومن ثم ينبت علي أثره الزرع ويزداد الضرع.. وهكذا قارئ كتاب الله تعالي يجب أن يكون علي هذا المستوي العالي الذي ذكره الحديث، وأن يكون علي مستوي التشبيه الذي أكرمه رسول الإنسانية ﷺ به.

«وذلك لأن كلام الله ﷻ له تأثير قوي في باطن العبد وظاهره، والعباد متفاوتون في ذلك؛ فمنهم من له النصيب الأوفر من ذلك التأثير القرآني، وهو المؤمن القارئ للقرآن الكريم، ولعله المشبه في الحديث بالأترجة، ومنهم من لا يطيب له ذلك وهو المنافق المشبه في الحديث بالحنظلة، ومنهم من تأثر بظاهره دون باطنه وهو المرائي، أو بالعكس وهو المؤمن الذي لا يقرأ القرآن ولا يتدبر .

«والأترجة من أفضل الثمار لكبر حجمها ومنظرها وطيب طعمها ولين ملمسها. ولونها يسر الناظرين. وفيه تشبيه الإيمان بالطعم الطيب لكونه خيرا باطنيا لا يظهر لكل أحد. والقرآن الكريم بالريح الطيب ينتفع بسماعه كل أحد ويظهر بمحاسنه لكل سامع»[1].

قال ابن حجر: وليس مراده النفي المطلق بل إنه لا يعرف في كلام فصحائهم (ريحها طيب وطعمها طيب) وجرمها كبير، ومنظرها حسن، إذ هي - يعني الأترجة - صفراء فاقع لونها تسر الناظرين، وملمسها لين تشرف إليها النفس قبل أكلها، ويفيد أكلها بعد الالتذاذ بمذاقها، طِيبُ نكهةٍ ، ودباغُ معدةٍ، وقوةُ هضمٍ، ومن ثمّ اشتركت فيها الحواس الأربعة وهم البصر والذوق والشم واللمس في الاحتظاء بها، ثم هي في أجزائها تنقسم إلى طبائع فقشرها حارٌ يابسٌ يمنع السوس من الثياب ، ولحمها حارٌ رطبٌ ، وحماضها باردٌ يابسٌ يسكن غلمة النساء، ويجلو اللون والكلف، وبزرها حارٌ مجففٌ فهي أفضل ما وجد من الثمار في سائر البلدان، وخص الإيمان بالطعم، وصفة الحلاوة بالريح ؛ لأن الإيمان ألزم للمؤمن من القرآن الكريم، لإمكان حصول الإيمان بدون القراءة، والطعم

(١) سنن ابن ماجه محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني ج ١ / ٧٧ دار الفكر – بيروت تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها .

ألزم للجوهر من الريح فقد يذهب ريحه ويبقى طعمه، وخص الأترجة بالمثل لأنه يداوي بقشرها، ويستخرج من جلدها دهن، ومنافع وهي أفضل ثمار القرب **(ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها)** من حيث أنه مؤمنٌ غيرٌ تالٍ في الحال الذي لا يكون فيه تالياً، وإن كان ممن حفظ القرآن الكريم ذكره ابن عربي **(وطعمها حلو)** وفي رواية طيب أي من حيث إنه مؤمن ذو إيمان **(ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب)** لأن القرآن الكريم طيب وليس إلا أنفاس التالي والقارئ وقت قراءته **(وطعمها مر)** لأن النفاق كفر الباطن والحلاوة إنما هي للإيمان فشبهه بالريحانة لكونه لم ينتفع ببركة القرآن الكريم ولم يفز بحلاوة أجره فلم يجاوز الطيب موضع الصوت وهو الحلق ولا اتصل بالقلب **(ومثل المنافق الذي لا يقرأ القِرآن كمثل الحنظلة)** وهي معروف تسمى في بعض البلاد بطيخ أبي جهل **(ليس لها ريح وطعمها مر)** لأنه غير قارئ في الحال قال ابن عربي: وعلى هذا المجرى كل كلام طيب فيه رضا الله تعالي صورته من المؤمن والمنافق صورة القرآن الكريم في التمثيل غير أن كلام الله تعالي لا يضاهيه شيء أشار بضرب المثل إلى أمور منها أنه ضربه بما يخرجه الشجر للمشابهة بينه وبين الأعمال فإنها من ثمرات النفوس ومنها أنه ضرب مثل المؤمن بما يخرجه الشجر ومثل الكافر مما تنبته الأرض تنبيها على علو شأن المؤمن وارتفاع عمله وانحطاط شأن المنافق وإحباط عمله ومنها أن الشجر المثمر لا يخلو عمن يغرسه ويسقيه وكذا المؤمن يقيض له من يعلمه ويهديه ولا كذلك»[1].

ويلاحظ في هذا الحديث نوعان من التشبيه: أحدهما بالريح الطيبة والثاني بالطعم الطيب. فالريح الطيبة تنتشر إلى الغير، أي أن قارئ القرآن الكريم سواء كان مؤمنا أم منافقا يعم نفعه إلى غيره ممن يسمع تلاوته ولا ينحصر نفعه بنفسه وحدها. وقد يعم نفعه إلى غيره بإقرائه غيره أو بأمره أو إبلاغه ما ورد في القرآن الكريم من أوامر ونواه. أما الطعم الطيب فلا يستشعر إلا من المرء بنفسه ولا يستشعر من قبل الغير. لذلك فإن

---

(١) راجع في هذا فتح القدير بشرح الجامع الصغير المناوي ج ٥ / ٥١٣ المكتبة التجارية مصر، الطبعة الأولي ١٣٥٦.

الإيمان كالطعم الطيب يتحسس به المرء نفسه وينفعه باتباع أوامره واجتناب نواهيه ولا يعرفه غيره إلا بالتدقيق والمراقبة وكثرة التعامل وربما غاب عن الغير نهائيا.إن من يقرأ القرآن الكريم لا بد وأن تظهر على جوارحه آثاره بالعمل به أو بالأمر بما ورد فيه أو بالنهي عن زواجره أو بالاقتباس منه في كلامه أو بكثرة ترداد آياته والاستشهاد بها ولا يخفى ما في ذلك من أثر واضح على تأثير كلام الله تعالي وفضل المرء على غيره من الناس.

كما يلاحظ أن قراءة القرآن الكريم حتى ممن لا يؤمن به من غير المسلمين مثلا تجعل الكلام سليما من الناحية اللغوية والبلاغية وحسن العبارة ودقة التعبير وسلامة اللفظ باللغة العربية.

والحاصل من الحديث أن الناس عند قراءة القرآن الكريم أصناف إما مؤمن يقرأ بتدبروتمعن، وإما منافق لا يعي من القرآن الكريم شيئاً، ولعل الحديث يشير إلي ذلك، ويؤكد فضل من يقرأ القرآن الكريم بتأثر وتدبر، وصور ذلك بصور محسوسة تقرب الصورة إلي ذهن السامع، من مثل الأترجة..، والحنظلة.

الحديث الرابع: فضل قارئ القرآن المتأثر به: قال رسول الله ﷺ **«يقال لقارئ القرآن إقرأوارتقِ ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرأها»**[1].

في هذا الهدي النبوي الكريم يوضح الرسول ﷺ منزلة قارئ القرآن الكريم المتأثر به في الأخرة وهي منزلة رفيعة الشأن عالية القدر، إذ هي ارتقاءٌ في درج الجنان، والارتقاء هنا علي قدر التأثر بالقرآن الكريم، ولعلك تلحظ هذا من خلال قول النبي «ورتل» والترتيل منزلة رفيعة لاتتم إلا بالتأثر والتدبر؛ فالارتقاء في درج الجنان مرتبطٌ ارتباطاً وثيقاً بتلاوة القرآن الكريم، والتأثر به وتفهم معانيه ومن ثمّ كان الجزاء من جنس العمل؛ فمن رتل وتدبر في الدنيا استحق - وبجدارة - هذه المنزلة الرفيعة عند الله - تعالي - تمنح لمن رتل القرآن الكريم، وتدبر معانيه وتأثر بكل ما جاء فيه فالرقي في درجات

---

(١) أخرجه الترمذي في الصحيح كتاب فضائل القرآن باب ١٨ ج٥ / ١٧٧ ، وقال عنه أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح . وذلك برقم ٢٩١٤ ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه كتاب الرقائق ، باب قراءة القرآن ج٣ / ٤٣ ، وقال عنه شعيب الأرنؤط «إسناده حسن» وذلك برقم ٧٦٦ .

الجنة ملازمٌ للتلاوة والتدبر، فهذه التلاوة التي هي في الآخرة إنما هي لمجرد التلذذ كعبادة الملائكة، أما قراءة الدنيا فهي قراءة تدبر وتأثر ولذا قال بعض العلماء «إن من عمل بالقرآن الكريم وتدبره فكأنه يقرأه دائماً وإن لم يقرأه ومن لم يعمل بالقرآن الكريم فكأنه لم يقرأه وإن قرأه دائماً»[1] .

ومن خلال ما سبق يتبين أن مجرد التلاوة والحفظ لا يعتمد بأن يترتب عليه المراتب العليا في الجنة، ولكن المقصود هو التدبر والتأثر والتفهم والعمل بالقرآن الكريم.

الحديث الخامس: أجر قارئ القرآن: قال رسول الله ﷺ **«الذي يقرأ القرآن وهو ماهرٌ به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران»[2] .**

وفي هذا الحديث الشريف يؤكد رسول الله ﷺأن الماهر بالقرآن الكريم مع السفرة الكرام البررة من الملائكة الكرام، وهذه الدرجة لها معني هام لا يمكن تجاوزه بأي حال؛ ألا وهو أن قارئ القرآن الكريم الذي يكون في درجة الملائكة؛ لايمكن أن يكون قارئاً وفقط، بل متدبراً ومتفهماً كذلك وذلك لأنه لم يصل إلي درجة الملائكة بمجرد القراءة، ولكن المعني أنه ماهر بالقرآن الكريم في قراءته وتدبره والتأثر به علي حد سواء، فالقارء لا يرقى درجة الملائكة والأنبياء من فراغ، وإلا أصبح الأمر سهلاً ميسوراً، وإنما يرقى هذه الدرجة لجودة حفظه للقرآن الكريم مع تأثره بآياته وتدبره لمعانيه. «ويحتمل أن يكون معني كونه مع الملائكة - أي قارئ القرآن الكريم - أن له في الأخرة منازلَ يكون فيها رفيقاً للملائكة السفرة الكرام؛ وذلك لإتصافه بصفاتهم من حمل الكتاب - أي القرآن الكريم - ويحتمل أن يراد أنه عاملٌ بعملهم، وسالكُ مسلكهم، ومتدبرٌ لآيات القرآن الكريم مثلهم»[3] ومن ثم اتصف قارئ القرآن الكريم المتأثر بما فيه بما هو قد أُعد للملائكة الكرام.

---

(1) عون المعبود شرح سنن أبي داود ج٤ / ٢٣٨ مرجع سابق .

(2) أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل الماهر بالقرآن والذي يتعتع فيه ج ١ / ٥٤٦ ، برقم ٧٩٨ واللفظ له والبخاري كتاب التفسير سورة عبس ج٤ / ١٨٨٢ بلفظ «وهو يتعاهده» برقم ٤٦٥٣ .

(3) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي المبارك فوري ج٨ ١٧٩ دار الكتب العلمية بيروت بتصرف .

وهل يتمنى المسلم أكثر من هذا أعتقد ان لا، لقد وصل إلي درجة عليا ومنزلة سامية، وذلك بفضل تأثره وتدبره لآي الذكر الحكيم .

الحديث السادس: جزاء مدارسة القرآن: قال الرسول ﷺ «......وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[1].

وفي هذا الهدي النبوي يوضح الرسول ﷺ ثواب من يتدارس القرآن الكريم، ويتدبر معانيه، ويتلوه حق تلاوته، إذ أن التلاوة مع المدارسة للقرآن الكريم؛ تثمر نتائج عظيمة أهمها التدبروالتأثر للقرآن الكريم، والإيمان بكل ما جاء فيه، زد علي ذلك أن التلاوة والمدارسة تكون في جمع، وهذا مما يزيد القوم تدبراً فوق تدبرهم، وتأثيراً زيادة علي تأثرهم به، وهذا فضل الله تعالي يؤتيه من يشاء، والله ذو فضلٍ عظيمٍ علي متدبري القرآن الكريم، حيث إن كل واحد من المجتمعين قد يفتح الله - تعالي - عليه معنيً من المعاني للقرآن الكريم لا تكون عند الآخر، ومن ثمّ يعلو التأثر لدي الجميع ، ولعل هذا هو الهدف المقصود من هذا الاجتماع. المدارسة تعني التفهم التام لمعاني القرآن الكريم، ومعرفة أحكامه، والاتعاظ بمواعظه، وتدبر معانيه، وهي الطريقة المثلي في حفظ القرآن الكريم والعمل به، وهذا الفظ قد استعمله جبريل- عليه السلام - مع النبي عندما كان ينزل عليه بالقرآن الكريم حيث قد ورد «... فيدارسه القرآن... الحديث»[2] يلاحظ في هذا الحديث أن ترغيب الرسول ﷺللمؤمنين في اكتساب العلم مقترن بالثواب يوم القيامة وليس بثواب دنيوي رغم أن العلم قد يدر على صاحبه مكانة دنيوية أو أجرا ماديا ولكن أقصى درجات الرفعة والمنزلة والثواب هي أن يذكر الله تعالى العبد كما قال ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[3]. لأن تلاوة كتاب الله تعالي ذكر لله تعالى والله تعالي يذكر من يذكره. إن الثواب والعقاب غالبا ما يكون من جنس العمل. فمن يسلك طريق العلم يسهل الله

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب فضل الاجتماع علي تلاوة القرآن وعلي الذكر ج ٤ / ٢٠٧٤ برقم ٢٦٩٩ .

(٢) أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي ج١ / ٦ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٥٢ .

تعالي له الطريق إلى الجنة ومن يذكر الله تعالي بتلاوة كتابه يذكره الله تعالي ومن يذكر الله في ملأ يذكره الله في ملأ خير من ملأه ومن يغفل عن الله تعالى لا يأبه الله تعالى به.وإن تدارس القرآن الكريم منار لاستلهام كل العلوم الشرعية فقد روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: من أراد العلم فليثوِّر القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين.

إن للمساجد منزلة عالية عند الله تعالي فهي بيوت العبادة وهي بيوت العلم وهي بيوت الذكر. فيها كانت تعقد حلقات العلم وفيها كانت تقرر عظائم الأمور ومنا تعقد رايات الجهاد وفيها يتم إنصاف المظلومين ومنها توزع الزكاة وتسير منها ركائب الحجيج. وتضاعف صلاة الفريضة فيها ويتضاعف ثواب المعلمين والمتعلمين فيها كما يتضاعف ثواب الذاكرين الله تعالي كثير والذاكرات.

ويحث الإسلام المسلمين على طلب العلم والبدء بالأهم ثم المهم. فليس لهم أن يطلبوا دقائق فرعية ويتركوا الأمور الهامة من العلوم سواء كان ذلك العلم من أمور دينهم أم من أمور دنياهم. فالطب والهندسة وغيرها من العلوم الطبيعية لا تقل في فضلها وحاجة الناس إليها عن بعض أمور دينهم فهي فروض كفايات إن تركها المسلمون أثموا جيعهم وإن قام بها بعضهم رفع الإثم عن الجميع. قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

ومن تتمة القول أذكر: إن الحديث يؤكد الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم، وتدبر معانيه والتأثر بكل ما جاء فيه.

الحديث السابع: عن جندب بن عبد الله ﷺ عن النبي ﷺ قال:«قرأوا القرآن ما أتلفت عليه قلوبكم فإذا اختلفتم فقوموا عنه»[2].

المقصود باقرأوا - والله أعلم - تدارسوا. والاختلاف المشار إليه في الحديث هو أي اختلاف، سواء كان حول التفسير والمعاني أو كان حول أصول التجويد وعلم القراءات

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٤.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم

أو كان حول الاستنباط وكيفية تطبيق الأحكام.ويتبين من الحديث أن الاختلاف الذي هو مدعاة للضعف والتفرق يجب اجتنابه بل وحتى التوقف عن تلاوة القرآن الكريم أو تدارسه وتعلمه عند ظهور بوادر الاختلاف لأن بركة التلاوة والتعلم تمحق نتيجة الاختلاف وتبتعد القلوب عن بعضها ويدخل الشيطان لكي يثير نوازع النفس الإنسانية من حب للظهور والعجب بالرأي والأنانية.

قال سهل التستري رضي الله عنه: في القرآن الكريم آيتان ما أشدهما على من يجادل في القرآن الكريم وهما قوله تعالى ﴿مَا يُجَادِلُ فِي ءَايَاتِ اللهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1] أي يماري في آيات الله ويخاصم بهوى نفسه وطبع جبلة عقله والثانية قوله تعالى﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾[2].

وأحد الأسباب الرئيسية للاختلاف هي الجدل وقد نهى الله تعالي عنه في الآية الكريمة السابقة أي الجدل في القرآن الكريم والجدل منهي عنه سواء كان جدلا في القرآن الكريم أم بغيره إن استند إلى التعصب للرأي والدفاع عن ذلك بأساليب الحق والباطل على السواء وقد بين الرسول ﷺ جزاء من يترك المراء (أي الجدل) بأن يبني له بيتا في ربض الجنة إن كان مبطلا وفي أعلاها إن كان محقا. أما الجدال دفاعا عن الحق ضد أهل الباطل فيجب أن يكون بالموعظة الحسنة. قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[3] وهو غير الجدل المنهي عنه في الحديث أعلاه والذي ينبع من نوازع النفس والهوى.

أما اختلاف وجهات النظر المستند إلى أسس صحيحة ومبعثة الاجتهاد مع التخلق بالأدب الرفيع واحترام وجهة نظر المخالف فهو غير داخل ضمن هذا النهي لأن الله تعالى قد خلق الناس نختلفين في قابلياتهم العقلية وإطلاعهم وخبراتهم ومن ثم لا بد وأن ينعكس ذلك على فهمهم وتصوراتهم

---

(١) سورة غافر الآية ٤ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٧٦ .

(٣) سورة النحل الآية ١٢٥ .

المبحث الثاني: الآداب المعينة علي التأثر بالقرآن الكريم:

القرآن الكريم كلام رب العالمين ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه ، ولا تمتد إاليه يد التحريف والتبديل والتغير، ومن ثمّ فإن القرآن الكريم محفوظ بحفظ الله -تعالى - له يقول تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1] وعليه كان هذا الحفظ الإلهي نعمةً من أجل النعم التي أنعم الله بها علي أمة محمد ﷺ ومن هنا كان لزاماً علينا معشر المسلمين؛ أن نلتزم بما أنزل الله تعالى القرآن الكريم من أجله؛ ألا وهو التأثر بالقرآن الكريم، والتدبر لآياته قال تعالى ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[2] لكن هذا التأثر وهذا التدبر يحتاج من المسلم إلي آداب تعينه علي تحقق ذلك، وحصوله في القلب، وهذه الآداب تخرج في صورتين.

الصورة الأولي: تتعلق بالقلب ويطلق عليها الآداب القلبية وتتعلق بالوجدان والفؤاد، بين المسلم وربه.

والصورة الثانية: تتعلق بالظاهر ويطلق عليها مسمي الآداب الظاهرية، وتتعلق بالمظهر الخارجي، وهذه الآداب بجملتها تشكل في النهاية تاثراً ملموساً لدي قارئ القرآن الكريم، ومستمعه علي حد سواء، ومن هذا كان ذكر هذه الآداب في هذا الموطن من الأهمية بمكان والناظر في هذه الآداب يلحظ أنها تحتوي علي مقدمات الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم، ولذا كان علي قارئ القرآن الكريم ومستمعه؛ أن يلتزم بهذه الآداب جملة، حتي يحصِّل التأثير القرآني.

المطلب الأول: الآداب القلبية: وأبدأ بذكر ما يتعلق بالقلب من آداب، تجاه القرآن الكريم حتي يتم الوصول إلي الغاية الكبري من إنزال القرآن الكريم، وهي التدبر والتأثر كما ذكر الله تعالى ومن هذا الأساس، أذكر هذه الآداب في صورة نقاط محددة دون تطويل ومنها .

---

(١) سورة الحجر الآية رقم (٧).
(٢) سورة ص الآية رقم (٢٩).

١ - حضور القلب وطرد حديث النفس أثناء التلاوة أو الاستماع.

وهذه النقطة من الأهمية بمكان لمن يريد أن يحصل التأثير القرآني داخل قلبه، ومن ثم كان استحضار القلب عند قراءة القرآن الكريم أمراً واجباً لا محيص منه أبداً، وهذا الحضور يتأتي بعدة أمور ذكرها العلماء الفضلاء من هذه الأمور «أن يكون لله ذاكراً، ولنعمه شاكراً، وعلي ربه متوكلاً، وبالله مستعيناً وإلي الله راغباً، وبالله وكتابه معتصماً، وللموت مستعداً، وأن يكون دائماً خائفاً من ذنبه، راجياً عفو ربه ويكون خوفه من ربه حال الصحة أغلل عليه، وأن يجعل الزهد نصب عينيه، وأن يراقب ربه في سره وعلانيته، وأن يربأ بنفسه عن الانغماس في الشهوات، وأن يبتعد عن الشهوات والمراء والجدل»[١]. وهذا لعمري مما يجعل القلب في حالة استعداد للتأثر للقرآن الكريم، بل إن القرآن الكريم نفسه إذا ما أقبل عليه العبد زرع فيه الأثر الحي بآياته وكلماته وحروفه والقرآن الكريم في حد ذاته يؤثر دون الحاجة إلي مؤثر خارجي، وذلك لأنه كلام الله تعالى، ولذا يجب علي المسلم أن يعلم أنّ قراءة القرآن الكريم واستماعه من أفضل الأعمال التي يقوم بها، لأنها تغسل القلب بماء الإيمان، وتشرح الصدر لتقبل الهدي والضياء كما أن الله تعالى لا يعذب قلباً وعي القرآن الكريم.

يقول أبو أمامة الباهلي **«اقرأوا القرآن ولا تغرنكم هذه المصاحف المعلقة فإن الله لا يعذب قلباً هو وعاء للقرآن»**[٢]. ولهذا كان القلب أهم أدوات التأثير القرآني كما يأتي ذكره فيما بعد، وهذا القلب الذي وعي القرآن الكريم أي تأثر به، وتدبر ما فيه؛ لا يعذبه الله تعالى.

ومن ثمّ يعلم أن القرآن الكريم والتأثر بآياته، والتدبر لمعانيه من أفضل الأعمال التي يقوم بها المسلم بل إنها - في نظري - افضلها علي الإطلاق، وذلك حيث إن القارئ يحادث الله - تعالى باللسان، ويتأثر في ذات الوقت بالجنان، وهذا هو المقصود من نزول القرآن الكريم، «ليدبروا» وهذا كمال التدبر ومنتهي التأثر، فالواجب علي المسلم إذن، أن يتحقق

---

(١) مع القرآن الكريم الشيخ الحصري ص ٣٠ : ٣٣بتصرف طبعة الشمولي الطبعة الثانية ١٣٦٩ه/ ١٩٧٦ م.
(٢) إحياء علوم الدين الغزالي ج١ / ٣٣٣ طبعة دار الريان للتراث، الطبعة الأولي ١٤٠٧ ه/ ١٩٨٧ م.

في قلبه هذا المعني، علي أي حال كان أعني قارئاً أو مستمعاً، ولذا يقول الإمام النووي «أن يكون علي أكمل الأحوال وأكرم الشمائل، وأن يرفع نفسه عن كل ما نهي عنه القرآن الكريم إجلالاً وإكباراً، وأن يكون مصوناً عن دنئ الاكتساب، وأن يكون شريف النفس مرتفعاً علي الجبابرة والجفاة من أهل الدنيا، متواضعاً للصالحين وأهل الخير والمساكين وان يكون متخشعاً ذا سكينة ووقار، وقلب حاضر للقرآن الكريم لا يغيب عنه أبداً»[1].

وما دام الأمر كذلك فلا بد أن يتفاعل القلب مع القرآن الكريم تفاعلاً يليق بمقام القرآن الكريم ، فيتأمل في معاني أسماء الله تعالى وصفاته، حسب فهم السلف الصالح، متأسياً في ذلك بأحوال الأنبياء الصالحين، معتبراً بأحوال المكذبين والمعاندين، وهذا عين التأثر الحق بالقرآن الكريم وآياته المعجزات، وعليه أن يستحضر في قلبه أنه يناجي ربه - ﷻ- ولذا يجب عليه أن يلتزم الآداب علي كل حال؛ لأن الله تعالى يراه علي كل أحواله.

فحضور القلب أن ينصرف إلي القرآن الكريم دون غيره، وقد قيل لبعضهم: هل تحدث نفسك بشئ غير القرآن الكريم؟ فقال: أوشئ أحب إليّ من القرآن الكريم حتي أحدث به نفسي، وهكذا كان حال السلف الصالح ومن قبلهم الصحابة الكرام ﷺ لقد كانوا أشد الناس تأثراً بالقرآن الكريم، لدرجة أن أحدهم إذا ما قرأ آية من القرآن الكريم ولم يجد قلبه معها أعاها ثانية، حتي يستقبلها قلب وينفعل بها، وإني أعتقد - والله أعلم - أن هذه الصفة - وهي تأثرهم الشديد بالقرآن الكريم - قد تولد من تعظيمهم للقرآن الكريم، ومنزلتهم في قلوبهم، فمن يعظم القرآن الكريم ويعرف له قدره؛ يتلوه بتدبر وتأثر ولا يغفل عنه أبداً، وإني أتسائل هل من شئ غير القرآن الكريم يستأنس به القلب؟ أعتقد أنه لا يوجد غيره - أعني غير القرآن الكريم.

كما أن علي القارئ للقرآن الكريم أو المستمع له إذا ما أراد أن يتأثر بالقرآن الكريم، ويؤثر به في الناس فعليه أن يصون يده من العبث، وعن كل ما من شأنه أن يشينه، ويصون عينه من تفريق النظر من غير حاجة ولا ضرورة «فصلاح هذه الأمة لا يصلح إلا

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن النووي ص ٢٩ الوكالة العامة للتوزيع دمشق الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

بما صلح به أولها، ولقد صلحت أنفس العرب بالقرآن الكريم إذ كانوا يتلونه حق تلاوته في صلواتهم المفروضة، وفي تهجدهم، وفي سائر أوقاتهم؛ فرفع أنفسهم، وطهر قلوبهم، وأثر فيهم أثراً بالغاً، وهذب نفوسهم وطهر عقولهم من خرافات الوثنية المذلة للنفوس، ورفع أخلاقها، وأعلي همها ووصل بقلوبهم إلي ذروة التأثير والتأثر فأرشدهم بذلك إلي تسخير هذا الكون كله لأجل تحقيق التأمل والتدبر للقرآن الكريم»[1].

وأعتقد أن أحداً لن يحدث له ذلك مادام غير حاضر القلب، فحال قارئ القرآن الكريم المتأثر به يكون بحضور قلبه؛ واستحضار عظمة الخالق سبحانه وتعالى، وذلك في كل أحواله حين التلاوة وبعدها، أما من يقرأون القرآن الكريم وقلوبهم عنه منشغلة، وأفئدتهم منه غيروجلة، فهؤلاء لاعلاقة لهم بتديرالقرآن الكريم ولا بالتأثر بآياته، ولا بروعة بيانه وهذا - للأسف - يحدث كثيراً.

ومن هنا أستطيع القول: **إن حضور القلب من أهم الآداب القلبية التي تعين المسلم علي التأثر بالقرآن الكريم**، وإن من يفعل ذلك إنما يستأنس لقلبه وفكره وعقله بكلام الله تعالى، وفي هذا يقول الإمام الغزالي «ففي القلب ما يستانس به القلب إذا كان القارئ للقرآن والمستمع له أهلاً لذلك، فكيف يطلب الأنس بالفكر في غيره؟ والقارئ للقرآن الكريم المتأثر بآياته المتدبر لمعانيه، المؤمن بكل ما جاء فيه، في متنزه من المتنزهات لا يتفكر في غيرها، وقد قيل إن في القرآن الكريم ميادين وبساتين ومقاصيسر وعرائس وديابيج وخانات ورياضات، فالميمات ميادينه، والراءات بساتينه، والحاءات مقاصيره، والفصل رياضه، والخانات ما سوي ذلك، فإذا دخل القارئ أو المستمع ومن معهما هذه الميادين، وقطف من البساتين، ودخل القياصر، وشهد العرائس، ولبس الديابج، وتنزه في الرياضة، وسكن غرف الخانات؛ استقر له التأثر بالقرآن الكريم، وشغله ذلك عما سواه، ومن ثمّ لم يعزب قلبه ولم يحر فكره»[2]. وبهذا يكون حضور القلب وعدم الإنشغال أثناء تلاوة القرآن الكريم أو الاستماع إليه، من أهم الآداب التي تعين علي التأثر به

---

(١) تفسير المنار الشيخ محمد رشيد رضا ج٢ / ١٦٧ مرجع سابق.

(٢) إحياء علوم الدين الإمام الغزالي ج ١ / ٣٣٩ بتصرف مرجع سابق.

والتدبر لآياته والتفهم لمعانيه.

٢ - **التدبر ومحاولة استيعاب المعني:** وهذا أيضاً من أهم الآداب القلبية التي تعين علي التأثر بالقرآن الكريم، إذ أن التأثر لا يتأتي إلا عقب التدبر وحضور القلب والفكر.

معني التدبر: هو في اللغة بمعني التفكير «يقال تدبر الأمر أي تفكر فيه»[١].

والمعني الحقيقي لتدبر القرآن الكريم هو التفكر والتأمل لآيات القرآن الكريم من أجل فهمها والوصول إلي إدراك معانيها وكنه أسرارها، والغوص فيها لاستخراج لآلئ البيان ومعرفة الأحكام وقيل التدبر: التفكر الشامل الموصل إلي آخر دلالات الكلام ومراميه البعيدة»[٢].

ولكن هذا التدبر لا يتأتي لكل الناس، بل لا بد من توافر من عدة أمور يعرف بها المتدبر من غيره «طوهي ما يطلق عليها اسم علامات التدبر لكتاب الله تعالى:

أ / اجتماع القلب والفكر حال القراءة والاستماع ، وأعني باجتماعهما؛ أن لا ينشغلا بغير القرآن الكريم حتي يتم التأثر المراد، فالقلب يتأثر والفكر يجول ويصول ليصل في النهاية إلي الهدف من وراء إنزال القرآن الكريم؛ وهو التأثر والتدبر.

ب / البكاء من خشية الله - سبحانه وتعالى - عند التلاوة والتدبر، وعند الاستماع إلي القرآن الكريم كما سيأتي بيانه في موطنه. وهذا الخشوع وذاك التدبر حال القراءة يزيد معه الإيمان، وتعلو معه درجة المؤمن، ولذا يقول تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[٣].

وعقد البخاري في فضائل القرآن الكريم من صحيحه بابًا للبكاء عند قراءة القرآن الكريم.

---

(١) المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية ص ٢٧٨ مرجع سابق.
(٢) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله حبنكة الميداني، ص ١٠ دار القلم دمشق الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٥م
(٣) الأنفال الآية رقم { ٢ }.

وقال الغزالي: «يستحب البكاء مع القراءة وعندها، وطريق تحصيله أن يحضر قلبه الحزن والخوف يتأمل القارئ ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود، ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجره، فيحزنه لا محالة، ويبكي»[1].

ج / أن يفرح ويستبشر عند ذكر الآيات المبشرات: وأن يقشعر جلده عند ذكر المنذرات بالعذاب، ولعل هذه العلامات التي تمايز المتدبر للقرآن الكريم من غيره، إذا ما استجمعت في امرئ مسلم فإنها تجعله أكثر تدبراً للقرآن الكريم من غيره.

ولعل هذه العلامات التي سبق ذكرها هي للمتدبر للقرآن الكريم، والمتأثر بآياته، ومن استجمع هذه العلامات أو بعضاً منها فقد حصّل التأثر القرآني الذي أتحدث عنه الآن، أما من فقد مثل هذه العلامات فحاله حال من يقرأ بلسانه ولا يعي قلبه ولا يتدبر وجدانه - وللأسف هذا يحدث كثيراً - ومن هذا حاله فهو المحروم من نعمة الله تعالى؛ نعمة التدبر والتأثر لكتاب الله - تعالى -، ولم يصل بعد إلي شئ من كنوزه وذخائره، وعندئذٍ لا يلومنّ إلا نفسه، وحال الصحابة والسلف الصالح يؤكد هذا التدبر والتأثر للقرآن الكريم، والتفهم لمعانيه، وتأمل قول ابن مسعود ﷺ «ينبغي لقارئ القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وببكائه إذا الناس يضحكون وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يحتالون، وبحزنه إذا الناس يفرحون يقول الحسن ابن علي ﷺ «إنّ من كان قبلكم رأوا القرآن الكريم وسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار»[2].ومن ثمّ يعلم أن تدبر القرآن الكريم أمرٌ في غاية الأهمية للوصول به إلي سويداء القلوب، ومن هذا المنطلق الجليل يعلم أن القرآن الكريم له تأثير فريد علي من يستمع إليه أو يقرأه، ولكن قد يتعلل البعض بأن القرآن الكريم قد جاء أسلوبه في أعلي قمم الفصاحة والبلاغة والبيان وفهمي لا يصل إلي مستواه، وهذه التعلة ليست عندي بمكان، وهي علة لا تقبل وذلك لما يلي:

---

(١) إحياء علوم الدين: (١/ ٢١٩).مرجع سابق

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن الإمام النووي ، ص ٢٦ مرجع سابق .

من أوكد الأمور التي يجب إقرارها أن القرآن الكريم جزلٌ في ألفاظه، فخمٌ في عباراته، قويٌ في أسلوبه، وهذا كله لاينكره أحد بل لا يختلف عليه اثنان؛ فضلاً عن أن يقول به واحد، وجواب الإعتراض مردود على قائله بقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[1] وهذه الآية تؤكد - بما لايدع قولاً لقائل بعد ذلك أن يدعي أنه لا يفهم القرآن الكريم- وتوضح أن القرآن الكريم سهل ميسور سهّل الله تعلي حفظه لمن عنده استعداد لهذا، ويسّر الله فهمه لمن أراد ذلك، ثمّ عقب الله في نهاية الآية بهذا الأسلوب الإنكاري «فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ» أي هل هنالك من يتعظ أويعتبر عند قراءة القرآن الكريم أو سماعه. إن القرآن الكريم بين واضح ظاهر وفهمه وفقهه وتدبره ليس صعبا بحيث نغلق عقولنا ونعلق فهمه كله بالرجوع إلى كتب التفسير، فنعمم حكم الأقل على الكل فهذا مفهوم خاطئ وهو نوع من التسويف في تدبر القرآن الكريم وفهمه،إن إغلاق عقولنا عن تدبر القرآن الكريم بحجة عدم معرفة تفسيره، والاكتفاء بقراءة ألفاظه مدخل من مداخل الشيطان على العبد ليصرفه عن الاهتداء به.

وإذا سلمنا بهذه الحجة فإن العقل والمنطق والحزم والحكمة أنك إذا أشكل عليك معنى آية أن تبادر وتسارع للبحث عن معناها والمراد بها لا أن تغلق عقلك فتقرأ دون تدبر أو تترك القراءة. لأنك لست بفاهم، كل هذا كلام يقوم علي قدم وساق.

قال سهل بن عبد الله التستري: «لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن الكريم ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودع الله تعالى في آية من كتابه لأنه كلام الله تعالى وكلامه صفته وكما أنه ليس لله تعالى نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه.. وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله تعالى على قلبه وكلام الله تعالى غير مخلوق ولا يبلغ إلى نهاية فهمه فهوم محدثة مخلوقة»[2] وصدق الله تعالى إذ يقول ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾[3] وليس هذا فحسب بل يقول تعالى في موطنٍ آخر،

---

(١) سورة القمر الآية رقم (٧) .

(٢) مقدمة تفسير البسيط للواحدي (رسالة دكتوراه) : ١-٣٤

(٣) سورة الكهف الآية رقم ١٠٩ .

يؤكد نفس المعني ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

والتجربة والواقع يشهدان بذلك فإن الناس يتفاوتون في فهمهم وإداركهم لآيات القرآن الكريم وتنزيلها على أمور حياتهم، وأيضا فإن الشخص نفسه قد ينفتح له فهم لبعض الآيات ويتأثر بها ويأتي في وقت آخر يقف أمام الآية وقد أغلقت دونه، يقف أمامها ويقول لقد تأثرت بهذه الآية يوما من الأيام فأين ذاك التأثر أين ذاك الفهم؟إن فهم القرآن الكريم وتدبره مواهب من الكريم الوهاب يعطيها لمن صدق في طلبها وسلك الأسباب الموصلة إليها بجد واجتهاد أما المتكئ على أريكته المشتغل بشهوات الدنيا ويريد فهم القرآن الكريم فهيهات هيهات ولو تمنى على الله تعالى الأماني. والمسلمون مأمورون بتدبر آيات القرآن الكريم وفهم معانيه؛ وذلك لأنه كلام الله تعالى، والناس ينشطون لفهم القرآن الكريم، ومن ثمّ قال الإمام علي «لا خير في عبادة لا فقه فيها، ولا خير في قراءة لايصحبها تدبر»[2] ولقد أخبرالله ﷻ أن المستمع للقرآن الكريم باذنيه، والقارئ له بلسانه وبصره؛ ينبغي أن يكون شاهداً بقلبه ما يتلو وما يسمع؛ وذلك لينتفع بالتلاوة والاستماع ومن ثمّ يؤديه ذلك إلي التدبر الذي حثّ الله تعالى عليه إذ قال:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[3] تري إلي هذا الحد يحث الله تعالى خلقه علي أن يتدبروا كلامه، وذلك لأنه الطريق إلي معرفته - سبحانه وتعالى - فمن تدبر القرآن الكريم عرف حقاً منزلة ربه، وعظيم سلطانه وقدرته قال تعالى ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾[4] وعرف عظيم تفضله علي المؤمنين، وعرف ما عليه من فرض عبادته؛ فألزم نفسه الواجب، فحذره مما حذره منه مولاه الكريم، ورغبه فيما رغبه فيه، ومن كانت هذه صفته عند تلاوته للقرآن الكريم وعند استماعه من غيره، كان القرآن الكريم له شفاء فاستغني بلا مال وعز بلا عشيرة،

---

(١) سورة لقمان ٢٧ .

(٢) إحياء علوم الدين الغزالي ج١ / ٣٣٧ مرجع سابق .

(٣) سورة محمد الآية رقم (٢٤) .

(٤) سورة النساء الآية رقم (٨٢).

وانس بها يستوحش منه غيره، وكان همه عند تلاوة السورة إذا افتتحها: متي أتعظ بما أتلوه؟ ولم يكن مراده متي أختم السورة؟ وإنما مراده متي أعقل من الله تعالى الخطاب؟ متي أذدجر وأعتبر؟ لأن تلاوة القرآن الكريم عبادة والعبادة لا تكون بغفلة»(١) وعلي ذلك يكون تدبر القرآن الكريم بمثابة النور الذي لا بد منه ليحيا المسلم في ظلاله، وفي نظري أن تدبر القرآن الكريم والعيش في رحابه من أجمل المتع التي يتمتع بها كل مسلم، يريد لنفسه صلاحاً في الدنيا و نجاةً في الآخرة، والآيتان الكريمتان اللتان سبق ذكرهما قبل قليل من سورة النساء، وسورة محمد، تؤكدان أن الله تعالى يستنكر علي الناس عدم تدبرهم لكلامه وتأثرهم به. زهذا مستفاد من قوله تعالى «أفلا يتدبرون».

يقول سيد قطب في ذلك «إنه يتسائل في استنكار وذلك لأن تدبر القرآن الكريم يزيل الغشاوة، ويفتح النوافذ، ويسكب النور ويحرك المشاعر ويستجيش القلوب، ويخلص الضمير وينشئ حياةً للروح تنبض بها وتشرق وتستنير ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ فهي تحول بينها وبين النور، فإن استغلاق قلوبهم كاستغلاق الأقفال التي لا تسمح بالهداية والنور»(٢).

ألا ما أجمل التعبير القرآني للذي لا يتدبر القرآن الكريم، فكأنه يحرم نفسه حتي من الهواء الطلق، ويحرم قلبه من اللذة المعنوية، ويحرم عينه من المتعة، وأذنه من هذا النعيم، ومن ثمّ يشعر أنه ليست له قيمة تحترم. يقول البيضاوي «أفلا يتدبرون القرآن، أي يتأملون في معانيه، ويتبصرون ما فيه، وأصل التدبر النظر في أدبار الشيء، ولو كان من عند غير الله» أي ولو كان من كلام البشر كما يزعم الكفار لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، من تناقض المعني، وتفاوت النظم، وكان بعضه فصيحاً وبعضه ركيكاً وبعضه يسهل معارضته وبعضه يصعب»(٣).

٣ - معرفة قدر القرآن الكريم:

إن المسلم الذي يقرأ القرآن الكريم لا بد أن يضع في قرارة نفسه أنه يرتل كلام الله

---

(١) أخلاق أهل القرآن الآجري ص٥ مرجع سابق.
(٢) في ظلال القرآن سيد قطب ج٦/ ٣٧٨ مرجع سابق.
(٣) تفسير البيضاوي ج ٢ / ٢٢٥ دار الفكر بيروت ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦ م.

تعالى ومن هنا فلا بد أن يوليه قدراً من التعظيم والتوقير والإحترام؛ بأن يستحضر عظمة منزله في قلبه، ومن المعلوم أن المرء المسلم كلما عظّم الله تعالى في قلبه كلما ازداد تأثراً بالقرآن الكريم، وهذه حقيقةٌ لا يماري فيها أحد، ولا يشك فيها إنسان، ولذا يقول الشيخ حسنين مخلوف «ينبغي لقارئ القرآن الكريم أن يعرف للقرآن الكريم حقه، وما يجب عليه من الإحترام والتعظيم ومايتعين عليه من الأخذ به والعمل بما فيه وحتي يحقق التأثير المرجوّ عليه أن ياحظ ما أرشد إليه القرآن الكريم من جميل الأوصاف وكريم الخصال وصالح الأعمال»[1] هذه الآداب وإن كانت للمسلمين عامة إلا أنها لقارئ القرآن الكريم أوكد وأوجب، ولا زلت أؤكد إنه علي قارئ القرآن الكريم والمستمع له علي حد سواء إن يعي أن مايقرأه أو يسمعه إنما هو كلام الله تعالى، فليلزم آدابه، وأجلها أن يتجاوب مع كل آية يتلوها أو يسمعها، فعند الوعد تنطلق أسارير وجهه فرحاً، ويأمل خيراً في عفو الله تعالى وجوده وكرمه، ويسأل الله تعالى من فضله ألا يحرمه الجنة وأن يمتعه بها وعند الوعيد يتضائل خيفة، سائلاً الله تعالى أن يقيه حر جهنم ولظاها، وعند ذكر المعاندين من الكفار يخفض صوته خجلاً وحياءً من قبائح أفعالهم، وسوء منكراتهم، ووقاحة منطقهم ودناسة أخلاقهم «فالقرآن الكريم يرد علي منهله الفياض عدد لا يُحصى من الناس لأجل عدد لايُحصى من الأغراض، ولذا يُتعذر تحديد دراسة لفهم القرآن الكريم، وغنما يكون ذلك علي مقدار التعظيم والتوقير والتأثر، فمن أراد أن يفهم القرآن الكريم سواءً آمن به أم لم يؤمن فعليه أن يُخلي ذهنه ما أمكن من جميع ما استقر فيه من النظريات والتصورات، ويطهره من سائر ما يكنه من الارغبات الواجمة أو المناوئة، ثمّ بعد ذلك يكب علي دراسة القرآن الكريم بقلب مفتوح وأذن واعية، وقصد نزيه لفهمه»[2] فمن أراد أن يحقق هذا المعني فليبرأ من حوله وقوته إلي حول الله وقوته، وأن يعرف للقرآن الكريم قدره، وأن يتحاشي النظر إلي نفسه بعين الرضا والتزكية، كي لا يفقده ذلك أجمل وأمتع وأروع ما

---

(١) القرآن الكريم آداب تلاوته وسماعه، الشيخ / حسنين مخلوف ص٧٥ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية العدد ٩٥ القاهرة، السنة التاسعة لعام ١٣٨٩هـ، ١٩٦٩م.

(٢) مفاهيم أساسية لفهم القرآن أبو الأعلى المودودي ص ٣٩، ٤٠ بتصرف الدار السعودية للنشر والتوزيع الدمام ترجمة د/ خليل أحمد الحامدي.

تشتاق إليه النفوس، ألا وهو التأثر بالقرآن الكريم.

ثانياً: من الآداب الظاهرية لقارئ القرآن الكريم.

وأعني بالآداب الظاهرية هنا ما يساعد علي حصول التأثير للقرآن الكريم وإن كان ذلك من المظهر الخارجي، ولذا فإني أذكر بعضاً من هذه الآداب ما أشعر أنه يخدم الموضوع والله من وراء القصد

١ - حسن الترتيل والإستماع:

إنه من أهم الآداب التي تقود المسلم إلي تحقيق التأثر بالقرآن الكريم للقارئ والمستمع أن يُحسِّنَ تلاوته للقرآن الكريم، فيراعي القراءة الصحيحة والترتيل الجيد الذي نص عليه أئمة علماء التجويد، وقد ذكرت «حسن» للدلالة علي القراءة السليمة الخالية من الخلط واللحن....إلخ، وهنا غدا من الضروري العروج علي مفهوم الترتيل.

مفهوم الترتيل:

رِعَايَةُ مَخَارِجِ الحُرُوفِ، وحِفْظُ الوُقوفِ، وهُوَ التَّرَسُّلُ في القَوْلِ مُحَسَّناً فيه. وتَرتِيلُ القُرآنِ: التَّمَهُّلُ في قِرَاءَتِهِ، وَعَدَمَ العَجَلَةِ فِي القِرَاءَةِ.

وذلك مراعاة لحال المستمع، ليحسن هو الآخر التدبرللقرآن الكريم، ولذا يستحب للأعمي الذي لا يبصر، ولهذا قال الله - سبحانه تعالى ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾[1].

ومن خلال الآية تلحظ استحباب القراءة بترتيل لأنه أقرب إلي الإجلال والتوقير وأشد تأثراً في القلب من القراءة بعجلة، ولهذا كان الترتيل من الآداب الظاهرية التي تعين علي التأثر بالقرآن الكريم، وكلما تمهل القارئ في قراءته كلما كان لتدبر القرآن الكريم أوكد وأبين، ولتأثره أكثر انسجاماً، وفي - رأي - أن هذه منّة من الله تعالى اختص بها الأمة المحمدية - أتباع النبي ﷺ، ثمّ أعطي الله تعالى الجزاء الأوفى، والثواب الأعظم لمن يتلون كتاب الله تعالى بتدبر وتأثر، وذلك حيث وعدهم أن يوفِّيَ لهم أجورهم كاملةً غير

---

(١) سورة المزمل من الآية رقم (٤).

منقوصة، وليس ذلك فحسب، بل أعد لهم تجارةً لن تبور وهذا قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[1]. ولقد حث الرسول ﷺ علي ترتيل القرآن بقوله وفعله. أما القولفقد روي علقمة عن عمر رضي الله عنه: عن رسول الله ﷺ قال: من أحب أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»[2] وهذا حال النبي في قراءته للقرآن الكريم ترتيل وتدبر وتأثر، إنه يقرؤه كما تلقاه من الله تعالى، ولذا قال سبحانه و تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[3] أما فعل النبي فمن ذلك عن عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة عن يعلى بن مملك أنه سأل أم سلمة عن قراءة رسول الله ﷺ بالليل؟ فقالت: و ما لكم و صلاته كان يصلي ثم ينام قدر ما صلى ثم يصلي بقدر ما نام ثم ينام قدر ما صلى حتى يصبح و نعتت له قراءته فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفا»[4] وذلك كي يستبين الحروف، وتتجلي صفاتها، ويعطيها حقوقها كاملة، ويرتل ترتيلاً لا إسراف فيه ولا تكلف في النطق والأداء، ولعل النبي ﷺ يؤكد علي هذا الترتيل؛ ليبقي للقرآن الكريم تأثيره في القلوب والنفوس ومن ثمّ يقول الرسول ﷺ «عن أبي شريح الخزاعي قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «أبشروا وأبشروا أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟» قالوا: نعم قال: «فإن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبدا».

وقد أنعم الله تعالى علي أمة النبي ﷺ إذ يسر لهم حفظ القرآن الكريم وتلاوته وسماعه، زد علي ذلك أنه أقدرهم علي تلاوته وترتيله، «ولولا ذلك ما استطاعوا إلي ذلك

---

(١) سورة فاطر الآيتان رقمي (٢٩)، (٣٠).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك علي الصحيحين كتاب التفسير ج ٢ / ص ٢٤٧ برقم ٢٨٩٤ وقال حديث علقمة عن عمر صحيح الإسناد على شرط الشيخين و لم يخرجاه وأتوهمهما لم يصح عندهما سماع علقمة بن قيس من عمر

(٣) سورة النمل الآية رقم (٧).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك كتاب صلاة التطوع ج ١ / ٤٥٣ ، وقال عنه هذا حديث صحيح علي شرط مسلم ولم يخرجاه ، وإن الألباني قد ضعفه

سبيلاً فإنّ الطاقة البشرية تعجز قواها عن تلاوته حفظاً وسماعاً»[1].

وهكذا كانت قراءة النبيﷺ قراءة تدبر وتأثر، إذ الترتيل يعين علي التأثر ويساعد علي تحقيقه، حيث يورث الخشية من الله تعالى، وقد تلقي الصحابة الكرام عن النبيﷺ كيفية القراءة للقرآن الكريم، ونقلوها إلي من بعدهم، وكانوا يتلونه تلاوة حسنة فأورثهم ذلك تدبراً وتأثراً لقلوبهم، هذا شأن الترتيل الحسن للقرآن الكريم، هكذا كان حالهم- ﷺ - في تلاوتهم للقرآن الكريم؛ ترتيلاً تهتزُ منه القلوب، وتوجل منه الأفئدة، وتحار فيه العقول والأفهام، وذلك كله لشدة معرفتهم بالقرآن الكريم، وتأثرهم بكلماته، وتفهمهم لمعانيه، واستخراج لآلئ البيان من بحار المعاني الجسام، ولكن قبل أن أغادر هذا الأدب يجدر بي أن أشير إشارة سريعة أنه يجب مراعاة عدة أمور عند تلاوة القرآن الكريم، وأري أنها من الأمور التي تساعد علي التأثر والتدبر كذلك ألا وهي:

١- تعاهد القرآن الكريم بالتلاوة، وذلك لأنه سريع التفلت ولذا يجب الحذر منه، ومن ثم قال النبيﷺ « تعاهدوا القرآن الكريم فإنه أشد تفلتاً من الإبل في عقالها»[2].

٢- استقبال القبلة حال القراءة، وذلك لأنها أشرف الجهات وأكرمها، ويتوجه إليها في الصلاة جميع المسلمين.

٣- احترام المصحف فلا يضعه علي الأرض، بل يرفعه، وألا يضع شيئا فوقه.

٤- عدم قطع القراءة بكلامٍ لا فائدة منه، واجتناب الضحك والحديث، إلا كلاماً يضطر إليه، وذلك لما رواه نافع عن ابن عمرﷺ قال قال رسول اللهﷺ **«إذا قرأ أحدكم القرآن فلا يتكلم حتى يفرغ منه»**[3].

٥- اختيار الوقت المناسب الذي يقرأ فيه القرآن الكريم، واختيار المكان المناسب الذي يتجلى الله تعالى فيه علي عباده، ليكون ذلك أعونه علي تأثره وتدبره، فهل نحن علي

---

(١) القرآن الكريم آداب تلاوته وسماعه حسنين مخلوف ص ١٧ مرجع سابق.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب فضائل القرآن باب الأمر بتعهد القرآن ج ١ / ٥٤٥ برقم ٧٩١.

(٣) أخرجه البخاري كتاب النكاح، باب نساؤكم حرثٌ لكم فأتوا حرثكم أني شئتم ج ٤ / ١٦٤٥ برقم ٤٢٥٣.

أثرهم متبعون أم أننا عن ذلك غافلون، وعن كلام الله ﷻ مبعدون؟

٢ - **تحسين الصوت بالقرآن:** مما سبق بيانه عن آداب القرآن الكريم جملةً وتفصيلاً ؛ لهو كافٍ في آداء المراد أو الدلالة علي المطلوب، لكن لما كانت التلاوة عن تدبر، تورث في القلوب الأثر القوي ناسب أن أذكر عقبها تحسين الصوت عند تلاوة القرآن الكريم، وذلك ليكون التأثير أقوي، والتدبر أعلي والخضوع أرفع، ومن ثمّ يستحب ان يحسن القارئ صوته بالقرآن الكريم ما استطاع إلي ذلك سبيلا؛ لأن ذلك من شأنه أن يرقق القلوب القاسية، وأن تلين معه الأفئدة المتحجرة، شريطة أن يكون هذا التحسين مقيداً بالشروط التي ذكرها العلماء من أصحاب هذا الفن وأعني بهم علماء التجويد، وذلك حتى لا يخرج إلي اللحن المنهي عنه شرعاً وحتى يحقق دوره المؤثر في القلوب .

يقول الإمام النووي «أجمع أهل العلم من السلف والخلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، من علماء الأمصار وأئمة المسلمين علي استحباب تحسين الصوت بالقرآن الكريم، وأقوالهم وأفعالهم في ذلك مشهورة وذلك لجملة أمور أهمها: ليكون أوقع في القلوب وأشد تأثيراً عليها، - وليكون أرق للأسماع وأدعى إلي الإصغاء، حتى أنهم قالوا: إذا لم يكن القارئ حسن الصوت بالقرآن الكريم فليحسنه ما استطاع إلي ذلك سبيلاً»[(١)] وعلي ذلك يكون تحسين الصوت بالقرآن الكريم ممدوح ومحمود شرعاً إذا ما كان في إطار الحدود المر سومة لذلك دون تجاوز، وذلك لأن الناس بطبيعتهم يجذبهم الصوت الشجي، ويؤثر فيهم الصوت الندي، ومن ثمّ يكون حسن الصوت بالقرآن الكريم مدعاةً إلي التأثر الفوري، والتدبر الوقتي وهذا - أيضاً - مراد، حيث يجتمع للسامع حسن الصوت مع عذوبة كلمات القرآن الكريم وبلاغتها فلا يملك السامع عندئذ نفسه من التدبر والتأثر، وهذا فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء والله ذو فضلٍ جليلٍ وكريمٍ، وأعني أن الله تعالى لا يحرم السامع للقرآن الكريم من الأجر الذي يحوزه القارئ مصداقاً لقوله تعالى ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[(٢)] أرأيت إنها الرحمة التي تغمر

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن للإمام النووي ص ٥٨: مرجع سابق

(٢) سورة الأعراف الآية رقم (٢٠٤)

الوجدان الإنساني كله، إذا ما أحسن الاستماع إلي القرآن الكريم، وهذا قول الله تعالى، ومن أصدق من الله قيلاً، ولذا يقول الليث بن سعد «ما الرحمة بأسرع منها إلي مستمع القرآن الكريم»[1] ومما لا شك فيه أن من أدب الإيمان أن يحسن المسلم الاستماع إلي القرآن الكريم حين يتلى، والإنصات إليه عند التلاوة، وذلك ليقود القلوب إلي الخضوع والطاعة والتقوى فتتأثر بآي القرآن الكريم، ومن ثم تنال رضا الله ومغفرته ورحمته ورضوانه، وقد امتدح الرسول ﷺ قراءة أبي موسي الأشعري حين مرّ عليه وهو يقرأ في بيته، فأصغي إلي قراءته، وقال له في الصباح «يا أبا موسي، لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود»[2] وذلك حيث كان داود - عليه السلام - أحسن الناس صوتًا، ولهذا شبه الرسول ﷺ صوت أبي موسي به لما فيه من العذوبة التي تؤثر القلوب، وذلك بدليل وقوف النبي ليستمع إلي قراءته ﷺ ومما يزيد الأمر جمالاً ما ورد عن أبي عثمان النّهدي ﷺ قال «صلي بنا أبو موسي الأشعري ﷺ صلاة الصبح فما سمعت صوت صنج ولا بربط [3] ولا ناي أحسن صوتاً منه «ومما لاشك فيه أن امتداح الرسول ﷺ لصوت أبي موسى لم يأت من فراغ، وإنما جاء من اجتماع حلاوة الصوت مع حسن الأداء، وكما الإتقان مع قوة التأثير، ومن هنا يقول الرسول ﷺ **«زينوا القرآن بأصواتكم»**[4] فالصوت الحسن يزيد السامع تأثراً فوق تأثره، ويزيد ه حسناً وجمالاً، وإني أهمس في أذن من خصه الله تعالى عذوبة في صوته؛ أن يذكر دائماً أن الله تعالى قد خصه بخير كبير فليعرف قدر ما خصه الله تعالى به، وأعني بذلك أن يقرأه لله تعالى لا للناس، وأن يحذر الوقوع في شَرَكِ الرياء، لأنه منزلق خطير، فلا يحظى بالرضا لدي الناس ويغضب من منحه هذه النعمة والقادر علي سلبها في أقل من طرفة عين، ومن ثم فلا ينتظر الثناء من الناس والرغبة في ملذات الدنيا؛ إذا ما أصبح كذلك غدا صوته فتنة، ونقمة عليه، ولذا يجب أن يكون غرضه أن ينبه أهل الغفلة من الناس

---

(١) إحياء علوم الدين الإمام الغزالي ج١ / ٣٣٣ مرجع سابق.

(٢) أخرجه ومسلم كتاب فضائل القرآن، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن ج١ / ٥٤٥، واللفظ لمسلم.

(٣) الصنج هو المُغَنِّيَة الضاربةُ بالكِرَان، البر بط العود أَعجمي ليس من مَلاهي العرب فأَعربته حين سمعت به التهذيب البر بط من ملاهي العجم شبه بصدر البَطّ، والناي آلة موسيقية تحدث صوتاً له شجي.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم كتاب التوحيد باب قول النبي صلى الله عليه وسلم (الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ج ٦ / ٢٧٤٢ واللفظ للبخاري.

بالقرآن الكريم، قاصداً من وراء ذلك وجه الله تعالى حيث يؤثر فيهم بحسن صوته، فإن من الناس من يؤثره الصوت الحسن، ويستولي علي كيانه، عندئذٍ ينال الرضا من الله تعالى.ويقول الرسول ﷺ «لكل شيء حلية، وحلية القرآن الكريم الصوت الحسن»[(١)] ولعل المقصود من قول الرسول ﷺ هو الصوت الحسن الباعث علي التأثر بآيات القرآن الكريم وتدبر معانيه، والصوت الدافئ الذي يثير في النفس كوامن الخوف من الله تعالى، والانفعال مع آياته . ويقول الرسولﷺ في فضل الصوت الحسن وأثره عند قراءة القرآن الكريم والحث عليه «**لله أشد أذناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته**»[(٢)] ومعني «أذناً» أي بفتحتين بمعنى استماعاً، ومعني القينة أي: هي جارية مغنية كانت أو غير مغنية، والمقصود من الاستماع في الحديث - والله أعلم - الرضا والقبول، وذلك كقول المصلي «سمع الله لمن حمده» وتحسين الصوت بالقرآن الكريم تزيين له، فالقرآن الكريم هو الذي يضفي علي الصوت رونقاً وجمالاً وبهاءً إذا ما تأثر به، وراعي في ذلك آدابه وأحكامه.

يقول ابن الأثير «إنه من المقلوب أي زينوا أصواتكم بالقرآن أي: الهجوا بقراءته وتزينوا به ، وليس ذلك علي تطريب الصوت والتحزين: أي الترقيق كالغناء ، فذلك مرفوضٌ قطعاً ، وبنوا ذلك علي أن القرآن أعظم وأجل من أن يُزَّين بالصوت الحسن بل الصوت أحق أن يزين بالقرآن»[(٣)].

وقال الحافظ ابن حجر ولا شك أن النفوس تميل إلى سماع القراءة بالترنم أكثر من ميلها لمن لا يترنم، لأن للتطريب تأثير في رقة القلب وإجراء الدمع ثم يقول والذي

---

(١) مصنف عبد الرازق الصنعاني كتاب الصلاة باب حسن الصوت ج ٢ / ٤٨٤ برقم ٤١٧٣ - وإسناده حسن.

(٢) أخرجه ابن ماجة في سننه ، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب حسن الصوت بالقرآن ج١ / ٤٢٥ برقم ١٣٤٠ ، وقال عنه الهيثمي في الزوائد إسناده حسن . وأخرجه الحاكم في المستدرك كتاب فضائل القرآن ،ذكر فضائل سور وآي متفرقة ج١ / ٧٦٠ ، وقال صحيح علي شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر: أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ج ٢ / ١١٣ المكتبة العلمية - بيروت ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م تحقيق : طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي

يتحصل من الأدلة أن حسن الصوت بالقرآن مطلوبٌ، فإن لم يكن حسناً فليحسنه ما استطاع إلي ذلك سبيلاً، ومن جملة تحسينه أن يراعي فيه قوانين النغم، فإن حسن الصوت يزداد بذلك»[١].

ومن باب التتمة أقول إن التأثير القرآني يتأتى من عدة اعتبارات منه: تحسين الصوت بالقرآن وذلك بالضوابط التي نبه عليها علماء التجويد، لأن الهدف من وراء حسن الصوت بالقرآن هو الوصول بالسامع إلي أعماق المعاني، وبلوغ مراميها البعيدة، ومعرفة كنه أسرارها، ولن يتأتي له ذلك إذا ألحن أوغني، ليطرب الناس، وهنا يحذر الرسول ﷺ من هذا المسلك المشين حيث يقول فيمن شأنه هذا «عن حذيفة بن اليمان قال قال رسول الله ﷺ اقرؤوا القرآن بلحون العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل الكتابين وأهل الفسق فإنه سيجيء بعدي قوم يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنوح لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب من يعجبهم شأنهم»[٢] وقد كثرت في هذا الزمان كثير من البدع المنكرة عند قراءة القرآن ، من بعض قراء القرآن ولقد تحدث الإمام السيوطي عن ذلك فقال «ومما ابتدعوه الناس في القراءة ما يسمي بالترعيد وهو أن يرعد صوته كأنه يرعد من برد أو ألم، وما يسمي بالترقيص وهو أن يروم السكوت علي الساكن، ثم ينفر منه مع الحركة كأنه في عدوٍ أو هرولة، ، وما يسمي بالتطريب: وهو أن يترنم بالقرآن، ويتنغم به، فيمد في غير موضع المد، ويزيد المد علي ما ينبغي، ونوع رابع: يسمي التحريف: وينبغي أن يسمي كذلك وهو ما يحصل لمن يجتمعون للقراءة بصوت واحد، فيحذفون بعض الحروف، ويمدون بها لا يمد ليستقيم لهم الطريق التي سلكوها»[٣].

وكل هذا ابتاع ما أنزل الله به من سلطان، وصاحبه مذموم لأنه بدل أن يؤثر بالقرآن يحاول جاهداً أن يؤثر بصوته، بعيداً عن آي القرآن الكريم، فهذا أمرٌ لا يشغل باله، وإنما

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ابن حجر ج ٨ / ٦٩٠ مرجع سابق.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان الباب التاسع عشر ، باب في تعظيم القرآن، فصل في ترك التعمق في القرآن ج٢ / ٥٤٠ برقم ٢٦٤٩ رواه الطبراني في الأوسط وفيه راو لم يسم وبقية أيضا.

(٣) الإتقان في علوم القرآن الإمام السيوطي ج ١ / ١٨٧ مرجع سابق.

الأهم أن يطرب الناس لصوته ، ويصير رقم واحد بين قراء القرآن ، وبئس ما يفعلون.

وغني عن البيان أن نؤكد هنا -ونحن نتكلم على جواز تحسين الصوت والتطريب والتغني بالقراءة للقرآن الكريم- أن المقصود بها التطريب من القارئ نفسه، لا تلك الدعوة الآثمة التي نادى بها البعض ودعا أن تكون القراءة بالتلحين مع أنغام الموسيقى[1]،

فهذه الدعوى لا تستند إلى أي أساس من الدين، ولا كادت أن تتجاوز جناحر الذين نادوا بها، ولم تلق رواجًا ولا نصيبًا من الظهور بحمد الله، لأنها أرادت الخروج بالقراءة عن قصدها والمراد منها. وكذلك الدعوة إلى وضع تلحين موحد للقراءة يلتزمونه في القراءة باللحن لأن كل قارئ له طبيعة صوته وطريقته في الأداء، والقرآن الكريم ليس أغنية حتى نلتزم في قراءته لحنًا معينًا.

وغدا الناس يتخذون من القرآن أنغاماً موسيقية يرضون بها أهل الأهواء ، ويطربون بها أصحاب الغني ، ويتقاضون من وراء ذلك مبالغ طائلة ، ولا علاقة لهم بالتأثير الذي هو الهدف من إنزال القرآن ، هذا أمر لا يعنيه ، إن الذي يعنيه كم يتقاضى من الدراهم الدنانير. يقول العيني «أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذي إذا سمعته يقرأ حسبته أنه يخشى الله ﷻ»[2].

ومعلوم أن تزيين قراءة القرآن الكريم وتحسين الصوت بها، والتطريب عند القراءة وقع في النفوس، وأدعى إلا استمتاع والإصغاء إليه، ففيها تنفيذ للفظ القرآن إلى الأسماع، ومعانيه إلى القلوب، وذلك عون على المقصود، وهو بمنزلة الحلاوة التي تُجعل في الدواء

---

(١) ظهرت هذه الدعوة في مجلة «الأدب» التي كانت يصدرها الشيخ أمين الخولي -رحمه الله- (مايس ١٩٥٦) في مقال بعنوان «القرآن والفنون» لم يذكر فيه الكتاب اسمه صريحًا، بل رمز له. وفي السابع من آب سنة ١٩٥٨ نشرت جريدة الأهرام المصرية خبرًا بعنوان « خمس سور من القرآن تم تلحينها » ذكرت فيه أن صالح أمين مفتش الموسيقى بوزارة التربية والتعلم بدأ بتلحين القرآن الكريم. ثم نشرت جريدة الأخبار المصرية في عددها الصادر يوم ١٢ تشرين أول سنة ١٩٥٩ أن الموسيقار زكريا أحمد سيقوم بمحاولة فنية جديدة لتلحين القرآن الكريم. ولكن هذه الدعوات الآثمة قبرت جميعًا.

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعلامة بدر الدين العيني ج ٣/ ٢٤٣ بدون.

لتنفيذه إلى موضع الداء، وبمنزلة الأفاوية والطيب الذي يجعل في الطعام، تكـون الطبيعـة أدعى لـه قبولاً[1].

كما أن هناك آدباً كثيرة غضضت الطرف عنها لكثرة من ذكرها وأجادوا الكلام فيهـا، منها إضافة إلي ما سبق استحباب الوضوء لأنه يتلو أفضل الكلام وأحسن الحديث.

- القراءة في مكان نظيف مظهراً ومبطناً

- السواك لتطهير الفم عند القراءة لأنه يتلو كلام الله تعالى.

- الجلوس جهة القبلة خاشعاً منكسراً تعلوه السكينة والوقار، وأن يقرأ بتدبر وتأمل.

كل هذا وغيره كثير يعين المسلم علي حصول التـأثر بـالقرآن الكـريم وطاعـة الله رب العالمين.

* * *

---

(١) زاد المعاد، لابن القيم: (١/ ٤٨٩).

المبحث الثالث: أدوات التأثر بالقرآن الكريم:

إنّ الباحث المتأمل في آي القرآن الكريم يجد كثيراً من أوجه الإعجاز القرآني التي لا تكاد تحصي أو تقف عند حدٍ معين، وإن الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم واحدٌ منها، وإن لم ينل من البحث والدراسة مثل ما نالت الأوجه الأخرى إلا أنه يبقي له مكانته المحفوظة والمصونة، وهذا الإعجاز له أدوات يظهر عليها التأثير واضحاً دون غموض، وهذه الأدوات ذكرها الله - تعالى - في القرآن في غير ما موضع منه، من هذه المواضع قول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1].

فالملاحظ في الآية الكريمة أن الله ذكر فيها أن الفقه والفهم والعقل كلها معانٍ لعمل القلب، ومن هنا كان الإنسان مسئولاً عن كل هذا بين يدي الله، ولذا قال تعالى ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[2].

وهذه الأدوات قد توصل إليها العلم الحديث مؤخراً بينما القرآن الكريم قد ذكرها منذ خمسةَ عشرَ قرناً من الزمان، وبعد دراسة مستفيضة للعلم الحديث قد توصل العلماء إلي كثير من هذه الحقائق، الموجدة منذ الأزل في القرآن وهاهنا أقوم بذكر ما توصل إلي العلم - مختصراً - حول هذه الأدوات.

لقد فطن العلم الحديث إلي كثير من الحقائق المتعلقة بالسمع والبصر والفؤاد، والعلاقة القائمة بينهم، وذلك حيث قد تم رسم أول خريطة للمخ البشري بعد نزول القرآن باثني عشرَ قرناً تقريباً، أي في بداية القرن الثاني عشر، علماً بأنه كانت مراكز المخ قبل ذلك مجهولة بالنسبة للإنسان، لدرجة أن العلماء كانوا يعتقدون أن مركز البصر موجود في العين، ومركز السمع موجود في الأذن.. وهكذا، ولكن العلم الحديث فصل

---

(١) سورة الأعراف الآية رقم(١٧٩).

(٢) سورة الإسراء الآية رقم (٣٦).

بين عضو العين والبصر في العين في المخ ، كما كشف العلم عن وجود منطقة بين مركزي السمع والبصر في المخ تسمى منطقة البيان، وتدميرها يؤدي إلي أن يصبح الإنسان أبكماً، ومن ثمّ تلحظ أن كل الآيات التي تتحدث عن السمع والبصر دائماً ما تتقدم العين علي الأذن في كل آي القرآن الكريم ، وذلك إشارة إلي موقعها في رأس الإنسان ،اقرأ إن شئت قول الله تعالى ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ﴾[1].

والملاحظ في الآية أن العين مقدمة علي الأذن كما تري ، وهناك آيات تتحدث عن الإبصار والسمع في تعبيرات تشير إلي الإدراك والتدبر، ودائما ما يتقدم السمع علي الإبصار ، وقد اكتشف العلماء أن مراكز السمع مقدمة علي مراكز الإبصار ، وهذه حقيقة أشار إليها القرآن من قديم الأزل حيث قال تعالى ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ﴾

وبعد ذلك أقول هل في لغة البشر ما تستطيع أن تعبر به عن هذا المعني ، وتأثير هذا البيان القرآني ، وعلي ذلك تكون أدوات التأثر بالقرآن ثلاث أدوات إجمالاً ألا وهي:

١ - السمع

٢ - البصر

٣ - القلب

وأبدأ بما بدأت به الآية القرآنية وهو **أولاً: السمع** «وذلك لأنه أول شئ يصل للإنسان ، حيث يصل عن طريق الأذن ، فالسمع عمل الأذن أو وظيفة الأذن.

مفهومه: «السمع حس الأذن ، وفي التنزيل ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[2] قال ثعلب خَلَا لَهُ فلم يشتغل بغيره ، وقد سمعه سمعاً أي أصغي له ، وقوله تعالى ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ

---

(١) سورة الأعراف الآية رقم (١٩٥) .

(٢) سورة ق الآية رقم (٣٧).

﴿بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [1] أي ما تُسمع إلا من يؤمن بها ، وأراد بالإسماع هاهنا القبول والعمل بما يسمع ، لأنه إذا لم يعمل به فهو بمنزلة من لم يسمع» [2] وعلى ذلك يكون السمع أداةً لتلقي الكلام ، فتعيره الانتباه من كل الأعضاء ، أو إن شئت فقل هي بمثابة خط الاستطلاع الأول في الجسم الإنساني ولذا قال الله تعالى «فاستمعوا» أولاً ، ومن ثمّ تكون الأذن النذير الأول أو المحرك الأساس والمدخل الرئيس للتأثر بالقرآن ، وحيث إن هذه النعمة الربانية التي قلما يشعر بها أحد ، قد لا تتوافر لكل الناس لأنك قد تجد من حُرم من هذه النعمة ، ولهذا لن أطيل الحديث فيها. والسمع تهيئة الأذن لاستقبال شئ يأتي إليها دون التفرغ من الشواغل، فهي مرحلة أولية، والتعبير القرآني البديع يرسم صورة حية متحركة لحالة نفسية غير محسوسة. حالة جمود القلب ، وخمود الروح ، وبلادة الحس ، وهمود الشعور. فيخرجهم مرة في صورة الموتى , والرسول ﷺ يدعو ، وهم لا يسمعون الدعاء ، لأن الموتى لا يشعرون! ويخرجهم مرة في هيئة الصم مدبرين عن الداعي ، لأنهم لا يسمعون! ويخرجهم مرة في صورة العمي يمضون في عماهم ؛ لا يرون الهادي لأنهم لا يبصرون! وتتراءى هذه الصور المجسمة المتحركة ، فتمثل المعنى وتعمقه في الشعور! وفي مقابل الموتى والعمي والصم يقف المؤمنون. فهم الأحياء ، وهم السامعون ، وهم المبصرون إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون)..

إنما تسمع الذين تهيأت قلوبهم لتلقي آيات الله ، بالحياة والسمع والبصر. وآية الحياة الشعور. وآية السمع والبصر الانتفاع بالمسموع والمنظور. والمؤمنون ينتفعون بحياتهم وسمعهم وأبصارهم. وعمل الرسول ﷺ هو أن يسمعهم ، فيدلهم على آيات الله، فيستسلمون لتوهم ولحظتهم (فهم مسلمون). إن الإسلام بسيط وواضح وقريب إلى الفطرة السليمة ؛ فما يكاد القلب السليم يعرفه، حتى يستسلم له ، فلا يشاق فيه. وهكذا يصور القرآن تلك القلوب ، القابلة للهدى ، المستعدة للاستماع ، التي لا تجادل ولا

---

(١) سورة النمل الآية رقم (٨١).

(٢) لسان العرب بن منظور الأفريقي المصري ج ٨ / ١٦٨ باب س فصل ع دار صادر – بيروت الطبعة الأولى بدون .

تماري بمجرد أن ... ها الرسول فيصلها بآيات الله , فتؤمن لها وتستجيب»[1] وقد ورد السمع في القرآن بمعني فهم القلب مثل قوله تعالى ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ فالسمع هنا بمعني الفهم أي فهمنا بقلوبنا، قال ابن القيم «أمر الله بالسماع في كتابه وأثني علي أهله خيراً، وأخبر أن لهم البشري حيث قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[2] ومن ثم فالسماع رسول الإيمان إلي القلب وداعيه ومعلمه، وكم في القرآن من قوله «أفلا يسمعون» فالسماع أصل العقل وأساس الإيمان الذي ابتني عليه، وهو رائده ووزيره ولكن الشأن كل الشأن في المسموع فمنهم من يسمع بطبعه وهواه فهذا حظه من السمع ما وافق هواه، ومنهم من يسمع بالله لا يسمع بغيره والمقصود أنه سماع خاصة الخاصة المقربين وهو سماع القرآن إدراكاً وفهماً وتدبراً إنه سماع الآيات لا سماع الأبيات، سماع القرآن لا سماع مزامير الشيطان سماع المر اشد لا سماع القصائد، فهذا السماع يحدوا القلوب إلي جوار علام الغيوب»[3].

ثانياً: البصـــر: وهو الأداة الثانية بعد السمع حسب الترتيب القرآني حيث تستقبل المؤثر بعد السمع مباشرة ، بمعني إذا طرق السمع آية مؤثرة من آي الذكر تجد العين فوراً تذهب لتستكشف وتستجلي ما أتى لها من مؤثرات.

حده :البصر يعني به حاسة الرؤية ، التي بها يدرك الإنسان الأشياء من حوله ، وتجمع علي أبصار وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في معرض الحديث عن رؤية الله – رب العالمين – حيث قال الله – سبحانه تعالى – ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[4] «أَعْلَمَ اللهُ أَنهُ يُدْرِكُ الأَبصارَ وفي هذا الإِعلام دليل أَن خلقه لا يدركون الأَبصارَ أَي لا يعرفون كيف حقيقة البَصَرَ وما الشيء الذي به صار الإِنسان

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ج ٤ / ٢١٠٩ مرجع سابق.
(٢) سورة الزمر الآيتان رقمي ١٧ ، ١٨ .
(٣) مدارج السالكين ابن القيم ج ١ / .
(٤) سورة الأنعام الآية رقم {١٠٣}.

من الشرايين والأوردة الدموية التي يبلغ طولها آلاف الكيلو مترات ، وتضخ هذه المضخة الجبارة خمسة لتر في الدقيقة الواحدة ، وبدون مجهود»[1] هذا القلب يعمل بكفاءة عالية حتى الوفاة ، وهو أول الأعضاء الجسمانية تكوناً وخلقاً ، وهو أولها توقفاً وموتاً ، ومن ثمّ قال الرسول ﷺ «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[2].

الثاني: القلب المعنوي:

وهو لطيفة ربانية روحانية لها بالجسد تعلق ، وفي رأي أن هذه اللطيفة هي حقيقة هذا الإنسان الذي يعيش علي ظهر الأرض ، فالقلب إذن هو الوعاء الحقيقي الذي يُصب فيه التأثر بالقرآن كما أنه وعاء لفهم القرآن الكريم وتدبر آياته ، لأن القلب أداة التأثر الكاملة والمكنونة داخل الكيان الإنساني ، ولذا تحدث القرآن والسنة كثيراً عن القلب ، والمقصود به القلب المعنوي.

يقول الإمام الغزلي في الإحياء «ورد لفظ القلب في القرآن والسنة كثيراً ، والمقصود به هو المعني الذي يفقه من الإنسان ، وبه يعرف حقيقة الأشياء ، والقلب بمثابة المرآة التي تنعكس فيها الأمور المؤثرة في الخارج»[3] لله درُّ الغزالي ما أروع كلامه،وما أوسع علمه حيث سبق علماء عصرنا بمراحل كثيرة إذ تحدث عن القلب بنوعيه العضلي والمعنوي.

ولعل المقصود من كلام الغزالي هو أن الحديث عن القلب لا يعني مطلقاً الحديث عن قطعة اللحم الموجدة داخل الجسد ، ولكن الغرض من الإطلاق هو وظيفة القلب التي تحدث عنها الله تعالى في القرآن الكريم حيث يقول تعالى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾[4]. فالقلب إذن قطعة من الجسم لها وظيفتها التي

---

(١) بين القلب العضلي والقلب المعنوي د / محمد علي البار ص ٣٩ مؤسسة الرسالة بيروت بدون .

(٢) أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب من استبرأ لدينه ج ١ / ٢٨ برقم ٥٢ ، وأخرجه مسلم أخرجه مسلم في المساقاة باب أخذ الحلال وترك الشبهات رقم١٥٩٩ .

(٣) إحياء علوم الدين الغمام الغزالي ج ٣ / ٣٤٥ ، مرجع سابق .

(٤) سورة الأعراف من الآية رقم (١٩٧)

تؤديها ، وهي العقل والفهم والفقه ، وكل ذلك مطلوب لا مناص منه علي الإطلاق ، من ثم لا توجد قطعة فسيولوجية في جسم الإنسان تسمى عقل وذلك لأن العقل وظيفة القلب ، فهو وظيفة من وظائف القلب الحي الواعي.

القلب في القرآن الكريم:

فقد دلت على ذلك نصوص كثيرة، الآيات القرآنية منها تزيد على مائة آية، وسأكتفي في هذا المبحث بذكر ثلاث منها مما هي صريحة الدلالة على المسألة، من ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[2].

وقوله تعالى ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[3].

وليس هذا مقام بسط هذه المسألة وتأصيلها وإنما المقصود التذكير بأن آلة تدبر القرآن وفهمه هو القلب وما يترتب على ذلك من أحكام مما يأتي الحديث عنه.

إن القلب بيد الله وحده لا شريك له يفتحه متى شاء ويغلقه متى شاء بحكمته وعلمه سبحانه ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾[4].

وقد جعل لذلك أسبابا ووسائل من سلكها وفق ومن تخلف عنها خذل ، فتذكر وأنت تحاول فهم القرآن أن القلوب بيد الله تعالى، وأن الله يحول بين المرء وقلبه فليست العبرة بالطريقة والكيفية بل الفتح من الله وحده، وما يحصل لك من التدبر فهو نعمة عظيمة من الله تعالى تستوجب الشكر لا الفخر فمتى أعطاك الله فهم القرآن وفتح لك معانيه فاحمد الله تعالى وأساله المزيد، وانسب هذه النعمة إليه وحده، اعترف بها ظاهرا

---

(١) [سورة الكهف من الآية رقم (٥٧).

(٢) سورة الحج الآية رقم (٤٦).

(٣) سورة الأحزاب من الآية رقم [(٤).

(٤) سورة الأنفال من الآية رقم (٢٤).

وباطنا ، من المعلوم أن القلب إذا أحب شيئا تعلق به، واشتاق إليه، وشغف به. وانقطع عما سواه. والقلب إذا أحب القرآن تلذذ بقراءته، واجتمع على فهمه ووعيه فيحصل بذلك التدبر المكين، والفهم العميق وبالعكس إذا لم يوجد الحب فإن إقبال القلب على القرآن يكون صعبا، وانقياده إليه يكون شاقا لا يحصل إلا بمجاهدة ومغالبة، وعليه فتحصيل حب القرآن من أنفع الأسباب لحصول أقوى وأعلى مستويات التدبر.

والواقع يشهد لصحة ما ذكرت فإننا مثلا نجد أن الطالب الذي لديه حماس ورغبة وحب لدراسته يستوعب ما يقال له بسرعة فائقة وبقوة، وينهي متطلباته وواجبا ته في وقت وجيز، بينما الآخر لا يكاد يعي ما يقال له إلا بتكرار وإعادة، وتجده يذهب معظم وقته ولم ينجز شيئا من واجباته[1].

تعقيب: ومن خلال ما سبق بيانه عن أدوات التأثر بالقرآن أقول: إن دور هذه الحواس

من السمع والبصر والقلب في إدراك التأثر أمرٌ يؤكده القرآن وينبه عليه تنبيها عاماً في مواضع جمعت بينهم مثل قوله ﷻ ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وقوله:

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ وغير ذلك من الآيات التي توضح العلاقة الوثيقة بين هذه الحواس وبين التأثير القرآني التي وهبها الله للمؤمن، ومن هذه الحواس القلب، ومن يتأمل ما سبق يجد أن القلب في القرآن عبارة عن عالمٍ كبير قد اتسعت معانيه وتعددت مراميه ومن ذلك ما يلي:

١ - القلب محل التأثر والتأثير وهذا واضح من معظم الآيات السابقة ومنها قوله ﷻ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[2].

---

(١) راجع في هذا مفاتح تدبر القرآن د / خالد عبد الكريم اللاحم ص ٣٨ الرياض الطبعة الأولي عام ١٤٥٢ هـ / ٢٠٠٤ م.

(٢) سورة محمد الآية رقم ٢٤.

٢- القلب وعاء التدبر والاتعاظ وأخذ العبرة قال الله ﷻ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[١].

٣- القلب محل العلم والقرآن يشيد بهذا ويذكره في أكثر من موضع قال الله ﷻ ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢].

٤- القلب محل الفهم والفقه ومن ثم يعلم أن الفهم أول مراحل التأثير بآي القرآن وهذه مرتبة عليا من مراتب التأثر بالقرآن، بل إن الأعجب من ذلك أن البعض يقرأ القرآن ولا يفهم معناه ويتأثر به وهذا من سر إعجازه..

* * *

(١) سورة ق الآية رقم ٣٧.

(٢) سورة الروم الآية رقم ٥٩ .



الفصل الثالث

وسائل الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم

ويشتمل علي خمسة مباحث:

المبحث الأول: القصة القرآنية والإعجاز التأثيري

المبحث الثاني : الحوار القرآني والإعجاز التأثيري

المبحث الثالث: المثل القرآني والإعجاز التأثيري

المبحث الرابع: القسم القرآني والإعجاز التأثيري

المبحث الخامس: التأمل والتفكر والإعجاز التأثيري

إن هذه الوسائل التي أعنيها إنما هي بمثابة الدليل الذي يقود الحائر إلي رياض القرآن الكريم، ويكون بمثابة الشعاع الذي يوضع في يد الحيارى كي ينير لهم سبيل الهدي والنجاة، وذلكم السبيل هو القرآن الكريم، ولكي يستطيع المسلم أن يصل إلي هذه الدرجة من التأثير والتدبر، فلا بد له من وسائل ترشده إلي المنهج الواضح والصراط المستقيم، وهذه الوسائل التي أتحدث عنها الآن لا تعد القرآن ولا تخرج عن دائرته، وذلك كي تنسجم الوسيلة مع الموضوع الأصلي الذي أنا بصدد الحديث عنه الآن، فالإنسان وهو بصدد التجول في بستان القرآن ينهل من روائحه الزكية، ومن رياضه النديّة، وكيف لا؟ وقبل الحديث عن الوسائل أري أنه من المناسب ذكر مفهوم للعنوان.

مفهوم الوسيلة: لغة: «وسل أي تقرب وتعني المنزلة عند الملك، وهي تعني الوصلة والقربى وجمعها وسائل، قال تعالى ﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾[١].

وفي حديث الآذان «اللهم آت سيدنا محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة»[٢] فهي في الأصل تعني ما يتوصل به إلي الشيء، ويتقرب به إليه»[٣] ومن خلال هذا المعني اللغوي أستنتج ما يلي.

أ - الوسيلة: هي القربى

ب - الوسيلة: درجة النبي ﷺ في الجنة.

ج - الوسيلة: الطريقة التي تستخدم لأمرٍ ما

د - الوسيلة: تعني التودد.

اصطلاحًا: «ما يتقرب بها إلي الغير، أو ما يتوصل بها إلي التحصيل»[٤] وتعريفها بما

---

(١) سورة الإسراء الآية رقم (٥٧).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الصلاة، باب أولئك الذين يدعون يبتغون إلي ربهم الوسيلة، ج ٤ / ١٧٤٨ .

(٣) لسان العرب ابن منظور ج١١ / ٧٢٥ مادة وسل، مرجع سابق .

(٤) التوقيف علي مهمات التعاريف المناوي ٧٢٦ دار الفكر بيروت الطبعة الأولى تحقيق محمد رضوان الداية .

يخص البحث أقول «إنها الطريقة التي يتم بها إيصال التأثير القرآني إلي القلوب، وذلك بطريقة ما من طرق التأثير التي أتحدث عنها والتي ورد ذكرها في القرآن الكريم» وهذه الوسائل كثيرة في القرآن منها، القصة، المثل، الحوار، القسم، الترغيب والترهيب، الخطاب... وغير ذلك

المبحث الأول: القصة القرآنية:

القصة القرآنية من أهم الوسائل التأثيرية للقرآن الكريم إذ هي تشمل قطاعاً عريضاً من القرآن الكريم ويأتي بيان ذلك بعد تحديد مفهومها.

مفهوم القصة: لغة «يقال قص الشعر والصوف أي حوله وقطعه، والقاص هو الذي ياتي بالقصة، ويقال قصصت الشئ أي تتبعت أثره، قال الله ﷻ ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1] أي تتبعي أثره، والقصة الأمر والحديث، واقتصصت الحديث أي رويته علي وجهه، والقص البيان قال تعالى ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصاً﴾[2] أي رجعا من حيث الطريق يقصان الأثر، وتقصصت الكلام أي حفظته»[3] ومن خلال ما سبق أقول إنّ القصة تدور في اللغة حول معانٍ أهمها

أ - التتبع: أي تقصي الأثر ب - الحكاية: أي قص الحديث

اصطلاحاً: القصة تعني تتبع الأثر وقصص الأخبار المتتابعة سواء كانت حكاية قول أو رواية يوردها القاص علي وجهها كما عرفها، ولها تأثير قوي في نفوس وعقول الناس وقلوبهم، وذلك لأنها تشتمل علي الإثارة ومن ثمّ تترك الأثر، ولها مغزى وهدف تريد الوصول إليه من خلال القصة، والناس بطبعهم يميلون إلي القصص بطبيعتهم، وهذا في حق القصص عموماً، أما عن القصة القرآنية فهي..

ما وردت في كتاب الله تعالى وكان الغرض منها العبرة والعظة أفلا يكون التأثير

(١) سورة القصص الآية رقم (١١).
(٢) سورة الكهف الآية رقم (٦٤).
(٣) لسان العرب ابن منظور ج٧ / ٧٥ مادة قص، مرجع سابق.

أقوي إذا كان القصص من كلام الله رب العالمين؟

اهمية القصة القرآنية للتاثير القرآني:

إن أهمية القصة القرآنية لا تكاد تخفى علي كل لبيب، بل إنها لتتراءى للناظر دون أدنى تفكير، حتي إنك لو سألت إنساناً ل يكاد يبين عن القصة القرآنية لانبرى لك قائلاً إنها ذات أهمية جليلة وعظيمة للتأثير القرآني وذلك لما لها من التأثير القوي بحكم أنها أمر محبب إلي النفوس، فهي ترضي رغبات الناس، وتثير حماسهم، فالقصة القرآنية تبلغ بأثرها حتي يصل إلي سويداء القلوب، ومن ثمّ قدمتها في أول الوسائل عن الإعجاز التأثيري، وصدق الله تعالى إذ يقول ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1] إذ أنه يعالج مشكلةً معينة أو رزيلةً معينة وهذا إعجاز تأثيري.

أولا: القصة القرآنية تشمل قطاعاً عريضاً من الناس لاشتمالها علي العبرة وذلك من خلال ما يلي:

أ / القصة القرآنية أقرب ما يكون إلي عقول وقلوب الناس، ولهم فيها كثير العبرة والعظة ولها يميلون و يرغبون سماعها ويتشوقون إليها وذلك لأنها تعالج مشكلة معينة، أو رزيلة معينة بأسلوبٍ يؤثر الأسماع ويستولي علي القلوب، ومن ثمّ تكون العظة ويكون التدبر الأعلى لكتاب الله ولذا تحول الحال وتغير الوضع من سئ إلي حسن، ومن حسن إلي أحسن، وهذا لعمري قمة التأثير، ولا زال هذا إلي اليوم إلا أن القلوب غدت غير القلوب، وإني أقول ما دامت المشاكل إلي اليوم فلا بد أن يكون التأثير كما كان وهذا تؤديه القصة القرآنية .

ب / القصة القرآنية تصل إلي الغرض من أقصر الطرق، وبطريقة سهلة ميسورة، وهذا بطبيعة الحال محبب لقلوب الناس لكن ليُعلم أن هذا القصص القرآني لم يساق للتسلية، ولا لقصد التنبيه علي حال الأمم السالفة، وإنما كان ذلك لغرضٍ ديني ولتحقيق

---

(١) سورة يوسف الآية رقم (١١١).

الإيمان وترسيخ أصوله في القلوب، ومن ثم يجتمع مع القصة العبرة الجليلة والعظة الغالية، وكل ذلك ليتأثر الناس بكلام ربهم، في صورة محببة لقلوبهم وعقولهم ليحدث التأثير المطلوب.

ج / القصة القرآنية تؤثر في الناس تأثيراً بالغاً؛ لأنهم يعيشون معها وفيها بعقولهم وقلوبهم، ولذا فإنّ القصة القرآنية تتسع في القرآن الكريم اتساعاً ملحوظاً، إذ أنها تشتمل علي ربع القرآن تقريباً، إذ أنك لو ضممت القصص القرآني كله بعضه إلي بعض، تجد أنها تبلغ الثمانية أجزاء تقريباً، ومن ثمّ كانت أهمية القصة القرآنية كوسيلة من أهم وسائل الإعجاز التأثيري، فالقرآن الكريم يحتوي علي مائة وأربع عشرة سورة قرآنية، هذا الكم من السور فيه من العقائد والعبادات والمعاملات والقصص ما تصلح به أمر الدنيا والدين. فالقصة وسيلة مهمة جدا للتأثير القرآني في نفوس وعقول وقلوب المسلمين، لا سيما إذا كانت القصة هذه من كلام الله تعالى، فأي تأثير تتأثر به القلوب وتنفعل به النفوس غير كلام الله رب العالمين، فالقصة القرآنية هي بمثابة المؤثر القوي في قلوب الناس، وتأمل معي مثلا قول الله تعالى ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾(١) و إذا ما تأملنا قصة شعيب عليه السلام نجد التأثير القوي الذي لا تستطيع مقاومته، ولا الصمود أمامه لأنه وقع في القلب بموقع فريد فهو من كلام الله تعالى. وتأمل قوله تعالى في موطن آخر ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(٢).

كلمات لها مذاق خاص وآيات لها تأثير قوي في النفوس؛ إذا استعذبتها النفوس،

---

(١) سورة هود الآيات رقم ٨٤، ٨٥، ٨٦.

(٢) سورة هود الآية رقم ٨٨.

وعاشت معها القلوب، واستروحت العقول هذا الفيض القرآني من قصص القرآن؛ فإنها تأخذ منه العبرة والعظة لا سيما إذا ما علمنا أن نهاية قوم شعيب كانت وفق ما طلبوه، حيث لم تؤثر هذه الآيات في قوم شعيب - عليه السلام - فكان جزاؤهم الذي طلبوه بأنفسهم حيث ذكر القرآن قولهم قال ﷻ ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1].

«استمر هؤلاء في التكذيب والعناد فأرسل الله عليهم العذاب، سلط عليهم الحر الشديد فضاقت بهم أنفاسهم فخرجوا إلي البرية لعلهم يستروحون نسائم منعشة فأظلتهم سحابة فاستبشروا خيراً واجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها فراحت ترميهم بشهب وصواعق حتى أهلكتهم وكان يوما شديد الهول»[2] تأمل معي هذه القصة القرآنية ولعلك تتفق معي في تأثيرها القوي علي النفوس وعاقبة التكذيب والعناد الوخيمة، وتأمل ختام الآيات والقصة توضح «**إن في ذلك لأية**» أي التمسوا أيها الناس العبر العظات في هذا السياق القرآني القصصي ، إنها لعبرة وعظة لمن أراد أن يعتبر ويتعظ ويتدبر ويتأثر بالقرآن الكريم.

ثانيا : القصة القرآنية السبيل القوي لشد انتباه المستمع :

وتجعله في اقوي درجات الإصغاء لما يتلى عليه،إذ أنه يعيش مع القصة في خيال عقله، ومكنون فكره، ومستقر قلبه، فيطير العقل مصوراً له المشاهد حسب ما يلقي علي سمعه من كلام، ويهب الفؤاد ليعي ويتأثر بكل خطوة يخطوها عقله في هذا الخيال السابح،ولهذا كانت القصة من أهم الأمور التي تجذب السامع إليها، وتستولي علي قلبه، ومن ثم فهو يتدبر ويتفكر في كل ما يتلى عليه وذلك يتعاون كل الجوارح المفروض فيها إن تتأثر بالقرآن، بالعقل يسبح يصور المشاهد واللسان يترجم الكلام حسب المشاهد، والقلب يعي ويتأثر بهذا النسق القرآني الفريد والعجيب،ولعل هذا أمر محبب إلي قلوب الناس إذ

---

(١) سورة الشعراء الآيات ١٨٧ إلي ١٨٩ .

(٢) مع الأنبياء في القرآن الكريم عفيف طبارة ٢٠٣ دار العلم الملايين بيروت السادسة عشرة ١٩٨٧ .

القصة لون من ألوان القراءة بل هي أحب ألوان القراءة إلي الجماهير.

«ففي القصة القرآنية معانٍ عالية، وفيها ترويح وتهذيب، وتأديب ثم تفكر وتتدبر وتأثر، يعقبه اتعاظ واعتبار، وتلك مرتبة التقوى وهي اسمي المراتب العبادية»[1] فالقصة ذات أثر جذّاب في قلوب ونفوس وعقول الناس، وهذا يتأتى من خلال آيات القرآن الكريم، ففي القصة تري عدة مقدمات للوصول إلي التأثير القرآني، حيث تري فيها انتباهاً وهذه طبيعة سامعها وقارئها، ثم الاعتبار والتدبر ثم التأثير الذي يحدث في النفس أثراً قوياً، وإذا ما أردت أن أدلل علي هذا من القصص القرآني فأجدني أمام قصة «موسي عيه السلام مع سحرة فرعون» وهذا قول الله تعالى ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى * قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[2] هذه قصة مؤثرة إذا ما أحسن الناس تدبرها وتفهم معانيها، والاتعاظ بما جاء فيها ومن يتأمل كلمات هذه القصة يجدها كلماتٍ ذات جرس موسيقي خاص، وهذا الجرس ذو تأثير قوي حتي مع عدم فهم الآيات، فمن لم يعِ المعني فإنه حتما يتأثر بالكلمات، فالتأثير واقعٌ في ذاتية الآيات، والجمال كامنٌ فيها، ولمَ لا وهو كلام الله تعالى.

«وهكذا لم يمض فرعون في الجدل؛ لأن حجة موسى عليه السلام فيه واضحة وسلطانه فيه قوي وهو يستمد حجته من آيات الله في الكون ومن آياته الخاصة معه، إنما لجأ إلى اتهام

---

(١) قصص من القرآن محمود زهران ص ٣، بتصرف مكتبة غريب القاهرة، بدون تاريخ.

(٢) سورة طه من الآية رقم ٦٥ إلي ٧٣.

موسى بالسحر الذي يجعل العصا حية تسعى، ويحيل اليد بيضاء من غير سوء. وقد كان السحر أقرب خاطر إلى فرعون لأنه منتشر في ذلك الوقت في مصر وهاتان الآيتان أقرب في طبيعتهما إلى المعروف من السحر وهو تخييل لا حقيقة وخداع للبصر والحواس، قد يصل إلى خداع الإحساس، فينشئ فيه آثارا محسوسة كآثار الحقيقة. كما يشاهد من رؤية الإنسان لأشياء لا وجود لها، أو في صورة غير صورتها وما يشاهد من تأثر المسحور أحيانا تأثرات عصبية وجسدية كما لو كان الأثر الواقع عليه حقيقة.. وليس من هذا النوع آيتا موسى. إنما هما من صنع القدرة المبدعة المحولة للأشياء حقا. تحويلا وقتيا أو دائما. قال لهم موسى: ويلكم! لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب، وقد خاب من افترى. والكلمة الصادقة تلمس بعض القلوب وتنفذ فيها. ويبدو أن هذا الذي كان ؛ فقد تأثر بعض السحرة بالكلمة المخلصة، فتلجلج في الأمر، وأخذ المصرون على المباراة يجادلونهم همساً خيفة أن يسمعهم موسى: والتعبير يشي بعظمة ذلك السحر وضخامته حتى ليوجس في نفسه خيفة موسى، ومعه ربه يسمع ويرى. وهو لا يوجس في نفسه خيفة إلا لأمر جلل ينسيه لحظة أنه الأقوى، حتى يذكره ربه بأن معه القوة الكبرى:(قلنا: لا تخف. إنك أنت الأعلى. وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا. إن ما صنعوا كيد ساحر، ولا يفلح الساحر حيث أتى) ..لا تخف إنك أنت الأعلى. فمعك الحق ومعهم الباطل. معك العقيدة ومعهم الحرفة. معك الإيمان بصدق ما أنت عليه ومعهم الأجر على المباراة ومغانم الحياة. أنت متصل بالقوة الكبرى وهم يخدمون مخلوقا بشريا فانيا مهما يكن طاغية جبارا »[1].

ثالثا: القصة القرآنية تحمل انفعالاً وجدانياً تنقله إلي السامع من اقصر الطرق واقرب المسالك

حتى يشعر المستمع بإحساسٍ عميقٍ دافقٍ، إنه ينفعل مع كائن حي مثله يعيش معه خطوةً خطوةً ولحظةً لحظةً فيه حياة وفيه قوة ؛ وهذا سر التأثر بآيات القرآن الكريم في القصة القرآنية، فالقصة القرآنية إذن تُحدث في النفس شعوراً زاخراً وفياضاً بالانفعال

---

(١) في ظلال القرآن الكريم ج ٤ / ٢٣٤٠ مرجع سابق.

والعواطف الجياشة عند سماع هذه القصة القرآنية «ومن ثم كان من الطبعي أن تتبوأ القصة القرآنية مكانتها وأهميتها في التأثير القرآني أن تقوم بدورها المنوط بها في هذا الميدان، وهو ميدان التأثر بآيات القرآن الكريم، ولذا اعتني القرآن الكريم بها عناية بالغة الدقة، وتجلي هذا في استحواذ القصص القرآني علي ربع القرآن الكريم تقريباً، ولذا فهي تعد من أهم وسائل الإعجاز التأثيرى للقرآن الكريم، وتتجلي أهميتها فيما تحمله من انفعال وجداني وشعور قلبي انه شغل حيزاً من القرآن، وعالج كل ما يهدف إليه القرآن من دعوة الناس وتعميق الإيمان في القلوب، وبهذا أدرك مشركو مكة أهمية هذه القصة القرآنية في قلوب الناس وعواطفهم والتأثير فيهم فلجأوا إلي محاكاتها، فاخترعوا قصصاً خرافياً هدفهم بها أن يروجوا بها ويصرفوا الناس عن التأثر بالقصة القرآنية ولهذا كان النضر بن الحارث من البارعين في هذا الميدان، يذكر ابن هشام قائلا «كان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسبنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسا فذكر فيه بالله وحذر قومه مما أصاب الأمم السابقة بذكر أخبارهم وقصصهم من نقمة الله عليهم لما عاندوا، خلفه في مجلسه إذا قام ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلمّ إليّ فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار ثم يقول بما ذا محمد أحسن حديثا مني؟»(١) وإني أعلق علي كلام ابن هشام فأقول: إذا كان النضر قد حاول أن يذكر قصصاً لصرف الناس عن القصص القرآني فلم ينجح، بل إني أتعجب منه إذ قد كان يحث الناس علي تدبر ما أنزل علي محمد ﷺ كما ذكر ابن إسحاق «أن النضر قال: يا معشر قريش إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر لا والله ما هو بساحر لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم وقلتم كاهن لا والله ما هو بكاهن قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم وقلتم شاعر لا والله ما هو بشاعر قد رأينا

---

(١) السيرة النبوية ابن هشام ج ١ / ٩٧ المكتبة التوفيقية ، تحقيق د/ محمد السرجاني ، بدون تاريخ .

الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه وقلتم مجنون لا والله ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه يا معشر قريش فانظروا في شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم»[1].

وهو الذي أنزل الله فيه قوله - عز وجل - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[2] وذكر ابن إسحاق أن النضر قد أنزل فيه ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[3] وغيرها من المواضع التي ذُكر فيها أساطير الأولين، إلى هذا الحد كانت أهمية القصة القرآنية حتى عند المشركين، فقد علموا خطرها وتأثيرها علي قلوب الناس وعقولهم، فراعهم ذلك وفزعوا منها مما استرعاهم أن يقوموا بإنشاء قصصٍ يحاولون بها الاستيلاء علي قلوب الناس، ظناً منهم أن ذلك ممكن أن يدخل في حيز الامكان، لكنهم لم ينجحوا في هذا وفشلوا في ذلك فشلاً ذريعاً، وشتان بين قصص القرآن وقصص رستم وغيرها ولذا يقول الله - سبحانه تعالى- ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[4].

وهذا هو الفارق بين كلام الله وكلام البشر، فالأول كلام تتأثر به القلوب وتخضع عند تلاوته وتلين، يؤثر فيها وتتأثر به وتلتمس الخير في كل شيء، والثاني كلام لا يسمن ولا يغني من جوع فما بالك؟! إذا ما كان هذا الكلام لصد الناس عن كلام الله تعالى.

رابعاً: القصة القرآنية من أهم الوسائل الإيمانية التي لجأ إليها القرآن الكريم:

فهي تعالج علاجاً فنياً مسائل في التوحيد والمعاملات والأخلاق، فهي تعمق العقيدة

---

(١) المرجع نفسه ص ١٣٦ .
(٢) سورة الأنعام الآية رقم ٩٣ .
(٣) سور القلم الآية رقم ١٥ .
(٤) سورة يوسف الآية رقم ٣ .

في النفوس وتبصر بها العقول، ونحيا بها القلوب، وانك لتجد القصة القرآنية تسلك لهذا كل السبل التي تؤدي إلي التأثير القوي في النفوس والقلوب، فهي تسلك أحسن الطرق إشباعاً للعاطفة، وإقناعا للعقل، أي أنها تجمع بين التأثير الوجداني والتأثر العقلي فهي تارة تخاطب القلوب والوجدان إن استدعي الأمر ذلك، فهي تشبع العاطفة وذلك ما حدث في قصة نوح عليه السلام مع قومه حيث قال تعالى ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً * مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ للهِ وَقَاراً﴾[1] .

المتأمل في آيات هذه القصة يجد الإمتاع العاطفي واضحاً جلياً في حرصه علي دعوة قومه ومخاطبة عواطفهم بقوله استغفروا ربكم فهو غفار الذنوب وستار العيوب، ويزيد الرزق والبركة، وهذا خطابٌ صريحٌ من سيدنا نوحٍ لقومه، لكنهم رغم ذلك عاندوا وكابروا وأصروا واستكبروا فيما دعاهم إليه، ولم ينجح في مخاطبة وجدانهم، ولمّا لم ينفع معهم هذا الإرضاء العاطفي لجأ إلي إرضاء العقل الذي يعني التأثير العقلي ﴿يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً....﴾ ومن ثم يفهم أن للقصص القرآني دوراً مهماً في حدوث التأثير القرآني في نفوس وقلوب الناس، فلعلك لاحظت الألوان التي تعرض بها القصة القرآنية من مخاطبة الوجدان إلى مخاطبة العقل وهكذا ﴾ فالقصة تخاطب العاطفة والفطرة المركوزة في صميم الإنسان، بعيداً عن أسلوب علم الكلام، وأقضية المنطق والفلسفة، فإذا ما تأملت هذه الآيات التي أنزلت في هذا المجال، وجدت أنه يطوف بالقلب البشرى بين أقطار السماوات والأرض ويغوص به في صميم النفس وفى صميم الحياة، ويتوالى عليه بالدلائل البديهية دليلاً إثر دليل موجها إلى السياحة والنظر، في الكون وفى النفس وفى

---

(١) سورة نوح الآيات من ٥ إلى ١٣ .

التاريخ، باعثا على التأمل و التفكير، دافعا إلى التأثر والانفعال، منشأ للتصور والإيمان»[1]
وإذا أردنا مثالا على هذا وجدنا إبراهيم عليه السلام «أصل شجرة النبوة وإمام التوحيد وجد العرب، ومشركو مكة يعتزون بنسبهم إليه، ويزعمون أنهم على دينه، وورثة رسالته وعقيدته، فجاء القرآن بحلقة من حلقات قصة إبراهيم عليه السلام في سورة الشعراء حيث قال تعالى﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[2].

فكأنما جاء إبراهيم عليه السلام من ثنايا الماضي البعيد يخاطب ذريته في مكة وكأنما هو حاضرٌ مشهودٌ وليس بغيبِ ماضٍ بعيدٍ، والقصة ليست لمشركي مكة وحدهم، بل هي لهم وللمؤمنين، فهي للدعوة والتأثير القوى،و الصلة بين المؤمنين وبين إبراهيم عليه السلام صلة قوية يعمقها القرآن في مواضع كثيرة»[3] فهذه الآيات من هذه القصة القرآنية تجمع بين الإمتاع العاطفي حيث مخاطبة قلوبهم ومسها مسا رقيقا رفيقاً، وبين ذلك القرآن حيث قال تعالى ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾[4] وترى الخطاب العقلي الذي يشبع العقل ويرضيه في قوله تعالى ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾[5]

فهو يخاطب عقولهم الواعية بهذا الاستفهام الإنكاري وأنت ترى ملحظاً عجيباً في هذه القصة فكأنما جاء إبراهيم من ثنايا الغيب ليخاطب مشركي مكة وجها لوجه، ينكر ما أحدثوه من وثنية، ويتبرأ مما أقاموه في جوف الكعبة من أصنام، ويعلن براءته وعداوته للأصنام وعابدي الأصنام.

---

(١) القصة القرآنية محمد شديد ص ١٤ دار الفكر بيروت ط ١ بدون .
(٢) الشعراء الآيات من ٦٩ إلي ٧٤ .
(٣) القصة القرآنية محمد شديد ص ١٥ مرجع سابق .
(٤) سورة الشعراء الآيتان ٨٠ ، ٨١ .
(٥) سورة الشعراء من ٧١ إلي ٧٤ .

.. ومن يتأمل الآيات في هذه القصة يجد أن إبراهيم عليه السلام يعطى المؤمنين درساً عميقاً في الإيمان بالله تعالى، وينشئ في قلوبهم تصوراً حقيقياً للصلة بالله تعالى، وهو درسٌ موجودٌ وخالدٌ ليوم القيامة. ثم يختم القصة في النهاية بإعجازٍ تأثيري بالغ الدقة والإمتاع، حيث يصور مشهداً من مشاهد القيامة يذكر في النهاية ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1].

فهو يؤكد كلامه بآلة التأثير القرآني وهى «القلب» دلالة على عظمة عمل القصة القرآنية في القلوب، وعلى تأثيرها في النفوس. فالقصة تصور الحالة كأنك تراها أمامك لا تغيب عنك أبدا، وجدير بالذكر أن أؤكد علي أن القرآن الكريم ينفرد بأسلوبه القصصي المعجز ونظمه البديع المحكم، حيث ينقل وقائع وأحداث أمم سابقة في الزمان السالف، فتستحوذ هذه القصص علي الأذهان وتأسر النفوس وتعمق الجوانب الأساسية في الذات البشرية ليحقق الهدف الاسمي وهو توحيد الله، ويزداد أولوا الألباب عبرة وعظة، إذ إن القصة القرآنية تشتمل علي مواعظ وعبر وحكم كثيرة، فالقصة تشرح مبادىء الإسلام وانك لتجد هذا جلياً في قصص الأنبياء حيث تجد في بداية الحديث عن قصة غالبية الأنبياء، هذا القول الذي تصدرت به دعوا تهم، وهي قوله تعالى ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾[2].

خامسا : تثبيت قلب النبي ﷺ

فهذا القصص القرآني ساقه الله -علت قدرته - ليثبت به قلب الحبيب محمد - ﷺ - وبالتالي هو كذلك لأمته، وتأمل معي قول الله -تباركت حكمته - ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[3] وتثبيت فؤاد النبي محمد ﷺ من خلال القصة القرآنية له تأثيرٌ قويٌ وفعالٌ في نفوس أمته، وقد كانت هذه الأخبار الصادقة بمثابة المعلم المؤثر في قلوب ونفوس من يتعلمون وأعني بالمعلم آيات القصص القرآني، وأعني بالمتعلمين الناس الذين يستقبلون هذه الآيات ولذا قال الله سبحانه تعالى﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾[4] وعبر ربنا عز وجل بالفؤاد في

---

(١) سورة الشعراء الآية رقم ٨٩ .

(٢) سورة نوح الآية رقم ٣ .

(٣) سورة هود الآية رقم ١٢٠ .

(٤) سورة الفرقان الآية ٣٢ .

موقع عجيب دلالة قوية علي مدي تأثير القصة القرآنية وعملها في القلوب، فالتعبير بالفؤاد له مغزىً ، إذ هو محل التأثير بآيات القرآن الكريم، فكانت هذه القصص القرآنية تثبيت لقلب النبي محمد ﷺ وانفعال وتأثر بما فيها من دلائل العبر والعظات، وهي في ذات الوقت تؤثر فيمن تتلي عليه من أمته.«والقرآن حينما يعرض لقصص الأنبياء وغيرهم نراه يأخذ القصص من أحوال الأمم الماضية وأحداث التاريخ ووقائعه فهو يعرضها عرضاً أدبياً، ويسوقها عاطفيا بين المعاني، ويؤيد بها التأثير الذي يجعل وقعها علي الأنفس وقعاً استهوائياً يستبشر منها العاطفة والوجدان وأسلوب القصة في القرآن مؤثرٌ غاية التأثير، يكفي انه يثبت القلوب و يطرد الحيرة من العقول، ويهذب النفوس، ويزكي الأفئدة، ويطمح إلي أن يصل إلي القلب من أقرب الطرق المؤدية إلي التأثير الوجداني، ولعل هذا يلفت نظرنا إلي صنيع القرآن الكريم وأسلوبه القصص في القلوب، واستيلائه وتأثره علي النفوس والأفئدة، وذلك سر خاص بالقصة تؤثر من خلاله في قلوب الناس، وتستولي علي مشاعرهم، وتبرز فيهم العظة والاعتبار، فالقصة القرآنية يذكرها القرآن وفي النهاية يذكر العاقبة ويؤكد العبرة. يقول أحد العلماء» الاستفادة من تجارب السابقين، فهي خبرات عملية، وهي بين موقفين: موقف إيجابي يحسن التأسي به، وموقف سلبي ومنزلقات على الطريق ينبغي الحرص والابتعاد عنها، فالموقف الإيجابي يشد عزائم المؤمنين، ويثبت روح الثبات فيهم كقصة أصحاب الأخدود التي عبرت عن صبر وثبات المؤمنين السابقين»[1] لذلك قال لنبيه ﷺ بعد أن ذكر قصص الأنبياء مع قومهم في سورة هود قال في آخرها: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2] .

قال الماوردى: «أي: نقوي به قلبك وتسكن إليه نفسك لأنهم بلوا فصبروا وجاهدوا فظفروا»[3].

فالله ينصر في النهاية أنبياءه ويهلك المكذبين والمعاندين الضالين،وذلك كله ليثبت

---

(١) [منهج النبي في الدعوة: د/ محمد حمزون ٧٣ -٧٤].

(٢) سورة هود الآية رقم ١٢٠].

(٣) [النكت والعيون الإمام الماوردي :٢ / ٥١٢].

فؤاد النبي ﷺ و صحابته وأمته علي الإيمان الحق ويؤثر في نفوس من يدعوهم إلي الإيمان بالله تعالى، ولذلك كانت قصص الأنبياء ترد أحيانا مختومة بمصارع من كذبوهم، وذلك قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾(١) فذكر عاقبة القوم المكذبين هنا، ليؤكد علي تأثير القصة في نفوس وقلوب من يقرؤوها أو يسمعها ويتدبر حقيقتها، فتحدث في قلبه الأثر المرجو منها.

عناصر الجمال في القصة القرآنية :

مما لا شك فيه أن للقصة القرآنية عناصر جمال تبدو فيها القصة وكأنها شخص يتحدث، وبالتالي يكون تأثيرها أشد، وأثرها يكون قوياً ، وهذه العناصر الجمالية في القصة القرآنية تحقق الغرض الديني المراد منها وهو تثبيت فؤاد النبي ﷺ كما سبق بيانه فهذا التثبيت يتحقق من خلال القصة القرآنية ومن يجعل ورودها إلي النفس أيسر، ووقعها في الوجدان أعمق، فلم يكن القرآن الكريم ليصور الأحداث القصصية في الأزمان الغابرة لقصد التنبيه علي حال الأمم السالفة ، أو لغرض التسلية وجذب الأسماع، وإنما اجتمعت في قصص القرآن أغراضٌ ساميةٌ تقوم علي تحقيق الإيمان، وترسيخ أصوله في القلوب. «ولذا اشتمل القرآن الكريم علي وفرة غزيرة من القصص القرآني ذو التأثير القوي في النفوس وذو الوقع القوي علي القلوب، فهو قصصٌ قرآنيٌ واعٍ محكم، يدل دلالةً قاطعة علي حقيقة الدين، ويحدد تحديداً الطريقة المثلي لمرضاة رب العالمين، في الوقت الذي يشرح فيه للناس سنن الله في خلقه ، ولم يكن هذا القصص سرداً مجرداً لبعض الروايات القديمة يتسلى بها السامعون، يصدق بعضها ويكذب بعضها كما في سائر الكتب والقصص، ولكنها – أي قصص القرآن – اتصفت بالواقعية المطلقة التي لا زيف فيها. ولهذا كان للقصة القرآنية تأثيرٌ فعالٌ وقويٌ في نفوس وقلوب سامعها وقارئها؛ لأنها تتحدث عن واقعٍ وليست درباً من نسيج الخيال ولذا كانت عناصر الجمال في القصة القرآنية من طريقة عرض إلى مفاجأة إلى الفجوات بين المشاهد بعضها من بعض كل هذه العناصر تكاملت

(١) سورة العنكبوت الآية رقم ١٤.

وتكاثفت لتؤلف التأثير القرآني الذي يستولى على مشاعر الناس، ويأخذ بمجامع القلوب و الأفئدة.

وأستطيع أن أذكر خصائص القصة الفنية المؤثرة فيما يلى.

أولا: تنوع طريقة العرض

المتأمل في عرض القصص القرآني يلحظ أن هناك طرائق أربعة في عرض القصة

الأولى: «وهو أن يلخص القصة في عرضها ثم يذكر التفصيلات بعد ذلك من بدايتها إلي نهايتها، وهذا وارد في قصة أصحاب الكهف» حيث يقول الله -عز وجل - ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾[1].

الناظر المتفحص يلمس أن هذا ملخص القصة «ثم بعد ذلك يتعبه تفصيلات تشاورهم قبل دخولهم الكهف، وحالتهم بعد دخولهم، ونومهم ويقظتهم وإرسالهم واحد منهم ليشتري لهم طعاماً، وكشفهم في المدينة وعودته وموتهم وبناء المعبد عليهم، واختلاف القوم في أمرهم إلي غير ذلك مما ذكرتهم القصة»[2] وكأن هذا التلخيص كان مقدمةً مشوقةً للتفصيلات.

الثانية: ومرة تذكر القصة بعاقبتها ومغزاها:

ثم تبدأ القصة بعد ذلك وتفصل خطواتها وذلك مثل قصة موسي في سورة القصص تأمل كيف تبدأ القصة وتأثر بآي القرآن يقول تعالى﴿طسم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ

---

(١) سورة الكهف من الآية رقم ٩ إلي الآية رقم ١٣ .

(٢) التصوير الفني في القرآن ص ١٤٩ مرجع سابق .

أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [١] ثم يستأنف بعد ذلك بعرض قصة موسي منذ بداية نشأته حيث مولده ورضاعته وكبره وقتله المصري وهروبه والتقاء بابنتي شعيب إلي غير ذلك.وعلي هذا المنوال المؤثر تري قصة يوسف عليه السلام قد سارت علي هذا الدرس كل هذا يؤكد بما لا يدع مجالا للشك مدي تأثر القصة القرآنية بأي طريقة عرض.

الثالثة: ومرة تذكر القصة مباشرة مجردة عن ما سبق بلا مقدمة ولا تلخيص

وتكون في هذا الحالة بمثابة المفاجأة وهذه المفاجأة فيها ما يغني ويشبع ويروي العطش ويؤثر التأثير المطلوب وذلك مثل قوله تعالى ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً﴾ [٢] بل إن القصة كلها مليئة بالمفاجآت، ومن جميل القصة أن سردها يتناسب مع أحداثها وكل ذلك مفاجأة؛ وبإلقاء نظرة بسيطة جداً علي القصة تري أن الحمل أتي فجأة، وليس هذا فحسب بل إن قرار الهروب جاء مفاجأة، والمخاض أتاها فجأة والمتأمل في آيات القصة يلمح أنها أتت في كل مرحلة من مراحلها بالفاء وأظن أنها فاء المفاجأة حيث قال تعالى «فَحَمَلَتْهُ» وبعدها يقول «فَانتَبَذَتْ» وبعدها يقول «فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ» كما أنهم لم يعلموا بموضعها، وتأتي المفاجأة الكبرى وهي قدوم الملك عليها وقوله لها كما قال الله «وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ»

** وقصة النمل مع سليمان ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٣] والقصة كسابقتها

---

(١) سورة القصص من الآية الأولي إلي الآية رقم ٦ .

(٢) سورة مريم من الآية ٢٢ إلي الآية رقم ٢٦.

(٣) سورة النمل الآية رقم ١٨ .

مليئة بالمفاجآت التي تدل علي غرض القصة، فهول مفاجأة جيش سليمان بما فيه وما وهبه الله تعالى من نعمٍ لا تعد ولا تحصى، كل ذلك يجعل الحجر يتحرك، ومن ثم تحركت النملة بطريق المفاجأة؛ والأغرب من ذلك أن حديثها ذاته قد أتي مفاجأة غير متوقعة لسيدنا سليمان ﷺ ومن هنا قال الله تعالى ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[1].

الرابعة: القصة تكون عبارة عن تصوير يذكر فقط من الألفاظ ما ينبه إلي ابتداء العرض ثم يدع القصة تتحدث عن نفسها بواسطة أشخاصها وذلك لقوله تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[2].

ثانيا: تنوع طريقة المفاجأة وهي أربعة أحوال:

أ / فمرة يكتم سر المفاجأة عن صاحب القصة وعن المخاطب: حتى يكشف لهم معاً في آنٍ واحدٍ وهذا تأثيرها القويُّ في القلوب إذ أنها تزداد توقداً وتيقظاً وانتباهاً، حتى تعلم تفسير لما أثير من غرائب وعجائب ، وهذا كقصة موسي مع العبد الصالح[3] حيث يقول تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً﴾[4] وظلت الآيات تردد تساؤلاتٍ لموسي ﷺ فلا يجيب العبد الصالح ونحن الآن أمام مفاجآتٍ لا نعلم لها سرا وفجأة يجيب العبد الصالح عن كل هذه المفاجآت، بها يسكن معه القلب وتتأثر به النفس، ويجيب العبد الصالح فيما حكاه القرآن الكريم ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ

---

(١) سورة النمل الآية رقم ١٩ .

(٢) سورة البقرة الآية رقم ١٢٧

(٣) ذكرت العبد التي أتت به الآية وإن كان البعض يري أنه نبي مثل الرازي ، وغيره يقول إنه ولي ، وبعضهم يقول إنه حي ... وأنا أقول كما قال الله «عبداً» وسواءً كان نبياً أو ولياً فالكل عبدٌ لله تعالي.

(٤) سورة الكهف الأية رقم ٦٠ .

آبوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾[1] فجلي الأمر للناظرين والسامعين علي حد سواء.

ب / ومرة يكشف السر للمخاطب ويترك أصحاب القصة في عماية، فهم يتصرفون وهم جاهلون السر وأولئك يشاهدون تصرفاتهم عالمين، وأغلب ما يكون ذلك في معرض السخرية ليشترك المخاطب فيها منذ أول لحظة حيث تتاح لهم السخرية من تصرفات أصحاب القصة وهذا يبدوا واضحاً في قصة أصحاب الجنة قال الله تعالى ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾[2] وبينما يعلم الجميع من النظارة هذا كان أصحاب الجنة يجهلونه ليكون التأثير اقوي والدرس أعمق والنفوس أكثر تألماً وتحسراً وهذا لعمري قمة التأثير بل إن التأثير فيه يصل إلي أعلي صوره قال الله ﴿فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ﴾ وهذا محط تأثيره لمن ينوي أو يعزم مجرد عزم علي أن يحرم المساكين من حقوقهم.

ج / ومرة يكشف بعض السر للمخاطب وهو خاف علي صاحب القصة في موضع، وخاف علي المخاطب وعن صاحب القصة، ومثال هذا قصة عرش بلقيس الذي جئ به في غمضة عين لسيدنا سليمان. في الوقت نفسه كانت بلقيس نفسها تجهل ذلك ﴿فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾[3] فهذه مفاجأة عرفنا نحن سرها سلفاً ولكن مفاجأة الصرح الممرد بالقوارير ظلت خافية علينا وعليها حتي فوجئنا بسرها معها.

د / ومرة لا يكون هناك سر بل تواجه المفاجأة صاحب القصة والمخاطب علي حد

---

(١) سورة الكهف من الآية رقم ٧٩ إلي ٨٢ .
(٢) سورة القلم من الآية ١٧ إلي الآية رقم ٢٣ .
(٣) سورة النمل الآية رقم ٤٢.

سواء ولي آن واحد ويعلمان سرها في الوقت ذاته، وذلك مثل مفاجأة قصة مريم حيث تتخذ من دون أهلها حجاباً، فتفاجأ بالروح الأمين في هيئة رجل فتقول كما حكى القرآن ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً﴾[1] وكذلك فوجئنا معها بمجئ المخاض إلي جذع النخلة قال تعالى ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً﴾[2] واكتفي من عناصر الجمال في القصص القرآني بهذا لأؤكد علي أن التأثير القرآني من خلال وسيلة القصة قويٌ جداً وذلك لما بين التأثير والقصة القرآنية من علاقة قوية ووطيدة، فطبيعة هذه العلاقة تتكشف لناظريها من خلال عرض آيات قرآنية في صورة قصصية عندئذ تجد قمة التأثير في نفوس وقلوب من يتلى عليهم هذه الآيات، وتظهر هذه العلاقة أيضا بوضوح إذا ما علمنا أن القصة القرآنية وسيلة مهمة من وسائل تأثير القرآني، وذلك لما من أهمية جليلة وخطيرة في الاستيلاء علي قلوب الناس فالقصة القرآنية ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه، وإنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكريم إلي تحقيق هدفه الأصيل، والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شئ والقصة احدي وسائله لابلاغ دعوة الإسلام وتثبتها في القلوب شأنها في ذلك شأن مشاهد القيامة وصور النعيم والعذاب وقد خضعت القصة القرآنية في موضوعها وطريقة عرضها لمقتضي الأغراض الدينية والتعبير القرآني يؤلف تمازجاً وانسجاماً بين الفرض الديني والفني في القصة القرآني حتى انه يجعل الجمال الفني أداة مقصودة لتأثير الوجداني فيخاطب الحاسة الوجدانية بلغة الجمال، وإدراك الجمال الفني الرفيع لتتلقي النفوس هذا التأثير القرآني باستعداد تام ، من خلال هذا يمكن لنا أن ندرك مدي طبيعة العلاقة بين الإعجاز التأثيرى للقرآن وبين القصة القرآنية بعد ما عرفنا أنها احدي وسائله التأثيرية.

قصص القرآن الكريم ووقعها التاثيرى:

القصص القرآني فيه من العظات والعبر ما يجل عن الوصف، بل إن شئت فقل إنه لا

(١) سورة مريم الآيتان ١٧ ، ١٨.

(٢) سورة مريم الآية رقم ١٩ .

يحده حد، ولا يحصي عبره وعظاته عد، ولهذا آثرت أن يكون الكلام النظري بطريقة عملية وهاأنا ذا أسوق نماذج فيها من التأثير القرآني ما فيها، من تهذيب للنفوس، وتأديب للجوارح، وتدبر للقلوب، واتعاظ وعبرة للأولى الأبصار. وكل ذلك من العظمة والقدر الجليل للقصص إنما اكتسبته من خلال القرآن الكريم،فقد سمت القصة إلى هذه المنزلة التي تحدثت عنها آنفاً، وأؤكد هاهنا بذكر هذه النماذج لأنها قصة سبقت في بيان قرآني، وأعظم بها من منزلة، وأكرم بها من قصص فالقرآن لم يترك صغيرة ولا كبيرة في أي فن من فنون القول إلا وأتى بها، وبالطبع فإن القصة القرآنية ستكتسب كل هذا «وذلك لأنها حادثة مرتبطة بالأسباب والنتائج يهفو إليها السامع، فإذا تخللتها مواطن العبرة في أخبار الماضيين، كان حب الاستطلاع لمعرفتها من أقوى العوامل على رسوخ عبرتها في النفس، والموعظة الخطابية تسرد سرداً لا يجمع العقل أطرافها،ولا يعي جميع ما يلقى فيها، ولكنها حين تأخذ صورة من واقع الحياة في أحداثها تتضح أهدافها، ويرتاح المرء لسماعها، ويصغى إليها بشوق ولهفة، ويتأثر بما فيها من عبر وعظات، والقصص الصادق يؤثر أقوى تأثير في نفوس السامع والقارئ»[1] وهذا يعنى ما للقصة من تأثير قوى في النفوس والقلوب ومن ثم فالقصة القرآنية ذات أهداف كثيرة وعظيمة ومتنوعة، فهي مسوقة للموعظة والتربية والتوجيه، ومع ذلك فهي تفي بكل مطالب الفن القصصي القرآني.

ومن ثم فإن ذكر هذه النماذج القرآنية من القصص القرآني، إنما هو من قبيل التأثير القوى الذي يقصد منه، أو يرمى من خلاله إلى التهذيب والتربية والتوجيه وصدق الله ﷻ حين قال ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2].

ولكن هذه النماذج التي أسوقها إنما أسوق بعضها كل واحدة من مجال نوع معين، وهذا يتطلب حتما ذكر أنواع القصة القرآنية، ومن كل نوع أذكر نموذجا.

---

(١) مباحث في علوم القرآن مناع القطان ص ٣٠٥ بتصرف مرجع سابق .
(٢) سورة يوسف الآية رقم ١١١ .

أنواع القصص القرآني: للقصص في القرآن الكريم ثلاثة أنواع:

النوع الأول: قصص الأنبياء: وتتضمن عدة أمور هامة منها دعوتهم إلي قومهم - المعجزات التي أيدوا بها - موقف القوم منها - مراحل الدعوة وتطورها - عاقبة المؤمنين والمكذبين. وذلك مثل قصة إبراهيم - موسي - عيسي - محمد - عليهم جميعا أفضل الصلوات وأتم التسليمات.

النوع الثاني:قصص قرآني تتعلق بحوادث غابرة واشخاص لم تثبت نبوتهم:

وذلك مثل قصة من اخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت وقصة طالوت وجالوت، وبني ادم، وأهل الكهف وذي القرنين والأخدود... الخ

النوع الثالث: قصص تتعلق بحوادث وقعت في زمن رسول الله ﷺ وذلك شأن الغزوات كغزوة بدر وأحد في آل عمران وحنين وتبوك في التوبة، وغزوة الأحزاب في سورة الأحزاب....الخ

وبعدما تقرر ذكر أنواع القصة في القرآن الكريم آخذ من كل نوع من هذه الأنواع نموذجا استدل به علي وقع هذه القصة القرآنية في القلوب، وما تأثيرها علي النفوس وأؤكد أن القصة القرآنية في القرآن الكريم حقيقة لا خيال، والآن إلي النماذج.

النموذج الأول: قصة محمد ﷺ ووقعها التأثيري.

واخترت سيدنا محمد ﷺ لأنه خاتم النبيين وبه ختمت الرسالات فرسالته ﷺ مصدقة ومؤكدة ما سبق قصص أخواته الأنبياء لذا آثرت بذكره وحياته في القرآن ووقعها التأثيرى علي النفوس المؤمنة وغير المؤمنة ولعل سيرته ﷺ قبل النبوة وبعدها تؤكد بها لا يدع مجالاً للشك أنه كان معصوماً ولم يسجد لصنم ولم يفعل ما كان يفعله أهل زمانه أبدا، ولذا كان إرساله إلي البشرية رحمة من الله تعالى بعباده وصدق الله إذ يقول في حقه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[1].

(١) سورة الأنبياء الآية رقم ١٠٧.

وقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] فكانت بعثة النبي ﷺ حين اشتدت الحاجة إليه حين ضل الناس عن سبيل الله وتاهوا في غياهب الجهل والغواية، فاعتلت بذلك حياتهم وسقمت نفوسهم وقلوبهم فكان لا بد من طبيب وذلكم محمد رسول الله. ثم بعد ذلك توالت الأحداث وأوحي إلي رسول الله ﷺ بواسطة جبريل اذ قال الله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[2] ولك أن تتأمل هذه الآيات بقلبٍ خاشعٍ، وفؤادٍ مستنيرٍ، والله يقول وربك الأكرم وهذا دليل تأثيري علي أن المقروء من فيض ما يتكرم الله به علي عباده، فالرسول عطية من عطايا الله لعباده زد علي ذلك كله أن الله عوضه خيراً عما لاقاه من يتم وحرمانٍ عطفٍ وحنان الأبوين وهذا عين قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾[3].

عوضه الله في يتمه خيراً مما فقده بموت أبيه وأمه وجده وعمه، ومكن الله أن يحيا نبياً رسولاً ويموت نبياً رسولاً أليس بعد هذا تكريم وتعويض؟ بلي...!

عوضه في فقره فأغناه عن الناس وبارك في تجارته وأغناه بعزة نفسه، وحسن سمعته وثقة الناس فيه وشمول دينه عوضه عن يتم أمه خيرا، وصار الرسول ﷺ ورعاً تقياً بين الناس ولقبوه بالصادق الأمين عاش عزيز النفس طيب السمعة كان نعم المثال في الخلق والأدب والإيمان، وليس أدل علي ذلك من كلمته أمام عمه أبي طالب لما ذهبت قريش تساومه فقال والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري علي أن اترك هذا الأمر ما تركته، عاش الرسول محمد ﷺ بهذا الروح الإيمانية لتكون لذكراه عظة وقصته عبرة جليلة علينا، فالنفوس اقوي من الأجساد فلا الجسد يثني الروح والنفس عن الاعتقاد ولا يستطيع أن يسوقها إلي غير ما اعتقدت ولعل هذا كان له اقوي الأثر وبالغ التأثير في من اسلم من الصحابة كعمر بن الخطاب وأبي بكر... وغيرهم وصدق الله حين

---

(١) سورة سبأ الآية رقم ٢٨.

(٢) سورة العلق الآيات من ١ : ٥.

(٣) سورة الضحى الآيات من ٦ : ٨.

قال ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

وأؤكد هنا أمراً بالغ الأهمية في ذكر الرسول محمد دون غيره من الأنبياء هو أن الله جمع كل قصص الأنبياء فقال ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاء أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾[2].

فالله قص علي رسوله ﷺ ما سبق من الرسل من قصصهم «ولما كان العالم في شقاء وعذاب والدنيا في ظلام دامس وسواد حالك بعث الله رسوله محمد ليداوي النفوس ويؤلف القلوب ويربط الناس بعضهم ببعض ويوجههم جميعا في وحدة منسجمة متآلفة إلى بارئهم وخالقهم، وذلك ليقوموا بواجب الشكر له على ما أنعم به عليهم، وأسداه إليهم»[3] ومن ثم التزم القرآن الكريم بالحديث عن رسول الله ﷺ المبعوث رحمة وهداية للعالمين ، وقدم القرآن الكريم صورة واضحة عن دعوته ورسالته، وحدد مهمته فقال تعالى﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[4].

وهذه الآية تحدد مهمة رسول الله فهو من أنفسهم، لكن ميزته عليهم أنه يتلو آيات الله، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ثم تطالعنا آية أخرى تزيد الأمر وضوحا، وتوضح شخصية الرسول أكثر حيث يقول تعالى﴿رَّسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً﴾[5].

---

(١) سورة التوبة الآية رقم ١٢٨ .

(٢) سورة غافر الآية رقم ٧٨ .

(٣) دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني د/ أحمد جمال العمري ص ٣٨٠ ، مرجع سابق .

(٤) سورة الجمعة الآية رقم ٢ .

(٥) سورة الطلاق الآية ١١ .

وتأتي آية أخرى توضح صورة النبي أكثر وأكثر وتوضح صورة من آمن معه، حيث تسلط الأضواء على المؤمنين حتى يكون قادة يحملون مشاعل الهدى والنور إلى من يأتي من بعدهم. فقال تعالى ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾[1].

أرأيت هذه الآية فهي توضح صفات حملة الرسالة والدعوة بعد رسول الله ﷺ فهذه الآيات بهذا الإيقاع التأثيرى تصنع في النفوس صنع السحر، حيث تؤكد مصداقية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فالرسالة التي يحملها ﷺ تنوير للقلوب وتربية للنفوس، وتوجيه وتهذيب للضمائر والأفئدة.

ولعلك تتأمل تلك الصورة التي رسمتها الآية الكريمة للمؤمنين إنما هي مستمدة من شخصيته ﷺ وإلى جانب هذا كله ربط الله رحمته بمن يتبع رسول الله ﷺ.

فقال تعالى ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2] ثم أنتشر الإسلام على يد رسول الله ﷺ وكان يرحم المستضعفين، حتى أن الله عاتبه مرة على كونه لم يرحم ضعيفاً ضريراً قال تعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَن جَاءهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى﴾[3] فهذا العتاب الإلهي دليل قوى على أن القرآن وحيٌ إلهيٌ من عند الله،ودليل على صدق نبوة النبي محمد ﷺ.

---

(١) سورة الفتح الآية رقم ٢٩ .

(٢) سورة الأعراف الآيتان ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٣) سورة عبس الآيات من ١ : ٤ .

يقول تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾[١].

من أروع القصص القرآني في قضية الإيمان، والتي تهدف إلى تثبيت العقيدة، وهى من أعظم القصص القرآني المصور في صدقه، وسرد حقائقه، قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة ولعل ما نقله ابن إسحاق «لما ذهب النضر بن الحارث وعقبة بن معيط إلى أحبار اليهود ليسألوهم عن محمد فقالوا لهم سلوه عن ثلاثة أشياء ومنها «سلوه عن فتية في الدهر الأول ما كان من أمرهم، فأنهم قد كان لهم حديث عجيب..»[٢] فنزلت الآيات السابقة وهذا خطاب من الله لرسوله، فأصحاب الكهف كان لهم حديث عجبا ، يخبر تعالى عن أولئك الفتية الذين فروا بدينهم إلى غار في جبل، ليختفوا عن قومهم، سائلين الله تعالى رحمته بهم ولطفه عليهم وتأمل هذه الكلمات ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً﴾[٣].

ماذا تفعل هذه الآيات في القلوب، إنها والله كلماتٌ ذات أثرٍ فعالٍ، أي يا ربنا هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها كما نسألك أن تسترنا عن قومنا، وتعمى عيونهم عنا، ثم تأتى التالية ليبلغ بها التأثير ذروته ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾ أي يا رب إننا ما فعلنا ذلك إلا من أجل دينك، فنحن خرجنا ابتغاء مرضاك، ولذا قدر لنا يا ربنا من أمرنا هذا رشدا، واجعل عاقبتنا خيراً ورشداً. ولذا كان النبي ﷺ يدعو بهذا الدعاء «وما قضيت لنا من قضاء فاجعل عاقبته رشدا»[٤] وهذا الدعاء الذي دعوا به ربهم وهو بهم أعلم، وبحالهم

(١) سورة الكهف الآيات من ٩ : ١٣ .

(٢) السيرة النبوية ابن هشا م ج ١ / ٨٧ مرجع سابق .

(٣) سورة الكهف الآية رقم ١٤ .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح ، ج / ١ / ٧٠٢ ، وقال عنه حديث حسن صحيح ولم يخرجاه.

اخبر، كانت الاستجابة بأسرع مما يتخيله العقل، حيث يقول تعالى ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً﴾ أي ألقى الله عليهم النوم حين دخلوا الكهف فناموا سنين عددا ثم قاموا ليعلموا أن الله على كل شئ قدير، وهذا إجمال عام لقصة قرآنية من نوع يتعلق بالحوادث، لخصها القرآن الكريم، ثم شرع في بسط القصة وشرحها حيث قال تعالى ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ «إنهم فتية وهم الشباب، فهم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وأنعموا في دين الباطل ولهذا كان أكثر المستجيبين لله ورسوله شباباً، وهكذا أخبر الله عن أصحاب الكهف، أنهم كانوا فتية شباباً فألهمهم الله رشدهم وآتاهم تقواهم فأمنوا بربهم، واعترفوا بالوحدانية له، وشهدوا أنه لا إله إلا هو»[1] والباحث المتأمل في كتاب الله «يجد لهذه القصة المثيرة مشاهد تذكر،وكأنها ترى وكأن الإنسان يعاينها معاينة تامة، ويرى وقائعها في أسلوبٍ قرآني قصصي غاية في البلاغة والفصاحة والذوق الادبى الرفيع، تؤخذ منه مغزى وعبرة دون التباس و لا غموض.

المشهد الأول:إيواء فتية أمنوا بربهم، وزادهم ربهم هدى، وقد فروا من الوثنية إلى الوحدانية، فحفظهم الله تعالى من كل مكروه و سوء،ربط على قلوبهم وتمسكوا بدينهم،واعتصموا بربهم،وكان الإيمان قد سكن القلوب فلازمها ولم ينفك عنها أبدا، وهذا يجعل القلوب تتأثر غاية التأثر بآيات القرآن الكريم.

المشهد الثاني:مشهد بعثهم أحياء مرة أخرى بعد نومهم،وترى الصورة القصصية واضحة بينة، هادية مرشدة، تصور المشهد تصويراً دقيقا، مدعاة إلى التأثر والانجذاب إلى هذا القصص القرآني الأخاذ»[2].

المشهد الثالث: منظرهم داخل الكهف ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣/ ٧٥ مرجع سابق .

(٢) انظر في هذا الجامع لأحكام القرآن القرطبي ج ١٠ / ٣٤٩ ، وادر المنثور السيوطي ج ٥ / ٣٦٢ .

وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً ﴾[1] وكأن الله قد يسر لهم كل أسباب الحياة الطيبة، ووفر لهم كل أسباب العيش الهنيء والحياة الآمنة المطمئنة، لأنهم فروا من أجل الله تعالى وفى سبيل الله، وتجد الوصف القرآني مصوراً المكان كأن القارئ للقرآن يراه، وهو يتلو كتاب الله تعالى،إنه الجمال التأثيرى ظاهراً في كل كلمات القرآن الكريم الخاصة بهذه القصة، وليس أدل علي ذلك من حفظ الله تعالى لهم وضمهم إلي رحابه، ومن كانت عناية الله له كيف يخاف أو يجزع، وبهذا أثرت كل صور هذه القصة في النفوس، وتركت انطباعاً عاماً لدي قارئ للقرآن أو المستمع له علي حد سواء.فقصة أصحاب الكهف فريدة من نوعها، في تاريخ العقيدة سجلها القرآن إثباتا للبعث والنشور وانه حق وكان أصحاب الكهف هم البرهان الأكيد علي أن الله يبعث من في القبور، إنها قصة عجيبة حافلة بالمواقف المضيئة والمشاهد المؤثرة.

النموذج الثالث: غزوة الأحزاب ووقعها التأثيري:

يقول الله – سبحانه وتعالى – ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيّاً عَزِيزاً وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾[٢].

إن الأحزاب لما نزلوا حول المدينة، ثبت المؤمنون وصدقوا الله فصدقهم الله، حيث قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله وما كان ذلك إلا أن زادهم يقينا بنصر الله، زادهم إيمانا علي إيمانهم. «لما عاين المؤمنون بالله ورسوله جماعات الكفار قالوا

---

(١) سورة الكهف الآية رقم ١٨ .

(٢) سورة الأحزاب الآيات من ٢٢ : ٢٧ .

تسليماً لأمر الله، وإيماناً منهم بان ذلك انجاذٌ، «هذا ما وعدنا الله وسوله»، فأحسن الله إليهم وعليهم بذلك من يقينهم وتسليمهم لأمره فقال «وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً»[1] ولعل هذه الغزوة كانت نصراً وفتحاً مبيناً قصها الله علي المؤمنين، ووضعها في القرآن في صورة قصة كي لا تنسي، وكلما أراد المسلمون أن يقرأ وها أتت شاخصةً أمامهم كأنهم يشاهدونها ويرونها رؤيا العين، وهذا حق لا مرية فيه، ومن هنا تأثير هذه الغزوة التي أتت في صورة قصة قرآنية.

وختاما أقول: مما لاشك فيه أن القصة المحكمة الدقيقة تطرق السامع بشغف - وتنفذ إلي النفس البشرية بيسر وسهولة، وتسترسل مع سياقها المشاعر فلا تمل ولا تكد، ويرتاد العقل عناصرها فيجي ويقطف من حقولها الازاهير والثمار، ومن ثم فان أسلوب القصص القرآني أجدي نفعاً وأكثر فائدةً واقوي تأثيراً وأكثر انجذاباً.

***

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن الطبري ج ٢١ / ٣١١ . مرجع سابق .

المبحث الثاني: الحوار القرآني:

ومن وسائل الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم الحوار القرآني، وهو يؤدي دوراً خطيراً في التأثير علي العقول،فالحوار تأثيرٌ عقليٌ، كما أن القصة تأثيرٌ وجدانيٌ، إذ أن الإعجاز التأثيرى للقرآن الكريم ذو شقين شق يتعلق بالتأثير العقلي، وهذا قد اخترت له الحوار القرآني، والتفكير، وشق يتعلق بالتأثير الوجداني وهذا قد اخترت له القصة القرآنية، وغير ذلك من الوسائل في القرآن الكريم.

وعلي ذلك يكون ثمت إلمامٌ قدر المستطاع بالإعجاز التأثيرى للقرآن الكريم الوجداني العقلي والحوار القرآني وسيلة مهمة من وسائل التأثير القرآني، حيث إنها تحمل المعاندين والمجادلين علي الإقرار والاقتناع، والكف عن المجادلة والمخاصمة.

مفهوم الحوار: لغة «الحوار والمحاورة:المجاوبة والتحاور يعني التجاوب، يقال كلمته فما رد إليّ حواراً أي جواباً وهم يتحاورون أي يتراجعون الكلام والمحاورة: تعني مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة، والحور: الرجوع عن الشئ، وحار إلي الشئ وعنه حوراً أي رجع عنه، والحور: النقصان بعد الزيادة لأنه رجوع من حال إلي حال وفي الحديث «نعوذ بالله من الحور بعد الكور»[1] ومعناها من النقصان بعد الزيادة »[2].

فالمحاورة إذن تعني مراجعة الكلام، أقول حاورته أي راجعته فمادة الحوار والمحاورة تدور حول معني الرجوع ومن ثم يكون الحوار - المراجعة بين الطرفين يتجاذبان أطراف الحديث - وعليه فان المحاورة في اللغة تدور حول معان كثيرة أهمها:

١- المراجعة أي مراجعة الكلام وهذا موضوع البحث وما يخصنا من معناها

٢- التجاوب أي مجاوبة أطراف الحديث.

ويجب أن يوضع في الاعتبار أن المدلول اللغوي للحوار لا يعني أبداً الخصومة

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه ج ٤ / ١٣٨ كتاب المناسك باب الدعاء ثم الخروج إلي السفر .

(٢) لسان العرب ابن منظور ج ٤ / ٢٢٠ مرجع سابق . مادة حور

فالحوار صورة تبادل للكلام بين طرفين لا يقصد به مطلقا الخصومة ولا العناد،

الحوار اصطلاحا:الواضح من تتبع معنى الحوار في اللغة أنه ذو معانٍ متعددةٍ وكثيرةٍ ولكني اجتزأت منها ما يخدم موضع بحثي، وهو المراجعة والتجاوب في غير مخاصمة ولا مشاحة وعليه فالحوار يعنى المجاوبة بالرأي والقول ، حتى يقال تحاوروا أي تراجعوا الكلام بينهم وتجاوبوا في المنطق والمخاطبة، وكأن كل واحد من المتحاورين يستجير الآخر أي يستنطقه «فالحوار دربٌ من دروب الخطابة متجدداً، جدده وبعثه من رقاده العصر الأموي، فظهر فيه ظهوراً واضحاً ملأ الأسماع والقلوب، بسبب الخلافات السياسية وحرية الرأي التي سادت في هذه الفترة، ولغة هذا الفن أقرب ما يكون إلى لغة الخطابة، وهو يعتمد على القدرة البيانية،و حضور البديهة، وسرعة الخاطر.ولقد توارى في صدر الإسلام قليلا نتيجة لقوة الوازع الديني فى النفوس المؤمنة وقلة الخلافات السياسية والمذهبية، ولقد عد الحوار درباً من دروب القول»[1] ومما هو معروف أن الحوار مجرد رواية قول أو ذكر حدث وقع بين طرفين تجاذبا فيه أطراف الحديث بلطف وأدب و حب حتى يصلا في النهاية إلى الصواب.

أهمية الحوار للتأثير القرآني: مما لا شك فيه أن الحوار القرآني يهتم بالثمرة التي تأتى من خلال هذا الحوار، فهو يهدف إلى التأثير بآيات القرآن الكريم، وإظهار أن القرآن كلام الله وأن هذا الحوار القرآني دلالة قاطعة على عظمة الإسلام وتسامح المسلمين،ومما هو جدير بالذكر أنه بفضل الحوار كان القرآن يقيم الحجة على المعاندين والمشركين، وكان يقيم البرهان على أن هذا الكلام من عند الله تعالى، ولا يقبل الشك من أحد. حيث حاور القرآن المخالفين والمعاندين، وسلك معهم المنهج القرآني الأصيل الذي يتمثل واضحاً فى قول الله تعالى﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[2] .

---

(١) راجع الحوار في القصة ، المسرحية ، الإذاعة د / عبد الفتاح مقلد ص ١٨ ، القاهرة ١٩٧٥ ، وراجع حول أدب العصرين الأموي والعباسي الأول ، شفيق عبد الرازق ص ٨٨ دار الفكر بيروت ١٩٨٢ .

(٢) سورة النحل الآية رقم ١٢٥ .

فبفضل الحوار القرآني تمت رسم سياسة إسلامية يستطيع من خلالها المسلمون أن يدافعوا عن الحق، وأن يحرزوا النصر، وأن يفحموا الخصوم المكابرين.

وتتجلى أهمية الحوار للتأثير القرآني فيما يلي:

أولا: الحوار القرآني يوقظ النفوس، ويزكى الأفئدة، ويطهر القلوب، ويكسب أصحابها شحنات من الإيمان والعزم والتأثير والتصميم، مما يستطيعون معه مواجهة الشر و مقاومة الآراء الشيطانية التي تستجد على الساحة الإسلامية، كما أن للحوار أهميةً قصوى في تهذيب الشهوات البشرية، وبسط سلطان الإيمان والعقل على أقوال وأفعال المؤمنين. وهذا يتجلى واضحا فيمن يقرأ التاريخ ويستعيد مجد الأسلاف والآباء على حد قول الشاعر:

أولئك آبائي فجئني بمثلها إذا جمعتنا يا جرير المجامع (١)

فالإسلام أطلق العقول من أغلال الوثنية، وحطم بعض الفلسفات الإنسانية، ومنح المسلمين الحرية في التفكير والعقيدة، ولذا كان المسلمون الأوائل هم قادة هذه الدنيا علمياً وفكرياً واقتصادياً واجتماعياً، وفى مقدمة هذا كله أخلاقياً، وذلك كله بحافز قوى من تعاليم القرآن وآدابه وتشريعاته، مع وقوفهم على حضارة غيرهم من الأمم في حوار هادف يأخذون منه ما ينفعهم ويتركون منه الخبيث الردئ طالوت وجالوت، ومن أظهر أشراط الحرية وأقوم سبيلها طريقة الحوار القرآني، وهذا الحوار لا يتحقق منه التأثير القوى بآيات القرآن الكريم إلا إذا كان بمناقشة الأداء على بساط الحرية والصراحة فهما أقوى عناصر الحوار الهادف والطريق الصحيح لوقوع التأثير القوى في النفوس سواء كان ذلك على المحاور أو على من يلمس الحوار و يراه أو يستمع إليه، واتبع القرآن الكريم طريقة الحوار في رد كيد المعتدين والكائدين، ويكشف أخطائهم ويجلى ما بأنفسهم من آراء ما أنزل الله بها من سلطان.

ثانياً: القرآن الكريم يسلك سبيل الحوار للتأثير في بعض قضاياه: فالقرآن

---

(١) السيرة البنوية ابن هشام ج ١ / ٢٠٨ . مرجع سابق والبيت للفرزدق .

الكريم يهدى الناس فيما يهديهم إلى أن يحتكموا إلى الحق، وإلى أن يسلكوا الطريق الصحيح إليه، وهو طريق المحاورة حتى لا يضلوا الطريق، ويتيهوا في جنبات هذه الحياة. «يجعل القرآن كل قضاياه سبيلها الحوار، ويجعل كل خلافه مع أعدائه ومخالفيه قائماً على الحوار، ولا يجعل من القوة سبيلاً قط إلى التعامل مع المخالفين، وإنما يجعلها عقوبة للمصرين على الباطل بعد سطوع الحق، لتكون أيضا وسيلة إلى إعادتهم إلى الحق»[1] حتى يكون ذلك وسيلة هامة من وسائل التأثير القرآني ودليل ذلك رب العالمين في حواره مع الملائكة والأنس، وآية ذلك أن الله جلت قدرته يتخذ من ذاته مثلا للمحاورة فلا يفرض قوته ولا قدرته، مع أنه غير مراجع فيها، وإنما يبسط حواره قبل القوة ويضرب لنا أمثلة كثيرة في ذلك، منها حواره مع الملائكة قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[2] وحواره مع إبراهيم ونوح و موسى - عليهم السلام - وسيأتي ذكرهم في موطنه. وكذلك حواره سبحانه وتعالى مع إبليس وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وهكذا تري أن الله سبحانه يحاور الملائكة و الأنبياء حتى الشياطين، مع الوضع في الاعتبار حقيقة هامة ألا وهى وضوح قوته وقدرته، فله أن يفعل ما يشاء وما يريد، لا يسأل عما يفعل. وبهذا يعلم أن الحوار القرآني له دورٌ كبيرٌ في التأثير على الناس، فما بالك لو أنك علمت أن الله تعالى حاور - مع قدرته - ملائكته ورسله؟ أفلا يكون لذلك ردُ فعلٍ قويٍ له صدى بارعاً في القلوب!! بالطبع بلى و يتجلى هذا الرد الفعلي لهذا الحوار في القرآن حيث التأثير القوى لهذا الحوار القرآني في عقول وقلوب من يقرأون ويستمعون، وهذا الفعل الإلهي في المحاورة يعطينا مفهوماً جديداً جداً، ألا هو أن الله يريد أن يعلمنا استخدام المحاورة الهادفة حتى يكون لها التأثير المرجو منها أن يكون، وذلك قبل أن يلجئوا إلى القوة، مهما كانت وسائل قوتهم وأسلوب مخالفيهم، وكأني برب العالمين

---

(١) أسلوب المحاورة في القرآن الكريم د/ عبد الكريم حنفي ص ٦ بتصرف الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٥ م
(٢) سورة البقرة الآية رقم ٣٠.

يتساءل هل تملكون من القوة أكبر مما أملك؟ حاشا وكلا..!! ومع ذلك فأنى أستخدم المحاورة للتأثير والتأثر والإقناع وأتخذ المحاورة سبيلا إلى تبيان الحق، ودحض الباطل، فالحوار سبيل قوى ووسيلة فعالة للتأثير فى الناس، وهذا يعنى الحوار العام، ولكن قل لي بربك إذا كان الحوار قرآناً من رب العالمين، ألا يكون له أكبر الأثر في نفوس من يفهم و يتدبر ويعي و يسمع بقلبه قبل أذنه، ويستوعب فؤاده ذلك.؟؟ بلى.

ثالثاً: الحوار رياضة للأذهان وتفتيحاً للعقول: وهو بهذا يفتح مجالا للتأثير العقلي بآيات القرآن الكريم، فكما أن القلب له تأثير بالقرآن، فكذلك العقل له حالاته التأثيرية بالقرآن الكريم والتي تكون لازمه له لا تنفك عنه أبداً، والحوار يشبع هذا ويؤكده ، حين تتلاقي الآراء، ويفتح الحوار آفاقه، ويصل الأمر إلي الاقتناع فالحوار القرآني يتيح الفرصة أمام الناس إذا صدقت نواياهم، أن يعرفوا جميع الاحتمالات التي يمكن أن يكون الدليل يرقى إليها بوجه من الوجوه » ففي الحوار القرآني رياضة للأذهان وتلاقح للآراء وفتح مجالات التفكير للوصول إلى سائر الافتراضات التي تستطيع العقول المختلفة الوصول إليها»[1].

إن القرآن الكريم كلام الله تعالى، ولم تعرف البشرية - في تاريخها الطويل - قولاً أبلغ من كتاب الله تعالى، وإن كان القرآن الكريم مادة التدبر للقلوب، والاعتبار للنفوس، فهو في الوقت ذاته - أيضاً - حجة الله البالغة والباهرة للعقول، إذ حمّل الله القرآن من ألوان المحاورة وصور المناظرة ما تسلم به العقول تسليماً، - شرطة أن تحيد عن العناد - ويؤثر فيها تأثيراً قوياً كما أن الحوار من طبيعة الإنسان؛ وهو ملتصقٌ به التصاق العقل به، وفي رأي أنه لا يوجد حوارٌ بدون فكرٍ، ولا يوجد فكرٌ بدون عقلٍ، فالحوار إذن رياضة للعقول، وتفتيح له، ومن هنا فإن تأثيره علي العقول قويٌ للغاية.

«قضت مشيئة الله تعالى خلق الناس بعقول ومدارك متباينة إلي جانب اختلاف الألسنة والألوان والتصورات والأفكار، وكل تلك الأمور تفضي إلي تعدد الآراء

---

(١) أدب الاختلاف في الإسلام د/ جابر فياض ص٢٨ ، مكتبة الفكر بيروت ، ١٩٨٥ .

والأحكام، وتختلف باختلاف قائلها، وإذا كان اختلاف ألسنتنا وألواننا ومظاهر خلقنا آية من آيات الله تعالى، فإن اختلاف مداركنا وعقولنا وما تثمره العقول والمدارك آية من آيات الله تعالى كذلك، ودليل من أدلة قدرته البالغة، وإن إعمار الكون لا يتحقق لو أن البشر خلقوا سواسية في كل شيء»[1].

والله تعالى يقول ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[2].

ويقول الرسول ﷺ «اعملوا فكلٌ ميسرٌ لما خُلق له»[3] إن الحوار الذي وقع لسلف الأمة – ولا يزال – جزءٌ من هذه الظاهرة الطبيعية، وجزء من هذه الرياضة الذهنية وهذا التلاقح العقلي.

رابعاً: إحقاقُ الحقِ وإبطالُ الباطلِ:

إن الحوار في طبيعته القرآنية يرمي إلي إحقاق الحق وإظهاره، وإبطال الباطل ودحضه والقضاء عليه، ومن ثم يكون التأثير بآيات القرآن الكريم ظاهراً جلياً وذلك من خلال الحوار الهادف البناء، ولقد سلك القرآن الكريم هذا المسلك في الحوار حتي أثر في الناس ومن ذلك ما يلي..

١ – **نقد العقيدة الباطلة وبيان انحرافها:** ولعل هذا يظهر بوضوح لا غبش فيه ساعة نزول القرآن الكريم، فلقد نزل في بيئة تقدس الأصنام، ومن هذا المنطلق قال زيد بن عمرو في انحراف عقيدة قومه، وفي ترديهم في ضلالات الشرك والوثنية، وهذا ما نقله ابن هشام قال من قول بعض الشعراء

«أرباً واحداً أم ألف ربٍ   أدينُ إذا تقسمت الأمور

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٩ ، وانظر الحوار في القرآن الكريم للشيخ / خلف محمد ص ١٧ بدون .

(٢) سورة هود الآيتان ١١٨ ، ١١٩ .

(٣) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن باب قول الله «فاقرؤا ما تيسر منه» ج ٦ / ٢٧٤٤ برقم ٧١١١ واللفظ له.

عزلت الات والعزى جميعاً كذلك يفعل الجلد الصبور»[1]

وما دام القرآن قد نزل علي قلب النبي ﷺ ليؤسس عقيدة قوامها التوحيد المطلق لله رب العالمين؛ لذا كان من الضروري ألا تُقام العقيدة الصحيحة إلا بعد تنظيفٍ وتطهيرٍ للعقائد الفاسدة، ومن هنا جاءت أهمية تنمية العقول وإيقاظها من سباتها العميق، وإخضاعها للفحص والملاحظة والتحليل، حتى تنبذ وتطرح ما تعتقده من باطل ورائها ظهرياً، وهنا حاور القرآن العقول فقال تعالى ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾[2].

«ولعل هذه الآيات هي الأولي من نوعها في احتوائها تعريضاً صريحاً بمعبودات العرب وعقائدهم، ونقاشاً وحجاجاً وتسقيهاً وإفحاماً حول هذه العقائد»[3].

ومن ثم قال الله تعالى في هذا الشأن ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَّابْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾[4] إن هذه الآية الكريمة وما علي شاكلتها من الآيات قد أكدت بطريق الحوار القرآني استحالة تعدد الآلهة؛ إذ إنها بينت - لو سلمنا جدلاً -أن هناك آلهة متعددة لاقتضي ذلك وجود إلاه لكل مجال من المجالات، ونوع معين من المخلوقات، وهذا حتماً يؤدي إلي الفساد «لفسدتا» وهذه الآية لها وقعها القوي، وتأثيرها الشديد في النفوس، ومن هنا يقول د / محمد البهي «وإذا اقتسمت الآلهة مجالات المخلوقات بينها، فإن بعضها سيعلو ويطغي علي البعض الآخر»[5].

ومن باب التتمة أقول: إنّ انحراف عقيدة التوحيد عند هؤلاء وما آلت إليه في التصور الخاطئ؛ وما نشأ عن ذلك من ممارسات تعبدية ضالّةٌ وخاطئة؛ كل ذلك أكسب الحوار أهميةً فوق أهميته، بل إنه جعل وجوده ضرورة ملحة لا يمكن الاستغناء عنه أبداً،

---

(١) السيرة النبوية ابن هشام ج ١ / ٢٠٩ مرجع سابق.
(٢) سورة النجم الآيات من ١٩ إلي ٢٢.
(٣) التفسير الحديث د محمد عزة دروزة ج ٢ / ٢٢١ دار الفكر العبي بيروت ١٩٧٧.
(٤) سورة الاسراء الآية رقم ٤٢.
(٥) التفسير الموضوعي د / محمد البهي ص ٤٨ مؤسسة الرسالة بيروت بدون.

وذلك لأن إزالة ما تراكم علي النفوس وما علق بالقلوب من أتربة الوثنية لا يتم إلا بإيقاظ العقول وتنبهها بهذا الخطر، والوسيلة المؤدية إلي ذلك الحوار الذي عوّل عليه القرآن الكريم في مثل هذه القضايا، ولقد أثبت نتائج مبهرة في هذا الشأن، إن الحوار يزكي النفوس كذلك ويطهر القلوب، إنه يزيل ما عليه الناس من فساد وتوتر وصدام، وضلال وخرافة في جوٍّ يملأُه الهدوء، وتحكمه السكينة ويعيد تحليل الأمور للوصول إلي الحق.

٢ - إبطال بعض الظواهر الاجتماعية الفاسدة:

كان هناك انحلالٌ اجتماعيٌ خطير، وفسادٌ لا نظير له ولا مثيل؛ وذلك نتيجة طبعية لما عليه القوم من انحراف في العقيدة، واضطراب في الأخلاق، وكان ذلك هو السائد عندهم، ومن ثم كان لا بد من الاهتمام بتحليل هذا المجتمع وإخضاعه للتشريح؛ للقضاء علي ما فيه من عاهات وضلال، وليس هناك من وسيلة لإقناع هذه العقول التي ألفت الرزيلة سوى الحوار الذي أبطل كل هذا، وذلك في صورةٍ مؤثرةٍ ، وما أصدق ما قاله جعفر ابن أبي طالب في ذلك حيث قال «كنا قوماً.. نقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي فينا الضعيف»[1].

وغنيٌ عن البيان أنّ مجتمعاً كهذا الذي يتحدث عنه جعفر ابن أبي طالب من قطعٍ للأرحام وعلاقاتٍ ومعاملاتٍ انعدمت فيها كل معاني الفضائل؛ بل إنّ المجتمع علي أثره مهددٌ بالانهيار والضياع؛ يحتاج هذا المجتمع إلي منقذٍ يخرجه من هذا المنزلق الخطير، دون خسائر كثيرة فكان هذا المنقذ هو القرآن الكريم الذي اتخذ الحوار وسيلة من وسائل الإقناع التأثيري...

إضافة إلي ما سبق هناك ظواهر اجتماعية شهيرة وفي نفس الوقت من الخطورة بمكان وهي «ظاهرة وأد البنات» ولعلها من أخطر ظواهر الانحلال في العقيدة والاجتماع علي حد سواء، ولكن القرآن عالج هذا الانحراف في صورة مؤثرة ما زال التاريخ يرددها

---

(١) السيرة النبوية ابن هشام ج ١ / ٢٩٠ . مرجع سابق .

حتي اليوم حيث قال الله تعالى ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾[1].

ولك أن تتصور معي الآن مدي ما أحدثه هذا الحوار القرآني في رد الناس إلي الصواب، وبعدهم عن هذه الظاهرة الآثمة امتثالاً للقرآن وتأثراً بآيه، والآية قد أتت علي هيئة سؤال يحمل اللوم والاستنكار من قومٍ يفعلون هذا الإثم، وكأن السؤال ما الذنب الذي ارتكبته هذه المسكينة حتى يفعل بها هذا؟ إنه حوارٌ في صورة سؤال هو غاية في التأثر البليغ.

«هذا السؤال فيه إشعار بأن لا معذرة له في فعله هذا - أي الوأد - إذ لا شبهة له فيما صنع بها، فإن الشبهة قد تقضي التخفيف في العقوبة»[2].

فهذه الأفعال المنكرة وغيرها كثير، كانت ترتكب دون ذنب ، وعلي ذلك فإن المتأمل في هذه الآية السابقة يجد أنها تحمل في حد ذاتها إقامة الحجة الظاهرة علي فساد تلك الممارسة، ومن ثم تجد أن انحراف بعض الظواهر الاجتماعية كان قاضياً بوجود الحوار في القرآن؛ ليتولى تشريح تلك العاهات التي لا تتلاءم مع ما يريده القرآن، من إقامة مجتمعٍ فاضلٍ سليمٍ من هذه الآثام، وليقوم الحوار القرآني ببناء فهمٍ جديدٍ عن الألوهية قوامة التوحيد الخالص لله؛ ولينشئ مجتمعاً صالحاً بعيداً عن المفاسد الاجتماعية والانحلال الأخلاقي وغير ذلك من مثل هذه الأمور التي ينكرها الشرع والدين.

طبيعة الحوار القرآني وخصائصه :

لقد وردت مادة المحاورة في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع وهي..

الموضع الأول والثاني: فقد ورد في سورة الكهف، وذلك عند الحديث عن الأخوين صاحبي الجنتين، حيث كان أحدهما مؤمناً سخياً يخاف الله تعالى ويقيم حدوده، وكان الآخر كافراً شحيحاً يضن بالمال علي خلق الله، فكان أخوه يعظه في صورة حوار كما قال القرآن قال الله تعالى ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً وَكَانَ

(١) سورة التكوير الآيتان ٩ ، ١٠ .

(٢) انظر التحرير والتنوير الطاهر ابن عاشور ص ١٨٣ ، مرجع سابق .

لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً ﴾[١].

وأنت تلحظ أن لفظ المحاورة قد ورد في هذه الآيات مرتان، مرة يتكبر الكافر الذي أوتي المال، وهو يفتخر علي أخيه «فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً»، ومرة يعظ المؤمن أخاه وهو يقول كما حكي القرآن الكريم «قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً».

فهي خصومة وقعت بين الأخوين، ولكنها خصومة علي ماذا؟ إنها علي عقيدة «ومع أن الخصومة جوهرية بينهما إلا أنها من الناحية الاجتماعية، أعني في الظاهر الواضح أمام الناس لا تمثل خصومة، وإنما تمثل اختلافاً بين الأخوين في الدين والمنهج، ولعل هذا ما جعل القرآن الكريم يعبر عن موقفهما يأتي بلفظ التحاور المبني علي مراجعة الكلام»[٢].

الموضع الثالث: فقد ورد في صدر سورة المجادلة، وهو عبارة عن موقف اجتماعي يُسأل فيه رسول الله ﷺ من امرأة من المسلمين والله ﷻ قد سجل ذلك في القرآن قال تعالى ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[٣].

والمتأمل في هذه الآية الكريمة يلحظ أن المرأة في حديثها جمعت بين المجادلة والمحاورة ولما كان حديث المرأة عن زوجها كان خصومة كان التعبير بلفظ «تجادلك»، وفي نفس الوقت كان حديثها مع رسول الله ﷺ كان مراجعة في الكلام، ولذا جاء التعبير بلفظ «تحاوركما»، ومن ثم اخترت الحوار دون الجدال، ليكون وسيلة من وسائل الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم هذا أمر، والأمر الآخر هو أن المجادلة محصورة في محيط

---

(١) سورة الكهف الآيات من ٣٣ إلي ٣٨.

(٢) أسلوب المحاورة في القرآن الكريم د/ عبد الحليم حنفي ص ١٢٠، مرجع سابق.

(٣) سورة المجادلة الآية رقم ١

الخصومة، وذلك بخلاف الحوار، والواضح أن طبيعة الحوار في القرآن الكريم، يهدف إلي بيان الحقائق، وتقريرها من وجهة نظر المحاور من خلال توليد الأفكار في ذهنه.

«وعلي ذلك يظل العقل متقداً يقظاً متأثراً بهذا الحوار، وذلك كي لا ينتصر عليه الطرف الآخر، حيث لا يقتصر علي عرض الأفكار القديمة، بل يعمد إلي توضيح المعاني المتولدة عنده، وينشط لها نشاطاً ذهنياً كاملاً»[1].

خصائص الحوار القرآني وعمق التأثير به:

لقد كان بودي أن أذكر كل هذه الخصائص الفنية للحوار القرآني، لكن البحث لا يتسع لهذا، ولكني أحب أن أقرر حقيقة هامة، أراها ضرورة ملحة قد جالت بخاطري ألا وهي: أن القرآن الكريم تتسع طرائقه ووسائله ذات التأثير المميز سواء كانت عقلية أو وجدانية - اتساعاً لا يترك مجالاً واحداً من المجالات إلا وأثر فيها التأثير المطلوب، كما أنه لم يترك جانباً من الجوانب الحياتية التي يمكن أن تؤثر في الكيان الإنساني إلا وسلكه، وهذا - في نظري - تأثير يعقبه تأثير، إنه وحي يستوعب كل شعاب الخطاب المؤثر، ودروب الإقناع المثمر، وعندما يسلك القرآن الكريم وسيلة من وسائل التأثير، أو طريقاً من طرق الإقناع العقلي فإنه يوسع من دائرته.

وبناءً علي ما قد تقرر فإن طريق المحاورة بين ثنايا آيات القرآن تتسم بخصائص كثيرة وجليلة، أجتزئ منها بعضها - ما يفيد بحثي - مثل تبسيط الأسلوب..، وتنوع المجال ومخاطبة العقل والتأثير فيه، وسهولة العرض، وإنصاف الخصم.. إلخ

والآن إلي ذكر الخصائص العامة للحوار القرآني، وكيفية تأثيره في العقول :

أولاً: التنوع: إنّ أول ما يطالعنا من خصائص الحوار القرآني؛ أنه متعدد الأغراض، ومتنوع الدلالات وذلك «أن المستقرئ لآي القرآن الكريم يجد أنه قد نوع الحوار فلم يقتصر علي جانب معين، كأمور الدنيا وأمور العقيدة، بل نجد في القرآن

---

(١) انظر المعجم الفلسفي جميل صليبا ص ٥٠١ دار الكتاب اللباني، لبنان الطبعة الأولي ١٩٧١ .

الكريم أنواعاً متعددة ومتنوعة للحوار تشمل كل جوانب الحياة»[1] إن المرء إذا ما قرأ القرآن يجد أنواعاً عدةً من الحوار القرآني، فتارة يأتي الحوار ليؤثر في الإصلاح، ويهف إلي قيادة الناس إلي الخير، وأن بنأي بهم عن الشر، وهذا يتجلى واضحاً في قول الله تعالى ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾[2].

والمتأمل في الحوار القرآني بتدبرٍ وتمعنٍ ملحوظ، يلمح بوضوحٍ تام مدى أهمية هذا الحوار الإصلاحي من نبي الله هود ﷺ تجاه قومه، يستهدف من خلاله التأثير فيهم، وإقناعهم بما لا يتم الإصلاح إلا به؛ ألا وهو عبادة الله وحده مع ترك المفاسد والمنكرات، والملاحظ من هذا الحوار أن هدفه الإصلاح وهذا عين التأثير.

كما أنك تلمس في القرآن الكريم حواراً يدور بين الخير والشر، ينصر الله تعالى فيه الخير وأهله، ويُدحض فيه الباطل وأهله، وهذا يؤثر فيمن يقرأه أو يسمعه علي حدٍ سواء،

---

(١) مخل إلي الاستدلال القرآني د/ عبد الله الشاذلي ص ٦٣ ، ٦٤ الطبعة الأولي ١٤٠٧ ه، ١٩٨٧ م .
(٢) سورة هـود الآيات من ٨٤ إلي ٩٣ .

وذلك حيث يوقن أن دولة الباطل ساعة وأن دولة الحق إلي قيام الساعة، ومن ثم ينتهي عن الشر ويقبل علي الخير، وتأمل هذه الآيات التي توضح هذا المعنى يقول تعالى ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾(1) وليس الأمر يقتصر في الحوار عند هذا الحد، بل يتعداه إلي السياسة ومجالات الحياة المختلفة، ومن الحوارات القرآنية التي تدور في فلك السياسة ما حكاه القرآن الكريم في قول الله - تبارك اسمه - ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾(2) وحوار آخر يدور في فلك العلم، ورحاب التعلم مع نبي كريم وعبد صالح آتاه الله من علمه واسمع إلي ربك وهو يقول ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أمْراً قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾(3) وحوار آخر هو في غاية الأهمية، حيث صراع النفس وكبح جماحها، ليصل الأمر في النهاية إلي التأثير فيها، وهدايتها إلي الحق ، وهذا يظهر واضحاً في الحار الذي أجراه سيدنا موسي عليه السلام مع سحرة فرعون ويذكر القرآن ذلك في صورة مؤثرة ومعبرة قال تعالى ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ

---

(1) سورة المائدة الآيات من ٢٧ إلي ٣١ .

(2) سورة النمل الآيات من ٢٨ إلي ٣١ .

(3) سورة الكهف الآيات من ٦٥ إلي ٧٠ .

السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾[1] وتأمل معي هذا الحوار المؤثر بين جماعة الكفر والطغيان وبين نبي الله موسي ﷺ ولك أن تتخيل مدي كفرهم الذي بدا من تجمعهم لمقاومة موسي، هذا المنظر الذي هم علي تحول كلياً وجزئياً، حيث قد أثمر الحوار ثمرته المرجوة من هداية الناس إلي النور، وقد حدث ذلك بالفعل يظهر هذا في مقاومتهم لفرعون - بعد ما استبان لهم الحق - لفرعون حيث يصور القرآن ذلك أبلغ تصوير، وأبلغ تأثير حين توعدهم فرعون فكان الرد كما قال الله ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[2] انظر كيف قاوم السحرة فرعون بترفعٍ ويقينٍ صادقٍ، وهذا مشهدٌ حواريٌ من كثيرٍ مما ورد في ثنايا القرآن «ونستطيع بدون مجهود يذكر أن نتعرف علي كثير من أفكار الشخصيات التي وردت في أسلوب القرآن من خلال الحوار القرآني، ونقف علي خواطرهم وآرائهم وما نشب بينهم من صراع، ولم يصور القرآن عقائد الأفراد تصويراً مبالغاً فيه، وإنما عرضها بدقةٍ وأمانةٍ ونصفةٍ، وفي الوقت نفسه تخير منها اللقطات الموحية المؤثرة أبلغ تأثير، والعناصر الحية التي تحقق الغرض المطلوب وتفي بالحاجة، وتكون أكثر دلالة ومغزى في التأثير علي النفوس والعقول، وللحوار من ذلك نصيب كبير وحظٌ وافرٌ ودورٌ مهمٌ في بعث روح الحياة التي نشاهدها ونعيش فيها، وترى في الحوار القرآني دقة التصوير بحيث تشعر أنك تلمس الحوار بيدك، وتراه بعينك ولعل هذخ سمة التأثر بالحوار القرآني»[3] وهذا كله يومئ إلي أن الحوار في القرآن لم يأت عبثاً ولا هو من ضروب الافتراضات، وإنما له غرضٌ وهدفٌ حيثٌ يسعى إلي تحقيقه، ألا وهو التأثير القرآني من خلال هذه الوسيلة التي هي وسيلة الحوار.

(١) سورة طه الآيات من ٦٥ إلي ٧٠ .

(٢) سورة طه الآيات من ٧١ إلي ٧٣ .

(٣) طبيعة الحوار في القرآن الكريم د/ شوقي إبراهيم ص١٦ ، دار الطباعة المحمدية القاهرة، الطبعة الأولي ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

ثانياً: التـأثير: إنه لمن أهم خصائص الحوار القرآني أنه يؤثر في أطرافه بطريقة أو بأخرى، فالحوار القرآني ذو سلطةٍ تأثيريةٍ وذلك بوصفه وسيلة من وسائل الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم، وهو الجانب الموضوعي للحوار «وغنيٌ عن البيان أن القرآن الكريم كله هدفه الدعوة إلي الله تعالى بصفةٍ عامةٍ، بكل ما يندرج تحت هذه الدعوة من جوانب الإصلاح في العقيدة أو السلوك او ما يتعلق بهما معاً، ومن ثم فإن المحاورات القرآنية كلها تدخل في هذا الإطار، من حيث إنها تتضمن موضوعاً هو جزءٌ من هذه الدعوة ، أو بمعني أوضح كل موضوع المحاورة يتضمن جانباً من هذه الدعوة»[1] وبهذا يفهم أن الدعوة إلي الله تعالى – في غالبها – عبارة عن محاورة قرآنية يضمها تقع في صورة معبرة ومؤثرة» فمن جوانب إعجاز القرآن أنه لا يعتمد علي المعاني المجردة في القرآن الكريم، وذلك لضعف تأثيرها علي الناس، وسرعة انمحائها من النفوس، وإنما يعتمد علي تجسيد المعاني في قوالب أو صور محسوسة؛ لإثارة انتباه السامع واهتمامه بصورة أشد، ولترسيخ المعني وتثبيته في النفوس، ولذلك تجد القرآن يعرض صوراً عديدة من الأساليب البيانية، وذلك ليصب فيها المعاني العادية من مثل الإيمان بالله.. فالقرآن يدعو مخاطبيه إلي توحيد الله والإيمان به، وعبادته وحده، ويوضح لهم هذا بالمعاني المجردة وضوحاً بيناً لا لبس فيه»[2] وذلك مثل قول الله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾[3] والمعروف أن من طبيعة النفوس ألا تقف عند المعاني المجردة طويلاً، وذلك لأن تأثيرها في النفوس غير قوي، لأن المرء قد يطلب منه شئ فلا يستجيب له، ثم بعد ذلك يطلب منه ذات الشئ ولكن بصورة أخري فيلبي ويستجيب، فالإنسان تكوين عجيب من آثار قدرة الله العليم الخبير، ولذا فإن الله تعالى يخاطب هذا الإنسان بما يناسبه من المشاعر، ويعلم ما يؤثر في نفسه من الوسائل والأساليب فيجلبها له كي تؤثر في نفسه وعقله، وهذه رحمة من الله به.

---

(١) أسلوب المحاورة في القرآن الكريم د/ عبد الحليم حنفي ص ٤٣ . مرجع سابق .

(٢) المرجع نفسه ص ٤٤ بتصرف.

(٣) سورة الإخلاص من الآية ١ إلي الآية ٤ .

ومن ثمّ يعلم أنّ القرآن لا تعنيه المشاعر لذاتها وإنما ليؤثر بها في الناس، فهو يخاطب كل المؤثرات التي توجه الإنسان..في سلوكه وفي كل مجالات الحياة، والمعلوم أن القرآن يؤثر في العقل من خلال المحاورة التي ذكرها في آياته، ويمنحه مزيداً من التأثر بآى القرآن.

والحوار في أساسه يعتمد علي العقل، وذلك لأنّ طريقها الحجة والبرهان، وهذا أمرٌ واضحٌ في حوارات القرآن تمام الوضوح، وطبيعة هذا الاعتماد يظهر من خلال أنّ الحوار يتجه إلي إبراز الحجة والدليل العقلي، وتري هذا واضحاً جلياً في مسألة الإيمان بالله. حيث أنّ الله تبارك وتعالى يوجه نبيه في حواره مع المشركين إلي أن يفترض أن هناك آلهة أخري مع الله، ثم يحاورهم حتى يصل إلي النتيجة المرادة وهي التأثير في عقول وقلوب المنكرين، إلي أن يذعنوا بتوحيد الله تعالى، وإليك أمثلةٌ من آي القرآن الكريم علي ذلك ومن هنا يقول الله - تعالى - ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً﴾[1].

ويقول تعالى في آية أخري ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾[2].

فالعقل إذن مدعوٌّ للنظر والبحث عن صدقها ثم بعد ذلك يستجيب ويتأثر، وهذا هو الأمر الطبعي، وهكذا تجد أن الحوار في القرآن يعتمد علي العقل ولا يتأثر بأي عاملٍ خارجي بعيداً عن القرآن، فأطراف الحوار القرآني يصلون إلي الحق - في النهاية - شريطة البعد عن التعصب والانحياز والتشدد المرفوض الذي يأباه الإسلام، ومن ثمّ يُعلم أن القرآن الكريم يؤثر بذاته؛ وذلك لأنه كلام الله تعالى.وهناك أمثلةٌ كثيرةٌ وصادقةٌ أبلغ

---

(١) سورة الإسراء الآيات من ٤١ إلي ٤٣ .

(٢) سورة الأنبياء الآيات من ٢١ إلي ٢٤ .

الصدق في هذا الجانب فقد ضرب - سيدنا إبراهيم - أمثلةً باهرةً في هذا المجال، كما أنك تراه في افتراض تجرده من النبوة، بل إنك تجده واضحاً في حواره عليه السلام مع الله تعالى في قضية الإيمان حيث يقول تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِـي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١) وأنت تلحظ في هذا الحوار أن إبراهيم عليه السلام يفترض أنه غير نبي وغير مؤمن وهذا مستفادٌ من قوله تعالى ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى﴾ ولكنه يعود فيقول بلي وهو جوابٌ يفيد قمة الإيمان وقمة التأثر الجليل، ولفظ «بلي» تقرير واقع لأنه مؤمن حقيقة، ولكن هذا لا يتعارض مع تجرده الافتراضي من الدين أثناء الحوار ويدل علي ذلك قوله تعالى ﴿وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ومن خلال إطلاعي علي منهج سيدنا إبراهيم في دعوته قد لاحظت أن له منهجاً في حواره لا يشاركه فيه أحد، فكان أحياناً يسير مع خصمه في قوله لدرجة أنك قد تشك في أنه اعتقد قول الخصم، ولكنك سرعان ما تترك هذا الريب عندما يعان الخصم التوحيد متأثراً بما سمع واقتنع به، وهذا تجده في حواره مع قومه حتى يصل الأمر به أن يفترض أنه يعبد كوكباً معهم كما يعبدون، ولكنه إزاء كل هذا يضع لهم مفهوماً جديداً، وهذا قول الله - تباركت أسماؤه - ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾(٢).

---

(١) سورة البقرة الآية رقم ٢٦٠.

(٢) سورة الأنعام الآيات من ٧٤ إلي ٨٤.

أي هذا ربي في زعمكم فهو عليه السلام يفترض هذا، ولعلك تتفق معي مدي التأثير الذي يخرج به سيدنا إبراهيم عليه السلام من خلال هذه المحاورات الساخنة، إنه تأثير علي كل المستويات، تأثير نفسي تجده ييئسهم من هذه المعبودات الباطلة التي لا تنفع ولا تضر، وتأثير عقلي حيث جعلتهم الآيات في تفكير دائمٍ واستعمال فكرٍ لا ينقطع، والواضح أن الآيات ترسم صورة التأثير العقلي بصورة أكبر، وذلك لأن من كان يؤمن لا قديماً، يتعلل بأنه يقلد الآباء وليس بدعاً في هذا، فهو قد ألغي عقله واقفل فكره، وهذا جرمٌ كبيرٌ، ولذا مما يُحمد للمحاور أن يؤثر علي العقل، وهذا واضحٌ في كل الحوارات التي وردت في القرآن الكريم، ولا يقتصر الأمر علي هذا الحد بل يتعداه إلي أنّ هناك كثيراً من الآيات التي تختم بالدعوة إلي العقل، وذلك في صورة أسلوبٍ إنكاريٍ مقروناً بالاستفهام من مثل قوله تعالى «**أفلا تعقلون**» وفي الحوار الذي أتحدث عنه الآن؛ وهو حوار سيدنا إبراهيم مع قومه قال الله تعالى ﴿**أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾[1].

«وبهذا يتضح أن القرآن الكريم قد كرر الخطاب إلي العقل؛ وذلك لأن العقل معدن الإدراك والفهم لدي الإنسان، والقرآن الكريم إنما يلجأ إلي التذكير بالعقل لأن العقل خير مرجع للهداية في ضمير الإنسان»[2] والقرآن الكريم يحث العقل في كثيرٍ من آياته علي النظر والتدبر والتفكر في مظاهر الكون، لا سيما قضية الإيمان بالله تعالى، وذلك لأن العقل في شرعة الإسلام يبتغي الحقيقة حيث كانت، ولا يحجم عن المعرفة حيث أصابها، وعلي ذلك تري أن المحاورة في القرآن جل اعتمادها علي التأثير العقلي، وهذا تأثير آي القرآن في هذا الجانب وقبل أن أفارق هذه النقطة أذكر بعض الأمثلة من آي القرآن ومدي تأثيرها العقلي والنفسي أيضاً.

نماذج للحوار في القرآن والإعجاز التأثيري:

يقدم القرآن الكريم كثيراً من الأمثلة الحية للحوار القرآني ومدي أثره في نفوس وعقول الناس، كما أن الحوار القرآني ذو تأثير من نوعٍ خاصٍ، فهو يخاطب كل فئات

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٦٧ .

(٢) التفكير الإسلامي فريضة إسلامية عباس العقاد ص ١٠ بتصرف .

الناس، ولعل أول حوارٍ تأثيري تطالعه من القرآن هو حوار الله سبحانه وتعالى مع الملائكة.. ثم مع الناس.. وحوارات الأنبياء. وغير ذلك.

النموذج الأول: حوار الله مع الملائكة ووقعه التأثيري:

هذا الحوار القرآني تمثله أياتٌ كثيرةٌ في القرآن في مواضع متفرقة، وهذا يؤكد علي حقيقة هامة وهي تعدد الحوار الواحد في أساليب مختلفة ليكون تأثيره أقوي، وهذا دأب القرآن الكريم كله تأثير. ومن ثم يقول الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [(١)] إنك تجد أطراف الحوار هي كالتالي:

١ - الله ﷻ   ٢ - والملائكة الكرام

وموضوع الحوار هو خلق آدم ﷺ والمهمة الملقاة علي عاتقه وأولاده من بعده، والملائكة لا تعرف شيئاً إلا بأمر الله تعالى وإذنه؛ وهذه حقيقة لا يماري فيها أحدٌ، ويصل التأثير بالقرآن من خلال هذا الحوار إلي أعلي قمة له، وذلك لأنه دار بين الله - تعالى - وبين خلقه، إذ ليس مفروضاً علي الله - تعالى - أن يجري هذا الحوار، ولكن الله - عز وجل - فعل ذلك ليؤكد علي فضل بني آدم علي غيره من المخلوقات، إن الله يعلم أن بني آدم يكون فيهم الأنبياء وهذا فضل الله علي بني آدم - فله الحمد علي ذلك - وثمت أمرٌ آخر ألا وهو أن الله يعلمنا أن التأثير القرآني يتحقق من خلال وسائل كثيرة ومنها الحوار، وفي ذلك يقول صاحب الظلال «خلق الله بني آدم، وصار هذا الحوار بينه وبين ملائكته لأمرٍ عظيمٍ.. خلقه ليكون مستخلفاً في الأرض مالكاً لما فيها، فاعلاً مؤثراً فيها، إنه الكائن

---

(١) سورة البقرة الآيات من ٣٠ إلي ٣٤.

الأعلى في هذا الملك.

العريض، والسيد الأول في هذا الميراث الواسع، ودوره في الأرض وفي أحداثها وتطوراتها هو الدور الأول إنه سيد الأرض وسيد الآلة»[1] وقد جري حوار آخر في مواضعَ متفرقةٍ من القرآن الكريم، وذلك بين الله وملائكته ومنه قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُوراً وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾[2] وغير ذلك من الآيات التي تشمل الكثير من الحوارات بهذا الخصوص، ومدي التأثير القوي الذي تحدثه في نفوس قارئيها وسامعيها، والمتأمل يلحظ أن للحوار جاذبيةً في الأداء وروعة في الإلقاء، فالقرآن يجمع بين الوعظ والإرشاد والحكمة والتعليم، فالله عليمٌ بكلِ شيءٍ خبيرٌ بنفوس العباد، وأعلم بما يصلحهم ويقوّم عوجهم. وعند النظر في المواضع السابقة تلحظ ما يلي﴾ ففي الموضع الأول يبين لنا فضل بني آدم علي بقية الخلق، وفي موضعٍ آخر يبين أساس العداوة والحقد والبغضاء بين آدم وما يكنه الشيطان للإنسان عامة.. والملاحظ أن القرآن يؤكد علي مصلحة من يؤمن بالله تعالى، وبما أنزل علي محمد»[3]. وبهذا يضح أن الحوار القرآني وسيلةٌ مهمةٌ من وسائل التأثير القرآني، فهو وسيلة فعّالة في النفوس والعقول، وذلك لمن تدبره واتعظ به، إن هذا النموذج الحواري القرآني من طرازٍ خاصٍ«فهو نموذج أعلي للإرشاد والقدوة والتوجيه، حيث يجعل الله - سبحانه تعالى - من ذاته فيها معلماً ومثلاً يقتدي به في مثل موضوع المحاورة، والذي لا شك فيه أن هذه المحاورة حقيقية، ولكن موضع التأمل هو لماذا أوجد الله هذه المحاورة؟ ولماذا ساقها؟

---

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ج ١ / ٤٨ ... مرجع سابق.

(٢) سورة الإسراء الآيات من ٦١ إلي ٦٥.

(٣) الحوار والمناظرة في القرآن الكريم د/ خليل زيادة ص ٢٣ دار المنار القاهرة بدون.

ويمكن أن تكون الإجابة عن ذلك بأن من أبرز الأهداف التعليم، أي أنها سيقت لتكون وسيلة من وسائل التعليم»[1] وأثر ذلك واضح في موضوع المحاورة وكلماتها، حيث تعليم بني آدم وتكريمهم علي بقية الخلق، وكذا حرية الرأي المكفولة للملائكة، وذلك وارد في قوله تعالى ﴿قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[2].

ومراحل هذه المحاورة تتضح من خلال أن الله سبحانه وتعالى يعرض الموضوع علي الملائكة بصيغة تحمل معنيين، أحدهما: أنه قضي بجعل آدم خليفة في الأرض، أي مالكاً لها ومسيطراً عليها، وثانيها: أنه - سبحانه - لا يطلب رأيهم في خلق آدم، وإنما يطلبه في جعله خليفة، والملائكة يظهرون فزعهم من هذا أن يكون بنو آدم خلفاء في الأرض ومعلوم أن الله - سبحانه - ليس في حاجةٍ إلي ردٍ من أحد، لأنه لا يسأل عما يفعل وهو يسألون، ومع ذلك يريد الله تعالى أن يعلِّم الناس أن كل تأثير يسبقه إقناع وهذا الإقناع يحتاج إلي حوار، ومن ثمّ كانت أهمية الحوار كوسيلة من وسائل التأثر بالقرآن، ويتم الحوار بالفعل بين الله -ﷻ- وبين ملائكته، ويرد الله عليهم بأن آدم استحق هذه المنزلة لأسباب يعلمها الله ﷻ ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ وكانت نتيجة هذا الحوار الإلهي الملائكي أن اعترفت الملائكة متأثرة بكلام الله رب العالمين قال تعالى ﴿قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[3] كما أنهم سجدوا لآدم كما أمرهم الله تعالى. ومن خلال السياق العام لهذا الحوار القرآني أستطيع أن أقول:

أولاً: إن القارئ لهذه الآيات لا يملك نفسه من التسليم بأثر القرآن الكريم الذي لا يصمد أمامه أي قلبٍ.

ثانياً: أخذ العبرة والعظة والتدبر من هذه الآيات حيث التأثير التام، والاقتناع الكامل من الملائكة بأمر الله تعالى، ومن ثم سجدوا كما أمرهم الله تعالى.

---

(١) أسلوب المحاورة في القرآن في القرآن د/ عبد الحليم حنفي ٢١٨ بتصرف مرجع سابق .
(٢) سورة البقرة من الآية رقم ٣٠.
(٣) سورة القرة الآية رقم ٣٢ .

النموذج الثاني: بين ابني آدم والإعجاز التأثيري :

وهذا أول حوار دار بين البشر بين البشر في القرآن بعد أن خلق الله الدنيا، والحوار يذكره القرآن الكريم بتمامه في إحدى سوره الطوال قال الله ﷻ ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾[1].

هذه الآيات كما تري تأخذ صورة الحوار المؤثر الذي دار بين ابني آدم، وإني أعرض عن ذكر اسميهما حيث لم يصح هذا بطريق القطع ولذا أعرض عنه، وما أود الحديث عنه هو تأثير هذا الحوار فيمن يقرأه أو يسمعه، وهذا يتأتى من خلال الغل والحقد الذي يضطرم داخل القلب فيحول بينه وبين التأثر بالقرآن، ومن ثم كان هذا الحوار كوسيلة للتأثر في كل من يُكِنُ في قلبه شيئاً من هذا الغل، والمتأمل في الحوار يلحظ أنه حوار دار بين الخير والشر ولكنه تمثل في صورة أشخاص، فهما شخصان أقرب إلي الرمز منهما إلي التعريف بهما، وما أقصده من هذه العبارة هو أن هذا الحوار لم يسق لأهمية أن ينسب إلي شخص أو أشخاصٍ بأعينهم بل الأمر عام في كل من يشملهم موضوع الحوار، والذي يبدوا من موضوع الحوار هو الصراع الدائر بين الخير والشر فموضوع الحوار يدور حول قتل النفس وهي جريمة منكرة لا شك في ذلك، «مع العلم بأن القرآن الكريم قد ذكر كثيراً من الجرائم ناهياً عنها؛ إلا أنه لم يختص جريمة في النهي عنها بهذه الصورة من أسلوب التحاور إلا جريمة القتل، وذلك لأنها أبشع الجرائم بعد الكفر، وما عداها من صور العدوان إنما هو عدوان جزئي ومن ثم تجد القرآن ينذر القاتل بأنواع متعددة من العقاب لا تراها في جريمة أخري يقول تعالى ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ

---

(١) سورة المائدة الآيات من ٢٧ إلي ٣٢.

﴿خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾[١] وهذا يكون له تأثيره القوي في النفوس والعقول، ولها أن تتصور من هوله ما تشاء»[٢] إن المتأمل في هذه الآيات من خلال هذا الحوار القرآني يجد تأثيراً قوياً يستولي علي عقلك، بل ويشغل البال والذهن إذ إنك تتسائل من الظالم؟. ومن المظلوم؟ ولمَ هذا؟ أليس هذا أمر الله وقدره أم ماذا؟!! إنها أسئلة ذات أثرٍ فعّال تدور في خَلَد القارئ أو السامع للقرآن، وتحوم معانيه في قلبه ويفكر فيها بعقله، وتتراوح النفس بين العظة والتأثير الذي يضفي عليها نوعاً من العبرة المنشودة بهذا الحوار القرآني حتي تصل إلي التدبر المرجو من إنزال القرآن الكريم، والذي أشار إليه القرآن في قول الله تعالى ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[٣] والظاهر أن أحداً من طرفي الحوار قد سيطر عليه شعور الغضب الشديد حتي أداه ذلك إلي ارتكاب أول جريمة بشعة علي ظهر الأرض ألا وهي قتل النفس، وإني أقول إن من لم يتأثر بهذا الحوار فاعلم أن بقلبه شراً كبيراً، ومن يرتكب مثل هذا تكون العقبة وخيمة، والجزاء صعيب وأليم، تري بالله عليك أي عقلٍ سليم لا يتأثر بهذا، أي منطقٍ مستقيمٍ لا يأخذ هذا الحوار مثار تدبرٍ واتعاظٍ.

ومن التتمة أنقل ما ذكره ابن كثير حيث قال ﴾ قوله تعالى مبينا وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم لصلبه في قول الجمهور وهما قابيل وهابيل كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله بغيا عليه وحسدا له فيما وهبه الله من النعمة وتقبل القربان الذي أخلص فيه لله عز وجل ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين فقال تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق﴾ أي اقصص على هؤلاء البغاة الحسدة إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم خبر ابني آدم وهما هابيل وقابيل فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف وقوله ﴿بالحق﴾ أي على الجلية والأمر الذي لا لبس فيه ولا كذب ولا وهم ولا تبديل ولا زيادة ولا

---

(١) سورة النساء الأية رقم (٩٣).
(٢) أسلوب المحاورة في القرآن الكريم د/ عبد الحليم حفني ص ١٠٥، ١٠٦ بتصرف مرجع سابق.
(٣) سورة ص الآية رقم (٢٩).

نقصان كقوله تعالى: ﴿إن هذا لهو القصص الحق﴾ وقوله تعالى: ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق﴾ وقال ﴿ذلك عيسى ابن مريم قول الحق﴾ وكان من خبرهما فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف أن الله تعالى: شرع لآدم عليه السلام أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال ولكن قالوا: كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر وكانت أخت هابيل دميمة وأخت قابيل وضيئة فأراد أن يستأثر بها على أخيه فأبى آدم ذلك إلا أن يقربا قربانا فمن تقبل منه فهي له فتقبل من هابيل ولم يتقبل من قابيل فكان من أمرهما ما قصه الله في كتابه»[1].

«وحينما وجد المؤمن الخيّر نفسه بين أمرين لا ثالث لهما، إما أن يغضب الله فيرتكب أبشع جريمة، وإما أن يموت مظلوماً فآثر أقربها إلي الله فاستسلم للموت بينما مضي أخوه الشرير فأنفذ عزمه «فقتله» والتعبير بالفاء هنا يوصى بتلاحق المشاعر في نفس هذا الشرير في سرعةٍ وعجلةٍ، ولا يراد بها السرعة الزمنية بل المقصود بها عدم وجود فاصل زمني للتروي والتدبر، وذلك لأنه لا يستخدم عقله وتفكيره، وكأنّ هذه المشاعر تلاحقت فلم يفصل بينها تدبرٌ أو تفكرٌ»[2].

ومن الآثار التي يتركها هذا الحوار في النفوس والعقول: أن الخير لا بد وأن ينتصر في النهاية لا محالة، وأن الشر دائماً وأبداً إلي زوال مهما طال وقته فلا قرار له أبداً، والمفترض أن يكون هذا المعني متوافراً في قلوب من يقرأون هذه الآيات أو يسمعونها علي حدٍ سواء، فالله تعالى صاغ هذا في صورة حوار ليكون له دلالته التأثيرية في عقول وقلوب الناس، حيث قد بات واضحاً أن رجلاً دفعته المشاعر العدوانية إلي ارتكاب جريمة قتل أخيه في الوقت ذاته كان أخوه يكره العدوان ويمقته، وبعد هذا الحديث غدت النفوس مهيأة لتلقي العبرة التي سيقت المحاورة من أجلها، وهي بيان بشاعة جريمة القتل، وبعد تهيئة النفوس بهذا الحوار الفائق البلاغة والقوي التأثير؛ تأتي العبرة المستهدفة وهي قوله تعالى ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي

---

(١) تفسير القرآن العظيم ابن كثير ج ٢ / ٥٨ . مرجع سابق .

(٢) أدب الحوار والمناظرة د/ علي جريشة ص ٥٢ دار الوفاء المنصورة ١٩٨٩ م .

الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

وهذه العبرة التي هدف إليها هذا الحوار أن يؤكد أن قتل نفسٍ واحدةٍ كقتل الناس جميعاً، ويؤكد كذلك أن من يفسد في الأرض جزاؤه كما قال الله تعالى «.....أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

* * *

(١) سورة المائدة الآيتان رقمي ٣٢، ٣٣.

المبحث الثالث: المثل القرآني ودلالاته التأثيرية:

إن الأمثال في القرآن الكريم تؤدي دوراً مهماً ومؤثراً علي القلوب والعقول؛ وذلك لما لها من قوةٍ جذابةٍ حيث إنها محببةٌ إلي القلوب والعقول علي حدٍ سواء. ومن ثم يجمع المثل القرآني بين التأثير القلبي والتأثير العقلي، وهذا الدور يلمع لمعاناً بارزاً عندما تقرأ في القرآن مشهداً مؤثراً فإنك تجده في صورة مثل وذلك في قول الله تعالى ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً﴾[1] وعندما تقرأ هذه الآيات حاول قدر ما تستطيع أن تتسائل مع قلبك، ما مدي تأثره بهذه الآية التي أتت في صورة مثلٍ؟!! عندئذٍ تجد عجباً... تجد النفوس تستجيب والعقول تعي وتفهم والقلب يتأثر.. وهذا دأب الأمثال في القرآن بصفةٍ خاصةٍ. فالأمثال في القرآن تقرب الصورة إلي الأفهام فتعيها القلوب وتستوعبها العقول فهماً وتأثراً وتدبراً؛ وذلك لأن المثل القرآني يقرب الصورة إلي الأذهان ومن ثمّ تستقر فلا تنسي وهذا عين التأثر المرجو من هذه الأمثال القرآنية، وهذا قوله الله تعالى ﴿... وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

مفهوم المثل: من المعلوم أن القرآن نزل بلغة العرب، ولقد كانت العرب تستعمل الأمثال في كلامها، وكانوا يقصدون من ورائه الشئ الغريب المدهش العجيب في صورته وحقيقته، وهذا أمرٌ معروفٌ عنهم لا يحتاج إلي كثرة بيان، وتعليلهم في استعمالهم للمثل أنه يقرب المعاني ويضعها في صورة مثيرة أمام السامع لها، بل إنها تؤثر بطريق الأولي لأنها كثيراً ما كانت تفعم بالدليل؛ لأنها لم تصنع أمثالها عبثاً بل لأسباب أوجبتها ودواعٍ اقتضتها الحياة آنذاك، ومن ثم أصبح المثل كالعلامة التي يعرف بها الشئ المضروب له المثل.

لغةً: «المَثَلُ والمِثْلُ أي الشَبَه والشبيه وزناً ومعنى في الجملة، والمثل بفتحتين أي

(١) سورة الكهف الآية رقم ٤٥ .

(٢) سورة الحشر من الآية رقم ٢١ .

الوصف وبه ورد في القرآن ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾[1] والمعني أن وصفها هكذا، أي كما وُصف لكم»[2] ويأتي المثل القرآني حقيقة حيث يطلق علي ذات الشئ وهذا أيضاً في القرآن ومنه قوله تعالى ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[3] أي ليس كذاته شئ ومنه قوله تعالى ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[4] ومن ثم يفهم أن المثل «عبارة عن قولٍ يشبه قولاً آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره»[5].

المثل في الاصطلاح: «مقابلة شئ بشئ وهو نظيره، أو وضع شئ ما ليحتذي به فيما يفعل، فالمثل من الجنس ما سد مسد غيره»[6].

أهمية المثل القرآني كوسيلة من وسائل الإعجاز التاثيري:

المثل في القرآن وسيلةٌ هامةٌ من وسائل الإعجاز التأثيري، وذلك لما سبق بيانه من تقريب لصورة في ذهن السامع، ومن ثم فالمثل القرآني ذو تأثيرٍ قويٍ من خلال الصورة التي يرسمها ويقربها حيث يجسد المعاني وكأنها صورة تنبض بالحياة، فتفوح منه رائحة زكية طيبة تملأ القلوب والأسماع تأثراً وتدبراً. وتتجلى هذه الأهمية في عدة أمور كثيرة منها.....

أولاً: إنّ الأمثال القرآنية تعد الدِّعامة المجددة والمنشطة لوصول التأثير إلي العقول والقلوب، وذلك لما للمثل من قوة جذبٍ شديدةٍ تؤكد الصورة وتدعمها في ذهن القارئ

(١) سورة الرعد الآية رقم ٣٥ .
(٢) انظر المصباح المنير ج ٣ / ١٠٢ مادة مثل .
(٣) سورة الشورى الآية رقم ١١ .
(٤) سورة الأنعام الآية رقم ١٢٢
(٥) فتح البيان في مقاصد القرآن لأبي الطيب القنوجي ج ١ / ٦٢ ط المطابع الأميرية الطبعة الأولي بدون .
(٦) التعاريف المناوي ج ١ ٦٣٦ . مرجع سابق.

والسامع، و هذا لعمري مما تتقبله النفوس بل وتشتاق إليه، ومن ثم يكون التأثير كقاب قوسين أو أدني من ذلك، وذلك لأن القلب يتأثر عامة بمثل هذا الوسائل ومنها المثل بل هو «من الحقائق السامية في معانيها وأهدافها تأخذ صورتها الرائعة إذا صيغت في قالب حسن يقربها إلي الأفهام بقياسها من المعلوم اليقيني، والتمثيل هو القالب الذي يبرز المعاني في صورة حية تستقر في الأذهان بتشبيه الغائب بالحاضر، والمعقول بالمحسوس، وقياس النظير بالنظير، وكم من معني جميل أكسبه التمثيل روعةً وجمالاً، فكان ذلك أدعي لتقبل له واقتناع العقل به»(1) وفي هذا المعني يقول الله تعالى ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾(2) ويقول البيضاوي - رحمه الله - ﴿وتلك الأمثال﴾ يعني هذا المثل ونظائره ﴿نضربها للناس﴾ تقريبا لما بعد من أفهامهم ﴿وما يعقلها﴾ ولا يعقل حسنها وفائدتها ﴿إلا العالمون﴾ الذين يتدبرون الأشياء على ما ينبغي [وعنه ﷺ أنه تلا هذه الآية فقال: العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه]»(3) وقال الله تعالى في موطنٍ آخرِ ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(4) لعلهم يتعظون ويتدبرون في هذه الأمثال. وقال في ذلك الرسول ﷺ «إن الله أنزل القرآن آمراً وزاجراً، وسنة خالية، ومثلاً مضروباً»(5).

إذن قد تقرر أن المثل من الحقائق السامية والوسائل المؤثرة التي تصل بسرعة البرق إلي سويداء القلوب، ومن ثم غدا المثل القرآني ضرورة ملحة لا محيص عنها للتأثير علي الناس بها من جهة؛ ولتقريب الصورة للذهن من جهة أخري، وكلا الأمرين يتعاونان علي إحداث التأثير في القلوب والنفوس، ولكي يتضح هذا الكلام بالتطبيق العملي إقرأ معي قول الله تعالى ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ

(1) مباحث في علوم القرآن أ/ منّاع القطّان ص ٢٨١ ، ٢٨٢ . مرجع سابق .
(2) سورة العنكبوت الآية رقم ٤٣.
(3) تفسير البضاوي ج١ / ٣١٧ . مرجع سابق .
(4) سورة الزمر الآية رقم ٢٧ .
(5) أخرجه سعيد بن منصور في سننه فضائل القرآن برقم ٧٢ ، ج٢ / ٢٧١ وقال عنه إسناده ضعيف جداً

﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] في هذه الآيات الكريمة «ضرب الله تعالى الأمثال للمنافقين بحسب حالهم مثلين، مثلاً نارياً ومثلاً مائياً، وذلك لما في الماء والنار من الإشراق والإضاءة والحياة، فإن النار مادة النور والماء مادة الحياة، وقد جعل الله ﷻ الوحي الذي أنزل من السماء متضمناً لحياة القلوب واستنارتها ولهذا سماه روحاً ونوراً، وجعل قابليه أحياء في النور ومن لم يرفع به رأساً أمواتاً في الظلمات، وأخبر عن حال المنافقين بالنسبة إلي حظهم من الوحي أنهم بمنزلة من استوقد ناراً لتضئ له وينتفع بها، وهذا لأنهم دخلوا في الإسلام فاستضاءوا به وانتفعوا به وآمنوا به وخالطوا المسلمين، ولكن لما لم يكن لصحبتهم مادة من نور الإسلام طُفئ عنهم، وذهب الله بنورهم، ولم يقل نارهم فإن النار فيها الإضاءة والإحراق فذهب الله بما فيها من الإضاءة وأبقي عليهم ما فيها من الإحراق وتركهم في ظلمات لا يبصرون»[2] هذا عن المثل الناري الذي ضربه الله تعالى للمنافقين، وأنت معي في أن المشهد هنا أو المثل هنا يتألق روعة حيث يبين حال هؤلاء، ويكشف سرائرهم، ثم يؤكد أن قلوبهم لا تنتفع بالقرآن فهي قلوب ميتة كذلك، ومن ثم كل من لا ينتفع بالقرآن ميت في صورة الأحياء. وضرب الله لهم المثل المائي الممثل في تشبيههم بالمطر الشديد الذي يستصحب الرعد والبرق «ولضعف بصائرهم وعقولهم اشتدت عليهم زواجر القرآن ووعيده وأوامره وتهديده وخطابه الذي يشبه الصواعق، فحالهم كحال من أصابه مطر فيه ظلمات ورعد وبرق، فلضعفه وخوفه جعل أصبعيه في أذنيه خشية أن تصيبه الصواعق»[3] وهذا حالهم مع القرآن الكريم.

---

(١) سورة البقرة الآيات من ١٧ إلي ٢٠ .

(٢) أمثال القرآن ابن القيم ص ١٧ ، ١٨ ، مخطوط بمكتبة الأوقاف ببغداد تحت رقم ٦٦٨٥ ، وبمكتبة التراث برقم ٢٩ ، ومطبوع بدار مكة للطباعة والنشر ، تحقيق د/ ناصر بن سعد الرشيد ، الطبعة الأولي ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

(٣) المرجع نفسه ص ١٨ .

ثانياً: المثل القرآني يحدث في النفس إلتفاتة سريعة بارعة ومؤثرة، وذلك لما له من قوة علي التأثير تفوق الوصف «المثل يلتفت به المرء من الكلام الجديد إلي صورة المثل المأنوس فيلمح ما بينهما من التشابه أو التطابق، فلا يلبث أن يتلقي الأمر الجديد بمزيد من القبول والارتياح وهذا كله يجري في أقل من لمح البصر ومن ثم يحدث التأثر الشديد بآي القرآن الكريم، وهذه الحركة النفسية البارعة للمثل القرآني لها ما لسائر الحركات من تجديد وتنبيه ونشاط، علاوة علي أن المثل القرآني يمتاز بخلابته وبلاغته ورشاقة موقعه، وحسن تأثيره في القلوب، وروعة تأثيره علي العقول؛ كل هذا يجعله ذا أثرٍ واضحٍ، ومن ثمّ فإنّ أثره يبرق فى وجود السامعين ونظراتهم ، أو على الأقل فإنك تجد أن نفوسهم وسرائرهم تبتسم له وتهش وتبش لعذوبته»[1] هذه أهمية وجود المثل كوسيلة من وسائل الإعجاز التأثيرى للقرآن الكريم، أضف إلي ذلك أنه أمر محبب إلى قلوب وعقول الناس لاسيما العامة، والقرآن دائما ما يمهد الطريق إلى القلوب كى تتأثر، فيكثر القرآن من ضرب الأمثال التماساً إلى وصول التأثير إلى سويداء القلوب.

فالمثل القرآني يُسّهل عملية التأثير والتأثر؛ وذلك لما له من قوة جذابة في الإمتاع والاستمالة. وليس أدل على ذلك من هذا المثل العالي الذى ضربه الله فى القرآن الكريم حيث قال تعالى ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾[2].

وإنك لتجد أن المثل القرآني قد أحدث فى النفس حركة التفاتةٍ بارعةٍ ومؤثرةٍ فى آنٍ واحدٍ، حيث إن هذا التشبيه قد مثل الصورة حية طرية إلى الذهن مباشرة فاستوعبها القلب بكل تأثر وتدبر «حيث شبههم فى اعراضهم ونفورهم عن تدبر القرآن، وتأثرهم بآياته؛ بالحمر التى رأت الأسد والرماة ففرت منهم، وهذا من بديع التمثيل، بل هو غاية الذم لهؤلاء فإنهم نفروا عن الهدى الذى فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عما يهلكها ويعقرها»[3].

---

(١) تذكرة الدعاة ، الأستاذ/ البهي الخولي ص٦٦ بتصرف ، دار التراث القاهرة ط ٨ / ١٤٠٨ ه ، ١٩٨٧ م .

(٢) سورة المدثر من آية ٤٩ : ٥١.

(٣) أمثال القرآن ، ابن القيم ص ٣٠ بتصرف مرجع سابق .

وهذا المثل العالى لا تجد فى لغة البشر ما تستطيع أن تعبر عن جماله وروعته. وما يزيد المثل أهمية للتأثير القرآنى، ويكسبه مزيةً بارعةً أنه يقرب الصورة المعنوية إلى الذهن وذلك بإلباسها لباس الصورة المحسوسة، ليكون وقعها التأثيرى أقوى و أومض في النفوس والعقول. ولعلك تلمس هذا واضحاً فى القرآن فى سورة الرعد حيث ذكر الله تبارك اسمه هذا المثل في حق المؤمنين فقال تعالى ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ﴾[1] فى هذا المثل القرآن يزداد الإنسان المسلم تأثيرا فوق تأثير، وتدبراً أعلي مع المثل القرآني لا سيما إذا ما علم أن الله يضرب الأمثال؛ لتفهم القلوب وتعي وتتأثر بمراد الله - سبحانه وتعالى - وهنا شبه الله الوحي الذي أنزله لحياة القلوب والأسماع والأبصار - التي هى أدوات التأثير القرآنى - بالماء الذى أنزله لحياة الأرض بالنبات، وشبه القلوب - التي هى محل التأثير - بالأودية.

ويقول ابن القيم «فقلبٌ كبيرٌ يسعُ علماً عظيماً؛ كوادٍ كبيرٍ يسعُ ماءً كثيراً، وقلبٌ صغيرٌ إنما يسعُ بحسبه، كالوادي الصغير فسالت أوديةٌ بقدرها، واحتملت قلوب من الهدى والعلم بقدرها، كما أن السيل إذا خالط الأرض ومر عليها احتملت غثاءً وزبداً، فكذلك الهدى و القرآن والعلم إذا خالط القلوب أثّر فيها قَطرُهُ وما بها من الهواجس الشهوات»[2] وهذا قمة التأثير فى القلوب، حتى لتجد من قوة تأثير المثل أن المرء فى ذهولٍ، لا يملك أمامه إلا أن يذعن، أو إن شئت فقل أمام خيارين إما أن تتأثر؛ أو يتأثر، وهذا المعني يزيده الله تعالى وضوحاً بمحسوسٍ من سبائك الذهب.. وغيره فيقول

«وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ» وهو الخبث الذي يخرج عند سبك الذهب والفضة والنحاس والحديد، فتخرجه النار وتميزه وتفصله عن الجوهر الذي ينتفع به فيرمي ويطرحُ ويذهبُ جفاءً؛ فكذلك الشهوات والشبهات يرميها قلبُ المؤمن

---

(١) سورة الرعد آية رقم ١٧ .
(٢) أمثال القرآن، ابن القيم، ص ١٩ ، بتصرف – مرجع سابق.

ويطرحُها ويجفوها كما يطرحُ السيل والنار ذلك الزبدُ والغثاءُ والخبثُ ويستقرُ في قرار الوادي الماءُ الصافي الذي يسقى منه الناس ويزرعون، ويسقون أنعامهم كذلك يستقر في قرار القلب الإيمان الخالصُ الصافي الذي ينفع صاحبه وينتفع به غيره»[1] فمن لم يفهم هذين المثلين ويتدبرهما ويتأثر بهما فليس من أهل هذه الأمثال؛ومن يقرأ هذه الأمثال القرآنية ثمّ لا يتأثر بها؛ فهو من الخاسرين.

رابعاً: الأمثال القرآنية هداية للناس أجمعين:

إن ضرب الأمثال فى القرآن الكريم أقرب إلى أفهام العباد، ولقد أثنى الله على عباده الذين يتدبرون الأمثال ويفهمونها، فهم قد عقلوا عن الله أمره ونهيه فعملوا بطاعته، واجتنبوا مسببات غضبه ونقمته، وفهموا الأمثال وتدبروها، واجتهدوا فى العمل بما علموا وهذا قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[2] أي لا يعقل صحتها وحسنها، وفائدتها إلا هم، وأعنى بهم الذين يتأثرون بالقرآن، ويتدبرون معانيه، وذلك لأن الأمثال والتشبيهات إنما هي الطرق إلى المعانى الحيوية وراء الأستار حتى تبرزها وتجليها، وتكشف عنها، وتصورها للأفهام، «ذلك أن الأمثال تصور للناس الفرق بين الإيمان والشرك، وما هو حقُ وما هو باطلُ، والفرق بين حال الشرك وسوء اختياره، وفساد اتجاهه وحال المؤمن وطمأنينة نفسه، وتقرب لنا الأمثال المعانى على نحو يحفز المتأمل إلى الرغبة فى الخير والعزوف عن الشر، ويدعوه إلى الاستقامة في العقيدة، وفى الفكر وفى العمل، وبحثه على اجتناب الباطل والنفور من اعوجاج الفكر والمسلك»[3].

ولقد كان عمرو بن العاص ﷺ يقول «قلت عن رسول الله ﷺ ألف مثل»[4] وهذا يعد منقبةً من مناقب سيدنا عمرو بن العاص ولعل المثل الذي يؤكد الكلام السابق مثلٌ ضربه الله تعالى فى سورة الزمر، حيث قد عنى السياق فيها بالتوحيد، والتنقية من كل

---

(١) انظر تفسير النسفى – ج٢ / ٢٤٧ ، وانظر تفسير ابن كثير – ج٢ / ٥٠٨ – مرجع سابق.

(٢) سورة العنكبوت ، الآية رقم ٤٣ .

(٣) أمثال ونماذج بشرية من الكتاب الكريم ، د/ محمد على طاحون ، ج٣ / ١٨٤ دار هجر للطباعة القاهرة.

(٤) أخرجه الهيثمى في مجمع الزوائد ج٨ / ٢٦٤ ، وقال رواه أحمد وإسناده حسن .

شوائب الشرك وتبصير العباد بحقوق الله عليهم، ودعوتهم إلى تأمل آفاق النفس وآفق الكون ليكون الايمان عن برهان ويقين حيث يقول تعالى:

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[1] ضرب الله الأمثال في القرآن لهداية الناس إلى التوحيد وتأثرهم بآياته، وإقامة الأدلة على بطلان الشرك وفساده، وفى الأمثال تربية وتوجيه، وحث على الخير ليعرفه الناس، وتنفير من الشر ليجتنبوه وذلك أن الأمثال تخاطب عقول الناس بما يعرفونه، وتجعل ما هو غائب ماثل أمامهم فتضرب إليهم البعيد، والناس جميعهم مطالبون بالتدبر والتفكر والتأثر بأمثال القرآن الكريم، لأن في ذلك هدايتهم إلى خيري الدنيا والآخرة، وتبصيرهم بما فيه طمأنينة نفوسهم وسكينة قلوبهم، وصلاح أحوالهم وهذا كله يجده المتدبر المتأثر في القرآن الكريم، ثم بعد ذلك يضرب الله ﷻ مثلا للموحد والمشرك، يبين فساد الشرك وضلال أصحابه، ويوضح حال الموحد ونور مسلكه وطريقه في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * ﴾﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2] فهذا مثل للموحد والمشرك وبيان حال كل منهما على نحو يقرب المعنى إلى الأفهام ويدلهم عليه بأقرب طريق، فيبين الله – ﷻ– في هذا المثل صفة غريبة عجيبة تشبه المثل السائر في غرابته وبديع شأنه ثم فسر المثل بقوله ﴿رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ وفى هذا المثل تشبيه حالة عجيبة بأخرى مشابهة لها. «إنه مثل المشرك الذي يخضع لآلهة متعددة فهو كرجلٍ مملوكٍ لجماعةٍ صعبة أخلاقها، اشتد بينهم الخلاف، وكل منهم يحرص على استعمال حقه فيه، ولا يقبل التنازل عنه لشريكه، ويبقى هو بينهم ضائعاً غير مستقرٍ على حالٍ، وفى مقابل هذا المثل. هناك رجل آخر قد سلم لمالكٍ واحدٍ، فهو خالصٌ له، مؤدٍ ما يلزمه من خدمته، مطيعٍ له معتمد عليه فيما يحتاج إليه لإصلاح حاله، فهذا الرجل همه واحد، وقلبه

---

(١) سورة الزمر آية ١٨ .

(٢) سورة الزمر من الآية ٢٧ إلي الآية رقم ٢٩ .

مجتمع غير مشتت، فهو مستقر النفس غير فزع فهو مطمئن،ساكن الفؤاد»[1] وتلاحظ أن البون شاسع والفرق عظيم، لاشك أبدا في أن هذا المثل في هذه الآية الكريمة تصوير رائع وبليغ لحال من بعيد آلهة كثيرة، ومن بعيد إلها واحدا. إنهما تفيضان لا يجتمعان، ولا يستويان وهذا المثل وضح مدى ضرورته لحصول الهداية للناس أجمعين، وأنه يؤثر في القلوب والأسماع و الأبصار.

خامساً: الأمثال القرآنية رد على المشركين والمشككين:

إن من الأهمية التي يؤديها المثل القرآني؛ أنه يرد على المشركين والمشككين والملحدين، فلقد كان الجهلة والسفهاء من قريش يقولون: إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت، ويضحكون على ذلك، وقصدهم التشكيك وزرع الشرك في نفوس الناس الذين دخلوا الإسلام، كما كان هدفهم من وراء ذلك إثارة الشبهات حول القرآن ليرتد الإيمان من القلوب النقية التي آمنت وحسن إيمانها ولذلك قال الله تعالى ﴿**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**﴾[2] أي أن الله يثنى ثناء جما على أهل العلم والفطنة والتدبر والتعقل وذم وتقبيح لعمل السفهاء والجهلة الذين يجارون الأهواء، ويعرفون الحق وينكرونه ويتمادون في الباطل والضلال.وفى إبطال هذه الحملات التشكيكية، وفى تسفيه عمل المشركين والملحدين نزل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللّهُ بِهَـذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ**﴾[3].

وأعتقد - والله أعلم - أن هذه الآية تؤكد مصداقية تأثير المثل القرآني، وذلك لأنه كلام الله، «والله خالق الناس، وخالق الأكوان بما فيها وبمن فيها، وهو - سبحانه - القادر العظيم ومن دلائل قدرته، وسر عظمته أن يخلق الجرم الصغير، والجسم القمىء ذا الجزيئات الدقيقة الرقيقة، والشعيرات المرهفة الحساسة، لينبىء سبحانه عن كمال قدرته،

---

(١) أمثال ونماذج بشرية من القرآن، ج٣/ ٤٢٤ بتصرف كبير، مرجع سابق.

(٢) سورة العنكبوت الآية رقم ٤٣ .

(٣) سورة البقرة الآية رقم ٢٦ .

وتفرده بالخلق والإيجاد والتكوين.نعم إن المخلوقات كلها تنطق بلسان فصيح: إن لي خالقاً خلقني، وقادراً عظيماً أوجدني على مقتضى حكمته وإرادته، وإن كل مخلوق من دقيقٍ وضحيمٍ وصغيرٍ وكبيرٍ، مسخرٌ لما خُلق له، وفيه آيةٌ على كمال الحكمة والتدبير، وبرهانٌ على وجود الخالق وتفرده بالإلهية، ألآ ترى الذباب صغيراً حقيراً، وإذا نظرت إلى الفيل أو إلى الجمل رأيته ضخم الجثة، قوي البدن على البنيان»[1] هلا تأملت السر المعجز في الذباب والعنكبوت وفى الجمل والفيل، إنه سر عجيب إنه سر الحياة كما هي في الإنسان؟!! إلا أن الإنسان قد كرمه الله تعالى وفضله علي سائر المخلوقات، حيث قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[2] ألا يدعو ذلك إلى التدبر والتأثر؟ قل لى بربك أى قلب لا يحدث فيه تأثر بهذا المثل القرآنى المعجز، وتعالوا بنا تؤكد هذا من خلال مثلين ضربهما الله بالذباب والعنكبوت. المثل الأول من سورة الحج وفيه يقول الله - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[3].

هذا النداء العام للناس جميعاً ينبه الأفهام الحائرة والأفكار المتشتتة، والخواطر المتفرقة على الاستمتاع لسماع ما ينبغى لهم أن يعلموه، ويعقلوه، ويطيلوا التأمل فيه ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ أى أنصتوا وتفهموا، فإن هذا المثل الذى تستصغرونه حسب قدراتكم العقلية، وأهوائكم الشياطينية، وأفهامكم القاصرة. هذا المثل يقرر حقيقةً هامةً جداً ألا وهى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً﴾ يعنى أن الله واحدٌ خالقٌ بارئٌ، واجتمع الخلق جميعاً وتعاونوا أو تساندوا على أن يخلقوا أصغر الأشياء كالذباب لن يستطيعوا، فضرب المثل بالذباب، إذن ليس من قبيل العبث، بل إنه لإلتماس العظة والعبرة. وفى الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله

---

(١) انظر أمثال ونماذج بشرية من القرآن، ج٣ / ٣٢٣ بتصرف كبير، مرجع سابق.
(٢) سورة الإسراء الآية رقم٧٠ .
(٣) سورة الحج الآية رقم ٧٣ .

ﷺ يقول (قال الله عز وجل ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقا كخلقي؟ فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة)[١].

فوائد الأمثال القرآنية :

إن للأمثال القرآنية فوائد جمة، وذلك لما له من أهمية كبرى قد ذكرت جانبا منها فيما مضى، ولعل من الفوائد العظيمة التى ترتبط بموضوع البحث ارتباطا وثيقا ما يلي:

١ - العظة والاعتبار: وهذه العبرة لا تتأتى من فراغ، بل إنها تأتى من كون المثل كلام لله تعالى، ولهذا قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٢] أى يتعظون ويعتبرون، ويتأثرون وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن القرآن نزل على خمسة أوجه حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام واتبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه واعتبروا بالأمثال»[٣].

وبهذا يفهم أن المثل القرآني سيق للتأثر والتدبر، والعظة والاعتبار، والتماس الموعظة من صورةٍ قريبةٍ من الأفهام، محببة إلى بني الإنسان، وهو لهذا من أعظم علوم القرآن الكريم حيث قال الإمام الماوردى «من أعظم علم القرآن الكريم علم أمثاله، والناس في غفلة عنه، لاستغفالهم بالأمثال وإغفالهم الممثلات والعلم بلا مثل كالفرس بلا لجام والناقة بلا زمام»[٤].

ويقصد الإمام أن المثل أصبح مشهوراً ولكن الأهم من المثل هو الاعتبار بما فيه، ولا

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما، البخاري كتاب النكاح، باب التصاوير ج ٥ / ٢٢٢٠، ومسلم كتاب النبي إلي ملوك الكفار، باب تحريم صور ة الحيوان وتحريم اتخاذها فيه ممتهنة بالفرش ونحوه، وأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صور ولا كلب ج ٣ / ١٦٦٤ واللفظ لمسلم.

(٢) سورة الزمر الآية رقم ٢٧.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير من طريق عامر بن مطر، باب من اسمه عمر، ج٩ / ٢٦، وقال عنه الإمام الهيثمي في مجمع الزوائد رواه الطبراني وفيه عامر بن مطر وهو ضعيفٌ جداً وقد وثقه بعضهم، هذا بنص أنزل القرين علي سبعة أوجهٍ، أما بهذا اللفظ فقد أخرجه البيهقي في شعب الإيمان بالتاسع من شعب الإيمان وهو باب في تعظيم القرآن، فصل في صيانة المسافر بمصاحف القرآن إلي أرض العدو ج ٢ / ٤٢٦

(٤) الأمثال في القرآن الماوردي الحنبلي ص ٣٤.

يجوز الانشغال عن ذلك أبدا بأي حال من الأحوال، لأنه أهم فائدة من فوائد المثل القرآني ولذا قال الله تعالى ﴿لعلهم يتذكرون﴾.ومن ثم فالأمثال فى القرآن الكريم؛ تؤدى فوائد جمة، وقيماً جليلةً وعظيمةَ القدرِ، وأهمها العظة والاعتبار بما فيه من الأوامر الدالة على طاعة الله ﷻ والمبينة لاجتناب معاصيه، والمقربة كل ذلك لافهام الناس. إنما ضرب الله الأمثال في القرآن تذكيراً ووعظاً فيما اشتمل عليه من تفاوتٍ في ثواب أو على احباط عمل أو على مدح أو ذم أو نحوه فإنه يدل على الأحكام، فضرب المثل فى القرآن يستفاد منه أولا التذكير، وهذا قوله تعالى ﴿لعلهم يتذكرون﴾.فضرب الأمثال إذن فيه فائدة التذكير والوعظ والزجر والاعتبار، والتقريب المراد للعقل، وتصوير المحسوس، فإنه الأمثال تصور المعاني بصورة الأشخاص؛لأنها فى الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس ومن ثم كان الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي والغائب بالشاهد.وتأتى أمثال القرآن الكريممشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر أو إبطاله قال تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾[1] فامنن علينا بذلك لما تضمنته الأمثال من فوائد»[2] وعلى ذلك تكون الفائدة الهامة من ضرب الأمثال العظة و الاعتبار.

٢ - الاستقرار في الذهن: إنّ من فوائد المثل إبرز صورةٍ معنويةٍ فى صورةٍ حسيةٍ فيتقبلها العقل؛ لأن المعانى المعقولة لا تستقر فى الأذهان إلا إذا صبغت فى صورة حسية قريبة الفهم، وذلك مثل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[3] فهذا مثل ضربه الله تعالى لمن ينفق أمواله رياءً، فحاله أنه لا يحصل عليه من إنفاقه شيءٌ من

(١) سورة إبراهيم الآية رقم ٤٥ .
(٢) راجع في هذا المعني الاتقان فى علوم القرآن ، السيوطى ، ج٢ / ٣٤٤ ، مرجع سابق .
(٣) سورة البقرة، الآية رقم ٢٦٤.

الثواب،وبذلك استقرت الصورة فى الذهن وتأثر بها العقل، وارتوى بها القلب وصارت هذه الصورة مؤثرةً فى القلوب والأسماع ، فهذا المثل بهذه الصورة الحسية يؤثر فى القلوب تأثيراً شديداً، وذلك لأنها لا تنسى من العقل أبداً، ومن ثم أكثر الله تعالى في كتابه من الأمثال، وقد ذكر أنه فى الإنجيل سورة تسمى بسورة الأمثال، ومن ثم تكشف الأمثال عن الحقائق المستورة، وتعرضها فى صورةٍ محسوسةٍ مشاهدة لتكون إلى العقول أقرب، وإلى القلوب أكثر تأثراً وتدبراً وذلك مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[١]..........

٣ – الترغيب والترهيب:من فوائد الأمثال فى القرآن أنها ترغب فى الخير وتنفر من الشر، وذلك يتأتى من كونها تجمع المعنى فى صورةٍ محسوسةٍ وبعبارة موجزة جدا، «فيضرب المثل للترغيب فى الممثل حيث يكون الممثل به مما ترغب فيه النفوس، كما ضرب الله مثلا لحال المنفق في سبيل الله حيث يعود عليه الانفاق بخير كثير»[٢] وهذا قوله تعالى:﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٣] كما أن المثل القرآني يضرب للتنفير في الأمر حيث يكون المثل به مما تكرهه النفوس، وتعافه العقول، وتنفر منه الطباع السليمة، والفطر المستقيمة، وذلك قوله تعالى فى النهى عن الغيبة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[٤] وهذا مثل ضربه الله ﷻ لمن يغتاب المسلم فى غير حضرته، فهو مثل يقع من القلوب موقعاً وأي موقع، حيث يؤثر فيها، فلا تفكر في إيذاء الناس أبداً كما أن هذا المثل ذا تأثير قوى على الأسماع والألسنة،

---

(١) سورة البقرة، الآية رقم ٢٧٥.

(٢) مباحث فى علوم القرآن ، مناع القطان ٢٨٨، مرجع سابق .

(٣) سورة البقرة، الآية رقم ٢٦١ .

(٤) سورة الحجرات الآية رقم ١٢ .

فهو أمر بعدم ذكر الناس بما يكرهونه وعلى الأسماع بعدم سماع ما يؤذى الناس، إلى هذا الحد يكون تأثير المثل قوياً.

٤ - المدح والذم:

وهذه الفائدة تأتى من خلال ضرب المثل مدحاً وذلك في شأن أصحاب ﷺ حيث يقول الله تعالى ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾[1] كذلك حال الصحابة فإنهم كانوا فى بدء الأمر قليلاً، ثم أخذوا فى النمو حتى استحكم أمرهم، وامتلأت القلوب إعجاباً بعظمتهم،ومن فوائد المثل أيضا أنه يضرب للذم أي استيضاح للمثل به وذلك ساعة أن يكون للمثل به صفة يستحقها الناس، كما ضرب الله مثلا لحال من آتاه الله كناية، فتنكب الطريق عن العمل به، وانحدر في الرزايا منغمساً فيها.

* * *

(١) سورة الفتح ، الآية رقم٢٩ .

المبحث الرابع: القسم القرآني والتأثير القرآني:

إذ أنه من وسائل الإعجاز التأثيرى للقرآن الكريم، وهذا القسم يجعل النفس أكثر تأثراً، وتجد القلب الواعي المؤمن إذا سمعه تزداد ضرباته ودقاته، وذلك لأن الذي يقسم هو الله الخالق! الست معى في أن الذي يقسم هو الله تعالى، ولهذا كان الحديث عن القسم القرآنى ضرورياً لما له من تأثيرٍ قويٍ وفعالٍ على القلوب التي تعيه،وعلى الأسماع التي يطرقها، وعلى العقول التي تفهم الكلام وتعقله.

مفهوم القسم: لغة: قبل أن أتحدث عن هذا اللفظ في اللغة أوضح أمراً فيها - خشيه الاطالة- ألا وهو أن هذا اللفظ متغير الشكل ومتغير المعنى، وبيان ذلك «القْسم» بتسكين السين يعنى المناصفة،قسمت الشئ أي جزأته ومنه قول الله تعالى في الحديث القدسي «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين..... الحديث»[1] ويكون «القسم» وهو الحظ والنصيب وجمعه أقسام. تقول هذا قسمي وهذا قسمك - أي هذا نصيبي وتخصصي، وذاك نصيبك وحظك.... وهكذا أما الذي اقصده هو ما كان بالتحريك والقسم بالتحريك: أي اليمين، وكذلك المقسم وهو المصدر وقد أقسم بالله واستقسمه به، وقاسمه أى حلف له وتقاسم القوم أى تحالفوا، وفى القرآن﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[2] وأقسمت أي حلفت وأصله من القسامة، قال الله ﷻ ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾[3] وهم اليهود والنصارى حيث تقاسموا أي تحالفوا على كيد الرسول ﷺ كما قال ابن عباس «هم اليهود والنصارى الذين جعلوا القرآن آمنوا ببعض وكفروا ببعض»[4] قال الله تعالى ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾[5] أي حلف لهما، وفى الحديث «نحن نازلون بخيف بنى كنانة حيث

---

(١) أخرجه ابن حيان فى صحيح باب قراءه القرآن ذكر كيفيه قسمه فاتحه الكتاب بين العيد وبين وبه ج٣/ ٥٤ وكذا البيهقى فى شعب الايماج ٢/ ٤٤٧.

(٢) سورة النحل الآية رقم ٤٩.

(٣) سورة الحجر الآية ٩٠.

(٤) انظر الرد النشور فى التفسير بالمأثور السيوطى ح ٥/ ١٠٤ دار الفكر ببيروت ١٩٩٣.

(٥) سورة الأعراف الآية رقم ٢١.

تقاسموا على الكفر..... الحديث[١] والقسامة في إيمانهم تقسم على المتهمين في الدم.والقسامة الجماعة يقسمون على الشئ أو يشهدون ويمين القسامة مسويه إليهم»[٢].

وعلى هذا يدور المعنى اللغوي للفظ حول هذه المعاني:

القسم: اليمين المعهود

القسم: الحظ والنصيب والتخصص

القسم: المناصفة

وبهذا يعلم أن القسم القرآني، يعنى اليمين أو الحلف على شي ما.

اصطلاحًا: القسم القرآني: يعنى اليمين أو الحلف على أمر ما لكمال الحجة وتأكيدها، للفصل بين اثنين مختلفين، وقال ابن القيم «القسم القرآني يعنى يقسم سبحانه وتعالى بأمور على أمور، وإنما يقسم بنفسه الموصوفة بصفاته وآياته المستلزمه لذاته وصفاته»[٣].

أهميه القسم القرآني للإعجاز التأثيرى:

تتجلى أهميه القسم القرآني إذا ما علمنا أن الناس دائماً وأبداً طبعهم الشك فكان وجود القيم ضرورة حتمها طبيعة الناس حيث يختلف الاستعداد النفسي عند الفرد في تقبله للحق وانقياده لنوره،فالنفس الصافية التي لم تتدنس فطرتها بالرجس تستجيب للهدى، وتفتح قلبها لإشعاعه، ويكفيها فى الانصياع إليه اللمحة والاشارة، أما النفس التي رانت عليها سحابة الجهل، وإتباع الهوى، وغشيتها ظلمه الباطل فلا يهتز قلبها إلا بمقاومه الزجر،وصيغ التأكيد،حتى يتزعزع نكيرها»[٤] وهنا تبدو أهميه القسم، ويظهر

---

(١) اخرجه ابن خزيمه فى صحيحه كتاب الحج باب استحباب النزول بالمحصب استنادنا بالنبيﷺ ح ٤/ ٣٢١ برقم ٢٩٨١ ،وباب ذكر الدليل على أن النبى قد كان أعلمهم وهو بمعنى أن ينزل بالاسطح وأن وقال هو سر روايه معمر وأحسب أنه واهم فى هذا الاسناد ح٤/ ٣٢٢ وأخرجه أبو نعيم الاصيهانى فى كتابه المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم كتاب الحج باب فى الحلف والتنفيذ ح ٣/ ٣٨٩ وقال رواه مسلم عن

(٢) لسان العرب ابن منظور ج ١٢/ ٤٨١:٤٧٨ مرجع سابق.

(٣) البيان فى اقسام القرآن الإمام ابن قيم الجوزيه ج ١/ ٣ وما بعدها دار الفكر العرب ببيروت.

(٤) مباحث علوم القران مناع القطان ص ٢٩٠ مرجع سابق.

دوره، حيث يصبح القسم القرآني بمثابة التأكيد الذي يتخلله البرهان المفحم، والاستدراج بالخصم الى أن يعترف بالحق ولا يقبل منه بعد ذلك شكاً أو ارتياباً، لا يقبل منه حينئذ إلا الانصياع للحق والتأثر بآيات القرآن الكريم، المواجهة إلى حاله بطريقه القسم.

وتبدو أهميه القسم فى النقاط التالية:

أولا: الإقناع والاقتناع والتأثر: من أهم المعانى التي يؤديها القسم للإعجاز التأثيرى، أنه يقع من قلوب الجاحدين والشاكين موقع الاقتناع، ويقع من عقولهم موقع الاقتناع، وإذا ما تحقق هذان الأمران فثمّ التأثير بآي القرآن الكريم، فإذا فرض مثلاً أن أحداً لا يقتنع بأن الأرزاق بيد الله -عز وجل- وأن ملاك الخلق بيده، يفعل ما يشاء يرزق ويمنع هذا حكمه وحقه، أما حينما يجحد الناس بهذا يأتي القسم ليقع من القلوب موقع الرضا بحكم الله للنفس المطمئنة، فيقول الله تعالى ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[1].

وهنا يؤكد بالقسم بذاته العليه على انه الرزاق، ولا رازق سواه ولذا حكى عن الأصمعى أنه يقرأ هذه الآيات، ولما وصل إلى هذه الآية «فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ» ظل ينادى بأعلى صوته قائلاً من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف؟!! من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف؟!!......

ثانيا: يريح الإنسان من القلق والحيرة والاضطراب..

وإنى أقول إذا كان بالقلب قلقٌ وارتيابٌ، فكيف يحصل له التأثير بآيات القران الكريم؟!! ولذا كانت أهمية القسم القرآني لإراحة الناس مما يعيشون فيه من قلقٍ وحيرةٍ واضطرابٍ، فمثلاً في قضية البعث، تجد أن الكفرة ينكرون البعث وهم فى قمة الحيرة والاضطراب من أمرهم، وهنا يستلزم وجود القسم، ومن ثم أقسم الله بذاته العليه، حتى يتحقق التأثير بالآية القرآنية، أو قل حتى يكون التأثير بالآية ومعناها قوياً وفعّالاً يُحدث

---

(١) سورة الذاريات الآية رقم (٢٢).

في القلوب خطفةً سريعةً إلي الاعتراف بها أقسم الله بذاته عليه وهذا يتمثل في ثلاثة مواقع من القرآن الكريم:

الأول: من قول الله ﷻ ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾(1) وهذا القسم القرآني يحدث في القلب زلزلةً، ويؤثر في الكيان الانسانى كله، حيث القسم برب العالمين على أن هذا البعث حق ولا ريب فيه وساعتئذ يُنبأ الإنسان بما عمل، إن خيراً فخير وإن شراً فشر. إنه قسمٌ أُكد به الجوابُ ثم لتنبؤن بما عملتم بالمحاسبة والمجازاة، وذلك على الله يسيرٌ لقبول الماده وحصول القدرة.

والثاني: من قول الله - ﷻ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(2) وفى هذه الآية يأمر الله رسوله- ﷺ- أن يقسم بذاته على أن البعث حق لا ريب فيه، وقال القرطبى «المراد أهل مكة، حينما قال أبو سفيان لكفار مكة: والات والعزى لا تأتينا الساعة أبداً ولا تبعث فقال الله قل لهم يا محمد لتأتينكم»(3).

والثالث: من قول الله - ﷻ - ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾(4) وفى هذه الآية يقسم الله تعالى علي أن المعاد حق والجزاء حق.

ثالثًا: تنبيه الغافل وإيقاظ التائه:

وهذا لعمري من أهمية القسم القرآني حيث إنه يوقظ النفوس من سباتها العميق، ويوقظ القلوب مما ران عليها من الكدر والصدأ، ولهذا كان لابد من القسم القرأنى لتأثر القلوب بالقرآن الكريم، وهذا التنبه والاستيقاظ لم يأت من فراغ وذلك ظاهرٌ وواضحٌ

---

(1) سورة التغابن الآية رقم (7).

(2) سورة سبأ الآية رقم (3).

(3) الجامع لأحكام القرآن القرطبى ج 14/ 260 مرجع سابق

(4) سورة يونس الآية رقم 53.

فى أقسام القرآن الكريم. فالله ﷻ يقسم على أصول الإيمان[1] التي يجب على الخلق معرفتها فتارةً يقسم على التوحيد فيقول الله - ﷻ ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفّاً * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً * إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ * إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾[2] وتارةً أخرى يقسم على أن القرآن حق وذلك كقوله - تبارك تعالى ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾[3] وتارة أخرى يقسم ربنا ﷻ على أن الرسول ﷺ حق وذلك قوله -سبحانه تعالى- ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾[4] وتارةً يقسم ربنا ﷻ على الجزاء والوعد والوعيد حقٌ لا مرية فيه، وذلك مثل قوله تعالى ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً * فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً * فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ * وَالسَّمَاء ذَاتِ الْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ * قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾[5]. وتارة يقسم ربنا ﷻ على حال الإنسان كله من ليلٍ أو نهارٍ، أو خلق أو سعي في كل الأحوال والتغيرات فيقول -تقدست أسماؤه- ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾[6].

وعلى هذا يكون الغرض إذاً من هذا القسم المتعدد وبهذه الألفاظ المتباينه حتى يتأثر بالقرآن، ويفيق مما هو فيه من غفلةٍ طالت أمداً بعيداً حتى اقترب الحساب وصدق الله حين يقول ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرِضُونَ﴾[7].

---

(١) انظر مباحث فى علوم القرآن مناع القطان ٢٩٥ بتصرف و التبيان في أقسام القرآن أبن القيم ص ٩٧.
(٢) سورة الصافات الآيات من ١ : ٦.
(٣) سورة الواقعة الآيات من ٧٥:٧٧.
(٤) سورة يس الآيات من ١ : ٣.
(٥) سورة الذاريات الآيات من ١ : ١٠.
(٦) سورة الليل الآيات من ١ : ٦.
(٧) سورة الأنبياء الآية رقم ١.

رابعا: ازالة الشكوك وإحباط الشبهات:

المعروف أنه القرآن الكريم نزل للناس كافه، الأبيض منهم والأعجم حيث قال الله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] والناس في تقبلهم لهدى الله، وسنة رسوله صنوف مختلفة، وألوانهم في ذلك متباينة، فتارةً تجد منهم السهل المتأثر بمجرد مرور الكلام عليه يشرح الله صدره للإسلام، ومن ثم فلا يجادل أو يناقش في ذلك وهذا ما يسمى عند علماء البلاغة بالخبر الابتدائي «وهو أن يكون المخاطب خالي الذهن من الحكم فيلقى إليه الكلام غفلا عن التأكيد»[2] لا بالقسم ولا بغيره لأنه متأثر من أول وهله وهذا الصنف من الناس يؤثر منهم الكلم البليغ، والوعظ الرشيد، لكن ما بالك بكلام الله تعالى إذا وقع فى قلوبهم؟!! ولذا فهذا الصنف من لا يستخدم معه تأكيد، أما الصنف الأخر وهو الذي يتردد في صحة الكلام؟ أهو من عند الله أم لا؟ لابد له إذا من مؤكد؟ والمؤكد الذي أنا بصدد الحديث عنه هو القسم، فيساق له قسم ليتأكد الكلام لديه، ويقع القسم من قلبه موقع التأثر والتأثير هذا عند علماء البلاغة يسمى خبراً طلبياً «وهو التردد في ثبوت الحكم من عدمه فيحسن تقويه الحكم له ليؤكد تنزيل تردده»[3] وهذا الصنف من الناس هو محط الحديث، فهو شاك ولابد من طرد هذه الشكوك كلها حتى يتأكد الكلام لديه ويؤثر فيه وهذا لقوله تعالى ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ﴾[4] ولعل هذا القسم يؤثر في القلوب أبلغ الأثر، ويقيم على عقولهم بالغ الحجة بل هي الحجة الدامغة، وليس بعدها من حجة لأن القاسم هو الله تعالى!! لمثل هذا يذوب القلب من كمد... إن كان في القلب إسلام وإيمان[5] وهناك صنف مفكر شديد الأفكار وهذا لابد له من مؤكدات كثيرة حتى يقع الكلام من قلبه موقع التأثير المطلوب وذلك

---

(١) سورة سبأ الآية رقم ٢٨.

(٢) التباين فى أقسام القرآن ابن القيم ص٧٥.

(٣) انظر إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ص ١٣٥ . مرجع سابق .

(٤) سورة الحجر الآية رقم ٩٢.

(٥) هذا البيت للرندي من قصيدته الرائعة في رثاء الممالك الأندلسية والتي مطلعها
هي الأمور كما شاهدتها دولٌ .... من سره زمن ساءته أزمان .

مثل قوله تعالى ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ * أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾[1] وهكذا يكون للقسم القرآني دورٌ بارزٌ هامٌ في وقوع التأثير في القلوب.

خامسا: تقرير الحكم فى اكمل صوره وأتم مظهر:

من أهميه القسم القرآني للإعجاز التأثيرى أنه يقرر الحكم للموضوع الذي يتحدث عنه تقريراً لا يدع بعده قولاً لقائل، فهو يظهره في صورةٍ تامةٍ، وشكلٍ متميزٍ، ومن ثم يقع التأثير في القلوب أيما موقع تأمل مثلا قول الله ﷻ ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾[2].

فتأمل القسم في هذه الصورة المتكاملة، التي إذا ما تلاها أحدٌ أو سمعها أحدٌ لا يجد مناصاً من التأثير القلبي والعقلي معاً، وذلك حيث أقسم الله بالمشارق والمغارب وهى من خلقه، بل هو الخالق الموجد لها وعلى ماذا يقسم؟ إنا لقادرون. ألست معى أن الذي خلق المشارق والمغارب قادرٌ؟ بلى!! انه كذلك ولكن القسم خرج في صورةٍ مؤثرةٍ وهذه من علامات التأثير في القسم القرآني والقسم يختص بالترتيب العجيب، والإيضاح والتقريب والتسهيل والتيسير الانيقه الذي يطلع الناظر عليه من أول وهله على الإعجاز التأثيرى للقرآن الكريم، فلا عجب إذن أن يتبوأ القسم القرآن منزلةً ساميةً فى القرآن، وذلك لما له من أهميه كبرى فى مجال التأثير القرآني على كافه المستويات، فدراسة هذه الوسائل التأثيرية من القسم وغيره أمرٌ ضروريٌ، لمعرفة مقياس التأثير لدى البشر، من يتأثر ومن يفقد هذا المعنى؟!! وعندي أن الحديث عن القسم القرآني حديث ذو شجون، يملأ النفس بهجةً ويعززها قدراً ورفعةً، أهناك أفضل من قسم الله هذا.؟!! بالطبع لا ولذلك يبرز هذا القسم في مواقف تتجلى روعةً وجمالاً وجلالاً لتؤثر في النفس تأثيراً خالداً. وتأمل هذا القسم من قرآن الله تعالى إذ يقول ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾[3]ولن أتناول الآية بشئ من

---

(١) سورة القيامة الآيتان رقمي ٢،١.

(٢) سورة المعا رج الآيتان رقمي ٤١،٤٠.

(٣) سورة النساء الآية رقم (٦٥).

الإيضاح أخشى على إشراقها أن يمس أو على بلاغتها أن يذيبها حديثي، ولكن أدع الآية تتألق روعةً وجلالاً من كتاب الله، تتأثر بها القلوب والعقول أيما تأثر في صورةٍ متكاملةٍ، وتقرر الحكم الالهى بعدم مخالفة أمر الحبيب والرضا بحكمه والنزول عن رأيه يالروعة القرآن!!!

سادساً: إشباع العواطف والعقول لنيل أنبل الأهداف:

للقرآن الكريم منهج فريد في التأثير حيث يتجه إلى إثارة وجدان القارئ إثارة روحيةً رفيعةً تحدث السرور في النفس فتقبل، أو تحدث فيها الألم فتأبى وترفض، وذلك لأن القرآن الكريم لا يعتمد في الإقناع على العقل وحده بل انه فى الوقت نفسه يثير غرائز النفس الانسانيه في وعده ووعيده فى قسمه وأمثاله[1] وبتلك الطريقة التي يهتم بها القرآن من خلال وسيله القسم -يتم إشباع العواطف والعقول وبتلك الطريقة التي يهتم بها القرآن من خلال وسيله القسم -يتم إشباع العواطف والعقول لتصل إلى أنبل الأهداف وأكرم الغايات التي نزل القرآن لأجلها وهى بالطبع التأثيرى التى قال الله - ﷻ - عنها ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[2] وبالمثال يتضح المقال تأمل هذه الآيات من كتاب الله تعالى، والتي يصدرها الله - ﷻ - بالقسم حيث يقول ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾ ومما لا شك فيه أن الآيات بها من الروعة والجلال ما يقنع، ويتسرب إلى الجوانح رويداً رويداً في رشاقةٍ ولطفٍ لا مثيل له، فتجد الآيات تملك عليك جوانحك، وتجد الانفعال العميق يشتعل بين جبينك، وهذه الأحاسيس التي تنتقل إليك بالتدرج وأنت تقرأ هذه الآيات بدأ من القسم يعزه الله، فتشعر معها بالامتزاج التام بين قلبك وعقلك وبين كتاب الله تعالى وهذا قمه التأثير والتأثر ألا تراه قد أثار فينا شعور الغبطة والابتهاج،عندما نخيل لأنفسنا أننا أطعنا الله ﷻ والرسول ﷺ فنكون رفقاء للنبيين- عليهم السلام والصدقين والشهداء والصالحين، ألا ترى أن هذا الشعور بالفرح يدفع المرء إلى الانقياد والطاعة والتأثر بآي القرآن الكريم؟ بلى.انه زيادة على ذلك سوف

---

(١) من بلاغة القرآن ، د/ أحمد بدوى ص ٣٧ ، وما بعدها يتعرف . مرجع سابق.

(٢) سورة ص الآية رقم(٢٩) .

يدفع الإنسان ليعيد النظر في أمر حياته كلها وما قطر عليه من عادات وتقاليد، سوف يغيره تغيراً جذرياً، ليصل إلى مرتبة الإنسان، وحضارة الإنسان»[1].

تعقيب علي القسم وصلته بالإعجاز التاثيري:

بهذا نفهم أن القسم يشبع العواطف والأحاسيس، ويحدث في النفوس وقعاً شديداً، ويقنع العقول إقناعاً تاماً، كما أن القسم القرآني يؤدي دوراً هاماً في عملية التأثير القرآني، فالقسم القرآني يناسب طبيعة البشر؛ تفكيراً ووجداناً حيث ينطلق القسم القرآني من بين تفكيرهم، ومن واقع حياتهم، إذ يتعلق المقسم عليه - في الغالب - بأشياء يعايشها البشر في دنياهم، ومن ثمّ يمكن لي أن أقول إن القسم القرآني مفيدٌ للإعجاز التأثيري علي الأقل فهو يثير الانتباه من بين هذه الأشياء التي يعايشها الإنسان، وعلي ذلك أقول: القسم القرآني يصنع التأثير الكامل في النفوس «وأعني به التأثير الوجداني» وفي العقول أعني به «التأثير العقلي» وهذا من خلال المقسم به والمقسم عليه، ومن أبلغ الأدلة الواضحة التأثير علي ذلك هو مسمي في القرآن بسورة العاديات، وتوضيح ذلك أن الإنسان بطبيعته يعشق المادة ويقيم لها حساباً، ومن ثمّ قال الله - سبحانه تعالى - ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[2] ومن المعلوم بداهةً أن الإنسان ماديٌّ، فهو يحب المال حباً جماً وهذه حقيقة لا يمكن لأحدٍ إغفالها أو التغاضي عنها حتي أنها كانت ديدن أهل الجاهلية في رفضهم الإيمان بالله والقرآن والرسول حيث قال الله تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾[3] هذا هو المنطق الذي كانوا يتعاملون به مع الرسول ﷺ، ومن ثمّ فقد أقسم الله تعالى علي هذه الحقيقة ليؤكدها بهذا القسم ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً * إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ * أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ

---

(١) من بلاغه القرآن د/ أحمد بدوى ٦٨ وما بعدها يتعرف.

(٢) سورة آل عمران الآية رقم ١٤.

(٣) سورة الزخرف الآية رقم (٣١).

لَّخَبِيرٌ﴾[1] والمتأمل في هذه الآيات يلحظ أن الله تعالى قد أقسم بالخيل التي لها صوتٌ مسموعٌ ولعدوها شررٌ يتطاير من حوافرها إذا ما عدت وجرت، وهذا القسم ليؤكد الحقيقة السابقة ألا وهي ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ ويقول الإمام الرازي في ذلك «إنهم يحبون المال وسبب ذلك أنه ثمنٌ لجميع الأشياء، ومالكه كالمالك لجميع الأشياء، وصفة الملكية هي القدرة، والقدرة صفة كمال، والكمال محبوب، فلا جرم أن كان المال محبوباً كذلك»[2] وقوله تعالى: ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ هذا هو المقسم عليه بمعنى إنه بنعم ربه لكفور جحود الكنود هو الذي يعد المصائب وينسى نعم الله تعالى عليه.

وقوله تعالى: ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾ أي وإنه لحب الخير وهو المال لشديد وفيه مذهبان (أحدهما) أن المعنى وإنه لشديد المحبة للمال (والثاني) وإنه لحريص بخيل من محبة المال وكلاهما صحيح ثم قال تبارك وتعالى مزهداً في الدنيا ومرغبا في الآخرة ومنبهاً على ما هو كائن بعد هذه الحال وما يستقبله الإنسان من الأهوال: ﴿أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور﴾ أي أخرج ما فيها من الأموات ﴿وحصل ما في الصدور﴾ قال ابن عباس وغيره: يعني أبرز وأظهر ما كانوا يسرون في نفوسهم ﴿إن ربهم بهم يومئذ لخبير﴾ أي لعالم بجميع ما كانوا يصنعون ويعملون ومجازيهم عليه أوفر الجزاء ولا يظلم مثقال ذرة»[3] ثم إن الآيات تنبئ عن ملحظٍ آخر وهو لون من ألوان التأثر من خلال القسم القرآني ألا وهو الإحساس بنعم الله تعالى، وهذه النعم يراها الإنسان ويشعر بها ليلاً ونهاراً، وصدق الله ﷻ إذ يقول ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[4] وعليه كان القسم ضرورةً لا محيص عنها للوصول إلي التأثر بآي القرآن الكريم، وحول آيات سورة العاديات يقول الإمام محمد عبده «المراد من هذا القسم ذكر حالة من حالات الإنسان التي يكون عليها والتي تلازمه في أغلب أفراده إلا الذين يروضون أنفسهم علي الفضائل، وهي حقيقة لا ريب فيها؛ لأن طبع الإنسان أن يستغرق

---

(١) سورة العاديات كاملة .

(٢) مفاتيح الغيب الإمام الرازي ج ٢ / ص ٦١٩ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٤ / ص ٧٠٠ . بتصرف مرجع سابق .

(٤) سورة إبراهيم الآية رقم ٣٤ .

فيما حضره، وينسي ماضيه ولا يذكر مستقبله، ونتيجة النعم لدي هذا الإنسان ضرب آخر من القسوة والجفوة، والإنسان شهيدٌ علي جحوده هذا، لأنه يفخر علي من دونه بقوة حيلته، وكثرة ماله، وقلما يفتخر بالمرحمة والبذل وفي ذلك كله شهادة علي نفسه بالكنود لأن ما يفتخر به ليس من حق شكر نعمة بل من آيات كفرها»[1] وثمت أمرٌ آخر يقوم به القسم ألا وهو الإعداد النفسي لإدراك أهمية المقسم عليه، وذلك مثل ما سبق في سورة الذاريات في قوله تعالى ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[2] ورد الأصمعي لما سمعها كما سبق بيانه في بداية الحديث عن القسم.

ومن المعروف أن القسم في القرآن الكريم كثيرٌ، وكثرته هذه لم تأت عبثاً - حاشا لله - بل إنها أتت رداً على الطبيعة البشرية التي هي طبعها الإنكار والتكذيب والشك وتزييف الحقائق، ومن ثم كان وجود القسم في القرآن ضرورةً أملتها الطبيعة الناس وترضيها أحوالهم فأقسم الله ﷻ بذاته المقدسه،وصفاته العلى، وأقسم كذلك بآياته المستلزمه لصفاته ولذاته، وكذلك أقسم ببعض مخلوقاته، وأقسامه ببعض مخلوقاته هذه دليل قوى على أنها من عظيم آياته لأن هذا مع البشر المكلفين أما مع الخالق - وهو الله سبحانه وتعالى - فالله أن يحلف بما يشاء، على ما يشاء، وبأي طريقة يشاء في أي وقت يشاء، أما حلف العباد بغير الله تعالى ضرب من الشرك والعياذ بالله تعالى والله يقسم بمخلوقاته أو ببعضها على سبيل الدقة، وذلك لأنها تدل على بارئها وخالقها، وهو الله سبحانه وتعالى، ولأنها من منافع البشر، وللإشارة إلى أهميتها وفضيلتها ليغير الناس بها وعن الحسن قال «إن الله يقسم بما يشاء من خلقه، وليس لأحدٍ أن يقسم إلا بالله»[3] قال ﷺ: «من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت»[4] وحديث آخر قال فيه رسول الله ﷺ «من حلف بغير الله فقد أشرك»[5].

---

(١) تفسير جزء عم للإمام محمد عبده ص١٠٩ ، مطبعة الشعب القاهرة ، سلسلة دار الشعب .

(٢) سورة الذاريات الآية رقم (٢٢).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ج ٣/ ٧٩ برقم ١٢٢٨٨ .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان ، باب كيف يستحلف بالله تعالى ج ٢/ ٩٥١ . وكذا مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب الحلف بغير الله تعالى برقم ١٦٤٧ . واللفظ المسلم.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك كتاب الإيمان ج ١/ ١١٧ وقال هذا حديث صحيح على شرط التشيخين ولم يخرجان بهذا اللفظ .

المبحث الخامس: التأمل والتفكر ودلالاتهما التاثيرية:

من أهم وسائل الإعجاز التأثيرى للقرآن الكريم،ما به من الآيات التي تحث على التدبر والتأمل والنظر والتفكر في بديع صنع الله ﷻ، وجمال الكون المشاهد، فان العلماء قالوا إن القرآن الكريم كلام الله المسطور، والكون كلام الله المنظور، فكلا الأمرين يحتاج إلى تدبرٍ وتفهمٍ وتأثرٍ ، ولذا كان هذا الكون الهائل بنجومه وكواكبه وأرضه وسمائه وخلقه، ليعلم المسلم -دوماً- أن هذا من صنع الله -جل جلاله- ومن ثم يكون لهذا كله صدىً خفيفاً وواقعياً في القلوب، ووقعاً تأثيرياً - لا نظير له ولا شبيه- على النفوس، عندئذ يشعر المسلم بقشعريرة قلبه ووجدانه وكأنه لم يشعر بها قبل ذلك قط، كما أنه يحس بحلاوةٍ -لها مذاقٌ خاصٌ - تغمر كيانه، ولعمري هذا هو الإعجاز التأثيرى للقرآن الكريم، من خلال آيات القرآن التي تدعو إلي النظر والفكر في كون الله – المشاهد.

مفهوم التأمل: يعني التثبت والانتظار وهو تدقيق النظر في الكائنات بغرض التذكر والاعتبار واستعمال العقل ليجول ويفكر، وتأمل القرآن: هكذا أطلق عليه ابن القيم فقال «أما التأمل فهو تحديق ناظر القلب إلي معانيه، وجمع الفكر علي تدبره وتعقله، وهو المقصود بإنزاله لا مجرد تلاوته بلا فهمٍ ولا تدبر، فليس هناك من شئ أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلي نجاته من تدبر القرآن، وإن إطالة التأمل فيه وجمع الفكر علي فهم آياته؛ فإنه تطلع العبد علي معالم الخير والشر وسببه ومآله»[1].

اصطلاحاً إطلالةٌ متأنيةٌ، وبصيرةٌ نافذةٌ على كون الله تعالى بتأملٍ هادٍ وتفكرٍ واعٍ مستنيرٍ، وفهمٍ للأشياءَ المشاهدةِ، حيث تقود صاحبها إلى التدبر والتأثر. فهو إدراكٌ شاملٌ للتأمل الذهني والبصري. .

الفكر: إعمال العقل في شيء ما للتوصل إلى نتيجة حتمية لا مجال للبحث فيها ألا وهى سرور العقل والقلب ببديع صنع الله، ومن ثم يحدث التأثر المرجو من القلب فالنظر والفكر على هذا الحال وسيلةٌ للتأثر العقلي أولاً، ثم القلبي ثانياً حيث إن المجال مجال

---

(١) مدارج السالكين ابن القيم ج ١ / ٤٨٥ بتصرف مرجع سابق

إعمال عقلي فالفكر إذن يعنى التأمل والتدبر الناتج عن نظرةٍ فاحصةٍ يتم ترديدها في العقل والقلب مره تلو الأخرى حتى تصل إلى القلب فيعيها ويتأثر.

أهميه التامل والتفكر للتاثير القرآني:

من خلال التعريف السابق للنظر والفكر، يتبين لدى النظر الفاحص، والعقل الواعي، أنهما من الوسائل التي لا غناء عنها لحدوث التأثر القرآني قلباً وقالباً،وكيف لا؟ وربنا هو القائل ﴿اللهُ الَّذِي سخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1] إن التفكر من واقع هذه الآيات يشبع كل صاحب رغبة، كل من يلتمس أمراً يجد القرآن قد أتي عليه وذكره، حتى من لا يفهم بمجرد السماع فإنه يستخدم هذا التفكير، ولذا فإني أحصر بعض الأهمية فى النقاط التالية ...

اولا: إظهار عظمةِ القرآن وقوةِ تأثيره:

إنه من البداهة العقلية، أن يعلم أن النظر والتفكير عبارة عن دلالةٍ صادقه لحصول التأثير القرآني، ولذا نرى أن للنظر والتفكير أمران لابد منهما لحصول التدبر والتأثر بالقرآن، أليس الله هو القائل ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[2] وفى هذا ما يؤكد مصداقية حدوث التأثير من خلال النظر والتأمل والتدبر في كون الله -تعالى- من خلال آي القرآن الكريم، فالقرآن يظهر عظمته من خلال وصوله عن طريق هذه الوسيلة، ومن ثم كان النظر أولاً أعنى عمل العقل والفكر ثانياً وهو تردد القلب في الشيء يتدبره ويتأمله فليس من وظيفة القلب التفكير، فهو موضوع جمع بين التأثير العقلي متجلياً ذلك في النظر والتأمل والبحث وبين التأثير الوجداني بها ويتأثر القلب بالشيء وهو الاستجابة ولذا جمعت بينهما فمرحلة التفكير تبدأ من حيث انتهى النظر، وذلك لأن الإنسان في هذه الحالة لا يكتفى فيها بمجرد النظر والتأمل البصري

---

(١) سوره الجاثية الآية رقم ١٢ ، ١٣ .

(٢) سوره الأنعام الآية رقم ١١.

وفقط، بل لابد أن يعود للشيء يسر الخاطر، ويروى الوجدان ويداوى جراح القلوب بالأثر الإيماني الذي يحدثه فيها، لتهتدي إلى ربها ولتتعرف على بعض أسراره في كونه، وأن تطلق للعقل والقلب العناية ليتجولا في هذا الرياض المليء بالتدبر والتفقه -إذا أحسن استخدامه - ليصل في النهاية إلى أعلى قمم التأثير القرآني.

ويتحصل من وراء هذا أن النظر يقوم بجمع المشاهد وحصرها وتكوينها في العقل، ثم تأتى عمليه التفكر والتأمل التي هي وظيفة القلب، ويتحول الأمر في النهاية إلى عمليه إعجاز تأثيري للقرآن الكريم، ولا ريب فى ذلك -أبداً- إذ أن القرآن كتاب حوى كل شيء، ولم يترك صغيرةٍ ولا كبيرةٍ إلا أحصاها وذكره، ونبه على أعمال العقول فيها ولذا ترى كثره هذه المادة فى القرآن «أفلا يتفكرون» «أفلا تعتقلون» «أفلا تنظرون» وصدق الله﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1] وعلى ذلك كان النظر والتفكر إظهاراً لعظمة القرآن فى وصوله إلى القلوب، وقوة تأثيره على النفوس، وذلك بالآيات الباهرة، والبراهين الساطعات، والحجج الواضحات وذلك كله حتى يتحقق في القلب الغرض والغاية من إنزال القرآن الكريم وهى مذكورة فى قول الله تعالى«ليدبروا آياته» وإذا ما أردت أن أؤكد هذا الكلام بمثال من القران فإني أذكر فى ذالك قول الله تعالى ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾[2] وإذا ما نظرنا إلى هذه الآيات كما أمرنا الله بقوله انظر، تأمل وتفكر وانظر ببصرك وبصيرتك إلى الإبل هذه على ضخامتها وهندسة تركيبها، من خلقها؟ إنه الله تعالى ثم إنك ترى الطفل الصغير يقود هذا الجمل الضخم، من هداه وجعله يسير وراء هذا الطفل؟! إنه الله، إنه ليتملكك العجب وتسيطر عليك الدهشة عندما ترى موقفاً كهذا ولا تجد مناصاً من أن تحرك شفتيك يتعجب منه تعظيم لمنزل القرآن سبحان الله!! إنه قمة التأثير فالنظر والفكر إظهارٌ لعظمة القرآن وقوة تأثيره في القلوب ولذا كانت أهميته كوسيلةٍ من وسائل التأثير القرآني.

---

١) سورة النحل الآية رقم ٤٤ .

(٢) سورة الغاشية الآيات من رقم ١٧ إلي ٢١ .

ثانيا: التأمل والفكر تدبر تام للقرآن الكريم:

وهذه الأهمية تضع علامة استفهامٍ لتدبر القرآن بشمول النظر؟ نعم إن الله لما أنزل القرآن الكريم ذكر أنه مبارك فيه،ثم نبه على التدبر لآياته «كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[1] فالقرآن الكريم لاشك مبارك فيه إذا أنزله الله، وأبلغه أمين الوحي جبريل عليه السلام لخير خلق الله محمد خاتم الأنبياء والمرسلين،مبارك بما جاء فيه، وما يحتويه، مبارك بما قصد إليه وما هدف إليه، وأنه قد أنزله جل شأنه لتدبر آياته. والتدبر هو أعمق صور التأمل والفكر والنظر والبحث، بل هو أعلى مراحل البحث والفحص والدرس،يستعمل الإنسان علمه ليعلم به ما يجهله، ويستعمل عقله ليفكر ويتذكر ويتدبر ويتأمل، وما يتذكر إلا أصحاب العقول السليمة، والفطر المستقيمة.

«فالتدبر هو أول القصد من وراء الفكر والنظر والتأمل،بل هو الهدف من عمليه الفكر والنظر، إذ بالتدبر يتم القصد كل القصد، وتتحقق الأهداف كل الأهداف، ولما كانت آفاق العلم في تباعد واتساع، وقدرات العقل في طاقاته أبداً في نمو وتزايد... فإن الإنسان دوماً ما يضيف إلى علم الجديد والمتجدد، والمستحدث المتعدد، وعقله لذلك يتسع، ووعيه على الدوام يتحسن ويرتفع،إن لم يكن من يوم إلى يوم، فسيكون بعد ذلك من جيل إلى جيل، ولعل هذا هو ما تتدعونا إليه الآية الكريمة من تدبر القرآن والتفكر في آياته [2] إنه ينمي المدارك لتتأثر بكلام الله، فالله ﷻ خلق كل شيء وقدره تقديراً، وأعطاه خلقه وهداه ليسير على وفق ما سن وشرع، وأقام الكون كله بسمائه وأرضه على نظام محكم وبديع،فتبارك الله أحسن الخالقين ثم ترك للعقل أن يفكر وللقلب أن يتدبر في هذا الكون،فقال تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾[3].

---

(١) سورة الأنعام الآية رقم ٢٩ .

(٢) علم وبيان آيات القرآن عبد الرازق نوفل ص ٦ ، ٧ بتصرف أخبار اليوم العدد ٢٦٥ لسنة ١٩٨٧ م .

(٣) سورة فصلت الآيات من رقم ٥٢ إلى رقم ٥٤ .

فهذه الآية الكريمة تؤكد أن الآفاق مجال أرحب وأوسع، ليتبين للإنسان المسلم الحق الذي لا شك معه ، فيقع عقله بين تأمل وتفكر، وقلبه بين تدبر وتأثر ، هذا النوع من النظر والتفكر يؤدى حتما في النهاية إلي حدوث زلزلة في الكيان البشري، إنها صحوة عالية الصدى، وذبذبات انتباه سريع، ومن ثم فأفق فهذا هو كتاب الله، ولعل النظر والفكر هذا الذي هو وسيلة من وسائل التأثر القرآني، ومن ثم لا يجد الإلحاد يون والمشككون طريقاً ولا موضعاً للطعن فيه إلا أن يُلغوا عقولهم أولاً وهذا بالطبع لن يكون، ومن هنا كان النظر والتأمل والتفكر عجيبة من عجائب القرآن التي تعين علي التأثر بالقرآن الكريم.

ثالثاً:هداية العقل، وتوجيه وإرشاد للضال:

لقد أعطى القرآن الكريم للعقل قيمته وحقه ما لم تجده في كتاب غيره، أعطاه من الاحترام والاهتمام، وأشاد بالعقل البشرى ولذا كثيراً ما تجد نهاية الآيات **«أفلا تعقلون»** ولقد نبه الله تعالى الإنسان إلى هذه القوة الفعلية، التي هي مناط التكليف، والبحث والفكر والنظر، وذلك باعتبارها نعمه كبرى من نعم الله على البشرية جميعا -وهى في نظري - نعمه تستوجب الشكر والعرفان بالجميل وأقل آيات الشكر فى هذا أن يتأثر العقل بهذا القرآن الكريم، وصدق الله إذ يقول ﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾[1].

وهذا لا يتوافر إلا في القرآن الكريم، فلو أننا جمعنا الآيات القرآنية التى تتحدث عن الكون والمتعلقة بالفكر والتأمل، لكان من ذلك مجموعه كبيرة جداً، فى حين أن مثل هذه الآيات قليلة في الكتب الدينية الأخرى، كما أن هذه الصورة الكاملة والجامعة والشاملة والهادية للعقل البشرى، والموجهة التوجيه السليم للسادر في الضلال، لا تجدها إلا في القرآن وإذا أردت مثالاً على هذا فتأمل صدر سوره النحل، وفيها يتحدث الله - جل جلاله- في آيات متتالية عن هذه الصورة الشاملة يقول تعالى﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ

---

١) سورة الإسراء الآية رقم ٩.

بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾إلى قوله تعالى ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

هذه الآيات التى تقارب خمس عشرة آية،تضم في محتواها هدايةً كاملةً للعقل البشرى، إن كان لديه الاستعداد في ذلك، ولذا بدأها الله بالخلق ونعمته في عليهم في ذلك، وأنهاها بالاهتداء للحيارى فهذه الآيات الكريمة تضمنت عالم النبات، والحيوان والإنسان، وعالم الأفلاك، فهذا هو الكون، ومن لطيف ما يذكر هنا أن هذه الآيات وأمثالها في القرآن، قد جاءت لتؤدى دور الهداية للعقل البشرى، ولترشد الضال عن الطريق السليم.

«إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم» هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم، وفيما يهديهم ويشمل ما يهديهم اليه كل منهج وكل طريقه هداية في عالم الشعور والضمير، بالعقيدة الصحيحة، التى تطلق الروح من أوهام الخرافة والجهل، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والنماء، وتربط بين قواميس الكون والفطرة في تناسق واتساق، إنها هداية في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه، وبين مشاعره وسلوكه، وبين عقيدته وعمله ولو كان هذا العمل متاعاً واستمتاعاً بالحياة في عالم العبادة المتوازنة بيت التكاليف والطاقة بحيث لا يتجاوز القصد والاعتدال فى علاقات الناس بعضهم ببعض، بهذا تتحقق الهداية القرآنية للعقل البشرى كي يتأثر ويقنع ويرضي، أما الذين لا يهتدون بهدى القرآن فهم متروكون لهوى الإنسان العجول، الجاهل بما ينفعه وما يضره ،المتدفع الذي لا يضبط انفعالاته، ولو كان من ورائها الشر له[2].

---

(١) سورة النحل الآيات من رقم ٣ إلي رقم ١٧.
(٢) في ظلال القرآن سيد قطب ج ٤ / ٢٤١٠ مرجع سابق.

إنها الهداية الموحية بالتدبر والتأثر عند سماع آيات القرآن تتلى، أو عند التنعم بقراءتها فالهداية للعقل، والإقناع المؤثر فيه بآيات الفكر والنظر فى القرآن تحدث سمة بارزه عليه، لا تنفصل عنه، حتى كان هو ذاته هدى اقرأ قوله تعالى فى أول سورة من القرآن ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

هدى لكل من نظر اليه، هدى لكل من تدبر معانيه، هدى لكل من استمع أو دعي اليه أو عمل به إنه الهدايه المؤثرة. إنها هداية عامة وشاملة، توحي عبارتها بشمول جميع مناحي الحياة، وجوانب الوجود بل إنها لتشمل الجنس الانسانى كله بالهداية ومزيد الرعاية والاهتمام قال تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾[1] تأمل قوله تعالى القرآن هدى للناس عم خير الله إلى الناس جميعا، فهذه صورة حصر للهداية القرآنية في شخصيه الكيان الإنساني الفاهم. كأن القرآن ما أنزل إلا له، وما جاء إلا للهداية، وأن القرآن قد جاء ليأخذ بيده من متاهة الحياة إلى الطريق الأقوام الذي لا خلل فيه ولا انحراف. أليس بعد كل هذا من المقبول عقلا؟!! أن يقنع العقل ويقرأ اللسان مترجما آيات الله تعالى إلى واقع تأثيري، له أعظم الأثر فى العقول والقلوب والهداية القرآنية للعقل ترشده إلى استعمال الحواس للتعرف على آفاق هذا الكون، والاهتداء يهديه والوقوف عند غاياته، وهذا هو الأهم المقصود. «ولما كان القرآن الكريم إنما أنزل لهداية الناس إلى من أنزله - سبحانه وتعالى -فقد اقتضت الحكمة الإلهية في آياته الكونية، أن ينزل بأسلوب لا بصادم العقل الإنساني عند الناس فيكذبوه، ولا ينافى الحقيقة الكونية فيكون ذلك داعيا إلى تكذيبه، إذ يسر الله سبيل الكشف لأولى العلم في المستقبل، وهذا من أعجب عجائب القرآن التي لا تنقضي، فهو لا بصادم الناس فيما يعتقدون»[2] والقرآن الكريم ليس فيه ما يناقض العقل مطلقاً، ومن ظن هذا فهو واهم وسرعان ما يزول هذا الظن إذا ما تعمق في فهم الآيات وجال بعقله عندئذ يدرك تأثير القرآن عليه، ومن ثم يوقن بأن القرآن ليس فيه مفهوماً ولا فكرةً ولا حرفاً يتناقض مع العقل، ولكن فيه ما

---

(٣) البقرة من الآية ١٨٥.

(٢) الإسلام في عصر العلم د/ الغمراوى ص ٢٢٨ دار الإنسان القاهرة الطبعة الرابعة ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

يعلو على الفهم، وهذا موطن التأثير إذ القرآن صالح للبقاء إلي أن تقوم الساعة، ولكن بعض العقول قد لا تدرك ذلك والسبب في عدم الفهم.

رابعاً: تحرير للعقل البشرى من الجمود ونبذ التقليد.

إن التدبر في الآيات الكونية في القرآن الكريم سبيل مهم من سبل التأثر بالقرآن الكريم، كما أنها تحرر العقل البشرى عن طريق الإقناع والاقتناع، فإذا ما رأى الإنسان مثلاً هذه السماء على ارتفاعها دون أعمدةٍ مرفوعةٍ وبحكمة بالغةٍ، حينئذ يترك لعقله الحرية من أن يعتقد ما يشاء عن طريق هذا التفكير والتأمل في هذا الكون، ويزداد الأمر حريةً وتحريراً عندما يقرأ قوله تعالى ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[1].

إن القرآن الكريم ليس كتاباً على الطراز الكتابي مرتباً على أبوابٍ وفصولٍ، ومحشواً بتفصيلاتٍ شديدةٍ، بل هو كتابٌ سماويٌ منظمٌ على الدقائق النفسيةِ، والحقائق الفعلية ومرتبطٌ بالرابطةِ الروحيةِ والفعليةِ في الإنسان، فهو حين يخاطبه عن طريق النفس، يمس قلبه مساً رقيقاً رفيقاً عذباً سهلاً، وحين يخاطب عقله يترك له الحرية في الاختيار دون إكراهٍ أو إجبارٍ قال تعالى ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[2] وقوله تعالى ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقاً﴾[3].

إن هذا الطراز القرآني المخصوص أعطى للعقل تصوراً خاصاً وجديداً، ووجهه وجهةً عقليةً سليمةً «فموضوع الآيات الكونية أن تحرر العقل البشرى من جموده، والتبرأ من الإنسان الصناعي الذي اخترعته دقه العقل وصناعة الهوى، وأسسته على المادة، بل

---

(١) سورة الصافات الآيات من ٢٧ إلي ٣٣.

(٢) سورة البقرة الآية رقم ٢٥٦.

(٣) سورة الكهف الآية رقم ٢٩.

موضوعه الإنسان الطبيعي الذي خلقه الله تعالى وفطره على الروحانية، ورفعه على جميع الأنواع بالعقل والفكر»[1] ولقد عاب الله على أقوامٍ تعللوا بتقليد آبائهم والجمود التام على ذلك وأغلقوا عقولهم عن تقبل هدى الله تعالى، وفى ذلك يقول الله تعالى ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[2] وهذا لأنهم تعللوا بتقليد الآباء، وإلغاء العقول من السياحة الحرة في ملكوت السماوات والأرض ولذا أمر الله تعالى بالنظر في ملكوت السماوات والأرض فقال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾[3] فلقد صاغ الله العقل الإنساني لسعادة الإنسان، وحل مشكلاته، وذلك مشروط بأن يعطيه الوظيفة المنوطة به، وهى التفكر والتأمل والتدبر في بديع صنع الله تعالى ليتحرر من التقليد والجمود ، والأمثلة على ذلك من القرآن كثيرةٌ، أكثر من أن تحصى، ولكني أريد أن أجمع التأثير العقلي في شخص الإنسان من القرآن، أعنى أن أذكر الآيات التى تستوعب الإنسان خلقاً وإبداعاً وإيماناً وأترك لعقل الإنسان حينئذ التأثر بنفسه، ولتقرأ قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾[4].

ويقول ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا

---

(١) بين الإنسان الطبيعي والإنسان الصناعي محمد تقي الأمين ص ١٨ بتصرف ترجمه د/ مقتدى حسين ياسين و د/ عبد الحليم عويس دار الصحوة للنشر بالقاهرة ١٤٠٥/ ١٩٨٥ م.

٢) سورة الزخرف الآيتان رقي ٢٢/ ٢٣.

(٣) سورة الأعراف الآية رقم ١٨٥.

(٤) سورة الحج الآيات من ٥ إلي ٧ .

الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[1] إنه ما من شكٍ أبداً في أن هذه الآيات ونحوها تدعو إلى التأمل والتفكر من نوعٍ خاصٍ، إنه تفكر ليس له نتيجةٌ إلا التأثر بالقرآن، والاعتراف بوحدانية منزله، وهذا هو المطلوب حيث إن الآيات تلفت الإنسان إلى أن يعمل عقله في إنه خلق من لا شيء أو من تراب لا حياة فيه، وحينئذ يأخذ عقله في التفكير ليصل إلى أن الله الذي فعل هذا قادرٌ بلا شكٍ على إحياء المرء من جديد بعد أن يموت، أرأيت كيف يكون رد فعل العقل إزاء هذه الحقائق؟ بالطبع لا شيء إلا التأثير والتأثر «كما أن القرآن لم يفته أن ينبه العقل إلى التفكير وأعمال الفكر، ولم يفته كذلك أن ينبه ما للتقليد من خطرٍ كبيرٍ في إفساد تفكيره وحكمه على الأشياء، لهذا نهى القرآن بشدةٍ على الذين يجحدون على ما كان عليه الآباء والأسلاف من تفكير ورأى، فيمنعون بذلك عقولهم من التفكير الحق والبحث والنظر والتأمل»[2].

إلى هذا الحد كانت أهمية الفكر والتأمل للتحرر من الجمود الذي ران على العقول، فحجب عنها النور المشع بالهداية والهدى، ذلكم هو نور القرآن الذي يحدث الأثر البالغ عند العقول التى تتأمل وتفكر وتبحث وتهتدي إلى الحق، كما إني أركز على أن العقل ليس وهو الذي يصل إلى هذه الغاية دون تدبر للقرآن الكريم وآياته، التي تحثه حثاً عنيفاً تارةً وخفيفاً تارةً أخري إلى أن ينظر ويتأمل ويتعظ ويتدبر، ليصل إلي التأثر المطلوب والذي يريده الله تعالى من عباده الذين يقرأ ون كتابه أو يسمعونه.

خامساً: الفكر فريضةٌ شرعيةٌ وضرورةٌ عصريةٌ:

إن الفكر والنظر والتأمل والتدبر كل هذه المعاني مجتمعه، ينشأ عنها التأثر بقيمه الوجداني والعقلي ، وما من شكٍ أبداً في أن القرآن الكريم قد لفت الأنصار إلى حقيقة التفكر والتدبر، فى مواضع متفرقه من آيات القرآن الكريم وحسبى فى هذا أن أذكر قول الله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا

---

١) سورة يس الآيتان رقمي ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) القرآن والفلسفة د/ محمد يوسف موسى ٥٨ دار المعارف الطبعة الرابعة بدون تاريخ .

﴿مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[1] ومن خلال هذه الآيات يفهم أن القرآن الكريم أمر بالتفكر والتأمل والنظر في كون الله تعالى، حتى يصل الإنسان من خلال تفكره هذا إلى العظة والاعتبار والتدبر والتأمل الذي يقوده حتماً إلى الأثر الذي يحدثه هذا في قلبه وعقله ووجدانه، لأن من يفكر في كون الله، وفى هذه الآفاق الرحبة يزداد خوفاً وخشيةً من الله تعالى فهذا التفكر فريضةٌ شرعيةٌ -لا محيص عنها - للتوصل إلى توحيد الله تعالى، فجاءت عقيدة الإسلام لتفتح نوافذ الفطرة فى الإنسان على مجالات هذا الكون الواسع، والمترامي الأطراف، بما يحققه النظر والتأمل والتفكر، إلى إدراك معنىً جليلاً دقيقاً في النفوس،وهو توحيد الله، والاعتراف به خالقاً موحداً مبدعاً، عندئذ يستقر الوجدان لديه، ويقف العقل موقف المتدبر المتأثر، فكل ما في هذا الكون يدل على هذا المعنى، وإن نظرة واحدة إلي الكون لتملأ القلب بهراً بما فيه من روعة ودقة ما به من قوانين ثابتة وبصيرة حكيمة يتجلى هذا في كل شئ من قطرة الماء إلي المحيط، ومن ذرة الرمل إلي الجبل، من النملة إلي أضخم حيوان من ورق الشجر إلي الغابة.. وقديماً كان يعزّى هذا إلي المصادفة وهي أعجز من أن تحقق هذا، ولذا فالتفكير فريضةٌ شرعيةٌ محكمةٌ «جاء القرآن الكريم والناس فى الأرض بين أميٍ لا يعلم الكتاب إلا ظنوناً وأماني، ومقلدٍ ملكت فؤاده تعاليم الأحبار والرهبانيين وأساطير الآباء الأولين، وإباحيين حيث لا قيود استرقتهم الشهوات والأهواء، فهو عدوٌ لكل داعٍ، وخصمٌ لكل مصلحٍ، ودهري يقول: إن هي إلا أرحامٌ تدفع وأرضٌ تبلع وما يهلكنا إلا الدهر، ثم قال بجانب هؤلاء أقوامٌ كانوا يرون الخطر كل الخطر في أن تستنير البصائر،وتتحرر العقول، وأن يعرف الناس أنهم عباد الله جاء القرآن والناس فى كل أرض كما وصفت لكم، فكان لابد من الحيلولة بين أغوال الناس المسيطرين والمفترسين، وبين فرائسهم المسكينة الصرعى ، فجاءت البعثة المحمدية والناس أحرار عقلاً وضميراً، قولاً وفعلاً، وبهذا بُدىءَ عصر البحث والنظر والفكر والتأمل ، وولت دوله الجمود»[2].

(١) سورة آل عمران الآيتان رقم ١٩١ ، ١٩٢ .

(٢) الإسلام دين الفطرة عبد العزيز جاويش ص ٢٠٤، ٣٠٥ الزهراء العربي القاهرة ١٤١٤ / ١٩٩٥م .

وظهرت دوله الفكر والنظر والاعتبار والتأمل الحر، فظهرت العقليةُ الواعيةُ المتأملةُ المتأثرةُ بعد أن ماتت أو كادت أن تموت، وفى ظل القرآن عاشت، وفى أرض القرآن نمت وترعرعت، وفى بستانه عزت وسادت، والتاريخ يشهد على هذا، حيث ظهر القرآن كما هو معلوم، في أمةٍ أميةٍ، لم تعرف المباحث الفعلية ولم تألفها، لم يكن لديها علوم بمسائل الطبيعة والعلوم الكونية، فلما جاء القرآن وذكر لهم الإشارات العامة، التى تحث على التفكير والتدبر والاعتبار فى كون الله الفسيح، الواسع الأطراف، التى تتسع مراميه شرقاً وغرباً. فأوسع لهم المدارك، وفتح لهم المجال للتفكر والتأمل والنظر والبحث فى أنهم قالوا إذا المرء كانت له فكره ففي كل شيء له عبرة ، وإليك طائفةٌ من النصوص الشرعية التى تؤكد هذا، حيث إن الآيات التى حثت على التأمل والتفكر في الكون كله، أو فى بعض مظاهره كثيرةٌ ومتنوعةٌ منها قال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1] وقال تعالى ﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾[2].

وقال تعالى﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ رِزْقاً لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾[3] وقال تعالى ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبّاً ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْباً وَفَاكِهَةً وَأَبّاً مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[4] ومن جملة هذه الآيات كلها يعلم بها لا يدع مجالاً للشك أن القرآن الكريم يحول بين الإنسان وعقله وقلبه

---

(١) سورة الأنعام الآية رقم ٩٩.
(٢) سورة يونس الآية رقم ١٠١.
(٣) سورة ق الآيات من رقم ٦ إلي رقم ١١ .
(٤) سورة عبس الآيات من ٢٤ إلي ٣٢ .

ووجدانه إلى الكون كله، وإلى ظواهره المتكررة، وإلى أقرب تلك الظواهر بالنسبة له مثل الطعام والشراب ومصادره، كما هو مذكورٌ فى الآيات السابقة وهكذا العقل له أن يسبح فى مجالات الكون المادي، علويه وسفليه، ليبحث فيه ويتدبر أمره، ويدرك من علاقاته ما يتيسر له استخدام ما فيه من موجودات، والإفادة بما فيه من خيرات ومنافع، تحقيقاً لرسالة الاستخلاف، وأداءً لواجب الأمانة، وهذا يبدو من خلال أن بعض المفسرين قد فسروا الأمانة على أنها العقل.

قال تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[1].

مجالات النظر والفكر: من خلال ما سبق بيانه من الحديث عن مفهوم الفكر، وأهميته للإعجاز التأثيرى للقرآن الكريم، يتبين أنه لابد من معرفة مجالات النظر والاعتبار وحدوده، إذ من روائع الإعجاز في القرآن الكريم أنك لا تجد تناقضاً -مطلقا- بين القوانين القرآنية ودلالاتها، وبين القوانين الكونية وعلاقتها أو بين ذلك والإنسان، ومن ثم يمكن لي أن أقول: إن حدود التفكير والنظر تتجلى واضحةً فى خلق الله كله، دون المساس بذات الله -تبارك وتعالى - وهذا نص حديث النبى ﷺ عن ابن عباس رضي الله عنه إن قوماً تفكروا في الله عز وجل فقال النبي ﷺ «تفكروا في خلق الله، ولا تتفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره»[2] وفى هذا يحدد الرسول ﷺ للناس حدوداً التفكر في خلق الله إلا التفكر فى ذات الله فهذا غير جائز ومن هنا كان التفكر فى الخلق لكن دون التفكر فى ذات الله.

وأما عن مجالات الفكر والنظر ودلالاتها التأثيرية من خلال آي القرآن تنحصر فى أمرين:

الأولى: التفكر فى الآيات القرآنية الثانية: التفكر فى الآيات الكونية ولا تجد تناقضاً مطلقاً بينهما، وهذا أمر طبعي للغاية، وذلك أن خالق الآيات القرآنية هو خالق الأكوان

---

(١) سورة الأحزاب الآية رقم ٧٢ .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية بالمرفوع منه بإسناد ضعيف ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه ورواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا إسناد فيه نظر قلت فيه الوازع بن نافع متروك ، وقال الألباني حديث حسن .

والزمان، إذ ليس تعاقب الليل والنهار،إلا نتيجة مباشرة بجريان الشمس والقمر، وتأمل في هذا قول الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾[1].

وقال ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[2].

ثم إن الذي خلق الأكوان، وأجرى الزمان، هو ذاته الذي أنزل القرآن، وخلق الإنسان ومن هنا فلا خصومه - ألبته - بين القرآن- والكون - والزمان.ولعل هناك من النماذج المعجزة في هذا الربط البديع، والانسجام القويم، بين هذه الآفاق كلها ما يشير قوله ﷻ في سوره الرحمن ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾[3] وفى هذه الآيات ترى تأثيراً، وانفعالاً شديداً يهز كيانك كله، وذلك حينما نرى هذا الربط المعجز بين مجالات الفكر التى ذكرتها آنفاً، حيث اتضحت هذه المجالات فى هذه الآيات نظماً خاصاً موحياً بالتأثر، وموحياً بالتدبر والتفكر فى أسمى الصور. ففي البداية ذكر الخالق وهو الله - الرحمن- ثم ذكر القرآن - وهو المنهج الذي أنزله، ويسر للناس علمه وتدبره والتأثر به، ثم ذكر الإنسان الذي جاء القرآن لهدايته، ورسم منهج سعادته، وصار مصدراً عاماً لعلمه، ثم جاء الحديث عن الكواكب والفضاء والسماء مع الربط بين القانون الأسمى، الذي كان عليه السماوات والأجرام، ويبين المنهج الذي ارتضاه الله لعباده وصلاح خلقه ألا وهو قانون العدل الذي تجلى من منظر بلاغي فريد فى قوله «بالقسط» ثم انتقلت الآيات لتتحدث عن الأرض، التي يسكن عليها الإنسان، ونزل عليها القرآن الكريم فقال تعالى ﴿وَالْأَرْضَ

---

(١) سورة الفرقان الآيات من ٤٥ إلي ٥٠.

(٢) سورة يونس الآية رقم ٥.

٣) سورة الرحمن الآيات من ١ إلي ٦.

﴿وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾[1] ثم ثنى بعدها بما فى الارض من نعم لا تعد ولا تحصى، أليست هذه الآيات دلائل ساطعه، وبراهين واضحه تدل على روعه هذا الترابط والتناسق البديع والعجيب فى هذه الصنعه المتألقه وصدق الله إذ يقول ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[2].

المجال الأول: التدبر في الآيات القرآنية: وهو مجالٌ واسعٌ وفسيحٌ، يسع النظر والفكر والتأمل كله، وذلك قد سبق بيانه، ولعله موضوع البحث لكننى أستطيع أن أوضح نقاطاً هامةً ومجملةً ومختصرةً عن هذا المجال فأقول..

١- التدبر في الآيات القرآنية ليس أمراً على سبيل الندب والاستحباب،بل إنه أمر وجوبي، ولازم لكل من آمن به، وصدق الله ليدبروا آياته. وهذا الأمر بلا شك للوجوب، وليس للندب والإباحة فقط، لكن بحدود قد تم ذكرها.

٢- كل مجالات التدبر الموصلة إلى حقيقة الإيمان واقعةٌ تحت ظلال القرآن وآياته «أعنى أن هذه الآيات القرآنية مشتملةٌ على هداية الإنسان إلى التدبر فى الآيات الكونية، والآيات التاريخية على السواء للوصول إلى الغاية ذاتها ألا وهى التأثر»[3].

وذلك يتجلى واضحاً بكثرةٍ فى القرآن الكريم ومن أمثله ذلك على سبيل الأجمال...

الآيات التى تدعو إلى وحدانية الله تعالى، وبلغه الموضوع الذى أتحدث فيه، أقول لايمكن لقلب أو عقل أحد أن يعمد أمامها، إلا الخشوع والتأثر، ألا وهي قوله تعالى﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾[4].

---

(١) سورة الرحمن الآية رقم ١٠ .

(٢) سورة الملك الآيتان رقمي ٣ ، ٤ .

(٣) الإسلام والفطره محمد ذكى قاسم ص٤٨/ ٤٩ دار الفرزدق الطبعة الثانية ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م وأنظر الإسلام والفكر العلمي محمد المبارك ص ٢٥ وما بعدها دار الفكر بيروت.

(٤) سورة الطور ٣٥/ ٣٦.

أو أنت معي في التأثر ونحن نتلو هذه الآيات؟!!! ألم يتأثر بها قلبك؟ ويرتجف لها فؤادك بلى، وكأن الآية تجسد معنيً حقيقياً ألا وهو أن كل صنعةٍ لا بد لها من صانعٍ، وكل موجودٍ لا بد له من موجدٍ، إنه الله ولا شئ سواه، وفى هذه يقول الشيخ محمد الغزالى – رحمه الله «إن الإنسان لم يخلق نفسه، ولم يخلق أولاده، ولم يخلق الأرض التى تقبله، ولا السماء التي تظله، ومن التطوع به أن شيئاً لا يحدث من تلقاء نفسه فلم يبق ألا الله»[1] ومن ثم كان التدبر للآيات القرآنية هو أساس المجالات، ولذا تجد من خصائص العرض القرآني للكون أنه دائماً ما يقرنه فى آياته بالألفاظ الدالة على التفكر والاعتبار والنظر والتأمل والعقل...الخ مثل يتفكرون – يعقلون – يسمعون......إلخ وبهذا تجد القرآن قد وجّه الحواس كلها لمعرفة ما فى الكون من حقائق، وأسرار إيمانية، ودلالاتٍ تأثيريةٍ، ولذا غالباً ما تكون الآيات إما مبتدأه بالتفكر أو التدبر أو مختومة بذلك.

المجال الثاني: التدبر في الآيات الكونية: وأعنى بهذا التفكر والتدبر والتأمل فى باهر هذه الآيات المعجزات، وللإشارة إلى مقدار ما لهذا الكون من جلال وهيب، وإبداع عجيب، فإننا نقتطف بعض الدلالات التأثيرية من خلال الآيات الكونية عن طريق التفكر. هذا التدبر في الآيات الكونية يشمل الموجودات كلها بعمومها وشمولها وأحوالها وهيئاتها في نظري أنها تدور حول محورين أساسين. أولهما: التدبر في أجرام الكون، ومواد الصنعة، وأحوال الأشياء. ولقد ذكرت جانباً كبيراً منها فيما سبق، وأشيرها هنا إلى بعض الإشارات القرآنية فى هذا المجال منها قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَّ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَّ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللهَّ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[2].

وفى هذا الشأن حرف القرآن للناس من كل مثل، وفتح للتدبر والتفكر والاعتبار والنظر كل أفق، وجعل فى كل شىء عبرة وعظة ودليلاً على التأثر بالقرآن الكريم، ولقد ادخر القرآن الكريم

---

(١) إحياء علوم الدين الإمام الغزالى ج ٤/ ٤٤٩ وما بعدها ، مرجع سابق.
(٢) سورة فاطر الآيتان رقي ٢٧ ، ٢٨.

فى كل مخلوق علماً ونفعاً، لينتهي الأمر به إلى التأثر والتدبر الكامل للقرآن الكريم.

ومن بديع ما يلفت الأنظار إليه، ويوجه الفكر نحوه، ويستولى على العقل تجاهه، أيات الكون وعجائبه وصدق الله إذ يقول ﴿وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[1].

فكم من آيةٍ بديعةٍ فى الكون تحتاج إلى تأملٍ وإعمال فكرٍ، ورويةٍ لا نظير لها ولا مثيل، أهملناها ولم نلتفت إلى مواضع التأثر والتدبر فيها، كأننا انطبق علينا قول الله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[2] وكأن القلوب قد أحكم غلق أقفالها، فلا حل فى فكها أو إزاله الران والصدأ الذي قرأكم عليها، فالآية توضع أنه كم من آيات كثيرة تسترعى من المسلم التفكر، وتستدعى من التأثر، لكنه لا يتأثر ولا يتفكر ولا يتدبر، ولذا كان ختام الآية ﴿يمرون عليها وهم عنها معرضون «أى لا يحاولون حتى مجرد التفكر، وهذا إثم يبين ظلم واضح من الإنسان لنفسه ولقرآن ربه، فبئس ما يعملون. وكليهما: التدبر فى أحوال الزمن، وسنه الله فى التاريخ، وقانونه فى القصور والألم وهذا يبدوا واضحاً فى كثير من آيات القرآن التي تحث على التدبر فيها قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾[3] ولا شك أن هذا النظر يستهدف التدبر والتأثر والاعتبار فى أحوال الأمم الماضية، ونظام الدول، وكيف بادت، وما أسباب ذلك، كي تحذر الأمة هذا المنزلق الخطر، فلا تقع في هذا الخطر، لقد تعرف القرآن فى ذلك تصرفاً عجيباً حيث أشار إلى الأمم والأفراد، وأحوال الدعوات والرسالات، وقواعد الاجتماع وأحوال البشر، ونظام الحياة وكيف تبدلت وتنوعت، كل هذا ما يحمله القرآن للناس.

* * *

---

(١) سورة يوسف الآية رقم.
(٢) سورة محمد الآية رقم ٢٤ .
(٣) سورة فاطر الآية رقم٤٤ .



الفصل الرابع

موانع التأثر بالقرآن الكريم

ويشتمل علي أربعة مباحث

المبحث الأول: الاستكبار

المبحث الثاني: الجهل واتباع الهوى:

المبحث الثالث: قسوة القلوب

المبحث الرابع: بعض الأمراض الباطنية من مثل الغضب، القلق

مما سبق بيانه من الحديث عن الإعجاز التأثيري، من ناحية مفهومه وتأصيله علمياً واعتباره إعجازاً مستقلاً بذاته - من وجهة نظر الباحث - وله أدلة تؤيده، وكذلك وسائله التي يمكن الاستعانة بها لوصول هذا التأثير إلي الناس، وركزت علي اهتمام الدعاة إلي الله تعالى بهذه الوسائل، وذلك لإيصال هذا التأثير إلي المدعوين، وان خاتمة الباب بذكر الموانع التي تحول دون التأثر بالقرآن الكريم؛ مع ذكر إيجاز شديد حول كيفية تفاديها والتغلب عليها، فكان هذا الفصل بمثابة السقف الذي يتم به البناء، وتكتمل بذكره الفائدة.

ولكن قبل الدخول في غمار هذه الموانع كان لا بد من إعطاء تعريف لمصطلح المانع.

مفهوم المانع: المشهور أن المانع في اللغة يعني به الحائل.

واصطلاحاً: «ما يلزم من وجوده العدم مع قياس سبب الحكم وتوافر شروطه»[1]

وعلي ذلك أقول: إن الموانع التي أقصدها في هذا البحث هي التي تؤدي إلي حجب المرء عن التأثر بالقرآن، فثمت مانعُ سببي يحول بين القلب وبين التأثر بكلام الله تعالى، وإنّ هذا لعمري شرٌ وبلاءٌ يبتلي به من يصد عن سبيل الله - تعالى - ومن يسير وراء نزواته وشهواته، ويعبد لذاته ويجيب شيطانه، ومن ثمّ تكون النتيجة أن تحدث بينه وبين قلبه مخاصمة، وبالتالي يكون بين قلبه وبين القرآن جفاء وجفاف، ومن هنا تجد أن القرآن لا يروي ظمأه، بل إن القلب لا يتشرب من ري هذا القرآن، وللأسف هذه مصيبة يبتلي بها كثير من الناس، حيث قد حالت الشهوات والأهواء بينهم وبين تأثرهم وتدبرهم لكلام الله، ولذا خابوا وباءوا بالخسران المبين، وها أنذا أذكر بعض هذه الموانع بشئ من التفصيل، وذلك حسب ما ورد ذكره في القرآن إما بالتصريح أو التلميح.

المبحث الأول: الاستكبــار:

مما لا يشك فيه أحد أن القرآن الكريم نزل علي قومٍ قد أخذوا من الجاهلية سربالاً من

---

(١) أصول الفقه ص ١٤٨ حولية كلية الشريعة.

الأخلاق السيئة، والعادات العفنة القبيحة، التي هي من موروثات آبائهم وسادة جاهليتهم، وظلت هذه الأوبئة -التي لا قيمة وغيرها- لاصقةً بهم ردحاً من الزمن، لا يبرح عفنها عن حياتهم ولا يفارقها أبداً ومن هذه الأوبئة الاستكبار...وقد ظل الحال هكذا حتي مبعث النبي ﷺ ولقد اتبعوا معه ذات الأسلوب الذي يعيشون به، وورثوه عن آبائهم، ووصل بهم هذا الأمر مداه، حيث قد قاسوا الدعوة وبعثة النبي ﷺ بهذا المقياس المتكبر المادي الغير أخلاقي ولقد سجل الله - تعالى - عليهم ذلك في القرآن فقال ﷻ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[1] فهم يستنكرون أن يكون الله تعالى قد منّ عليهم فبعث رسولاً إليهم، وذلك كله استكباراً وعناداً ويقولون لمَ محمدٌ تحديداً؟ مع أنه ليس من كبرائهم وسادتهم، هذا هو منطق الجاهلية عند نزول القرآن علي العرب، ومن ثمّ صدّهم هذا الاستكبار والعناد عن تقبل الهداية، وحال بينهم وبين فهمهم للقرآن فضلوا ضلالاً بعيداً، ولذا كان تصورهم الخاطئ وبالاً ونكالاً عليهم استحقوا به عذاب الله تعالى ونقمته، ومن هنا كان السبب في عدم تأثرهم بالقرآن هو الكبر الذي ملكهم، والغرور الذي سيطر عليهم حتي اقتنعوا به وصدقوا أنفسهم علي غراره ولذا كانت الخسارة هي الحرمان من حلاوة القرآن مع غضب الله عليهم.

مفهوم الاستكبار: لغة: «يقال كبر الأمر، وخطبٌ كبير، والكبير صفة الله تعالى والكبرياء العظمة، واستكبر الشئ أي عده كبيراً، ورآه كبيرا وعظم عنده، واستكبر الكفار أي أبوا قول «لا إله إلا الله» ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[2] وهذا هو الكبر المنهي عنه؛ لأنه يودي بصاحبه إلي النار حيث قال الرسول ﷺ «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»[3] كما أن الكبر يأتي بمعني الإثم، قال تعالى ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[4].

---

(١) سورة الزخرف الآية رقم ٣١.

(٢) سورة الصافات الآية رقم (٣٥).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه ج ١ / ٩٣ برقم ١٤٩ . واللفظ له.

(٤) سورة النور من الآية رقم (١١) وفي المعني انظر لسان العرب ابن منظور ج ٥ / ١٢٤.

الاستكبار اصطلاحاً: إعجاب المرء بنفسه مع ما يخيل له تصوره المريض أنه أفضل الخلق قاطبة، ومن ثمّ يؤدي به هذا الاستكبار إلي العناد فيضل ويُضل، ويحجبه هذا الكبر عن الخير كله، وليس هناك خير أولي من التأثر بكلام الله تعالى، ولكن الكبر يصرف صاحبه عن هذا المعني الجليل، ولذا قال الله تعالى ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾[1] والذي يفهم من الآية الكريمة أن المتكبر يُحرم من نعمة التأثر بالقرآن الكريم، قال الزجاج: «أي أجعل جزائهم الإضلال عن هداية آياتي، وقيل إن معني يتكبرون أنهم يرون أنفسهم أفضل الخلق، وأن لهم من الحق ما ليس لغيرهم»[2].

ومن هنا فإن الاستكبار ما يعظم ويثقل علي النفس، ويكون شاقاً عليها ومؤلماً لها، وموجعاً لها، ولذا قال الله تعالى ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾[3] أي ثقل عليك وشق ذلك عليك، وبهذا يُفهم أن الاستكبار في حد ذاته شرُ وبلاءٌ، فما بالك إذا كان ذلك مع القرآن فهو حينئذٍ أشر، وهو يحرم صاحبه من كل خير وفضيلة، وليس هناك أخير ولا أفضل من التأثر بالقرآن الكريم حين تتلي آياته، ومن هذا المنطلق أقول: إن النفوس المستضيئة بنور الله تعالى لا تطمسها معالم الكبر ولا تغشاها، لأنها تتدارك أي همزة من همزات الشياطين فلا تجعل له سبيلاً عليها، لأنها فوق كل هذا متأثرة بالقرآن، ومستضيئة بنور الله فالكبر لا يعرف لها طريقاً.

مخاطر الاستكبار وآثاره السيئة المانعة من التأثر بالقرآن:

إن للكبر آثاراً سيئةً وضارةً علي كافة المستويات لاسيما علي قلب الذي يريد القرآن حروفاً وكلماتٍ فقط، دون أن يكون للقرآن صدىً حقيقاً في قلبه ووجدانه، ودون أن

---

(١) سورة الأعراف الآية(١٤٦).

(٢) راجع القاموس القويم للقرآن الكريم / إبراهيم عبد الفتاح ص ١٤٩ ، ١٥٠ باب الكاف ، طبعة مجمع البحوث الإسلامية ، الأزهر ١٤٠٤ ه / ١٩٨٣ م .

(٣) سورة الأنعام من الآية رقم (٤٥).

يكون له تأثيرٌ قويٌ في نفسه، لأن من لم يعش مع كلام الله تعالى بقلبه وكيانه فإنه محروم من نعمة التأثر بالقرآن، والمستكبر كذلك محروم من التأثر بالقرآن، لأنه حجب نور الله تعالى أن يصل إلي سويداء قلبه وهذه بعض مخاطره..

أولاً: الكبر مانع وحائل بين القرآن وبين تأثر القلب به:

وهذا يعود في حقيقته إلي أن المتكبر قد ضلّ سواء السبيل، ونأى بقلبه عن الخير الجميل والثواب العظيم الذي يعود عليه من خلال آيات القرآن، ولذا فقد ذم الله تعالى من تكبر علي آيات الله تعالى، ووعده بنارٍ تلظى، ومن ثمّ قال الله ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَـئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾[1] فهذه الآيات وغيرها توضح أن الكبر يصرف القلب عن التأثر بالقرآن، لأنه مشغولٌ بغروره فلا محل في قلبه للتأثر بكلام الله، ولعلني بدأت بالكبر والاستكبار كأولي موانع التأثر بالقرآن وذلك لعدة اعتبارات من أهمها ما يلي...

١ - إن الكبر داءٌ خطير يسيطر علي الإنسان ظاهراً وباطناً:

ومن ثمّ فإن الاستكبار يسيطر علي القلب فيصرفه عن التأثر بالقرآن، ويوقعه في الشر، والمعروف أن التأثر بالقرآن عملٌ باطني كذلك ومن هنا يتعاركان داخل القلب، وينتصر الاستكبار لأن الإنسان لديه الاستعداد لذلك ولذا قال الله تعالى ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾[2].

٢ - إن الكبر غطرسة لا داعي لها:

لأنه اعتداء على الله ﷻ دون شعور حقيقي بذلك ومن ثم بدأت به . فخطره يتجلى

---

(١) سورة الأعراف الآيتان ٣٦، ٣٧ .

(٢) سورة الأعراف الآية رقم ١٤٦.

في كونه يصد صاحبه عن التأثر بالقرآن الكريم، وكفى بهذا إثما وخطرا وسيئة وهذا الكبر من شأنه أن يحول أو أن يقف سدا منيعا، وحصنا حصينا في مواجهة التأثر بالقرآن الكريم، ولذا أوضح الله في القرآن أنهم مصرفون عن القرآن وهذه الآية تجعل المسلم ذا القلب الحي والإيمان الصادق، والضمير اليقظ يقف صاغرا أمام عظمة الله وجلاله، ويندم على كل ما فرط فيه من كبر وعجب، وهذه الآية تدل على أن قلب المتكبر يُحجب عن العظة فلا يهتدي إلى الحق أبداً - إلا إذا أراد الله ﷻ هدايته - وحيث أن هذا الموضوع يتحدث عن التأثير القرآني، والكبر يمنع من ذلك ويقف حاجزاً أمامه، فالله ﷻ يقول ﴿.... وكنتم عن آياته تستكبرون﴾[1] إن القلوب عندما يداخلها الاستكبار وتألف العناد يختم عليها بما هو أشبه بالحجاب حيث لا تعي ولا تفهم وصدق الله إذ يقول ﷻ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً﴾[2] وبهذا يعلم أن هذا المانع قد جعل علي القلوب أكنة فهم لا يفقهون، وليس هذا فحسب بل إن الآذان هي الأخري تصاب بالوقر ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾ ونسأل الله العفو. وهناك من الآيات كثيراً ما يؤكد هذا المعني منها قول الله ﷻ ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3] وقوله تعالى ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[4] وغير ذلك من الآيات.

ثانياً: الكبر يطبع علي القلوب ويختم عليها فلا تعي ولا تتأثر بالقرآن:

من موانع التأثر بالقرآن الاستكبار وذلك حيث الختم علي القلوب، وذلك لأن المتكبر قد وضع بيده وبتكبره هذا خاتماً علي قلبه، وأغلقه عن كل تدبر للقرآن ، وعن كل

---

(١) سورة الأنعام من الآية رقم ..
(٢) سورة الإسراء الآية رقم ٤٥ ، ٤٦.
(٣) سورة لقمان الآية رقم ٧ .
(٤) سورة الجاثية الآية رقم ٨ .

عظة وعبرة من خلال آياته، وكل ذلك ظلمٌ وعدوانٌ وفي هذا يقول الله تعالى ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (١) وفى هذا تأكيد من الله تعالى على قلوب هؤلاء المتكبرين في غفلة عن الحق وعن النور فهي مقفلةٌ بقفلٍ صلبٍ جزاءً من الله لهم ونكالاً وصدق الله ﷻ إذ يقول ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٢) فهذا الختم الذي يبدو من وضوحه ونصاعته كالخاتم على هذه القلوب كان جزاءً وعقاباً لهم على كبرهم وعنادهم وصدهم عن آيات الله تبارك وتعالى وفى آية أخرى من نفس السورة يقول الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٣) هذه الآية هي الأخرى تنضم إلى سابقتها فتؤكد مدى ما بالقلوب التي يتصف أصحابها بالكبر من غلف وطبع عليها، وهذه الآية هنا تصور الكبر بمعنى الحالة النفسية التي تستعصي علاجها وتطبيبها وذلك كله في إطارٍ واسعٍ جداً من هول هذه الصورة حول الكبر والمتكبر، كما أن الآية أوضحت أن في نفوس الكافرين كبراً وعظمةً هم - أصلاً - لم يبلغوها ولم يستحقوها ولم ينالوا شرفها ولن يكونوا كذلك لأنهم كافرون وهذا هو قوله ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ ولذا أمر الله بالاستعاذة به سبحانه وتعالى عقب هذه الكلمة فقال (فاستعذ بالله) اى اطلب منه العون والتأييد ولا تكن هكذا من الذين طبع الله على قلوبهم؛ فلا يفهمون القرآن ولا يتأثرون به ولا يتفكرون في الله وفى هؤلاء الكفرة يقول الله تعالى لرسوله﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ﴾ (٤) ويحذرالله تعالى أن يتصف احد من المسلمين بهذا الصفة فيحجب من نور الله ومن نور القرآن، ومن التأثر به وهذا واضحٌ وجليٌ في الآية السابقة والرسول ﷺ في أحاديثه يؤكد على هذا يقول ﷺ «لا

(١) سورة غافر الآية رقم ٣٥.
(٢) سورة محمد الاية رقم ٢٤.
(٣) سورة غافر الآية رقم ٥٦.
(٤) سورة البقرة الآيتان رقمي ٦، ٧.

يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب فى الجبارين فيصبه ما أصابهم»[1] وصدق الله ﷻ حين قال ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[2]....

ثالثاً: الحرمان من حلاوة الإيمان:

مما هو معلوم بداهة أن حب الله تعالى والإيمان غاية لا يدركها إلا المتقون ولا يفوز بها إلا المتأثرون بآيات ربهم الذين دخلوا في دائرة قول الله ﷻ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[3] فالآية توضح أن الله يحب من يتأثر بآياته ومن تزيده إيماناً فوق إيمانه وذلك آتٍ من حب الله تعالى، حيث إن حب القرآن والتأثر به دلالةً صادقةً على حب منزّله وهو الله ، فمن أحب القرآن فقد أحب الله تعالى، فالقرآن كلامه وآياته انزله على رسوله مبارك فيه لكي يتأثر به المسلمون ويتدبروا معانيها ويتعظوا بما جاء فيه، ومن ثم فمن تلا القرآن وتأثر به فقد دخل في دائرة المؤمنين الصادقين المحبين لله تعالى، ومن فقد هذا التأثير القرآني فقد كل شيء، وحرم من كل خير ومن تولى عنه واستكبر على آياته فلم يتعظ ولم بتدبر ولم يعبأ بشيء من القرآن الكريم، فهذا شقي حرم نفسه من نعيم جزيل وذلك لأنه استكبر عن آيات الله وهذا إثمٌ وظلمٌ مبينٌ، وصدق الله ﷻ إذ يقول ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ * لاَ جَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[4] فالآية توضح أن الله لا يحب المستكبرين من عباده الذين استكبروا عن آياته وكرمه أما من تواضع واغترف من معين القرآن وتأثر وتدبر وأثر كذلك في الناس فقد أحبه الله وهو قريب منه سبحانه- لأنه في كل لحظة يردد كلام الله بقلبه وفؤاده وصدق الله إذ يقول ﴿وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه كتاب البر والصلة باب الكبر ٤ / ٣٦٢ برقم ٢٠٠٠ وقال أبو عيسى عنه، هو حديث حسن غريب .

(٢) –سورة الحج الآية رقم ٤٦.

(٣) –سورة النحل الآيتان رقمي ٢٢، ٢٣.

(٤) –سورة النحل الآيتان رقمي ٢٢ ، ٢٣

﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[1].

وهذا يعطى دلالةً قاطعةً على أن أهل القرآن الذين تأثروا به وأثر فيهم واتخذوه وسيلة للتأثير على الناس؛ هؤلاء هم أحب الناس إلى الله فأهل القرآن الكريم هم أهل الله وخاصته من خلقه، أما هذا المستكبر الذي لم يتدبر القرآن فأداه ذلك إلي إنكار الآخرة ، فلا قلوب لهم تعي ولا أفئدة لهم تستوعب ، ومن ثم فهم محرمون من كل خير، ومن ثم يكفيهم حزناً وخسراناً وندامةً أن الله لا يحبه ومعلوم أن الله يكرم من يحب كما أن هذا المستكبر عن آيات القرآن الكريم وعن التأثر بها لم يفعل باستكباره هذا شيئاً ولن يجني منه إلا الخسارة وصدق الله إذ يقول ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾[2].

كما أن الآية توضح ضآلتهم وتفاهتهم وهوانهم على الله واضحٌ من الآية حيث لا وزن لهم ولا قيمة، مهما استطالوا من البناء ومن متع الحياة الدنيا ؛ فان فوقهم ما لا يطالونه ولن يستطيعوا ذلك لآن قلوبهم متكبرة، وهم في حقيقة الأمر مستكبرون ومهما دقوا الأرض افتخاراً واختيالاً وانتفاخاً بالكبر فلن يخرقونها أو يؤثرون فيها بل هم حفنة من ترابٍ لا قيمة لها تثيرها الريح بأن تغشى عيونهم وتعمى أبصارهم وتجعلهم سخرية للناس، ومثار استهزاء لهم ، فالاستكبار لا يعود على صاحبه بأى خير قال تعالى ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ وهذا إعلان صريح من الله على انه لا يحب المتكبر، فهو مبغوضٌ عند الله لأن هذه الصفة الذميمة حتى منعته من التأثر بكلامه سبحانه وتعالى وحالت بين وبين المتأثر بآيات الله فهي قد أدت بصاحبها أن جعلت بينه وبين القرآن حجاباً قوياً فلا هو يتأثر بالقرآن ولا القرآن يؤثر فيه،وهذا والعياذ بالله شرعباد الله ومن خلال ما سبق يتضح بما لا يدع مجالا للشك أن المستكبر لا قبل له بحب الله ولا يحب الله بل انه يلقى الله - عز وجل- وهو عليه غضبان فالاستكبار والعناد إذن داء خطير

---

(١) سورة الأنعام الآية رقم ٩٢ .
(٢) سورة الإسراء الآيات من ٣٧ .

وفيروس قاتل يحول بينك وبين تدبر القرآن الكريم ومن ثم يمنع عنك خيري الدنيا والآخرة.

رابعًا: عاقبته أليمة وواضحة:

فالاستكبار شرٌ ووباءٌ على كافة المستويات يكفيه شر انه يحجب النور عن القلوب فيعميها عن الهداية وعن التدبر والتأثر، ولذلك فقد أعد الله عاقبةً أليمةً ومهينةً لهؤلاء المستكبرين المعاندين عن آيات الله، هذه العاقبة التي قال الله فيها ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[1] فهذا حكم الله سبحان وتعالى عليهم حيث استكبروا عن آيات الله تعالى فاستحقوا أن لا ينالهم رضا الله يوم القيامة بل يحوزوا جهنم خالدين فيها ما شاء الله ويقول الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[2] هذا جزاء من استكبروا عن آيات الله وهذا عاقبة من ضلوا عن آيات ربهم عز وجل، وتاهت قلوبهم عن معرفة الهدى والرشاد فضلوا في الدنيا وأضلوا غيرهم وجزاؤهم ناراً خالدين فيها،ومن الآية التالية للآية السابقة نجد أن الله يقول ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ﴾[3].

والمتتبع لأحوال الأمم السابقة مع أنبيائهم وكتبهم التي انزلوا بها يجد أن المستكبرون كانوا هم أول المكذبين فهذا شأنهم فهذا شأنهم دائماً المستكبرون هم المعانون وهم الصادون عن دين الله واليك طائفة قرآنية من أحوال هؤلاء المستكبرين.

١- يقول الله تعالى ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ

---

(١) سورة غافر الآية رقم ٦٠.

(٢) سورة الأعراف الآية رقم ٣٦.

(٣) سورة الأعراف الآية رقم ٣٧.

تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1] وكان الرد على لسان هؤلاء المستكبرين كما حكى القرآن الكريم ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾[2] فقابلوا الإيمان بالكفر عناداً واستكباراً، يقول الإمام البيضاوي «وضعوا آمنتم به موضع أرسل به؛ رداً لما جعلوه معلوماً مسلماً به، فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم، واستكبروا عن امتثاله»[3] وليتهم سكتوا عن هذا الحد بل تمادوا في عنادهم واستكبارهم في وقاحة ساخرة وقالوا يا صالح أئتنا بالعذاب الذي تعدنا به إن كنت صادقاً في ذلك فما كان إلا أن عاقبهم الله بالرجفة وذلك قوله تعالى ﴿فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[4] فبهذا كان جزاؤهم الذي يستحقونه من وراء تكبرهم واستكبارهم عن آيات الله تعالى وذلك على لسان رسوله الله صالح عليه السلام وذا شأن المستكبرون فى كل زمان ومكان.

ب – يقول تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾[5] إن هذه الآيات الكريمة عن نبي الله نوح عليه السلام وما دار بينه وبين قومه حيث استكبروا عن دعوته وركبهم الغرور وقالوا ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ والمعروف عن سيدنا نوح عليه السلام انه كان ذكياً فطناً استخدم في دعوته هؤلاء المعاندين كل وسائل بلباقة ودبلوماسية رائعة لا نجد لها نظيراً، ومن ثم قال الله تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ

---

(١) سورة الأعراف الآية رقم ٧٣.

(٢) سورة الأعراف الآيتان رقمي ٧٥، ٧٦ .

(٣) تفسير البيضاوي حـ ٣/ ٣٦ مرجع سابق.

(٤) سورة الأعراف الآيتان رقمي ٧٧/ ٧٨.

(٥) سورة هود الآيتان رقمي ٢٥، ٢٦.

نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاء لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً﴾[1].

لكن هؤلاء المكذبين المستكبرين قد رأوا سبباً واهياً يعلقون عليه تكذيبهم وعنادهم واعراضهم، هؤلاء العلية رأوا أن استجابة هؤلاء المستضعفين لدعوة نوح عليه السلام كافية لصدهم عن دعوته لما كان الأمر كذلك نجى الله نوحاً ومن بعده المؤمنين ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾[2].

وفي موضع آخر يقول الله تعالى في حق شعيب عليه السلام ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ هذا جزاء هؤلاء المستكبرين، الذين تكبروا علي الله، وتعالوا علي رسول الله تعالى، وفي موضع آخر يقول تعالى ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[3] إلى أن قال الله تعالى ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[4] وانك ترى في هذه الآيات عناداً واستكباراً وتكبراً على أمر الله تعالى، وكذلك ترى عاقبته سريعة وواضحة وأليمة حيث أن إبليس لما لم يذعن لأمر الله وتكبر على أمره ابتلاه الله عز وجل بالذلة وطرده من الجنة وهذا عاقبة المتكبرينأي أن الكبر هو الأنانية بعينها التي يريد صاحبها أن يكون أشبه بإله في الأرض لا يخضع لحق ولا ينتصح من أحد لأنه بزعمه لا يري أن يكون

---

(١) سورة نوح الآيات من الآية رقم ١ إلي الآية رقم ٧.
(٢) سورة الصافات الآيات من الآية رقم ٧٥ إلي الآية رقم ٨٢ .
(٣) سورة الأعراف الآيتان رقمي ١٣ ، ١٤.
(٤) سورة الأعراف الآسية رقم ١٨ .

تابعاً للغير، فهو طاغي جبار على من تحت يده من الناس لا يخصهم بكرامة أو خير إذ يرى نفسه أولى بكل ذلك»[1] فكان كبر إبليس - عليه لعنه الله - سبباً في خروجه من دائرة المؤمنين إلى دائرة الملعونين المطرودين.

كل هذا الاستكبار أدى إلي أن يجعل علي القلوب غلافاً وختماً فلا تعي ولا تفهم من القرآن شيئاً ولا تستوعب منه فهماً، وليس هذا فحسب بل قد أدي هذا الاستكبار إلي أن ألغي وظيفة الفهم لدي عقول هؤلاء لأنهم مشغولون بكبرهم وعنادهم وإصرارهم علي الخطأ رغم وضوحه، وبعدهم عن الآيات رغم ظهورها وأثرها علي الناس والآيات السابقة تنطق بهذا، فالاستكبار عائق أساس أمام المسلم إذا اتصف به عن فهم كتاب الله وتدبره لآياته وتأثره لما جاء فيه، ومن ثم كان علي كل مسلم أن يبتعد عن هذا المسلك المشين، ويتحلى بالتواضع حتي يضمن لقلبه التأثر بكلام الله تعالى.

* * *

---

(١) مع الأنبياء فى القرآن عفيف طبارة ص ٤٣ مرجع سابق .

المبحث الثاني : الجهل واتباع الهوى :

اتباع الهوى من الحواجز التي تحول بين المرء المسلم وبين تدبره للقران الكريم وليس أدل على ذلك من قوله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

«فالهوى عن الخير صاد، وللعقل مضاد، لأنه ينتج من الأخلاق قبائحها ويظهر من الأفعال فضائحها، ويجعل ستر المرء مهتكاً، ومدخل الشر سلوكاً ولذا قال عبد الله بن عباس فى الأية السابقة : «الهوى اله يعبد من دون الله»[2] ولكن ما حقيقة الجهل والهوى.

أولاً : حقيقة الجهل :

هو فى اللغة يعنى «فلان جهول ويتجاهل على قوم اى يتسق عليهم وجهل جهول اى لا علم له بالأمر، وجهل صاحبه رماه بالجهل»[3] ومن ثم يعلم انه لغة السفه والطيش وعدم العلم، وهذا موافق لما ذكره الراغب فى المفردات حيث يقول الجهل على ثلاثة أضرب:

١ -خلو النفس من العلم وهذا هو الأصل.

٢ -اعتقاد الشئ بخلاف ما هو عليه

٣ - فعل الشيء بخلاف ما حق أن يفعل، وأعني بهذا جهل الناس بفهم القرآن، وجهلهم بتدبره مع ما أوتوا من علمٍ ومعرفة، ولذا فإنه جهلٌ فوق جهله. وهو يعنى الاعتقاد الفاسد الذي لا يؤدى إلى خير، كمن يترك الصلاة عمدا مثلا»[4].

واصطلاحا : هو أمر يحول بين المرء وبين فهمه وتدبره لكلام الله تعالى، فهو يصد الإنسان عن الخير،لأنه بطبعه شر والجاهل لا يرجى من ورائه خير.

---

(١) سورة الجاثية الآية رقم ٢٣.

(٢) أدب الدنيا والدين الماوردى ص٣٨ . بتصرف.

(٣) أساس البلاغة الزمخشرى ص ١٠٧، ١٠٨ .

(٤) المفردات للراغب ١/ ٤٩٣ وما بعدها.

والهوى: لغة تعنى «إتباع ما يهواه الإنسان بغض النظر عن خيره وشره.

فالهوى اصطلاحاً: ميل النفس إلى الشهوة، فهي تهوى بصاحبها إلى الهاوية وهو السقوط من علٍ كأن من يتبع هواه يسقط فى الهاوية، وهى جهنم فأتباع الهوى منتهى الضلال، ومن هذا حاله يضله الله ويختم على قلبه وسمعه، وقد ذمه الله فى القرآن الكريم فقال تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

وقال تعالى ﴿... وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾[2] وقال تعالى ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء﴾[3] من خلال الآيات السابقة وغيرها يلحظ المتأمل فيها والمتدبر لمعانيها أنها تذم إتباع الهوى ، فهو سبيل الصد عن قرآن الله تعالى، فمن يتبع هواه فالضلال طريقه، والغواية سبيله وجهنم مستقره، وهو فوق ذلك لا يتلذذ بالقرآن الكريم، ولا يحيا فى ظلاله، ولا يرتوي من فيضه فهو محروم من خيرٍ كثير، وفيض حميم، وصدق من قال «من أطاع هواه، أعطى عدوه مناه، وقيل الهوى عدو متبوع والعقل صديق مقطوع»[4] ويعتبر إتباع الهوى من أهم العوائق التي تحول بين المسلم وبين تدبره للقران الكريم .ويقول ابن رجب الحنبلي «وجميع البدع المعاصي انما تنشا من تقديم هو النفوس على ما يحبه الله تعالى ورسوله عليه السلام»[5] وإذا تحكم الهوى فى النفس البشرية كان سببا فى هلاكها، وتقديم مراد النفس على مراد الله تعالى، ولذلك كان من أسباب عدم إيمان الأمم بأنبيائهم هو الهوى قال تعالى ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ * وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾[6].

---

(١) سورة الجاثية الآية رقم ٢٣.
(٢) سورة البقرة من الآية رقم ١٤٥.
(٣) سورة إبراهيم الآية رقم ٤٣.
(٤) أدب الدنيا والدين الماوردى ٣٩ .
(٥) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم ، ابن رجب الحنبلي ص ٣٦ .
(٦) سورة البقرة الآية رقم ٨٢ .

«وإذا ترك الناس بعض ما أنزل الله جهلا أو هوى وقعت بينهم العداوة والبغضاء، إذا لم يبق هناك حق جامع يشتركون فيه، بل تقطعوا أمرهم بينهم زبراًكل حزب بما لديهم فرحون»[1].

كما أن من يتبع هواه يصده ذلك عن تدبره آيات القران، ويا ليت الأمر يقتصر على هذا الحد بل يتعداه إلى ما هو أبعد من ذلك، فهو يفرق الجهود ويضيع الجموع وصدق من سماهم أهل الأهواء؟» إن إتباع الهوى يفرق ويمزق، وذلك لأن الحق واحد، والأهواء بعدد رؤوس الناس، وان اكثر ما فرق الأمة في القديم والحديث إنما هو إتباعها لهوى النفس أو هوى الغير، ولهذا أطلق عليهم أهل السنة «أهل الأهواء»[2]ولعل ما يزداد خطره من أمر إتباع الهوى، أنهم يحرفون بعض النصوص القرآنية حسب أهوائهم، وما يمليه أهوائهم من رغبات بما يناسبهم، فهم يحرفون الكلم عن مواضعه لا سيما الآيات المتعلقة بأحكام الربا أو الخمر أو الحجاب .....الخ. وهكذا شانهم ، وقال عمر بن الخطاب «اقدعوا – اى كفوا وامنعوا واقلعوا – هذه النفوس عن شهواتها، فأنها طلاعة تنزع إلى شر غاية، إن هذا الحق ثقيل مري وان الباطل خفيف وبي، وترك الخطيئة خير من معالجة النوبة، ورب نظرة زرعت شهوة، وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً، ومعنى مري اى حميد وهو دواء معروف بين الأطباء، ومعنى وبي أى خبيث وعاقبته وخيمة، والمعنى أن الحق ثقيل لكن عاقبته حميدة، والباطل خفيف سهل ولكن عاقبته وخيمة»[3]وقال على ﷺ «أخاف عليكم اثنين: إتباع الهوى وطول الأمل، فإن إتباع الهوى بعد عن الحق، وطول الأمل ينسى الآخرة، وقال الشعبي إنما سمي الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه، ويؤدى به إلى الهاوية»[4] وبهذا يتبين أن الهوى وإتباعه يقود صاحبه إلى الهاوية لا محالة وهى جهنم، ومن ثم وجب على كل ذي عقل أن يتنبه للأمر،وان يحتاط فيه بحيث لا يقع في الخطر والشر.

---

(١) فتاوى ابن تيمية ج ٣/ ٤١٩ ، ٤٢١ .
(٢) الصحوة الإسلامية ٢٨٨ القرضاوى .
(٣) أدب الدنيا والدين الماوردى ص٣٨ .
(٤) المرجع نفسه ص ٣٩ .

مخاطر إتباع الهوى:

إن أبسط الأمور الخطرة التي يؤدى إليها، هو أن صاحبه لا يسمع لصوت العقل فالذي يحكم هواه، والذي تتحكم فيه شهواته، ولا شئ غير ذلك علماً بأن الله قد أمر داوود عليه السلام بعدم إتباع الهوى فى حكمه فقال تعالى ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[1] لعل أول المخاطر المحدقة بأهل الأهواء هو الضلال كما ذكر الله تعالى، والضلال ظلام دامس لا تجد منه فكاكاً أبداً لأنه شر كله، ولا يمكن لك أن تتصور أن أحدا قد ضل عن سبيل الله ونجا من العثار، وأول عثوره وضلاله أنه لا يتدبر كلام الله تعالى ولا يفهم آياته وصدق الله ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[2] لأن الهوى أعماها. فالهوى يعد من اعقد المشاكل التي تواجه الإنسان فى حياته، فتعمى بصره وبصيرته عن التأمل والتدبر والتأثر بآيات الله تعالى، ومن ثم فان غلب الهوى على النفس ضاع وضياع للقيم الروحية، وذلك لأنه لا ضابط له، وليس هناك من يقوده سوى شهواته وظنونه، ولذا فهو فى ضلال يعقبه ضلال وظلام ، وإذا غلب الهوى على النفس جنح العقل، وأظلم القلب، فلا يسمع الإنسان كلمة حق ولا يرى إلا الأباطيل والأضغاث والأحلام والأشباح المفزعة تؤرق منامه، وتجعله فى حياته تعساً شقيا، والذين يعبدون الهوى، لا يفقهون حديثا، وذلك لان ما يدركون بإسماعهم وإبصارهم من العلم لا يتعدَ إلى قلوبهم، ومن هنا فالآية الكريمة توضح أن أهل الأهواء لا يفهمون، وذلك لان الهوى أعمى قلوبهم وإبصارهم عن فهم الحقائق، ولذا فهم لا يفهمون إلا ما يتفق مع أهوائهم ، ومن ثم فهم من أبعد الناس عن فهم القران وتدبره، حتى ولو نظروا فيه بأعينهم أو سمعوه بأذانهم فكل ذلك لن يعود على قلوبهم بالفهم والتدبر وصدق الله لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ

(١) سورة ص الآية رقم ٢٦.

(٢) سورة الأعراف الآية رقم ١٧٩.

يَفْقَهُونَ بِهَا ثم إن الله يؤكد أنهم - اى أهل الأهـواء - في ضـلال مستمر وظـلام دامس، وذلك يظهر من قوله تعالى «وأضله الله على علم» وليت الأمر يقتصر على هـذا فقـط بـل إن الأمر يتعدى الى ما هو اخطر وأقسى وهو الطبع على القلوب فلا تفهم شيئا ولا تعي شيئا و الختم عليها، ثم يكون على بصره وبصيرته غشاوة فلا تدبر ولا تأثر لكلام الله تعالى. ولذلك جعل الفعل رقيبا على ما يورد الإنسان إلى التهلكة، وذلـك بشرط أن يكـون لدى المسلم استعدادا لهذا «فلما كان الهوى غالبا وإلى سبيل المهالـك موردا جعـل العقـل عليه رقيبا مجاهدا يلاحظ كثرة غفلتـه، ويـدفع بـادرة سطوته، ويـدفع خـداع حيلتـه، لأن سلطان الهوى قوى، ومدخل مكره خفي، ومن هذين الـوجهين يـؤتى العقـل حتـى تنفـذ أحكام الهوى عليه أعنى يقوى سلطان الهوى حيث تكثر دواعيـه، وتستولي عليـه مغالبـه الشهوات فيكل العقل عن دفعهـا ، ويضـعف عـن منعهـا، والثـاني أن يخفـى الهـوى بكـره حتى تتموه أفعاله على العقل، فيتصور القبيح حسنا والضرر نفعا»[1] .

وحيثما كان الأمر كذلك فهو ضـلال حتمـي لا شـك فيـه، يعيش فى ظلـم أصـحاب الأهواء والعجيب أنهم يصـدقون هـواهم المريض هـذا، فيبعـدهم عـن الله والتـأثر بآياتـه وكلماته ولذا فرق الله تعالى بين من يتبع الحق ويعترف به ويهنا بالعيش فى ظلالـه الوراقـة، من غيره من أصحاب الهوى ممن يحبونه فى ظلام، وذلك الفرق بين العاصي والمؤمن ولذل يقول الله تعالى ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ﴾[2] فالهوى عدو العلم الحق، إذ انه يقود صاحبه إلى ارتكاب المظالم، وإتيان الفواحش والصد عن سبيل الله، وعدم التأثر والتدبر لكلمات الله تعالى - ولذا فهو ظالم النفس، فقد حرمها نعمه الأيمان والتدبر لكلمات الله، وحجبها عن نور الفهم والمعرفة، ومن ثـم عـاش حيـاه الخوف والفزع والقلق والضيق، وتكاثرت عليه الهموم، واجتمعت عليه الأهوال، وأغواه الشيطان ومن ثم ضل سواء السبيل، وعاش فى ظلام الجهـل وأتبـاع الهـوى اللعين ولـذا قال تعالى ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ

---

(١) أدب الدنيا والدين الماوردى ص ٣٩ :٤١ .
(٢) سورة محمد الآية رقم ١٤.

هُدًى مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1].

فعاقبة هذا الهوى هو الضلال والخسران الذي لا يدانيه خسران، انه خراب روحي ودمار عقلي ووجداني، ونهاية أليمة يوضع صاحبها فى الهاوية، يقول سبحانه وتعالى ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾[2].

لا منفذ لهم من ضلالهم إلا التأثر بآي القرآن والتمسك بأحكامه الذين يعمهون فيه أبدا، فهم في الهوى سادرون، وعلى الضلال سائرون، وعن الجنان مبعدون. وفى النار معذبون ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[3] فالهوى جهل وانحراف عن الجادة، بل هو نذير شر كبير، وكيف لا؟ وهو يحجب المرء عن كلام ربه، وفهم آياته، والتأثر بعظاته والوقوف عند المحك من آياته، كل هذا يجعله أشر الخلق ولذا فمن يهديه من بعد الله.بالطبع لا أحد يستطيع هدايته، لأنه انحرف عن هداية الله تعالى، فالهوى ظن وتخمين وفساد وأبلسة الشيطان العين، يخيل لك الأمور بصحتها وهى فى الأصل فاسدة، يزين لك الحق باطلا والباطل حقا، ويوسوس لك على انك على الجادة فتضل ويتبع هواك وصدق الله اذ يقول ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ﴾[4] فهذا ضلال يعقبه ضلال . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

كما أن الهوى انحراف عن الحق ومنبع للأنانية والشر وقسوة القلب وانه من طول استحواذ الغفلة على الإنسان يأتى النفاق وأباطيل الشيطان وثمرة الخيانة وغلبه الأهواء لقوله تعالى ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[5] ومن هذا المنطلق يفهم أن إتباع الهوى صم الأذان عن

---

(١) سورة القصص الآية رقم ٥٠ .
(٢) سورة الروم الآية رقم ٢٩ .
(٣) سورة النازعات الآية رقم .
(٤) سورة المائدة الآية رقم ٧٧ .
(٥) نحو علم نفس إسلامي حسن الشرقاوى ص٨٦ ، الايه «المجادلة» ١٩ .

سماع الحق، وكمم الأفواه عن قول الصدق، وأغلق القلوب عن تدبر ما يملى عليها أو تراه هي بالأعين والبصائر، ومن ثم كان ذلك - أعنى الهوى - ينتج عنه الغفلة التامة حيث لأفهم ولا فقه ولا تدبر ولا تأثر بل وبما يغفل عن كل شئ في حياته. ولهذا حذر الله تعالى من الغفلة هذه، لأنها إذا زادت غلب على الطبع النسيان، وكان البعد وقسوة القلب،ومن ثم لا يوفق المرء إلى خير أبدا، وإذا غفل الإنسان فإن الله لا يغفل عن عمل الظلمة والآثمين، إن الغفلة تقود حتماً غلأي الهوى، فهي من مظاهره ومن مقدماته، كما أن الغفلة ثمرة من ثمار عدم الاستقامة، وهذا قول الله تعالى ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[1].

وعلاج هذا ذكر الله تعالى، فتذكر الله دوماً يبعد الغفلة عن القلب، ولعل أفضل الذكر تلاوة آيات القرآن الحكيم وفهم كلماته وعباراته، فإذا ما انغمس العبد فى الملذات والشهوات وأتباع أهل الأهواء، ثم امسك المصحف بيده وتلا ما فيه بقلبه وقالبه فلابد حتماً من التغير والتحول مما كان عليه من هوى وضياع إلى حال الإنس بالله والذكر الدائم له سبحانه وتعالى «واذكروا الله ذكرا كثيرا» ثم إن الذكر فى القران ياتى على عدم وجوده منها أن الذكر يقصد به القرآن الذي هو كلام الله تعالى قال سبحانه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[2] ومن ثم يحذر الله سبحانه رسوله من إتباع أهل الهوى والجهالة حتى لتكون العاقبة والنهاية وخيمة وصدق الله اذ يقول ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾[3] فهؤلاء لا يجوز الالتفاف إليهم ولا الاهتمام بهم ولا الركون إلي هؤلاء، وذلك لأنهم يبعدون عن حصر الأيمان، وملاذ النجاة وعنوان النجاح ومقصد الفلاح ألا وهو القران الكريم.

ومن تتمة القول أقول: إن إتباع الهوى والجري وراء الجهال والجهالة أمر خطير

---

(١) سورة الشورى الآية رقم ١٥.
(٢) سورة الحجر الآية رقم ٩.
(٣) سورة الكهف من الآية رقم ٢٨.

وخطره مستطير، حيث يحول بينك وبين كلام الله تعالى، فيصبح حينئذ هناك حاجز كبير بين قلبك وبين ربك، وما ذلك لشيء إلا لأنك اتبعت هواك، وآثرته علي كلام الله ﷻ، وهذا ظلم مبين للقلب بل للنفس البشرية عامة، ولو أنها مكنت من النطق لقالت بأعلى صوتها أغيثوني مما أغط فيه من ظلم الإنسان ومن ثم يورد الإنسان نفسه إلي الهلاك وصدق الله «وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون».

* * *

المبحث الثالث : قسوة القلوب

مفهوم القسوة: هذا المصطلح من المصطلحات الموجعة المؤلمة لأنه يختص بشيء داخلي في الإنسان - والذي هو موضح نظر الله - ألا وهو القلب، ولذا صدق الرسول ﷺ حين قال (ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله إلا وهي القلب) [1]

وعرفها أهلة اللغة بقولهم: (قسا فعل مصدره القساء، والقسوة هي الصلابة في كل شيء، وحجر قاسٍ أي صلب، وأرض كاسية أي مجدبة لا تنبت شيئاً، و قوله تعالى (ثم قست قلوبهم) أي غلظت ويبست، وتأويل القسوة في القلب يعنى ذهاب اللين والرحمة والخشوع منه، وقسا قلبه قسوة أي غليظ القلب وشدته وأقساه الذنب أي كان سبباً في قسوة قلبه، وأستعمل أبو حنيفة[2] القسوة في الأزمنة فقال : عام قاسٍ أي ذو جدب ولا خير فيه، وعلى ذلك تكون القسوة صفة من صفات القلب الملازمة لة والتي لا تنفك عنة أبداً، طالما كان في بعدٍ تامٍ عن كتاب الله تعالى، فحاله هكذا قسوة وغلظة وفظاظة، ودرهم قسي أي رديء ومن خلال ما سبق أستنتج أن القسوة تدور حول المعانى التالية:

(١) الغلظة والصلابة (٢) القحط والجدب (٣) الرداءة

اصطلاحا: يقصد بها غلظة القلب وصلابته وشدته، وفظاظة الفؤاد، وتحجر النفوس على كتاب الله تعالى،فهي عبارة عن ظلام حل بالقلب فحجب عنه نور القرآن الكريم.

وأسباب قسوة القلوب:

إن القسوة للقلوب داء وبيل خطير، وذو عاقبة مؤلمة على صاحبة، وذلك لأنه محروم من التأثر بكتاب الله تعالى. فالتأثر بالقران إذا ما استحوذ على القلوب، وتمكن من النفوس، فإن صاحبه - بالطبع - سيكون صاحب قلب دقيق ولين، وليس أول على ذلك

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه ج ١ / ٢٨ برقم ٥٢ ، وأخرجه مسلم في كتاب الساقاة ، باب الحلال والحرام ج ٢ / ١٢١٩ برقم ١٥٩٩ .

(٢) هو الإمام العلم أبو حنيفة النعمان بن ثابت.

مما حدث لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فرغم غلظته إلا أنة كان وقافاً عند كلام الله، فإذا ما قيلت أمامه الآية توقف وتأثر وتدبر واتعظ ووعظ، فالتأثر بالقرآن متعة وسعادة لا يشعر بها إلا من وجد حلاوتها ولذتها، وهذه لعمري غاية المنى والمطلب، ومنتهى الأمل وهذا هو المفترض في المسلم إلا أنه قد تعرض للإنسان عوارض تمنعه من هذا النعيم وتقسي قلبه حتى يسير كحجارة أو هو أقسى.

أولا : التكاسل عن أداة الطاعات:

وهذا أمر خطير فهذه الطاعات والعبادات التي يؤديها المرء لله سبحانه، تقيم في نفسه شعوراً بآيات القران الكريم، أما إذا تكاسل العبد عن هذة الطاعات وفرط فيها أحدث ذلك وحشة يجدها في قلبه، أو إن أداها مجرد حركات وسكنات لا روح فيها، فإن النتيجة واحدة لأنه يؤدها وهو يشعر بضيق وكأنه داخل سجن بأقفال وأغلال، ويود لو أنه ينتهي منها سراعاً وعلى سبيل المثال الصلاة، هي العبادة التي تجعل القلب أكثر خشوعاً لأنها تتضمن أركان الإسلام، لكنك تجد من يتكاسل عن أدائها، ومن يتكاسل عن أداء السنن والنوافل بها، ويراها وكأنها جبل يود لو أنه يرتاح منها فهي عبء ثقيل على كاهله، مثل هذا لا يتأثر قلبه بشيء ولا يجد من دوائه خير، وينطبق عليهم قول الله تعالى ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[1] مثل هذا الإنسان المتكاسل عن أداء العبادات لا يشعر بلذة ولا سعادة، لأن قلبه قاسٍ وغليظٌ، وهو لأن يستطيع أن يتأثر بالقرآن مادام على هذة الحال، ولذلك يقول ابن القيم (في القلب شعث لا يسلمه إلا الإقبال على الله ، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعر فته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقاءه، وفيه فاقه لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص إليه، ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدا»[2] وبهذا يتضح أن التثاقل عن أداء

---

(١) سورة البقرة الآية رقم ٤٥.

(٢) مدا رج السالكين الإمام ابن القيم ج ١ / ٤٧.

الطاعات والعبادات لله يقسى القلب ويبعده عن الله تعالى. ومن ثم فهو لا يتأثر بشيء مطلقا لا بالقرآن ولا بغيره.

ثانيا: الإعراض عن مواعظ القرآن :

فهذا الإنسان يسمع آيات الله تتلى، لكنه يعرض عنها وهذا الإعراض ليس عرضاً، بل نابع من القلب والوجدان داخل الإنسان، القلب متحجر أو قل أقسي من الحجارة، فأنّي لقلبٍ كهذا أن يتأثر بالقرآن!؛ يسمع الوعد والوعيد فلا يتدبر ولا يحرك ذلك عنده ساكنا، وذلك لأنه خاوي الوفاض داخل القلب، وهذا ا لسماع ما يرق له قلبه وفضلا عن أنه بعيد عن قراءة القرآن وهاجر له، فلا يخشع قلبه، ولا يخبت وصدق الله - سبحانه وتعالى إذ يقول ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [1] عندما يسمع القرآن يجد ثقلاً في السمع وانصرافاً عن القرآن الكريم مع أن الله سبحانه يقول ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [2] ومدح الله المؤمنين الذين يتأثرون بالقرآن الكريم فقال الله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [3] ولعل هذا السبب هو من أهم الأسباب لأنه قطب الرحى، وصلب الموضوع وهيهات أن تجد إنسانا يتأثر بالقرآن، لقد أصبح ذلك في زماننا عملةً نادرةً، فعدم التأثر بالقرآن يترتب عليه أمور خطيرة، من لم يؤثر فيه القرآن لا يؤثر فيه أي شيء، فالعجائب التي تمر عليه بين الحين والحين لا يتأثر بها، فهو لا يتأثر بالموت ولا الأموات، ولا الآيات الكونية من حوله، كل ذلك لم يأخذ تفكيره لحظه وذلك لأنه بعيد عن كتاب الله تعالى، عن عدم التأثر بالقرآن الكريم عدم التأثر بكل شيء مما حوله ولذا قال تعالى ﴿أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [4] فمهما فعلوا لن يصلوا إلى التأثر بأي شيء ما دامت قلوبهم خواء،

---

(١) سورة الزمر الآية رقم ٢٢ .

(٢) سورة ق الآية رقم ٤٥ .

(٣) سورة الأنفال الآية رقم ٢ .

(٤) سورة التوبة الآية رقم ١٢٦ .

وتأثرهم بالقرآن هواء، وهم في كل ذلك سواء، أما إذا عقلوا الأمر وعلموا أن القرآن أنزل للتدبر والاعتبار، فتركوا ملذات الدنيا، وتعلقت القلوب بالقرآن الكريم عندئذ يكون التأثير.

ثالثا: التعلق بالدنيا وملذاتها:

من أعظم الأسباب المؤدية إلى قسوة القلب وعدم تأثره بآي القرآن الكريم، هو هذا التعلق بالدنيا فإذا ما طغى حب الدنيا على القلب عندها يضعف الأيمان شيئاً فشيئاً ويتسرب خشوع القلب رويداً رويداً كما يتسرب الماء من الإنسان المثلوم، حتى يصل المرء على ذلك في النهاية إلى القلب الأسود الذي لا يعي شيئاً، ولا يستعد لأن يفهم شيئاً؛ وذلك لأن القسوة علت لديه، فحجبت عنه كل خير، إنه يجد لذته ومتعته في حطام الدنيا وزينتها ويزداد ولعه بها حتى ينس الآخرة أو يكاد أن ينساها ومن هنا فهذه طاقة مدمرة ومن ثم يقول تعالى﴿فَأَمَّا مَن طَغَى * ﴾وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[1] .

وإني أعتقد أن هذه الدنيا عبارة عن شهوة إذا مال الإنسان يقلبه إليها استهوته، وعندئذ تجره من سفينة إلى سفينة حتى تهلكه وتبعده عن الله تعالى، ومن ثم تصغر مكانة الله في قلبه، ولا يبالي في أي أودية الدنيا سقط، هذا العبد الذي نسى ربه، وأقبل على الدنيا مجلاً لها وكرماً لها، فعظم مالا يستحق التعظيم، واستهان بما يستحق التعظيم والإجلال والتكريم فهذا عاقبته أليمة ووخيمة وجزاؤه عند الله شديد.

يقول أحد السلف «ما من عبد إلا وله عينان في وجهة يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح العينين اللتين في قلبه، فأبصر بهما ما وعد الله بالغيب. وإذا أراد به غير ذلك تركه على ما فيه»[2] ثم قرأ قول الله ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا * إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾[3] إن المرء إذا ازداد ولعه بالدنيا فإنها تصبح همه

---

(١) سورة النازعات الآيات من ٣٧ إلي ٣٩ .

(٢) انظر مدا رج السالكين ابن القيم.

(٣) سورة محمد الآيتان ٢٤ ، ٢٥.

وشغله الشاغل، وتكون مصالحه الدنيوية ميزاناً في حبه وبغضه، وعلاقاته مع الناس، فيكون في الحسد والأنانية والبغض... ومن ثم يضعف تعظيم الله في قلبه، وتقل جذوة الأيمان في فؤاده، ولا بغضب إذا أنهكت حرمات الله، ولا يبالى بشيء سوى مطامحه الدنيوية، فهو في وحشة ضيق الصدر والفؤاد قاسٍ وبعيدٌ عن الله تعالى لا يهنأ بعيش ولا يجد طمأنينة في قلبه فيظل قلقاً متوتراً من كل شيء، وذلك لأنه صار قاسياً وقلبه متحجراً وصدق الرسول ﷺ «أبعد الناس عن الله قاسي القلب»[١] لقد كان رسول ﷺ يعد قسوة القلب وجفاء النفس وجمود العين من الشقاء، فأرق الناس أفئدةً، وألينهم قلوباً هم من يتدبرون القرآن، ويحيون متأثرين في ظلاله الوارفة بالخيرات، أو لائكهم الأكياس الفطناء أما غلاظ الأكباد والكازين والمستكبرين فهم في الدرك الأسفل من النار، ولذا خاطب الله رسوله بقوله ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[٢].

«إن القسوة في خلق إنسان دليل نقص كبير، وفى تاريخ أمة دليل فساد خطير، ولذا حذر القرآن منها واعتبرها علة الفسوق عن أمر الله وسر الشرود عن صراطه المستقيم»[٣].

فقال الله سبحانه وتعالى ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[٤].

رابعا: الغفلة:

وهى داءٌ وبيلٌ، ومرضٌ خطيرٌ إذا استحوذ على القلب ضلله، وإذا تمكن من النفوس

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه كتاب الزهد عن رسول الله باب منه ج ٤/ ٦٠٧ قال أبو عيسي حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم بن عبد الله.

(٢) سورة آل عمران الآية رقم ١٥٩ .

(٣) خلق المسلم الشيخ محمد الغزالي ص ٢١٤ .

(٤) سورة الحديد الآية رقم ١٦ .

واستأثر على الجوارح والأبد أن أدى إلى انفلاق كل أبواب الهداية، ومن ثم تقسو القلوب وتصير أشد من الحجارة وصدق الله تعالى إذ يقول ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾(١) يقول ابن القيم رحمه الله تعالى واصفاً حال أكثر الخلق «ومن تأمل حال الخلق وجدهم كلهم إلا قليل منهم ممن غفلت قلوبهم عن ذكر الله تعالى، وأتبعوا أهوائهم وصارت أمورهم ومصالحهم فرطا، أي فرطوا فيما ينفعهم ويعود بصالحهم، واشتغلوا بما لا ينفعهم بل يعود عاجلاً وآجلاً»(٢).

وأخبر الله تعالى عن أصحاب الغفلة أنهم أصحاب قلوب قاسية لا ترق ولا تلين، ولا تنتفع بشيء من المواعظ، فهي كالحجارة أو أشد قسوة، ولهم أعين يشاهدون بها ظواهر الأشياء، ولكنهم لا يبصرون بها حقائق الأمور، ولا يميزون بها بين المنافع والمضار، ولهم أذان يسمعون بها الباطل كالغناء والكذب وغيره، ولا يتنفعون بها في سماع الحق من كتاب الله وسنة رسوله فأنى لهؤلاء الفوز والسعادة والنجاة وتلك حالهم، وأنى لهم الهداية والاستقامة وتلك طريقتهم ولذا يقول تعالى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(٣).

فصاحب القلب القاسي محروم من كل هذه النعم التي بها، وجعلها طبيعة وعزيزة في بنى أدم جميعاً ولذا فإن القلب الذي يسلم من دواء الغفلة، وينتبه لما خلق له وما أعد له، ومن كل مشيهة فيها تعطيل لشرع فهذا هو القلب السليم الذي يتأثر بالقرآن الكريم، أما من كان قلبه على عكس ذلك فلا يلومن إلا نفسه، أي إنه قلب لا تضره الفتن ولا تؤثر فيه الغفلة ولا تقربه الغشاوة، فذلك هو القلب الذي يزداد إشراقاً ونوراً وإيماناً وتأثراً بكلام

---

(١) سورة الأنبياء الآيات من ١ إلى ٣ .

(٢) مدارج السالكين ابن القيم ج ٢ / ١٩٥.

(٣) سورة الأعراف الآية رقم ١٧٩ .

الله سبحانه وتعالى، ومن ثم جاء القرآن الكريم ليربى أمه، وينشىء مجتمعاً، ويقيم نظاماً، والتربية تحتاج إلى زمنٍ وإلى تأثرٍ وإلى انفعالٍ، وإلى حركة تترجم التأثر بالقرآن والانفعال به إلى واقعٍ حيٍ، والنفس البشرية بطبيعتها لا تتحول بين يوم وليلة، ولذا نزل القرآن على قلب النبي ﷺ مفصلاً مبيناً أول ما يبين عن منهجه لقلب النبي ﷺ ، ويثبته على طريق الحق وكذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا» والزميل هنا يعنى التتابع وعدم الغفلة عن القرآن، حتى نحيا القلوب بنور القرآن الكريم، وعندئذ يضاعف الله الحسنات ويمحو السيئات، ما دام قد علم أن العبد أقبل علية وتوجه بقلبه إليه، فرقّ قلبه للإيمان وتأثر بآيات القرآن، وسعد بكلام الرحمن، فخراب القلب ودماءه يكون من الغفلة وعدم الهداية والبعد عن التأثر به، وعمارة القلب تكون بقراءة القرآن والذكر والخشية من الله تعالى. ولذا قال الرسول ﷺ (.....إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد قيل وما طلائها يا رسول الله قال الذكر وقراءة القرآن) [1]. فانشغال العبد بأمور الدنيا وغفلته عن كلام ربه أمور يورده المهالك والتهلكة وكذا جلوس العبد في الأجواء الفاسدة من أكبر الأسباب المانعة من التأثر بالقرآن، وذلك لأن الإنسان سريع التأثر بمن حوله، فالطبع يرن من الطبع، وبذا يقسو القلب، ويغلظ ويعتاد على المنكرات.

خامسا: كثرة المعاصي والآثام:

من المعروف بداهة أن المسلم بل الإنسان عموماً وارد عليه الخطأ وباب التوبة أمامه لا يسد، لكن المنكر من ذلك هو أن يعتاد الإنسان على المعاصي والآثام حتى يصير هذا أمراً مألوفاً بالنسبة له، وبعده شيئا هيناً، ولذا ورد عن عبد الله بن مسعود قال «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الكافر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال: به: هكذا يعنى بيده فوق أنفة»[2] ويعد فعل المعاصي والآثام والاعتياد عليها عقبة كئود في تعرف القلب على مقلبه وهو الله، ومن ثم فإن هناك جفاء بين قلبه وبين

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ، التاسع عشر منه وهو باب في تعظيم القرآن ، فصل في إدمان تلاوة القرآن ج ٢ / ٣٥٢ برقم ٢٠١٤ . وقال ابن الجوزي في العلل المتناهية هذا حديث مشهور ج ٢ / ٨٢٣ .
(٢) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات باب التوبة ج ٤ / ٩٨ ، وأخرجه الترمذي بنحوه .

القرآن، لأنه أي المعاصي بعيد عن الله تعالى، والمعاصي مجلبة للشقاء العاجل في الدنيا والآخرة، وفى هذا يقول الرسول «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكته سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زبد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي قال الله ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1].

وفى ذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما «إن للحسنة ضياءً في الوجه ونوراً في القلب، وسعةً في الرزق، وقوةً في البدن ومحبةً في قلوب الخلق، وإن للسيئة سواداً في الوجه، وظلمةً في القلب، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضةً في قلوب الخلق»[2] فالمعصية مهما كانت صغيرة فإنها تمهد لأختها الطريقة حتى تتابع المعاصي ويهون أمرها.

ولا يدرك صاحبها خطر ذلك إلا ساعة أن تزل قدمه، ويسود قلبه، ويظلم فؤاده، حتى أنه لا يبالي بالمعصية، ولا يقدر علي مفارقتها، ومن ثم يكون خطر المعصية حيث أنها تضعف في قلبه تعظيم الله وتعظيم حرماته، كما أنها تضعف في قلبه إلي الله وتجعل عائقاً وطريقاً مسدوداً بينه وبين كتاب الله وهذه هي الأقفال التي ذكرها القرآن(أم علي قلوب أقفالها) وإن قسوة القلوب هي في تقديري أعظم عقوبة يعاقب بها العاصي، وذلك لحرمانه من كل المتع الإيمانية التي لا تحس مادياً بل تدرك بالقلوب وتستشعرها البصائر، ومن كلام ابن القيم (ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب) والبعد عن الله خلقت النار لإذابة القلوب القاسية، وإذا قسا القلب قحطت العين، وقسوة القلب من أربعة إذا جاوزت قدر الحاجة - الأكل، والنوم ، والكلام ، والمخالطة . كما أن البدن إذا مرض لم ينفع معه الطعام والشراب، فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجح فيه المواعظ، فمن أراد صفاء قلبه فليؤثر الله علي شهواته، القلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها (القلوب آنية الله في أرضة، فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها، شغلوا قلوبهم بالدنيا، ولو شغلوها بالله والدار الآخرة لجالت في معاني كلامه وآياته المشهودة، ورجعت إلي أصحابها بغرائب الحكم وطرف الفوائد، إذا غذي القلب

(١) أخرجه البخاري كتاب الدعوات باب التوبة ج ٤ / ٩٨ .
(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ابن القيم ص ٧٤.

بالتفكر والتذكر ونقي من الدغل - أي المعاصي - الفساد - رأي العجائب وألهم الحكمة ليس كل من تحلي بالمعرفة والحكمة وأنتحلها كان من أهلها، بل أهل المعرفة والحكمة الذين أحيوا قلوبهم بقتل الهوي، فالمعرفة والحكمة عارية علي لسانه»[1].

وعلي ذلك يعلم مما سبق أن قسوة القلوب مانعٌ قويٌ من موانع تأثر القلب بالقرآن، وحاجزٌ منيعٌ يحجز القلب عن فوائد القرآن وعن التأثر بآياتها النيرات، ومن هنا كان لزاماً علي كل مسلم يبغي الخير لدينه ونفسه أن يحيا بقلبٍ بعيدٍ عن القسوة والغلظة والفظاظة، وقبل أن أنتقل إلى علاج هذة القسوة للقلوب يجدر بي أن أسجل هنا ألفاظاً ذكرها القرآن هي من لوازم قسوة القلوب أو إن شئت فقل هي نتائج للقسوة أو من مظاهرها وعواقبها وخطرها. ألا وهى الطبع والختم.

اقسام القلوب في القرآن:

أنى أري من خلال حفظي للقرآن الكريم، وقراءتي لكتاب الله تعالى أن القلوب في القرآن قد انتظمت أنواعاً ثلاثة: (قلبٌ سليمٌ - قلبٌ ميتٌ - قلبٌ مريضٌ).

اولا: القلب السليم: وهو ذاك القلب الذي يتأثر بالقرآن، ويبتهج فرحاً وسروراً عند قراءته أو الاستماع إليه، وهذا القلب سمي سليماً لأنه معافى من كل ما يصد عن كتاب الله تعالى، وهذا القلب ذكر في القرآن الكريم بأوصافٍ عظيمةٍ منها قوله تعالى ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2] إنه قلب سليم يدرك به كنه الأشياء ويتفكر فيها كما ينبغي، فهذا القلب لا علة لديه تحجزه عن الفهم والتدبر والاعتبار، وليست هناك موانع تحول دون التأثر بكتاب الله ﷻ.

ثانيا: القلب المريض: وهو قلب يؤمن بالله ورسوله «وهو مادة حياته» ولكنه يؤثر شهواته وحب الدنيا على محبه الله «وهو مادة هلاكه ودماءه» وهذا القلب مبتلى بين داعيين داعٍ يدعوا الله ورسوله وداعٍ يدعو إلى الدنيا وشهواتها والركون إليها «تعرض الفتن على

---

(١) الفوائد ابن القيم ص ١٣٥ ، مرجع سابق .
(٢) سورة الشعراء الآيتان رقمي ٨٨ ، ٨٩ .

القلوب كعرض الحصير عوداً عوداً فأي قلب أشربها نكتت فيه نكته سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكته بيضاء حتى تعود القلوب إلى قلبين قلب أسود مرباداً كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه، وقلب أبيض فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، وهذا القلب ضعيف ويتأثر بسرعة بالفتن فيزداد مرضاً فوق مرضه، والفتن التي تعرض له هي فتن الشهوات والشبهات والملذات، وفتن الجهل والظلم والبغي والفساد. وهو في الوقت نفسه متأثرٌ بالقرآن بقدر ما به من علـه، أعنى أن صاحب القلب المريض يكون تأثره بالقرآن على قدر ما بقلبه من صحة، وعدم تأثره به على قدر ما بقلبه من آفات وعلل، فالقلوب تعترى لها الأمراض كما تعترى الأجساد، ولقد ذكر الله هذا القلب في القرآن بأوصاف منها ما يلي.

قال الله تعالى ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[1] وهذا في شأن المنافقين وقال تعالى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[2] وهذا دلالته على المرض القلبي

وقال تعالى ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ﴾[3].

وهذا المرض مهلك وهو أشد من الأمراض العضوية، ولذا فهو لا يتأثر بالقرآن الكريم لا بالقراءة ولا بالسماع.

ثالثاً: القلب الميت: وهذا أشد أنواع القلوب خطراً وهذا ما أسميه القلب القاسي. وهو قلب المشرك والكافر والعياذ بالله ومن دخل في دائرتهم، فهذا القلب يعبد لذاته وشهواته فهو إن أحب أحب لشهواته وهواه، وإن أبغض لهواه، وإن أعطى وإن منع فبرغبته، فالهوى إمامه وغايته، والشهوة قوته الدافعة والجهل قائده، فهذا القلب غايته فاسدة ووسيلته فاسدة ومنهاجه فاسد، وهذا القلب لا علاقة له بالقرآن من قريبٍ أو بعيدٍ لا تأثيراً ولا تأثراً إلا من أراد الله له الهداية ووقفه إلى ذلك، ويسر له أسباب التأثر

---

(١) سورة البقرة الآية رقم ١٠ .

(٢) سورة التوبة الآية رقم ١٢٥

(٣) سورة محمد الآية رقم ٢٩ .

بالقرآن كأنه يلين الله قلبه عند سماعه لآية من كتاب الله تعالى، وهذا القلب القاسي الميت من كل معاني التأثر والانفعال ذكر القرآن بأوصاف كثيرة منها.

وصف بالعمى للبصيرة في قوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1] ووصف بالغلف واللعنة فقال تعالى ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللهَّ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾[2] ووصف القسوة ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِّ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[3].

ووصف بالطبع حيث قال الله تعالى ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ﴾[4].

ووصف بالختم حيث قال تعالى ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ﴾[5].

وقبل أن أفارق هذه النقطة أفرق بين هذة الأوصاف القسوة - الطبع - الختم. أما القسوة فقد سبق تعريفها، والطبع يعنى: ما طبع على القلب وهو بمثابة الغلق فلا يعقل القلب معه شيء، ولا يترك الطبع له أن يفهم شيئا.

والختم: هو شيء مرسوم يوضع على القلب بمثابة الخاتم يمنعه من الأنفعال والتأثر بالقرآن.

علاج قسوة القلوب:

في نهاية هذا المبحث يجدر بي أن أجعل هذا المانع الذي هو حائل بين العبد وبين التأثر

---

(١) سورة الحج الآية رقم ٤٦ .
(٢) سورة البقرة الآية رقم ٨٨.
(٣) سورة البقرة الآية رقم ٧٤.
(٤) سورة التوبة من الآية رقم ٨٧ .
(٥) سورة البقرة الآية رقم ٧ .

القرآن إلى قلب يتدبر كلام الله ويتأثر به «فالقلب يمرض كما تمرض الأبدان وشفاؤه في التوبة، ويصدأ كما تصدأ المرآة وجلاؤه بالذكر، ويعرى كما يعرى الجسم وزينته التقوى ويجوع ويظمأ كما يجوع البدن وطعامه وشرابه المحبة والمعرفة والتوكل والانابة إلى الله»[1].

وأني أذكر هنا بعد فحص المرض - السبل التي تجعل المرء ذا قلبٍ رقيقٍ منكسرٍ خاشعٍ لله تعالى متأثر بالقرآن الكريم، بعد أن كان معرضاً عنه، إن نعمة دقة القلب من أجل النعم وأعظمها، وما من قلب يحرم هذه النعمة إلا كان صاحبه موعوداً بعذاب الله، ﴿ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله «وما دق قلب لله وانكسر إلا كان صاحبة سباقا إلى الخيرات، مثمراً إلى الطاعات، حريصاً على طاعة الله ومحبته مبتعداً عن معصية الله وسخطه. وهالك بعض الأمور.

١ - التدبر في آيات القرآن الكريم.

إذ بالداء يعرف أحياناً الدواء، وقد يكون العلاج من جنس المرض، فالتفكر في آيات القرآن في وعده ووعيده وأمره ونهيه، إذا ما قرأها العبد وكان حاضر القلب غير غائب عنه مفكرا متأملا، إذا كان على هذا الحال إلا ونجد عينه تدمع وقلبه يخشع، وفؤاده يلتاع، ونفسه تتوهج إيمانا من أعماقها تريد السير إلى ربها وما نجد مسلماً يقرأ القرآن يتدبر أو يستمع إليه كذلك إلا وجدته رقيق المشاعر رقيق القلب، قد خطف قلبه واقشعر جلده من خشية الله قال تعالى ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾[2].

فجلاء القلوب من صداها قراءة القرآن والتأثر به، والانفعال التام مع آياته وأحكامه إذ بالقرآن تهدأ النفوس، وتستقر القلوب فلا ترتاع ولا تخاف، ومن هنا يكون العلاج الناجع لقسوة القلوب، وغلظة النفوس وبعدها عن كتاب الله تعالى.

---

(١) الفوائد ابن القيم ص ١٣٥ مرجع سابق.
(٢) سورة الزمر الآية رقم ٢٣.

٢ - التذكر والتفكر في الآخرة ومقدماتها:

إن تذكر الموت والقبر وحضور الجنائز، مما يرقق القلب ويلين الفؤاد، ولعمري إنه ليوقظ النفس من نومها، ويوقفها من رقدتها، وينبهها من غفلتها، فتعود إلى رياض القرآن، وترق للآيات البينات، ومن ثم كان سعد بن جبير يقول «لو فارق ذكر الموت قلبي لخشيت أن يفسد على قلبي» ومما يرقق القلب أيضا النظر والاعتبار من الآيات التي تتحدث عن القبور وأهوالها، وما يلاقيه المسلم فيها بعد موته ودفنه وكيف تعير الأجساد تحت التراب، وكيف كانت هذه الأجساد تأكل وتتنعم وتتلذذ بكل أنواع المتع والملذات فأصبحوا تراباً فى قبورهم، وتركوا ما ملكوه لأولادهم، ويتذكر أن مصيره مصيرهم، ومآله مثل مآلهم، فتصبح عظة ترق لها القلوب، ولذا قال سيد الخلق **«ألا قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها، فإنها ترق القلب، وتدمع العين، وتذكر الآخرة، ولا تقولوا هجرا»** ولا ينسى ذكر الجنة والبعث والحشر والوقوف بين يدي الله تعالى وما أعده الله للطائعين من جنات نعيم، وما أعده للوصاة من الجحيم، فيرق قلبه ويهدأ فؤاده ويترك النوم جفونه، ومن ثم تتحرك الهمم الساكنة والعزائم الفاترة، فتقبل على ربها إقبال المنيب الصادق وعندئذ يرق قلبه ويتلذذ متمتعاً بآيات القرآن يسمعها أو يقرأها.

٣ - معرفة الله تعالى:

إن العبد إذا عرف ربه ووثق الصلة بينه وبين خالق رق قلبه لا محالة، ومن جهل ربه قسا قلبه، وما وجدت قلبا قاسيا إلا وصاحبة أجهل العباد بالله وكما عظم الجهل بالله كلما كان العبد أكثر جرأة على حدود الله ومحارمه، وكلما وجدت العبد في تفكر دائم وإقبال على الله تجد في قلبه رقة، وهذا حق لا يحتاج إلى كثرة تذليل أو تأويل ولذا قال ابن القيم «من وطن قلبه عند ربه سكن واستراح، ومن أرسله في ألقاس اضطرب واشتد به القلق، لا تدخل محبة الله في قلب فيه حب الدنيا إلا كما يدخل الجسم في سم الخياط.

كما أن ذكر الله تعالى ومعرفته دواء للقاسية قلوبهم من ذكر الله، فإن للقلوب قسوة لا يذبها إلا ذكر الله، ولذا سئل الحسن يا أبا سعيد أشكوا إليك قسوة قلبي: قال أذبه بذكر الله، فإذا ذكر الله تعالى ذابت القسوة كما يذوب الرصاص في النار تماما.

المبحث الرابع: بعض الأمراض الباطنية من مثل الغضب، القلق:

أولاً: الغضب: حقيقته:

في اللغة «غضب غضباً أي جزع» والغضب: نقيض الرضا وقد غضب عليه غضباً ومغضبة أي لم يرض عن هذا إذا كان حياً فيقال غضب عليه.

أما إذا كان ميتاً فيقال غضب به، وقال ابن عرفه: الغضب من المخلوقين شيء بداخل قلوبهم ومنه محمود ومذموم، فالمذموم ما كان في غير الحق، والمحمود ما كان في جانب الدين والحق.

وأما غضب الله فهو إنكاره علي من عصاه، وسخطه عليه فيعاقبه به[1]، ومن ثم يفهم أن الغضب ـ من خلال التعريف اللغوي ـ يوحي بغلق القلب عن الفهم والتدبر وهذا هو السر الذي يمنع القلب عن تدبر القرآن والتأثر به،فالغضب يغلقه ويمنعه من ذلك.

اصطلاحاً: الغضب عبارة عن شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة التي تطلع علي الأفئدة وإنها لمستكنة في طي الفؤاد، إستكنان الجمر تحت الرماد، ويستخرجها الكبر الدفين في قلب كل جبار عنيد، وقد انكشف للناظرين بنور اليقين أن الإنسان ينزع منه عرق إلي الشيطان اللعين، فمن استفزته نار الغضب فقد قويت فيه قرابة الشيطان حيث قال الله تعالى ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ خلقتني من نار وخلقته من طين «فإن شأن الطين السكون والوقار، وشأن النار التلظي والاستعار، والحركة والإضراب»[2] بالجملة فإن الغضب نار تؤجج في القلب، فهل يعقل أن يفهم الإنسان مع الغضب شيئا بالطبع لا. لأن الغضب مرض دقيق داخل القلب يظل به حتى يقضى عليه، فلا يعيا يتأثر ولا تدبر ولا خلافة، فالغضب في نظري - الذي لا تعصمه التقوى، ولا تحده مبادىء يلتزم بها الإنسان، ويأخذ نفسه بها

---

(١) لسان العرب ابن منظور ج ٦ / ١٥٤ . مرجع سابق.

(٢) إحياء علوم الدين الإمام الغزالي ج ٣ / ١٧٥ ، مرجع سابق.

خوفا من ربه سبحانه، ورغبه في رضاه، ونيل ثوابه هو داء وبيل وشر مستطير يجب الإقلاع عنه فورا، فقوة الغضب محلها القلب الذي هو محل التأثر بالقرآن الكريم، فلحظة أن يكون الغضب حاجزا يمنع القلب من التأثر بالقرآن، والعكس بالعكس يذكر «فهو غليان دم القلب بطلب الانتقام، وإنما تتوجه هذه القوة عند ثوراتها ألي دفع المؤذيات قبل وقوعها. وإلى التشفي والانتقام بعد وقوعها، والانتقام قوت هذه القوة وشهوتها وفيه لذتها ولا تسكن إلا به»[1].

أنواع الغضب وعلاقته بالتدبر القرآني:

في حين أن الغضب مذموم ومرذول وآثاره سيئة، ويقتل كل معنى جميل في الإنسان إلا أنه في بعض الأحيان لا بد منه، وهذا بما حدا ببعض علمائنا أن يقولوا غضب مذموم وآخر محمود، وهذا بنوعية له علاقة بتأثر القلب بالقرآن فكلاهما يؤثر وإن كان التأثير متفاوتا.

النوع الأول: الغضب المحمود: إن المقصود بالغضب المحمود هذا هو الغضب على أسس إسلامية أهمها التقوى والخوف من الله تعالى، وقد ذكر الله في القرآن جانبا من هذا حيث قال ﷺ **﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ.......الآية﴾** فهذه الشدة على الكفار محمودة وهى في الوقت ذاته لا تقف حاجزاً بين القلب وبين التأثر بالقرآن إلا بنسبة ضئيلة جدا لا تكاد تذكر، فالغضب طبعي في كل إنسان، بل وفى كل حيوان، فقد تجد الأفعى رغم وداعتها لكنها إذا ما غضبت انقضت تقتل وتفتك، وكذا الجمل عندما يثور ويغضب، فمن اعتدى عليه لا بد له من الغضب، وإلا كان متبلد الفتور عديم الإحساس، وهكذا يكون الغضب محموداً، وذلك بشهادة حتى من كان معهم الغضب وهم الكفرة، فيقول «**روبنسون**»[2] عن محمد – وعن الذين معه «إن شيعة محمد. هم وحدهم الذين جمعوا بين محاسنه الأجانب ومحبة انتشار دينهم، وبهذه العاطفة اندفعوا في سبيل الفتح، وكان القرآن ينشر جناحيه خلف الجيوش

---

(١) المرجع نفسه ج ٣/ ١٧٧ .

(٢) هو عالم أمريكي وباحث في علم الاجتماع .

الإسلامية الظافرة، فإذا أغاروا على الشام أو انقضاض الصواعق على أفريقيا الشمالية من البحر إلى المحيط فأنهم لم يتركوا أبدا أثرا للعسف في طريقهم، وذلك يفضل قائدهم ورائدهم محمد، وفضل القرآن وتعاليمه. ولعل المتأمل في كلام روبنسون يلحظ أنه قال «وكان القرآن ينشر جناحيه» وهذا في رأى يعد تمشيا مع القرآني، فكأنهم وهم في شدة غضبهم على الكفار ولا يغيب عنهم الهدى القرآني، فهو غضب معصوم بالقرآن الكريم. وكل هذا يؤكد على أن الشدة والغلظة على الكفار محمودة وهى في ذات الوقت مشروطة بعدم الإفراط وأتباع تعاليم الإسلام، ترى هل لهم أن يصفوا الرسول بهذا الوصف إلا لأنهم رأوا فيه الغضب المحمود والمحدود بحدود الإسلام وتعاليمه، فمن أُكل حقه أو هُضم أو اعتُدى على ماله ودينه فأنه يغضب، ويقوم بكل المحاولات المستطلعة ليدفع سبب الغضب هذا، ويبذل كل ما بوسعه لإنقاذ أهلة وماله، وهذا غضب محمود، بل إني أقول إنه واجبٌ حينئذٍ، ولكن على الإنسان أن يتصرف حين يغضب هذا الغضب في حدود ما يسمح به دينه، أو في حدود ما يعتبر كمالاً في دينه، فهو يعطى ثمرة التأني الذي يعطى النفس التفكير فيما يعمله.

النوع الثاني: الغضب المرذول.

هو الغضب الذي نهى الله تبارك وتعالى عنة حيث قال سبحانه ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾[1].

فالغضب المذموم ما كان غضبا لأشخاص بأعينهم ولعل الزمان الذي تحيا فيه مليء بهذه النماذج التي تغضب لنفسها وزويها، ففتحوا للشعب المنافي والسجون والمعتقلات وعلقوا المشانق لمن لا يدين لهم بولاء، وخير مثال على ذلك إسرائيل مع فلسطين فمن لم يعتم له إنسان فغضب، أو لم يقدم الناس على غيرة فغضب، كما وصف الله حمية جاهلية، وغضب مذموم ومرذول، ونفحة شيطانيه، وجريمة في حق الإنسانية وهو قبل كل شيء

(١) سورة الفتح الآية رقم ١٩.

يغلق القلب عن التدبر والفهم، ليس من القرآن وحدة بل من كل شيء ولذلك فإن المتأمل في وصايا الرسول ﷺ يجد معظمها «لا تغضب» حتى أنه كرر هذه الوصية لأناس اختلفت أحوالهم وأحوال أسئلتهم، ومع ذلك كان الجواب لا تغضب ولعل السر في هذا والله أعلم.

هو إن الغضب أصل كل شر، فمن استحوذ عليه الغضب حتى تمكن من نفسه وقلبه فإنه يظل به هكذا حتى يقتله أو يقتل قلبه، ويصبح حينئذ امرؤ بلا قلب، فهو خاوي الوفاض، لا خير منه. فلقد ذم الله الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب بالباطل، ومدح المؤمنين بما أنزل عليهم السكينة فقال تعالى « فأنزل الله سكينه» وما كان رسول الله ﷺ يغضب لنفسه قط فعن عائشة ؓ قالت (ما انتقم رسول الله لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله فيغضب لله ﷻ)[1] وقد ذم الرسول هذا الغضب في أحاديث كثيرة منها:

١ - عن أبى هريرة أن رجلا سأل رسول الله فقال مرني بعمل وأقلل قال الرسول ﷺ « لا تغضب» [2]

٢ - عن ابن مسعود قال قال النبي ﷺ ما تعدون الصرعة فيكم قالوا من لا تغلبه الرجال قال الرسول ﷺ « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يمسك نفسه عند الغضب»[3].

*** أهم مظاهر الغضب التي تمنع من التأثر بالقرآن.**

مما سبق بيانه من الحديث عن الغضب وحقيقته يتضح أنه يظهر جلياً واضحاً في مظاهر متنوعة ومن أهم هذه المظاهر.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ ج ٣ / ١٣٠٦ برقم ٣٣٧٦، وأخرجه مسلم كتاب الفضائل باب مباعدته ﷺ للآثام برقم ٣٣٢٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المناقب، باب ذكر أصهار النبي ﷺ ج ٣ / ١٣٤٦ . برقم ٣٥٢٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الآداب، باب الحذر من الغضب ج ٥ / ٢٢٧٦ برقم ٥٧٦٣.

اولا: الحقد: أولى مظاهر الغضب الذي يتولد عنه فهو داء يصيب القلب من جراء الغضب الذي ينشر جناحه على جميع أركان الإنسان، ومن ثم لا يجد موضعا فيه لتدبر القرآن، وعليه ينتج من جراء هذا الحقد الذي يكون داخل القلب، ولكن ما حقيقة هذا الحقد.

الحقد: هو إمساك العداوة واختزانها داخل القلب حتى تسنح فرصة الانتقام وهو مرض له آثاره المدمرة في نفس الحاقد والمعرقلة لمسيرة التأثر بالقرآن داخل الوجدان الانسانى، فالحقد يشغل القلب ويتعب الأعصاب، ويقلق البال ويذهب النوم من العين بسببه، وقد تَظْلَمُّ الدنيا على سعتها أمام الحاقد كأنه لا يرى شيئا وذلك بسبب الحقد، فهو يطمس كل معلم للخير، ويدمر الكيان الانسانى، ومن ثم وصف الله المؤمنين بخلوهم من هذا الداء العضال فقال سبحانه ﴿**وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ (١) فهذا الحقد يشل كل زهرة للإيمان، ويقتل ويطمس كل معلم للإسلام، وكأنه نذير خراب ودمار، ومن ثم تراه عبوساً مظلم الوجه، كئيبا منتفخ العين كأنه نذير صاعقة أو عاصفة، ومن كان هذا حاله فلا يستقيم قلبه مع القرآن الكريم لا تأثراً ولا تدبراً. ومن ثمّ فإن القلب والعقل كله ينصرف إلي الغل، وبذلك يفوت على صاحبة التأثر بالقرآن الكريم.، فليس هناك أروح للمرء ولا أطرد لهمومه وكروبه من أن يعيش سليم الصدر، مبرأً من وساوس الضغائن والأحقاد، فاصفح الصفح تجاه الناس، متأثراً بالقرآن فلتدبره مكان في قلبة لا سيما أن الحقد شر، والشر إذا تكن من القلوب فتنافر ودها، وانكسرت زجاجتها ارتد الناس إلى حال من القسوة والعناد، وهنا يكن الخطر، ولذا يتيقظ الإسلام لبوادر الجفاء فلاحقها بالعلاج قبل أن يستفحل الخطر، ويتحول الأمر إلى عداوة فاجرة نريد إلى إغلاق القلب تماما عن هداية القرآن. وقد عبر الإسلام من دلائل الصغار وخسة الطبيعة، أن يرسب الغل في أعماق النفس فلا يخرج منه، بل يظل يموج الغل في جوانب القلب ويموج فيها ويعود تماماً كالبركان الهائج. والعياذ بالله تعالى.

---

(١) سورة الحشر الآية رقم ١٠.

ثانيا: الحسد: هو مرض نفسي يصيب الكيان النفسي عندما يري نعمة تنساق إلي أحد وهو لا يرضي بها ، ومن هذا المنطلق يحدث داخله هياج ناري يكاد يتفتق القلب منه غيظا.

والحسد هذا يتولد من الحقد الذي تولد من الغضب، لكن هذا الحسد له حالتان:

الحالة الأولي : أن تكره النعمة وتحب زوالها وهذا حسد وهذا مذموم .

الحالة الثانية: أن لا تكره زوالها ولكن تتمني مثلها وهذه غبطه وهذا محمود .

«لقد أصبح الناس في زمان ملئت قلوب العباد فيه بالحسد، وغلب عليهم اللؤم حتى جري منهم مجري الدم من العروق، ولعل سبب الحسد هو «عدم النعمة التي يصير بها مثل المحسود أو أفضل منه، فإن ذلك يوجب كراهية الحاسد لأن يكافئه المحسود أو يتفضل عليه»[1].

والحسد يكون ـ غالبا ـ من الأنفس الخبيثة، ويكون بالعين والظلم باللسان واليد وغير ذلك، وهو داء عضال وقد ذمه الله في القرآن الكريم، وكذلك كرهه رسول الله ﷺ ومن ذلك ما يلي:

أولا: ما جاء في القرآن بشأن الحسد: لقد حرم الله الحسد تحريماً قاطعاً، ومن يتأمل الآيات التي تحدثت عن هذا سيلحظ أن الحسد من صفات المنافقين والكافرين وضعاف الإيمان الذي لا يتحملون أن يروا نعمة الله على أخوان لهم في الدين . يقول تعالى ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2] والواضح من خلال الآية أن أهل الكتاب من يهود ونصارى يحسدون الذين أوتوا الأيمان ووهبهم الله نعمة الإسلام، فهم يودون لو عادوا إلي كفرهم وبئس ما يفعلون، وعلي هذا أقول أن الحسد من طبيعة الكافرين وأهل الكتاب فكيف يستقيم عقلاً أن يجتمع في قلب

---

(١) فتاوي ابن تيمية ج ١٤ / ٢٢٤ .

(٢) سورة البقرة الآية رقم ١٠٩ .

واحدٍ تدبر بالقرآن والحسد، أنهما في نظري ضدان لا يجتمعان .

وفي شأن المنافقين يقول الله تعالى ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾(١).

فالمنافق لا يعي شيئا من القرآن في قلبه وذلك لأنه طبخة شيطانية معقدة. لا يستقيم في قلبه شيئا سريع التقلب والتغير. ولعل الحسد هذا هو الذي كان سببا في أول جريمة يرتكب في حق الإنسانية وأول جريمة تقع على وجه الأرض وهى قصة ولدي أدم علية السلام. والذي يقرأ القصة يتدبر وتأمل يلحظ كيف يفعل الحسد بصاحبة؟ كيف يعمر البصر؟ وكيف بغلق الرحمة عن القلب؟ ويغلق بالشر، ويدفعه إلى الانتقام بصاحبه؟ والقرآن يذكر ذلك في أسلوب مؤثر ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ﴾(٢) فالملاحظ أن ابن آدم قتل أخاه بسبب الحسد الذي أكل فؤاده، وأعمى بصرة، وملك عليه مشاعره، فلم تهدأ نفسه حتى وجد أخاه جثة هامدة بين يديه، كما أخبر القرآن. ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٣).

والواضح أن الدافع في القصة للقتل هو الحسد الذي أكل القلوب من الغيظ، وسيطر على الأفئدة فيها كل شر، وما ذلك إلا بسبب الحسد البغيض والمذموم الذي نهى الله تعالى عنه، فهل يعقل بعد هذا العرض القرآني أن نعى أن التأثر بالقرآن يمكن أن يحدث التأثر مع هذا الأمراض المتوطنة داخل القلب وفى الفؤاد، بالطبع لا. ولذا أمر الله رسوله ﷺ والمؤمنين إن يستعيذوا من الحسد إذا ما ظهر أثره، واستشري بين الناس شره، وبدأ صاحبة يكشر عن أنيابة وينتقم من المحسود فقال الله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾(٤) هذا في شأن الرسول، وللمؤمنين قوله «ومن شر حاسد إذا حسد».

---

(١) سورة آل عمران الآية رقم ١٢٠ .

(٢) سورة المائدة الآيتان رقمي ٢٨ ، ٢٩ .

(٣) سورة المائدة الآية رقم ٣٠ .

(٤) سورة الفلق كاملة.

ثانيا: أحاديث الرسول: وهى كثيرة جدا منها على سبيل المثال. قال الرسول «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث..... إلى قوله ولا تحاسدوا..»[1] وقوله «إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[2] .

وهناك نوع من الحسد لا يكاد ينفك عن القلب أبدا وهو حب زوال النعمة عن إنسان لا يستطيع الحاسد له أن يصل إلى ما هو فيه من نعمة، ولكن لتقواه وخوفه من الله لو مكن من المحسود واستطاع إزالة نعمته فإنه لا يفعل، وكل هذا يحول بين القلب وبين تأثره بالقرآن.

علاج الغضب ومظاهره حتى يتسنى له التأثر بالقرآن:.

من الأهمية بمكان أن أوضح ما يفعله بعض الجهال حين يسمون الغضب شجاعة وقوة ورجولة؛ وعزة نفس وكبر همة، وغير ذلك من هذه الخرافات، ولقد ذكر الإمام الغزالي عدة أمور تقضي علي الغضب منها :

(١) أن يكظم غيظه امتثالا لأمر الله تعالى.

(٢)أن يخوف نفسه بقدرة الله تعالى .

(٣) أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام.

(٤) أن يتذكر قبح صورته عند الغضب.

(٥) أن يعلم أن هذا مغضبه لله[3].

كما أنه وردعن رسول الله في علاج الغضب أحاديث كثيرة لا تقل رتبتها عن رتبة الحسن أن الغضب يعالج بالوضوء والغسل وتعليل ذلك أن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار ولا تطفئ النار إلا بالماء، وذلك حديث رسول الله «**إن الغضب**

---

(١) أخرجه البخاري كتاب النكاح باب لا يخطب من خطب أخيه حتى ينكح او يدع ج ٥ / ١٩٧٦ برقم ٤٨٤٩.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الأدب باب في الحسد ، ج٢ / ٦٩٣ ،

(٣) إحياء علوم الدين ج ٣ ١٨٥

من الشيطان وإن الشيطان من النار، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ»[1] ولعل هذا أول مراحل العلاج الوضوء وثاني الأمور تفيد الوضع الذي يكون عليه الغاضب، بحيث إذا كان واقفا فليجلس أو يضطجع ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، وورد عن رسول الله قوله «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع»[2].

والاستعاذة بالله تعالى من الشيطان تذهبه ولا تبق له من باقية، ومن ثم تدرك أن ما يقوله علماء النفس اليوم من علاج الغضب والانفعالات الضارة هو شيء جاء به الرسول الأعظم من أربعة عشر قرنا من الزمان، فلينتبه الناس إلي دينهم ، وليعلموا أنه لم يترك كبيرة ولا صغيرة إلا وأوضحها أو أشار إليها، فليحاول الجميع أن يدرس القرآن ويتأمله فأنه واجد فيه كل ما يغنيه ويكفيه.

كما أنه هناك أسبابا تعين علي تسكين الغضب .

أهمها:

(١) النظر في القرآن والتدبر لآياته، والوقوف عند أحكامه، والاتعاظ بمواعظه، والتأثر بكلماته، وهذا هو الأهم فإنه إن فعل ذلك ذهب عنه الغضب بل أن شئت قل لا يقربه أبدا .

(٢) ذكر الله تعالى علي كل حال، وهذا يدعوه إلي الخوف منه وصدق الله ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[3].

ويعني قوله: ينزغنك أي يغضبك: يعني أنه سميع بجهل من جهل، عليم بما يذهب عنه الغضب، وجاء في التوراة مكتوباً هذا النص «يا أبن آدم أذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب، فلا أمحقك فيمن أمحق»[4]. وبهذا يستبين أن الغضب شر خطير يدمر ويفتك

(١) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الأدب باب في الغضب ج ٢ / ٦٦٤ برقم ٤٧٨٤ وقال الألباني ضعيف.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الأدب باب في الغضب ج ٢ / ٦٦٤ برقم ٤٧٨٤ وقال الألباني صحيح.
(٣) سورة الأعراف الآية رقم ٢٠٠.
(٤) أدب الدنيا والدين الماوردي ص ٣١٠ ط دار الريان ط ١ ، تحقيق محمد فتحي أبو بكر ١٤٠٨ ه/ ١٩٨٨ م .

بصاحبه، حتى أنه يصل إلي غضب الله تعالى .وحكي أن بعض ملوك الفرس كتب كتابا ودفعه إلي وزيره وقال له إذا غضبت فناولنه، وكان فيه: مالك والغضب! إنما أنت بشر، ارحم من الأرض يرحمك من في السماء.

(٣) أن يتذكر ما يؤول إليه الغضب من الندم ومذمة الانتقام، ويتذكر انعطاف القلوب علي الحلم والصفح، وميل النفس إليه، فلا يضيع كل ذلك بالتنفير للناس عنه ولذلك قال رسول الله : **«ما ازداد أحد بعفو إلا عزا، فأعفو يعزكم الله»**[١] وقال بعض الحكماء البلغاء «ليس من عادة الكرام سرعة الانتقام»[٢] وكذلك لابد من علاج مظاهر الغضب من الحقد والحسد، فإنها أداتان لتدمير للإنسان إذا ما وجدا طريقها وسهامها إلى القلوب، وهما من الأمراض القلبية الخطيرة، فها يشعلان نار العداوة والبغضاء بين الأثرياء والأخوان، ويمنع المساعدة والمعاونة، ويأكل القلب حتى يميلاه إلى إنسان قاس القلب، ومن ثم فهو شرس الطبع، يبغى لغيره السوء ويكره له الخير، والحاسد والحاقد ساقط على الله تعالى في قضائه، وكاره لنعمة الله قسمها بين عباده، ومبغض لعدل الله، وهو بهذا يجنى على إيمانه ودينه بالإعدام، ويشارك إبليس في العداوة القديمة التي طرد بسببها من رحاب الله، وهذه مصيبة وهو بهذا يعيش في هم وغم وكرب وضيق وكمد وهذه كلها معاني تقتل كل معنى للتأثر بالقرآن، فهو أشد الناس خسارة، لأن الأيمان يذهب وصدق الرسول ﷺ حين قال **«لا يجتمع في قلب أمريء مسلم إيمان وحسد»** فالحسد نقيض الأيمان لا يجتمع معه في قلب مسلم،ولذا كان صاحب الحقد أخسر الناس وأشدهم خسارة، وذلك لأن غمه بنعمة الله على غيرة لا يزيل النعمة عن غيره وهو في الوقت نفسه يعذب نفسه، وتلك مصيبة دنيوية فادحة، ومن أدرك ذلك وجب أن يعالج نفسه وقلبه من هذا الداء العضال، والعلاج يكون بنقيض ما في قلبه ففي مقابل السخط يكون علاجه بالرضا بما قضي الله وقدر، ونفسه التي ترك لها الحبل على الغارب يأخذها باللوم والندم، ويحب الخير للناس جميعاً ويكره الشر لهم.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الأدب والبر والتواضع ، باب استحباب العفو والتواضع ، ج ٤ / ٢٠٠١ برقم ٢٥٨٨.

(٢) نهج البلاغة ص ١٧٨.

ثانياً: القلـــق:

ما يصاب به الإنسان من القلق والضيق والاضطرار و الإكتئاب والكرب، وكل هذه أمور تنافى الاطمئنان ونعمة الأمان، وصدق الله حين ربط التدبر للقرآن بالأمن والاطمئنان فقال سبحانه ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1]

ولكن ما حقيقة القلق: ذكر صاحب لسان العرب «أن القلق هو الانزعاج يقال بات قلقاً أي لا يستقر على حاله، والقلق هو الاضطراب، والحيرة التي تملك الإنسان»[2].

واصطلاحاً: حالة من التوتر تصيب النفس البشرية الخاوية، وهو من ألد أعدائها ومن شر ما يبتلى به الإنسان، وهو من أبرز الأمراض التي تصيب النفس البشرية وتسبب لها الشقاء والبلاء، فهي حالة من التوتر النفسي تنشأ بسبب صراع داخلي لدى الإنسان والمعروف بداهة أن النفس الإنسانية لا يستقيم أمرها إلا مع الاطمئنان والأمان وذلك مصداقاً لقوله سبحانه ﴿مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[3] فالاطمئنان علامة بارزة فى سماء التدبر والتأثر بالقرآن، والقلق علامة من علامات البعد عن القرآن وعدم تدبره ولعل خير مثال يوضح لك هذا، هو العالم الغربي الآن، «إنه يعيش حالة من الفزع والخوف والاضطراب إنه يخاف من كل شئ، خائف حتى من نفسه، ولعل هذا يؤكد لنا بما لا يدع مجالاً للشك أن القلق مانع وحائل من التأثر القرآنى ولا عجب فى ذالك فمجتمع ما حينما تشيع فيه جمود العواطف، وتفكك الروابط، وانحلال الأخلاق عند إذن يشكو الناس فيه من القلق ويسأموا من الحياة ويضجروا من العيش، ويسخطوا على الوجود كله، وخصوصاً إذا تأسس المجتمع على المادية، وفقد روح الإيمان بالله

---

(١) سورة الرعد الآية رقم ٢٨ .

(٢) لسان العرب ابن منظور .

(٣) سورة النحل الآية رقم ١٠٦ .

وبالقيم العليا»[1] ولو أخذت مثالاً على هذا فأوروبا وأمريكا خير مثال، إنهم قوم يعيشون حياة النعيم في أكمل صورة والرفاهية المطلقة لكنهم قلقي دائماً، والعجيب أنهم لا يعرفون سبب هذا القلق! ولعل السبب الجوهري وراء قلقهم هذا هو فقدانهم لروح الإيمان، افتقادهم لكلام الله تعالى الذي يطمئن القلوب، ويذكى الأفئدة، وتنشرح به الصدور ولذا قال الله سبحانه ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2].

فالمجتمع الذي يتأثر بالقرآن وينعم بتلاوته وتدبره مجتمع مطمئن نفسياً، وآمن داخلياً لأن القرآن فعل به ذلك وأداه إلى هذه النتيجة، حتى ولو كان هذا المجتمع في فاقة من العيش، إنه فقر مادي، أما غناه النفس الداخلي، فإنه يشبعه بحلاوة التدبر بالقرآن وجمال التأثر بآياته التي حرم منها كثيرون ممن ملكوا أسباب الرفاهية والحياة المادية بكامل ملذاتها ومشاربها، ورغم هذا كما يقول كولن ولسون[3] هذه الحياة التي هي الترفيه والماديات عبارة عن غطاء جميل لحالة من التقاعس والشقاء والقلق النفسي؟!!

مظاهر القلق عند أصحابه:

لهذا القلق مظاهر كثيرة ومتنوعة كلها في النهاية تنصب على عدم قراءة القرآن وفهمه وتدبر آياته ومن ثم تدخلت المدلولات فما نستطيع أن نفرق بين الألفاظ كمظهر من مظاهر القلق وبين القلق ذاته «عدا الإنسان الخاوي» لا يستطيع أن يفرق بين المدلولات الكثيرة للقلق من مثل انشغال البال الخوف،الذعر- الاكتئاب- الكرب، هي حالات تدل على القلق بصور يسيرة، ومسميات تحل أحدها محل الأخرى، وعلى أية حال فهو قلق دائم ومستمر لا ينقطع، وذلك لعدم وجود رسالة روحية»[4] وأذكر بعض المظاهر.

١- **الاكتئاب**: وهذا يعنى القلق في حقيقة الأمر إلا أن الاكتئاب لفظ عام يشمله

---

(١) الإسلام والعلم القرضاوى ص ٦٥ يتصرف.

(٢) سورة يونس الآية رقم ٥٧.

(٣) هو مفكر أمريكي.

(٤) القلق والحصر أندريه لوغال ترجمة وجيه أسعد ص١٤.

ويشمل غيره في النهاية هو تبرم وشرط على الحياة والأحياء، فقدان للذة الحياة وقتل لحلاوتها داخل القلب، إنه انغلاق على النفس وانقطاع عن الدنيا، فهذا المكتئب هو في حكم الميت.

فهذا الاكتئاب «يجعل الإنسان سجين نفسه وهو وسط المجتمع، ويحيل حياته إلى جحيم وفى يده الثروة، وبحوزته أدوات اللذة والمتعة، ولكنه يعانى عزلة نفسية، وكثيراً ما تكون عزلة مادية»[1].

وهذا الاكتئاب وإن توفر لدى الغرب من دول العالم المتقدم، فلهم في ذلك سلوى وهو عدم وجود القرآن الكريم بينهم ليتدبروه ويتأثروا بكلامه. وإن كان هذا ليس عذراً في حد ذاته إلا أنى سأسلم جدلاً به، وأتساءل ما عذر المسلم عندما يصاب بالاكتئاب وبين يديه كلام الله تعالى الذي يذهب الاكتئاب ويقضى عليه، بل إنه لا يجعل له وجود شريطة أن تلتزم وتتأثر بكلام الله تعالى، وهذا المنطق هو نفسه الذي دعا به العالم النفسي الشهير ديل كارنيجى في إحدى محاضراته، لما ذهب إليه مريض نفسي مسلم قال قولته﴾ إني أعجب لهؤلاء المسلمين كيف يمرضون مرضاً نفسياً وبين أيديهم القرآن»[2].

وهذا يؤكد على أن المسلمين عندهم الدواء والمصل الواقي من حدوث أي قلق أو إكتئاب هو ما قال الله عنه﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ولكن للأسف الشديد غفل المسلمون عنه وتركوا التأثر به فأصابهم ما أصابهم من سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون. والأمثال كثيرة ومتعددة من أناس عاشوا حياة الرقة والنعيم ولكنهم يبعدون عن القرآن وعن الإيمان، فأُصيبوا بالإكتئاب» فالإنسان المعاصر الذي عاش في أحضان الحضارة الغربية - بعيداً عن الوحي ورسالة السماء - إنسان قلق متبرم مكتئب، حتى ولو كان في جو من البحبوحة الاقتصادية، لأن عالم التكنولوجي الذي يشكل محيطه المباشر والذي فضله عن عالم الطبيعة الذي يتطور

---

(١) الإسلام وحضارة الغد القرضاوى ص ٧٧.

(٢) دع القلق وابدأ الحياة ديل كارنيجي ص ١٥٤ .

الإنسان فيه أصلاً لكنه فشل في منع القلق عنه وتوفير الاطمئنان له»[1].

ومن هنا يؤكد د/ رينيه على أن الجذور العميقة للقلق موجودة في البيئة النفسية للفرد في المجتمعات الغربية، فالمشاعر العلمية تتحرها المعلومات العلمية، وكافة الأحداث العالمية الباطلة، ومن ثم يبقى الإنسان كسفينة بلا مرساة لا قرار له ولا استقرار لديه وأصبح البحث عن معنى وصياغة مفاهيم جديدة عن الله والإنسان وبما يكون أفضل أن ينشغل به الآن عصر القلق والغربة النفسية[2].

وهناك أمثلة حية ومتجددة داخل هذا العالم الحاضر الذي ابتعد عن القرآن والتأثر به فعاش في الحيرة والاضطراب، تتخبطه الأوهام والخرافات، وينتهي الأمر بالاكتئاب، وهذا يتوفر بالخصوص لدى ما يطلقون على أنفسهم النجوم اللوامع، فهذه ريتا لربو ألمع نجمات السينما وبعد تقدمها في السن، تنحى عنها الإنسان لدرجة أنها احتفلت بعيد ميلادها وحدها دون أن يشاركها أحد[3].

وغيرها كثير ممن يعيشون هذه الحالة المزرية من حالات الاكتئاب الساخطة، ولو أن من يعانى الاكتئاب أمسك بالمصحف وقرأ فيه لزالت عنه غمته، ولفرجت كربته، ولاطمئن قلبه، وسكن فؤاداه، وإن المتأثر بالقرآن لا يكون عرضة للأمراض النفسية من مثل القلق والاكتئاب وغيره لأنه يعيش مع كلام الله ويتأثر بآياته، ويتدبر معانيه وهذا كله يجعله لا ينشغل بشئ غير الله تعالى ولعل هذا في نظري أفضل علاج لمن يعانون من الأمراض النفسية.

٢- الكرب: وهذا لون أخر من مظاهر القلق المميت الذى يعيش فيه الإنسان ويقتل فيه كل شئ جميل «فالكرب يعنى الهم والغم، والصراع والهزل، والذل والحبس»[4].

---

(١) انسانية الإنسان وبيئته د/ رينيه ديو ترجمة نبيل الطويل ص ٤٦/ ٤٧ .
(٢) المرجع نفسه ص ١٧٣ .
(٣) انظر المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة وحيد خان ص ٣٨ .
(٤) لسان العرب ص ٤٢ / ٦١١ .

فالكرب قوة تحدث توتراً وتشويهاً للشئ الذى تطبق عليه، أو هو الحالة التي تتجلى يتبادر نوع يستجيب لكل المتغيرات الكامنة»[1] إنك ترى أن المكروب عرضة للإصابة بأى شئ، ولو أن هذا المكروب استعان بالله على فك كربته لفعل، ولو أنه دعا بدعاء النبي ﷺ **«اللهم اجعل القرآن ربيع قلبي ونور بصرى»**[2] إلا فرج الله كربته وأزال همه وغمه. ولكن للأسف درج بعض الناس في عصرنا الحاضر على اللجوء إلى المهدئات وعيادات الأطباء النفسية وتركوا تماماً الأصل الذى فيه الراحة والاطمئنان والأمان، وهو كلام الله تعالى، ويا ليت الأطباء النفسيين يجعلون القرآن أهم دواء في علاجهم لمرضاهم النفسيين قبل الجلسات الكهربائية، والمهدئات الدوائية التي هدت قوى الناس، وأكلت صحتهم وعافيتهم دون جدوى، «لقد شكل الكرب موضوع غاية الباحثين فى الآونة الأخيرة، وهؤلاء الآلاف من الباحثين حاولوا توضيح عواقب هذه الظاهرة على الصحة النفسية، والجسمية الفردية،لاسيما على المجتمع بصفة عامة ولا بد من وجود حل لهذه....»[3].

والحل سهل وبسيط لهذه الأمراض التي استعصي علي هؤلاء حلها؛ هو القرآن الكريم فيه شفاء للصدور، وتفريج للكروب وترويح للنفوس التي تستأنس به وتقرأه وتفهمه، فهو كتاب للتدبر والاعتبار والاتعاظ. علماً بأنه علاج لن يكلف صاحبه شيئاً كثيراً من المال سوى جنيهين هما وهبة المصحف ثم يفتحه ويقرأ أول كلمة تقابله الحمد لله، وكيف لا يحمد الله وقد وفقه لهذا العمل إنه بحمد الله الذى هداه إلى أن يفتح المصحف ، وهذا بالمقارنة إلى تكاليف علاج الطبيب النفسي فإنها مرتفعة جداً خاصة بالنسبة إلى الناس العمال وأسرهم، ففي أفريقا وجد أن ١٢٪ من الأجازات المرضية ناجمة عن أمراض الكرب والقلق، وفى بريطانيا كان تقرير وزارة الصحة ٨٦ يؤكد أن نحو من ٨, ٢٢ مليون يوم كانت تتضاعف بسبب اضطربات يعالجها الطب النفسي، وهكذا يبدو أن مسألة كلفة الكرب و الاكتئاب تسجل معدلات كبيرة من الخسارة الاقتصادية،

---

(١) الكرب والضغط النفسي بينها مان ستورا ترجمة وجيه أسعد ص ١٥ .

(٢) أخرجه ابن حبان في الصحيح كتاب الرقائق باب الأدعية ج ٣ / ٥٢٣ برقم ٩٧٢ ، وقال شعيب الأرنؤوط صحيح .

(٣) الكرب والاكتئاب يوغال داديلى ص ٢ الترجمة العربية.

والدخل القومي لكل هذه الدول، والواضح أن ثمة خسائر فادحة تقع على الدخل لهذه الدول»[1].

كل هذه التكاليف وفى القرآن الغنية عن هذا كله، إن الإنسان المعاصر تقدم في كل مجالات الحياة المادية لكنه خسر ما يريح نفسه، ويطمئن قلبه ويهدى من روعه، ومن ثم أصيب بالقلق والكرب «فالتسلط المادي والطغيان العلمي المزعوم أصاب النفوس الإنسانية بالقلق والضياع، لقد عملت المادية على قتل المعاني الروحية في الإنسان، وتلويث فطرته، وإفساد طبيعته فعاش في فراغ روحي وسيطر عليه التوتر العصبي و الاضطرابات ولذا تراه يبحث عن الانتحار»[2] وهذا هو المظهر الثالث.

٣- الانتحار: ولعل هذا هو القيمة.... لمرض العصر المسمى القلق. وهو«مصدر يعنى القتل تقول نحر الرجل نفسه أي قتلها، ولم يستعمله الفقهاء بهذا اللفظ بل عبروا نحن يقتل الإنسان نفسه».

اصطلاحاً: قتل الإنسان نفسه وذلك نتيجة ما يشعر به من خواء روحي، وفراغ في الدنيا، فلا هدف أمامه، ولا اطمئنان لديه، وليس هناك غاية يسعى في سبيلها فيلجأ إلى إبادة نفسه.

وكل هذا المظهر يكثر وينتشر في الدول الأكثر تقدماً ومدنية والتي تعتمد على الماديات وتهمل الروحية و جعلوا ذلك هو السبيل الأسهل والأيسر لسد الفراغ الروحي الذى يشعر به، في نفس الوقت فإن المسلم لا يصل إلى هذا لأن القرآن الكريم يمنعه من هذا حيث يقول الله تعالى «**ومن قتل**..........»[3] فالقرآن يمنع الإنسان من فعل شئ يهلك به نفسه لا سيما بأن الله قال«**ولا تلقوا**.....»وقال سبحانه «**ولا تلقوا أنفسكم**......» ومن ثم كان ها الانتحار بعيداً عن مجتمع القرآن الكريم، وبعيداً عمن يتأثروا بآياته ويتبعوا محكمه.أما من ينصرف عن القرآن فإنه يعيش قلقاً مضطرباً وفى نهاية

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٠٠ .
(٢) العلم والديموقراطية في الإسلام د/ همايون كبر ص١١.
(٣) المائدة.

المطاف يؤدى به الحال إلى الانتحار فهو يتخلص من حياته لأوهى الأسباب وأضعفها، وليس هناك من سبب إلا أنه قلق... لا يجد حصناً يلوذ به، ولا يجد سداً منيعاً يحتمي به من هذا الصراع الداخلي والنفسي القاتل.

«فالمنتحر لا يجد عائلة تظله، ولا حضناً يلوذ به- أعنى الإيمان- ولا من مجتمع يحيه، لكن أغرب ما منى به المجتمع الغربي انتحار المراهقين الشباب وهم زهرات بالغة في سن الظهور»[1].

وهذه المشكلة تزداد حدة وتعقيداً في المجتمعات البعيدة عن القرآن وعن التدبر لآياته، فإن الإنسان الذى لم يهتد بهدى القرآن، ولم يستمع لآياته نشفى ما بصدره، وتزيل ما بقلبه من قلق.... فإنه لم يجد نهاية أفضل من الانتحار، ولعل الأرقام التالية توضح ذالك «ففي أمريكا النسبة المئوية لحالات الانتحار هي ما بين ١٠: ١٢ لكل ١٠٠ ألف نسمة وبذلك تكون في منتصف الخط بين الدول التي تقوم على الانتحار»[2] وفى «النمسا وألمانيا و الدنمارك والسويد...إلخ ترتفع النسبة إلى ٢٥ لكل ١٠٠ ألف شخص»علماً بأني أشعر من داخلي أن هذا الرقم متضاعف، إذ كيف يكون حال هؤلاء الذى يعيشون حياة القلق والضيق إلا الانتحار؟! علماً بأنهم لا يتوجهون إلى القرآن الكريم، ليكون الملاذ لهم مما هم فيه من فوضى وضياع واضطراب، ترى إلى هذا الحد يصل الأمر إلى الانتحار من قوم لا يعيشون مع القرآن، ولا يقيموا لهم فى قلوبهم وزنا، ومن ثم يكون مالهم وحالهم، وصدق الله «ومن أعرض.......» فليس هناك ضيق ولا كرب أشد من ضيق وكرب من يجعل بين قلبه وبين كلام ربه حائلاً ومانعاً.

أهم آثار القلق النفسي:

إن من يبتعد عن القرآن وآياته وأحكامه يصاب بالأمراض النفسية والعقلية ولكن هناك آثاراً وأعنى بها العلامات التي تظهر على القلقى من جراء هذا القلق، وهذا المرض النفسي المميت.

---

(١) الإسلام وحضارة الغد ص ٧٦ .

(٢) الانتحار هاتكوف الهيئة العالمية للترجمة ص ١٥٩ .

أ - التوهم: وأعنى به إدمان القلق، فالذى يدمن القلق ويتردد عليه بصفة ونية يشعر بأنه مريض بمرض مزمن، يجعله مشغولاً فى جميع الأحوال بالنظر إلى داخل نفسه، بدلاً من مواجهة العالم، ومحاولة التكيف معه والأخذ والرد.

ب - فقدان القدرة على الاستيعاب: وأعنى بهذه فقدان التأثر بحلاوة القرآن وانقطاع لذة التدبر لكلام الله، وهذا من أشد الآثار خطراً على أى مريض بالقلق، والمصاب بهذا المرض النفسى الذى يمنعه من أفضل الكلام وأعذب الحديث.

(ج) الاستهتار بالحياة: وذالك لأن الإنسان القلق مشتت الذهن، شارد الفكر ومن ثم فهو مستهتر بالحياة، لا تساوى عنده شيئاً، ما دام أنه يعيش حالة من التوتر العصبى، والضغط النفسى، ومن ثم فلا قرار له، ولا أمان لديه ولهذا كان القلق مانعاً وحائلاً بينه وبين التأثر بكلام الله، والتدبر لآياته وعظاته.

(ح) الجمود الذهنى: وذالك لأن القلق يشل عقله عن التفكير ويجعله يتغيب عن الوعى فترات طوال، ومن ثم كان القلق عائقاً عن التدبر للقرآن وفهم آياته، حتى إن فكر القلق فستجد أن تفكيره مشوش[1].

العلاج الإسلامي للقلق:

يتجلى هذا العلاج كله في خطوة واحدة ذكرها الله تعالى فى القرآن وهى قوله﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ فالإيمان وقراءة القرآن من أهم الأسباب التي تذهب القلق وتقضى عليه فالإنسان عندما يحس أنه يناجى ربه ويكلمه فإنه سيكون حتماً في لذة ممتعة لا تدانيها متعة، ولا تحدها حلاوة واقرأ هذه الآيات لتنعم بالهدوء والراحة والاطمئنان ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً﴾[2].

وقوله ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ

---

(١) انظر القلق الإنسانى د/ محمد إبراهيم الفيومى من ص ٧٢ :٧٥ بتصرف كبير.

(٢) سورة الإسراء الآية رقم ٨٢

وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[1].

وقوله ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾[2].

والواقع أن القرآن نزل أساساً لهداية البشرية ودعوتهم إلى التوحيد، والقضاء على ما يقض المضاجع وينفى القلق عنهم، فالقرآن إما حديث عن الإنسان أو حيث للإنسان...

وختاماً أقول: إن هذا الحديث كله عن موانع التأثر بالقرآن الكريم إنما ذكرته لتفاديه وعدم الوقوع فيه، فإذا أرادت الأمة الإسلامية الريادة والسيادة والقيادة كما قدر لها أن تكون..تتأثر بالقرآن وتحيا في هداه فعليها أن تتلافي هذه المعوقات التي تحول بينها وبين تدبرها لكلام الله ﷻ، فالقرآن سعادة للبشرية قاطبة علي اختلاف أجناسهم وألوانهم إذا أحسنوا تلاوته وفهمه وتدبره ، لأن هذا خيرها وعزها قال تعالى

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾

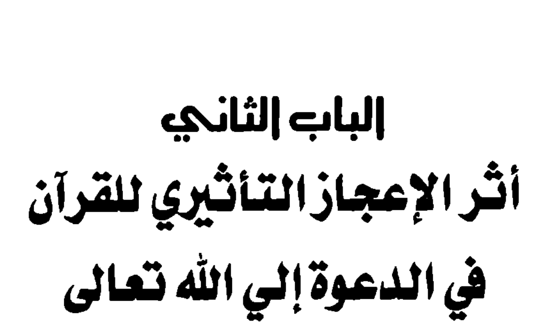
فهذا الأمر بالمعروف يتم من خلال التسلح بسلاح القرآن وفهمه والتأثر به، ومن ثم فإني أهيب بإخواني الدعاة أن ينتهجوا هذا النهج في دعوتهم إلي الله تعالى وتعريف الناس بالإسلام؛ لأنه يأتي بثمار يانعة ولقد استخدمه الرسول ﷺ - وهو سيد الدعاة - قبل ذلك كل هذا وغيره هو محط حديثي في الباب الثاني ومن ثم أنتقل إليه والله الموفق.

* * *

---

(١) سورة يونس ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٢) سورة فصلت الآية رقم ٤٤



الباب الثاني
أثر الإعجاز التأثيري للقرآن في الدعوة إلي الله تعالى

ويشمل أربعة فصول

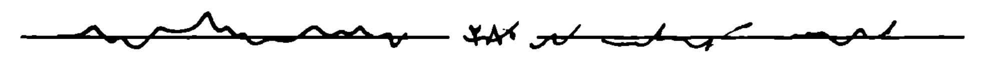
الفصل الأول: الرسول ﷺ والإعجاز التأثيري للقرآن الكريم

الفصل الثاني: الدعاة والإعجاز التأثيري للقرآن الكريم

الفصل الثالث: أثر القرآن الكريم علي المدعوين بأصنافهم

الفصل الرابع: أثر القرآن الكريم علي غير البشر







الفصل الأول

الرسول ﷺ والإعجاز التأثيري للقرآن الكريم

ويشمل ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: القرآن الكريم والرسول ﷺ

المبحث الثاني: مظاهر تأثر الرسول ﷺ بالقرآن الكريم

المبحث الثالث: الرد علي فرية أن القرآن من عند محمد ﷺ

إن أثر القرآن علي الرسول ﷺ من الأهمية بمكان، وأنا أذكره في معرض الحديث عن أثر القرآن على الدعاة؛ ومن ثم ناسب أن أذكر أثر القرآن على معلم البشرية وداعيها الأول إلى الله تعالى ألا وهو رسول الله ﷺ إذ هو المخاطب بالقرآن أولاً، ومن ثم فهو أكثر الناس تأثراً به وهو سيد الدعاة، بل إمام الأئمة دون منازع إلى أن تقوم الساعة، وتأثر الرسول ﷺ بالقرآن الكريم ذو نسقٍ فريدٍ، وذو إحساسٍ خاصٍ لم يكن لمثلي أن يحصيه أبداً، ولا يستطيع أحد أن يحصيه - من وجهة نظري - إلا إذا شعر به وعاشه، وأنّي لأحد أن يكون كذلك، ولذا فإني أذكر من أثر القرآن على الرسول أي بعضا من أثر القرآن عليه، أما من أراد أن يذكر كل أثر القرآن على رسول الله فعليه اتباع ما يلى:

أ/ أن يقوم بتحليل كل كلمة فى القرآن وكيف تلقاها أولا من جبريل - عليه السلام - وكيف كان وقعها على أذنه إذ سمعها، وما رد فعل القلب عليها، بل عليه تحليل كل حرف فى القرآن.

ب/ ثم عليه أن يقوم باستقراء أحوال النبي ﷺ كله من فرح وسرور إلى غيره ليشعر فى كل حركة من حركاته وسكنة من سكناته مدى أثر القرآن عليه، في مواقفه كلها فى السلم والحرب، فى الأمن وغيره.

ج / ثم يضع النتائج الأولية لهذا الاستقراء ويتسائل هل أتممت بذلك كل أثر القرآن على رسول الله أم لا؟ وأعتقد أن ذلك أمر عسير ما لا طاقة لنا به، فلقد كان لأثر القرآن على رسول الله طريقة مميزة.

وإني في حديثي عن أثر القرآن علي رسول الله ﷺ ينتظم مبحثين:

المبحث الأول: الرسول ﷺ والقرآن الكريم:

وإذا ما أردت أن أذكر تأثر الرسول بالقرآن فى عبارة وجيزة، فليس هناك أبلغ ولا أجمل ولا أفصح من قول السيدة الطاهرة عائشة - رضي الله عنها - التى عاشت معه قلبا وقالبا وكان يؤثرها على نفسه، وكان لها منزلة فى قلبه، إذ صاغت فى عبارة بليغة - كعادتها - تأثر الرسول بالقرآن وهى تقول

«كان خلقه القرآن»[1] وهو قولٌ موجزٌ بليغٌ يؤكد أن فضائل القرآن قد تحولت إلي مثلٍ واقعية وتدبرٍ عالٍ؛ تمثلت كلها في شخصية الحبيب ﷺ فكان بذلك قرآناً حياً بين أصحابه، ومن ثمّ كان القرآن هو محمداً ﷺ ومحمد ﷺ هو القرآن، وحسبه ﷺ تكريماً أن تُصاغ عواطفه ومشاعره فتصبحَ قرآناً يتلي، وأن يتحول القرآن به إلي واقعٍ تحياه البشرية، ولقد تحققت مبادئ القرآن ونظمه ومناهجه بعمل الرسول ﷺ وأصحابه وأتباعه من بعده إلي حضارة ربانية، تظل العالم كلِه بظلها الوارف، فهي بذلك القول قد أراحت الفكر والقلم والبنان من أن يخط كلاما لا يوفِ الرسولَ حقه، فهى قد أبدعت فى هذا القول، كان رسول الله قرآنا حياً يسير بين الناس. ولك أن تتخيل هذا المعنى، رسول الله قرآن حي يسير بين الناس، هل تتساءل بعد ذلك عن أثر القرآن عليه، والجواب أن القرآن اختلط بدمه ولحمه وعظامه فصار لا يعرف إلا بالقرآن، ومن ثم كان أكثر الناس تأثرا به، وذلك لأنه نزل على قلبه ووعاه فؤاده وحفظه صدره، وقامت بتطبيق أحكامه والعمل بمحكمه جوارحُهُ، وصدق الله ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

و مما هو معلوم أن الرسول ﷺ منّةٌ من الله تعالى علي المؤمنين من عباده، وهذا حقيقة لا يجادل فيها أحد، وهذه المنّة هي أعظم المنن قاطبةً، ونوه الله ﷻ بذلك في القرآن قال

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ج١/ ١١٥ كتاب حسن الخلق، باب من دعا الله أن يحسن خلقه، وأخرجه أحمد في مسنده ج٦/ ٩١ برقم ٢٤٦٤٥، باقي مسند الأنصار، حديث عائشة – رضي الله عنها – وقد علق عنه شعيب الأرنؤوط حديث صحيح،

(٢) سورة النحل الآية رقم ٤٤ .

تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾[1].

ومما أفهمه من الآية أنه لولا أن الله تعالى أرسل إلينا محمداً ﷺ بالهداية ما اهتدينا، ولا تحلينا بسائر مكارم الأخلاق التي ركزها الرسول في نفوس وقلوب وعقول الموحدين، وكل هذه الأخلاق تتجلي ذاتاً وحقيقة في القرآن الذي أوحاه الله تعالى إليه ومن يتأمل هذه الآية السابقة يلحظ المنة العظمي التي ذكرها، وحبا بها المؤمنين من عباده، وليس هذا فحسب بل إن الآية قد ذكرت حيثيات هذه المنة والتي تتبلور واضحةً في الآية الكريمة، وأول هذا تلاوة آي القرآن، وهذا قوله تعالى ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ فهو يربيهم بالقرآن ويغمس في نفوسهم ومشاعرهم حب كلام الله تعالى، إنه يطر قلوبهم مما ران عليها من الجمود والتخلف والصدأ وعبادة الأوثان، وهذا التطهير لا يكون إلا بمطهرٍ قويٍ لا يصمد أمامه أي صدأ؛ ولن يكون إلا القرآن وتلاوة آياته - إذا ما صدقت النية وحسنت الطوية - التي تنزل علي القلوب فتملأها طهارةً ونقاءً، وعلي العقول فتحليها بالحكمة وتبعد عنها الشك والحيرة، إنها آيات القرآن الذي هو كلام الله تعالى.

ومن يتدبر الآية يجد أنها لمست هذه المعاني جميعها حيث أن الآية ذُكرت عقب الغنائم «إن ختام هذه الفقرة بهذه الحقيقة الكبيرة. حقيقة الرسول ﷺ وقيمتها الذاتي، وعظم المنة الإلهية بها، ودورها في إنشاء هذه الأمة وتعليمها وتربيتها وقيادته، ونقلها من الضلال المبين إلى العلم والحكمة والطهارة إن هذا الختام يتضمن لمسات قرآنية كثيرة منوعة عميقة: إنها تجيء ابتداءً تعقيباً على الغنائم والطمع فيها والغلول ، والانشغال بهذا الأمر الصغير، الذي كان الانشغال به هو السبب المباشر الذي قلب الموقف في المعركة، وبدل النصر هزيمة وفعل بالمسلمين الأفاعيل، فالإشارة إلى حقيقة الرسالة الكبيرة والمنة العظيمة المتمثلة فيها لمسة عميقة من لمسات التربية القرآنية الفريدة. تبدو في ظلها غنائم الأرض كلها وأسلاب الأرض كلها، وإعراض الأرض كلها شيئاً تافهاً زهيداً لا يذكر

---

(١) سورة آل عمران الآية رقم ١٦٤ .

ولا يقدر. شيئا تخجل النفس المؤمنة أن تذكره ، بل تستحي أن تفكر فيه! فضلا عن أن تشغل به! وهي تجيء في سياق الحديث عن الهزيمة والقرح والألم والخسارة التي أصابت الجماعة المسلمة في المعركة.. فالإشارة إلى تلك الحقيقة الكبيرة ، وما تمثله من منة عظيمة لمسة عميقة من لمسات التربية القرآنية العجيبة ، تصغر في ظلها الآلام والخسائر، وتصغر إلى جانبها الجراح والتضحيات. على حين تعظم المنة ، ويتجلى العطاء الذي يرجح كل شيء في حياة الأمة المسلمة على الإطلاق. ثم.. الإشارة إلى آثار هذه المنة في حياة الأمة المسلمة **(يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين)**.. وهي تشي بالنقلة من حال إلى حال ومن وضع إلى وضع ومن عهد إلى عهد. فتشعر الأمة المسلمة بها وراء هذه النقلة من قدر الله الذي يريد بهذه الأمة أمراً ضخماً في تاريخ الأرض، وفي حياة البشر والذي يعدها لهذا الأمر الضخم بإرسال الرسول ﷺ فما ينبغي لأمة هذا شأنها أن تشغل بالها بالغنائم التي تبدو تافهة زهيدة في ظل هذا الهدف الضخم ولا أن تجزع من التضحيات والآلام التي تبدو هينة يسيرة في ظل هذه الغاية الكبير. هذه بعض اللمسات المستفادة من ذكر هذه المنة في هذا السياق. نذكرها باختصار وإجمال لنواجه النص القرآني الحافل بالإيحاءات والظلال: وتتضاعف المنة بأن يكون هذا الرسول «من أنفسهم».. لم يقل «منهم» فإن للتعبير القرآن «من أنفسهم» ظلالا عميقة الإيحاء والدلالة.. إن الصلة بين المؤمنين والرسول هي صلة النفس بالنفس لا صلة الفرد بالجنس. فليست المسألة أنه واحد منهم وكفى. إنما هي أعمق من ذلك وأرقى. ثم إنهم بالإيمان يرتفعون إلى هذه الصلة بالرسول ، ويصلون إلى هذا الأفق من الكرامة على الله. فهو منة على المؤمنين.. فالمنة مضاعفة ممثلة في إرسال الرسول وفي وصل أنفسهم بنفس الرسول ونفس الرسول بأنفسهم على هذا النحو الطيب. ثم تتجلى هذه المنة العلوية في آثارها العملية.. في نفوسهم وحياتهم وتاريخهم الإنساني: ولو تأمل الإنسان هذه المنة وحدها لراعته وهزته حتى ما يتمالك أن ينصب قامته أمام الله ، حتى وهو يقف أمامه للشكر والصلاة! ولو تأمل أن الله الجليل - سبحانه - يتكرم عليه ، فيخاطبه بكلماته. يخاطبه ليحدثه عن ذاته الجليلة وصفاته ؛ وليعرفه بحقيقة الألوهية وخصائصها. ثم يخاطبه ليحدثه عن شأنه هو - هو الإنسان -

هو العبد الصغير الضئيل - وعن حياته ، وعن خوالجه ، وعن حركاته وسكناته. يخاطبه ليدعوه إلى ما يحييه ، وليرشده إلى ما يصلح قلبه وحاله ويهتف به إلى جنة عرضها السماوات والأرض. فهل هو إلا الكرم الفائض الذي يجري بهذه المنة ، وهذا التفضل ، وهذا العطاء ؟ إن الله الجليل غني عن العالمين. وإن الإنسان الضئيل لهو الفقير ولكن الجليل هو الذي يحفل هذا الضئيل ، ويتلمسه بعنايته ، ويتابعه بدعوته! والغني هو الذي يخاطب الفقير ويدعوه ويكرر دعوته! فيا للكرم! ويا للمنة! ويا للفضل والعطاء الذي لا كفاء له من الشكر والوفاء! (ويزكيهم).. يطهرهم ويرفعهم وينقيهم. يطهر قلوبهم وتصوراتهم ومشاعرهم. ويطهر بيوتهم وأعراضهم وصلاتهم. ويطهر حياتهم ومجتمعهم وأنظمتهم.. يطهرهم من أرجاس الشرك والوثنية والخرافة والأسطورة ، وما تبثه في الحياة من مراسم وشعائر وعادات وتقاليد هابطة مزرية بالإنسان وبمعنى إنسانيته.. ويطهرهم من دنس الحياة الجاهلية ، وما تلوث به المشاعر والشعائر والتقاليد والقيم والمفاهيم»[1] .إن الآية ترسم التأثر العملي من رسول الله ﷺ بالقرآن الكريم، فقد كان ﷺ قرآناً حياً يسير بين الناس.

وهذه المنة كلها لم تأت من فراغ، بل أتت من فضل الله علي رسوله وعلي المؤمنين كما هو واضحٌ من سياق الآية، حيث قد زكي الله رسوله وهيأه لحمل هذا العبء الثقيل الذي تنوء بحمله الجبال فتخر هداً أمام عظمة هذا القرآن، ومن ثم حلا الله رسوله بالعلم الذي لا يشوبه الجهل، وبالفضل الذي نقيصة ولا انتقاص، وجمع له فضائل الخلق الجم والعلم الغزير الذي فاق به علم الأولين والآخرين، ومن ثمّ غدا الناس ينهلون من علمه وخلقه وفضله علي اختلاف مداركهم ولغاتهم وأجناسهم وأوطانهم، إنها آيات القرآن كلام الله تعالى. فهو الروح الذي أنزله الله تعالى علي رسوله ﷺ قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2] .

---

(١) في ظلال القرآن / سيد قطب / ج ١ / ٤٩٠ مرجع سابق .
(٢) سورة الشورى الآية رقم ٥٢ .

والواضح من الآية أن القرآن روح أوحاه الله إلي الرسول   فسعد النبي به، وأسعد معه البشرية، وما دام القرآن روحاً إذن فهو سرٌ من أسرار الله تعالى يودعه الله قلب من يحب من عباده، يسعد به من يقرأه فيتدبر لأنه يعيش في ظلاله، ويهنأ بالعيش في رياضه الرحبة كل من يتأثر بآياته إنه يغوص في بحار المعاني ليستخرج الدرر واللآلئ التي بها حياة القلوب، وإني أقول إن العقل هو ما ميز الله تعالى به الإنسان ولكن لا ننسي أبداً أن وراء هذا العقل روحٌ تفوق العقل اتساعاً وانفساحاً هي من أسرار الله تعالى، وإنها لو غابت عن العقل لفقد تركيزه وتفكيره، وأصبح مثل الميت إذا مات تجمدت أعضاؤه ويبست ثم تفتت عظامه ومن ثم يفقد كل شئ؛ وذلك لخروج الروح منه وكذلك القرآن فهو روح يسير الحياة والأحياء، ويضفي علي الحياة كلها أثر البهجة والسرور، فلو لم يتدبره المؤمنون ويتأثروا به ويأخذوا منه ما يمد حياتهم بالاستمرارية؛ لأصبحوا موتي لا حياة لهم بل ما أتعسها من حياة؟ ولم يقتصر الأمر علي هذا فحسب بل لتعظيم شأن القرآن كان رسول الله يحرص علي تلقيه وتلقينه من جبريل عليه السلام، والله ﷻ طمأنه علي جمعه في صدره بيانه له قال تعالى﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [1]ويقول ﷺ إنما مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً، فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة، فجعل الناس يطوفون به، ويتعجبون ويقولون هلاّ وُضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» [2]. يقول الدكتور محمد عبد الله دراز: «كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة ولبنات متراكمة في بنيان الدين والأخلاق وسياسة المجتمع. وكانت مهمة اللبنة الأخيرة أنها أكملت البنيان، وملأت ما بقي فيه من فراغ، وأنها كانت بمثابة حجر الزاوية الذي يمسك أركان البناء إنها إذاً سياسة حكيمة رسمتها يد العناية الإلهية لتربية البشرية تربية تدريجية لا طفرة فيها ولا ثغرة، ولا تناقض ولا تعارض، بل تضافرٌ وتعانقٌ وثباتٌ واستقرارٌ، ثم نموٌ واكتمالٌ وازدهار» [3].

---

(١) سورة القيامة الآيات من ١٦ إلي ١٩ .

(٢) رواه البخاري .كتاب المناقب باب خاتم النبين ﷺ ج ٣/ ١٣٠٠ برقم ٣٣٤٢ .

(٣)عن (التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام) محمد الغزالي ص (٧٧) .

لقد اكتمل برسول الله ﷺ بناء النبوة الشامل، وبهذا الاكتمال انتهى بناء الصرح العظيم فلا محل لزيادة فيه، يقول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[1]. ومن هنا يقول الجاحظ «لقد بعث الله محمداً أكثر ما كانت تعرف العرب شاعراً وخطيباً، وأحكم ما كانت لغةً وأشد ما كان عدة فدعا أقصاها وأدناها إلي توحيد الله وتصديق رسالته دعاهم بالحجة فقطع عنهم العذر وأزال عنهم الشبهة، وصار الذي يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية دون الجهل، وهو في كل ذلك يحتج عليهم بالقرآن ويدعوهم صباحاً ومساءً إلي أن يعارضوه إن كان كاذباً ولكن بان عجزهم في ذلك واضحاً وكلما ازداد تحديه لهم زاد عجزهم ووضح أشد ما كان عندئذٍ تكشف منهم ما كان مستوراً، وظهر منهم ما كان مختفياً، ولما لم يجدوا بداً من هذا ادعوا أنه يعرف من أخبار الأمم ما لا يعرفون..»[2]

***

(١) سورة المائدة الآية رقم (٤٨).

(٢) البيان والتبين الجاحظ ج ١ / ١٦٩.

المبحث الثاني: مظاهر تأثر الرسول ﷺ بالقرآن.

لقد كان جبريل ينزل على رسول الله بالقرآن الكريم، وكان مهبطه على رسول الله ثقيلاً حيث يقول تعالى ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾[1].

«وكان لثقل الوحي على رسول الله أثره البالغ فلقد كان ينزل عليه في الليلة الشاتية الشديدة لبرد، فيعرق جبين النبي ﷺ من ثقله، وثقل ما أنزل به وأوحاه الله إليه أن يبلغه لرسول الله، حتى أنه من الثقل لو نزل عليه الوحي وهو يركب دابته كانت الدابة تكاد تبرك من شدة الثقل ، وإذا ما جاءت فخذه على فخذ إنسان تكاد ترضها، وربما يسمع له غطيط كغطيط النائم»[2].

ولعل هذه الآثار كلها التى أجملها فى:

١ - احمرار الوجه.
٢ - ذهاب النفس من الشدة.
٣ - عرق الجبين حتى في البرد.
٤ - عدم تحمل بداية هذا الثقل.

كل هذه الآثار وغيرها تعطيك إشارةً صريحةً صحيحةً على أن رسول الله ﷺ أول المتأثرين بالقرآن، وأكثرهم به تأثراً، وذلك لما نزل عليه الوحي فى غار حراء بأول آيات القرآن : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[3] هذه الكلمات هي بسملة سعادة الإنسان، وهي الأشعة الأولى لأنوار القرآن، يا لها من براعة استهلال لمقاصد الرسالة..ها هنا في قلب الغار اختُصر تاريخ الإنسان،فياله من مكان غمر في جوفه الزمان. ولقد تكون بعض الأحداث في التاريخ أكبر من التاريخ نفسه!! ويوم حراء أكبر وأخلد من التاريخ. وأكرِم بيوم تم فيه اللقاء بين أمين الأرض وأمين السماء! (كان العالم كله في غفلة عن ذلك الرجل الذي

---

(١) سورة المزمل الآيتان رقمي ٤ ، ٥ .
(٢) المدخل لدراسة القرآن الكريم محمد دراز ص.
(٣) سورة العلق الآيات من ١ إلي ٥ .

يأوي إلى غار حراء متوحِّداً في سبيل التوحيد.. وكانت ساعات يرتبط بها تاريخ أحقاب ودهور، فلما انقضت مدتها لم يبق في الأرض المعمورة غافل عن ضيف ذلك الغار، ولم يبق جاهل بآثار تلك الساعات التي كان يقضيها فيه بالليل والنهار..)[1]. لقد (خرج محمد من هذا الغار حقيقة نقية كالسماء الصافية.. خرج قانوناً من قوانين الله التي تُسيِّر الشمس والقمر، وتمسك السماء والأرض.. يمضي قُدماً إلى الغاية المقدورة مُضيّ النجوم في حُبكها والشمس في فلكها.. هبط الرسول من حراء وقد حمل أمانة الرسالة، فليت شعري أَهَبط ونفسه قريرةٌ كما ينزل النور من الشمس والقمر؟ أم نزل ونفسه جائشةٌ كما ينزل الغيث بين الرعد والبرق؟! ما هي المشاعر والأفكار التي كانت تجول في قلبه وقد حمل ﴿قولاً ثقيلاً﴾ لينقذ به العالمين من الظلمات إلى النور؟! لست أدري.. ولكنه نزل ديناً جديداً.. وعصراً وليداً.. وتاريخاً مديداً.. وإصلاحاً شاملاً وهدى كاملاً.. ورحمةً للعالمين..»[2].

«كلماتٌ ذات وقع خاص، ورونق معين، استولت على قلب ووجدان النبي ﷺ، استرعت انتباهه ووجدانه، وبمجرد أن تلقاها الرسول ﷺ بسمعه حتى سرت سرياناً شديداً إلى أعماق قلبه، هذا القلب مُلِء بالحب والخير فليس فيه ذرة من شر، وبمجرد أن وعى القلب الآيات وأحسها وشعر بها، إلا أن عادت الآيات يظهر أثرها على الرسول ﷺ صار يرتعد وترتجف فرائصه، وهو يردد «دثروني زملونى» وذلك لأن الحمل ثقيل، والأثر جليل وهنا بداية تأثر الرسول ﷺ بآي الذكر الكريم، وكأن هذه الكلمات أصبحت بمثابة الزلزال الشديد الذي رج الكيان الانسانى كله، وتعالى معه لنتأمل هذه الآيات، ولنرى سوياً أنه حُق لرسول الله ﷺ أن يرتجف وترتعد فرائصه منها.، إنها آياتٌ خمسٌ توضح مصادر الحياة بتمامها من أولها إلى منتهاها، من بداية إقرأ إلى تعليم الإنسان ومعرفة مصدر خلقه وهو الله»[3]. وثبتت هذه الكلمات في قاب النبي ﷺ وأخذ يرددها لنفسه،

---

(١) (الإسلام دعوة عالمية) عباس العقاد ص(٩٩).

(٢) الأديب الدكتور عبد الوهاب عزام (رحلات) ص (٣٢٧-٣٣٠) بتصرف.

(٣) المدخل لدراسة القرآن الكريم. محمد عبد الله دراز، ص ٢٧، مرجع سابق.

وكلما رددها ازداد تأثراً بها؛ كأنما يسمعها لأول مرة من الملك، فالنبي ﷺ هو المخاطب بالقرآن وهو أول من تأثر به، فلما عاد رسول الله إلى خديجة - رضي الله عنها - وحدث ما حدث منها بشأنه ﷺ مما ذكره ابن إسحاق فى سيرته ومما لا داعي لذكره هنا[1] وبعد فترة قصيرة جداً اشتاق رسول الله لسماع كلامٍ جديدٍ من مثل الذي سمعه في المرة الأولى، وكان لشدة تأثره ﷺ بالقرآن وآياته واستعذابه لكلماته الرائعة والممتعة والمؤثرة فى النفوس والجوارح والحياة بتمامها لكل هذا عاود الرسول الذهاب إلى الغار؛ ليجدد الأنس والمتعة التى استمتع بها من جديد، وليملأ قلبه بآي القرآن من فم جبريل، ولينعم بالتدبر الأمثل لكلام رب العالمين، فعاد الرسول ﷺ إلي الغار لكن هذه المرة دون جدوى، وظل رسول الله ﷺ يذهب إلى الغار مرات و مرات شغوفا بسماع مثل ما سمعه فى المرة الأولى من القرآن الذي يشفى القلوب والعقول، وإذ بالرسول ﷺ ينتظر أياما بل شهورا يجوب الجبال ويدور بنظره فى السماء بل فى كل اتجاه؛ آملا أن يجد من ذلك شيئاً يشفى غليله ويشبع رغبته الملحة فى سماع تلك الآيات المؤثرة، التي هي بمثابة الري لقلبه ﷺ، عندئذ بدأ تأثر الرسول بالقرآن من أول لحظة نزل عليه القرآن فيها وصدق الله تعالى ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾[2] ويظل الرسول يترقب هذا القول الثقيل من الحين إلى الحين، يترقب ري القلوب ويتحين حياة النفوس، إنه كلام الله، وهذا وصف الله لكلامه في القرآن قال تعالى ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[3] فسمي الله قرآنه كلاماً، والنبي ﷺ قد ذكر ذلك فقال (..وفضل كلام الله علي سائر الكلام كفضل الله علي خلقه)[4] إنه شفاء العليل، وراحة المسكين، وهدوء المضطرب، ودواء من كثر دائه، وقلت مساعيه، ويأس منه الطبيب، ولعل ذهاب رسول الله ﷺ إلى بيته فى المرة الثانية مرتجفاً، لحقه الملك مرة أخرى وظهر له قائلا له: «أنت رسول الله، وأنا جبريل» ، ومن ثم بدأ الحمل الثقيل يأخذ حيزاً من

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام ، ج٣/ ١٨١ مرجع سابق .
(٢) سورة المزمل الآية رقم ٥ .
(٣) سورة البقرة الآية رقم ٧٥ .
(٤) أخرجه الترمذي في سننه.

الواقع، ليخرج من قلب الحبيب ﷺ إلى قلوب أصحابه ، ومن يثق بدعوتهم إلى الإيمان، وبدأت مرحلة التأثير فى الناس قال تعالى﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [1].

وبدأ الوحي يتصل برسول الله ﷺ اتصالاً كثيراً بدلاً من فترات الانقطاع التي يحباها رسول الله ﷺ من خلال ما سبق يفهم أن الداعية لابد أن يتأثر بالقرآن، لأن إمامه والداعية الأول قد تأثر به والدعاة مقتدون بإمامهم ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [2] ولعل تأثر الدعاة بالقرآن هو سر نجاحهم فى دعوتهم، فلو لم يكن هناك تأثر منهم بالقرآن فسيكون الإخفاق ذريعا ولعل الواقع خير شاهد على هذا، فالدعاة بمثابة الثوب الأبيض الناصع البياض أي غبار يأتي عليه – ولو كان خفيفا – فإنه يلوثه ويخرجه من نصاعته، وكذلك قلوب الدعاة حين تعي القرآن وتتأثر به فهي بيضاء نقية تؤثر فى الآخرين، وتعرفهم بربهم، وتربط بالقرآن، وتربط قلوبهم بالقرآن، وتحيى فيهم فطرة الله، وتجعل نفوسهم مشتقاة، وقلوبهم تواقة إلى سماع هذا الذكر الحكيم الذي ينقل الإنسان نقلا كاملا إلى عالم الروح، إلى عالم لا حدود له من السكينة والوقار والهدوء والاطمئنان،هذا العالم هو آيات القرآن الذي أنزله الله هداية للمتقين، وراحة لقلوبهم، ومنهاجا عاما لحياتهم،ولعل من مظاهر تأثر الرسول بالقرآن ما يلي:

المظهر الأول: إطالة القراءة في الصلاة.

كان رسول الله إذا دخل فى صلاته أطال فى قراءة القرآن استعذابا لآياته وتمتعا واستمتاعا بالعيش فى جوها، وربما كان ذلك فيه من التعب على من خلفه من المصلين، إلا أنه ﷺ بمجرد أن يقرأ القرآن يجد القلب قد تعلق، والروح قد سمت، فلا يشعر بعدها رسول الله بطول أو قصر، وللتأكيد على هذا أسوق بعض الأمثلة:

(١) عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال:

صليت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة فافتتح بالبقرة فقلت يركع عند المائة ثم مضى،

---

(١) سورة المدثر من الآية ١ : ٣.

(٢) سورة الأحزاب آية ٢١.

فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها يقرأ مترسلاً، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ،ثم ركع فكان ركوعه نحوا من قيامه ثم سجد فكان سجوده نحوا من قيامه»[1].

والمتأمل في الحديث يلحظ تأثر الرسول بالقرآن واضحا فيه ثم تأثر الصحابة من وراء كذلك، فهم على أثره إذا تأثر تأثروا، وهذا واضح من قوله «إذا مر بآية فيها تسبيح سبح» أي أن الذهن حاضر والقلب واع لكل ما يقرأه، وهذا سر من أسرار التأثر بالقرآن يظهر على شخص الرسول الكريمﷺ ولعل إطالة الصلاة توحي لكل ذي لب لأجل النطق بكلام الله رب العالمين، فكان النبي لا ينظر إلا بالقرآن ، ولا يصلى إلا بالقرآن ، ولا يمشى إلا بالقرآن ، ولا يجلس إلا بالقرآن ، ولذا قال عنه أمير المؤمنين على في نهج البلاغة «كتاب الله تنطقون به، وتسمعون به وتبصرون به»[2].

(٢) أثر عنهﷺ «أنه خطب الجمعة بسورة ق»[3].

من تأثر رسول الله ﷺ بالقرآن أنه يجعله داخل خطبه وليس هذا فحسب، إنه يجعله خطبة كاملة، جمعة تامة يقرأ فيها سورة ق، والصحابة الأجلاء يستمعون وينصتون، وهم بين باكٍ ومجروح مما يسمعه من آيات القرآن الكريم، وأنت إذا ما قرأت سورة ق ترى لها جوا خاصا واحساساً معينا داخل وجدانك، فهي تتحد ث عن نعم الله على خلقه في الكون وفى الإنسانية قاطبة، وتذكر يوم القيامة وفى نهايتها يقول الله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[4].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ج١ / ٥٤٧ برقم ٥٣٦ ، كتاب فضائل القرآن ، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل .

(٢) نهج البلاغة الإمام علي ، ص.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ج٢ / ٥٩٥ ، كتاب فضائل القرآن ، باب في قوله تعالي (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً) ، برقم ٨٧٢ .

(٣) سورة ق الآية رقم ٣٧.

(٤) سورة النساء الآية رقم ٤١.

المظهر الثاني: سماعه من غيره

من مظاهر تأثره ﷺ- أنه كان يحب أن يسمع القرآن من غيره، رغم نزوله عليه وعلى قلبه، إلا أنه كان يجب أن يسمعه من غيره لأن السامع أشد تركيزا من القارىء - علما بأن هذا ليس فى حق النبي - فهو فى كل أحواله متأثر لا يغيب، ومن ثم كان يستمع للقرآن ودليل ذلك ما ذكره ابن مسعود قال: قال لى رسول الله ﷺ «أقرأ عليَّ، قلت: يا رسول الله آقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال: نعم إني أحب أن أسمعه من غيري، فقرأت عليه سورة النساء حتى أتيت إلى قوله ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـٰؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ قال: حسبك الآن، فالتفت فإذا عيناه تذرفان»[1].

وفى الحديث يستبين لكل ذي عقل أن رسول الله كان أكثر الناس تأثرا بالقرآن، لدرجة أنه يحب أن يسمعه من غيره، وينصت رسول الله لقراءة ابن مسعود، ويصغى لها كما أمره الله ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[2].

لكنه ليس أي إنصات إنه إنصات من إمام الدعاة وسيد المرسلين، ولا يقتصر عند هذا الحد فحسب، بل يصل الأمر إلى أبعد من هذا، وهو أن يصل تأثر رسول الله بالقرآن إلى حد البكاء والخوف «فإذا عيناه تذرفان» إنه قمة التأثير بآيات القرآن وكلام الله.

فالاستماع إلى القرآن يورث فى النفس التدبر والاعتبار، وتأمل أن الله قال استمعوا ولم يقل اسمعوا، وذلك لأن الاستماع هو الإصغاء، وصيغة الافتعال تدل على المبالغة فى الفعل، والاستماع هو ترك الكلام مع الاستماع، فأتت أنصتوا مع استمعوا لتأكيد المعنى، وايصال القرآن إلى سويداء القلوب.

المظهر الثالث: قراءة القرآن على كل أحواله

كان النبي ﷺ يقرأ القرآن على كل أحواله فى المنشط والمكره، فى السلم والحرب، فى

---

(١) أخرجه البخاري في صحيح ج٤ / ١٦٧٣ ،كتاب المغازي باب فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـٰؤُلَاءِ شَهِيداً.

(٢) سورة الأعراف الآية رقم ٢٠٤.

كل حياته، وكانت قراءته مؤثرة إلى درجة استيلائها على القلوب، ومما ورد فى ذلك ما يلي:

(١) حدثنا قتيبة بن سعيد عن الليث عن ابن أبى مكيلة عن يعلى بن مالك أنه «سأل أم سلمة عن قراءة رسول الله فإذا هي تنعت قراءته مفسرة حرفاً حرفاً»[١] وهذه القراءة مفسرة بحيث من يسمع يتأثر مباشرة، ولك أن تتخيل معي أن الذي يقرأ هو رسول الله فكيف حالك إذن؟!

حال المتأثر بسماع القرآن من فم النبي الذي أنزل عليه القرآن، ومعنى ذلك أن رسول الله كان هادئا يقرأ مدا أي يقطع فى قراءته، يقف على رؤوس الآي حتى يستوعب السامع معناها ويتأثر بها قلبه.

(٢) عن عبد الله بن أبى قيس قال: سالت عائشة - رضي الله عنها -: «عن قراءة رسول الله أكان يسربها أم يجهر بها ، فقالت الحمد لله الذي جعل في الأمر سعة»[٢] حتى أن السيدة أم هانىء تقول كنت أسمع قراءة النبي وأنا في عريشي، وهذا يدل على الجهر بالقراءة، وأنها قراءة من القلب وليست مجرد تلاوة بعض آيات يقتصر فيها تحريك الشفاه وعلو الصوت وفقط، بل إنها قراءة بالوجدان واللسان.

(٣) عن معاوية بن مرة قال: سمعت عبد الله بن مغفل يقول: «رأيت النبي ﷺ على ناقته يوم الفتح وهو يقرأ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴾[٣] قال: فقرأ ورجّع، وقال معاوية بن مرة: لولا أن تجتمع الناس عليّ لأخذت لكم في ذلك الصوت»[٤] يقصد من حسن صوت النبى بالقرآن، ومدى تأثيره فى النفوس، واستيلائه على القلوب، فهل امتثل الدعاة

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ، كتاب فضائل القرآن ج ١ / ٤٥٣ برقم ١١٥٦ ، وقال عنه الإمام الحاكم هذا حديث صحيح علي شرط مسلم ولم يخرجه .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الصلاة ، باب ذكر صفة الجهر بالقراءة في صلاة الليل ، ج ٢ / ١٨٩ برقم ٤٠٣١ .

(٣) سورة الفتح الآيتان رقمي ١ ، ٢ .

(٤) أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري كتاب المغازي باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح ، ج ٤ / ١٥٦٠ برقم ٤٠٣١ .

هذا المنهج وساروا عليه؟!

المظهر الرابع: بكاء النبي ﷺ عند القرآن إما سماعا أو قراءة:

من أثر القرآن على رسول الله ﷺ البكاء وهو خروج الدمع من العين من أثر الخوف من الله أو عند قراءة القرآن أو عند الاستماع إليه، أو للتعبير عن حزن مستكن في الفؤاد وهذا ظاهر وواضح فى أحاديثه المؤكدة لهذا ومنها على سبيل المثال:

(١) حديث ابن مسعود سابق الذكر وفيه: «فإذا عيناه تذرفان» أي يبكى عندما تلا ابن مسعود قوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾ وهذه الآية توضح علو مقام رسول الله فى الدنيا، وفى الآخرة فى أنه شهيد على الأمم كلها من لدن آدم إلى قيام الساعة ، فيكاد رسول الله أمن من علبة السرور كم قال الشاعر:

غلب السرور عليَّ حتى أنه   من كثرة ما قد سرني أبكاني

وهو بكاء ينم عن تأثر داخلى فى النفس، وهذا التأثر تعبير عن شكر الله تعالى لهذه النعم.

(٢) عن عبد الله بن الشخير قال :«أتيت رسول الله وهو يصلى، ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من كثرة البكاء»[١] وهذا البكاء نتيجة لقراءة القرآن داخل الصلاة، لأنه ﷺ كان يطيل م القراءة فى صلاة الليل حتى أن السيدة عائشة تنبئنا عن ذلك فتقول: «صلى رسول الله حتى تورمت قدماه، فقلت يا رسول الله أتتكلف ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال يا عائشة: أفلا أكون عبدا شكورا»[٢] وهذا القيام الطويل الذي تنتفخ منه أقدام الحبيب يدل دلالة قاطعة على طول قراءة النبي في الصلاة، حتى يصل به

---

(١) أخرجه الحاكم في المسترك ، كتاب الإمامة وصلاة الجماعة ، باب التأمين ، ج ١/ ٣٩٦ برقم ٩٧١ ، وقال عنه هذا حديث صحيح علي شرط مسلم ، ولم يخرجاه .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب التوبة ، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة ج٤ / ٢١٧١ برقم ٢٨١٩

الأمر إلى تورم الأقدام، وهذا إن دل فإنما يدل على التأثير القوى الذي أحدثه القرآن قلب وكيان النبي ﷺ حتى بدا ذلك على جوارحه - من البكاء - احمرار الوجه.. تورم الأقدام.... إلخ

(٣) عن عبد الله بن عمرو قال : «انكشفت الشمس يوما على عهد رسول الله فقام رسول الله يصلى حتى لم يكد يركع ثم ركع فلم يكد يرفع رأسه ثم رفع رأسه فلم يكد يسجد ثم سجد فجعل ينفتح ويبكى وهو يقول: يا ربى ألم تعدنى ألا تعذبهم وأنا فيهم ، ألم تعدنى ألا تعذبهم وهم يستغفرون، ونحن نستغفرك فل صلى ركعتين انجلت الشمس فقام محمد الله تعالى»[1] أرأيت إلى بكاء رسول الله ﷺ وهو يتلو قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَاءهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[2].

وهذه الآية لو أمعنا فيها النظر لوجدنا أنها توضح أن الرسول ﷺ أمان للأمة جميعا، دعاتها وخطبائها ومدعويها ، وهكذا فالرسول ﷺ أمان لنا إلى يوم القيامة.كل الذي سبق الحديث عنه إنما هو بعض من تأثر الرسول ﷺ بالقرآن الكريم ، وهذا الأثر البالغ الذى أحدثه القرآن فى قلب ووجدان النبي ﷺ أمره الله أن يبلغه إلى الناس فقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[3].

لقد تأثر الرسول بالقرآن، هذا الأثر المميز، وهذا الأثر العميق داخله؛ لأنه المخاطب بالقرآن خطاباً مباشراً فى الكثير من السور القرآنية منها قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[4].

---

(١) أخرجه ابن خزيمة فى صحيحه كتاب الصلاة ، باب البكاء والدعاء في السجود في صلاة الكسوف ج ٢ / ٣٢٢ برقم ١٣٩٢ ، وقال عنه شعيب الأرنؤوط ، هذا حديث صحيح علي شرط مسلم ولم يخرجاه .

(٤) سورة الأنفال الأيتان رقمي ٣٣ ، ٣٤ .

(١) سورة المائدة الآية رقم ٦٧.

(٢) سورة القلم الآية رقم٤.

وإني أفهم من الآية أن الرسول فوق الخلق ذاته فكان صفة الخلق ذاتها تستمد مقوماتها من شخص الرسول ﷺ ومن هذا المنطلق أقول: لماذا لا يتأثر رسول الله هذا التأثر الخاص؟ وهو يُخبر بخبر السماء فيراه وقد تحقق مثل فلق الصبح، وكان يرى الرؤيا فى منامه فتأتى له أيضا مثل فلق الصبح وهذا يتأكد فى دخول المسجد الحرام حيث قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾[1].

فكيف لا يتأثر رسول الله هذا التأثر المميز بهذه الصور الخاصة التى ألمحت جانبا منها فى الشعور السابقة، وليُعلم أنى ذكرت جانبا فقط من مدى تأثره بالقرآن ﷺ حسب العلم والطاقة، و على ذلك أن الله - تبارك وتعالى - أطلق على كثير من غيب المستقبل عن طريق الوحى، وقد تحقق ذلك، فكيف لا يتأثر رسول الله مع كل هذا، وذلك مثل البشرى بانتصار المسلمبن على جمع المشركين وكان ذلك فى مكة المكرمة والدعوة مستضعفة فقال تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾[2]، وأطلق الله تعالى على أن الروم تغلب فى صدر سورة سميت بذلك فقال تعالى: ﴿ الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

وكذلك أطلق الله على انتصار المسلمين على الفرس ولبس سراقة سواري كسرى فى زمن عمر بن الخطاب، وقد لبسها وقال: الحمد لله الذي نزعها كسرى وألبسها سراقة، وحقق نبوءة رسوله، كل هذا كان مدعاة لأن يتأثر رسول الله هذا التأثر الخاص و الميز بالقرآن الكريم، وإنها نعمة كبيرة وكفى بها نعمة ومجمل ما يمكن لى أن أقوله عن تأثر

---

(١) سورة الفتح الآيتان رقمي ٢٧، ٢٨.
(٢) سورة القمر الآيتان رقمي ٤٥، ٤٦.
(٣) سورة الروم من الآية رقم ١ إلي الآية رقم ٦.

رسول الله بالقرآن يعجز الوصف عنه، ويكل عن ذكره البنان، ويستحى من خطه القلم، يكفيه أن الله خاطبه في القرآن: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[1] كل ذلك وغيره كثير، من أثر القرآن على شخص الرسول ﷺ فقد التزم القرآن خلقا وعملا وسلوكا فى حياته كلها، وإذا ما أردت استدلالا على هذا فتأمل عن التزامه القرآن خلقا: فقد مر الحديث منذ قليل «عن سعد بن هشام قال: انطلقت إلى عائشة – رضي الله عنها – فقلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن خلق رسول الله؟ فقالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن»[2].

أما عن عمله بالقرآن:

فقد كان ﷺ لا يحرك ساكنا إلا بالقرآن، ولا يتقدم فى عمل إلا بالقرآن، وكان يربى هذه الملكة لدى صحابته الأجلاء ، فإنه لما بعث معاذاً إلى اليمن أراد أن يغرزه بهذه الحقيقة عندما قال له: «عن معاذ: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن فذكر كيف تقضى ان عرض لك قضاء قال أقضي بكتاب الله قال فان لم يكن في كتاب الله قال فسنة رسول الله ﷺ قال فان لم يكن في سنة رسول الله ﷺ قال اجتهد رأيي ولا آلو قال فضرب صدري فقال الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يرضى رسوله»[3].

وفى الحديث إشارة صريحة إلى أن كتاب الله هو المقدم وهو نبراس الحياة، وهو الذي إليها التحاكم عن الأشكال، ولعل معاذا قد قال هذا القول من خلال ملاحظاته للرسول في حياته، فقد لاحظ أن القرآن هو المرجع الحقيقي في كل شئون الحياة .

أما عن التزامه القرآن سلوكا:

فقد كان القرآن الكريم شغل رسول الله الشاغل، إذا حزبه أمر، أو عنت له مسألة،

---

(١) سورة الأعراف الآية رقم ١٩.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه أبو داود في السنن ، كتاب القضاء ، باب اجتهاد الرأي في القضاء ، ج ٢ ٣٢٧ تعليق شعيب الأرنؤوط : إسناده ضعيف لإبهام أصحاب معاذ وجهالة الحارث بن عمرو .

كان يقدم قول الله تبارك وتعالى أولا، حتى أنه فى سائر أعماله وسلوكه وحياته كلها - يُعد الترجمة الحية لتعاليم القرآن، فمثلا ما كان يطغى على أحد وما كان يروا اعتداء يمثله أبدا، سلوكه ﷺ فينبعث انبعاثا حقيقيا من آيات القرآن الكريم ، وفى غزوة أحد ولما كُسرت رباعية رسول الله وسال الدم الشريف من وجهه ناداه عمر وهو يبكى يا رسول الله ما يحملك على هذا أدع عليهم يا رسول الله فلقد دعا نوح على قومه فقال رب لا تذر، فيقول الرسول: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»[1].

بالله عليك هل في لغة البشر ما يسمو به للتعبير عن هذا السلوك السامي وهذا الخلق النبيل، إنه التزم القرآن في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[2].

والتزم ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[3] لكل هذا وغيره كان أثر القرآن على رسول الله شديدا ، فهل تحقق ذلك للدعاة، أم إنهم فقدوا الروح؟!

ولكن للأسف الشديد بعد هذا التأثر بالقرآن الذي حدث لرسول الله ﷺ عند تلاوته لآياته، وعند الاستماع إليها، والذي ذكرت جانباً منه في الصفحات السابقة، أجد نفسي الآن أمام خطر عظيم وجسيم، وهو قول قوم كلت مساعيهم عن الخير، عميت أبصارهم بل بصائرهم عن رؤية النور، ضلت بهم أعمالهم عن معرفة الهدى،اجتالتهم الشياطين فزينوا لهم قولاً غريباً - وهو أن القرآن من عند محمد تعلمه على يد رجلٍ حداد، أو على يد راهب وهو بحيرا الراهب الذي مر عليه رسول الله ﷺ مع عمه أبى طالب، هذه الشبهة الواهية التى زينت لقائلها واللاغين بها أنهم ينالوا من القرآن أو من شخص الرسول ﷺ لكنهم واهمون وواهون في قولهم وافترائهم، كبرت كلمة تخرج من أفواههم فهم لا يقولون إلا كذبا، وما صدقوا في لفظ مما قالوه أبدا.

---

(١)أخرجه أبن ماجه في السنن كتاب الدعاء ، باب الجوامع من الدعاء إلي الجامعة لخير الدنيا والآخرة ج١ / ٢٩١ برقم.

(٣) سورة الأعراف الآية رقم ١٩٩.

(٣) سورة الزخرف الآية رقم ٨٩.

الرد علي هذا: هذه دعوى من جاحدين منكرين أن القرآن من عند محمد وليس من عند الله، وفي إبطال دعوى هؤلاء أنهم لا يقتنعون بآي القرآن بل لا بد من إعمال العقل معهم في إبطال دعواهم ونقض مفتراهم وأنتظم الرد فيما يلي فأقول:

١ - هؤلاء يعترفون بصدق رسول الله ﷺ بل يشهدون له بذلك، إذن كيف تناقضون أنفسكم الآن وتزعمون أن القرآن من عنده أيصدق الناس ويكذب علي، لم يكن الرسول ليفعل ذلك.

٢ - لم يكن الرسول ﷺ ليأت بلقرآن من عند نفسه؛ وذلك لسباب بسيطة جداً، حيث إن حيثيات الادعاء غير متوافرة، حيث صاحب كل نحلة يريد أن يجمع من وراء ادعائه هذا ثراءً أو جاهاً، والمعروف أن رسول الله ﷺ لم يكن كذلك، بل عاش فقيراً ومات وما ترك من الأموال شيئاً، بل قد عُرض عليه الملك فرفضه، وقد كان السبيل أمامه ميسراً لهذا ولكنه لم يفعل فدل ذلك أن القرآن من عند الله تعالى.

٣ - الأصل في الأقوال أن تنسب إلي قائليها ، وهذه حقيقة علمية ، وإشارة مرجعية؛ لا يمكن إغفالها أو التنحي عنها جانباً ، ومن يفعل ذلك يعتبر خائناً ، والرسول يعلي هذا المبدأ علي نفسه ، وذلك عندما يتحدث عن القرآن يقول قال الله تعالى ، فهو ينسب القول لقائله ، والرسول كما وصفه الله تعالى .

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾[1]. وفى القرآن الكريم الكثير من الآيات التى تعطى لمن كان له بقية من عقل أو فهم؛ أن القرآن من عند الله منها ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾[2] ولم يقل أحد أن في القرآن اختلافاً -حسب علمي- فدل ذلك على أنه من عند الله، ولو كان من تعلم بشر لكان الاختلاف والتضرب ديدنه - ذلك حسب الطبيعة البشرية التى تخطىء أحيانا وتصيب أحيانا، وقال

---

(١) سورة النجم من الآية ١ : ٥ .

(٢) سورة النساء الآية رقم ٨٢ .

تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[1] وهذا نص صريح على أن الرسول تلقاه من جبريل، وجبريل تلقاه من الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[2] ومن ثم فإن آيات القرآن الكريم لم تدع قولا لقائل، يتهم فيه الرسول بهذه التهمة الشائنة، ولكنه الحقد الدفين، وبغضهم الذي يكنون به صدورهم، حيث يرون القرآن إلى الآن وإلى أن تقوم الساعة محفوظا بحفظ الله تعالى،وهذه خاصية بالقرآن حيث تعهد الله بحفظه فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[3] وبإذن الله تعالى يُطول الله به المقام، ويمتد به الزمان، وإنك لو ذهبت تستعرض من الأحداث العظيمة، والأهوال الجسيمة والعوامل الخطيرة، والأحوال المتماوجة التى اخترقها القرآن حتى وصل إلينا، كما أنزله الله تعالى، وإنه سيخرق- بإذن الله - أحوال المجتمع الاسلامى المعاصر، وظروفه وملابساته، ويصل إلى من بعدنا ومن يعدهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ما طالت الأفواه النافخة، ولا نالته الأصوات اللاغية، ليتم الله نوره ولو كره الكافرون والمعاندون.

فالرد على هذه الشبهة: - في نظري - لا يحتاج إلى كثير بحث أو عناء؛ لأنها شبهة لا تقوى على قدم وساق لكنها قد تجد فى نفوس مروجيها مجالاً وحباً، وعند معاونيهم أرضاً فسيحةً، ومن ثم فإنى أقول: إن القرآن نزل من الله بواسطة جبريل على الرسول الكريم، فلم يكن لجبريل فيه غير النقل، ولا لمحمد فيه غير التلقي والحفظ ثم التبليغ و البيان والإيضاح ويعقب ذلك التطبيق العملي، والتنفيذ الفعلي، ومن ثم القول بأن مصدرية القرآن من حافظة محمد قول باطل لا أصل له، فالناس جميعا ملحد هم قبل مؤمنهم، عربيهم والأعجم يعلمون أن الرسول كان أميا؛ ونشأ فى بيئة أمية لا تجيد القراءة والكتابة، ومن ثم فكيف يكتب القرآن أو يأتي به من عند نفسه؟! هذه واحدة والله عز وجل يقول: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ

(١) سورة النمل الآية رقم ٦.

(٢) سورة الشعراء من الآية ١٩٢ : ١٩٥.

(٣) سورة الحجر الآية رقم ٩.

وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[1].

ومن جهة أخرى يبنه الرسول ﷺ أنه متبع ما أمره الله به قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[2] فمن تأمل هاتين الآيتين السابقتين يلحظ أنهم يريدون الإيقاع برسول الله، فيقولون له يدل هذا القرآن لأن لا يروق لنا، وإذ بالرسول ينفى هذا ويقول كما قال الله: ﴿قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى﴾ وكأن الرسول لا دخل فى مصدريته أبدا، إن هو إلا من عند الله، زد على ذلك أن الله ﷻ أمر الرسول بالقراءة والتلاوة والترتيل للقرآن الكريم فمن الأول: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[3] ومن الثاني قول الله – سبحانه وتعالى – ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾[4] ومن الثالث قوله تعالى ﴿... وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾[5] ومن هذا المنطلق يتضح أن القرآن يذكر بلفظه الصريح على أنه من عند الله، ويأمر الرسول أن يبلغه الناس، والواقع أنى فى غاية الحيرة من أمري حيث إنهم ينسبون القرآن للرسول، وهو ﷺ ينفى ذلك عن نفسه، وحسب القواعد المنطقية أن الدعوى تقوم إما الإقرار أو البينة، والرسول هنا يقر ويعترف على أنه ليس من عنده، ولا دخل له فيه، إلا الوعي والحفظ والتبليغ و التأثير والتفسير.

وثمت أمر آخر إلا وهو أن الرسول كانت تنزل به لنوازل، أو تكثر عليه التساؤلات ومع ذلك ما كان يجيب إلا بعد أن ينزل عليه الوحى، إذ لو كان من عنده، لأجاب على لفور، ومن النوازل «حادث الافك» واتهام الطاهرة عائشة بالاثم والزور، وظل الرسول يكابد هذا؛ وما زاد قوله لعائشة: «إن كنت بريئة فسيبرئك الله...»[6] تخيل معي – إن

---

(١) سورة الجمعة الآية رقم ٢ .

(٢) سورة يونس الآيتان ١٥ ، ١٦.

(٣) سورة العلق الآية رقم ١ .

(٤) سورة الكهف الآية رقم ٢٧.

(٥) سورة المزمل من الآية رقم ٤.

(٦) أخرجه مسلم واللفظ لمسلم، كتاب التوبه، باب في حادثة الإفك وقبول توبة القاذف، ج ٤ / ٢١٣٥ برقم ٢٧٧٠.

استطعت التخيل - أن رسول الله يتهم فى شرفه، ومع ذلك ينتظر حتى ينزل جبريل بالآيات من عند ربه، يبرأ فيها ساحة الطاهرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [١].

ومن التساؤلات لما سئل رسول الله عن الروح؟! ظل حتى نزل القرآن ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [٢] كل هذا يؤكد لك بما يدع مجالاً للريب أن القرآن من عند الله، وأن الله مصدره، واثبات أن القرآن بلفظه ومعناه من عند الله تعالى، ناهيك عما كان يهواه رسول الله ويخفيه فى نفسه من مثل ﴿.....وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ....﴾ [٣].

هذا الذي سبق طرف من رسالته ﷺ للدلالة على أن القرآن من عند الله وليس من عند محمد، كما زعم ذلك الأفاكون والمفترون والمغالون، «وكلها شواهد ناطقة يصدقه فى أن القرآن لم يصدر عنه بل ورد إليه، وأنه لم يفض من قلبه بل أفيض عليه، فإذا أنت صعدت بنظرة إلى سيرته العامة لقيت من جوانبها مجموعة رائعة من الأخلاق العظيمة، وحسبك ما ذكرته من أمثلة يسيرة إذا ما تأملتها صورت لك إنساناً الطهر ملء ثيابه، والخير حشو إهابه، يأبى لسانه أن يخوض فيما لا يعلمه، وتأبى عيناه أن تخفيا غير ما يعلنه، ويأبى سمعه أن يصغى إلى غلو المادحين له: تواضع هو حلية العظماء، وصراحة نادرة فى الزعماء وتثبت قلما تجده عند العلماء فأن يصدر من مثله الختل والتزوير أو الغرور أو التغرير؟!! حاش لله» [٤].

ومن خلال ما سبق من الحديث عن أثر القرآن على رسول الله :

بوصفه الدعية الأول فى تاريخ البشرية قاطبة، وفى تاريخ الإنسانية بوجه عام، تلحظ أن القرآن يؤدى دورا خطيرا فى نجاح الداعية فى دعوته، وفى وصول دعوته إلى القلوب

---

(١) سورة النور الأيتان ١١ ، ١٢.

(٢) سورة الإسراء الآية رقم ٨٥ .

(٣) سورة الأحزاب من الآية ٣٧ .

(٤) النبأ العظيم د / محمد عبد الله دراز ص ٣٢ بتصرف ، دار القلم ، الطبعة الثامنة ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .

قبل العقول، وذلك لأنه يتحدث بالقرآن، فالقرآن منهجه وقائده، ومن ثم يكتب له النجاح، وتفتح له القلوب المغلقة، والصدور الموصدة، والأبواب المسدودة، وذلك كله قد حصل من خلال آي الذكر الحكيم، ولا يحسبن القارئ الكريم أنى أضرب فى بيداء أو أنى أترامى إلى شقة بعيدة وسفر غير قاصد، كلا فإن لم أخرج عن دائرة بحثي ولكني عند ذكرى لمصدرية القرآن لم أشأ أن تمر هكذا وذلك لأهميتها عند الحديث من أثره على رسول الله، إذ هو قطب الرحى وبيت القصيد، فما لبث الدعاة إلى الله يقتفون الأثر ويسيرون على الدرب ويعيشون فى جو المنهج القرآني الراقي، والفريد الذي عاشه رسول الله ﷺ إمام الدعاة، وقائد البشرية الأول.

أما عن تعلمه على يد بحيرا أو على يد رجل حداد، فإنى أعتقد أنها شبهة لا تقوم على قدم وساق ومن ثم فبطلانها ظاهر وواضح من خلال الحديث الأول عن أن القرآن من عند الله، فما دام من عند الله وثبت ذلك، فلا داعي للقول الأخير أبدا، إذ لا معنى له على الإطلاق.

فمن يقول ذلك أشبه بمن يجادل في آيات الله بغير سلطان، وصدق الله إذ يقول ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1].

فالرسول ﷺ كان يواجههم بالحقائق المرة التى يرفضونها، ومن ثم فهو يحول بينهم وبين ماض هم به مستمسكون وهوى هم له عابدون وصدق الله إذ يقول ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ * أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾[2].

فلنذرهم في غيهم يعمهون، وضلالهم يتيهون، ومصيرهم المحتوم ولننتقل نتابع البحث وإنا إن شاء الله لمهتدون.

* * *

(١) سورة غافر الآية رقم ٥٦ .

(٢) سورة المؤمنون الآيات من ٦٨ إلى ٧٠ .





الفصل الثاني

الدعاة إلي الله تعالى والإعجاز التأثيري للقرآن الكريم

ويشمل ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الهداية القرآنية

المبحث الثاني: الإخلاص

المبحث الثالث: الاعتـــدال

إنه لمن الحق والإنصاف أن أذكر هذا التأثير القرآني على من يعلمون الناس أمور دينهم ومن يتولون قيادهم دينياً ودنيوياً، وهذا الأمر يحتم علينا إذن أن نؤكد على كمال هذا التأثير في قلوبهم؛ وذلك لأنهم الكوادر الذين يحملون مشاعل الهداية إلي الناس أجمعين وأنوار هذا التأثير، لأنهم لابد لهم أن يتأثروا به هم أولاً، فمن لا يملك الذصاب كيف يزكى؟ وفاقد الشيء لا يعطيه؟ ومن ثم حاولت قدر ما أملك - بصفتي باحث وبصفتي أمارس الدعوة - بحكم عملي - أن أبرز أثر هذا الإعجاز على الدعاة أنفسهم. ولعل هذه الآثار التي أذكرها هي من باب الكليات التي يندرج تحتها الجزئيات فمن ظن أنى أهملت أثراً سيجده يندرج تحت كلٍ قد ذكرته جامعاً له، وذلك علي قدر الاستطاعة والجهد والله المستعان ، وأري أن أولى آثار هذا التأثير القرآني لدى الدعاة أن يرزقهم الله الإخلاص في القول والعمل فهم أولى الناس بذلك؛ لأنه ليست النائحة كالثكلى؟ فهم أعلم الناس بما يأمر به القرآن وبما ينهى عنه فيجب عليهم إذن أن يكونوا أول المتأثرين بهذا القرآن الكريم .

المبحث الأول : الهداية القرآنية :

من أهم الآثار التي يحدثها التدبر القرآني في الدعاة وهم حملة مشاعل النور والهداية إلى البشرية جمعاء، وهذه الهداية تأتي انطلاقاً من قول الله تعالى ﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾[(١)] فالهداية معنى يحدث داخل القلب من خلال تأثره بآي القرآن الكريم، وتدبره لأحكامه، والوقوف عند محكمه وآياته.

مفهوم الهداية: هذا الأثر المهم من آثار تدبر القرآن الكريم يحمل عدة مفاهيم هامة، أجلها وأعظمها أنه يبعث في النفس إيحاءً شديداً لتدبر آي القرآن، والتأثر بكل حرف فيه، لاسيما وأن الله قال في بداية القرآن ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[(٢)].

---

(١) سورة الإسراء الآية رقم ٩.

(٢) سورة البقرة الآية رقم ٢.

الهداية لغة: فعلها هدى وهو ضد الضلال ويعني الرشاد، ومن أسماء الله تعالى الهادي لأنه هدى كل مخلوق إلى ما لابد منه»[1] وفى بصائر ذوى التميز «الهدى: الرشاد والدلالة تقول أرشده فاهتدى قال أبن عطية الهداية في اللغة الإرشاد، وقال الراغب: الهداية: دلاله بلطف»[2].

الهداية اصطلاحاً: عبارة عن إرشاد المسلم إلى طريق الحق وخصال الخير كاملة وذلك بحيث لا يحيد عنها قيد أنملةٍ واحدةٍ، ويبتعد عن طريق الغواية والضلال حتى ما يكون بين وبينه قدر خطوة واحدة. وهذا كله ناتج عن تأثره بآى القرآن الكريم، والوقوف عند معانيه، والتأدب بآدابه ، وأنت تجد هذا واضحاً وجلياً في سورة الفاتحة من قول الحق سبحانه وتعالى ﴿اهدِنَــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾[3] والمعنى - والله أعلم- أي أرشدنا ودلنا دلالةً قاطعةً على الطريق السوي المستقيم الذي لا يضل زيفاً ولا خداعاً ولا هلاكاً ألا وهو طريق الحق والخير والصلاح، فهو توفيق الله به من يشاء من عباده حيث يقول الحق سبحانه ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ﴾[4] .

وليعلم أن هذه الهداية يمنحها الله لمن يشاء من عباده، فهي هداية إيمانية ولعل الذي أقصده من معنى الهداية فى هذا الصدد إنما هي هداية القلوب لمعرفة علام الغيوب، من خلال ما فى السطور من آيات الذكر الحكيم، ومن المسلم به عقلاً أنه لو اجتمع أهل الأرض على أن يضلوا رجلاً أراد الله هدايته ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، كما أنهم لو أزمعوا أمرهم على إضلاله والله يريد هدايته لن يفلحوا وهذا قول الله سبحانه ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَّ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[5] ويقول - تعالى - في هذا المعنى ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ

---

(١) لسان العرب ابن منظور ١٥ / ٢٣٦ . مرجع سابق .
(٢) بصائر زوى التميز في لطائف الكتاب العزيز ، العلامة الفيروز آبادي ، ج ٢ / ١٣٦ بتصرف مرجع سابق ..
(٣) سورة الفاتحة الآية رقم ٥.
٤» سورة محمد الآية رقم ١٧.
(٥) سورة القصص الآية رقم ٥٦.

الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1] ومن ثم علم أن الهداية تكون من الله - سبحانه وتعالى - لمن يريد هدايته من عباده ولذا قال﴿.....مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً﴾[2]

وعلى ذلك كانت الهداية التي جاء بها القرآن الكريم صفةً لازمةً له، وبالتالي لقارئه وتاليه، وعلامةً مميزةً له، وخاصيةً من أهم خصائصه، ومن هذا المنطق كان لابد من وقفه مع آيه الهداية القرآنية في سورة الإسراء﴿إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾[3] حيث إن هذه الآية على إيجازها تحمل معاني الهداية كلها، عامها وخاصها، بل إنها لتتعدى إلى أبعد من ذلك إلى عالم الضمير والشعور، وعلم الأسرار الداخلية الذي لا يطلع عليه إلا علام الغيوب وعالم الأسرار وهو الله، يقول صاحب الظلال» الآية هكذا على اطلاقها فيمن يهديهم، وفيما يهديهم، أما فيما يهديهم فتشمل كل منهج وكل طريق وكل خير يهتدي إليه البشر فى كل زمان وفى كل مكان، وأما فيمن يهديهم فتشمل أقواماً وأجيالاً، بلا حدود من الزمان أو المكان، وهذا المعنى كله تحمله كلمه يهدى «ثم في عالم الضمير والشعور بالعقيدة الواضحة البسيطة التي لا تعقيد فيها ولا غموض، والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء، وتربط بين نواميس الكون، ونواميس الفطرة فى تناسقٍ واتساقٍ، بين ظاهر الإنسان وباطنه، وبين مشاعره وسلوكه، وبين عقيدته وعمله، فإذا هي كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصم، منطلقة إلى أعلاه هي مستقرة على الأرض»[4].

ومن ثم يعيش الإنسان بهداية من ربه تحجبه عن كل سوء وإثم ويرتفع بها إلى مصاف درجة الدعاة والهداة الذين يحملون مصابيح الهداية للناس أجمعين، وذلك لأن هذه الهداية القرآنية تجعل النفس لا تمل ولا تيأس ولا تقنط ولا تستهتر بل تجعلها دائماً فى حد

---

(١) سورة آل عمران الآية رقم ٨٦.

(٢) سورة الكهف الآية رقم ١٧.

(٣) سورة الإسراء الآية رقم ٩.

(٤) فى ظلال القرآن سيد قطب ج ٣/ ٢٦٨ مرجع سابق.

الاعتدال والاتزان، وعدم الجمود والتشدد، وصدق الله ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ فمن يتدبر القرآن الكريم ويتأثر به، تحصل له الهداية التي يهتدي بها إلى الله تعالى أما من لم يهتد بهدى القرآن ولم يؤثر فيه فهو متروك لهوى النفس وهواها العجول، المندفع التي لا تضبطه انفعالاته ومن ثم يقع في الشر دائماً، فالهداية إذن من أهم آثار التدبر القرآني التي تثمر ثمرتها العامة على كل البشر في كل الأجواء وفى كل الأزمان، وتثمر ثمرتها على المستوى الخاص وأعنى بذلك الوعاظ والدعاة، وهذا كله مستوعب لمعنى الهداية التي جاء بها القرآن الكريم، والتي كانت صفةً ملازمةً له لا تنفك عنه أبداً، بل إن شئت فقل هي سمةٌ بارزةٌ على آي القرآن الكريم لا تنفصل عنه أبداً، حتى كان هو ذاته - أعنى القرآن الكريم - هدى لكل من نظر إليه، أو تدبر فيه، أو استمع إليه أو أنصت له، أو عمل به أو دعي إليه ومن ثم كان أول ما يقرع سمع قارىء القرآن وقلبه بعد الفاتحة من هذا الكتاب المجيد، هذا الوصف الوارد بصيغة بالغة في الحصر والتأكيد ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1] ويتكرر ذلك بكثرة فى القرآن الكريم، فهو كتاب هداية عامة للبشر أجمعين، بل هو هداية عامة وشاملة لكل من يشملهم خطابه، ويتناولهم حكمه ونظامه وآدابه - من أجل هذا - أخذ منهج الهداية يحيط به من كل جانب، يحيط به فى كل آفاقه، بل ويلابسه فى كل زواياه، فنزوله منجماً ومفرقاً كان مقصوداً به الهداية، وذلك حيث يقول الله - سبحانه وتعالى- ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ* وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ * إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

ولعل هذه الآية - والله أعلم - كانت شرطاً وتوضيحاً لقوله تعالى فى سورة الفرقان ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾[3]

---

(١) سورة البقرة الآية رقم ٢.

(٢) سورة النحل الآية رقم ١٠٢.

(٣) سورة الفرقان الآية رقم ٣٢.

مراحل الهداية في القرآن الكريم:

إن الناظر المتأمل في الآيات التي تنص على هداية القرآن الكريم يلحظ بجلاءٍ ووضوحٍ أنها على أقسام أربعة ذكرها صاحب البصائر فقال «وهداية الله تعالى للإنسان على أربعةِ أضربٍ».

الأول: هداية عامة: وهى الهداية التي عم الله بها كل مكلف، من العقل والفهم والفطنة، والمعرفة الضرورية، بل عم بها كل شيء حسب احتماله، وذلك كما قال سبحانه ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[1].

الثاني: هداية الدلالة: وهي الهداية التي جُعلت للناس بدعوتهم على ألسنة الأنبياء- عليهم السلام - وإنزال القرآن ونحو ذلك وهو المقصود بقوله سبحانه ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[2] ومنه قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وإنك لتهدي أي لتدل، فالهداية هنا تعني الدلالة.

الثالث: هداية التوفيق: وهو التوفيق الذي يختص الله - تعالى - به من اهتدى من عباده، فهو يوفقهم للهداية وذلك بالإيمان واليقين ومن مستلزمات الإيمان تدبر القرآن قال تعالى ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[3].

الرابع: الهداية الأخروية وهى الهداية في الدار الآخرة إلى الجنة وهو المعنى بقوله سبحانه ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ

---

(١) سورة طه الآية رقم ٥٠.

(٢) سورة السجدة الآية رقم ٢٤ .

(٣) سورة التغابن الآية رقم ١١.

الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] وهذه الهدايات الأربعة مترتبة، فإن من لم تحصل له الأولى، لا تحصل له الثانية...»[2] وأنا لا أتفق مع صاحب البصائر في الجزئية الأولي وذلك حيث أن هذه الهداية العامة معطاة لكل البشر، وهذا من فضل الله علي كل الخلق بشراً كان أو غيره وصدق الله ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ ومن خلال هذا الكلام يمكن لي أن أجملها في ثلاث مراحلَ متعاقبةٍ، بحيث أن كل مرحلةٍ تسلم القيادة للتي تليها، وكل هذا في تناسقٍ فريدٍ فتعالوا بنا نتأمل هذه الآيات لنستخرج منها المراحل الثلاث.

المرحلة الأولى: الهداية العام :وهى المرحلة التى تكون الهداية فيها عامة وشاملة حتى أنها تشمل كل مناحي الحياة فى كل الأطوار والأفاق، وفى كل جوانب الوجود المختلفة وهذا كله نأخذه من قوله تعالى «إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم» وهذه الآية قد قمت بإيضاح شيءٍ من معناها في الصفحات السابقة، لكن القارىء المتدبر الواعي لمعناها يلحظ أن عبارتها توحي إيحاءً شديدًا بعموم معناها، حتى أنها تشمل الجن وغيره، ولعل هذه المرحلة هي التي عبر عنها الجن، بما أخبرنا الله -سبحانه وتعالى - به فى القرآن إذ يقول تعالى ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾[3].

فهو كتاب هداية للبشر وغير البشر من الجن، حتى أنهم بالغوا فى هذه الهداية، حتى صاروا بها دعاةً إلى قومهم، وذلك واضحٌ من تأثير القرآن الكريم فيهم، وهذا المعنى تلحظه واضحاً فى سورة الأحقاف فى قول الحق سبحانه ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4].

---

(١) سورة الأعراف الآية رقم ٤٣.

(٢) بصائر زوى التميز في لطائف الكتاب العزيز ، العلامة الفيروز آبادي ، ج ٢ / ١٣٦ بتصرف مرجع سابق .

(٣) سورة الجن الآيتان رقمي ١ ، ٢ .

٤) سورة الاحقاف الآيتان رقمي ٢٩ / ٣٠.

وهنا ذكروا أن القرآن الكريم كتابُ هدايةٍ يهدى إلى كل حقٍ وخيرٍ، فهي تغيرات تدل على هداية الثقلين من الجن والإنس في كل مجالات الهداية، لأنها الهداية للتي هي أقوم، هداية إلى الرشد الذي لا ضلال معه، هداية إلى الفريضة المستقيمة الذي لا اعوجاج فيه، ثم تأمل ماذا قالت الآيات بعد ذلك من قول الله سبحانه ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[1].

فهذه المرحلة جعلها القرآن عامة للكل على سواء، فمن شاء الله له الهداية اهتدى، ومن وجد من نفسه قوماً إلى هداية ربه فليقرأ القرآن وسيجد الهداية سبيله، والطريق الحق سلوكه، والخير كله أمامه.

المرحلة الثانية: مرحلة الهداية لمن خوطب بالدعوة .

وفى المرحلة الأولى كانت الهداية عامة وشاملة، وهى بعمومها وشمولها هذا لم تدع قولاً لمعتذر على الإطلاق. أما هذه المرحلة فقد خصت جنس الإنس وهذا ظاهر فى قول الحق سبحانه ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾[2].

فهذه المرحلة أو إن شئت فقل هذه الآية خصت جنس الإنس لمزيد من الرعاية والاهتمام، وذلك لما تضمنته هداية القرآن لهم من التوجيه إلى ما فيه سعادتهم في عاجلهم وآجلهم، ولما تميزوا به من اختصاصهم بالرسالات جميعاً المنزلة من أجلهم، ولما تميزوا به كذلك في تكوينهم الإنساني حيث إن كل إنسان يتكون من شقين هامين لا غناء له عن أحدهما فضلاً عنها، وهما الروح والجسد هذا التكوين الإلهي للإنسان قد جعل فيه تفاعلات لعناصر متقابلة داخلياً وخارجياً. فلينفى فيه صفات الإرادة ويقابلها الضعف، الحب ويقابلها البغض، العزيمة ويقابلها، التقوى ويقابلها الفجور.....إلخ ومن ثم كان

---

(١) سورة الأحقاف الآيتان رقمي ٣١ / ٣٢.

(٢) سورة البقرة الآية رقم ١٨٥.

لابد من هداية للناس لها سمة تميزهم دون سواهم من سائر المخلوقات التي شملتهم الهداية العامة، لا سينا إذا ما علمنا أن الإنسان مشتق هذا اللفظ من نسى، أو مشتق من أنس فمن الأول قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾(١).

وذكر صاحب البصائر الأمرين معاً «فقال وسمي الإنسان إنساناً لأنه يأنس ويؤنس به وقيل للإنسان إنسان: أنس بالحق أنس بالخلق: فروحة تأنس بالحق، وحمية يأنس بالخلق، وقيل من الإيئاس وهو الإحساس. وقيل من نسى ومنه قول الشاعر وسميت إنسانا لأنك ناسٍ. وفى المثل الإنسان عرضه للنسيان. ا. ه»(٢).

فهذا التكوين العظيم داخل الإنسان من نفسي فيها ما فيها بين الرغبات والنزعات الرغبات وينفذها، وصدق الله سبحانه ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾(٣).

أرأيت أن كان ولابد من هداية للجنس الانسانى خاصة لما فيه من هذه الخطوط المتقابلة داخل النفس الإنسانية، فهي دائماً تحتاج إلى ما يذكرها ويبينها لتهتدي إلى ربها، وتتوب إلى رشدها،وليس هناك أجمل ولا أروع من القرآن الكريم الذي فيه كل هداية يحتاج إليها القلب، وكل راحة تسكن إليها النفس، كل عمل طيب وجميل يقوم به الجسد، «هدى للناس»ومن هنا كان خليقاً بأن يخفى من هداية القرآن بالذكر للناس حتى لكأن القرآن الكريم ما أنزل إلا لهم، وأن هدايته ما كانت إلا من أجلهم وهذا التأكيد أيضاً لأن الناس بطبعهم وتكوينهم الجسدي يتيهون في شتى مناحي الحياة تأخذهم المتاهة بعيداً عن الحق وصدق الله تعالى إذ يقول ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾(٤).

تأمل هذه الآية ببصيرتك، وأفحص معناها بقلبك، ستجد أنها تأخذ الإنسان بعيداً

---

(١) سورة طه الآية رقم ١١٥.

(٢) بصائر زوى التميز مادة نسى مرجع سابق.

(٣) سورة الشمس الآيات من ٧ إلي ١٠.

(٤) سورة الإسراء الآية رقم ٨٩.

عن عوامل التكوين الذاتي وحروف الأزمان لكن الحقيقة التي لا مراء فيها ولا جدال أن كل الناس لم تستجيب لهذه الهداية مصداقاً لقوله ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾ لكن القلة التي اهتدت بهدى القرآن أصبح على كاهلها عبءٌ ثقيلٌ، وتبعةٌ لا يستهان بها، ولا بد من القيام بالواجب النوط بها وأعنى بذلك الدعاة الذى كان تدبرهم للقرآن أثراً في هدايتهم إلى الطريق الحق.

المرحلة الثالثة: الهداية للمتقين: وهذه أعلى درجات الهداية في القرآن الكريم أو هي ما يخص الله به عبادة المؤمنين المتقين، فهي هداية أخص خصوصياتها، وأدق جوانبها، ولذا كان الإشارة إليها فى صدر المصحف الشريف والمعبر عنها بقوله سبحانه﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (1) وكأن المعنى فيما يبدو إلى والله أعلم - أن القرآن أنزل خصيصاً لهداية أولئك الذين أخذوا بأسباب الهداية فاهتدوا، واستضاءوا بنور الهداة فرشدوا، وأرشدوا غيرهم، اهتدوا واستمتعوا بالنور فأرادوا أن يمنحوه لغيرهم فهم حملة المصابيح، ومشاعل الهداية للناس أجمعين، هم قد استفادوا من الهداية حتى لكأنك تلمح أنها تحققت فيهم وظهرت في شخوصهم وظهورها في أشخاصهم يوحى إليك بمعنى غريب تشعر به ، وكأن الهداية لم تكن إلا لهم، ولم يقصد بها أحد غيرهم، وكانوا هم مظهر نورها، ومصدر الإقتداء بها، وصدق الله إذ يقول ﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ * أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ (2).

إنها هداية في أسمى مراتبها وأعلى درجاتها هداية من طراز خاص، هذه الهداية لابد أن تأخذ صداها الواقعي عند المهتدين، ولدى الذين أضاءت هذه المشاعل في قلوبهم، حتى يتسنى لهم أن يكونوا سبباً فى هداية غيرهم، أو سبباً في حمل غيرهم على الهداية، بحسن الدعوة لهم، وجميل القول الهين والرفق بهم، وهذا كله من عمل الدعاة إلى الله

(1) سورة البقرة الآية رقم ٢ .

(2)سورة الأنعام الآيتان رقمي ٨٩ ، ٩٠ .

تعالى، أو كل من يجد فى نفسه الأهلية للقيام بذلك، فالله قال «هدى للمتقين» وللتأكيد على هذا الكلام أن بعض الآيات تقول «هدى ورحمة للمحسنين» «هدى وبشرى للمسلمين» فالله يريد صنفاً معيناً له ميزات خاصة هي التقوى - الإحسان - الإسلام، وهذا يكون بإشراق الهداية على النفوس والعقول والقلوب ويتوافر هذا في الدعاة.

مظاهر الهداية وعلاقتها بالدعاة:

إن الهداية القرآنية تتخذ عدة أشكال وألوان حسب حال ما ترمى إليه، وأنا أعتبرها -والله أعلم - عبارة عن مظاهر وأنماط وهى أثر من آثار تدبر القرآن الكريم، فمرت تتخذ الشكل العقلى، ومرة تتخذ الشكل العقلى، ومرة تتخذ الشكل النفسي وآخر السلوكي، ورابع التشريعي...إلخ ولكنى أتحدث الآن عن أثر نتج عن تدبر القرآن للدعاة أو في مجال الدعوة الإسلامية.

فكيف يكون إذن هذا الأثر عنواناً يعرف به القرآن من خلال الدعاة إلى الله ويكون طريقاً لهداية غيرهم إلى الله سبحانه، وهذا ما تجيب عنه السطور التالية:

أولاً: إيضاح أن هذه الهداية قد احتوت أرقى وأوفى ما عرفت البشرية:

وعرف التاريخ من هدايات الله للناس ما انتظمت كل ما يحتاج إليه الخلق في العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات على اختلاف أنواعها، وجمعت بين مصالح البشر فى الآجلة والعاجلة. ونظمت علاقة الإنسان بربه وبالكون الذي يعيش فيه ووفقت بطريقة حكمية بين مطالب الروح والجسد ومنه قوله تعالى﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة الآية رقم ١٧٧.

وبهذا يستطيع الدعاة إلى الله تعالى أن يؤكدوا أن هذه الهداية تامة فى معناها وتطبيقها فى الواقع، وهذا التمام يجعلها تشمل كل أحد من خلق الله تعالى، وطريق هذه الهداية القرآن الكريم والتأثر بآياته والتدبر بكلماته، والوقوف عند معانيها، وبهذا يعلم أن الله عز وجل يقول فى معرض الحديث عن الفائز بالقرآن وقشعريرة الجلد بمعناه ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[1].

وانظر إلى قوله تعالى « ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ» وهذه الإشارة تعود إلى القرآن الكريم كأن المعنى أن القرآن الكريم هدايةٌ تامةٌ لا تقضى فيها يمنحها الله لمن أقشعر جسده من القرآن، ويعطيها لمن لان قلبه بآيات الذكر الحكيم إنها هداية ليس بعدها هداية، إنها الهداية التي لا تحتاج إلى كثره تدليل، كما أنها تمنح لمن استوعب حديث الله تعالى قال ﷻ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[2] والاستفهام هنا علي متضمن معني النفي والمعني «لا أحد أحسن قولاً ممن يدعوا إلي الله» وهذا قد اكتسبه من «أحسن الحديث» كما ورد في آية الزمر، وهذه هداية الدلالة وسمي الله كلامه «حديثاً» وذلك لأن القول ينبني علي الحديث، ومن شرف الحديث كان شرف القول، ومن شرف الحديث كان شرف القائل.

ثانياً: تبيان أن هذه الهداية واضحةٌ لا غموض فيها.

ووضوحها هذا دليل قوتها وتأثيرها ونفوذها إلى القلوب مباشرة لأنها تنزيل من الله – سبحانه وتعالى – يغمر بها قلوب من أحب من عباده وهذه الهداية الواضحة تستوعب كل الخلق على كافة مستوياتهم وأشكالهم وألوانهم «فلعرضها عرضاً رائعاً مؤثراً، توافرت فيه كل وسائل الإيضاح وعوامل الإقناع، إنها أسلوب قد نعجز فى بلاغته وبيانه، واستدلال بسيط عميق يتحد باطنه وعمقه من كتاب الكون الناطق وتأمل في هذا قوله سبحانه ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ

---

(1) سورة الزمر الآية رقم ٢٢.

(2) سورة فصلت الآية رقم ٣٣ .

بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾[1] وأمثال خلابة تخرج أدق المعقولات فى صورة أجلى الملموسات وذلك قوله تعالى ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً﴾[2].

وحكمٍ بالغاتٍ تبهر العقول بمحاسبة الإسلام وحلال التشريع وقصص حكيم مختار بتقوى الإيمان واليقين ويهذب النفوس والغرائز ويقفل الأفكار والعواطف ويدفع الإنسان دفعاً قوياً إلى التضحية بالنفس ويصور مستقبل الأبرار والفجار تصويراً حاضراً يجعله كأنه حاضر تراه الأبصار فى رابعة النهار»[3].

ولعل هذه الآيات توضح ما سبقت الإشارة إليه ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾[4] وقوله في نفس السورة﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾[5] ولعل استعراض الدعاة لمثل هذه الآيات يرقق القلب ويجعله أقرب ما يكون إلى الله سبحانه وتعالى.

ثالثاً: إبراز هداية القرآن الكريم للنفس الإنسانية:

إن المسلم إذا ما قرأ القرآن الكريم يجد هذا واضحاً بين صفحات القرآن الكريم فقد استوعب كل الدلالات اللغوية للنفس الإنسانية، سواء ما يتصل بها كتعبير عن ذات الإنسان فى حملته أو عن مظهر من مظاهر التأثير والتأثر في كافة المجالات ، المجتمع، والعقيدة، والحياة ، وذلك إشارة إلى أصل الوجود الإنساني ومنشأ تكوينه قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[6].

---

(١) سورة النمل الآية رقم ٦٠.

(٢) سورة الكهف الآية رقم ٤٥.

(٣) راجع في هذا مناهل الفرقان الزرقانى ص ٢١ . مرجع سابق .

(٤) سورة المطففين الآية رقم ٢٢/ ٢٣.

(٥) سورة المطففين الآية رقم ٧.

(٦) سورة النساء الآية رقم ١.

وكقوله سبحانه ﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾[1] ومما يكون تعبير عن الذات الإنسانية الناضجة في مجال العقيدة قوله سبحانه وتعالى ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[2].

ويتحدث عن النفس بأقسامها في القرآن الكريم، وبهذا يعلم أن الهداية القرآنية للنفس الإنسانية قامت على الفضيلة من العقيدة وصدق الإيمان، وكل هذا وغيره كثير قد تضمنته هداية القرآن الكريم فى مجال النفس الإنسانية، والأمثلة لا يسمح بها المقام هنا، لكن الواجب على الدعاة إبراز هذه الجوانب المضيئة كلها للناس ليهتدوا إلى ربهم -عز وجل - كما اهتدى غيرهم.

رابعاً: إدراك الهداية العامة حتى فى المجال السلوكي:

فلقد بلغ الإسلام في هذا الجانب السلوكي الرفيع منزلة قعرت عن إدراكها جميع الأمم، وعجزت حتى عن مجرد تصورها أرقى مناهج الفكر البشرى، أي ذكر الدعوة سلوكياً من خلال التأثر بالقرآن الكريم «بل إن ما أسموه بالجمهورية الفاضلة، لم يصل إلى وضع التصور المثالي الذي رسمه القرآن الكريم منهجاً، وطبقه عملاً،وأبرزه للعالم كله حجة على سهولة التناول، ويسر التطبيق ومثالية الأخلاق»[3] إلى هذا الحد تصل هداية القرآن الكريم،فجميع المجالات الإيمانية والاقتصادية والسياسية حتى الآداب الاجتماعية مما يمارسه الناس فى حياتهم اليومية من مثل:جمال المظهر والمنظر، وآداب الطعام والشراب، الحديث، الجلوس، الزيارة.، قضاء الحاجة، الاستئذان مما يجعل المسلم لا يملك إلا أن يقول كما قال الله تعالى ﴿الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[4].

وأخيراً: إيضاح أن القرآن الكريم بهداياته كلها لم تمسه يد التحريف.

لقد بعث الله سبحانه وتعالى موسى بالتوراة فحرفها قومه وبدلوا وغيروا حتى أصبحت التوراة غير التوراة، ولم يكن قوم سيدنا عيسى بأحسن حالاً من غيرهم فحرفوا

---

(١) سورة الأنعام الآية رقم ٩٨.

(٢) سورة يونس الآية رقم ١٠٠.

(٣) هذا القرآن فأين منه المسلمون ، محمد زكى قاسم ، ص ٣/ ٣٨١ مرجع سابق.

(٤) سورة هود الآية رقم ١.

هم كذلك فى الإنجيل، حتى غدا الإنجيل غير الإنجيل، وبعث الله أنبياء آخرين، وأنزل معهم الكتب، ولم تسلم مما أصاب أمثالها إلا القرآن فقد تولي الله سبحانه وتعالى حفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1].

بل جعل القرآن مهيمنا على الكتب السابقة ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[2].

وهذا سر من أسرار هداية القرآن فيجب على الدعاة إبرازها للناس. فالقرآن الكريم كتاب هداية شاملة وتامة وواضحة كما سبق بيانه.

تعقيب: إن الهداية التي ذكرها الله في القرآن أمر في غاية الأهمية للدعاة إلي الله، من حيث أنها أثر من الآثار الظاهرة للتدبر القرآني، إذا ما كان الإخلاص أثراً معنوياً لا يعلم بداهةً فالهداية أثر ظاهري وسلوكي في حياة الدعاة وتصرفاتهم وتعاملاتهم الحياتية حتى في كل حركة وسكنة، فالإخلاص يندرج تحته كل معلمٍ من معالم التجرد الذاتي والنفسي الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، أما الهداية فإنها يندرج تحتها كل معلم للأخلاق والسلوك والآداب إن الناس يلتمسون من الدعاة الأمن والأمان، فالناس يضعون همومهم بين يدي الدعاة وهذا من الهداية التي عاينوها فيهم، ويهرعون إليهم في فض المنازعات لعلمهم أنهم لا يظلمون ويقضون بالحق حسب ما تعلموه من القرآن. كل هذا وغيره مدعاة إلي أن يتمسك الدعاة بالقرآن أكثر وأكثر، فهم ينهلون من هدايته ما يستطيعون ه مواصلة حياتهم الدعوية التي جعلها الله ﷻ أمانة في أعناقهم، لكن دون تعصبٍ أوتشدد أو حياد عن الحق وإنما يكون بالاعتدال والوسطية التي تعلموها من القرآن الكريم وها هو الأثر الثالث من آثار تدبر القرآن لدي الدعاة إلي الله تعالى.

---

(١) سورة الحجر الآية رقم ٩ .

(٢) سورة المائدة الآية رقم ٤٨.

المبحث الثاني : الإخلاص من آثار التدبر القرآني :

من المعلوم بداهةً أن أي عملٍ يخلو من الإخلاص لا بركة فيه، وإذا كان هذا ينطبق علي أي عمل فما بالك إذا كان هذا العمل هو الدعوة إلي الله تعالى، أليس يستحق هذا إخلاصاً من طرازٍ خاصٍ، إنه أشرف العلوم وأجلها لاسيما إذا ما علمت أنه يتعامل تعاملاً مباشراً مع كتاب الله تعالى، ومن ثمّ كان لا بد من الإخلاص للداعية إلي الله تعالى، ولذا بدأت به كأول أثرٍ من آثار التأثر بالقرآن حقيقة الإخلاص: إن الإخلاص لغة «خلص الشيء بالفتح يخلص خلوصاً وخلاصاً إذا كان قد نشب ثم نجا وسلم، وأخلص الشيء أي أختاره، وقرى﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[1] بكسر اللام وفتحها وعنى بالأولى الذين أخلصوا العبادة لله، وبالثانية الذين أخلصهم الله ﷻ لعبادته. قاله الزجاج. وقال أبن الأثير: سميت سورة في القرآن بالإخلاص لأنها خالصة في صفة الله تعالى أو لأن الافظ لها قد أخلص التوحيد كاملاً لله ﷻ وكلمة الإخلاص كلمة التوحيد،والمخلصون المختارون، والمخلصون الموحدون، والتخليص التنجيه من كل منشب، يقال خلّصته من كذا أي أنجيته تنجيةً، والإخلاص في الطاعة ترك الرياء»[2] ومن هذا يفهم أن هذه المادة وهى «خلص» تدور حول معنى التوحيد والنجاة والصواب والاختيار، وكل هذه المعاني تؤكد معنى الإخلاص المراد من وراء التأثير بالقرآن للدعاة إلى الله تعالى، وكأن الإخلاص المراد هنا – كما أفهم – أعنى به نجاةً من العذاب، واختياراً للتوحيد دون سواه، وتجنب الخطأ، وخلط الرأي وفساد التدبير، ويقول الرازاى في مختار الصحاح «خلص الشيء صار خالصاً وهو من باب دخل وخلص إليه الشيء أي وصل، وخلصه من كذا أي نجاه منه»[3] ومن ثم ثبت بعد هذا أن الإخلاص يتأتى لمن يريد ذلك بعد رياضةٍ ومجاهدةٍ كبيرةٍ، ومتابعةٍ دائمةٍ ومستمرةٍ للقرآن والتأثر بآياته، حتى يتحقق لديه ذلكم السر الخفي كما يحلو لي أن أطلق عليه – ولذا يقول صاحب التعاريف

---

(١) سورة ص الآية رقم ٨٣ .

(٢) لسان العرب ابن منظور ج ٧/ ٢٦ مادة «خلص» مرجع سابق .

(٣) مختار الصحاح الرازي ج ١ / ٧٣٨ مادة «خلص» مرجع سابق .

«الخالص الصافي، لكن الخالص مازال يشوبه بعد ما كان فيه، والصافي يقال لمن لا شوب فيه»[1] ومن هذا المنطق يتضح أن الإخلاص هذا حركةُ اتصالٍ سريةٍ تنم بين الداعين وبين القرآن الكريم، ينتج عنها ذلكم السر العجيب الذي هو الإخلاص.

وفى الاصطلاح يعنى «لطيفةٌ ربانيةٌ موزعةٌ في الروح بالقوة، فلا يحصل بالفعل إلا بعد غلبات الواردات الربانية ليكون واسطة بين الحفرة والروح في قبول تجلى صفات الربوبية وإفاضة الفبض الالهى على الروح»[2] وعلى ذلك يمكن لى أن أقول﴾ إن الإخلاص هو سرٌ خفيٌ ، يحمل معنىً مستكناً لا يعيه أحد إلا إذا كان لدية ملكة الاستعداد له، ومصدره هو التأثر بآي الذكر الحكيم - هذا هو الأغلب - ويكون بين العبد وربه يصل من خلاله إلى درجات المقربين، بل ربما يكون في ذلك من المختارين الذين أختارهم الله تعالى وهذا قمة العبادة والعبودية لله تعالى.

أهمية الإخلاص للدعاة من واقع تأثرهم بالقرآن:

إن الإخلاص سمة المسلم البارزة بصفة عامة سواء كانت للدعاة أم لغيرهم، فهي صفةٌ أساسٌ لامحيص عنها أبداً، فالعالِم لابد أن يتوافر فيه الإخلاص وكذا المسلم في عبادته لربه، ومن ثم كان أساس الأعمال هو الإخلاص على أي مستوىً كان، وإني أستطيع أن أؤكد أن هذا السر الخفي الناتج عن التأثر بالقرآن الكريم، لا يمكن لداعيةٍ حصيفٍ أن يستغنى عنه، ولذا فإنى أجمل.

أهمية الإخلاص من خلال التأثر القرانى في النقاط التالية.

أولاً: الإخلاص برهانٌ عمليٌ، وواقعٌ حيٌ من التأثير القرآني على صله المسلم بربه:

إذا كان الإخلاص ضرورياً للناس جميعاً فهو إلى الدعاة أشد ضرورة، والمعروف بداهةً أن الداعية لابد أن تكون صلته بربه قويةً متماسكةً ووثيقةً، بحيث تنبثق عن هذه

(١) التوقيف علي مهمات التعاريف ج ١/ ٢٣١ ، محمد عبد الرؤوف المناوي ١٤١٠ه ،مرجع سابق.
(٢) المرجع نفسه.

الصلة القوية صلاتٌ أخرى متتابعةٌ ومتلاحقةٌ مع الناس، وهذه الصلاتُ تسير في خطٍ مستقيمٍ في تحقيق الغرض المطلوب منها وهو الإصلاح، فهذه الصلة العميقة بالله تورث صاحبها الإخلاص الحي الذي ينبض من شريان المسلم حين تصفو روحه، وهذا لعمري منتهى ما يصل إليه الداعية، ولن يتحقق للداعية كل هذا الإخلاص إلا إذا كانت الصلة بكلام الله قوية ولن يكون له هذا الإخلاص إذا كان هاجراً لكلام الله تعالى، لا سيما إذا ما كان الهجر هجر تدبر أو تأثر، وذلك لأنه أشد أنواع الهجر فى نظري - إذ هو يجمع هجرين فى وقت واحد وكل هذا يعرقل مسيرة الإخلاص فى قلبه، ويجعلها واهية كبيت العنكبوت أو أشد. ولذا كان أولى آثار التأثير القرآني فى الدعوة «الإخلاص» والذي يدفع الداعية دفعاً حثيثاً إلى إخوانه كى يطالبهم أن يتذوقوا حلاوة التأثير بالقرآن الكريم ؛ كما ذاقها هو من قبل فهذا الإخلاص ينتج لديهم التأثر الحقيقي للقرآن الكريم، وصدق الله إذ يقول ﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [1] ومن ثم كان هذا هو الأثر الذي أحدثه التدبر لكتاب الله تعالى فى نفوس الدعاة إلى الله فتطهير القلوب وتنقية الصدور، وصفاء الأرواح، ونقاء السرائر أمر لا يتحقق إلا من خلال تأثر كل هذه المعاني بالقرآن وكأنها منظومة متكاملة قاعدتها الأولى هو كتاب الله فإذا ما اكتملت هذه المعاني أمكن لصاحبها أن يقول أنا الآن تأثرت بالقرآن، فتصفو عندئذ روحه، وتسكن نفسه المطمئنة ويهدأ من كل شر وسوء، وبهذا أفتح الإعجاز التأثيرى للقرآن فى القلوب إخلاصاً. ولذا فإن المسلم إذا أرادت أن يتعود الإخلاص فى أقواله وأعماله وجب عليه حينئذ أن يقرأ القرآن الكريم وما أحوج ذلك للدعاة إلى الله تعالى.

ثانياً: الإخلاص شرط فى قبول الأعمال:

لقد أشترط رب العالمين شروطاً لقبول الأعمال من العباد، وأولها وأهمها هو الإخلاص، وإنك لتجد هذا واضحاً فى آخر سورة الكهف يقول الله تعالى﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا

---

(١) سورة يوسف الآية رقم ١٠٨ .

فالواضح أن الآية لم تكتف - كما ترى - بذكر العمل الصالح وحده لأنه لا يكفى، بل ضمت الآية إليه أمراً آخر ألا وهو أن يكون العمل خالصاً لوجه الله تعالى، وهذا شرط فى قبول العمل، ولقد قال بعض العلماء «إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً وصواباً، والخالص إذا كان لوجه الله تعالى، والصواب أن يكون على السنة»[2].

فإذا ما فقد العمل هذا الشرط الذهبي والجوهري - فى آن واحد - حبط العمل وضاع على صاحبه ثوابه،

أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى مناد: من كان أشرك في عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عنده فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»[3] المفهوم من هذا أن الإخلاص حلقة الوصل الدائمة بين العمل وقبوله عند الله، فإذا ما تحقق فثمّ القبول والواضح أن الداعية يكتسب كل هذا من مصدره الأول وهو القرآن وليس أدل علي ذلك من الداعية «صهيب الرومي» الذي ضح يبكل شئ في سبيل الله «عن سعيد بن المسيب قال لما أقبل صهيب مهاجرا نحو النبي صلى الله عليه وسلم فاتبعه نفر من قريش نزل عن راحلته وانتثل ما في كنانته ثم قال يا معشر قريش لقد علمتم أني من أرماكم رجلا وأيم الله لا تصلون إلي حتى أرمي بكل سهم معي في كنانتي ثم أضرب بسيفي ما يقي في يدي منه شيء افعلوا ما شئتم وإن شئتم دللتكم على مالي وثيابي بمكة وخليتم سبيلي قالوا نعم فلما قدم على رسول الله ﷺ المدينة قال ربح البيع أبا يحيى ربح البيع أبا يحيى»[4].

---

(١) سورة الكهف الآية رقم ١١٠.

(٢) جامع العلوم والحكم ، ابن رجب الحنبلي ص١٤ / ١٥ .

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه كتاب البر والإحسان باب الإخلاص والسرج ٢ / ١٣٠ قال الأرنؤوط : إسناده حسن.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك.

ثالثاً: الإخلاص مقياس التفاضل بين العباد:

إن الإسلام العظيم قد حث المؤمنين على الإخلاص، وجعل الشارع الحكيم مقاييس التفاضل بين العباد وبقدر ما يكون بين جوانحهم من الإخلاص العميق؛ الذي يتغلغل في القلوب فتصفو ويهذب الأرواح فتهفو، فهذا الاعتبار هو ما عليه القياس، وليس بكم العبادة وضخامتها، فقبول العمل مرهون بالنية التي أدى بها العمل، ولعل هذا المفهوم والمنطوق على حد سواء يُستقى من القرآن الكريم، فلقد قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾[1] قال أخلصه وأصوبه، بمقياس التفاضل وحسن العمل دائماً ما يعود إلى الخلاص»[2] وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ «عن أبي الدرداء يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال: من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل فغلبته عيناه حتى أصبح كتب له ما نوى وكان نومه صدقة عليه من ربه عز وجل﴾[3] وهذا يؤكد بما لا يدع مجالاً للارتياب أن المعول عليه هو الإخلاص الذي هو أهم أثر من أثار الإعجاز التأثيرى للقرآن الكريم، الذي هو المصدر الأول للدعوة إلى الله تعالى، ومادام المنبع فياضاً يتدفق منه الخير بلا حدود، فالمفروض على العباد أن ينهلوا منه ولا يتوانوا عن ذلك طرفة عين، فالله ﷻ جعل القرآن للتدبر والاتعاظ والاعتبار وعلى ذلك كان الإخلاص الجوهر الحقيقي للعبادة، والذي هو من أهم ثمار التأثر بالقرآن الكريم للناس أجمعين، لاسيما الدعاة إلى الله تعالى؛ لأن بهم صلاح الدنيا، وبهم كذلك يعلم الناس معني التأثر بالقرآن الكريم ، فهم نسمات الخير التي تهب علي قلوب الناس فتبعث فيهم الحياة الحقيقة. ومن ثم كانت أهميته لهم ملحة ضرورية.

رابعاً: الإخلاص حافز قوى ومؤثر لفعل جميع الخيرات وأساس لنجاح الدعوة :

إن الإخلاص يدفعهم إلي الخير دون اعتدادٍ بعواقبها مادام الأمر لله، فهو ينقى العمل

«١» سورة الملك الآية رقم ٢ .

(٢) مفتاح دار السعادة ابن القيم .

٣ » أخرجه النسائي كتاب قيام الليل وتطوع النهار باب من أتى فراشه وهو ينوى القيام مقام ج ٣/ ٢١٦ واللفظ له ، وقال المنذرى في الترغيب إسناده جيد ج١/ ٤٥ وابن ماجه كتاب الصلاة باب ما جاء فيمن نام عن حزبه من الليل ج ١/ ٤٢٧ .

من الشوائب ومن المكدرات التي تعوقه من دون تحقيق الإخلاص في العمل، ولعل آيات القرآن الكريم قد حذرت من هذا المُلك الذي يحبط به العمل ولا يكون له جزاءٌ عند الله، ولذا يقول تعالى﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ (١) وكذا الرسول يؤكد محذراً على أن يكون العمل مشوباً بشيءٍ ينقص ثواب الإخلاص فيقولﷺ «عن عبد الله بن مسعود يحدث عن أبيه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلغها فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم إخلاص العلم لله ومناصحة أئمة المسلمين ولزوم جماعتهم فإن الدعوة تحيط من ورائهم» (٢) وعلى ذلك يوضح الرسول قيمة هذا الإخلاص وأهميته للدعاة - خاصة - فهو من الأمور التي لا يغل عليها قلب المسلم، وهذا الحديث يعطى مؤشراً عاماً وهاماً فى نفس الوقت، حيث يؤكد على مسألة الإخلاص لاسيما إذا ما كان منبثقاً من كلام الله رب العالمين.

وقد ذكر الإمام الغازلى فى الإحياء قول الإمام الجنيد «إن لله عباداً غفلوا فلما غفلوا عملوا فلما عملوا أخلصوا فلما أخلصوا استدعاهم الإخلاص إلى أبواب البر أجمع» (٣).

فالإخلاص إذن غدا مطلباً شرعياً من جميع المؤمنين دعاةً ومدعوين وغيرهم، وإن الدعاة إلى الله تعالى أوجب و أوكد، وذلك لأنهم حملة الرسالة، ومشاعل الهداية إلى الناس أجمعين. فتضيء لهم جوانب الحياة، وترشد الضالَّ منهم إلى الحق، ولقد صدق ذلك في الداعي الأول وهو سيدنا رسول اللهﷺ حين قال الله تعالى﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (٤).

---

(١) سورة الكهف الآيتان رقمي ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٢) أخرجه الترمزى فى سنته ، كتاب العلم ، باب ما جاء فى الحث على تبليغ السماع ، ج ٥/ ٣٤ ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه كتاب الرقائق ، باب الفقر الزهد والقناعة ، ج ٢ / ٤٥٤ برقم ٦٨٠ ، وقال شعيب الأرنؤط : اسناده صحيح .

(٣) إحياء علوم الدين الإمام الغزالي ج ٤ / ٤١٠ مرجع سابق .

(٤) سورة ابراهيم الآيات من ١ إلي ٣ .

فالدعاة هم المصابيح الذين يحملون النور إلى الناس كل أنواع الخير والبر ومن ثم نعتهم الله بقوله في القرآن ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً﴾[1] وهذه الآية من جملتها تتحدث عن صفات حملة الرسالة بعد رسول الله ﷺ، وعد الله فيها أنهم يفعلون ذلك مرضاةً لله ورجاءً للفضل منه،إخلاصاً لوجهه سبحانه وتعالى يعملون العمل ويبتغون الأجر من الله، يدعون الناس إلى الخير ولا يلتمسون من ذلك الصيت أو الشهرة، هم يدعون بإخلاصٍ وعلى بصيرةٍ وإن من يتأمل دعوة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - تجد أنه كما قال القرآن عنهم ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ * يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[2].

فهم يفعلون ذلك مخلصين لوجه الله -سبحانه وتعالى- فمن كان دافعه وباعثه الإخلاص فقد صلح عمله، وكان عند الله مقبولاً، فهو لا يريد جزاءً ولا شكوراً من أحد، إلا من الله سبحانه وتعالى، أما من كان باعثه الشهرة وذيوع الصيت وإقبال الناس عليه فقد حبط عمله، خسر خسراناً مبيناً، وأشد الناس تعرضاً لهذه الفتنة هم العلماء، فإن الباعث على نشر العلم لذة الاستعلاء والفرح والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطان يلبس عليه ذلك ويقول غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذي شرعه الله، وترى الواعظ يمن على الله تعالى بدعوة الخلق ووعظه للسلاطين، ويفرح بقبول الناس قوله، وإقبالهم عليه، وهو يدعى أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين، ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظاً وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه، ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه هذا الهم بغيره»[3] فليس المهم أن يكون الصلاح على يدي أو علي يد غيري، فالأمر لا يعنيني، لأني في ذات الوقت أبغى بعملي هذا وجه الله تعالى لا الثناء والحمد من الناس وكفى بالإخلاص نعمة.

---

(١) سورة الفتح من الآية رقم ٢٩ .

(٢) سورة هود الآيتان رقمي ٥٠ ، ٥١ .

(٣) إحياء علوم الدين الإمام الغزالي ج ١ / ٤٠٠ ، ٤٠١ ، مرجع سابق .

إن الناظر في دعوة الرسل - عليهم السلام - يلحظ أن السمة البارزة في دعوتهم هي الإخلاص لله، والعمل على إحقاق الحق، وهذا كله لوجه الله تعالى، لا يأبهون بذكر أو ثناء، وإنما غرضهم الأوحد هو مرضاة ربهم ﷻ وذلك لأن الإخلاص قطبُ العبادة قال تعالى ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي﴾[1] .

ولقد استمر الرسل - عليهم السلام - في دعوتهم يبلغونها بصدق وإخلاص واحتساب، لا هم لهم إلا مرضاة ربهم وتبليغ دعوته إلي العالمين، مضحين في سبيل ذلك بالغالي والنفيس، فهذا سيدنا نوح عليه السلام لا يمل رغم ما فعله به قومه حتى من ابنه ومع ذلك قال الله تعالى﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً﴾[2] وكذلك سيدنا إبراهيم عليه السلام قدم نفسه وولده فداءً لدينه، بل أراد أن يضحى بولده ابتغاء الأجر من الله، غير آبهٍ بما يحدث به الناس، المهم عنده رضا الله تعالى ولا شئ سواه، قال تعالى ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[3] وهذا سيدنا يوسف عليه السلام ورغم ما ذاقه من الآلام التي لا يقدر على حملها الجبال، ورغم ما وضع فيه من حبس، وتضيق الخناق عليه، كل هذا لم يثنيه عن تبليغ دعوته طالما وجد فرصةً، وطالما سنحت له تحدث ودعا إلي الله تعالى، كما قال القرآن الكريم﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ

(١) سورة الزمر الآيات من ١١ إلي ١٤ .

(٢) سورة نوح الآيات من ٥ إلي ١٢ .

(٣) سورة الصافات الآيات من ١٠٣ إلي ١٠٥ .

﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[1] .

وهذا سيدنا محمد ﷺ ظل يدعو متفانياً فى دعوته بإخلاصٍ وصدقٍ ومثابرةٍ، وتحمل سخافاتِ وحماقاتِ المشركين، حتى أنهم تفننوا فى إيذائه بأساليب لم تخطر للشيطان على بال، ورغم ذلك ما توانى لحظة عن تبليغ دعوة الله إلى الناس، ولذا لما يئس المشركون منه ذهبوا يساومون عليه عمه أبا طالب، وقال أبو طالب لابن أخيه ماذا حدث لك انظر إلى رد المخلص ماذا يكون إنه إخلاص لم يعرف ولن يعرف التاريخ له مثيل «والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يميني والقمر في يساري علي أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه»[2] فقابل المشركون إخلاص الداعي هذا بالأذى والتعذيب، وصبر الداعي واحتسب ذلك عند الله رب العالمين، ولذا سنأتي جميعاً في ميزان حسناته ﷺ يوم القيامة، وقد أشفق الله عليه فقال - تعالى ولكنه بالإخلاص وتوفيق الله دخل الناس فى دين الله أفواجاً. وهكذا وجب على الدعاة أن يسلكوا مسلك أسوتهم رسول الله، فالإخلاص إذن وكما رأيت كان سمة بارزة فى دعوة الأنبياء جميعاً، وما أحوج الدعاة إلى الله وأحراهم إلى هذا الإخلاص وأن يعيشوا بهذه القلوب المؤمنة، وهذه الأرواح الطاهرة، وذلك كى ينجحوا فى آداء رسالتهم على الوجه الذي يرضى ربهم، كما فاز بها الدعاة الأول، حملة مشاعل الهدية، ألا ما أنفس الإخلاص، وأغزر بركته، إنه يخالط العمل القليل فيجعله كثيراً، وينجى صاحبه حتى يزن أمثال الجبال، ويخلوا من الكثير فلا يزن عند الله هباءة، ولا جناح بعوضة، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: أنه قال لرسول الله ﷺ حين بعثه إلى اليمن: يا رسول الله أوصني قال: اخلص دينك يكفك العمل القليل»[3].

* دائرة الإخلاص فى القرآن الكريم:

إن القرآن الكريم قد تحدث عن الإخلاص فى مواضع كثيرة ومتفرقة من القرآن

---

(١) سورة يوسف الآية رقم ٤٠ .

(٢) السيرة النبوية ابن هشام ج٢ / ١٧٥ . مرجع سابق .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك علي الصحيحين ، كتاب معرفة الصحابة ، باب الرقاق ج ٤ / ٣٤١ برقم ٧٨٤٤، وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وعلق الذهبي عليه في التلخيص بقوله غير صحيح .

الكريم، وكلها تحث القارئ والمستمع لها على التأثر والتدبر لآيته ومحكم كلماته، كل فى موطنه، حتى أن الله تعالى قد سمي سورة فى القرآن بهذا الاسم - الإخلاص - الذي هو العنوان الرئيس للمسلم، وهى البوابة التى يدخل منها المسلم إلى بقية أنواع العبادات والطاعات، وذكر السورة بهذا الاسم فى القرآن يعطى مؤشراً هاماً وخطيراً ألا هو أن الإخلاص منبعه القرآن وأصله التأثر بالقرآن، ولقد ورد ذلك فى القرآن اشتقاق المادة فقال تعالى﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾ (١) فاللبن الخالص هنا قد صفى من جميع الشوائب والمدركات، وذلك بالرغم من أنه يخرج من بين لحمٍ ودمٍ وعظمٍ إلا أنه فى النهاية يخرج لبناً ناصع البياض لا شائبة فيه ولا غبار، وكأنه مثل باللبن لقلوب العباد. وعندما أراد إبليس أن يقسم بذات الله - سبحانه - على إغواءِ آدمَ وبنيه فقال كما حكى القرآن الكريم﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٢) لكنه استدرك مستثنياً من هذا الإغواء العام قوماً لا قبل له بهم ألا وهم المخلصون فقال سبحانه﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٣).

هذا الإخلاص الفعلي قد نجاهم من إغواء إبليس وأعوانه، فأخذهم الإخلاص بعيداً على أن تنالهم يدٌ آثمةٌ أو هاجسٌ مستنكرٌ، وذلك كله لا لشئ إلا بسبب الإخلاص لله تعالى، وإنك ترى أن إبليس قد استثنى من غوايته من صفته الإخلاص، فهو بعيد عنهم بعداً تاماً، وهذا مذكور فى سور كثيرة من سور القرآن الكريم، وكلها تؤكد على خلاص من يخلص لله..بل الأمر يصل إلى أبعد من هذا، حتى جعل الله الدين الذى ارتضاه لعباده ديناً خالصاً ولا يرضى الله من عباده بغير هذا بديلاً بقوله تعالى ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهَّ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَّ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ * أَلَا للهَّ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ (٤).

وإنى أؤكد هنا أمراً هاماً جداً وهو أن الإخلاص يكون فى الماديات كما يكون فى

---

(١) سورة النحل الآية رقم ٦٦ .

٢) سورة ص الآية رقم ٨٢ .

(٣) سورة ص الآية رقم ٨٣ .

(٤) سورة الزمر من ١ إلي ٣ .

المعنويات «فطبيعة الفضيلة كطبيعة الثمرة الناضجة، يجب لسلامتها والإبقاء على نظامها وحلاوتها أن تكون خالية من العطوب والآفات»[1] وهذا يعنى أن الإخلاص قد تولد من التأثر بالقرآن الكريم والتدبر بآياته البينات وسوره الواضحات وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[2] ومن ثم كان الإخلاص عنصراً فعالاً وقوياً، ففى العبادات المفروضة اشترط القرآن فيها الإخلاص، ولعل هذا ملحٌ قويٌ أشارت إليه آية كريمة حيث قال تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[3].

فالإخلاص إذن شرط حيث قال الله تعالى﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾[4].

فالصلاة مع الرياء أمست جريمةً من الجرائم وذالك بسبب فقدانها للعنصر الحي بها وهو الإخلاص، فهو عنصرٌ فعالٌ وقويٌ ومعنوى، وإنى أشبهه أنه بمثابة الروح التي تنفخ فى العبادة سر القبول، فإذا ما خلت العبادة من هذه الروح أصبحت وكأنها تعبر عن شكل ميت لا روح فيه ولا حياة لديه، ولا خير يرجى من ورائها، وكذا سائر العبادات.

تعقيب: ومن خلال ما سبق أقول إنه لا بد للداعية أن يستكمل أدوات الدعوة التي يقوم بها في نشر دعوته، وإن هذه الأدوات هي القرآن والسنة، وما دام الأمر كذلك فلا بد من حسن فهم وتدبر معاً مع الإخلاص الذي يكون لازمة من لوازم هذا التدبر للقرآن، وأنا لا أتخيل أبداً نجاح داعية في دعوته دون أن يكون معه هذا السلاح القوي الذي هو كلام الله تعالى ولكي يتم نجاحه فلا بد له من تدبره وتأثره بكل ما فيه، بل ويحاول قدر جهده أن يستوعب أحكامه التي ينص عليها القرآن مما تخدم الناس في حياتهم، وهنا يأتي دور الإخلاص حيث لا يكون هناك أي مأرب سوي الدعوة إلي الله تعالى، وذلك حتي

---

(١) خلق المسلم محمد الغزالي ص ٢٥ .

٢» سورة ص الآية رقم ٢٩ .

(٣) سورة البينة الآية رقم ٥ .

(٤) سورة الماعون من ٤ إلي ٧ .

تكون الدعوة علي بصيرة إنها دعوة علي فهمٍ ووعي وتدبر لكتاب الله، إن الدعاة في حاجةٍ ماسةٍ إلي هذا التدبر في هذا الزمان الصعب الذي تحياه الأمة المسلمة، لتعيد أمجاد دعاتها من جديد من سيرة الرسول ﷺ وسير الصحابة ﷺ، والواقع يشهد بالحاجة الماسة إلي مثل هذا النوع من الدعاة الذين يحملون الإخلاص في قلوبهم، ويكون بادياً في سلوكهم ومن ثم كانت الهداية من آثار تدبرهم لكلام الله تعالى وهذا هو المبحث الثاني.

* * *

المبحث الثالث: الاعتــدال وعلاقته بـالتأثير:

وأقصد بالاعتدال هنا الوسطية في فهم القرآن وتدبره، والوقوف عند حكمه، النزول على آياته، والنهى عن التشدد فيها والتشدق بها، وعدم لَي أعناق الآيات لتتوافق مع هوى داخلي يقصده الداعي، فإن هـذا مـن الأمـور التـي نهـى الله عنهـا، وشـدد الرسـول النكـير عليها، كل هذه المعاني أقصد بها الاعتدال. فالاعتدال إذاً يعـد أثـراً حقيقيـاً مـن آثـار تـدبر القرآن والتأثر به فى النفس وفى النـاس مـن حولـك لا سـيما إذا كـان النـاس يحتـاجون مـن الدعاة لأسلوب القـرآن الكـريم العـذب الرقيـق الرفيـق، دون تجـريحٍ أو إهانـةٍ أو تشـددٍ ممقوتٍ، يبعد الناس عن الدعوة ولا يقربهم منها ولو فعل الداعي هذا فشـدد وتشـدد مـن لكان حظه من القرآن قليلاً، وزاده من التأثر به عليلا، ونصـيبه مـن تـدبر القـرآن الكـريم معدوما، إن أسلوب القرآن الهادىء المبشر بكل خير الذي يأخـذ النـاس رويـداً رويـداً، لا يحملهـم عـن الحـق مـرةً واحـدةً فيرفضـونه جملـةً واحـدةً وإلي ذلـك أشـار الله تعـالى بقولـه سبحانه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾(١) والمتأمل في الآية الكريمة يجد أن الكفار قد اعترضوا علي الرسول ﷺ في كيفية نزول القرآن ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ فكـان الـرد مـن الله تعالى بقوله ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ وإني أفهم من هذا الرد – والله أعلـم – أن الله يريد من عباده تـدبر كتابـه وحضـور القلـب عنـد تـلاوة كلماتـه، وتـأثر الوجـدان بآياته.

فقد نزل القرآن الكريم أجزاءً متفرقةً تتباين أطوالها من سورةٍ كاملـةٍ إلى آيـةٍ واحـدةٍ، وأحياناً إلى جزء من آيةٍ، وكان الرسول ﷺ يتلو كـل جـزءٍ ينـزل عليـه ويعلمـه للسـامعين ليصل عن طريقهم إلى من لم يسمعه من فم الرسول مباشرةً، وكان الناس ينتظرون الوحي بشغفٍ، ويتمنون من أن يتلقوه فور نزوله، كما أن أعداء الإسلام أنفسهم، كانوا يحرصون

---

(١) سورة الفرقان الآية رقم ٣٢ .

على سماع القرآن إما للبحث عن نقاط ضعفٍ فيه تعينهم على مغالبته، أو مهاجمته، وإما لإشباع حاجتهم الملحة في التذوق الأدبي»[1]

ولعله بات واضحاً أن اهتمام المسلمين الأوائل بالقرآن الكريم يفوق كل اهتمام ثم إنه أخرجهم من دائرة العصبية إلى العدل والاعتدال في كل شيء، وكل ذلك بما كان يثيره في نفوسهم وقلوبهم فقد كان بالنسبة لهم غذاء الروح، وقاعدة السلوك التي ينتظم عليها كل شأن في مجالات الحياة المختلفة، ونصوص الصلاة وأداء الدعوة إلى الإسلام بحق كان دستورهم الأول، وتاريخهم الرئيس، بل كان قانونهم الجوهري، بل كان دستورهم في كل مناحي الحياة المختلفة وهذا التدرج الذي سبق الحديث عنه هو أول الدعائم التي يقوم عليها قانون الاعتدال.

من دعائم الاعتدال التي تعين علي التأثر بالقرآن :

أولاً : التدرج وتأثير القرآن :

وهو يعنى السير بالدعوة خطوةً خطوةً مع ملاحظةِ التوسط والاعتدال فيها، أيّا كان المدعو، فإن آيات القرآن الكريم تنطق بهذا، وليس أدل على ذلك من الأثر الذي أحدثه هذا التدرج في قلوب ونفوس المؤمنين والكافرين على حد سواء ، وذلك عند نزول القرآن، فخذ مثلاً الخمر تدرج الحكم فيها على أربعة مراحل الأول يقول الله ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2] هذا علي رأي من قال إن هذه الآية أولي مراحل التحريم للخمر وإن كان البعض يعارض ذلك، وعلته أن تحريم الخمر مدني أعني في القرآن المدني، وسورة النحل مكية، وعلي كلٍ فإني أحيل من أراد الاستزادة غالي الكتب التي تعرضت لهذا من مثل «الجامع لأحكام القرآن» القرطبي

والمرحلة الثانية : هي قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ

---

(١) مدخل إلى القرآن الكريم دراز ص ٣٩ يتعرف دار القلم دمشق.

(٢) سورة النحل الآية رقم ٦٧ .

﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[1] وهنا يضع الله إشارة البدء حيث إن إثم الخمر أكبرُ من نفعه، وكأن العقول ريثما تتقبل هذا الوضع الذي يعد الأساس من نوعه عند العرب، فإن الواحد فيهم قد يستغنى عن أي شيء في حياته حتى الطعام والأولاد، لكن حذار أن تنهاه عن قارورة الخمر يحملها في جيبه كما يحمل أحدنا نقوده، وبعد تخطى هذه المرحلة بهذا الأسلوب السهل المعتدل الذي لا تشدد فيه نزلت الآية بنهيٍ مبدئ والنهى أدنى درجات النفى كما يقولون، ومن ثمّ كانت المرحلة التالية.

المرحلة الثالثة: مرحلـــة النهي :

وهي بمثابة التهيؤ للتحريم، وإعداد النفوس لتقبل هذا التحريم، وهذا منهج قرآني يجده القارئ خلال آي الأحكام وآيات التشريع، ولك أن تتأمل هذه الآية، بطريق الإعجاز التأثيري الذي أتحدث عنه، وهي في ذات الوقت إعجازٌ تشريعي، وهذا يؤكد علاقة الإعجاز التاثيري بأوجه الإعجاز الأخرى، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً﴾[2].

ومن ثم بدأت إشارة النهى تأخذ مجالها في قلوب المؤمنين، فلا يجوز مخاطبة الله تعالى بأفواهٍ تَعُبُ من الخمر عبّاً، «ومن ثـمَّ أُتحيت الفرصة ليكتمل البناء المنهجي التشريعي تدريجياً داخل النفوس، التي تهيأت بعد هذه الآية إلى تقبل ما يحملها على ترك هذا، وكل هذا كما ترى يتم في شكل وحدةٍ متكاملةٍ لا ترى فيها نقصاً ولا خللاً، ومن ثم تنزل الآية بعد ذلك على قلوبٍ قد أُعدت لتقبلها وكأنها تنتظر هذه اللحظة الحاسمة»[3].

عندئذ ترى الأثر واضحاً في قول سيدنا عمر ﷺ «لما نزل فاجتنبوه» امتلأت شوارع

---

(١) سورة البقرة الآية رقم ٢١٩.
(٢) سورة النساء الآية رقم ٤٣ .
(٣) سورة المائدة الآية رقم ٩٠.

المدينة بالخمر لما، هكذا يكون حال الدعاية عندما يرى منكراً أمامه؛ لأنه تأثر بالقرآن فلابد أن يكون لهذا التأثر صداه فى الواقع، بحيث يستطيع الدعاة أن يقدموا للناس دين الإسلام بلغة القرآن وروحه فى الحديث، بأسلوبه الرائع لحمل الناس على تدبره والاحتكام إلى ما جاء فيه، وليعلم الدعاة أن آيةً واحدةً من القرآن كافيةٌ لإحياء القلوب بعد موتها «لقد جاء النبي ﷺ والعرب قد استحكمت فيهم عادات منها ما هو صالحٌ للبقاء ولا ضرر منه على تكوين الأمة ومنها ما هو ضارٌ يريد الشارع إبعادهم عنه، فاقتضت حكمته أن يتدرج بهم في التشريع شيئاً فشيئاً لبيان حكمته وإكمال دينه»[1].

وبهذا التدرج وبهذه الطريقة الحكيمة عالج القرآن الكريم العادات القبيحة المتأصلة فى نفوس الجاهلين، وقضى عليها واحدةً تلو الأخرى، بأسلوبٍ معتدلٍ وبتدرجٍ محكمٍ تسلم كل مرحلة إلى التي تليها في أسلوبٍ أخّاذٍ يستولى على القلوب والعقول، والقرآن الكريم يحض على مبدأ الاعتدال والقصد فى شتى مجالات الحياة حتى فى الفهم والاستيعاب، وهذا منتهى القصد والاعتدال الذي لم يتفرد به كتاباً قط سوى القرآن الكريم، وأعنى بهذا أن البليغ الفصيح، يجد طلبته وبغيته داخل آي القرآن، والعامي يجد فهمه وقدر عقله داخل القرآن،إذا ما كان هناك مؤتمرُ وتحدث الأعضاء كانت الجملة المسيطرة على كل الأعضاء عند الاعتذار «لكل مقام مقال» وهذا يقال لأن المتحدث لن يجد كلاماً واحداً يخاطب به كل الناس على اختلاف مداركهم وتنوع أفهامهم، وقياس عقولهم، فهو لا يستطيع أن يخاطب المملوك والعلماء والسوقة وغيرهم في كلامٍ واحدٍ لذا يلجأ إلى الاعتذار، إلا أن هذا كله تجده واضحاً وبارزاً داخل آيات القرآن الكريم قال تعالى ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2].

ألست معي فى أن هذا منتهى الاعتدال حتى فى الفكر ومخاطبه العقل؟!!!

يقرأه العامي فيشعر بجلاله ويذوق حلاوته، ولا يلتوي عليه فهمه، فتدركه هيمنته، ويستولى عليه بيانه، وتغشاه هدايته فيخشع قلبه، وتدمع عيناه فينقاد له ويذعن. ويقرأه

---

(١) أضواء على الثقافة الإسلامية ،نادية شريف العمرى١١٥مؤسسة الرسالة ببيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٥ه/ ١٩٨٥ م.
(٢) سورة السجدة الآية رقم ٢ .

العالم فيدرك فصاحته وبلاغته التى لا مثيل لها ولا نظر، فتسيطر عليه بلاغته وتملك عليه لبه وعقله، ويكتشف علومه ومعارفه، ويحار فكره فيها ومن ثم لا يجد غير الإذعان والخضوع ويرفع يديه لمنزل هذا القرآن داعياً إياه بقوله تعالى ﴿فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾(١) ومن ثم تزداد خشيته ويكمل إيمانه وصدق الله حين قال ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ * إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾(٢).

ومن هذا المنطلق يعلم أن القرآن وآياته أتت بمفهوم الاعتدال وحقيقته حتى فى الفهم والتدبر - وهو موضوع البحث - زد على ذلك أن الآيات هي هي منذ نزول القرآن إلى الآن بل وإلي إلى قيام الساعة، ولم تجد آية خاصة بالعلماء، وأخرى خاصة بالعامين، بل إن الآيات تخاطب الكل، وليت الأمر يقتصر على هذا، بل إن الآية صالحةٌ لكل عصر، وليست لعصرٍ واحدٍ ومعينٍ بل لكل العصور إلى قيام الساعة.

منهج القرآن قصد واعتدال:

من الحديث السابق عن دعائم الاعتدال ذكرت التدرج وهذا التدرج فى الأحكام، وفى الدعوة، وفى حمل الناس للحق يعطى مؤشراً هاماً وهو أن منهج القرآن الكريم مبنى على الاعتدال وعدم المغالاة والتشدد المزعوم. فالقرآن الكريم فى منهجه الفريد هذا هو الغذاء الواقي للقلوب والنفوس، وهو الراد الدائم والخالد إلى أن تقوم الساعة،ومن ثم فلابد لهذه القلوب أن تتشبع بأسلوبه وتنهل من تدبره قدر الوسع والطاقة، وتأمل جيداً ما قاله الله تعالى لقارون ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾(٣).

---

(١) سورة طه الاية رقم ١١٤ .
(٢) سورة فاطر الآيات من ٢٨ إلي ٣٠ .
(٣) سورة القصص الآية رقم ٧٧ .

إن القارىء الجيد للآية يلحظ منهج الاعتدال واضحاً فيها لا يحتاج إلى إعمال الفكر أو حضور العقل، فالبداهة الأولى توحي لك بجمالٍ وجلالٍ القرآن الذي يليه تنبيها عاماً على أن أخذ الملذات مع عدم الذوبان فيها لدرجة أنها تنسبك الدار الآخرة منهج قرآني يحمل الفكر على الخضوع له، ويحض على التدبر والتأمل والتفكر في آيات القرآن الكريم. «ومن ثم فالإيمان حين يهدم في وجدان الإنسان اعتبار القيم المادية، والخضوع لها، فانه يهدم مع ذلك نزعة السلبية في الحياة ويعتبر ذلك رهبانية لا تتلائم مع فطرة الإنسان وهروباً من الحياة إلى أوهام الخرافات وانحرافات، وإرهاق للنفس، كما يعتبر مثل هذا السلوك تنطعاً وظلماً، فهجر الطيبات والغلو فى العبادات فى لغة لمنهج الإسلام المعتدل الذي لا يكلف النفس الإنسانية فوق طاقتها، ولا يحرمها ما هي بحاجةٍ إليه، مادام ذلك فى حدود ما شرع الله وأحل لعباده، فلا حرج فى هذا ولا تعب ولا إرهاق»[1].

وآيات الذكر الحكيم تؤكد هذه الحقيقة دون الحاجة إلى تفسير فى قول الله تعالى﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[2].

فالقرآن الكريم يؤكد على منهج الاعتدال وعدم التشدد والتقطع وذلك لأن الاعتدال يجلب القوم إلى دين الله، ويلفت الناس به حول القرآن، لأنهم يرون فيه عدم الانفصام بين ملذات الحياة وبين بصرهم المحتوم، كما فعلت ذلك كثير من الفلسفات الأرضية الوضعية حيث جعلت من الإنسان آله تتحرك ومعدة تهضم وتعصر ؛ وكأنه يلهو ويلعب ويستمتع، ومنغمس فى الملذات والشهوات أقبح انغماس، فالإنسان مكون من جسد وروح «فالنفس البشرية قد جعلها الله خليفة فى الأرض، وفوض إليها جملة صالحة من حقوق التصرف والواجبات والتبعات، وأنعم عليها بعد ذلك بجسد من

---

(١) لمحات في الثقافة الإسلامية عمر عودة الخطيب٣٦٤ بتصرف الرسالة بيروت ط الثالثة عشر ١٣٩٩ ه/ ١٩٧٩م.

(٢) سورة البقرة الآية رقم ٢٨٦ .

أحسن الأجساد وهيئة وتقويماً»[1] وذلك لتؤدى دورها فى هذه الحياة فى قمة الاعتدال والتوازن الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، والرسول ﷺ يؤكد الحقيقة الواضحة فيقول فيما روى عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»[2] ومن ثم فهذا هو الاعتدال الحق الذي لا مثيل له فى كتاب آخر غير القرآن، وكأن القرآن يصل بالأمر إلى أبعد من كونه اعتدالاً وفقط، بل إنه الاعتدال الذي لا تستقيم الحياة بدونه، ولا يصلح أمر الإنسان إلا به وذلك لان الله قد جمل به هذه الأمة ورفع ذكرها بين الورى. الأمة الوسط المعتدلة التي تملك زمام القيادة والريادة فى وسطيةٍ واعتدالٍ، وتحمل راية الهداية للبشرية كاملة ، وترشد البشر من ذلك إلى أقوم السبل وأعدل الطرق، وصدق الله إذ يقول - سبحانه تعالى - ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

وقد جعل القرآن الكريم منهج الاعتدال أساس الخير والعودة إلى الإسلام، حتى كان الرسول ﷺ كذلك، ومن هنا جعله الله شهيداً على كل الأمم، بل وعلي من سبقه من الأنبياء فقال تعالى ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـؤُلاء شَهِيداً﴾[4].

ثانياً: من دعائم الاعتدال «التوازن»

واقصد به التوسط والاعتدال فى الأمور في شتى مجالات الحياة المختلفة، «فهو تعادلٌ بين طرفين إما متقابلين أو متضاربين، بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير عن الآخر، بحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه، ويطغى بل مقابلة ويحيف عليه مثال الأطراف

(١) نظام الحياة فى الإسلام أبو الأعلى المودووى ص ٧٦ مرجع سابق
(٢) أخرجه البخاري في الصحيح ، واللفظ له ، كتاب الإيمان ، باب إن الدين يسر ، ج ٢ / ١٥١ ، برقم ٣٩ .
(٣) سورة البقرة الآية رقم.
(٤) سورة النساء الآية رقم ٤١.

المتقابلة أو المتضادة «الروحية والمادية» ومعنى التوازن بينهما إن يفسح لكل طرف منها مجاله،ويعطى حقه بالقسط، بلا وكسٍ ولا شططٍ ولا غلو ولا تقصير ولا طغيان ولا اخسار وصدق الله عندما قال ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾[1].

إن المتأثر بالقرآن والمتدبر للآيات يجد نفسه دون إرادة منه في توازنٍ واتساقٍ، والقرآن الكريم قد جاء بمنهجٍ سليمٍ، وتشريعٍ قويمٍ يوازن بين كل شئ في هذه الحياة ، إنه اعتدالٌ وتوازنٌ في كل شئ دون إفراطٍ أو تفريطٍ،وهذا التوازن والاعتدال من أهم خصائص القرآن الكريم بل هو من أهم خصائص الإسلام بصفةٍ عامةٍ، وانك لن تجد كتاباً أو منهجاً حقق التوازن والاعتدال والوسيطة فى كل مناحي الحياة مثل ما حقق القران الكريم فأي كتابٍ آخر لا يخلو من أحد أمرين ؛ إما الإفراط أو التفريط،التساهل أو التشدد، أما التوازن بمعناه الحق فانك لن تلمسه إلا في آي القرآن الكريم الذي أنزله الله الخالق وهو أعلم بخلقه وفي ذلك يقول تعالى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[2].

أترى هذا التوازن فى كل شئ من حولك، بل وفى نفسك وفيما حولك من الكون، وفى التشريعات وفي الأخلاق وفى كل مجالات الحياة المختلفة، إنه توازن دقيق لن تجد له تعبيراً إلا أن تذكر قول الله تعالى ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[3] تلمس هذا التوازن بحواسك كلها التي منحك الله إياها فمثلاً..............

النظر: يرى التوازن الدقيق بين الليل والنهار ـ الشمس والقمر ـ الرياح والغمام ـالماء واليابس ـالحر والبرد....الخ:ـ كل ذلك يدور في توازنٍ دقيقٍ، واتساقٍ عجيبٍ يستولى على

---

(١) سورة الرحمن الآيات من ٧ إلي ١١ .

(٢) سورة الملك الآية رقم ١٣ .

(٣) سورة النمل الآية رقم ٨٨ .

ناظريك فلا نملك من أمرك إلا أن نقول كما قال الله في قرآنه ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[1] إنها حكمة الخالق الذي خلق فأبدع، إنك لن تجد شيئاً يطغى على آخر أو يصدم به ، ولذا قال الله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[2] فكل شيء فى هذا الكون يدور فى فلكه الذي أعده الله تعالى له دون مساس بالآخر ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[3] وهذه الظاهرة الكونية التي سبقت الإشارة القرآنية إليها تسمى «ظاهرة التوازن» أو التعادلية كما أطلق عليها بعض الأدباء عند ما حاول التعادل بين المتقابلات فى شتى جوانب الكون المختلفة «فهو يتحدث عن الأرض التي يعيش عليها الإنسان مؤكداً أن أهم صفة للأرض أنها كرة تعيش بالتوازن والتعادل بينها وبين كرة أضخم منها هي كرة الشمس، فإذا أختل هذا التعادل اتبعتها الشمس أو ضاعت فى الفضاء، التعادل إذن هو الحقيقة الأولى لحياة الأرض، بكل الكائنات فيها الإنسان والحيوان والنبات فالنفس حركة تعادلية بين الزفير والشهيق ترى لو أختل هذا التعادل ماذا يحدث؟ كذلك الأمراض الفعلية والعصبية تعنى أن قد حدث عندئذ ترتيل آداه الإدراك فى الإنسان، والحيوان ينطبق علية ذات القانون «التعادل»[4] ومن ثم يفهم أن ظاهرة التوازن هذه تشمل الكون كله، وهذا مبدأ انفرد به القرآن الكريم ليرى النفوس كلها على الاعتدال والوسطية والتوازن مسكاً أو مميزاً لهذه الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس ، وإذا ما أراد الدعاة إلى الله تعالى أن يتمثلوا فى هذه الناحية نماذج قرآنية فهناك الكثير من هذه النماذج التي توضح مدى التوازن الدقيق وأهميته ودوره فى أن يتدبر المرء قرآن ربه المسطور المنظور على حد سواء...

---

(١) سورة المؤمنون من الآية رقم ١٤ .

(٢) سورة الملك الآية رقم ٣ .

(٣) سورة يس الآية رقم ٤٠ .

(٤) انظر الخصائص العامة للإسلام ، د/ يوسف القرضاوى ، ص ١٢٩ / ١٣٠ الطبقة الثانية ١٤٠٤ / ١٩٨٣ .

١ - تأمل مثلاً بعض الأفراد والجماعات الذين قص الله علينا من خبرهم أنهم كانوا ماديين يعيشون للحياة فقط للدنيا دون غيرها، وكل ما يشغل همهم البلاء نهاراً صيفاً وشتاءً المادة ثم المادة... لدرجة أنهم أصبحوا نفعيين بالدرجة الأولى ليس هناك مواطن للروحية لديهم ولذا عاب الله عليهم فى القرآن هذا الصنيع فقال ﴿وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾(١).

وفى آية أخرى يقول تعالى ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾(٢).

ومن ثم غدت هذه المادية شراً وبلاءً عليهم، فلقد ولَّدت عندهم البطر والاستكبار والترف....إلخ وكانت عاقبتهم خسراناً مبيناً، فهذا صاحب الجنتين ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِ أَبَداً * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً﴾(٣) وكان الجزاء لهذا وأمثاله رادعاً هؤلاء الذين عاشوا للدنيا فقط، ولم يلقوا للدين بالا ولا للآخرة حساباً، ولا للروح حساباً من السماء فأصبحت حصيداً زلقاً، وأصبح ماؤها غورا لم يستطيع له طلباً ولا مثالاً.

*وهذا قارون أيضاً الذي أوتى ملكاً عظيماً، فكان هلاكه فى باطن الأرض قال الله تعالى ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾(٤).

* وهذا فرعون الطاغية الذي طغي وتكبر وتجبر، وادعي الألوهية وذكر متجبراً إن الأنهار تجري من تحتي، ومن ثم كان جزاؤه أن أجراها الله من فوقه، قال تعالى ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾(٥).

---

(١) سورة الأنعام الآية رقم ٢٩ .
(٢) سورة الجاثية الآية رقم ٢٤.
(٣) سورة الكهف الآيتان ٣٥، ٣٦.
(٤) . سورة القصص الآية رقم ٨١ .
(٥) سورة الزخرف الآية رقم ٥١.

وكثير من الأمم التي ملكها الترف وسيطرت عليها المادية وقتلت كل معلم للروحية داخل النفوس لهؤلاء وأمثاله ساق الله هذه الآيات قال تعالى ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءهُمُ الْأَوَّلِينَ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾[1] وقال تعالى ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾[2].

والواضح من خلال هذه النماذج لأقوامٍ وأفرادٍ وجماعاتٍ طغت عليهم المادية ، وسيطرت على قلوبهم وعقولهم، فكانت لهم الحياة والأحياء والدنيا والآخرة، وفى المقابل جاء آخرون قد هيئوا وتركوا زينة الحياة الدنيا، وعزلوا أنفسهم عن الحياة والأحياء، واتهموا الدنيا بالقسوة والحياة بالاحتكار، وأصبح الفهم السائد لديهم والفكر الشائع عندهم التفرغ للعبادة والانقطاع للرهبنة والدروشة. ترى بين هذين الاتجاهين جاء الإسلام بنظرته الفريدة وأسلوبه الجميل بمبدأ التوازن والاعتدال فى آية واحدة من آيات تجمع كل هذا ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[3].

«ولعلك تلحظ مدى دعوة الإسلام إلى التوازن والاعتدال فى كل مظاهر الحياة المختلفة وفى شتى جوانبها. فالإنسان بعنصره الطيب قادر على أن يسعى فى الأرض يعمرها ويحسنها، ويكتشف ما أودع الله فيها من كنوز ونعم، وهو بعنصره الروحي مهيأ للتحليق في أفق أعلى والتطلع إلى عالم أرقى، وإلى حياة هي خير وأبقى عند الله تعالى»[4] ومن ثم يفهم أن الحياة ليست مسبحاً يعاقب عليه الإنسان، وليست عبئاً يفر من على الإنسان حمله، فالقرآن نفسه يدعو إلى العمل والسعي في الأرض. والأكل من طيبات الله،

---

(١) سورة المؤمنون الآيات من ٦٤ إلي ٦٩ .

(٢) سورة الأنبياء الآيتان رقمي ١١ / ١٣ .

(٣) سورة القصص الآية رقم ٧٧.

(٤) الخصائص العامة للإسلام القرضاوى ص ١٤٣ / ١٤٣ مرجع سابق

وعدم تحريم هذه الطيبات على الأنفس إلا بما ورد بها النص وفى هذا يقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾[1].

والرسول ﷺ يؤكد على هذا التوازن تأكيداً وثيقاً فيقول في دعائه عن عبيد الله بن زحر عن خالد بن أبي عمران أن ابن عمران قال: قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا تسلط علينا من لا يرحمنا»[2].

فهذا توازن دقيق فى دعاء الرسول الكريم بين مطالب الدنيا وبين زاد الآخرة، ولذا تكرر هذا في دعائه، بل إن شئت فقل كان هذا غالب دعائه ومنه «عن أبي هريرة قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي واجعل الحياة زيادة لي في كل خير واجعل الموت راحة لي من كل شر»[3].

تعقيب: من خلال ما سبق عن الاعتدال ألحظ أن بينه وبين التأثر بالقرآن خطاً مستقيماً لا يمكن إغفاله أبداً ولا المرور عليه دون تعليق، حيث إن القرآن قد نص علي ترك التشدد والتسيب، وبمعني أوضح لا إفراط ولا تفريط، وأعني بعدم الإفراط أي النهي عن المغالاة والتشدد والتعصب المقوت الذي لا يصل المرء من خلاله إلا إلي الضياع والهلاك والهدم.ولا تفريط أعني بها التسيب والاستهتار لدرجة أن يصبح المرء

---

(١) سورة المائدة الآيتان رقمي ٨٧/ ٨٨.

(٢) أخرجه الترمزى فى الجامع الصحيح ، كتاب الدعوات ، باب منه ، ج ٥ / ٥٢٨ برقم ٣٥٠٢ ، وقال أبو عيسى حديث حسن غريب ، وقال الشيخ الألباني حديث حسن .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر مالم يعمل ، ج ٤ / ٢٠٨٧ برقم ٢٧٢٠ . والفظ لمسلم .

فوضوياً، ولكن القرآن يوازن بين كل هذا كما سبق بيانه، والمطلوب من الدعاة أن يتأثروا بهذا المنهج القرآني، كما تأثر به إمامهم رسول الله ﷺ وهذا هو الفصل القادم أثر القرآن علي سيد الدعاة ﷺ فالواجب على الدعاة أن يتأثروا بالقرآن الكريم وبآياته وأن تكتمل في قلوبهم هذه المعاني حتى يستطيعوا التأثير فى غيرهم.

* * *



الفصل الثالث

أثر القرآن الكريم علي المدعوين بأصنافهم

ويشمل أربعة مباحث:

المبحث الأول: أثر القرآن الكريم علي الخلفاء الراشدين ﷺ ومظاهره.

المبحث الثاني: أثر القرآن الكريم علي المؤمنين ومظاهره.

المبحث الثالث: أثر القرآن الكريم علي أهل الكتاب ومظاهره.

المبحث الرابع: أثر القرآن الكريم علي المنافقين والكافرين ومظاهره.

المبحث الأول: أثر القرآن علي الصحابة الكرام من الخلفاء الراشدين:

بعد الحديث عن أثر القرآن علي رسول الله ﷺ، كان لابد من الحديث عن أثره على صحابته الأجلاء ﷺ، الذين عاصروا مهبط الوحى عليه، وسمعوا القرآن من رسول الله ﷺ أولاً. ما أثر القرآن ومدي تأثرهم بآياته البينات حيث كان للقرآن الأثر البالغ عليهم وذلك لعدة أسباب لعل أهمها.

١ - **معاصرتهم لرسول الله ﷺ:** فهم قد عاصروا الرسول ﷺ في لحظات الوحي على قلب النبي ﷺ يسمعون أصوتا كصلصلة الجرس، أو كدوى النحل كما أنهم يشاهدون تغيراً في وجهه ﷺ؛ كل ذلك حملهم على شدة التأثر بالقرآن الكريم. يقول ابن عباس: ما رأيت قوماً خيراً من صحابة الرسول ﷺ ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتي قبض ﷺ كلهنّ في القرآن «يسألونك عن المحيض.. يسألونك عن الشهر الحرام. يسألونك عن اليتامى. ما كانوا يسألونه إلا ما ينفعهم »[1] ويعلق ابن القيم علي ذلك فيقول «ومراد ابن عباس التي ذكرها القرآن الكريم وإلا فالمسائل التي سألوها للرسول لا تكاد تحصي ولم يكونوا سألونه عن الأغلوطات وعضل المسائل، ولم يكونوا يشتغلون بتفريع المسائل وتوليدها»[2] وإني أقول لا غرابة في ذلك علي الإطلاق حيث إن المحدد من المسائل ما ذكره الله تعالى علي لسانهم في القرآن بلفظ السؤال، وهذا مسلكهم ﷺ.

٢ - **حبهم الشديد للقرآن ولمن نزل عليه القرآن:** ومن شدة حبهم للقرآن وتأثرهم بآياته، أنهم كانوا ينسون حياتهم، حتى أن الله تعالى امتدحهم فى قرآنه فقال ﴿... يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].

٣ - **صفاء فطرتهم ونقاء سريرتهم:** فلم تكن قد لوثتها خطوب الزمان بعد،

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه باب كراهية الفتياج ١ / ٦٣ برقم ١٢٥ وقال حسين سليم أسد إسناده ضعيف.

(٢) اعلام الموقعين ابن القيم ج ١ / ١٣٧.

(٣) سورة التحريم من الآية رقم (٨).

يعيشون فى رياضة ويحيون فى ظلاله، كل ذلك مما ساعد الصحابة الأجلاء أن يكون للقرآن الأثر القوى فى نفوسهم وصدورهم - لاسيما الخلفاء الراشدين - يقول الشافعي «لقد أثني الله تعالى علي أصحاب الرسول ﷺ في القرآن والتوراة والإنجيل فقال ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[1] وسبق لهم علي لسان رسول الله ﷺ من الفضل ما ليس لأحدٍ بعدهم، فرحمهم الله وهنأهم بما آتاهم ببلوغ أعلي منازل الصديقين والشهداء والصالحين، وقد أدوا إلينا سنة الرسول ﷺ وشاهدوه والوحي ينزل عليه، فعلموا ما أراده الرسول عاماً وخاصاً وعزماً وإرشاداً، وعرفوا من سنته ما عرفوا، وهم فوقنا في كل اجتهادٍ وعلم وورع وتقوي وعقل، وآراؤهم لنا أحمد وأولي من رأينا لأنفسنا»[2] وحقيق بمن كانت آراؤهم بهذه المنزلة أن يكون رأيهم خيراً من رأينا «فرأيهم صادر عن قلوب ممتلئة نوراً وإيماناً وحكمة وعلماً ومعرفة وفهماً عن الله ورسوله ﷺ، ونصيحة للأمة، وقلوبهم علي قلب نبيهم ولا واسطة بينهم وبينه، وهم ينقلون العلم والإيمان من مشكاة النبوة غضاً طرياً لم يشبه إشكال، ولم يشبه خلاف ولم تدنسه معارضة»[3].

٤ - **ترقبهم كل ليلة أن ينزل الله على رسوله وحياً.** يحدثهم بما في نفوسهم وما يدور فى خوالج أفئدتهم، وما يكون علاجا لما يستجد على الساحة اليومية من أحداث ومشكلات قلت أو عظمت وبالفعل كان القرآن ينزل على حسب الأحداث التى تواجه الناس في حياتهم ومعاملاتهم فيضع العلاج الناجع لها، ويضع الحل الربانى لما يختلف فيه الناس من أمور، كل هذه الأمور كانت بمثابة الدافع القوى وراء تأثر الصحابة الكرام، هذا التأثر البالغ بآيات القرآن الكريم ، فحق إذن لهؤلاء أن يتأثروا بهذا التأثير الشديد عندما تتلى عليهم آيات القرآن المجيد، ولك أن تتخيل أنهم يسمعون من رسول الله

---

(١) سورة الفتح من الآية رقم ٢٩.

(٢) الرسالة البغدادية الإمام الشافعي.

(٣) إعلام الموقعين ابن القيم ج ١ / ١٣٧ .

بصوته وصورته، فهذه والله - فى رأيى - كافيه أن يبكوا أن يتأثروا بهذا التأثر الذي نُقل إليهم فهم في متعة لا يشعر بها إلا هم. ومن ثَمَّ كان القرآن ينزل فيكشف ما فى نفوسهم من أسرار وخواطر لا يعلمها إلا الله ﷻ ومن ذا المنطلق كانت الصلة قوية بين الأرض والسماء، ولذلك تحدث صاحب الظلال فقال «إن الفترة التى استمرت فيها الصلة المباشرة بين البشر والملأ الأعلى فترة لا يتصور حقيقتها إلا الذين عاشروها وأحسوا يد الله تنقل خطاهم فى الطريق»(١).

لأجل هذا كان موت الرسول وانتقاله إلى الرفيق الأعلى، مؤذن بانقطاع هذا الوحى وانقطع هذه الصلة المباشرة؛ اتصال السماء بالأرض، ولذا كان بكاء الصحابة بكاءً شديداً على انقطاع الوحى، وانتهاء خبر السماء، لأنهم كانوا يدركون حلاوته ولذته.

ومما يؤكد على هذا ما رواه أنس بن مالك ﷺ قال أبوبكر لعمر ﷺ بعد وفاة النبى - ﷺ «انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله يزورها - فلما أتيا إليها وجداها تبكى، فقالا لها:ما يبكيك؟ أما تعلمين أنا ما عند الله خير لرسول الله؟ فجعلا يبكيان معها»(٢).

كل هذا وغيره يفتح لك نافذة واسعة على مدى تأثر الصحابة الكرام بالقرآن الكريم، ويغلق أمام ناظريك الحيرة التى تثقل كاهلك عندما يذكر مدى الأثر البالغ من القرآن الكريم على صحابة الرسول ﷺ وإني أود أن أذكر أمراً هاماً ، ألا وهو أني لن أستطيع أن أستقصي كل الصحابة ﷺ وتأثرهم بالقرآن؛ وذلك لعظم هذا الأمر وكبر حجمه ولكن يمكن لي أن أقول - من خلال مطالعة سيرة الصحابة في موضوع بحثي - إنه ما من صحابي إلا وتأثر بالقرآن الكريم ولكن مع اختلاف درجات التأثير، ولذا فإني أذكر بعضاً من الصحابة؛ لاسيما الذين كان لهم دور بارز في هذا من الرجال والنساء ، والله من وراء القصد.

---

(١) في ظلال القرآن . سيد قطب ج ٨ / ٦١٥ . مرجع سابق

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل أم أيمن ﷺ. ج ٤ / ١٩٠٧ رقم ٢٤٥٤ .

أولاً: أبو بكر الصديق ﷺ وتأثره بالقرآن:

مما لا شك فيه أن أحداً لا يجهل قدر أبى بكر ﷺ ولا يجهلن أحداً منزلته في قلب النبي ﷺ وكذلك قدره عند الله ﷻ. وهذا مما لا يرتاب فيه أحد ومن ثم فإنى أضرب عنه صفحاً لا لشيء وإنما لبداهته، ولأن الحديث فيه من قبيل التكرار، ولكنى أقصر حديثى على تأثره بالقرآن وهو موطن البحث: لكن ليس معنى ذلك أنى لا أريد ذكر طرفٍ منه مجملاً وذلك مثل:

أبو بكر مؤازر رسول الله ﷺ فى كل أحواله وشئونه

أبو بكر الصديق ﷺ يفدى رسول الله ﷺ بنفسه،

أبو بكر ﷺ ثانى اثنين فى الغار مع رسول الله ﷺ

أبو بكر ﷺ الذى جرى ذكره فى السماء، .... إلخ[1].

وتأثر أبو بكر بالقرآن تأثراً شديداً وفريداً، وذلك نظراً لقربه من رسول الله ﷺ وصداقته له، فقد كان ﷺ رجلاً أسيفاً – أى رقيق القلب جداً فوق الوصف – بل فوق الخيال، إذا قرأ القرآن بكى وأجهش فى البكاء حتى لكأنه نذير القيامة، وهذا البكاء الفريد نظراً لأنه يشعر بحلاوة القرآن، وعذوبة كلماته، ورقة آياته، ولذة حديثه، وعندئذ لا يتمالك نفسه أبداً، ومن ثم يجهش بالبكاء والأنين والنحيب، ولذلك كان معروفاً بالبكاء وشدة النحيب عند قيامه بالقرآن، وكان هذا شأنه فى صلاته، يشهد لهذا حديث ابن عمر ﷺ قال: «لما اشتد برسول الله ﷺ وجعه قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس. فقالت عائشة ﷺ إن أبا بكر رجل رقيق القلب إذا قرأ القرآن غلبه البكاء، فقال: مروه فليصل»[2] والشاهد من الرواية السابقة قول عائشة ﷺ «غلبه البكاء» و «رقيق القلب» لتدل على أنه

---

(١) أحيل من أراد الاستزادة من ذلك إلي البدلية والنهاية ابن كثير، تاريخ الخلفاء الراشدين السيوطي، الروض الأنف.

(٢) أخرجه أبويعلى فى مسنده، مسند عائشة ج ٧ / ٤٥٢ برقم ٤٤٧٨، وقال عنه حسين سليم أسد: اسناد صحيح.

لا يملك نفسه أمام القرآن، ولذا كان يتأثر به عند قراءته تأثراً بالغاً، لدرجة أن هذا التأثر ربما لا يجعله يتم الصلاة، من شدة البكاء، وغلبه النحيب عليه.

لكن الرسول ﷺ يؤكد على أنه لابد من صلاة أبى بكر للمسلمين. ولعل هذا المظهر العام من مظاهر تأثر أبى بكر بالقرآن، وهناك مظهر آخر وهو أنه كان يقرأ القرآن فيؤثر فيه وليس هذا فحسب بل ويؤثر فى الناس فيحملهم على التأثر، لأنه ما خرج من القلب يصل إلى القلب.

ولذلك خافت منه قريش، كما خشيت قبل ذلك من صاحبه «فعندما همَّ أبوبكر بالهجرة لقيه ابن الدُّغنة، فقال إلى أين يا أبا بكر؟ قال مهاجر فى سبيل الله، قال: والله ما مثلك يخرج من هذه الديار لأنك تعين على نوائب الحق، وتصل الرحم وتقرى الضيف، وترعى حقوق الجوار، فارجع فأنت فى جوارى، فرجع أبو بكر فى جوار ابن الدغنة وأخذ يقرأ القرآن، ويجتمع إليه أبناء الكفار وفيهم الصبيان والنسوة يستمعون إلى قراءته، وعذوبة صوته، وشدة تأثره، وحسن أخلاقه ومدى عمق البكاء الذى أحدثه القرآن فيه، ولذا تغيظ أسيادهم، فذهبوا إلى ابن الدغنة، وطلبوا منه أن يرد جوار أبى بكر وأن يجعله يكف عن قراءة القرآن خشية أن يؤثر ذلك على غلمانهم ونسائهم، وأصر أبوبكر على قراءة القرآن و رد على ذلك المشرك جواره، واختار جوار الله تعالى»[(١)].

إلى هذا الحد كان تأثر الصديق أبى بكر بالقرآن الكريم، لدرجة أنهم كانوا يضربونه ويؤذونه بنعالهم حتى لتكاد أنفه أن تختفى من شدة الورم فى وجهه، وما يثنيه ذلك عن قراءة القرآن أو ترتيله أو التأثر به، أو التأثير به فى الناس.

ولم لا يتأثر أبو بكر بالقرآن هذا التأثير؟! وهو العفيف بل أعف الناس فى الجاهلية والاسلام على الاطلاق، أما فى الجاهلية فما أُثِرَ أنه دنس فمه بشرب الخمر، أو زنى.... أو غير ذلك كلا، بل كان أعف الناس، وجلُ شأنه هذا، فلا تتعجب بعد ذلك أن يتأثر بالقرآن كل هذا التأثير،فلقد أُثِرَ أنه قيل لأبى بكر فى مجمع من أصحاب رسول الله ﷺ:

---

(١) مصنف عبد الرازق الصنعانى ج ٥ / ٣٨٦ باب من هاجر إلى الحبشة ، برقم ٩٧٤٣.

«هل شربت الخمر فى الجاهلية؟ فقال أعوذ بالله، فقيل ولم؟ قال: كنت أصون عرضى، وأحفظ مروءتى، فإنه من شرب الخمر كان مضيفاً عرضه ومروءته قال: فبلغ ذلك رسول الله، فقال: صدق أبو بكر صدق أبو بكر»[١].

وكان ﷺ أقرأ الصحابة أى أعلمهم بالقرآن، ولذا كان هو المقدمُ فى الصلاة لدرجة أن النبى قد ذكر فى الحديث: «لا ينبغى لقوم فيهم أبو بكر أن يؤمهم غيره»[٢].

وأنت إن أمعنت النظر فى هذا الحديث وفى حديث النبى الآخر «يؤم القوم أقرأهم لكتاب الله»[٣] إذا تأملت الحديثين معا وضممت كل منهما إلى صاحبه ظهر لك أن أبا بكر كان أقرأ الصحابة للقرآن وأكثرهم تأثراً به وتدبراً لآياته وعلماً بمحكمه ومتشابهه.

وذلك بشهادة الرسول ﷺ ولهذا أُمر الرسول ﷺ أن يشاور الصديق فيما يعنُّ له من أمور، وذلك بأمر من الله تعالى، حيث قد ورد فى الحديث «أتانى جبريل فقال: إن الله يكره أن تستشير أبا بكر»[٤].

وقال عنه النبى ﷺ في موضع آخر: «إن الله يكره فوق سمائه أن يخطىء أبوبكر»[٥] إن الذي من شأنه أن تسترسل عينيه من البكاء عند القرآن ويهتز فؤاده عند تلاوته وسماعه، ويتأثر الناس بقراءته تأثراً شديداً؛ فهو أشد الناس تأثراً به وتدبراً لمعانيه ومن مظاهر تأثر أبي بكر بالقرآن:

---

(١) ذكره الهيثمى فى الصواعق المحرقة الباب الثاني فصل ذكر أبو بكر ج ١ / ٢١٥ ورقم الحديث السابع والستون.

(٢) أخرجه الترمذى فى السنن كتاب المناقب، باب فى مناقب أبى بكر ج٥ / ٦١٤ برقم ٣٦٧٣، وقال عنه أبو عيسى حديث حسن غريب، وقال الألبانى ضعيف.

(٣) أخرجه ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها باب من أحق بالإمامة ج ١ / ٣١٣، برقم ٩٨٠ وقال الألباني صحيح.

(٤) الصواعق المحرقة الهيثمي، باب في كيفية خلافة الصديق، فصل في ذكر شبه الشيعة ج ١ / ١١ .

(٥) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين، الوضين ابن عطاء ج١ / ٣٨٤، برقم ٦٦٨، وقال عنه الإمام الهيثمي في مجمع الزوائد، رواه الطبراني في الكبير وقال عنه فيه أبو العطوف لم أر من ترجمه يروى عن الوضين قال أحمد : ما به بأس وقال أبو حاتم : يعرف وينكر . بن عطاء وبقية رجاله موثقون .

تأثره بآيات سورة النور لما نزلت علي رسول الله ﷺ أحس أبو بكر ﷺ بوخزٍ شديدٍ وذلك لما منع مسطح بن أثاثة من النفقة التي كان ينفقها عليه، وكان ممن خاض في حادثة الإفك ، فأقسم أبو بكر فقال والله لا أنفق عليه أبداً فأنزل الله قوله تعالى ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(1) فقال أبو بكر: بلي والله أحب أن يغفر الله لي، وأعاد إلي مسطح بن أثاثة النفقة التي كان يعطها له، وهذا من حسن تأثر أبي بكر بالقرآن وهذا هو أبو بكر عندما كان ينزل القرآن يهتز قلبه وينفعل بها فؤاده، ويرتجف منها جسده ﷺ.

ثانياً: عمر بن الخطاب ﷺ وتأثره بالقرآن الكريم:

لم يكن حالُ عمر ﷺ مغايراً كثيراً عن حال صاحبه أبى بكر، لكن عمر ﷺ كان من أشد الناس تأثراً بالقرآن، لدرجة أن القرآن كان يوافق رأيه في معظم الأحيان، وهو ما يسمى عند كتَّابِ السِّير بموافقات عمر، ومن أول وهلة يُعلم مدى تأثره ﷺ بالقرآن، رجلٌ ينزل القرآن على رأيه تُرى هل يأتى هذا من فراغ؟! بالطبع لا، ولاحظ أن هذا التأثير يكون بهذه الدرجة قبل تلاوة الآية، فما بالك به بعد تلاوتها وسماعها من فم الرسول الطاهر.كل هذا مما يدل دلالةً واضحةً وقاطعةً على أثر القرآن فيه، ومدى تأثره به ومدى عمق الأثر البالغ الذى يحدثه فى نفسه وداخل وجدانه، فهو الذى آمن عند سماعه القرآن من أول مرة تتلى عليه آياته، لم يسأل أو يحاول أن يناقش، دخل التأثير القرآنى المعجز قلبه مباشرة،وكأنه رُمِىَ بسهم من قوسٍ واحدةٍ فلم يملك قلبه من ذلك فكاكاً، وكأن مشاعره و أحاسيسه استجابت لهذا النداء المؤثر من الله تعالى، فرقَّ عندئذٍ فؤاده وهفا قلبه، وارتجفت الجوارح فرحاً وخوفاً، وتمنى عمر من أعماق قلبه وقتئذٍ أن يرى من نزل عليه القرآن الكريم ليعانقه.ترى هذا الحادث الغريب العجيب الذى أذكره لك؛ لتعلم يقيناً مدى تأثير القرآن فى عمر - ﷺ- إذ تذكر كتب السيرة، أنه ذهب بعد محاورة مع قريش وقد أزمع عليقتل محمد ﷺ فأخذ سيفه وهو فى الطريق قابله نعيْم بن عبد الله،

---

(1) سورة النور الآية رقم ٢٢ .

فقال: إلام تقصد يا عمر قال: محمداً لأقتله، قال نعيم لبئس ما سعيت إليه، ترى أن بنى عبد مناف تاركوك بعد قتلك لولدهم، فتحاورا حتى علت أصواتها، فرأى نعيْم أنه غير منتهٍ عما في رأسه، قال: اذهب إلى أختك وختنك فقد أسلما، فاحتمله الغضب وذهب إلى أخته، فاقتحم الباب وبطش بزوجها وشج رأس أخته، ولما أمسك بالصحيفة، وقرأها **﴿طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى﴾**(1).

وعندئذٍ سكنت ثورته وهدأ روعه، وانطفأ غضبه، ووقف وكأن على رأسه طير، لا يتحرك قدر أنملة واحدة، وإنى أقف ها هنا لحظة:

إذا ما تأملنا خروج عمر من بيته شاهراً سيفه وهو فى أَوْجِ غضبه وعنفه ثم زاده الحوار مع نعيْم غضباً فوق غضبه، ثم ازداد غضبه ناراً عندما علم باسلام أخته وزوجها، وهذا كله مما يدل على شدة الغضب لكن انظر ما أسفر عنه هذا الغضب من مظاهر مثل:

١ - اقتحامه الباب على أخته وزوجها بشدةٍ وقوةٍ مخيفةٍ.

٢- ضربه لسعيد زوج أخته.

٣- شجه لرأس أخته.

وإنى أشعر أو أكاد أشعر الآن أن بركاناً من الغضب آذن بالانهيار، أو أن هناك طبقات من الغضب فد رُكبت تركيباً غريباً وعجيباً فى جبار من جبابرة الجاهلية، تخيل معى - إن استطعت التخيل - فى أوج هذه الحال يرفع عمر الصحيفة من خباب وإذ بعينه تقع على بضع آيات من صدر سورة طه فلا يملك إلا أن يقول: «ما أحسن هذا الكلام وأجمله وأكرمه عندئذٍ انطفأ غضب عمر بن الخطاب ﷺ، كما يُطفِىء الماء النار العالية،

---

(١) سورة طه الآيات من ١ إلي ٨ .

وإذا بالقرآن يؤثر عليه فيدخل الاسلام قلبه، من حيث يحسب الناس أنه لن يسلم، وذلك كله ليدرك الناس مدى تأثير القرآن الكريم فى القلوب، لدرجة أنه يحولها فى لحظة أو أقل منها من حال إلى حال أخرى. إنه تحوُّل غريبٌ وعجيبٌ وسريعٌ، أمرٌ مذهلٌ يجعلك تقف مكتوف الأيدى مكفوف اليد والقلم واللسان، مبهور البنان بهذا القرآن وأثره الجليل فى نفوس الخلفاء الراشدين، فيحدث التغير الكامل والجذرى فى حياتهم من الكفر إلى الاسلام من الظلمات إلى النور، ومن القتل إلى الحب حتى يُذكر فى الحديث «لأنت أحبُّ إلى حتى من نفسى يا رسول الله»[1] هذه الرواية المشهورة فى اسلام عمر وإن تعددت الروايات، لكنها فى النهاية تتفق على أن سبب اسلامه هو القرآن وتأثيره الشديد فى قلبه، وإن ذكرت الرواية السابقة وهى مشهورة فهناك رواية أخرى جديرة بالتسجيل والملاحظة:

«كان عمر مباعداً للاسلام، وصاحب خمر فى الجاهلية، كان له مجلسٌ يضم رجالات قريش، وفى يوم من الأيام قال فى نفسه: سآتى المجلس مع أقراني، ونتساقى الخمر فذهب إليهم فلم يجدهم، فقال أذهب إذن إلى الخمار فذهب إليه فلم يجده، فقال إذن أطوف بالكعبة، فذهب فوجد الرسول ﷺ قائماً يصلى، فقال فى نفسه لأستمعن إليه دون أن يشعر بى، فدخلت تحت أستار الكعبة خشية ألا أروعه، واستمعت للقرآن فرق قلبى فأسلمت»[2] تأمل معي هذه أيضاً لترى العجب العجاب ولترى هذا الاعجاز التأثيرى للقرآن الذى لا تملك نفسك حياله والذى يصفه لسانك بالروعة والجلال والجمال والكمال. وهناك روايات أخرى كثيرة عن سبب اسلامه، إلا أنها فى النهاية تلتقى عند الحد الفاصل، وهو روعة تأثير القرآن فى القلوب، وتمكنه من النفوس وسيطرته علي الأفئدة والعقول، ومن أصدق من الله حديثاً. إذن يجدر بي أن أقول إن القرأن الكريم هداية لمن اهتدى به ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، ولقد شرح الله صدر عمر فتقبل القرآن وأثر فيه، ووُفِقَ لنيل هذه الهداية، ولعلها كانت اجابة لدعوة النبى ﷺ إذ قال: «اللهم أعز الاسلام بعمر بن

---

(١) أخرجه البخاري. كتاب الإيمان والتزود، باب كيف كانت عيش النبي ﷺ ج٦ / ٢٤٤٥ برقم ٦٢٥٧.
(٢) السيرة النبوية . ابن هشام ج١ / ١٧٧ مرجع سابق.

الخطاب خاصة..»[1] ومن ثم كان تأثير القرآن فى قلبه، ولدرجة أن عمر كان بينه وبين القرآن رباطٌ وثيقٌ ومتينٌ لا يُفك أبداً، وليس أدل على ذلك من أن القرآن ينزل موافقاً لرأيه. ومنها علي سبيل المثال: موافقات القرآن لآراء عمر قد أوصلها بعضهم إلى أكثر من عشرين ، أخرج ابن مردويه عن مجاهد قال: كان عمر يرى الرأي فينزل به القرآن ، و أخرج ابن عساكر عن علي قال: إن في القرآن لرأيا من رأي عمرو أخرج عن ابن عمر مرفوعا: ما قال الناس في شيء و قال فيه عمر إلا جاء القرآن بنحو ما يقول عمر.

١ - و أخرج الشيخان عن عمر قال: وافقت ربي في ثلاث: قلت: يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت ﴿وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ و قلت: يا رسول الله يدخل على نسائك البر و الفاجر فلوا أمرتهن يحتجبن فنزلت آية الحجاب واجتمع نساء النبي صلى الله عليه و سلم في الغيرة فقلت: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن فنزلت كذلك».

٢ - و في التهذيب للنووي: نزل القرآن بموافقه في أسرى بدر و في الحجاب و في مقام إبراهيم و في تحريم الخمر فزاد خصلة خامسة و حديثها في السنن و مستدرك الحاكم أنه قال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فأنزل الله تحريمها.

٣ - و أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره عن أنس قال: عمر: وافقت ربي في أربع نزلت هذه الآية: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ الآية فلما نزلت قلت أنا: فتبارك الله أحسن الخالقين فنزلت: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ فزاد في هذا الحديث خصلة سادسة و للحديث طريق آخر عن ابن عباس أوردته في التفسير.

ولعل هذا له دلالته القوية فى مجال التأثير القرآنى على قلب عمر، ولذا أذكر بعض الأمثلة للدلالة عليه، وهى تؤكد حسن تأثره بالقرآن:

١ - روى أنه قرأ [سورة التكوير] فقرأ و دموعه على وجنتيه حتى وصل إلى قوله

(١) أخرجه ابن حبان فى السنن ، كتاب افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة ، فصل عمر ابن الخطاب ، ج١/ ٣٩٣ برقم ١٠٥ ، وقال عنه الهيثمي في الزوائد صحيح ، وكذا الألباني قد صححه .

تعالى: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ فخر مغشياً عليه يعوده الناس، لا يدرى أحدهم سبب مرضه، ولذا قال عبد الله بن عمر: رأيت عمر ﷺ- قد أخذ نبتة من الأرض فقال: ليتني كنت هذه النبتة، ليتني لم أُخلق، ليت أمى لم تلدنى، ليتنى لم أك شيئاً، ليتنى كنت نسياً منسياً»[1].

إلى هذا الحد كان تأثير القرآن قوياً فى نفس عمر وقلبه، فكلما قرأ القرآن ازداد إيمانه، وكلما ازداد إيمانه ازداد خوفه من الله تعالى، فقد كان يستحضر عظمة الله وكبريائه عند تلاوة القرآن، بل إن الأمر كان يصل إلى أبعد من ذلك، وهو أن يغشى عليه من شدة الآيات على قلبه خوفاً وفزعاً.

٢ - روى أنه «سمع [سورة الطور] حتى وصل القارىء إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ قال من يدفع عنى عذاب يوم القيامة؟ وخر مغشياً عليه، ولما أفاق عاد إلى بيته مريضاً يعوده الناس»[2] لا يدرون ما سبب مرضه.

إن القلم والبنان ليستحيان أن يكتبا كلاماً يشوها به هذا الأثر العالى وهذا التأثير القوى فى نفس ووجدان عمر بن الخطاب، وإنه يحلو لى أن أتركه دون تعليق لا لشيء إلا لأنى أريد أن يتذوق حلاوته هكذا دون تعليق أو غيره.

٣ - كان عمر ﷺ يأت العشر آيات - كما يحدث عن نفسه - فيحفظها ثم يعمل بما جاء فيها ثم يحفظها لأولاده وأهله ثم يأمرهم أن يعملوا بها ثم يعلمها للناس ويجعلها واقع حياة،وهذا قمة التأثير القرآنى والتدبر العالى، ترى بالله عليك، كيف يكون الحال عندما تعلم أن عمر بهذه الهيئة عند القرآن؟ بالطبع لن يجد بُداً من التسليم بتأثير القرآن الكريم على قلبه.

٤ - صلّي عمر بن الخطاب ﷺ الصبح بالمسلمين إماماً فقرأ سورة يوسف فبكي حتي

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبه فى مصنفه كتاب الزهد، كلام عمر ابن الخطاب ﷺ ج ٧ / ٩٨ برقم ٣٤٤٨، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان، الحادي عشر من شعب الإيمان ج ١ / ٤٨٦ برقم ٧٨٩.

(٢) ذكره المتقى الهندي فى كنز العمال، كتاب الفضائل من قسم الأنفال تتمة فضائل الفاروق، ج ٣ / ٨٠٩ برقم ٣٥٨٣٢.

سالت دموعه علي ترقوته ﷺ وسمعوا بكائه من خلف الصفوف.

٥ - انتقل هذا التأثر إلي أولاده من بعده، والتمس ابنه عبد الله هذا فيه فاتبعه فقد روي أنه قرأ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فلما أتي قوله ﷻ ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بكي حتي انقطع عن قراءة ما بعدها.

ثالثاً: عثمان بن عفان ﷺ وتأثره بالقرآن الكريم:

لم يكن عثمان بن عفان ﷺ ليخالف صاحبيه فى هذا التأثير القوى للقرآن على قلبه أبداً، فقد كان ﷺ ذا تأثير شديد؛ لأنه كان لا يشبع من قراءة القرآن أبداً، لأنه كان رقيق القلب جداً بالقرآن، حتى أنه أُثِرَ عنه أنه كان يقطع ليلة في قراءة القرآن وتسبيح الله تعالى لا غير.

ومما يدل دلالة قاطعة على ذلك ما فعله ﷺ من جمع القرآن وكتابته فى مصحف برسمه العثمانى الموجود حتى الآن، ومما يدل على ذلك أيضاً ؛ أنه قُتِلَ وهو يقرأ القرآن، ودمه على المصحف الشريف يشهد بذلك، كان ﷺ من أشد الناس تأثراً بكلام الله تعالى، وكيف لا يكون ذلك؟ وقد رُبِّىَ على يد من أُنزل على قلبه القرآن، وصاحب كلا من أبى بكر وعمر، وقد أسلفت مدى تأثرهما بالقرآن، فلم يكن عثمان بن عفان ﷺ بدعاً من هذا بل كان سائراً على الدرب، وإنى لأرى أن لعثمان فى تأثره بالقرآن الكريم عدة مؤهلات، قد أهلته لينال هذا التأثير الكامل فى وجدان القرآن الكريم.وهذه المؤهلات التي أذكرها ليست تنقص من قدر صاحبيه ﷺ أبداً، بل إنها لتزيدهما معه تأثيراً فوق تأثير وهى:

١ - صهر رسول الله ﷺ لابنتيه، وهذا كان له كبير الأثر فى نفس و وجدان عثمان، حيث لان قلبه ورق فؤاده للقرآن، وكان للقرآن سلطان قوى على قلبه وعقله.

٢ - تمكن الايمان من قلبه أيما تمكن، وعلو أثر القرآن فى فؤاده أى علوٍ، وتأثره به أيما تأثر، حتى فى فترات الشدة والهوان والآلام، وهم يعذبونه وعمه يذيقه مر العذاب حتى يرجع عن ذلك فرفض، وجعل يسترخص كل شيء فى سبيل مرضاة الله تعالى الذى أنزل القرآن وأرسل محمداً به، ولما لم يجد عمه بداً من هذا لتعلقه الشديد بالقرآن وبرسول الله تركه[1].

---

(١) السيرة النبوية ابن هشام ج١ / ١٧٨ . مرجع سابق .

٣ - من أوائل من كانوا يستمعون القرآن من رسول الله، وهذه قد أكسبته شدة تأثر القرآن، لأنه سمع القرآن ممَّن؟ من الرسول ﷺ.كل هذه المؤهلات قد أكسبته رقة فى قلبه، وليونه فى فؤاده، وانشراحاً لصدره، ورهافة حس تراها بادية عليه، وبكاءً شديداً يُرى على خديه، من خلال هذا كله نستطيع القول:

إن عثمان كان شديد التأثر بالقرآن الكريم، وكان للقرآن سلطان قوى عليه، ولشدة تأثره بالقرآن الكريم وحرصه عليه جمعه في مصحف واحد، وعانى فى ذلك معاناة شديدة من بين مؤيد ومعارض، وظهور مصاحف أخرى كثيرة، لكنه فى النهاية كابد وصابر حتى وصل إلى جمعه كما هو الآن، ليبقى للقرآن سحره العجيب وتأثيره الخالد أبد الآبدين، ومما يؤكد رقة قلبة وتأثره الشديد بالقرآن قربه من رسول الله ﷺ فقد كان الرسول يُقربُه من مجلسه، ويستخلفه على المدينة أكثرمن مرة، وبعثه للتفاوض فى صلح الحديبية، ولما أشيع قتله كانت بيعة الرضوان التى سجلها القرآن بحروف من نور ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾[1] ومن ثم كان القرآن فى قلب عثمان بن عفان ﷺ الأثر القوى الذى جعله يستمسك به حتى مات وهو يقرأه ودمائه عليه تشهد عليه ومما زاد تأثره بالقرآن، اضافة إلى ما سبق ذكره من قبل :

٤ - **ملازمته رسول الله ﷺ وشبهه به فى أخلاقه:** لقد لازم عثمان ﷺ رسول الله ﷺ فى كل أحواله، ولذا كان أشبه الصحابة برسول الله فى أخلاقه، ومما يدل على ذلك ما رواه أبو هريرة، قال: «دخلت على رقية بنت النبى وفى يدها مشط، فقالت خرج رسول الله من عندى آنفاً، رجلت رأسه قلت: كيف تجد بين أبا عبد الله - يعنى عثمان -؟ فقلت: خير الرجال، قال: أكرميه فإنه من أشبه أصحابى بى خُلُقاً»[2].

ترى عثمان يشبه رسول الله فى أخلاقه، من سجاياه الحسنة والطيبة، والخلال الكريمة

---

(١) سورة الفتح الآية رقم ١٨ .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ، كتاب معرفة الصحابة – رضي الله عنهم – ، ذكر رقية بنت رسول الله ﷺ ج ٤ / ٥٢ ، وقال عنه حديث صحيح الإسناد واهي المتن.

والرقة والألفة والمحبة والحلم والصفح و الجود والكرم، ومن هنا تلحظ مدى تأثير القرآن فى قلب عثمان وأسباب ذلك، رجل أشبه الناس خُلقاً برسول الله، وخلق الرسول القرآن، وبالطبع فإن خلقه كذلك سيكون القرآن ومن دلائل ذلك مايلى:

(أ) كان - رضى الله عنه - صاحب مال وفير، وهو من أشبه الناس خلقاً برسول الله وخلق الرسول الجود وهو من نزل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[1] فتأثر بذلك عثمان تأثرا شديدا، وترجم هذا التأثير إلى واقع عملى حتى يعرفه كل الناس، إذ جهز جيش العسرة من ماله، بئر رومية للمسلمين، وغير ذلك وليس هذا بمستغرب لأن القرآن أثر فى وجدانه واستولى على كيانه.

(ب) قد كان عثمان بن عفان ﷺ سمحاً يعفو ويصفح ويتجاوز واكتسب ذلك من تأثره بمخاطبة الله لرسوله ﴿وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ * فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[2] ومن ثم التزم هذا المبدأ فعفا وصفح عن كثير، ولعل هذه النقطة هى التى جعلت الناس فى خلافته يجترأون عليه، ويفعلون به ما فعلوا، لدرجة أنهم وصلوا إلى قتله، وهذا من جراء تسامحه عنهم، فولجوا من هذا الباب ودخلوا فى داره وقتلوه.

رابعاً: علي ابن أبي طالب ﷺ وتأثره بالقرآن:

إنه الخليفة الراشد وابن عم رسول الله ﷺ كان سائراً على درب من سبقه، مترسما خطاهم، وكان شديد التأثر بالقرآن الكريم وله مع كتاب الله صولات وجولات، وكان يحب القرآن وسماع من رسول الله ﷺ ولعل مما ساعده على أن يكون للقرآن الكريم هذا التأثير الحقيقى فى قلب الامام على ووجدانه عدة أمور أجمِلُها فيما يلى:

(١) حب الرسول لعلى وحبه للرسول - فصلة الحب بينهما كانت قوية جدا وبما

---

(١) سورة سبأ الآية رقم ٣٩.
(٢) سورة الزخرف الآيتان رقمي ٨٨ ، ٨٩ .

يشهد لذلك مارواه سعد بن أبي وقاص قال: «لما نزل قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[1] دعا رسول الله عليًّا وفاطمة وحسنا وحسينا وقال اللهم هؤلاء أهلي»[2] ما هذا الحب الشديد الذى يؤثر فى الحديد، تُرى هذا الحب الشديد بين الرسول وعلى ألا تكون له دلالة؟ ورسول الله يحب القرآن وخلقه القرآن، وليس عليٌ بأبعد عن هذا فهو يراه ويشاهده، ومن هذا المنطلق كان ﷺ من أشد الصحابة تأثراً بالقرآن الكريم.

(٢) دعا الرسول له بالفهم والفقه والتدبر: وهذه كافية لأن يلين قلب على ليعى القرآن، ويتأثر بآياته، ويتدبر معانيه، ويقف عند محكمه، وقد كان كذلك، فلقد روى أن عليا قال: «بعثنى رسول الله إلى اليمن، فقلت: يا رسول الله بعثتنى وأنا شابٌ أقضى بينهم، ولا أدرى ما القضاء، فضرب رسول الله صدرى بيده، ثم قال: اللهم اهد قلبه وثبت لسانه، فوالذى خلق الحبة ما شككت فى قضاء بين اثنين»[3] بهذا الدعاء الجليل من رسول الله لعلى - كان بمثابة فتح لباب الفهم والعلم الذى أوتيه ولذا كان شديد التأثرّ بالقرآن الكريم.

(٣) ملازمته رسول الله ﷺ لحظات نزول الوحى عليه، وضع تحت نزول الوحى خطوطا،فهذا يعنى أنه كان معه والقرآن ينزل عليه، هذه النقطة قد أكسبته تأثراً شديداً بالقرآن الكريم – وقديما قالوا: فما راءٍ كمن سمعا – قد علم علىّ ﷺ الآيات التى نزلت على رسول الله ومواطن نزولها، فعن ابن عباس ﷺ قال «ما أنزل الله ﴿ياأيها الذين آمنوا...﴾ إلا وعلى أميرها وشريفها، ولقد عاتب الله أصحاب محمد فى غير مكان،وما ذكر عليًّا إلا بخير» وقال: «وما نزل من أحد من كتاب الله تعالى ما نزل فى على»[4] كل

---

(١) سورة آل عمران الآية رقم ٦١ . .

(٢) أخرجه مسلم كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل علي ﷺ ج ٤ / ١٨٧٠ برقم ٢٤٠٤

(٣) أخرجه البزار في مسنده ، مسند علي ابن أبي طالب ﷺ ج ٢/ ٣٠٧ برقم ٧٣٣ ، وكذا أخرجه أبو يعلي في مسنده ، مسند علي ابن أبي طالب ﷺ ج١ / ٣٢٣ برقم ٤٠١ ، وقال حسين أسد : إسناده ضعيف .

(٤) تاريخ الخلفاء الراشدين ، الإمام السيوطى ص ١٢٨ باب الإمام على بن أبى طالب.

هذا يعطيك أدلةً واضحةً على أن علياًّ رضي الله عنه من أشد الصحابة تأثرا بالقرآن الكريم - وذلك لما نزل فيه الآيات، ولما عاين من نزولها فى مواضع كثيرة، ويشهد لهذا ما رواه أبو الطفيل إن علياً قال: «سلونى عن كتاب الله تعالى، فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أم بنهار وفى سهل أم جبل، والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما نزلت وأين نزلت وعلى من نزلت، إن ربى وهب لى قلبا عقولا ولسانا صادقا ناطقا»[1] وقد يعترض على هذا البعض قائلا: «أليس افتخارا من علىّ بعلمه؟!والجواب إن هذا الكلام من على رضي الله عنه ليس تزكية لنفسه، وإنما هو ذكرٌ لواقع أقربه كثير من أصحاب رسول الله، وكثير من أهل الفضل والعلم فشهادة هؤلاء حق لا يستطيع أحد انكاره، وإقرارهم حق لا يستطيع أحد مخالفته أبداً.وكان لعلمه بكتاب الله تعالى له أكبر الأثر فى حياته وسلوكه ويشهد لهذا التأثر ما يلى:

* قد قرأ على رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2] وما أثر عنه أنه داخله كبر أو استعلاء أو زهو على أحد أبدا، مع توافر هذه الأدوات الداعية إلى الافتخار، قد أثرت هذه الآية على قلبه وفؤاده وتأمل معى ما يلى:

١ - عن أبى صالح عن جده قال: «رأيت عليا قد اشترى تمرا يدرهم فحصله فى ملحفته فقيل يا أمير المؤمنين ألا نحمله عنك؟ قال: أبو العيال أولى بحمله ثم تلا الآية السابقة ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

٢ - عن زازان قال: «رأيت عليا يمشى فى الأسواق يمسك الشموع بيده، ويرشد الضال ويعين الحمال على الحمولة وهو يتلو قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ انظر إن آية واحدة جعلت أثرها

---

(١) حلية الأولياء، الأصبهانى، ج١ / ص ٦٨، على بن أبى طالب.
(٢) سورة القصص الآية رقم ٨٣.

الشديد علي قلب عليّ وفؤاده، وهذه آية من ستة آلاف ومئتين وستة وثلاثين آية على الأرجح، آية واحدة تفعل هذ الفعل العجيب فى سيدنا عليّ، فما بالك بباقى آيات القرآن الكريم، وكان أعلم الناس بالفرائض، وهى ثلاث آيات فى سورة الناس، فلو ذهبت لتعيش معها ومع من تأثر بها وهو سيدنا عليّ لعلمت مدى أثر هذا القرآن فى قلبه وكيانه كله وختاما: أقول:

إن هؤلاء الخلفاء الراشدين ﷺ كانوا أشد الناس تأثرا بالقرآن الكريم، فهم النبع الصافى بعد رسول الله ﷺ والواجب على المسلمين أن يرتسموا خطاهم، ويتأثروا بالقرآن مثل ما تأثر به سابقوهم ففازوا وأتت لهم الدنيا من أقصاها إلى أدناها وصدق الله سبحانه تعالى ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ [1]. مما لاشك فيه أن الصحابة الكرام - رضوان الله عليهم أجمعين - حملة مصابيح الهدى، وهم النور الذى أرساه الله فى الأرض بعد موت النبى ﷺ وصدق الله: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [2].

وهذا التقرير الالهى والوصف الربانى لهذا الصحب الكرام فى القرآن يوفر علينا كثيرا من البحث، ولكنى أقول ﴿إن الله﴾ لما أنزل القرآن على قلب ﷺ لم تكن أمته نابغة فى العلوم والمعارف، ولم تكن أمة بلغت شأوا من التقدم والرقى، إذاً لوجد المشككون نافذة منها يدخلون للطعن فى القرآن، ولوثوا الأثر القرآني من خلال واقع الأمة وحالها وتقدمها ورقيها وحضارتها، ولكن الأمر على العكس من ذلك تماماً وذلك حيث كانت الأمة أميةٌ تماماً لا يعرفون القراءة والكتابة وينزل أول كلمة فى القرآن.. اقرأ هذه واحدة

والثانية نزل القرآن على قوم تحكمهم الجاهلية بكل صورها وأشكالها المشينة بين العداوات والأحقاد والثارات ... إلخ، فنزل القرآن على هؤلاء وهم على طبيعتهم السابقة الذكرّ فوحد وجمع، وأثر وأمتع، وهذب وأنهض الأمة بركب المعرفة، وجلا عنها الظلم والظلمات، فرأت النور واضحاً لا تضار في رؤيته، ومن ثم كان أثر القرآن واضحاً للعين

(١) سورة ص الآية رقم ٢٩ .
(٢) سورة التحريم من الآية رقم ٨ .

رؤية ضوء الشمس، ولذا قال الرسول: «أمتي خير القرون»[1] ترى لماذا ذكر الرسول أمته بهذا الفضل العميم؟

إن السر وراء ذلك هو القرآن الكريم الذى نزل على القلوب ففتحها للهدى، وعلى الصدور فشرحها للايمان والتدبر، إنه القرآن الذى نقلهم من حال إلى حال / من الضلال إلى الرشاد، من الظلام إلى النور، فقد بات واضحا أن سر نجاح هذا الجيل (جيل الصحابة الكرام) هو القرآن الكريم ، لكن العجيب أن أحدا لا يشك فى هذه الحقيقة، جيل الصحابة تفوق بالقرآن، والمسلمون الآن ما زال القرآن فى أيديهم لم يحرف، ولم يبدل، وسيظل هكذا ولكن للأسف ساروا فى ذيل الركب، والمفترض أن يكونوا فى المقدمة ولكنهم هجروا القرآن وهجروا التأثر بآياته، وتدبر معانيه، ومن ثم أصبح هذا حالهم، ولا يتعللن أحد بأن السر فى تفوق جيل الصحابة وجود الرسول فيهم؟ والجواب على ذلك لو كان الأمر كذلك ما كانت رسالته عامة، بل كانت خاصة بقومه، ولكانت مربوطة بشخص فقط، وبحياته فقط، ولتكفل الله بإبقائه حياً، والواقع أن الأمر ليس كذلك، وأن السر فى التفوق هو القرآن، ووصل القرآن إلينا كما هو محفوظ بحفظ الله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[2] «وقد تعهد الله بحفظ القرآن الكريم ، مع جعله سبحانه الدعوة للناس كافة، وهذا يدل على أن مناط الدعوة هو القرآن الكريم وإن سر بقاءها هو في القرآن الكريم»[3].

فسر تفوق الصحب الكرام هو ما يلى:

(١) تأثرهم الكامل بآيات القرآن الكريم، عندما يأمر به فيأتمرون وما ينهاهم عنه فينتهون، وإذا ما أردت أن أضرب أمثلة فإن المقام يضيق ولكن حسبي فقط أن أفتح الباب وأذكر بعض الصور التى تدل على مدى عمق تأثر هؤلاء بالقرآن الكريم،بل كان القرآن نبراس حياتهم، وضياء نهارهم وليلهم. «وأعجب من هذا كله أن هذا الجيل،

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ كتاب الصرف باب الرجل يكون عنده الشهادة ج ٣ / ٢٩٥ برقم ٨٤٧ ثم قال عنه أخرجه الشيخان .

(٢) سورة الحجر الآية رقم ٩ .

(٣) معالم على الطريق ، سيد قطب ص ٨ ، ٩.

الجيل الأول الذي تربى على الكبر، كان هو خير القرون وأفضلها، وأكثرها تمسكاً بالقرآن بعد أن كان أكثرها بعداً، فاكتسب ما لا يتهيئا إلا فى سلامة بعد سلامة من قوم كانوا يتبعون آباؤهم فهذب طباعهم وسما بشيمهم، وارتقى بأخلاقهم، واستقامت أحفادهم عليه، والتزموا بأحكامه، وأين هذا من قوم كانوا بالأمس يعبدون الأوثان، ويلزمون شانىء الأخلاق ورذيل الطباع، وساقط الآداب»[1] لكن القرآن الكريم؛ أثر فيهم بعد أن أدركوا سره فالتزموه واتخذوه منهجا فسما بهم ونالوا به ما نالوا وشرفوا الدنيا كلها بذلك وإليكم بعض صور من تأثرهم به.

١ -**فهذا أبى بن كعب** ﷺ كان يبكى بكاء شديدا إذا قرأ القرآن الكريم، وذلك لما للقرآن من قوة تأثيرية تسيطر عليه، فتملك عليه كيانه وجوارحه ولا يستطيع منها فكاكا، ومما يؤكد ما رواه أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله لأبى بن كعب: «إن الله أمرنى أن أقرأ عليك القرآن» قال: آلله سمانى لك؟ قال «نعم» قال: وقد ذكرت عند رب العالمين؟ قال: «نعم» فذرفت عيناه[2] وهكذا كان تأثر الصحب الكرام ﷺ بآى القرآن الكريم، إنه تأثر عجيب وفريد جداً حتى شمل عليهم جميع مناحى حياتهم الخلقية والاجتماعية والعبادية.... وغيرها.

هذه النفوس المؤمنة من الصحابة الكرام التي كانت تتأثر بالقرآن الكريم عند تلاوته يقرأن الآية ويتأثرون بها، ويطبقونها واقعاً عملياً في حياتهم.

٢- **وهذا عبد الله بن مسعود** ﷺ صاحب الصوت الشجي بالقرآن، كان أشد الناس تأثرا به، وحبا له لدرجة أن النبى كان يحب أن يسمع القرآن منه، هذا الصحابى هو الذى أسمع المشركين القرآن إذ فرأ سورة الرحمن والقوم فى ناديهم وظل يقرأ وهم يصفقون حوله، ولشدة تأثره لا يلتفت إليهم، جعلوا يضربونه بنعالهم وهو لا يلتفت إليهم إلى أن أغمى عليه وهو يردد: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[3]. إلي هذه الدرجة كان تأثرهم

---

(١) لمرجع نفسه.
(٢) أخرجه البخارى ومسلم واللفظ للبخارى، كتاب التفسير، باب سورة البينة، ج ٤ / ١٨٩٧ برقم ٤٦٧٧ .
(٣) سورة الرحمن الآية رقم ١٦ .

بالقرآن الكريم قوياً وشديداً»[1] وقد كان يصغي إلي الآيات وينصت لها جيداً من ذلك أنه كان يقول إذا سمعت الله يقول «يا أيها الذين آمنوا» فارعها سمعاً فإنه إما خيرٌ يأمركم به أو شرٌ ينهاكم عنه».

وهذا **بلال بن رباح** ﷺ مؤذن رسول الله ﷺ وملازم له، وهو الذى كان ينادى للصلاة ويخبر بها رسول الله ﷺ والكل يعلم مدى رقة بلال بالقرآن، ومدى عمق أثره فى نفسه لدرجة أنه وهو فى العذاب كان يقول ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾[2] ثم يردد أحد أحد وبهذه الكلمة القرآنية التى تفرد الله بالوحدانية كان يتصبر بها بلال بن رباح ﷺ من مر العذاب الواقع عليه من أمية بن وهب حيث كان يخرجه إذا حمت الظهيرة ويضع الحجر على صدره وهو يردد أحد وكان يستعذب معناها ويتأثر بها فتعطيه قوة وتكسبه طاقة علي تحمل العذاب، إنه والله تأثر بالقرآن يعجز اللسان أن يصفه، ويخجل القلم أن يخط ما يفي بحقه. ترى إلى أى مدى كان هذا التأثير. وهذا غيض من فيض من تأثر الصحابة الكرام بالقرآن، ولا يفوتنا في هذا المقام أن أذكر كتبة الوحى وأخصهم بالذكر ها هنا.

زيد بن ثابت ﷺ **كاتب الوحي للرسول** ﷺ ولعلك توقن أن القرآن يخرج من فم النبي لأول مرة ليسمعه زيد بن ثابت، أتستوعب معي هذا، أول من يسمع القرآن جبريل من الله وثانى من يسمع القرآن رسول الله وثالث من يسمع القرآن زيد بن ثابت من رسول الله، تخيل معي هذا، أتراه كم لهذا كان زيد أعلم الأمة بالفرائض حيث قال النبي: «وأفرضهم زيد بن ثابت»[3] وكان زيد بن ثابت من أشد الصحابة تأثراً بكلام الله تعالى، وذلك لقربه من رسول الله ﷺ وقت نزول القرآن عليه، وليس هذا فحسب بل كان يكتبه ﷺ بعد سماعه من الرسول ﷺ أعتقد أن هذا من الخواص التي تميز بها زيد ﷺ، وكانت طريقاً قوياً لتأثره بالقرآن.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١/ ٣٠٩، ٣١٠ بتصرف كبير.

(٢) سورة الإخلاص كاملة.

(٣) أخرجه الحاكم فى المستدرك كتاب فضائل الصحابة، ذكر مناقب زيد بن ثابت، ج٣/ ٤٧٧ برقم ٥٧٨٤، وقال هذا اسناده صحيح علي شرط الشيخين، وكذا علق عليه الذهبي.

المبحث الثاني: أثر القرآن الكريم على المؤمنين:

مما لا ريب فيه أنه قد استبان مما سبق الحديث عنه أن القرآن الكريم ذو أثرٍ كبيرٍ وعظيمٍ وخطيرٍ فى نفوس من يقرأونه أو ينصتون إليه، وكل في مجاله حسب تخصصه فصاحب العام البليغ واللسان الرفيع يجد ضالته وطلبته داخل القرآن الكريم فيتلمس منه النقاط البليغة؛ فيتأثر عندئذٍ بروعة حديثه وتشابهاته واستعارته وكناياته وغير ذلك، وصاحب الجيولوجيا وطبقات الأرض يتأثر بروعة ما ذكره القرآن عن الاكتشافات العلمية الحديثة في هذا المجال، والتى لم يصل العلم إليها إلا مؤخراً وصاحب السيرة والتاريخ يتأثر ببراعة ما ذكره القرآن عن أخبار الأمم السابقة وما ذكره من العظة والعبرة التي تؤخذ منها حيث ذكر عاقبة الأمم المكذبة وما آل إليه حالها بسبب عنادها واستكبارها..... إلخ وهكذا ترى أن كل علمٍ وفنٍ من العلوم والفنون قد سبق إليه القرآن ونبه العقول إليه سواء أدركه ذلك الأثر أو قبل ذلك أو بعد ذلك، وهذا ينطبق على كل العلوم التي لها ذكر في العصر الحديث ولكني اقتصرت على ما سبق خشية الإطالة، والعجيب الذي يملك القلب والكيان أن ترى أن آيةً واحدةً من القرآن تتحدث في مجال معين تهز صاحبها هزاً عنيفاً، وقد تأتى بصورٍ مختلفةٍ وأشكالٍ متباينةٍ ولذ فالقرآن الكريم لم يترك نفساً إنسانية واحدة لم يداخلها التأثير أو تسيطر الآيات على قليلة وجدانية، أو تملك على حياته،أو يضيق بها وقته، أو تدمع منها عينه فيحذر ويخاف فمن ثم كان أثر القرآن على الناس. وأبدأ بالمؤمنين،

أثر القرآن علي المؤمنين:

مما لاشك فيه أن للقرآن الكريم أثراً عظيماً في نفوس المؤمنين، وهذا الأثر قد بدا في حياتهم حتى استحوذ عليها، فتحولت المفاهيم والعادات والتقاليد والموروثات من الجاهلية إلى الإسلام، وذلك بفضل هذا الدستور الذي حول المؤمنين من الحياة الضيقة إلى الحياة الرحبة الواسعة، من العادات السيئة القبيحة إلى كل ما هو حسن وجميل، وكان القرآن شغلهم الشاغل حيث أحبوا آياته فأقبلوا عليها يلتمسون فيها النجاة والهداية التي

تعم جميع مجالات حياتهم في العمل والسلوك والتطبيق وصدق الله ﷻ إذ يقول ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1] ومن ثم أصبح للحياة مذاقٌ خاصٌ، ومقياسٌ يغاير مقاييس حياتهم الهمج، مقياس ينبذ الفوضى ويحترم الذات، لأنهم يقيسون الأمور بمقاييس قربهم من الله تعالى ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[2] والغريب أنه ولأول مرة في تاريخ الإنسانية يتم التغيير فيها بالحروف والكلمات، حيث ينزل من عند الله - تعالى - كتاب يغير النفوس تغيراً كاملاً وتتأثر به القلوب تأثراً تاماً ، حيث يتم انقلابٌ كاملٌ للحياة البشرية بأسرها وفى كل مجالاتها الرحبة منها والضيقة ؛ فى عالم القيم والأخلاق، في بناء الحضارات والعمران، كل هذا حدث في فترةٍ وجيزةٍ جداً من عمر الإنسان وهذا إن دل فإنما يدل على عمق الأثر الذي أحدثه القرآن في نفوس المؤمنين، وهذا الأثر قد وصل إلى سويداء القلوب، فتفاعلت مع القرآن تفاعل شديداً، التقت أرواحهم بروح القرآن وذلك عند التقاء الأرض بالسماء عند نزول الوحي على الرسول ﷺ وعندئذ غداً الناس يستقون مناهجهم من السماء لا من الأرض، من الله لا من البشر الذي يخطأ ويصيب، وعندما أيقن الناس بهذا، ثم الإصلاح الفوري في كل مجالات الحياة العامة والخاصة وليتعلم الناس جميعاً هذه القاعدة متى تمسكت الأمة بالقرآن، وأثر فيها وعاشت فى ظلاله الوارفة كلما مكن الله لها في الأرض، ورزقها من حيث لا تحتسب وكلما انحرفت الأمة عن ذلك وهجرت القرآن غدت أمة خواء لا روح لها، ولا حياة تدب في أركانها، يقول الله تعالى ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[3].

فالقرآن روح يبعث في المؤمنين العزة والكرامة والإباء، وسيظل كذلك - بإذن الله -

---

(١) سورة العنكبوت الآية رقم ٦٩.

(٢) سورة الحديد الآية رقم ١٦.

(٣) سورة الأنعام الآية رقم ١٢٢ .

إنه يبعث فيهم الأمل لغدٍ مشرقٍ، وفى ظل مجتمع تسوده المعاني السامية والأخلاق السامقة، إنه سيطر على القلوب والعقول، وصار وسيلةً للإصلاح والتهذيب، واتخذه الرسول ﷺ سلاحاً معنوياً في بداية الأمور؛ لاستمالة القلوب نحوه فتأثر به الكبار والصغار والسادة والضعاف، وذلك دون جبرٍ أو إكراهٍ ، ولكني أريد أن أضع هذا التأثر القرآني في نفوس المؤمنين في نقاط حتى لا يتبعثر الجهد ويضيع تركيز القارىء الكريم وسط الكلام .

١ - الوجل فى القلوب:

وهذا الوجل معنىً يداخل القلب لا يشعر به إلا المؤمن الذي تأثر بآيات القرآن، ونعم في ظلالها الوارفة، وقد حاز المؤمنون درجة عالية رفيعة وساطعة في سماء القلوب، وذلك كله بفضل تأثرهم بالقرآن الكريم قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[١] .

وهذا التأثر كان عملياً صادقاً وذلك بدلالة «وجلت» التي توحي بمعنى الخوف، لكنة في نظري خوف له مذاق خاص، ما أجملة من خوف، وما أروعة من وجل، وهنا تأتى الآية ليتم البناء الاخلاقى الرفيع حيث زيادة الإيمان عند تلاوة الآيات، وتختم بقوله تعالى ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وهذه توضح الخوف السابق، فقد انقلب ها هنا إلى توكل على الله، كأن المؤمن يبرأ من حوله وطوله ويكون جل اعتماده على ربه، يقول ابن كثير ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى لا يرجون سواه ولا يقصدون إلا إياه ولا يلوذون إلا بكتابه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك لا شريك له، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب»[٢].

إن نتيجة التلاوة للقرآن الذكر الحكيم واضحةٌ للعيان لا يضار فى رؤيتها أحد، إنها واضحةٌ في سلوك المؤمنين وفى حياتهم العامة والخاصة ، فهم على ربهم متوكلون يقول

---

(١) سورة الأنفال الآية رقم ٢.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢/ ٢٧٤ مرجع سابق

سيد قطب «إنها الارتعاشة الوجدانية التي تنتاب القلب المؤمن حين يذكر الله أمراً أو نهياً فى القرآن فيغشاه جلاله، وتنتفض فيه مخافته ويتمثل عظمة الله ومهابته،إلى جانب تقصيره - هو وذنبه -، فينبعث إلى العمل والطاعة، فالقلب المؤمن يجد في القرآن ما يزيده إيماناً، وما ينتهي به إلى الاطمئنان، إن هذا القرآن يتعامل مع القلب بلا وساطة، ولا يحول بينه وبين التأثر به إلا الكفر الذي يحجبه عن القلب، ويحجب القلب عنه، فإذا رفع هذا الحجاب بالإيمان وجد القلب حلاوة القرآن، ووجد في إيقاعاته المتكررة زيادة فى الإيمان، تبلغ إلى درجة الاطمئنان»[1] والغريب أن الحديث عن وجل وخوف فى نهاية المطاف توكل على الله، إنه خوف من جلال الله، إنه وجل يعقبه احترام في أعلى قمته ورفعته، ومع هذا الوجل الإصلاح العام الذي وضعه الإسلام نصب عينه في مساره الطبيعي لم يحد عنه قيد أنملةٍ واحدةٍ لذلك اعتمد بناء النفوس على الإيمان الصادق والحب الصافي للقرآن وآياته، فارتبطت الأرض بالسماء برباطٍ وثيقٍ، جعلها تتذوق حلاوة القرآن فتستعذب العمل للإسلام مهما كلفها ذلك من تعبٍ أو مشقةٍ حتى في الجهاد فى سبيل الله تعالى، فعن جابر ﷺ قال للنبى ﷺ يوم أحد: أرأيت إن قتلت فأين أنا قال فى الجنة فألقى ثمرات كن فى يده ثم قاتل حتى قتل»[2] أرأيت كيف دفعهم الوجل القلبي إلى أن يلاقوا الله وهم شهداء يفوح من دمهم عطر المسك، وروائحه الذكية، إنه لعجب يتملك القلب من هؤلاء لكن سرعان ما يزول هذا العجب سريعاً عندما تعلم أن ذلك كله من صنع القرآن فى النفوس لدرجه أن المؤمنين الأوائل كانوا إذا سمعوا القرآن التفوا حوله، وتركوا كل مشاغلهم وحياتهم، فلقد أن عمر بن عبد العزيز خرج ذات ليلة يصلى فى المسجد فجهر بالقرآن «أي علا صونه به» فاجتمع الناس حوله يستمعون، فأرسل إليه بين المسبب وقال الناس فلم يعد لذلك»[3] إلى هذا الحد كان وجل قلوبهم من ذكر الله وتلاوة القرآن يصل إلى أن يتركوا مشاغلهم وحياتهم ويذهبوا ليتدبروا القرآن، ولينعموا بالتأثر بآياته.

---

(١) في ظلال القرآن ج ٣ / ١٤٧٥ مرجع سابق ....

(٢) أخرجه مسلم فى صحيح كتاب الاماره باب ثبوت الجنة للشهيد ج ٣/ ١٥٠٩ برقم ١٨٩٩ ، واللفظ لمسلم ، من حديث جابر ابن عبد الله ﷺ .

(٣) أخرجه عبد الرازق فى وصفه كتاب الصلاة باب حسن الصوت ج ٢/ ٤٨٤برقم ٤١٧٤.

٢- الاطمئنان القلبي والأمان النفسي:

إن الاطمئنان الأمان كلماتٌ مترادفةٌ لفظاً وإن كانت متحدةً في المعنى أحياناً حيث تعنى كل منها إعادة الهدوء الداخلي للكيان الانساني، وهذا الهدوء والأمان الداخلي لا يستطيع أن يشعر به إلا صاحبه، ولا يتأتى هذا للمرء إلا يعد مرحلة عالية من الإيمان، ودرجةٍ عليا من درجات التأثر بالقرآن والتدبر التام لآياته، تدبرٌ واعٍ ودقيقٍ للغاية يجعل القلوب تصل حتماً إلى الطمأنينة والأمان المنشودين، حيث قد غدت الطمأنينة أمراً بعيد المنال في حياة الناس ووراء ذلك هو بعدهم عن القرآن وعن التأثر بآياته، إن القلوب إذا أثر فيها القرآن فإنه يشعرها بأمان داخلي، وطمأنينة نفسية ومن ثم يصبح الملاذ لها عند الفزع والخوف هو القرآن، لأنها ذاقت حلاوتها فأورثها طمأنينةً وأماناً وصدق الله ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾[1] إن الحياة كنوز أعظمها الإيمان بالله تعالى، وطريق ذلك منارة القرآن الكريم، فالتأثر بالقرآن يورث القلب السكينة والطمأنينة والأمان النفسي، وإنك لتلمح هذا واضحاً مع رسول الله ﷺ في الغار عندما شعر الرسول بكل هذه المعاني السامية وغمر الاطمئنان قلبه ووجدانه إذ أنزلها الله عليه يقول الله تعالى ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2]

إنها السكينة التي غابت عنا، إنها الطمأنينة التي ما عاد أحدٌ يتلمس جمالها وراحتها، وذلك بسبب هجر القرآن، وهجر تدبره وتأثيره، ولقد غلبت مشاعر الخوف والحزن على صاحبه سيدنا أبو بكر لا على نفسه ولكن على رسول الله، ولكن لما نزلت الآية أطمأن قلبه وسكنت نفسه، ونعم بأمان غمر كيانه، إنه القرآن فيه من عطاء الله ما تألفه النفس البشرية

---

(١) سورة الرعد الآيات من رقم ٢٧ إلي رقم ٢٩.

(٢) سورة التوبة الآية رقم ٤١.

وتحبه وتقبل عليه فستميلها نحو الأمان ويقودها إلى الاطمئنان، إنه يخاطب في النفس ملكات خاصة لا يعرفها إلا خالق الإنسان فيثمر ذلك كله الأمن والاطمئنان «إننا إذا ما تأملنا المصدر الأول للإسلام - وهو القرآن - كتاب الله تعالى، وتدبر آياته، وتأملنا موضوعاته واهتماماته، نستطيع أن نصف بأنه كتاب الإنسان وذلك لأن القرآن إما حديثٌ عن الإنسان أو حديثٌ إلى الإنسان»[1] ومن ثم فإن إنسان العصر الحديث دائم البحث عن العلاج الناجح لأمراض الخوف والقلق والكرب التي يحياها، وضاق عليه الخناق بسببها حتى غدت مرض العصر الذى يعانى منه بصورةٍ مستمرةٍ، وهدف هذا الإنسان وأمنية حياته أن يعيش فى كنف السكينة وأن يحيا فى ظل الأمان والطمأنينة ولو للحظات، ولكني أقول لن يتم ذلك بعيداً عن القرآن، إقرأوا القرآن واجعلوه نبراس حياتكم عندئذ ستنعمون بالأمن والأمان والسكينة والاطمئنان، كل هذه معاني قد اشتملت عليها الآية الكريمة ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ﴾ إن النفس الإنسانية بطبيعتها لتخاف وترجو، هذه فطرتها - وتتنوع المخاوف ويتنوع الرجاء، ونظراً لأن بواعث القلق والفزع والخوف تصاحب الإنسان منذ أن يولد، فقد أصبح الخوف هو القانون المسيطر على حياة الناس ومن ثم يذل الإنسان الأول أكبر جهده، وحرف معظم وقته لتأمين نفسه من عوادي الطبيعة والحيوان بل وعوادي الإنسان نفسه، وأصبح فزعه المستمر يعكر صفو حياته، فالنفس الانسانيه ترجو دائما السكينة والاطمئنان ولذا كان قاعدة الإسلام الذي يقوم عليها حماية الإنسان من الخوف والقلق وليس هذا هيناً»[2].

إن الاطمئنان القلبي والأمان النفسي من آثار وتدبر القرآن الكريم، حيث أنه الملاذ لمن دخل فى رحابه ونهل من فيضه وعاش في ظلاله يقول تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَللهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾[3] وعلى ذلك فإن تدبر القرآن الكريم والتأثر بآياته يطهر النفس الانسانيه من

(١) الخصائص العامة للإسلام د/ القرضاوى ص ٧٩ بتصرف.
(٢) أثر القرآن في الأمن النفسي د/ ناهد الخراش ١٦٢ بتعرف المكتب الحديث القاهرة ١٤٢٣ه/ ٢٠٠٣م.
(٣) سورة الفتح الآية رقم ٤.

نقائصها ويبعد عنها مخاوفها من القلق والاضطراب، ويغمرها بالأمن والآمان قال تعالى ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١) فالإيمان يورث الطمأنينة والارتياح النفسي داخل القلب، والله أعلم بما في نفوس العالمين وصدورهم، وهو أعرف بما يصلحنا وما يقرنا ومادام الأمر كذلك فقد أمر الله بتدبر آياته والتعمق فى محكم قرآنه، لتنعم النفوس بالأمن وقال تعالى ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾ (٢).

ومن تدبر القرآن، وازداد إيمانه بتلاوة آياته، وتأثر بكل ما جاء فيه وحصل لقلبه الإيمان المنشود، وعلى ذلك أن هذا الاطمئنان ليس مقصوراً على الدنيا فقط، بل إنه يتعداها إلى الاطمئنان على ما بعد الحياة الدنيا، والقرآن الكريم يجيب عن ذلك فى صرامة ووضوح حيث يقول الله تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (٣) حياة طيبة أي حياة هادئة مطمئنة لا يسيطر عليها مخاوف ولا يهوى لها القلق والفزع إنها حياة الأمن والاطمئنان، وتأمل هذا المشهد القرآني الذى يصور حياة المؤمن وحياة الكافر أما الأول فهو أمن مطمئن وأما الثاني فهو مفزع ومقلق قال تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ (٤) إنه فرح مستبشر مسرور مطمئن إلى وعد الله وتأمل بتدبر كلمة «هاؤم» فإنها تعطيك المعنى كاملاً وعلى الصعيد الآخر ترى ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ (٥) ولعلك تلحظ القلق والاضطراب الظاهر من خلال قولة الندم والحسرة «يا ليتنى» ومن ثم لا يترك القرآن تساؤلاً داخل النفس إلا ويجيب عليه سواء كان فى الدنيا أو

---

(١) سورة التغابن الآية رقم ١١.

(٢) سورة الفتح الآية رقم ١٨.

(٣) سورة النحل الآية رقم ٩٧.

(٤) سورة الحاقة من الآية رقم ١٩ إلى رقم ٢٤ .

(٥) سورة الحاقة من الآية رقم ٢٥ إلى رقم ٢٧ .

الآخرة، ففى الدنيا إذا ما تدبر المسلم القرآن داخل الاطمئنان قلبه، لا سيما إذا ما أحسن العمل ووضحت الحقائق أمام عينه فى يسر وسهولة عندئذ يطمئن الإنسان على حياته ومصيره، وتطمئن النفس على رزقها وكسبها ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[1] وتريد النفس الاطمئنان على بقية العمر وقضية البقاء فيجيب القرآن تساؤلها فى أمن حيث يقول الله فى كلمات مؤثرة ومعبره أصدق تعبير عن المعنى المراد ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[2] عندئذ تطمئن النفس الإنسانية بذكر الله وتلاوة القرآن الذى يترك فيها أثاره، فيضفى عليها الطمأنينة والسكينة والأمان، ومع العلم بأن هذا كله لا يحدث إلا للمؤمنين.

٣- السجود والخشوع:

هذا السجود الذي يحمل فى مدلوله معنى الخشوع أثر من آثار القرآن الكريم، وتنفرد سورة من سور القرآن يطلق عليها هذا الوصف وهى سورة السجدة ، حيث ترسم لنا هذا الأثر القرآني واضحاً جلياً، لا يملك القارىء أمامه إلا الإذعان والخضوع والقول بملىء قلبه وفيه «تنزيل من حكيم حميد» والسورة في بدايتها قد بدأت بهذا ولعلها تقدم المعنى الذي نريد الوصول إليه حيث يقول تعالى في بدايتها ﴿الم تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[3] إن السورة الكريمة توضح في آياتها شأن قوم تلو كتاب الله تعالى، وتدبروا معانيه، وتأثروا بكل ما جاء فيه، ثم توضح الآيات أن الذي يحدث له هذا يخر لله ساجداً، وقلبه لله خاشعاً، وبأمواله منفقاً ومتصدقاً، وكل هذه يحدث نتيجة التأثر بآي القرآن الكريم، وتأمل ذلك حيث يقول تعالى في ذات السورة ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ

---

(١) سورة الذاريات الآيتان رقمي ٢٢ ، ٢٣.

(٢) سورة الحديد الآية رقم ٢٢.

(٣) سورة السجدة الآيتان رقمي ١ ، ٢ .

عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1] إن الآية الكريمة قد أوضحت شأن قوم تأثروا بالقرآن، وكان من نتيجة هذا التأثر وهذا التدبر.

أ - أنهم خروا لله ساجدين: وهذا منتهى التدبر وقمة التأثر في أسمى صوره وأرق معانيه وذروة كماله وتمامه، فالسجود علامة على مقدار ما فى القلب من تأثر بالقرآن الكريم، وإني أفهم من خلال الآية لفتة عالية، وهى أن هذا التأثر وذلك التدبر وصل إلى هؤلاء المؤمنين من مجرد أنهم ذكروا بآيات ربهم، أعنى أن هذا التأثير قد حصل بسبب أنهم ذكروا لأنهم يسمعون أو يتلون لأول مرة، ولهذا أقول إذا كان هذا شأنهم عند التذكر بالآيات فما بالكم عندما يسمعوها أو يقرأوها لأول مرة، إن هذا لشيء عجاب، ومما يؤكد هذا السجود قوله تعالى ﴿قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً* وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً* وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾[2].

«وهو مشهد موح يلمس الوجدان. مشهد الذين أوتوا العلم من قبله، وهم يسمعون القرآن، فيخشعون، ﴿يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً﴾ إنهم لا يتمالكون أنفسهم، فهم لا يسجدون ولكن يخرون للأذقان سجدا ثم تنطق ألسنتهم بما خالج مشاعرهم من إحساس بعظمة الله وصدق وعده﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ ويغلبهم التأثر فلا تكفي الألفاظ في تصوير ما يجيش في صدورهم منه، فإذا الدموع تنطلق معبرة عن ذلك التأثر الغامر الذي لا تصوره الألفاظ: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾ فوق ما استقبلوه به من خشوع. إنه مشهد مصور لحالة شعورية غامرة، يرسم تأثير هذا القرآن في القلوب المتفتحة لاستقبال فيضه؛ العارفة بطبيعته وقيمته بسبب ما أوتيت من العلم قبله. والعلم المقصود هو ما أنزله الله من الكتاب قبل القرآن، فالعلم الحق هو ما جاء من عند الله»[3] . إنه مشهد المؤمنين، مشهدهم خاشعين مخبتين عابدين، واعيين إلى ربهم

(١) سورة السجدة الآيتان رقمي ١٥، ١٦ .

(٢) سورة الإسراء الآيات من رقم ١٠٧ إلى ١٠٩ .

(٣) في ظلال القرآن سيد قطب ج ٤ / ١٧٩٢ مرجع سابق.

وقلوبهم واجفة من خشية الله طامعة راجية في فضل الله، وقد ادخر لهم ربهم من الجزاء مالا يبلغ إلى تصوره خيال: إنها صورة وضيئة للأرواح المؤمنة اللطيفة، الشفيفة الحساسية المرتجفة من خشية الله وتقواه، المتجه إلى ربها بالطاعات المتطلعة -إليه بالرجاء، فى غير استعلاء ولا استكبار، هذه الأرواح هي التي تؤمن بآيات الله وتتلقاها بالحس المتوفر والقلب المستيقظ، والعمر المستنير ولذا كان التأثر بالقرآن يثمر السجود والخشوع، فيجعل النفوس المؤمنة طوع أمر القرآن رهن إشارته، فحيثما وجد أمر سارعت المؤمنون إلى امتثاله وتلبية ما ورد فيه، وإذا ما ورد نهى استوقفت لتمثل أمر الله، ومن ثم فالمؤمنون يستلهمون المعاني من وراء التدبر بالقرآن ولذلك فهم ساجدون وخاشعون وخاضعون لأمر الله تعالى.

ب - تسبيح الله وذكره: فهم في تسبيح دائم لله تعالى، وفى ذكر مستمر لا ينقطع وهذا من جزاء تأثرهم بالقرآن الكريم، فألسنتهم رطبه بذكر الله تعالى، هذا شأن المؤمنين الذين تأثروا بالقرآن ووصلوا إلى سويداء قلوبهم، وفى الحديث «عن عبد الله بن بسر ﷺ قال: إن رجلاً قال يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت على، فأخبرني بشيءٍ أتثبت به قال: «لا يزال لسانك رطباً بذكر الله تعالى»[1].

والتسبيح والذكر نتيجة التدبر العالي للقرآن وكيف لا وابن القيم نقل عن أستاذه ابن تيميه قوله «الذكر للقلب كالماء للسمك فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء»[2] وهذا التسبيح فى تواضع تام دون تكبر وذلك لأن الاستكبار يحول بين القلب وبين تأثره بالقرآن الكريم.

ج - يدعون ربهم خوفاً وطمعاً: فهم في دعاء مستمر يجمعهم الخوف من عذاب الله، والطمع في رحمته فهم بين خوف ورجاء، وهذا منتهى الإيمان وعظمة تدبر القرآن الكريم

د - ومما رزقناهم ينفقون: أي لا يبخلون بما أنعم الله عليهم من نعم فهم لا يدخرون

---

(١) أخرجه الترمزى في السنن ، كتاب الدعوات ، باب ما جاء في فضل الذكر ، ج ٥/ ٤٥٨ وقال عنه أبو عيسى حديث حسن .

(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب ابن القيم ، ص ٣٩ ، مكتبة الدعوة ، الطبعة الخامسة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠.

وسعاً في الإنفاق، أيديهم بالعطاء منفقه، وذلك كله بسبب التأثر بالقرآن الكريم، أرأيت هذه آية واحده اشتملت آياتها على توضيح أسمها تنزيل العزيز الرحيم.

قال الطبري «يقول تعالى ذكره: ما يصدق بحججنا وآيات كتابنا إلى القوم الذين ذكروا وعظوا وخروا لله سجداً لوجودهم تزلزل لهم واستكانة لعظمته ذا قرار له بالحيوية «وسبحوا بحمد ربهم» وسبحوا الله في سجودهم بحمده فيرونه مما يصفه أهل الكفر به ويضيفون إليه من الصحابة والأولاد والشركاء والأنداد **«وهم لا يستكبرون»** يفعلون ذلك وهم لا يستكبرون عن السجود له والتسبيح لا يستنكفون عن التذلل له والاستكانة وتنحني جنوب الذين يؤمنون بآيات الله الذين وصفت صفتهم وترتفع من مضاجعهم فلا ينامون في دعائم من الله تعالى»(١).

وعن هذا المضمون من التأثر بآيات القرآن، وما ينتج عنه من السجود والخوف وفي الظلال «ترسم الصورة صوراً للنفوس المؤمنة في خشوعها وتطلعها إلى ربها والنفوس الجامدة في عنادها ولجاجها وتعرض صوراً للجزاء الذي يتلقاه هؤلاء وهؤلاء، وكأنها واقع مشهود حاضر عيان، يشهده كل قارىء للقرآن، وفى كل هذه المعارض والمشاهد تواجه القلب البشرى بها يوقظه ويحركه ويقوده إلى التأمل والتدبر مره وإلى الخوف والخشية مره وإلى التطلع والرجاء مره، وتطالعه تارة بالتحذير والتهديد وتارة بالأطماع وأخرى بالإقناع، ثم تدعه فى النهاية تحت هذه المؤثرات وأمام تلك الراهبين تدعه لنفسه يختار طريقه وينتظر مصيره على علم على هدى ونور»(٢).

إنها في نظره صورة مشرقة لهؤلاء المؤمنين الذين إذا ذكروا بآيات الله فتأثروا، ولذا استحقوا من الله حسن الثواب، حيث هم قد أحسنوا العمل حيث قال إن الذين أمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بها كانوا يعملون».

٤ - قشعريرة الجلود:

هذا الأثر الذي يمس مركز الإحساس عند الإنسان وهو الجلد كما قرر ذلك «علماء

---

(١) تفسير الطبرى ج ١٠/ ٢٣٧ يتعرف مرجع سابق.
(٢) فى ظلال القرآن ج ٥ / ٢١٨ مرجع سابق.

التشريح» هذا المركز الأشد حساسية داخل الكيان الانسانى عند تلاوة القرآن يحدث له هزه عنيفة وشديدة، أطلق عليها القرآن اسم ﴿ قشعريرة ﴾ وهى تعنى عند أهل اللغة «الزغردة» يصاب بها الجلد عندما يشعر ويتأثر بأمر معين وفى هذا الموطن ما يقشعر منه الجلد هو القرآن عندما يتأمله الإنسان ويتدبر معانيه وكل ما جاء فيه يقول تعالى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[1].

إنه القرآن الذي تحيا به القلوب بعد موتها وتستجيب له متأثرة به، وعندئذ يحدث أن تقشعر الجلود، وتخفق القلوب وهذه الآية الكريمة قد جمعت عدة أمور هامة:

(١) **ذكرت الآية مصدر هذا الحديث «القرآن»** حيث قد ذكر الله نزل أحسن الحديث. فها هنا علم المصدر المنزل للقرآن، إن كان معلوم بداهة، وقد ذكر فى غير موضع من القرآن الكريم منها ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وقوله ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ إلا أن هذه الآية انفردت بذكر لفظ الله «مصدره به الآية، وهنا يعلم مدى الأثر الذي يحدث في قلب القارىء لهذه الآية، عندما يطالع أول لفظ يجده لفظ الجلالة وأترك لك تصوير الأثر الذى يحدثه فى القلوب فى عملية الإعجاز التأثيرى للقرآن» وكما ينزل الماء من السماء فينبت لهم زرعاً مختلفاً ألوانه - الآية السابقة على هذه الآية - كذلك ينزل من السماء ذكر تتلقاه القلوب الحية، فتتفتح وتنشرح وتتحرك حركة الحياة وتتلقاه القلوب القاسية كما تتلقاه الصخرة القاسية التى لا حياة فيها ولا ندارة، الآية تصور حقيقة القلوب التى تتلقى الإسلام فتنشرح له وتصور حقيقة القلوب فى قارئها وجفائها من التأثر بالقرآن، وشتان بين هؤلاء وهؤلاء»[2] إنها تصور حقيقة تلقى المؤمنين لهذا الحديث الذى وصف بأنه أحسن الحديث إنها هيئة الخائفين الذين تقشعر جلودهم عند تلاوة القرآن.

(٢) **صفات هذا الحديث** وهذه الميزة فى محيط التأثر بالقرآن تراها واضحة من خلال

---

(١) سورة الزمر الآية رقم ٢٣.

(٢) فى ظلال القرآن سيد قطب ج ٥/ ١٨٦ مرجع سابق.

الكلمات وهى «أحسن» «مثانى» «متشابها» هذا الكتاب الذى أنزله الله على عباده «هذا الكتاب العزيز الذى يزداد على الزمن حده ونضارة، كأنما نزل الآن من السماء، ويلاحق أحداث الحياة ملاحقة عجيبة، يلائم الفطرة»[1].

ومن ثم كان القرآن أحسن الحديث، وأعذب الكلمات لأنه نبع متجدد يلاحق كل تطور ولا يصادم حقيقة علمية، وهذه لوحدها كافية بالتأثير بآياته ومن هنا يقول صاحب الظلال «هذا الكتاب المتناسق الذى لا اختلاف فيه فى طبيعته ولا فى اتجاهاته ولا فى روحه، ولا فى خصائصه فهو متشابه وهو مثانى مكرر مقاطعه وقصصه وتوجيهاته ومشاهده، ولكنها لا تختلف ولا تتعارض، إنما تعاد فى مواضع متعددة وفق كلمة تتحقق فى الاعادة والتكرار، فى تناسق وفى استقرار على أصول ثابتة متشابهة لا تعارض فيها ولا تصادم[2] وهذه الصفات تدل دلالة قاطعة على أن آيات القرآن وكلماته أجدر ما يكون بالتدبر والتأثر والاتعاظ، ويقول ابن كثير «هذا مدح من الله عز وجل لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم قال الله تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني﴾ قال مجاهد يعني القرآن كله متشابه مثاني وقال قتادة: الاية تشبه الاية والحرف يشبه الحرف وقال الضحاك: مثاني ترديد القول ليفهموا عن ربهم تبارك وتعالى وقال عكرمة والحسن: ثنى الله فيه القضاء زاد الحسن تكون السورة فيها آية وفي السورة الأخرى آية تشبهها وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: مثاني مردد ردد موسى في القرآن وصالح وهود والأنبياء عليهم الصلاة والسلام في أمكنة كثيرة وقال ابن عباس ﷺ: مثاني قال القرآن يشبه بعضه بعضا ويرد بعضه على بعض»[3].

(٣) **هيئة المتلقى للقرآن**: وهى احدي حلقات الإعجاز التأثيرى للقرآن حيث عرف المصدر وصفات الحديث وجاء ومن يتلقاه، ماذا يحدث لهم؟ وما هو الأثر الذي يتركه القرآن فيهم؟ وإنك لتجد الآية تجيب عن ذلك في سهولة ويسر وبراعة

(١) قيم حضارية فى القرآن عالم صنعة القرآن توفيق محمد سبع ج ٢/ ٧٢ يتعرف وسبق الحديث عن القصص فى الباب الأول فى الفصل الثالث منه باستفاضة .
(٢) فى ظلال القرآن ج ٥ / ١١٩٦ بتصرف.
(٣) تفسير ابن كثير ج ٤ / ٦٦ ، مرجع سابق .

منقطعة النظير حيث يقول تعالى﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ولعل العجب يتملكك كلما قرأت هذه الآية حيث تجد لفظة الرعدة والشدة التى تصيب الجلود والمستقاة من لفظة «تقشعر» ثم يأتي بعدها أن هذه القشعريرة لا تتأتى لكل الناس، بل لصنف منهم له صفه معينه وهى «أنهم يخشون ربهم» ومادام الأمر كذلك فإن هذه القشعريرة لا تلبث أن تدوم طويلاً، إذ يطرأ عليها أمراً خر له صفة الملاينة والملاطفة وهذا المستفاد من قوله تعالى ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ إن هؤلاء المؤمنين الذين يخشون ربهم، يحيون في حذرٍ وخشيةٍ من عذابه وفى رجاء وتطلع إلى رضاه، يتلقون هذا الذكر كله في وجل وارتعاش وفى تأثر شديد تدل عليه «تقشعر» لكن سرعان ما تهدأ النفوس وتسكن الأفئدة، وتأنس القلوب بذكر الله فتلين قلوبهم وجلودهم وتطمئن إلى ذكر الله ولذا قال تعالى بعدها ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ إنها صورة حية حساسة ترسمها الكلمات، فحال المتلقى للقرآن، وهيئة هذا التلقي، حتى تكاد تشخص فيها الحركات، فما ترتعش القلوب هكذا إلا حين تحركها أصبع الرحمن إلى الهدى والاستجابة والإشراق، والله يعلم من حقيقة القلوب ما يجازيها عليه بالهدى والضلال قال تعالى «ومن يضلل الله فماله من هاد».

(٤) **التنافس بين المؤمنين فى حفظ القرآن وتلاوته:** لقد انفتح أثر القرآن فى نفوس وقلوب العصبة المؤمنة التى اعترفت بمصدر هذا القرآن وهو الله، وبمن نزل عليه القرآن وهو رسول الله ﷺ ولهذا ما كان تنافسهم شديداً ورائعاً فى حفظ القرآن وقراءته، ومن صور هذا التنافس * أنهم كانوا يسهرون ليلهم، ويضحكون براحتهم فى سبيل الاستماع الى القرآن الكريم وتلاوة آياته، والسرور ذلك أن هذه القلوب قد مستها شعلة الايمان فأضحت وقد ملئت بالنشاط والحركة والعمل، لدرجة أن تفاضلهم كان مبنياً على مقدار مايحفظون من القرآن، حيث أنهم كانوا يعتزون بمقدار ما يحفظون من القرآن وذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن القلب الخالى من القرآن كالبيت الخرب، وهذا نص حديث الرسول ﷺ «إن الذى ليس فى قلبه شيء من القرآن كالبيت الخرب»[1] ومن ثم كان التنافس على

(١) أخرجه الترمزى فى السنن كتاب فضائل القرآن باب ج ٥/ ١٧٧ برقم ٢٩١٣ وقال أبو عيسى حديث حسن صحيح ، رواه أحمد فى المسند وغيره.

أشده بين المؤمنين ولكنه تنافس فى موضعه وصدق الله ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[1].

* كانت بيوت المسلمين الأوائل تنبعث منها بالليل دوى كدوى النحل من القرآن حيث كانوا يقيمون الليل بالقرآن، وربما كانوا يقرأونه كله فى ليلهم، وهذا منطق الكثير منهم والله قد حكى حالهم هذا فى قرآنه فقال ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾[2].

* التنفيذ والتطبيق لتعاليم القرآن، تاركين كل ما كانوا عليه من قبل، بل جل همهم وهو تنفيذ أمر الله في القرآن، ولعل هذا كله كان نتيجة لاستشعاره قيمة القرآن والتأثر البالغ بأسلوبه، وأهميته فى حياتهم، فأيقنوا أن تغير أحوالهم ينبغي أن يكون بطاعة الله والعمل بمقتضى هذا الدين، فطابت نفوسهم وضحوا بأموالهم وأنفسهم وأرواحهم فى سبيل الله، ومن ثم غدا هؤلاء المتأثرين أساتذه العالم، ورواده في القيم والأخلاق.

(٥) سريان روح الإيمان فى قلوبهم وتفيض أعينهم من الدمع: لقد رباهم القرآن وتخرجوا من مدارسه، فاكتسبوا «أعنى المؤمنين» تعاليم القرآن، وما جاء به فأحبوا الإسلام وأمنوا به بل إنهم كانوا يتمنون أن تكون نهايتهم فى ساحات المعارك ليكونوا شهداء عند ربهم يرزقون، ويصور القرآن حال هؤلاء فيقول تعالى ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[3].

إن القرآن كان يسرى دمائهم وعروقهم، ومن ثم استرخصوا كل شيء حتى الموت وذلك كله فى سبيل مرضاة الله تعالى، وبسبب التأثر بآيات القرآن الكريم لدرجة أنه وصل إلى الصبية الصغار الذين هم أقل من سن الجندية، ومع ذلك يريدون القتال لأن هذه الروح التأثيرية للقرآن قد وصلت إلى قلوبهم، وسرت فى دمائهم، واسألوا التاريخ بنبيكم فهذا رافع بن خديج، وسمرة بن جندب،، إلا أنهم لم يملوا، إن روح القرآن التأثيرية قد اختلطت بدعائهم إلى أن أجازهم رسول الله، ولعل أبرز الأدلة المادية على قوة القرآن

(١) المطففين الآية رقم ٢٦.
(٢) سورة الذاريات الآيات رقم ١٧.
(٣) سورة الأحزاب الآية رقم ٢٣.

التأثيرية أن تنظر إلى النجاح الذى أحرزه المؤمنون في أوائل وقت تمكن من الزمان فى هداية العالم إلى الايمان، إن العالم قد شهد كثيراً من المفكرين والمصلحين قديماً وحديثاً، لم يحدث هؤلاء ما أحدثه القرآن الكريم فى نفوس المؤمنين بل والناس أجمعين فى أقل وقت ممكن، إنه القرآن وتأثيره في القلوب..

* * *

المبحث الثالث: أثر القرآن على أهل الكتاب:

إذا كان القرآن قد أثر في أهل الكفر والشرك الذي لا كتاب لهم منزل من السماء ولا هناك نبي أرسل إليهم من قبل الله، فليس ببعيد أن يؤثر القرآن في أهل دين سماوي، وأهل كتاب منزل من عند الله تعالى، وهم اليهود والنصارى وإن كان الكتاب الذي نزل عليهم قد حرفوا وغيروا وبدلوا فيه وشق أهوائهم إلا أن بعض الأصل ما زال باقياً ولو بعض كلمات منه، وقال الله تعالى ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[1] وهم أهل نبى من أولى العزم من الرسل، موسى من أولى العزم من الرسل، وعيسى من أولى العزم من الرسل، وصدق الله ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾[2] هذه الآية توضح حال اليهود والنصارى تجاه الإسلام والقرآن والرسول:

أولاً: أثر القرآن على اليهود:

إن اليهود أصحاب دين وكتاب سماوي وأتباع أنبياء من أولى العزم من الرسل، لكنهم آذوا رسولهم وقتلوا أنبيائهم وأفسدوا فى الأرض، ومارسوا الرذائل والمعاصى، وارتكبوا الموبقات والمنكرات، ونتيجة لهذه الوقاحات التى كانوا يرتكبونها كل هذا أفسد فطرتهم، وقوض معتقدهم وبما أنهم أصحاب دين، كان العرب ينتظرون منهم كلمة الفصل فى الدين الجديد الذى جاء به رسول الله ﷺ لا سيما وأنهم كانوا قد وعدوا العرب بأنهم سيبعث فيهم نبي مرسل بعد موسى يزدادون به شرفاً وعزاً، فلما جاء الرسول من

(١) سورة المائدة الآية رقم ١٣ .

(٢) سورة المائدة الآية رقم ٨٢.

العرب ونزل القرآن جحدوا هذا الحق، وتنكروا له وقست قلوبهم حتى صارت أقسى من الحجارة بل أشد، وكفروا بالله وبالرسول وبالقرآن، ورفضوا الإسلام ولم يكتفوا بهذا بل ناهضوا كل مسلم، وقاموا باختلاق الحجج الباطلة حول القرآن، ولكن القرآن كشف ودخل نفوسهم وقلوبهم، فلاحقها بكشف خبايا نفوسهم وهذا يتناسب مع طبيعتهم وحالهم وسلوكهم حتي ممارستهم الحياتية لهذا السلوك، حيث أخلاقهم السيئة وطبائعهم العنصرية ومن ثمّ استقبلوا أثر القرآن متمشياً مع طبيعتهم، ولكنه أراد أن يقوّم من سلوكهم، ولم يستطيعوا الصمود أمام قوة تأثيره وشدة وقعه على نفوسهم، وأثر القرآن عليهم يتناسب مع طبيعتهم وحالهم وممارستهم الحياتية، حيث أخلاقهم السيئة وطبائعهم المستبدة، ومن ثم كان هذا الأثر متمشياً مع طبيعة حياتهم أجلي بعضه فيما يلي...

١ - ادعاؤهم أنهم شعب الله المختار:

إنها خرافة من نسيج خيالهم، وإيهام أوهمو به أنفسهم، ولكن الغريب أنهم صدقوه، فقد صدقوا أنفسهم فى هذا وحكى القرآن عنهم ذلك فقال تعالى ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾[1].

فقد ادعوا هذه الخرافة والغريب أنهم ذهبوا فى تقرير العالم المسيحى بكل ما أوتوا من سبل الحقل والوسائل الخادعة إلى حد أن أوهموهم أن المسيح من اليهود، وأنه كل يهودى مضطهد فهو المسيح بعينه لكن رد الله على هذا الهراء بقوله﴿**قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ**﴾ ولقد نبه الله تعالى المسلمين بهذه الحقيقة ووضعها نصب أعينهم حيث قال تعالى﴿**لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً**﴾[2].

---

(١) سورة المائدة الآية رقم ١٨.

(٢) سورة النساء الآيتان رقمي ١٢٣، ١٢٤.

وبهذا علم أن الإيمان والعمل الصالح هو معيار التفاضل بين الناس عند الله، وما يكون لأحدٍ أبداً أن ينكر ذلك، ومن ثم فالريادة لأمة القرآن وأمة الإسلام، ولعل هذا كان وراء ادعاؤهم الباطل هذا، وذلك لما رأوا من أثر القرآن عليهم، فلاكت ألسنتهم هذا الإقتداء، وإني اشعر أنهم لن يجدوا متنفساً يخرجون به من وقع القرآن على نفوسهم غير هذا الأسلوب الخبيث الذي هو من أهم صفاتهم، ولعلك تزداد يقيناً بهذا عندما تعلم أن رأى المسيحية فيهم كذلك، فلقد ثبت مما سبق أن اليهود دون البشر وليسوا بأكرمهم أصلاً، ورأى المسيحية يبرزه الأنبا شنوده فى كتابه» بنى إسرائيل فى رأى المسيحية«قال» إن اليهود يفخرون بهذا وهم واقعون فى أعماق الخطيئة والفساد كما لو كانت هذه النبوة وحدها لخلاص أنفسهم فى اليوم الأخر، ثم يضيف إلى قوله ما جاء فى الإنجيل بشأنهم «يا أولاد الأفاعى، أراكم تهربون فى الغضب الأتي فاصنعوا ثماراً تليق بالتوبة ولا تفكروا ان تقولوا فى أنفسكم لنا إبراهيم أبا، لأني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم»[1].

ولهذا دحض افترائهم، ولما علموا بذلك ركبهم الخوف من أن يفضح القرآن نواياهم فزاد تأثرهم بالقرآن خوفاً منه وفرقاً من كشف مساوئهم، وإيضاح معدنهم الخبيث.

٢- ذكر مساوئهم وإنذارهم بما عصوا:

قد علم مما سبق دحض ما ادعاه اليهود من أنهم شعب الله المختار، وأن الله وعدهم بأرض يسكنوها، ولعل من أهم الأسباب التي يتركزون عليها كما فهمت من كلامهم هو أن أباهم إبراهيم عليه السلام أبوهم وحدهم دون سواهم، وقد دحض القرآن ذالك فى مواضع كثيرة منها حيث فضح أمرهم، وكشف سترهم قالت تعالى ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2].

فأبطل القرآن دعواهم وطلب عدم المحاجة في ذلك حيث قال تعالى ﴿يَا أَهْلَ

---

(١) اليهود المغضوب عليهم محمد عبد العزيز مقصود من ٢٥، ٢٦ بتصرف دار الاعتصام ا الطبعة الأولى١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

(٢) سورة آل عمران الآية رقم ٦٧.

الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[1].

ثم إن الله أمر بتشتتهم فى الأرض يتيهون فيها أربعين سنه حيث قال تعالى﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[2].

وليس الأمر قد اقتصر عند هذا الحد، بل تعداه إلى كشف داخلهم وذكر مساؤهم وهذا بالطبع كانوا يحذرون منه ولكنه وقع ونهاهم وأنذرهم وتوعدهم حيث قال تعالى﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ * قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَـئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ﴾[3] فأوضح الله أنهم شر مكاناً، وهذا كان موضع قومهم- لكنه حدث وفضح أمرهم، فصار خوفهم من القرآن أشد، وخوفهم منه أقوى من ذي قبل، وأتبعوا أمراً آخر يحول بينهم وبين تأثرهم بالقرآن، ألا وهو تعرضهم الواضح للأنبياء.

٣- افتراءاتهم الوقحة حول الأنبياء:

لقد أساءوا إلى الأنبياء لدرجة القتل و الاضطهاد والتعذيب، ولذلك لعنهم الله تعالى حيث قال تعالى﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ * كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[4] وبهذا تستطيع أن تجزم أن للقرآن وآياته وبراهينه القوية وقعاً قوياً فى نفوس هؤلاء اليهود، حيث تناول داخلهم فأوضحها، وسريرة نفوسهم فكشف سرها، ومكرهم وتضليلهم و صوب ذلك وأصلحه، ومن ثم علت درجة الحقد في قلوبهم، وغلت مراجل أفئدتهم، ولم يطيقوا صبراً على هذا فاعتدوا على رب العالمين، وأظهر الله ذلك في نص القرآن فقال تعالى﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ

---

(١) سورة آل عمران الآية رقم ٦٥.

(٢) سورة المائدة الآية رقم ٢٦.

(٣) سورة المائدة الآية رقم ٥٩، ٦٠.

(٤) سورة المائدة الآية رقم ٧٨، ٧٩.

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[1].

والمتأمل في الآية يلاحظ أنهم تعرضوا لله ﷻ بما لا يليق بجلاله وكماله، كبرت كلمة خرجت من أفواههم، إن هذا إلا كذب مبين، وكذلك ترى أن الآية جمعت من صفاتهم القليل، فصفاتهم الخبيثة داخل ثنايا آيات القرآن لا يحصيها عد، بل تجل عن الوصف والعدد ولن أستقصى هذه الصفات الخبيثة فإن هذا ليس بموضوع بحثي، ولكني أقف عند ما له علاقة ببحثي وهو قول الله تعالى**﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾** جاء في تفسير بن كثير قول مجاهد رضي الله عنه فى قوله تعالى«**ما أنزل إليك** «قال إنه القرآن الكريم»[2] وليس وحده الذى قال ذلك فهناك عدد غير قليل ممن وافقه الرأي منهم القرطبى والطبري وغيرهم، وفى رأى أنه القرآن أيضاً وذلك لأنَّ ظاهر الآية يوحى بهذا، فالخطاب لرسول الله ﷺ في القرآن، ولا تنصرف إلى غير القرآن إلا بقرينة، ولا توجد هناك قرينة والله أعلم.

من هذه العبارة آخذ ما يخدم بحثي عن الإعجاز التأثيرى للقرآن الكريم، وأطرح عدة أسئلة / ما أثر القرآن على اليهود؟ والجواب واضحٌ لا يحتاج إلى بيان حيث أن التاريخ أعنى تاريخ اليهود يشهد بهذا، فعند نزول القرآن وكشفه لما حرفوه فى التوراة وكذبهم على الله، حيث شرط الله عليهم قيما لفقهوه وكتبوه بأيديهم زاعمين زوراً أنه من عند الله وذلك قوله تعالى**﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾**[3] وما أدعوه فى حق خالقهم مما سبق بيانه وغيره حيث قال تعالى**﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً﴾**[4] وما نسبوه

---

(١) سورة المائدة الآية رقم ٦٤.

(٢) تفسير ابن كثير جـ١/ ٧٣ مرجع سابق .

(٣) سورة البقرة الآية رقم ٧٩.

(٤) سورة مريم الآيات من ٨٨ إلي ٩٠.

لأنبيائهم وأساءوا به إليهم، وسيدنا موسى كان ناهيهم عن ذلك، وقال الله فى القرآن ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[1].

إلى هذا الحد قد نالوا من أنبيائهم ومنذ ذلك الحين ونزول القرآن على الرسول وحتى قيام الساعة ونار الحرب المستعرة بين اليهود والقرآن، حرب لا يهدأ أوراها، ولا ينفثئ غضبها ولا يعدم شرها، ولقد سجل القرآن الكريم فى الآية السابقة أثر القرآن فى قلوبهم ونفوسهم حيث قال تعالى «**طغياناً وكفراً**» والآية توضح أنه كلما نزل من عند الله قرآن، كلما زاد الطغيان الذى هو مجاوزة الحد في الظلم بل الزيادة عليه، وكلما ازداد نزول القرآن نزولاً؛ ازداد الكفر الذى هو الستر الدائم لما عملوه من الحق والصواب، وهذا التأثير القرآني في نظري تأثير من نوع خاص لا أكاد أتخيله، حيث كيف يعقل الإنسان ينزل عليهم قرآن من السماء، وهو صادق وهم يعلمون خفية هذا ورغم ذالك يقابلونه بالكفر والطغيان ولعل هذا يرجع إلى شخصية اليهود ونفسيا تهم المعقدة، وإني بعد هذا أكاد أجزم قائلاً ولست بمتهم أن أقول: إن اليهود عراة من كل خلق ومن كل مروءة حيث تنكروا للمبادئ لعليا، والمثل الفضلى، وأعطوا ظهورهم للقيم، وتجردوا من كل معاني الإنسانية على كافة المستويات، وأوغلوا فى امتهان الآدمية. ولعل ما ساعد اليهود على أن يكون أثر القرآن فى قلوبهم بهذه الطريقة الغريبة الغير مقبولة عقلاً، ما اكتسبوه من صفات معقدة، ولقد ذكر القرآن جانباً من هذه الصفات أذكر منها:

٤ - قساوة القلب:

إن قسوة القلب يعنى غلظتها وشدتها، لكنها لليهود صفة معقدة أشد التعقيد، إذ قد ضم إلى الغلظة الجمود والنكران، والكفر والطغيان وبهذا ذادت القلوب قسوة فوق قسوتها، وبلغت أعلى درجات القساوة والجفاء والغباء والفحشاء، ولقد صور القرآن

(١) سورة الصف الآية رقم ٥

تصويراً دقيقاً حالهم هذا بحال الحجارة، فإن كانت الحجارة تلين فإن قلوب اليهود يمكن لها أن تلين ولعله من التشبيه المحال وقوعه وتحققه بقوله تعالى ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

أن الآية تصور بوضوح صفات اليهود المعقدة، حيث يصل الأمر بدرجة تأثرهم إلى ما دون الجماد من الحجارة،حتى الحجارة يمكن أن يؤثر فيها القرآن بل يؤثر فيها فعلاً - كما سيأتي - ولكن هؤلاء تحجرت قلوبهم فلا مخلص لها من حجريتها أبداً، ومن ثم كان تأثير القرآن عليهم بهذه الطريقة الانعكاسية والغريبة والمتناقضة جداً، «شبه الله قلوبهم القاسية بالحجارة الصلبة، وقال بل إنها أشد قسوة منها، لأن الحجارة قد تتأثر وتنفعل، فهناك أحجار تنفجر منها المياه الغزيرة التى تنفع الناس فى معاشهم، وأحياناً تنشق منها الماء عيوناً، ومنها ما يتروى من أعلى الجبال انقياداً لإرادة الله بتأثرها بالصواعق والبراكين أو الزلازل، والمراد بالقلوب ها هنا: ما اعتبرت عنواناً له، وهو الوجدان والعقل، فقلوب بنى إسرائيل قست ومن ثم فقدت خاصية التأثر والانفعال، فلم تعد الحكم والعظات والعبر تستطيع الوصول إلى قلوبهم والنفاذ فيها»[2].

ولكن وسط هذا الركام والدخان الكثيف وهذه القساوة البالغ مداها، والواصلة إلى منتهاها فى قلوبهم، لدرجة أن الحجر يتأثر بالقرآن فيخشع، أما اليهود فتأثرهم بالقرآن يزيدهم طغياناً وكفراً، وإزاء هذا كله ترى عجباً عجيباً حيث اليهودى الذى أسلم من وراء سماعه للقرآن، حيث استمع له والمسلمون يؤدون الصلاة ولعل هذا من تأثير القرآن بل روعة تأثيره وتميزه، لدرجة أنه يلين قلب يهودى فيلسوف يجيد الكلام والحوار. يخبر هو عن نفسه فيقول«كنت مريضاً مرضاً شديداً، فتمثل لى هاتفاً يهيب بى... أن أعلن الإسلام!! ولما دخلت المسجد، ورأيت المسلمين مصطفين للصلاة- وقوفاً كالملائكة-

---

(١) سورة البقرة الآية رقم ٧٤.

(٢) اليهود في القرآن عفيف عبد الفتاح طيارة صـ ٥٩ ، ٦٠ ، دار العلم الملايين ببيروت ، الطبعة التاسعة لعام ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م.

وسمعت الإمام يقرأ وهم خاشعون، سمعت فى نفسى صوتاً ينادينى هذه جماعة المسلمين. وبدت لى صفوفهم كأنها صفوف الملائكة، وإن الله تعالى قد تجلى عليهم فى سجودهم وركوعهم وسمعت فى نفسى أيضاً مناجياً يناجيني ويهتف بي ويقول لى: إن الله سبحانه إذا كان قد خطب شعب إسرائيل مرتين فى جمع القرون الخالية... فلا جرم أنه يخاطب هذه الجماعة المسلمة فى كل وقت من أوقات صلاتهم الخمس المفروضة عليهم يومياً بقصد القرآن الكريم واقتنعت فى نفسى بأنى خلقت لأكون مسلماً وأسلمت»[1]

والواضح أن هذا اليهودى قد أسلم عام ١٢٩٨م، وهذا يعطى شارة قوية على مدى التأثر القرآنى فى النفوس أى نفوس اليهود ورغم القساوة والتعقيد القلبى لديهم. وليس هذا فحسب بل «إن العلامة علي القوشجي لما راح من وراء النهر إلي الروم جاء إليه حبر من أحبار اليهود لتحقيق الإسلام وناظره إلي شهر، وما سلّم بدليل من أدلة العلامة إلي هذا الحين، وجاء في يوم وقت الصحبح والعلامة يقرأ القرآن وكان كريه الصوت للغاية، فلما دخل الباب وسمع القرآن أثر في قلبه تأثيراً بليغاً، فلما وصل إلي العلامة قال غني أحب أن أدخل في الإسلام فأدخله العلامة في الإسلام، ثم سأله عن السبب، فقال اليهودي ما رأيت كريه الصوت مثلك، فلما وصلت إلي الباب وسمعت منك القرآن حصل تأثيره في قلبي فعلمت أنه وحي من عند الله وأنه كلام الله فأسلمت»[2].

٥- المرض الخبيث فى قلوبهم «الحسد»:

وهو مرض خبيث يحرم صاحبه من الانتفاع بالقرآن، بل وبعلوم الآخرين ونفعهم، ويحول بين القلب وبين ما يؤثر فيه، ولا زال هو الداء المميت الذى فتك بقلوب اليهود، وجعلهم لا يتأثرون بالقرآن، ولا يتدبرون معانيه ولذا قال الله تعالى﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].

---

(١) مجلة المباحث اليهودية ص ١٨ العدد الثالث عام ١٨٩٥.

(٢) إظهار الحق رحمت الله الهندي ج ٣/ ٥٤ بتصرف.

(٣) سورة البقرة الآية رقم ١٠٩.

هي أمنية لليهود أتدرى أن هذه الأمنية هي دمار للعالم والمستفاد من لفظه «د»ولكن هذه الأمنية الغريبة والعجيبة التى تفضح عن مكنون صدورهم، وخبيث طويتهم حتى سارت معتقداً لهم، إنه الحسد وقد سبق الحديث عنه فى الفصل الرابع من الباب الأول إنهم أى اليهود لا يريدون للكون خيراً أو إعماراً، وإنما ما يريدونه خراباً ودماراً ويسلكون بذلك كل السبل، واسألوا التاريخ ينبئكم، وشاهدوا الدماء أنهاراً تجذكم بالمجازر والخراب والدمار الذى ينتهجه اليهود سياسة لهم، إنما ذلك كله من الحسد الذى ملأ صدورهم وقلوبهم نحو القرآن ومن نزل عليه.

وختاماً: أقول ليس هذا كل أثر القرآن على اليهود بل هو غيض من فيض، فما زال حديث القرآن عنهم طويلاً، لكنه ليس محله هنا، ولأثر القرآن عليهم أسوق بعض الأمثلة علي إسلام بعض اليهود بفضل القرآن إذا كانوا منصفين:

أ / الكاتبة (مارغريت ماركوس) [(١)]

تقول عن نفسها «قد وضع الإسلام حلولاً لكل مشكلاتي وتساؤلاتي الحائرة حول الموت والحياة وأعتقد أن الإسلام هو السيل الوحيد للصدق، وهو أنجع علاج للنفس الإنسانية».منذ بدأت أقرأ القرآن عرفت أن الدين ليس ضرورياً للحياة فحسب، بل هو الحياة بعينها، وكنت كلما تعمقت في دراسته ازددت يقيناً أن الإسلام وحده هو الذي جعل من العرب أمة عظيمة متحضرة قد سادت العالم»[(٢)].

«كيف يمكن الدخول إلى القرآن الكريم إلا من خلال السنة النبوية؟! فمن يكفر بالسنة لا بد أنه سيكفر بالقرآن على النساء المسلمات أن يعرفن نعمة الله عليهن بهذا الدين الذي جاءت أحكامه صائنة لحرماتهن، راعية لكرامتهن، محافظة على عفافهن وحياتهن من الانتهاك ومن ضياع الأسرة»[(٣)].

---

(١) أمريكية من أصل يهودي ، وضعت كتباً منها (الإسلام في مواجهة الغرب) ، و(رحلتي من الكفر إلى الإيمان) و(الإسلام والتجدد) و(الإسلام في النظرية والتطبيق) وهي ما تسمي الآن مريم جميلة.

(٢)(المراسلة بين المودودي ومريم جميلة).

(٣) عن (مقدمات العلوم والمناهج) للعلامة أنور الجندي (٦ / ١٩٩).

ب / الدكتور احمد نسيم سوسه Dr.A.N.Sousa [1]

«لم يقدر لأي سفر قبل الطباعة، أياما كان نوعه وأهميته، أن يحظى بما حظي به القرآن من عناية واهتمام، وان يتوفّر له ما توفّر للقرآن من وسائل حفظه من الضياع والتحريف، وصيانته عما يمكن أن يشوب الأسفار عادة من شوائب، و حينما شرعت في مطالعة القرآن الكريم للمرة الأولى.. فولعت به ولعاً شديداً.. وكنت اطرب لتلاوة آياته..»[2] وهكذا يتحدث اليهود أنفسهم عن القرآن فيعترفون له بتأثيره وقوته التي لا نظير لها ولا شبيه في أي كلام آخر، وذلك لأنه كلاك الله ﷻ ويقول أيضاً عن القرآن وقته التأثيرية».. الواقع أن تحوير وتبديل مصاحف اليهود أمر اجمع عليه العلماء في عصرنا الحالي نتيجة الدرس والتنقيب وقد جاء ذلك تأييداً علمياً للأقوال الربانية التي أوحيت قبل نيف وثلاثة عشر قرنا على لسان النبي العربي الكريم ﷺ. أما الفرقان المجيد.. فقد حافظ المسلمون علي بحرص شديد وأمانة صادقة فهو حقاً الكتاب المقدس الفريد الذي اجمع الكل على سلامته وطهارته من التلاعب والتحوير، وما على القارئ إلا أن يطالع ما كتبه المستشرقون في هذا الباب.. الذين وصفوا كيفية جمعه وتدوينه، وهؤلاء أجانب غرباء كثيراً ما يصوّبون سهامهم الناقدة السامة نحو الإسلام. والواقع أن الدلائل التاريخية واضحة بأجلي وضوح مما لا يترك أي شك في أن الفرقان الكريم لم يطرأ عليه أي تحريف أو تحوير وقد جاء كلام الله بكامله على لسان نبيه ﷺ دون أن يتغير فيه حرف واحد، ورد في القرآن انه جاء مهيمناً على ما بين يديه من الكتاب، ويستدل من ذلك أن التعاليم الإلهية المقدسة الأصلية قد ضمن القرآن المحافظة عليها بما أوضحه من الحقيقة بإظهار الصحيح والدخيل في الكتب الرائجة في زمان نزوله، وعليه فيكون بهذا البيان والإيضاح قد جاء

---

(١) هو الدكتور احمد نسيم سوسه Dr. A. N. Sousa : باحث مهندس من العراق، وعضو في المجمع العلمي العراقي، وواحد من ابرز المختصين بتاريخ الري في العراق، كان يهودياً فاعتنق الإسلام متأثراً بالقرآن الكريم، وتوفي قبل سنوات قلائل.ترك الكثير من الدراسات في مختلف المجالات وخاصة في تاريخ الريّ، وفنّد في عدد منها ادعاءات الصهيونية العالمية من الناحية التاريخية، ومن مؤلفاته الشهيرة: (مفصل العرب واليهود في التاريخ)، و(في طريقي إلى الإسلام) الذي تحدث فيه عن سيرة حياته.

(٢) في طريقي إلي الإسلام د/ أحمد سوسه ج١ / ٥٢ دار الفكر بيروت.

خير مهيمن على كتب الله الحقيقية وخير حافظ إياها من التلاعب»[1] إلي غير ذلك مما كتبه هؤلاء الذين هداهم الله للإسلام.

ج / حسين روف[2] :

كان حسين روف متبرماً من وضع اليهودية رغم أنها أصل ديانته وانتقل إلي عدة أديان ولم يقنع بها كلها، وفي يوم من الأيام وقعت يده علي ترجمة للقرآن الكريم تسمي ترجمة رودويل rodwell وكانت هذه الترجمة خاطئة، لم يكن صاحبها أميناً بل كانت مليئة بالمغالطات والتعصب ضد الإسلام ولندعه يتحدث هو عن نفسه فيقول «قرأت هذه الترجمة فلم أشعر بأي حماسٍ نحوها، وبعد فترة تعرفت علي أحد علماء المسلمين ووجهني إلي نسخة صحيحة من ترجمة القرآن الكريم بأمانة فقرأتها فاستطعت أن أكون فكرة جديدة عن الإسلام صادقة ومؤثرة في قلبي وتلوت آيات من القرآن وكان ذلك سبباً في إسلامي»[3] انظر كيف فعل القرآن في قلبه هذا الأثر الشديد، وللعلم فإن هذا أثر الترجمة فما بالنا لو قرأ القرآن الكريم كما نزل من الله.

ثانياً: أثر القرآن الكريم على النصارى:

من المعلوم أن النصارى أهل كتاب، وأهل دين سماوي، وإن حرفوا وبدلوا وغيروا واتخذوا لأنفسهم أناجيل متعددة غير ما أنزل إليهم، ورغم هذا كله إلا أنهم أقرب مودة للمؤمنين من اليهود، وإذا كان قد سبق أن أثر القرآن على اليهود أثر سلبي جداً، فإن أثر القرآن على النصارى مختلف هوناً ما، لاسيما إذا ما علمنا أنهم أو بعضاً منهم قد أمن برسول الله ﷺ وبالقرآن الذي أنزل عليه وإني أستطيع أن أذكر أثر القرآن على النصارى فيما يلي:

١ - **أن منهم من هو أكثر مودة للمؤمنين:** إن النصارى لما نزل القرآن كانوا

---

(١) المرجع نفسه ج ١ / ٥٥ .

(٢) حسين روف باحث اجتماعي يعيش في انجاترا ، في القرن الثامن عشر أبه يهودي وأمه مسيحية ، ولم يقنع باليهودية فذهب إلي المسيحية ولم يقنع كذلك بها فانتقل إلي البوذية وظل يتخبط حتي سمع القرآن :

(٣) لماذا أسلمنا ص ١٠٤ . مرجع سابق .

يقرأونه، أو على الأمل يسمعونه ولعل فى سمعهم هذا تأثراً وهو أثر ملحوظ جداً عليهم ولذا قال الله تعالى فى حقهم ﴿.. وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[1] وموضع الاستدلال فى الآية قوله تعالى﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى﴾ فهم أقرب مودة للمؤمنين وهذه المودة قد أتت من وراء تأثرهم بالقرآن، ومن ثم رقت قلوب بعض منهم من آمن ودخل رياض القرآن لينهل من ظلاله الوارفة، وليزداد تأثيراً على تأثره وذلك كالنجاشي وغيره ومنهم من أصر على عناده وكفر ولكنه قريب المودة من المؤمنين، ومن أصدق من الله قيلاً وحديثاً، وقرب المودة من المؤمنين نذيراً وبشير لخير كثير حل فى قلوبهم، ونزل على صدورهم من سماعهم للقرآن الكريم، «وهذه الآيات تصور حالة، وتقرر حكماً فى هذه الحالة... تصور حالة فريق من أتباع عيسى عليه السلام» الذين قالوا إنا نصارى «وتقرر أنهم أقرب مودة للذين أمنوا، ومع أن متابعة مجموع الآيات لا تدع مجالاً للشك فى أنها تصور حالة معينة، هي التي ينطبق عليها هذا التقرير.....، فإن الكثيرين يخطئون فى مدلولها، ويجعلون منها مادة للتميع المؤذى فى تقدير المسلمين لموقفهم من المعسكرات المختلفة فالحالة التى تصورها هذه الآيات حالة فئة من الناس هم أقرب مودة للمؤمنين وهم النصارى»[2] ويتأكد هذا الكلام إذا ما علمت أن سبب نزول الآيات كما قال الطبري قال«إن هذه الآية والتى بعدها نزلت في نفر قدموا على رسول الله ﷺ من نصارى الحبشة فلما سمعوا القرآن أسلموا واتبعوا رسول الله وقيل إنها نزلت في النجاشي ملك الحبشة، وأصحاب له أسلموا معه» ولذا علم أن الثناء من الله تعالى على النصارى إنما هو من مودتهم للمؤمنين. هذا الكلام إنما ينطبق علي البعض منهم، وليس حكماً عاماً لكل النصارى بدليل قوله تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً﴾.

٢- انهم لا يستكبرون: من علامات تأثرهم بالقرآن ومظاهر ذلك عليهم أنهم لا يستكبرون عن القرآن وعن سماعه، ولعل الاستكبار عنهم إنما هو نفى عن الموانع التى

---

(١) سورة المائدة الآية رقم ٨٢.

(٢) فى ظلال القرآن سيد قطب جـ ٢/ ١٥٧. مرجع سابق.

تحول بين القلب وبين تأثره بالقرآن، ولذلك قال أبو جعفر «الصواب في ذلك من القول عندي أن الله تعالى وصف صفة قوم قالوا «إنا نصارى» أن نبي الله ﷺ يجدهم أقرب وداً لأهل الإيمان بالله ورسوله ولم يسم لنا أسمائهم، وقد يجوز أن يكون أراد بذلك أصحاب النجاشي، ويجوز أن يكون أريد به قوم كانوا على شريعة عيسى فأدركهم الإسلام فأسلموا لما سمعوا القرآن، وعرفوا أنه الحق ولذلك لم يستكبروا»[1] وأنى أتفق مع كلام أبى جعفر فى هؤلاء القوم التى وضعت الآية صفتهم وذكرت أنهم حين عرفوا الحق ما أخذهم الاستكبار مأخذاً بعيداً عن الحق، ولكنهم أذعنوا وأقروا بإعجاز القرآن التأثيرى فى نفوسهم ومن ثم كان لابد من معرفة الحق ولما عرفوا الحق أتت الخشية إلي قلوبهم وعقولهم وهذه الخشية هي التي تلحق القلوب والأسماع عند سماع القرآن، وهذه هي الهيبة التي تعتري تاليه، «روي أن نصرانياً مر برجلٍ يقرأ القرآن فوقف يبكي، فسئل عن سبب بكائه فقال بكيت لأجل الخشية التي حصلت لي من أثر كلام الله تعالى»[2].

٣- **فيض الدمع من أعينهم:** من المعروف أن أثر القرآن على المؤمنين كان بانسكاب الدمع من العيون، وكان البكاء هو الحالة النفسية الغالية على المؤمنين عند سماعهم القرآن، وهنا ذكر الله تعالى قوماً من النصارى تفيض أعينهم من الدمع عند سماعهم القرآن الكريم، ﴾ فهذا مشهد حي يرتسم من التصوير القرآني لهذه الفئة من الناس، الذين هم أقرب مودة للذين أمنوا... إنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول من هذا القرآن اهتزت مشاعرهم ولانت قلوبهم، وفاضت أعينهم بالدمع تعبيراً عن التأثر العميق بالحق الذى سمعوه، والذي لا يجدون له فى أول الأمر كفاء من التعبير إلا الدمع الغزير، وهى حالة معروفة فى النفس البشرية حين يبلغ بها التأثر درجة أعلى من أن يفى بها القول فيض الدمع، ليؤدى ما لا يؤديه القول، وليطلق الشحنة الحبيسة من التأثر العميق، ثم هم لا يكتفون بهذا الفيض من الدمع، ولا يقفون موقفاً سلبياً من الحق الذى تأثروا به عند السماع للقرآن، والشعور بالحق الذى يحمله الإحساس بما له من سلطان، إنهم لا يقفون

---

(١) تفسير الطبري للإمام الطبري جـ٥ / ٤ مرجع سابق.

(٢) إظهار الحق رحمت الله الهندي ج ١ / ١٥٦ .

موقف المتأثر الذى تفيض عيناه بالدمع ثم ينتهي أمره إلي هذا الحد !! إنما هم يتقدمون ليأخذوا من هذا الحق موقفاً إيجابياً صريحاً موقف القبول لهذا الحق والإيمان به، والإذعان لسلطانه، وإعلان هذا الإيمان وهذا الإذعان فى لهجة قوية عميقة صريحة (وما لنا لا نؤمن بالله)[١].

وهؤلاء الذين نعتهم الله بوصفه «إنا نصارى» إذا ما تلي عليهم القرآن من رسول الله ﷺ أو سمعوه من أحد، ترى أعينهم قد إمتلئت من الدموع، وفاضت الدموع على الوجنات، تماماً كفيض الماء من البحر، أو كفيضه من الإناء إذا امتلأ عن أخره، وسبب فيض دموعهم إنما أتى من معرفتهم التامة بأن هذا الذى يتلى عليهم من فم الرسول أو أحد الصحابة إنما هو من كتاب الله تعالى الذي أنزله على رسوله، وهو حق لا مرية فيه، ومن ثم كان إعلانهم للإيمان دون تردد. ولعل هذا كله تجده كاملاً فيما ذكره إبن إسحاق فى سيرته عن هذه الرواية أو التي ذكرها دون تطويل» ذكر ابن إسحاق قال«قدم على رسول الله وهو بمكة وفد من نصارى الحبشة فوجدوه فى المسجد فجلسوا إليه وكلموه، روى هم رسول الله إلى الإسلام وتلي عليهم القرآن فلما سمعوا فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا على الفور وصدقوه وعرفوا أن ما جاء به هو الحق ولذا قال الله تعالى عنهم ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾[٢] وذكر الإمام القرطبى قائلاً» لما ذهب الوفد إلى رسول الله وسمعوا منه وفاضت عيونهم بالدموع – قال كفار قريش: إن ثأركم بأرض الحبشة فأهدوا إلى النجاشي وابعثوا رجلين من ذوى رأيكم لعله يعظكم من عنده فتقتلونهم بمن قتل منكم ببدر، فبعث كفار قريش عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبى ربيعة بهذا، فسمع النبي ﷺ بذلك، فبعث عمرو بن أمية القمري وكتب معه كتاباً للنجاشي ولما قرأه جمع النجاشي جعفر بن أبى طالب ومن معه وأسر أن يقرأ القرآن، فقرأ جعفر صدر سورة مريم فقاموا تفيض عيونهم من الدمع»[٣].

---

(١) فى ظلال القرآن سيد قطب جـ٣/ ١٦٢ مرجع سابق.
(٢) سورة القصص الآيات من رقم ٥١ إلي ٥٤ . وانظر سيرة بن إسحاق جـ١/ ١٩٩ وما بعدها بتصرف.
(٣) تفسير القرطبى جـ٦/ ٢٣٨ بتصرف مرجع سابق.

ومن ثم كان مدح الله لهم أن أعينهم تفيض من الدمع ولعله خوفاً مما هم عليه ولذلك أمنوا وصدقوا حيث قال تعالى ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾[1].

«إنهم يعلنون إيمانهم بربهم بهذا الحق الذي عرفوه، ثم يدعونه سبحانه أن يضمهم إلى قائمة الشاهدين بهذا الحق، وأن يسلكهم في سلك الأمة القائمة عليه في الأرض» الأمة المسلمة» التي تشهد لهذا الدين بأنه الحق وتؤدى هذه الشهادة بلسانها وبعلمها وبحركتها لإقرار هذا الحق في حياة البشر.. فهولاء الشاهدون الجدد ينضمون إلى هذه الأمة المسلمة، ويشهدون ربهم على إيمانهم بهذا الحق الذي تتبعه هذه الأمة - ويدعونه سبحانه أن يكتبهم في سجلها.. ثم هم بعد ذلك يستنكرون على أنفسهم أن يعوقهم معوق عن الإيمان بالله، أو أن يسمعوا هذا الحق ثم لا يؤمنوا به ولا يأملوا بهذا الإيمان أن يقبلهم ربهم، ويرفع مقاعدهم عنده فيدخلهم فى القوم الصالحين، فهو موقف صريح قاطع تجاه ما أنزل الله به إلى رسوله من الحق«موقف الاستماع والمعرفة ثم التأثر الغامر والإيمان الصادق، ثم الإسلام والانضمام إلى الأمة المسلمة»[2] وبهذا ترى أثر القرآن على النصارى واضحاً جلياً فى هذه الآيات من سورة المائدة؟ وهى آيات تريك مدى التأثير العميق الذى يحدثه القرآن فى نفوس وقلوب سامعيه، أو من يتلى عليه هذا القرآن.وقبل ختامي لهذا النقطة من أثر القرآن على النصارى أذكر أن كثيراً من دول أوروبا ممن تدين بالنصرانية، قد تأثر بعض أفرادها بالقرآن، وإذا ما أرت أن أخذ مثالاً واضح المعالم على ما أذكر فهناك أمريكا، حيث قد تأثر بعض أفرادها بالقرآن الكريم، بل استدعاهم ذلك على الدخول فى الإسلام منهم العالم، ومنهم رجل الأعمال، ومنهم الطبيب، ومنهم الفنان بكافة مجالاته....إلخ

إنها صور ونماذج من تبديل الحال بفض القرآن وتأثرهم به بعد فضل الله تعالى - من الظلامية إلى النورانية، فى لحظات عندما خطر على القلب نور التأثر بالقرآن الكريم.

---

(١) سورة المائدة الآية رقم ٨٣، ٨٤.

(٢)فى ظلال القرآن سيد قطب جـ٣/ ١٦٣.

وقد عثر على دراسة على الشبكة الدولية بعنوان «أثر القرآن فى قلوب الأمريكان».

ومن خلال هذه الكلمات التى جاءت فى الرسالة القصيرة قال أحدهم «اكتشف العلماء أن للمخ موجات ولكل موجة سرعة فى الثانية ففي حالة اليقظة يتحرك المخ بسرعة ١٣-٢٥ موجة لكل ثانية، وفى حالة الهدوء النفسي والتفكير العميق والإبداع يتحرك بسرعة ٨-١٢ موجة فى الثانية، وفى حالة الهدوء العميق داخل النفس ومرحلة الخلود يتحرك بسرعة ٤ -٧ موجة فى الثانية، وفى حالة النوم العميق بسرعة نصف- ٣ موجة فى الثانية. وفى إحدى المؤتمرات فى أمريكا لا حظ جهاز كمبيوتر يقيس الموجات الدماغية، ووجدت أحد علماء البرمجة هو من أصل أمريكي وهو مسيحى الجنسية فقلت هل سمعت بالقرآن قال لا، فقلت هل تمانع أن تسمع شيئاً من القرآن فأجاب أن لا؟ فأسمعته آية الكرسي وما من الله به على، وكانت النتيجة أكثر من مذهلة حيث بدأ هذا الرجل الذى كان جالساً باستقامة على الكرسى فى الانحناء قليلاً وبعد لحظات من القراءة أغمض عينيه، وتغيرت ملامح وجهه إلى الهدوء والخضوع والخشوع، أحسست وأنا أقرأ القرآن على هذا الإنسان وكأنني أقرأه على مسلم حيث تأثره السريع للقرآن مما أعطاني راحة نفسية كبيرة، وسعادة لا توصف وبعد الإنتهاء من القراءة جلس فى لحظة صمت ثم فتح عينه، وإذا عيناه قد تصلب بداخلها حمرة شديدة، وبدأت الدموع تترقرق منها، ورأيت الانشراح بادياً على وجهه وهو يردد بصوت ضعيف «لقد عزلتني بهذه التلاوة الجميلة عن العالم الذى نعيشه إن لهذه إن لهذه الكلمات تأثيراً عجيباً داخل نفسى.. سألته هل تفهم شيئاً من هذه التلاوة؟ قال لقد تحدثت التلاوة عن قوة عظمى هي قوة الرب التى تحتاج إليها فى السراء والضراء، والتى هى معنا فى كل وقت وحين وفى مكان ثم استرسل فى الحديث يفسر لي ما فهمه باللغة الأجنبية»[1] بالله هذا هو القرآن وهذا هو التأثر الحقيقي بالقرآن، حيث أثر على قلوب الكفرة من قبل ومما يزيدك عجباً أن هذا الرجل الأمريكى قال أفسر ما فهمته من الكلمات حسب تأثره، وهذا يعطيك إشارة واضحة على القوى العظمى والخارقة، وهى قوة التأثير القرآني، ومما يؤكد هذا أيضاً ما

(١) الشبكة الدولية « الإنترنت» موقع : www.amircan hearts.com .

ذكره صاحب الظلال حيث قال أيضاً» كنت في إحدى رحلاتي ونحن على السفينة في عمق البحر جاء وقت صلاة الجمعة، فأذنت وجمعت الناس لأداء الصلاة وكان على السفينة كثير من الجنسيات الأمريكية واليوغسلافية وغيرها ولكن معظمها يدين بالنصرانية، وعندما إنتهينا من الصلاة، رأيت الناس جميعاً يهنؤننا بهذه الصلاة، ويبدون إعجابهم بهذا القداس حسب زعمهم ولكن سيدة من وسط هذا الحشد من أصل يوغسلافية هاربة من حجيم «نيتو- كانت شديدة الانفعال والتأثر، تفيض عينها دمعاً ولا تتمالك مشاعرها جاءت تشد على أيدينا بحرارة فى إنجليزية ضعيفة إنها لا تملك نفسها من التأثر العميق بصلاتنا هذه وما فيها من خشوع ونظام وروح .

«وليس هذا موضوع الشاهد فى القصة، ولكن ذلك كان فى من قولها: أى لغة هذا التى يتحدث بها قسيسكم، فهى لا تتصور أن يقيم الصلاة إلا قسيس، ولكن صحح لها المفهوم.

فقالت: إن اللغة التي يتحدث بها ذات إيقاع موسيقى عجيب، وإن كنت لم أفهم منها حرفاً، ثم كانت المفاجئة الحقيقة لنا!! وهى تقول: ولكن هذا ليس موضوع السؤال، إنما أريد أن أسأل عن شئ لفت نظرى وهو أن الإمام كانت ترو فى نهاية صلاته وكلامه بهذه اللغة الموسيقية، فقرات من نوع خاص..... كلامه نوع أكثر موسيقية وأعمق إيقاعاً: وتقول هذه الفقرات كانت تحدث لها رعشة....... وإن كنت لم أفهم منه شيئاً، إنها شئ أخر غير الكلام كما لو كان الإمام مخلوداً بروح القدس حسب نظيرها المسيحى، فقلنا لها إنها الآيات القرآنية»[1].

بالله إنها لدهشة تملك عليك وجدانك حينما تعلم هذا من سيدة مسيحية لا تعلم من القرآن شيئاً سوى أنها تسمع كلمات ذات وقع موسيقى خاص، وصدق الله «تفيض أعينهم من الدمع».ومع كل هذا فإني أسوق بعض الأمثلة التي تؤكد علي تأثير القرآن في قلوب النصاري حتي أنهم يؤمنون بالله تعالى وبالقرآن الكريم وبالرسول ﷺ وهاك بعضهم..

---

(١) فى ظلال القرآن سيد قطب جـ ٢/ ١٣٨٠.

أ / (القس إبراهيم فيلوبوس)[1]

يحدثنا الحاج إبراهيم خليل أحمد عن رحلته إلى الإسلام، فيقول: «في مؤتمر تبشيري دعيت للكلام، فأطلت الكلام في ترديد كل المطاعن المحفوظة ضد الإسلام، وبعد أن انتهيت من حديثي بدأت أسأل نفسي: لماذا أقول هذا وأنا أعلم أنني كاذب؟واستأذنت قبل انتهاء المؤتمر خرجت وحدي متجهاً إلى بيتي كنت مهزوزاً من أعماقي، متأزماً للغاية وفي البيت قضيت الليل وحدي في المكتبة أقرأ القرآن ووقفت طويلاً عند الآية الكريمة **﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾**[2] وفي تلك الليلة اتخذت قرار حياتي فأسلمت، ثم انضم إلي جميع أولادي، وكان أكثرهم حماساً ابني الأكبر (أسامة) وهو دكتور في الفلسفة ويعمل أستاذاً لعلم النفس في جامعة السوربون»[3].

ب / البروفسور(آرثر ميلاستنوس)

في أثناء عمله بالتنصير عام ١٩٨٣ قال لنفسه: أي ضير في قراءة القرآن من أجل الرد على المسلمين؟ فتوجه إلى أحد المسلمين سائلاً إياه أن يعيره كتاب المقدس، فوافق المسلم مشترطاً عليه أن يتوضأ قبل كل قراءة، ثم شرع آرثر يقرأ القرآن خفية، ولنستمع إليه يحدثنا عن تجربته الأولى مع القرآن «عندما قرأت القرآن أول مرة، شعرت بصراع عنيف في أعماقي، فثمة صوت يناديني ويحثني على اعتناق هذا الدين، الذي يجعل علاقة الإنسان بربه علاقة مباشرة، لا تحتاج إلى وساطات القسس، ولا تباع فيها صكوك الغفران!! وفي يوم توضأت، ثم أمسكت بالقرآن فقرأت: **﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ**

---

(١) ماجستير في اللاهوت من جامعة برنستون الأمريكية، من كتبه (محمد في التوراة والإنجيل والقرآن) و(المسيح إنسان لا إله) و(الإسلام في الكتب السماوية) و(اعرف عدوك اسرائيل) و(الاستشراق والتبشير وصلتهما بالإمبريالية العالمية) و(المبشرون والمستشرقون في العالم العربي الإسلامي) وقد كان راعياً للكنيسة الإنجيلية، وأستاذاً للاهوت، أسلم على يديه عدد كبير من الناس.

(٣) سورة الحشر الآية رقم ٢١.

(٢) مجلة (القبس) الكويتية) العدد ١٥٤٠.

(٣) (آرثر ميلاستنوس) دكتوراه في اللاهوت، وكان الرجل الثالث في مجمع كنائس قارة آسية.

قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[١] فأحسستُ بقشعريرة، ثم قرأت: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾ فحلت السكينة في الروح الحيرى، وشعرت أني قد خُلقت من جديد».

في تلك الليلة لم يصبر آرثر حتى تطلع الشمس، بل اتجه حالاً إلى منزل صديقه المسلم ليسأله عن كيفية الدخول في الإسلام، وبين حيرة الصديق ودهشته نطق آرثر بالشهادتين[٢].

ج / (فانسان مونتيه)[٣] يقول: «لما قرأت القرآن لأول مرة في حياتي، واطلعت على نظرته إلى السيد المسيح، وعرفت أنه بشر أوحي إليه، وعرفت تسامح الإسلام تجاه الديانات الأخرى، أعلنت إسلامي، فشعرت بالراحة في ظلاله، فهو لا يفصل بين الروح والجسد، وليس مثل الإسلام دين يدفع إلى الأخلاق العليا، والكرامة الإنسانية، لقد اخترت الإسلام لأنه دين الفطرة.. اخترته ديناً ألقى به وجه ربي» «إن مَثل الفكر العربي المُبعد عن التأثير القرآني كمثل رجل أُفرغ من دمه!»[٤].

د / القس عامر علي داود[٥] يقول:

«.. تناولت نسخة من ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الانجيليزية، لأني عرفت أن هذا هو الكتاب المقدس عند المسلمين، فشرعت في قراءته وتدبر معانيه، لقد استقطب جل اهتمامي، وكم كانت دهشتي عظيمة حين وجدت الإجابة المقنعة عن سؤالي المحير: [الهدف من الخلق] في الصفحات الأولى من القرآن الكريم.. لقد قرأت الايات وهي قول

---

(١) سورة محمد الآية رقم (٢٤).

(٢) (لم أسلم هؤلاء الأجانب) محمد عثمان (١ / ١٤٧).

(٣) أستاذ اللغة العربية والتاريخ الإسلامي في جامعة باريس ألف كتاب (الإرهاب الصهيوني) و(مفاتيح الفكر العربي) و(الملف السري وإسرائيل) وقد تجاوزت كتبه ثلاثين كتاباً ويسمي الآن المنصور بالله الشافعي.

(٤) عن (القرآن الكريم من منظور غربي) د. عماد الدين خليل ص (٧٨).

(٥) عامر علي داود A.Ali David : ينحدر من أسرة هندية برهمية، تنصرت على أيدي المبشرين الذين قدموا مع طلائع الاستعمار، كان كثير القراءة للكتب الدينية، ولما اتيح له أن يطلع على القرآن الكريم كان الجواب هو انتماؤه للإسلام.

الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.[1]. وهي آيات توضح الحقيقة بجلاء لكل دارس منصف، أن هذه الايات تخبرنا بكل وضوح وجلاء وبطريقة مقنعة عن قصة الخلق..»[2].

هـ / إميل درمنغم E.Dremenghem[3] يقول عن القرآن وتأثره به

«للمسيح عليه السلام في القرآن مقام عالٍ، فولادته لم تكن عادية كولادة بقية الناس، وهو رسول الله الذي خاطب الله جهراً عن مقاصده وحدث عن ذلك أول شخص كلمه، وهو كلمة الله الناطقة من غير اقتصار على الوحي وحده.. والقرآن يقصد النصرانية الصحيحة حينما يقول: إن عيسى عليه السلام كلمة الله، أو روح الله، ألقاها إلى مريم وانه من البشر.. وهو يقصد الآية تليت عليه فأثرت فيه وهي قوله تعالى ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ

(١) سورة البقرة الآيات من ٣٠ إلي ٣٤ .

(٢) لماذا أسلم هؤلاء من قارات العالم إلي الإسلام أ/ احمد حامد ص ١٠٥ المجلس الأعلي العدد ١٢٤ عام ١٤٢٧ هـ .

(٣) مستشرق فرنسي، عمل مديراً لمكتبة الجزائر، من آثاره: (حياة محمد) (باريس ١٩٢٩) وهو من ادق ما صنّفه مستشرق عن النبى صلى الله عليه وسلم، و(محمد والسنة الاسلامية) (باريس ١٩٥٥)، ونشر عدداً من الابحاث في المجلات الشهيرة مثل: (المجلة الافريقية)، و(حوليات معهد الدراسات الشرقية)، و(نشرة الدراسات العربية)... الخ.

﴿جَمِيعاً﴾[1] وهو يذمّ مذهب القائلين بألوهية المسيح ﷺ ومذهب تقديم الخبز إلى مريم عبادةً ثم أكله وما إلى ذلك من مذاهب الإلحاد النصرانية، لا النصرانية الصحيحة، ولا يسع النصراني الا ان يرضى بمهاجمة القرآن للثالوث المؤلف من الله وعيسى ومريم».

جيمس جينز[2] وسوف أختم أنا الباحث هذا المبحث بواقعة رواها العالم الهندي المغفور له الدكتور عناية الله المشرقي، وهو يقول «كان ذلك يوم الأحد من أيام سنة٩ ,١٩ وكانت السماء تمطر بغزارة، وخرجت من بيتي لقضاء حاجة ما، فإذا بي أرى الفلكي المشهور السير جيمس جينز الأستاذ بجامعة كمبردج، ذاهبا إلى الكنيسة، والإنجيل والشمسية تحت إبطه، فدنوت منه، وسلمت عليه، فلم يرد علي، فسلمت عليه مرة أخرى، فسألني: «ماذا تريد مني؟» فقلت له: «أمرين، يا سيدي! الأول هو: أن شمسيتك تحت إبطك رغم شدة المطر!» فابتسم السير جيمس وفتح شمسيته على الفور. فقلت له: «وأما الأمر الآخر فهو: ما الذي يدفع رجلا ذائع الصيت في العالم مثلك أن يتوجه إلى الكنيسة؟» وأمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظة، ثم قال: «عليك اليوم أن تأخذ شاي المساء عندي». وعندما وصلت إلى داره في المساء، خرجت «ليدي جيمس» في تمام الساعة الرابعة، بالضبط، وأخبرتني أن السير جيمس ينتظرني. وعندما دخلت عليه في غرفته، وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أدوات الشاي. وكان البروفيسور منهمكا في أفكاره. وعندما شعر بوجودي، سألني: «ماذا كان سؤالك؟»، ودون أن ينتظر ردي، بدأ يلقي محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية، ونظامها المدهش، وأبعادها وفواصلها اللامتناهية، وطرقها، ومداراتها وجاذبيتها، وطوفان أنوارها المذهلة، حتى أنني شعرت بقلبي يهتز بهيبة الله وجلاله. وأما (السير جيمس) فوجدت شعر رأسه قائما، والدموع تنهمر من عينيه، ويداه ترتعدان من خشية الله، وتوقف فجأة. ثم بدأ يقول: «يا عناية الله! عندما ألقى نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودي يرتعش من الجلال الإلهي،

---

(١) سورة النساء الآيتان رقمي ١٧١ ، ١٧٢.

(٢) من أعظم علماء الهند في الطبيعة والرياضيات من القرن الثامن عشر عاش فيه ومات في بداية القرن التاسع عشر ، وله اكتشافات عديدة وأفكار جديدة لا يستهان بها منها أنه أول من عرض فكرة القنبلة الذرية ، وكان يعمل أستاذاً بجامعة كمبردج .

وعندما أركع أمام الله وأقول له: «انك لعظيم!» أجد أن كل جزء من كياني يؤيدني في هذا الدعاء، وأشعر بسكون وسعادة عظيمين. وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة، أفهمت، يا عناية الله خان، لماذا أذهب إلى الكنيسة؟ ويضيف العلامة عناية الله قائلا: لقد أحدثت هذه الحاضرة طوفانا في عقلي، وقلت له: «يا سيدي لقد تأثرت جدا بالتفاصيل العلمية التي رويتموها لي، وتذكرت بهذه المناسبة آية من آي كتابي المقدس، فلو سمحتم لي، لقرأتها عليكم»، فهز رأسه قائلا: «بكل سرور»، فقرأت عليه الآية التالية: قال الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[1] دراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة، من أنبا محمداً به؟ لقد كان محمدا أمياً، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه، ولكن «الله» هو الذي أخبره بهذا السر.. هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة؟ لو كان الأمر كذلك، فاكتب شهادة مني أن القرآن كتاب موحى من عند الله. مدهش! وغريب، وعجيب جدا[2].



(١) سورة فاطر الآية رقم ٢٧ .

(٢) «نقوش» الباكستانية، العدد الخاص بالشخصيات العالمية، شخصية (المرحوم العلامة عناية الله المشرقي ص ١٢٠٨ ٩).

والعلامة «المشرقي» هذا من أعظم علماء الهند في الطبيعة والرياضيات، ويتمتع بشهرة كبيرة في الغرب لاكتشافاته العديدة وأفكاره الجديدة، وهو أول من عرض فكرة القنبلة الذرية، غير أنه ترك الميدان العلمي، فخاض غمار السياسة نظراً لسوء حالة المسلمين في الهند (كان ذلك قبل الاستقلال) فأسس «حزب الخدام الالهيين» Khaaksar Party، وكان رجاله (المتطرفون) يؤمنون بوجوب اقامة الفرائض الدينية بالقوة، واتخذوا من «المعول» شعارا لحركتهم. ومن أهم مؤلفات العلامة: «التكملة» (لرسالة الإسلام)!، وقد طلبت منه «لجنة جائزة نوبل» أن يترجم هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية لإعطائه جائزة العلم، ولكن العلامة رفض الفكرة بشدة قائلا: «لست في حاجة إلى جائزة!» وذلك نقلاً عن الإسلام يتحدي وحيد الدين خان ص ١٥٢ ، ١٥٣ ،

المبحث الرابع :أثر القرآن على المنافقين والكافرين:

أولاً: ثر القرآن الكريم على المنافقين:

بعد الحديث عن أثر القرآن على المؤمنين وأهل الكتاب ، وإيضاح أن القرآن ذو قوة تأثرية وقدرة فائقة على التأثير ولقد رأينا كيف يتم ذلك على المؤمنين وعلى أهل الكتاب، لكن هناك صنف مذبذب لا هو مؤمن كامل الإيمان، ولا هو كافر صريح الكفر ولكنه فريق بين بين كما قال الله تعالى﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء وَلاَ إِلَى هَـؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾[1] إنه فريق التذبذب، وهو ينظر بعين واقعة إلي الجنة،ويتمنى لو إنه حازها ودخل فيها، وهذا ما يريده دون ثمن، فقلبه وروحه وعقله تعشق المعصية وتمجد الرذيلة، ولا يفارقها أبدا، فهو يتظاهر بالإسلام وقلبه منه خالي الوفاض ومن ثم كان لا بد لنا معهم من وقفة، ولست هنا في معرض الحديث عنهم عقدياً بكفر أو إسلام، ولكني أتعامل معهم على أنهم منافقون ما أثر القرآن عليهم؟

إن النفاق من أبشع الجرائم التي ترتكب في حق الإنسانية، وتضيع على أصحابها فضل التأثر بالقرآن الكريم. فالنفاق انحراف خلقي خطير في حياة الأفراد والأمم، وتبدو خطورته في أن يدخل فى الدين أعظم القيم، ومن ثم تتطرق أيديهم إلى القرآن دستور الله الخالد، وقد كانوا في عهد النبي ﷺ يكتمون نفاقهم خزفاً من فضح نواياهم، وذلك لأن الله أطلع نبيه على ذلك وخاطبهم في سورة سميت بأسمائهم فقال تعالى ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[2] .

وأثر القرآن علي أهل النفاق يظهر من خلال عدة نقاط من أهمها.

---

(١) سورة النساء الاية رقم ١٤٣.

(٢) سورة المنافقون الآية رقم ٤.

١ - **إثارة الفتن وإتباعها**: مما سبق تعلم أن المنافق يظهر خلاف ما يبطن وهم في رأى أشد من الكفار، وذلك لأن الكافر يعلن كفره أما المنافق فهو مستتر بعمل في الخفاء، ولهذا حذر الله ورسوله منهم، وباطنهم خبيث مخادع كالحية تماماً وقال الله عنهم في القرآن﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ﴾[1].

ومحط الاستدلال في هذه الآية أن المقصود بقوله ﴿في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ هم المنافقون، وهذا ما نص عليه الإمام ابن جرير الطبري، والإمام بن كثير في التفسير وهذا يعطى للموضوع صلة وثيقة جداً، هذا وإن كان بعض المفسرين لا ينص على طائفة بعينها بل يذكر أن الآية عامة في حق كل من في قلبه مرض.

ولكني أقول أخذاً بما ذكره ابن جرير وغيره ممن نص على أنهم المنافقون نلحظ أثر القرآن في نفوس المنافقين قوياً بأجمله فيما يلى:

أ - قهر نفوسهم قهراً قوياً مما استدعاهم أن يتبعوا أوامره ظاهرا، وإن خالف باطنهم في ذلك مخالفة تامة، حيث كان هو المتنفس الذي يتلهون فيه غيظ قلوبهم وعداوة نفوسهم.

ب- كثرت التأويلات للآيات القرآنية وذلك كما قال الله تعالى ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ وغرضهم بذكر إثارة الفتن والقلاقل والإضطرابات تجاه القرآن فى نفوس الناس، وذلك كله مما في قلوبهم من مرض، ولذا فإن الله يزيد هم مرضاً على مرضهم قال الله ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[2] وإذا ما علم أمرهم ونهوا عن الإفساد تجدهم يدعون أنهم مصلحون، وأن الإفساد أبعد الطرق عن

---

(١) سورة آل عمران الآية رقم ٧ .

(٢) سورة البقرة الآية رقم١٠

قلوبهم ولذا قال الله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾[1].

ج- هجر الآيات المحكمات الواضحات المعاني، والتي يقوم عليها حياة الأمم في حاضر الناس ومستقبلهم، ومن ثم كان خطرهم قوياً، كما قال تعالى في الآية السابقة ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ...﴾.

٢- **خشيتهم الشديدة من القرآن:** من خلال الآيات السابقة بشأن المنافقين تلحظ أن أثر القرآن فى قلوبهم قوياً، ومن هذا المنطق كانوا يحذرون منه، ويعدون له ألف حساب، لأن بواطنهم تحمل الخبيث والعداوة، ومن هنا كان خوفهم من أن ينزل الله قرآناً يكشف فيه خبث نواياهم، وحقد طويتهم، وانخراطهم خداعاً وتضليلاً في صفوف المؤمنين، ومن ثم قال الله تعالى فى سورة سميت بالفاضحة «التوبة» فضح الله أمرهم وكشف زيغهم، وزيغ ما فى قلوبهم من القرآن ومن المؤمنين حيث قال تعالى ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ اسْتَهْزِئُواْ إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ * وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾[2] من خلال التأمل في الآية تلحظ أن الآيات تصدرت بلفظ يحذر مما يدل على الخوف الذي يعيشون فيه، ومما يدلك على أن القرآن ترك في نفوسهم أثراً قوياً ولذا عاشوا يخافون منه، ويحذرون من كشف خبايا قلوبهم، إلى هذا الحد بلغ تأثير القرآن في قلوبهم ولعلك تجد أن حذرهم من القرآن قبل نزوله، فهم في حالة ترقب مخيفة وذلك لأنهم أخفوا في قلوبهم أموراً، والقرآن يكشفها بصدق لا مراء فيه، ومما يزيدك دهشة وعجباً أن حذرهم هذا جاء في صورة هازئة فردية عابثة ولذا رد الله عليهم بقوله﴿قُلِ اسْتَهْزِئُواْ﴾ ولكن حاشا للقرآن أن يعبث لعبثهم، أو يهزأ كاستهزائهم ﴿إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ ولما ينزل القرآن يفضح خبايا نفوسهم، يلجأ ون فوراً إلى الاعتذار وإبداء الندم الظاهري، وإذا ما ضيق عليهم

(١) سورة البقرة الآية رقم ١١/ ١٢.

(٢) سورة التوبة الآيتان رقمي ٦٤/ ٦٥.

الخناق اتخذوا أساليب الثعابين في التخلص والتخلص مما وقعوا فيه، متخذين حجباً واهية لا تقوم على قدم وساق، وإني أقول أن تأثير القرآن على نفوس المنافقين إنما يحدث مما تبقى في نفوسهم من الإيمان، إنهم في طبيعتهم آفة، وفى قلوبهم علة، وهذا ما يحيد بهم عن الطريق الواضح المستقيم ويجعلهم يستحقون من الله أن يزيد هم مما هم فيه، فالمرض ينشئ المرض، والانحراف يبدأ يسيراً ثم تنفرج الزاوية في كل خطوة وتزداد، سنة لا تختلف، سنة الله في الأشياء والأوضاع، وفى المشاعر والسلوك، فهم صائرون إذن إلى مصير معلوم المصير الذي يستحقه من يخادعون الله والمؤمنين»[1] وقد يؤثر القرآن في بعض نفوسهم فيخرج من دائرة النفاق ولذا قال عكرمة في تفسير قول الله تعالى ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ اسْتَهْزِئُواْ إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ [2] قال «كان رجل لمن شاء الله أن يعفوا عنه يقول اللهم إني أسمع آية أنا أعنى بها تقشعر فيها الجلود، وتوجل منها القلوب اللهم فاجعل وفاتي قتلاً في سبيلك لا يقول أحد غسلت أنا كفنت أنا دفنت قال فأصيب يوم اليمامة، فما من أحد من المسلمين إلا وقد وجد غيره»[3].

٣- صورة تلقى المنافقين لآيات القرآن الكريم: إنها صورة المخادع وهى على هيئة أسئلة عجيبة يستبين منها خوفهم الشديد والدائم على ما تخفيه قلوبهم أن يظهره القرآن يقول تعالى﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [4].

(١) في ظلال القرآن سيد قطب جـ٣/ ١١٨ مرجع سابق.
(٢) سورة التوبة الآيات من ٦٤ إلي ٦٦ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ٢/ ٤٨٣ مرجع سابق.
(٤) سورة التوبة الأيات ١٢٤/ ١٢٥.

إنه السؤال في الآية الأول هو «أيكم زادته هذا إيماناً» سؤال مريب لا يقوله إلا الذي لم يستشعر وقع السور المنزلة فى قلبه، وإلا لتحدث عن أثارها فى نفسه يدل التساؤل عن غيره،' وهو فى الوقت ذاته يحمل رائحة التهوين من شأن السورة النازلة والتشكيك فى أثرها فى القلوب، لذلك يجئ الجواب الحاسم ممن لا راد لما يقول ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وقال تعالى بعدها ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ وهو نبأ من الله صادق وقضاء منه سبحانه محقق»[1].

وهكذا ترى أن الآيات تثبت أن الإعجاز التأثيرى للقرآن الكريم لأصناف الناس فقد أوضحت الآيات صنفين من الناس وأثر القرآن عليهما (المؤمن والمنافق) ومما يزيد الأمر وضوحاً أن أثر القرآن واضح على الفريقين لا ريب فيه، ومختلف لا شك فى ذلك فعلى المؤمنين بشارة الوجه، وزيادة الإيمان وعلى المنافقين زيادة في الرجس والشر والدنس وخاتمة سيئة جداً هو أنهم يموتون على الكفر والعياذ بالله تعالى، وهؤلاء قوم عمى عن الحقيقة، ضلال في حياتهم ولذا قال ابن كثير«وهذا من جملة شقائهم:أن ما يهدى القلوب يكون سبباً لضلاهم ودمارهم، كما أنه سئ المزاج لو غذى بما تغذى به لا يزيد ه إلا خبالاً ونقصاً»[2].

ثانياً: أثر القرآن الكريم علي الكافرين:

من المعلوم بداهة أن الله تحدى بالقرآن الكافرين من أهل مكة وغيرها، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان – على أن يأتوا بمثل هذا القرآن – فعجزوا حيث قال تعالى ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[3].

ثم تدرج معهم القرآن الكريم – عند عجزهم عن الإتيان بمثله – فطلب منهم الأقل

---

(١) فى ظلال القرآن سيد قطب جـ٣/ ١١٥ مرجع سابق.

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢/ ٣٨٤. مرجع سابق.

(٣) سورة الإسراء الآية رقم ٨٨.

وهم عشر سور من مثل سور القرآن حيث قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللهِ وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

وإني ألحظ لهذه الآيات وأمثالها لفظة «مِّثْلِهِ» فالمثلية هنا تعنى أن الله لا يطلب منهم قرآناً ولكن مثل، ويمكن للمثل أن تكون أقل درجة من الأصل والله أعلم -ورغم ذلك عجزوا- يقول صاحب المحرر الوجيز «والمقصود بكلمة مفتريات إشارة إلى أن المطلوب عشر سور مثل سور القرآن فى البيان والفصاحة ماداموا قد زعموا أن هذا القرآن مفترى فكلفوا بنحو ما قالوا»[2].

ولما بين عجزهم وفشلهم فى ذلك، تدرج معهم القرآن تارة أخرى ليقلب منهم الأقل من السابق، فطلب منهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله، قال تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[3] وقد وقع هذا التحدي بهذا القدر الأخير في سورة البقرة على أن يأتي بسورة من مثل القرآن، فطلب منهم أن يأتوا بشيء مما يماثل السور القرآنية، فكأنه قال لهم:

لا أكلفكم بالمماثلة التامة (أعنى بها المطابقة لفظاً ومعنى وهذا شيء فوق مستوى قدراتهم العقلية والبيانية، ولكني أطلب منكم أن تأتوا بسورة فيها جنس المماثلة، ومع هذه التسهيلات كلها فقد عجزوا عجزاً تاماً منقطع النظير.

قال تعالى ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[4].

وأسقط الأمر في أيديهم ووقفوا عاجزين أما القرآن الذي أفحمهم بأسلوبه القوى،

---

(١) سورة يونس الآية رقم ٣٨.
(٢) المحرر الوجيز في لطائف الكتاب العزيز ج ٣/ ١٣٨ بتصرف.
(٣) سورة هود الآية رقم ١٣.
(٤) سورة البقرة الآية رقم ٢٣.

وقوة تأثيره التي لا تقف عند حد، ولا يسلم أحد حتى هؤلاء الكافرين، فأيقنوا في قرارة أنفسهم أن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق الذي لا مرية فيه، هو الحق من عند ربهم وصدقوا بهذا واعترفوا بالقدرة التأثيرية للقرآن، ولكن العناد والاستكبار في الأرض بغير الحق هو الذي حال بينهم وبين الهداية وإتباع سبيل النجاة. والواضح من خلال ما سبق تلحظ أن أثر القرآن على الكافرين يتجلى واضحاً في عدة نقاط منها أهمها...

اولاً: سماعهم للقرآن خفيةً وجهراً:

لقد شعر المشركون بعجزهم وضعفهم وقلة حيلتهم أمام قدرة القرآن القوية والمؤثرة، أدركوا حلاوة أسلوبه ،وعذوبة منطقة وبلاغته، فتطرق التأثر إليهم، ولذا كانوا يتسللون في الظلام ليسمعوا القرآن من رسول الله ﷺ ومما يدل على هذا أن قد استمع ثلاثة من زعماء قريش على ثلاثة أيام متتالية وكانوا في خفية من القوم، لكن الطريق كان يجمعهم وفى كل مرة يتواعدون على عدم العود خشية أن يراهم الناس فيقع في نفوسهم شيء منهم، هؤلاء الثلاثة كما ذكر صاحب السيرة النبوية هم «أبو جهل»، والاخنس بن شريق الثقفي حليف بنى زهرة كان يسمع القرآن من رسول ﷺ بتأنٍ من يظن أنه خاشع لكنه لم يكن أفضل حالاً من غيره، وأبو سفيان بن حرب، وقد تواعدوا على عدم السماع، ولكنهم عادوا ولما جمعهم الليل. سأل الأخنسُ أبا جهل عن رأيه فيما سمع من محمد؟ فكان الجواب: ماذا سمعت؟!! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا حتى إذ تجاثينا على الراكب، وكنا كفرس رهان: قالوا منا بنى يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به ولا نصدق أبداً»[1] والمعروف أن أبا جهل كان من أكبر الكافرين والمعاندين لرسول الله ﷺ ومع ذلك كان يذهب إليه ليسمع منه القرآن، إن القرآن يؤثر فيه لكنه تأثير سلبي حيث وصفه القرآن فقال تعالى ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى * وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى * أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾[2] هكذا كان يسمع ثم يصد عن سبيل الله ويذهب مختالاً

---

(١) انظر السيرة النبوية ابن هشام ج ٢/ ١٣١ ، مرجع سابق .

(٢) سورة القيامة الآيات من رقم ٣١ إلي ٣٥ .

بما فعل، وأنا أعلق علي هذا فأقول: ترى ما الذي دفع هؤلاء الثلاثة إلى أن يتسللوا في جنح الظلام ليسمعوا القرآن من رسول الله ﷺ؟ إن الجواب سهل يسير وهو أن الذي كان يدفعهم إلى ذلك إنما هو تأثير القرآن فى نفوسهم والذي تعجب له أن هؤلاء الثلاثة كانوا من أعتي عتاة الكفر، ومن أشد الناس عناداً لرسول الله ﷺ، وتكذيباً له، ولكن التأثير القوى والسحر العجيب لآي القرآن الكريم التي دخلت في قلوبهم قبل أن تغزوا عقولهم فيخضعونها للعصبية والقبلية المضيئة وهذا الذي دعا رجلاً كأبي جهل - لعنه الله - أن يأبى أن يسلم بالحق وقد رآه وسمعه، لا لشيء إلا لأن محمد من بنى عبد مناف وهذا واضح من كلامه للأخنس، أرأيت كيف كان سلطان القرآن قوياً في نفوس هؤلاء الكافرين، ويتخذ هذا السماع مظاهر متعددة فتارة يسمعون خفية وقد سبق الحديث عنها، وتارة يسمعون جهرة ومع ذلك يقودهم العناد والاستكبار إلى الإنكار، وهذا ما حدث مع كثير منهم على سبيل المثال - عتبة بن ربيعة حيث نقل أصحاب السير «أن عتبة قال يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأعرض عليه أمور لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا، فقالوا قم يا أبا الوليد فكلمه فقام حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السلطة - أي المنزلة العالية الرفيعة - في العشيرة، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت بهم جماعتهم وسفهت أحلامهم، رعيت آلهتهم ودينهم، فأسمع منى أعرض عليك أموراً، فقال له قل يا أبا الوليد أسمع، فقال إن كنت تريد مالاً جمعنا لك من أموالنا، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا حتى لا تنقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان الذي يأتيك بنا من الجن طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ مما أنت فيه، حتى فرغ عتبة، فقال له النبي ﷺ أفرغت يا أبا الوليد؟ قال نعم فقال النبي ﷺ اسمع منى قرأ رسول الله ﷺ قول الله تعالى ﴿**حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ**﴾[1] حتى وصل إلى قوله تعالى ﴿**إِذْ جَاءتْهُمُ**

(١) سورة فصلت الآيات من ١ إلي ٤ .

الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ قَالُوا لَوْ شَاء رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾[1] وهذا أمية بن خلف الذي كان من ألد أعداء الرسول ﷺ كلما سمع القرآن من رسول الله ازداد غيظاً، وكان يعذب العبيد الذين اسلموا ويسومهم سوء العذاب، ويقول القرآن فيه ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾[2].

فقام عينه مذعوراً، فوضع يده على فم رسول الله وقال، أنشدك الله والرحم أن تسكت يا محمد، وذلك مخافة أن يقع النذير، وقام إلى أصحابه فقال أبو جهل أقسم أن عينه عاد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قال: لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وأنه يعلوا ولا يعلى عليه، فهذا أغضب القوم فكلمة أبو جهل ليقول في محمد قولاً يرضي قومه، فقال إن هو إلا سحر يؤثر»[3] ومن ثم أنزل الله آيات قرآنية توضح هذا الكذب يقول تعالى ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً وَبَنِينَ شُهُوداً وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾[4].

والتعقيب على هذا: يتلخص في هذا السحر العجيب، والتأثير القوي الذي يملك من الإنسان أغلى ما فيه وهو قلبه، إن الوليد من أشعر العرب، وأثراهم مالاً وجاهاً، ورغم ذلك تقف قدرته البيانية والبلاغية أمام سحر القرآن، وعذوبة ألفاظه، وقوة تأثيره، لدرجة أنه لم يجد مناصاً من أن يقول الوليد قول الحق فيه «إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلوا ولا يعلي عليه، ولقد صدق والله

---

(١) فصلت الآية ١٣.

(٢) سورة الليل الآيات من ١٤ إلى ١٦.

(٣) انظر السيرة النبوية ابن إسحاق ج.

(٤) سورة المدثر الآيات من رقم ١١ إلى رقم ٢٤.

عتبة، وإنك تلحظ التأثير واضحاً على الوليد قلباً وقالباً من خلال قول أبى جهل، لما رأى الوليد عائداً، قال أبو جهل لقد عاد الوليد بغير الوجه الذي ذهب به «وهذا يعنى أن تأثير القرآن وصل إلى عينيه فغيرهما، وغير جلد وجهه فحوله إلى غير ما كان عليه، ذلك التحول العجيب هذا أتى من بضع آيات تلاها الرسول ﷺ على مسامع عتبة فما بالك لو تلا الرسول ﷺ أكثر؟ لدرجة أن عتبة من شدة تأثير القرآن عليه أقسم على الرسول ﷺ أن يكف عن القراءة لأنه ما عاد يطيق فالتأثير له قوة أثقلت كاهله جعلته يفكر والآيات ترسم هذا المشهد بوضوح، وتبين ملامح الوليد بعد ما سمع الآيات فتارة يفكر وأخرى يعبث وثالثة يدير وجهه هذا هو القرآن ولما كان الأمر بهذه الخطورة اتخذوا مظهراً آخر ينفذون منه ولا يستمعون للقرآن وهو..

ثانياً: الحيلولة بين الناس وبين سماعهم للقرآن:

تنين في النقطة السابقة سماعهم للقرآن باختيارهم سواء كان خفية أو علانية فلما رأوا أن الأمر خطير، وإن تأثير القرآن على قلوبهم شديد، تواصوا فيما بينهم بعدم سماعه، بل لم يكتفوا بهذا بل إنهم اتخذوا صوراً متعددة لعدم السماع منها، قد تفننوا في هذه الصور الآتي ذكرها - وكل ذلك بهدف أن يصدوا آذانهم عن القرآن الكريم، وبئس ما يفعلون، ومن هذه الصور ما يلي

الصورة الأولى: التشويش على قارىء القرآن:

وذلك إما باللهو واللعب بحيث لا يسمعون إلى القرآن وقد ذكر القرآن هذه الصورة فقال ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1] إلى هذه الدرجة كان لسماع القرآن الكريم أثرٌ قويٌ في نفوس الكافرين والمشركين، ولذا فهم يتعاهدون ويتواصون بعدم السماع له بل واللغو فيه ما أمكن ولذا

---

(١) سورة الأنبياء الآيات من رقم ١ إلي ٤ .

قال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [(1)] وهذه الآية توضح الأمر بصورةٍ حاسمةٍ وقاطعةٍ، فهم يحذون إخوانهم من الاقتراب من قالبه، وعدم السماع منه قصداً أو سهواً لأن له أثراً لا يقاوم ولا يبارى وإذا ما سمعوا أن أحداً استجاب له لاموه وعنّفوه اشد التعنيف، وادعوا له قائلين أتأتى هذا السحر وأنت مبصرٌ وكذبوا فيما ادعوه، فهم عُميٌ عن الحقيقة وفى هذا يقول ابن كثير «لقد نعتوا القرآن بالسحر ونعتوا أنفسهم بالإبصار والفهم، وحقيقة الأمر على غير ذلك، فما القرآن إلا وحى مؤثر من خالقهم، وما ادعاؤهم الإبصار إلا محاولة تدبر ضعيفة، وهروب متهزمة، يسترون تحتها ما في نفوسهم من استكبارٍ وعتوٍ وتواصٍ بعدم الانصياع للحق، وخروج من الباطل، بل حرص على استخدام كل الأساليب الإعلامية التي تمنع وصول أي أثر لهذا البث القرآني المؤثر في النفوس، لا يستمعوا لهذا القرآن والغوا فيه كأنهم يقولون غالبوا أثره وذلك بالمكار والتصغير والتخليط في المنطق إذا قرأ رسول الله ﷺ القرآن»[(2)].

الصورة الثانية: الاعتداء بالضرب على قارئه وتاليه:

لقد تناصحوا نصيحة الثعالب أن لا يسمع أحد القرآن، وأن يغالبوه بالتشويش لكنهم لم يستطيعوا، ورغم كل هذا فقد نقد الأثر في قلوبهم، فلم يجدوا أبداً من أسلوب الهمجية والوفاق والقرب الذي تعودوا عليه، فكل من كانوا يسمعون يقرأ يضربونه متى سنحت لهم الفرصة بذلك ولذا يقول الله - سبحانه تعالى - فى هذا الشأن ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [(3)] المتأمل في الآية يلحظ أنها تصور لوناً عنيفاً من ألوان التأثر بالقرآن لدى الكافرين ويظهر في تغيرات جسدية مختلفة منها تغير في الوجه الشديد ومن شدته لا تعرف صاحب هذا الوجه «تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ» إنها حركةٌ انفعاليةٌ غاضبةٌ تجعلهم يفقدون

(1) سورة فصلت الآية رقم ٢٦ .
(2) تفسير ابن كثير ج ٤/ ١٢٤ بتصرف .
(3) سورة الحج الآية رقم ٧٢ .

السيطرة على أعضائهم وأعصابهم، ومن ثم تخرج هذه الانفعالة الغاضبة في صورة حربٍ وسطوٍ، وليس أدل على ذلك من هذا المثال الحي الذي يعرفه القريب والبعيد، حديث عبد الله ابن مسعود - رضي الله عنه - لما أتى القوم في ناديهم وهم جالسون، وجلس يقرأ هو ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ...الآيات﴾[1] وهم يحاولون صم آذانهم وقلوبهم، لكنهم ما استطاعوا، فقاموا حوله يصفقون ويصفرون ولكن دون جدوى ، يكاد التأثير يتسلل إلى قلوبهم فقاموا بعد ذلك بضربه والاعتداء عليه، وهم ما فعلوا ذلك إلا لتأثرهم بالقرآن ولنه تأثر سلبي، حيث كابروا واستكبروا عن الحق ولم يتجاوبوا مع قلوبهم وعقولهم؛ فضلوا ضلالاً بعيداً.

ثالثاً: المعاندة رغم وضوح الحق:

إن هذا العناد وهذا الاستكبار ورفضهم للحق رغم وضوحه؛ لهو من أقوى الأدلة على عمق الأثر الذي يحدثه القرآن في قلوبهم، وبدت هذه المعاندة في عدة صور حية سجلها القرآن ورسمها في قطاع من آياته المتعددة؛ ليتنبه لكل زى عقل أن القرآن أثّر على الكافرين، ومنها قال تعالى ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[2] إن الآية الكريمة ترسم لنا صورةً واقعةً، لا تقبل فلسفة ولا تحايلاً، ألا وهى ما يحدث لقلوب هؤلاء الكافرين عند ذكر كلام الله، أو ذكر الله أمامهم، تجد قلوبهم قد اشمأزت أي نفرت وأصابها الانقباض والخوف الشديد، وهذا يدل على أن القلوب تأثرت فالآية تكشف هذا السبب المخبوء في قلوبهم، وما كان لأحدٍ أن يعرفه، أو أن يفحصوا هم عنه إلا الآية رسمته واضحاً كاملاً، فالقرآن حديث من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، والآية تصف واقعة حال على عهد النبي ﷺ حيث كان المشركون يهشون ويبشون إذا ذكرت آلهتهم؛ وينقبضون وينفرون إذا ذكرت كلمة التوحيد، ولكنها تصف حالة نفسية تتكرر في شتى البيئات والأزمان، فمن الناس من تشمئز قلوبهم وتنقبض نفوسهم كلما دعوا إلى الله وحده إلها، وإلى شريعة الله

(١) سورة الرحمن الآيات من ١ إلي ٤ .

(٢) سورة الزمر الآية رقم ٤٥.

وحدها قانوناً، وإلى منهج الله وحدة نظاماً، حتى إذا ذكرت المناهج الوضعية هشوا وبشوا ورحبوا بالحديث، وفتحوا صدورهم للأخذ والرد هؤلاء بعينهم الذين يصورهم الله في هذه الآية، وهم بذاتهم في كل زمان ومكان فهم ممسوخو الفطرة، متحرفو الطبيعة، ضالون مضلون مهما تنوعت البيئات والازمنه»[1] وعلى هذا يكون تأثير القرآن نافذاً في قلوبهم لكن عنادهم يأبى ذلك ويرفضه. وقال تعالى ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾[2] هذه الآية تصور حال هؤلاء الكفار وهم يرفعون رسول الله بأعينهم يودون لو انمحي أثر القرآن من أمام أعينهم، وذلك قول الله «لما سمعوا الذكر» أى عند سماعهم القرآن، والمعروف أن العين حاسة من الحواس التي خلقها الله للإبصار والرؤية وهى تعبر عن الحالات النفسية المكبوتة داخل الكيان الانسانى، وهذا علم واسع يسمى علم الإشارات، وكذا يعرفه أهل التشريح، ولك أن تتخيل أن كل هذا كان يحدث من الكفار عند سماعهم القرآن الكريم، ومن أثره على النفوس.

قال مجاهد وابن عباس وغيرهما «ليزلقونك» أى لينفذونك بأبصارهم أي بعيونهم بأبصارهم بمعنى يحسدونك لبغضهم إياك لولا وقاية الله لك منهم، وقال ابن كثير يذكر جملة أحاديث تدل على أن العين حق بأمر الله تعالى»[3] وهنا استدل بهذه الآية على الإعجاز التأثيرى للقرآن في نفوس المشركين - والله اعلم - إنها نظرات مسمومة مليئة بالسم والحقد والبغضاء، والشتم البذيء والافتراء الذميم ومن ثم يقول الله تعالى ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[4].

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ج ٥/ ٣٧٦ مرجع سابق .

(٢)سورة القلم الآية رقم ٥١ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٤/ ٤١٢ بتصرف .

(٤) سورة يونس الآيتان رقمي ١٥ / ١٦ .

إن هذه الآية توضح مدى الحسرة التي تغمر قلوب المشركين، ومدى الضيق الذي هم فيه وذلك لأنهم قد عرفوا حقيقة مدى تأثير القرآن الكريم في نفوس قارئه وسامعه،ولذا لم يجدوا بداً من هذا التأثير والإفلات منه، اتبعوا منطق الذئب من الخيانة والغدر وقالوا كما قال الله تعالى فيهم ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ إنه منطق العجزة الذين لا يهتدون سبيلا أمام هذا الخطاب المعجزة، ولا يستطيعون حيلة أمام الحقائق الواضحة فيه.

يقول الإمام الطبري «هذا تعنت من الكفار ومن مشركى قريش الجاحدين المعرضين عن القرآن، أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحجته الواضحة قالوا ائت بقرآن غير هذا أي وهذا وجئنا بغيره من نمط آخر، أريد له إلى وضع آخر «وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ» أي لست أتقوله من عندي ولا افتريته من نفسي والدليل أنكم عاجزون عن معارضته وانتم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت فيكم»[1] ومن هنا استشعر الكفار ثقل القرآن على نفوسهم، وتضجروا فيه تضجراً ذريعاً لأنه يسيطر على النفوس، ومن ثم فإنهم قد اتخذوا أساليب شيطانية لمجابهة الرسول ﷺ منها - إضافة لما سبق.

* السخرية والاستهزاء والرمي للرسول بالجنون والقرآن سجل ذلك منه قال تعالى ﴿وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[2].

* إثارة الشبهات والشكوك في كتاب الله وفي رسول الله دون فهمٍ أو وعي من ذلك

قولهم افتراه شاعر، أضغاث أحلام، بل افتراه، يعلمه بشر، يأكل الطعام وغير ذلك مما سجله القرآن.

* انكارهم للبعث والجنة..إلخ وختاماً أقول ليس هذا كل أثر القرآن على الكفار والمشركين - ولكن ما ذكر فيه الكفاية.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢/ ٥٣٩ ، مرجع سابق.
(٢) سورة الحجر الآيتان ٦ ، ٧ .

ولكني هنا أسوق بعض الأمثلة الواقعية ممن أسلم لما سمع القرآن، والتي تؤكد علي أن قوة القرآن التأثيرية تتغلب علي أي قوة مهما كانت حتي وإن كانت قوة الكفر وإليك الأمثلة...

أ/ الدكتور جيفري لانغ[١]

«في لحظة من اللحظات الخاصة في حياتي، منّ الله بواسع علمه ورحمته عليّ، بعد أن وجد فيّ ما أكابد من العذاب والألم، وبعد أن وجد لدي الاستعداد الكبير إلى مَلء الخواء الروحي في نفسي، فأصبحت مسلماً ... قبل الإسلام لم أكن أعرف في حياتي معنى للحب، ولكنني عندما قرأت القرآن شعرت بفيض واسع من الرحمة والعطف يغمرني، وبدأت أشعر بديمومة الحب في قلبي، فالذي قادني إلى الإسلام هو محبة الله التي لاتقاوَم»[٢].

«الإسلام هو الخضوع لإرادة الله، وطريق يقود إلى ارتقاء لا حدود له، وإلى درجات لا حدود لها من السلام والطمأنينة.. إنه المحرك للقدرات الإنسانية جميعها، إنه التزام طوعي للجسد والعقل والقلب والروح».

«القرآن هذا الكتاب الكريم قد أسرني بقوة، وتملّك قلبي، وجعلني أستسلم لله، والقرآن يدفع قارئه إلى اللحظة القصوى، حيث يتبدّى للقارئ أنه يقف بمفرده أمام خالقه، وإذا ما اتخذت القرآن بجدية فإنه لا يمكنك قراءته ببساطة، فهو يحمل عليك، وكأن له حقوقاً عليك! وهو يجادلك، وينتقدك ويُخجلك ويتحداك ... لقد كنت على الطرف الآخر، وبدا واضحاً أن مُنزل القرآن كان يعرفني أكثر مما أعرف نفسي ... لقد كان القرآن يسبقني دوماً في تفكيري، وكان يخاطب تساؤلاتي ... وفي كل ليلة كنت أضع أسئلتي واعتراضاتي، ولكنني كنت أكتشف الإجابة في اليوم التالي ... لقد قابلت نفسي وجهاً لوجه في صفحات القرآن..»[٣].

---

(١) بروفسور أمريكي في الرياضيات ، أسلم ووضع كتابه (الصراع من أجل الإيمان) الذي ضمّنه قصة إسلامه، وأصدر مؤخراً كتاب (حتى الملائكة تسأل – رحلة الإسلام إلى أمريكا) (حتى الملائكة تسأل) د. جيفري لانغ ص (٢١١-٢٨٠) .

(٢) (الصراع من أجل الإيمان) ص (٣٤) .

(٣) (حتى الملائكة تسأل) د. جيفري لانغ ص (٢١١-٢٨٠).

ب / * الداعية يوسف إسلام (كات ستيفنز)[1]

كان كات ستيفنز يسبح يوماً في البحر، فأوشك على الغرق، فدعا ربه دعاء مضطر غريق: «يا رب إن أنقذتني فسوف أخدم دينك الحق» فجاءته موجة قوية حملته وقذفت به على الشاطئ، ثم حملته موجة الهداية إلى شاطئ الإسلام، وذلك بعد أن أصيب بمرض السل، فأهداه أخوه - وكان في زيارة للقدس - نسخة من معاني القرآن الكريم، فلما شرع في قراءتها تذكر عهده مع ربه، وعرف أن الدين الحق الذي خُلق ليخدمه هو الإسلام، يقول: «لما قرأت القرآن اكتشفت معنى الخلق والحياة، وأيقنت أنه ليس من كلام البشر، ووجدت التوحيد فيه يتماشى مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها، لقد شعرت كأن القرآن يخاطبني، فكلماته كانت قريبة مني مع كونها مخالفة تماماً لكل ما قرأته من قبل، لقد أجاب القرآن على تساؤلاتي، وبذلك شعرت بالسعادة، سعادة العثور على الحقيقة، لقد هزني تعريف القرآن بخالق الكون، فقد اكتشفت الإسلام عبر القرآن، وليس من أعمال المسلمين! أيها المسلمون! كونوا مسلمين حقاً حتى يتمكن الإسلام من الانتشار في العالم كله، فالإسلام هو السلام لكل العالم»[2] وإني أعلق فأقول القرآن يهز النفوس الكافرة رغم أنها أعجمية أفلا يهز القرآن المسلمين رغم عربيتهم، اللهم إني أسألك ذلك يا الله.

وبالجملة فإن الكفار قد اتخذوا أساليب معينة لمجابهة الرسول ﷺ وما أنزل عليه وهذه الأساليب قد ذكرها القرآن منها ١ - السخرية والاستهزاء والرمي بالجنون وهناك آيات كثيرة تدل علي ذلك منه ﴿وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[3].

٢ - إثارة الشبهات والشكوك في كتاب الله تعالى بتكثيف الدعايات المشوهة حول القرآن والرسول، حيث كان المشركون يقومون بطرد الناس عن السماع للقرآن، ويثيرون الشغب ويغنون ويلعبون إذا رأوا النبي يتهيؤا لتلاوة القرآن أو الصلاة، حتي أن النبي

---

(١) المغني البريطاني الشهير ، لُقب بمطرب القارتين ، وحاز على ١٧ أسطوانة ذهبية ، بعد إسلامه أنشأ مدرسة إسلامية للأطفال في لندن ، وأنشأ مؤخراً ثانوية للبنات وأخرى للبنين ، وهي الأولى من نوعها في بريطانية

(٢) (عظماء ومفكرون يعتنقون الإسلام) محمد طماشي (١٨٢) .

(٣) سورة الحجر الآية رقم ٦.

لم يتمكن من تلاوة القرآن عليهم في مجامعهم إلا في السنة الخامسة من النبوة وذلك عن طريق المفاجأة دون أن يشعروا بقصده قبل بداية التلاوة ولذا كان التأثير عليهم قويا لا يقاوم.

٣ - الغناء كان من الوسائل التي اتخذوها كثرة الغناء حيث أن النضر بن الحارث قد اشتري جارية خاصة له، وكان لا يسمع عن أحد سمع القرآن من رسول الله ﷺ إلا ويذهب إليه بقينته فيقول لها أطعميه واسقيه وغنيه ويقول هذا خير مما يدعوكم إليه محمد وهذا الشقي الذي نزل فيه قول الله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[١].

* * *

(١) سورة لقمان الآية رقم ٦.



الفصل الرابع

أثر القرآن الكريم علي غير البشر

ويشمل ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أثر القرآن الكريم علي الملائكة والجن ومظاهر ذلك.

المبحث الثاني: أثر القرآن الكريم علي الحيوان والنبات والجماد ومظاهر ذلك.

المبحث الثالث: أثر القرآن الكريم على اللغة العربية ومظاهر ذلك.

مما لا شك فيه أن القرآن الكريم كتاب هداية للخلق أجمعين، ما نراه بأعيننا وممن لا نراه، ولمَ لا يكون الأمر كذلك والله عز وجل هو الذي أنزل القرآن، والبشر وغيرهم من خلق الله تعالى، فتأثرهم بالقرآن أمرٌ وارد وليس بمستغرب، ومن ثم فإني أذكر أثر القرآن الكريم علي الملائكة مثلاً، وعلي الجن كذلك، وذلك لاعتبارين.

الأول: أنهم مجبولون علي السمع والطاعة، ومن هنا فإن تأثرهم بالقرآن محقق

الثاني: أنهم من مخلوقات الله المكلفة والتي تغيب عنا ولا نراها.

المبحث الأول: أثر القرآن على الملائكة وعلي الجن:

إن من كمال الإيمان بالله تعالى أن يؤمن المسلم بملائكة الله وكتبه ورسله وذلك كما ﷺ ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[1].

ومن المعلوم بداهة أن الملائكة بالنسبة لنا غيب لم نراه أبداً، ولكننا نؤمن به ونصدقه لأن الله أمرنا بهذا نقلاً، وأما عقلاً فشأنه شأن بقية الغيبيات فى حياتنا نؤمن بها ونقر بوجودها مع أننا لم نراها أبداً، فالمولود يولد وقد مات أبوه قبل أن يستقبل الحياة، فهو فى حقه إذن غيب، ومع ذلك يقر بوجوده ويظل يحمل اسمه طيلة حياته، وأحدنا لم ير مثلاً جبال الهملايا ومع ذلك يؤمن بها ويصدق أنها أعلى جبال العالم ومن هذا المنطلق نؤمن ونصدق بوجود الملائكة، ومن هذه النقطة إلى أخرى وهى......

أثر القرآن عليهم: مما سبق الحديث عنه عن أثر القرآن على أصناف الناس وهم «المدعوون» بكافة أصنافهم وأشكالهم، وقد تبين من خلال الحديث أن للقرآن الكريم تأثيراً عليهم إما إيجابياً كشأنه عند المؤمنين وبعض المنافقين وبعض الكافرين وبعض النصارى الذين منّ الله عليهم بالإسلام لما سمعوا القرآن ، وإما سلبياً كشأنه عند اليهود والذين كلما سمعوا آياته؛ زادهم ذلك طغياناً وكفراً فوق طغيانهم وكفرهم، ومن ثمّ عُلم

---

(١) سورة البقرة الآية رقم ٢٨٥.

أن الإعجاز التأثيرى للقرآن على الناس إما أن يدعو للإذعان والقبول، أو يؤدى إلى الرفض والإعراض، لكن هذا الأسلوب يختلف تماماً مع ملائكة الله تعالى، فالقرآن الكريم لديهم وتأثيره عليهم بطريقة القبول دائماً، فهو ذو تأثير إيجابياً على طول الخط، وذلك لعدة أسباب أهمها.

١- **طبيعتهم التي خلقهم الله عليها:** حيث خلقهم الله ﷻ من النور، وجعلهم على الخير أبداً، فهم لا يعرفون للشر طريقاً، ولا يأمرون إلا بخير، ولا يحضون على شر، ولا يشاركون فى فعله من قريبٍ أو من بعيدٍ، وعددهم لا يعلمه إلا الله تعالى، ناهيك عن طاعتهم لربهم عز وجل، فهم لا يعصون الله ما أمرهم به أبداً، وذلك كما قال الله تعالى **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾**[١].

٢- **أخلاقهم المتناهية في الجمال والتى تجل عن الوصف:** مما يجعلهم يتأثرون بالقرآن تأثراً يليق بمقام كلام الله رب العالمين. هذه الأخلاق تروى بكثرة في القرآن الكريم وفى أحاديث إمام المرسلين منها على سبيل المثال لا الحصر:

أ- الحياء: فقد كان الحياء يغلب عليهم بل كان طبعاً ملازماً لهم، ومما يدل على ذلك الحديث المروى فى السنن أن النبي ﷺ قال لعائشة - رضي الله عنها - عندما ظنت أنه خرج لإحدى نسائه فقال لها النبى ﷺ من ضمن ما قال «لقد أتانى جبريل فأخبرنى أن أستغفر لأهل البقيع، وما كان ليدخل عليك وقد وضعت ثيابك»[٢] قمة الحياء والخجل الذى لا تعرف البشرية له نظيراً أولاً مثيلاً، وحديث عثمان رضى الله عنه إذا ذكر النبى ﷺ هذا عندما دخل عليه أبو بكر وعمر وكان ﷺ ماداً قدمه أو مضجعاً ولما دخل عثمان

---

(١) سورة التحريم الآية رقم ٦.

(٢) أخرجه الإمام النسائي فى سننه، كتابه الجنائز، باب الأمر بالاستغفار للمؤمنين، جـ٤/ ٩١ برقم ٢٠٣٧، وقال الشيخ الألباني صحيح، وقد أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل الإيمان جـ١/ ٣٦٣ برقم١٥١ وقال شعيب الأرنؤط فيه محرر بن تعنب وقال عنه أبو زرعة هو ثقة، وبقية رجال الإسناد ثقات.

اعتدل رسول الله، فقالت عائشة راوية الخبر لما رأيت ذلك يا رسول الله، تريد عائشة - رضي الله عنها - تفسيراً من رسول الله ﷺ فقال **«ألا أستحى. من رجل تستحى منه الملائكة»**[1] .

فهذا يدل على أن صفة الحياء ملازمة للملائكة، مما يكون سبباً فى إيجاد التأثر بالقرآن إيجاباً على قلوبهم، دون أدنى منازع فى ذلك.

ب/ التنزه والطهارة: وأعني بذلك أنهم منزهون عن الأعراض البشرية التى تصيب الإنسان، من الجوع والعطش والأكل والشرب وقضاء الحاجة ؛ وغير ذلك من هذه المتغيرات التى تخرج الإنسان عن طهور يته ليتوضأ من جديد ، لكن الملائكة لا يصيبهم ذلك لأنهم خلقوا من نور، ولقد أخبر الرسول ﷺ عن المادة التى خلق منها الملائكة فقال «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق أدم مما وُصِفَ لكم»[2] ومن ثم فإنهم يتأذون من المكروه الذى يتأذى منه الإنسان المسلم، وهو أكل الثوم والبصل وغير ذلك مما له رائحة كريهة جداً وفى يقول الرسول ﷺ «من أكل ثوماً أو بصلاً فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»[3] لكن هذا لا يعنى أنهم أفضل من البشر كلا ولكن البشر أفضل منهم، وتحت هذا العنوان تحدث الشيخ سيد سابق وقال«والظاهر أن البشر أفضل من الملائكة كما هو واضح فى عجزهم على الإجابة على الأسماء التى عرضها الله عليهم، بينما أجاب آدم إجابةً صحيحةً، فتشرف بالعلم الذى خصه الله به وامتاز عليهم فى معرفة الأشياء وإدراكها، وكذلك في أمر الله الملائكة بالسجود لأدم مما يفيد تفضيله عليهم، فقال تعالى.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل لقمان ، جـ٤/ ١٨٦٦ برقم ٢٤١ .

(٢) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه فى صحيح كتاب الزهد والرقائق باب أحاديث متفرقة برقم ٢٩٩٦

(٣) أخرجه الإمام الأصفهانى في المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم ، جـ٢/ ١٦١ ، كتاب الصلاة ، باب إذا أقيمت الصلاة حصر العشاء يأيها يبدأ .

﴿كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1] ومن جانب آخر ترى أن طاعة الملائكة جبلية، وتركهم للمعصية لا يكلفهم عناءً؛ لأنه لا شهوة لهم فأى فضل لهم فى الطاعة وترك العصيان ، مع أن ذلك يقع منهم وقوعاً اضطرارياً كما ينبض القلب، ويجرى الدم، وتتنفس الرئتان بنى الإنسان يجاهد نفسه ويصارع الهوى، ويحارب الشيطان، ويتكلف الطاعة، ويسعى جاهداً في تكميل نفسه، وترقية روحه رغباً ورهباً...أ.ه»[2] ومما يزيد هذا تأكيداً أن الله أمر الملائكة بالسجود لأدم وهذا نص صريح فى القرآن ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

ويكفى ما ذكرته من الأسباب المعينة على تأثرهم بالقرآن ، وها أنا ذا أنتقل لموضعٍ آخر ألا وهو ذكر مظاهر تأثرهم بالقرآن، والتي هي الأخرى تجل عن العدد والحصر في نظري ولكني أذكر ما يمن الله عز وجل به من مظاهر أثر القرآن علي الملائكة:

مظاهر التأثر بالقرآن علي الملائكة :

مما هو معلوم أن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، ومن ثمّ فإن تأثرهم بالقرآن غدا أمراً ميسوراً، ومما سبق قد قدمت جانباً من طبائعهم وأخلاقهم، ومن مظاهر تأثرهم بالقرآن ما يلي..

١ - **السماع للقرآن ونزولهم عند قراءته:** ولعل هذا المظهر يعطيك دلالة قاطعة وبرهاناً صادقاً على تأثر هؤلاء الملائكة بكلام الله تعالى، فكونهم ينزلون لّما يقرأ البشر القرآن ليستمعوا إليه، لا أجد من الكلمات ما يسعفني لأعبر به عن التأثر الشديد من الملائكة بكلام الله رب العالمين، ومما يؤكد هذا حديث الشيخين عن أبى سعيد الخدرى أن أسيد بن حضير بينما هو يوم يقرأ فى مريده[3] إذا جالت[4] فرسه، فقرأ ثم جالت أخرى، فقرأ ثم

---

(١) سورة البقرة الآية رقم ٣١.

(٢) العقائد الإسلامية ، السيد سابق صـ١١١ / ١١٤ بتصرف ، طبعة دار الفكر بيروت عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

(٣) مريده: أى الحرف الذى يكون فيه؟ وهو موضع فناء البيت.

(٤) جالت: أى وثبت وقفزت.

جالت أيضاً، فقال أسيد فخشيت أن تطأ يحيى[1]، فقمت إليها، فإذا هى مثل الظُلة فوق رأسي؛ فيها مثال السرج عرجت فى الجو حتى ما أراها: فقال فغدوت إلى رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله بينما أنا البارحة في جوف الليل أقرأ في مربدي إذا جالت فرس، فقال رسول الله ﷺ اقرأ ابن حضير، فقال فقرأت، ثم جالت أيضاً فقال رسول الله اقرأ ابن حضير، فقال فقرأت أيضاً يا رسول الله ثم جالت أيضاً، فقال رسول الله إقرأ ابن حضير قال فانصرفت وكان يحيى قريباً منها فخشيت أن تطأه، فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج عرضت فى الجو حتى ما أراها فقال رسول الله ﷺ « **تلك الملائكة كانت تستمع إليك يا أسيد، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم**»[2] والملاحظ من خلال الحديث أن أثر القرآن على الملائكة عظيم فقد نزلت من السماء وصنعت مثل الظلة كأنها فى هدوء واستقرار تستمع لقراءة القرآن من أسيد وهذا الهدوء والاستقرار إنما هو من الهدوء والاستقرار الذى أصابهم عندما سمعوا آيات الله -ﷻ- تتلى، وليس هذا النزول فحسب بل إن هناك نزولاً آخر كل ليلة، وهو نزولهم لحضور صلاة الفجر وشهودهم قراءة القرآن والاستماع إليها ونزولهم عند صلاة العصر، وهذا مصداق قول النبي ﷺ « **فضل صلاة الجمع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم «وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً»**[3] ومن ثم يفهم أن الحديث فيه إشارةٌ واضحةٌ لنزول الملائكة فى الوقت الذى يستحب فيه تطويل القراءة فى الصلاة إنما صلاة الفجر، وهذا تجدهم يصلون ويستمعون للقرآن حتى انتهاء صلاة الفجر ، وبعدها يصعدون إلى الله تعالى ثم يعودون للنزول مرة أخرى عند صلاة العصر، والحديث عند البخارى ومسلم من حديث أبو هريرة «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون فى صلاة**

---

(١) يحيى: ولد أسيد.

(٢) أخرجه مسلم واللفظ له كتاب: صلاة المسافرين وقصرها ، باب نزول السكينة لقراءة القرآن جـ١ / ٥٤٨ برقم ٧٩٦.

(٣) أخرجه البخاري كتاب الجماعة والأيام ، باب فضل صلاة الفجر. جـ١/ ٢٣٢ برقم ٦٢١ وهو حديث متفق عليه.

الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين يأتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو بهم أعلم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون»[1] ومن المعلوم بداهة كذلك أن الملائكة يصلون ويستمعون لقراءة الإمام، فيتأثرون بها أيما تأثر، ولذا فهم يؤمنون مع المصلين، أعني أن يقولوا آمين بعد قراءة الإمام سورة الفاتحة ولذا يقول رسول الله «إذا قال الإمام غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين، فإن الملائكة يقولون أمين، وإن الإمام يقول آمين، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه»[2] وإني أكتفي بما ذكرته من تأثر الملائكة عند سماع القرآن من البشر ونزولهم ليستمعوا إليه، ولا يفوتني أن أذكر أن نزولهم بأمر من الله تعالى (حتى جبريل عليه السلام ينزل بأمر من الله) ودليل ذلك ما قاله رسول الله لجبريل لما انقطع عنه ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟»[3] فقال فنزلت الآية ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾[4].

٢ - **طاعتهم التامة والكاملة لله تعالى:** والملائكة مطيعون لله وخاضعون لأمره تمام الخضوع والطاعة، وهذا مظهر من مظاهر تأثرهم بالقرآن، لأنهم أول من تلقى القرآن من الله، فجبريل عليه السلام هذا يتلقى القرآن من الله أولاً ثم ينقله إلى رسول الله ﷺ، فهو من أشد الملائكة تأثراً بالقرآن ولذلك نزل قول الله تعالى ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[5] وقال أيضاً ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[6]

---

(١) أخرجه البخاري كتاب مواقيت الصلاة ، باب فضل صلاة العصر جـ١/ ٢٠٣ برقم ٥٣٠.

(٢) أخرجه البخاري كتاب التفسير الرحمن الرحيم ، باب المغضوب عليهم ولا الضالين جـ٤/ ٦٦٢٣ برقم ٤٢٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب التفسير ، باب سورة مريم ، ج ٤ / ١٧٩٠ ، برقم ٤٤٥٤ ، كذا في كتاب التوحيد من صحيح البخاري ، باب ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، ج ٦ / ٢٧١٣ ، برقم ٧٠١٧.

(٤) سورة مريم الآية رقم ٦٤.

(٥) سورة النحل الآية رقم ١٠٢.

(٦) سورة الشعراء الآيات من ١٩٣ إلي ١٩٥ .

فالملائكة يمتثلون أمر ربهم في كل شئ وسماعهم للقرآن قد أورثهم هذه الطاعة والخوف والخشية من الله تعالى ولذلك يقول الله تعالى ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[1] «إن الكون كله بما فيه ومن فيه بنواحيه وظواهره توحى بالإيمان، والخشوع والخضوع لله رب العالمين، إنه مشهد واضح لمن يفتح قلبه، ويوقظ حسنه ويتجاوب مع الكون كله والسياسة القرآنية يعبر عن خضوع الأشياء لنواميس الله بالسجود، وهو أقصى مظاهر الخضوع – ويوجه إلى حركة الظلال المضيئة- أى الراجع بعد امتداد، وهى حركة لطيفة خفية ذات دبيب في المشاعر وئيدٍ عميقٍ ، ويرسم المخلوقات داخرة أي خاضعة خاشعة، ويقيم إليها ما فى السموات والأرض، ويضيف إلى هذا المشهد الكونى.. الملائكة فإذا مشهد عجيب من الأشياء والظلال والدواب، ومعهم الملائكة فى مقام خشوع وخضوع وعبادة وسجود، إنه إذعان تام، بعيداً عن الاستكبار وعن عبادة الله ولا يخالفون عن أسره». والمنكرون المستكبرون من بني الإنسان وحدهم شواذ في هذا المقام العجيب [2].وعلى ذلك فإن أثر القرآن على الملائكة بادٍ من خلال هذه الخشية والخضوع لله تعالى؛ لاسيما وأنهم يسمعون القرآن فى الأرض وفى السماء كما سبق إيضاحه فهم الأولى بالتأثر بالقرآن الكريم، وفى النهاية يقول الله تعالى ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾[3].

أي من خشية الله، والخوف من الله ومعرفتهم بقدر الله تعالى، وقدر كلامه المنزل على رسول الله ﷺ، الذي إذا تلي وسمعته آذنهم لا يملكون أنفسهم من خشيته وهم مشفقون وجلون خائفون .

ولقد روى الإمام البخارى أن رسول الله ﷺ قال «إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعنا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم

---

(١) سورة النحل الأية رقم ٥٠ ..

(٢) فى ظلال القرآن سيد قطب جـ٤/ ٢٦١ بتصرف مرجع سابق .....

(٣) سورة ا لأنبياء الآيات من ٢٦ إلي ٢٨.

قالوا ماذا قال ربكم؟ قال الحق وهو العلي الكبير»[1].

وهذا الحديث يشي لنا بموقف الفزع الأكبر فى مشهد مهيب جليل، يوم يقف الناس لرب العالمين شفعاء ومشفوعين، ولعل الإجابة هى من قول الملائكة المقربين[2] وحملة العرش.

٣ - **التسبيح والتحميد لله والدعاء للمؤمنين:** مما أفاء الله به على ملائكته الكرام أنهم يسبحون الله تعالى مع كل أية يرد فيها تسبيح وتحميد لله، فإذا سمعوا آية فيها تسبيح سبحوا، أو فيها سجود سجدوا لله خاشعين متذللين من خشية الله تعالى قال تعالى **﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾**[3] وهذه الآية قد وردت فى نهاية سورة الأعراف، بعد أمر الله بالإنصات وبالاستماع والإصغاء عند تلاوة القرآن، والتدبر والتأثر عند الاستماع إليه، «ولهذا مدح الله الملائكة الذين يسبحون لله تعالى بالليل والنهار ولا يفترون عن عبادتهم لربهم، إما عند الاستماع أو القراءة أو الصلوات ومن ثم شُرع ها هنا السجود من البشر، كما سجدت الملائكة لربها ﷻ »[4].

وقد جاء فى الحديث **«ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها يتمون الصفوف الأول فالأول ويتراصون فى الصف»**[5] ومن ثم يعلم من من خلال الحديث مدى أثر القرآن على الملائكة فهم يسبحون بحمد الله تعالى، لا سيما إذا علمت أنهم يقفون فى الصف مصلين ويقول تعالى **﴿وَتَرَى الْمَلاَئِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾**[6] أي يقدسون ويعظمون ربهم وقال القرطبى «يصلون حول العرش شكراً لله تعالى»[7] وهم يدعون للمؤمنين حيث قال تعالى **﴿الَّذِينَ**

---

(١) أخرجه الإمام البخاري كتاب التفسير ، باب حتى إذا نزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير.جـ ٤ / ١٨٠٤ برقم ٤٥٢٢. واللفظ له.
(٢) هذا اختيار الإمامين ابن كثير والقرطبى فى تفسيرهما.
(٣) سورة الأعراف الآية رقم ٢٠٦.
(٤) تفسير ابن كثير جـ ٢/ ٣٧٣ . مرجع سابق.
(٥) أخرجه مسلم واللفظ له كتاب الصلاة، باب الأمر بالسكون فى الصلاة جـ٢ / ٣٢٢ برقم ٤٣٠ .
(٦) سورة الزمر الآية رقم ٧٥.
(٧) تفسير القرطبى جـ١٥/ ٢٥٢ مرجع سابق

يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[1].

٤- **حضورهم قراءة القرآن فى مجالس الذكر:** وهـذا الحضـور فى نظـرى حضور تأثر وتدبر لما يتلى فى هذا المجلس من الذكر والقرآن، وذلك حيث قال الرسول **«ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وخشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»**[2] ترى هذا الحف فى مجلس التدبر والتأثر للقرآن يوحى بأعظم الأثر الملائكة من القرآن وآياته البينات.

ثانياً: أثر القرآن على الجن:

إن الله ﷻ قد تحدى بالقرآن الكريم الإنس والجن مجتمعين فى قوله تعالى **﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾**[3] وقد قدمت ما قدمه الله تعالى حيث تحدثت عن الإنس بأصنافهم المؤمن منهم والكافر، وكان لا بد من الحديث على الجن باعتبارهم الشق الثانى من العالم الذى نعيش فيه وإن كنا لا نراهم، ولكن هذا لا ينفى وجودهم معنا، وتأثرهم بقرآن الله تعالى حاصلٌ ومؤكدٌ وذالك لأن الجن أصناف كالبشر تماماً منها الطائع ومنها العاصى بغير الملائكة- الذين سبق الحديث عنهم فى المبحث السابق- ومن ثم كانت هناك علاقة بين الإنس والجن من هذا القبيل فالجن من العالم الناطق الأخر المميز، كما أنهم يأكلون ويتناكحون ويتناسلون ويموتون ويقرر القرآن ذالك بقوله تعالى**﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ**

---

(١) سورة غافر الآيتان رقمي ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) أخرجه بن حبان في صحيحه ، كتاب الرقائق ، باب قراءة القرآن ، ذكر حقوق الملائكة بالقوم الذين يتلون كتاب الله تعالي –جـ ٣ / ٤٥ ، وقال شعيب الأرنؤوط – إسناده صحيح.

(٣) سورة الإسراء الآية ٨٨.

اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾[1].

وفى هذه الآية الكريمة يتضح بها لا يدع مجالاً لريب أن الجن يتناكحون ويتناسلون ويدل عليه قوله «وذريته» إذ أن المعلوم أن الذرية لا تأتى إلا من خلال التناكح ويعقبه توالد، وذلك حسب الطبيعة والخلق الذى أوجدهم الله عليها، وبما يدل على الطعام والشراب قول الرسول ﷺ عن علقمة قال قلت لابن مسعود: أن الناس يتحدثون أنك كنت مع رسول الله ﷺ ليلة الجن فقال ما صحبه منا أحد ولكنا فقدناه بمكة فطلبناه في الشعاب وفي الأودية فقلنا اغتيل استطير فبتنا بشر ليلة بات فيها قوم فلما أصبحنا رأيناه مقبلا فقلنا يا رسول الله بتنا الليلة بشر ليلة بات بها قوم فقدناك فقال إنه أتاني داعي الجن فانطلقت أقرئهم القرآن فانطلق بنا فأرانا بيوتهم ونيرانهم وسألوه الزاد فقال كل عظم لم يذكر عليه اسم الله يقع في أيديكم أوفر ما كان لحما وكل بعرة علفاً لدوابكم فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستنجى بهما وقال هما زاد إخوانكم من الجن»[2] وقوله ﷺ أيضاً «لو أن أحدهم يقول حين يأتى أهله باسم الله اللهم نجنى من الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، ثم قدر بينهما فى ذلك، أو قضى بينهما ولد لم يغره شيطان أبداً»[3] ومن خلال الحديث يعلم أن الجن يشارك الإنسان فى طعامه وشرابه وفراشه إذا لم يذكر الله تعالى على كل أحواله، وسمي الجن بذلك لاستتاره عن البشر، فهم لا يُرون.

قال تعالى ﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[4].

---

(١) سورة الكهف الآية ٥٠.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح وعلي الجن، ج ١ / ٣٣٢ برقم ٤٥٠ .

(٣) أخرجه البخارى كتاب الوضوء باب التسمية على كل حال عند الوقاع جـ١ / ٦٥ برقم ١٤١ – وأخرجه مسلم كتاب التقاح باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع برقم ١٤٣٤/ جـ٢ / ١٠٥٨.

(٤) سورة الأعراف الآية رقم ٢٧ .

مظاهر تأثر الجنّ بالقرآن الكريم:

مما سبق تقريره قد علم أننا لا نعيش في كون الله وحدنا بل إن هناك من يعيشون معنا، ولهم نمط حياة خاص بهم، وبالطبيعة التى جعلهم الله عليها، وإن كنا لا نراهم، إلا أن لهم وجود فعلى، والقاسم المشترك بيننا وبينهم أنهم فعلو مثلنا بأمور العبادات والطاعات، وأنواع القربات إلى الله تعالى ودليل ذالك قوله تعالى **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾**[1] فقد دلت هذه الآية الكريمة على أن الجن مخاطبون كالإنس، ومطلوب منهم الطاعات والعبادات لخالقهم كالإنس تماماً.

وإنى هنا أحاول إجمال تأثر الجن بالقرآن فى عدة نقاط مفعمة بالأدلة:

١ - استماعهم القرآن من رسول الله ﷺ:

إن القرآن الكريم لم يكن مؤثراً على عالم الإنس فقط، بل إن الأمر قد تعداهم إلى عالم الجن، فعندما استمعوا لقراءة القرآن من الرسول ﷺ أثر فيهم تأثيراً بليغاً حيث قال تعالى مؤكداً هذا **﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾**[2] ولما سمعوا القرآن أثر فيهم وذلك لأنهم تذوقوا حلاوته، وأدركوا روعته، وأمعنوا في أسلوبه فأدهشهم وراعهم هذا الأسلوب القرآنى بما يحوى من حقائق واضحة لديهم، علماً بأنهم لحظة سماعهم القرآن من رسول الله ﷺ لم يرهم وقت وجودهم، بل لم يحضروهم. وهذا منتهى التأثر، في هذه الآية كان أول سماع الجن للقرآن من النبى ﷺ، وعندئذٍ علمت حاله وحال النبى ﷺ أنه لم يراهم، وبعد ذلك أتاه داعيَ الجن ليدعوه للقراءة عليهم، ودعوتهم إلى الله.

وعن ابن عباس قال **«ما قراء رسول الله ولا رآهم، انطلق ﷺ في نفر من أصحابه عامدين سوق عكاظ، وقد حال بين الشيطان وخير السماء وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم ما لكم فقالوا حيل بيننا وبين خير السماء، وأرسلت علينا**

---

(١) سورة الذاريات الآية رقم ٥٦.

(٢) سورة الأحقاف رقم ٢٩.

الشهب، قالوا ما ذلك إلا لأمر حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فمر النفر الذين اخذوا تهامة بالنبي ﷺ وهو يصل بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له، وقالوا هذا الذى حال بيننا وبين خير السماء فرجعوا إلى قومهم وقالوا « يا قومنا إنا سمعنا قرآناً عجبا ومن ثم أنزل الله تعالى على النبى سورة الجن»[1] إلى هذا الحد يكون تأثر الجن بالقرآن، وحبهم الشديد ليستمعوا من رسول الله ﷺ، وتأمل أنهم مارون دون ترتيبٍ مسبقٍ، وأول ما يقرع القرآن سمعهم، يقفوا على الفور منصتين مستمعين فى خشوع لا نظير له ولا مثيل، مما يدعونا جميعاً أن نقول كما قال الله - سبحانه تعالى - ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[2].

٢ - دعوتهم لقومهم وإنذارهم بالقرآن:

إنهم عندما سمعوا القرآن من رسول الله ﷺ كان أول ما تحدثوا به هو الإنصات والخشوع التام، وذلك ليستمتعوا بهذا القرآن، وهذا قول الله تعالى ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ وفى ذلك يقول صاحب الظلال «ويظهر هذا التأثر بالقرآن لدى الجن قوته وقمته وذلك من خلال قولهم «أنصتوا» فهى تعنى الدهشة والإعجاب والحرص على أن يسمعوا كل كلمة طوال مدة الاستماع فقد استمعوا صامتين منتبهين حتى نهاية التلاوة، ومن ثم لم يلبثوا حتى سارعوا إلى قومهم منذرين بهذه السرعة فى جد واهتمام، وهذه السرعة وهذا الاهتمام دلالة واضحة على الحالة التى ملأت مشاعرهم بمؤثر قاهر غلاَّب، دفعهم إلى الحركة والدعوة إلى الإيمان بهذا القرآن الكريم»[3].

وذكر القرآن حالة التأثر هذه فى إيضاح وبيان مع وجازة فى العبارة ودلالة على المعنى المراد فقال تعالى ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

---

(١) أخرجه مسلم والفظ له من حديث بن عباس كتاب الصلاة باب الجهر بالقراءة فى الصبح والقراءة على الجين جـ١/ ٣٣١ برقم ٤٤٩ ، سوق عكاظ : موضع قرب مكة كانت تقام فيه أياماً.

(٢) سورة فصلت الآية رقم ٤٢.

(٣) فى ظلال القرآن سيد قطب جـ٥/ ١٦٨.

يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[1].

وإني أشعر بمعانٍ كثيرة تدور فى رأسى عن هذه الآية الكريمة، التى سجلها القرآن على لسان الجن، إثر سماعهم القرآن من رسول الله ﷺ حيث أشعر مدى الأثر البالغ الذى أحدثه القرآن فى قلوب الجن، مما يدفعهم إلى المغامرة بأن يعودوا لقومهم بغير المهمة التى أرسلوا من أجلها، إنهم يعودون إليهم منذرين لهم أى عبارة يمكن لي أن أعبر بها عما يجيش فى صدرى نحو هذه الآية، يصل الأمر بمجرد السماع لأول مرة أن يحدث هذا التأثير الكلى منهم بسبب سماعهم من القرآن، ومما يؤكد هذا ما قالوه مما حكاه القرآن عنهم من أوصاف وصفوا بها، وهم بهذا يؤكدون مقدار هذا التأثير الذى باشر قلوبهم.

مصدقاً لما بين يديه: فحملوا أسرار القرآن على التصديق لأنه مس شغاف قلوبهم فلم يملكوا من حسن تأثيره عليهم فكاكاً ولا هرباً، ومن ثم كان هذا التصديق الذي لا نظير له ولا مثيل، ولعل هذا التصديق لون من ألوان التأثر بالقرآن، وهو مظهر عام من مظاهر تأثرهم به.

الهداية الممثلة فى قولهم: يهدى إلى الحق إلى طريق مستقيم، وهذا يعطى دلالة قاطعة على أنهم وصلوا لدرجةٍ عليا من التقوى بسبب سماعهم القرآن؛ وذلك لأن الله قال ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾[2] وزاد التأثر القرآني في قلوبهم فدفعهم إلى أن يرجوا من قومهم أن يستمعوا لهذا القرآن وأن يطلقوا لقلوبهم وعقولهم العنان في الحكم بعد ذلك، وصاروا بالقرآن الذى سمعوه دعاةً إلى قومهم- ويا ليت الإنس يفهمون هذا - ويسجل القرآن هذا فيقول تعالى ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

---

(١) سورة الأحقاف الآيتان رقمي ٣٠، ٣١.

(٢) سورة الإسراء الآية رقم ٩.

لقد دعوا إلى الله بالحسنى وباللطف المستفاد من أَجِيبُوا بهذا الرجاء، ثم بحيثيات ذلك يغفر الله الذنوب، ويحميكم من عذاب الجحيم، وأنا بذلك أرى أنهم قد تمرسوا على الدعوة ولغة الأسلوب الوعظي، وهذا كله قد أتى من سماعهم القرآن من رسول الله ﷺ، أي تأثر هذا وأى لغة تستطيع أن تعبر بها عن هذا الجمال القرآنى فى قلوب الجن؟!! وبعد هذا ينتقلون إلى الإنذار والوعيد﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[1] بالله لا أملكُ إلا أن أقول: سبحان الذى أنزل الكتاب، وعلم القرآن، ومما تلاحظه من خلال آيات سورة الأحقاف أيضاً أنهم كانوا يعرفون بكتاب موسى فأدركوا الصلة بين الكتابين بمجرد السماع لآيات القرآن الكريم، ومن ثم أدركوا الحقائق التاريخية، وعلموا أن هذا الكتاب هو أخر الكتب ، وهو تشريع من تشريع الله وأن هذا القرآن يتضمن خلاصة التعاليم الإلهية التى تضمنها التوراة والإنجيل، وسائر ما أنزل الله به من وصايا، وأنه مؤيد للحق الذى جاء به من عبادة الله وحده، والإيمان برسله والتصديق بالجزاء، ووجوب إقامة الحق والتخلق بمكارم الأخلاق قال تعالى﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[2] أي أن الله أنزل الكتاب على النبى ﷺ مقترناً بالحق في كل ما جاء به، ومصدقاً لكل ما تقدمه الكتب الإلهية.

٣ - طلبهم من النبي ﷺ أن يسمعهم القرآن واحتكامهم إليه:

لما سمع الجن القرآن الكريم من النبي ﷺ دون ترتيب مسبق، وأحدث هذا التأثير أثراً فى قلوبهم عادوا هم يطلبون من رسول الله ﷺ أن يسمعهم القرآن، وكانوا يلجئون إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهم فيما أهمهم، وهذا لعمرى منتهى التأثر بالقرآن وآياته، ومما يدل على ذلك هذا الحديث حيث سئل بن مسعود«هل صحب النبى ﷺ ليلة الجن معكم

---

(١) سورة الأحقاف الآية رقم ٣٢.

(٢) سورة المائدة الآية رقم ٤٨.

أحد؟ قال ما صحبه منا أحد ولكنا قد افتقدناه ذات ليلة فقلنا: اغتيل أو أستطير، ماذا فعل به؟! فبتنا بشر ليلة يأت بها قوم، حتى إذا أصبحنا أو كان فى وجه الصبح، فإذا نحن به يجئ من حراء، قال فذكروا له الذى كانوا فيه، فقال أتانى داعى الجنة، فأتيتهم فقرأت عليهم، فانطلق فأرانا أثرهم وأثر أقدامهم»[1].

وهذا الحديث يدلك على مدى الاهتمام البالغ من الجن بسماع القرآن من رسول الله ﷺ وهذا الاهتمام لم يأتى فى نظرى من فراغ ، بل إنه أتى من معنىً وأثر داخلي باشر الوجدان، فجعله يستعذب آيات القرآن، ويروى ظمأه بها، وهذا من جملة الأثر الذي أحدثه فيهم، وهذا الحديث السابق عن الأثر القرآنى فى الجن كله عن الجن الطائع لأن فيه العصاه كما فى الإنس، وهذا أتحدث عنه فى النقطة القادمة، ويشهد لهذا التأثر العميق فى نفوس الجن، واستجابتهم القوية للقرآن دون تواطؤ ولا تلكؤٍ هذا الحديث **«خرج رسول الله ﷺ فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى أخرها، فسكتوا فقال النبي ﷺ لقد قرأتها على الجن ليلة الجن وهى التى دعى فيها ليقرأ عليهم القرآن، فكانوا أحسن مردوداً منكم، فما أتيت على قوله تعالى ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا:«ولا بشئ من نعمك نكذب فلك الحمد»**[2] هذا التفاعل العجيب من الجن مع آيات القرآن والنبى يتلوها تلفت الأنظار، وتدل على عمق التأثر القوى فى نفوسهم، لدرجة أنها لفتت نظر النبى ﷺ، لما قرأ السورة على الإنس لم يجد الاستجابة التى وجدها عند الجن، ومن ثم علق الرسول هذا التعليق.

مع إنه لا بد أن يوضع فى الاعتبار أن الجن كلهم ليسوا على هذه الدرجة من التأثر، هم كالإنس فيهم الطائع والعاصى، المؤمن والكافر وذلك بنص القرآن فى سورة سميت باسمهم قال تعالى **﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً**

---

(١) العقائد الإسلامية السيد سابق من ١٦٣ ، ١٦٤ بتصرف مرجع سابق.

(٢) أخرجه الترميذى فى سننه كتاب تفسير القرآن تفسير سورة الرحمن وهو من حديث جابر .... جـ٥/ ٣٩٩ برقم ٣٢٩١ وقال عنه أبوعين هذا حديث غريب إلا من حديث الوليد بن سلم عن زهير بن محمد عن جابر ، وقال الألبانى هذا حديث حسن.

يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً﴾[1] إلى آخر ما ذكره القرآن على لسانهم إلى أن وصلت الآيات إلى قوله تعالى ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللهَّ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾[2] فدلت الآيات بصريح العبارة على أن فيهم الصالحون، ومن هم دون ذلك، وذلك لأنهم لما وصلتهم دعوة الله تعالى، ووصلهم القرآن على يد بعض إخوانهم الذين سمعوا من رسول الله ﷺ من هنا انقسموا إلى فريقين، فريقٍ حسنت فطرتهم، وزكت نفوسهم، وصفت للقرآن قلوبهم، فاستجابوا وآمنوا وأذعنوا بالقرآن، وأكبوا على سمعه بحب وإخلاصٍ عميق، وفريقٍ آخر ضلت مساعيهم، وكلت عن الحقيقة بصائرهم، وعميت عن الصواب أبصارهم، وتاهوا فى الظلمات، ولم تستجب فطرتهم لهذا الهدى، فضلوا ومن ثم كانوا من الكافرين... وعن الفريقين يقول الله تعالى ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً﴾ وإنى أرى من وجهة نظرى والله أعلم أن عصاة الجن والمتمردين منهم – إنما هم من يطلق عليهم الشياطين– وذالك أخذ من قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾[3].

فقد دلت الآية على أن إبليس كان من الجن ولكنه خرج عن دائرة الطاعة فوصف بهذا الوصف، وأيما كان الحال فإنى أصف أثر القرآن على عصاه الجنة في السطور التالية :

أثر القرآن على عصاة الجن:

إن هذا الأثر مختلف عن سابقه لأنهم فى ذلك عصاة لله تعالى، فهم لا يطيقون سماع القرآن ولا الإنصات إليه أبداً ومن ثمّ كان للقرآن عليهم أثر كبير ويتجلي ذلك في أمور أهمها...

---

(١) سورة الجن الآيات من ١ إلي الآية رقم ٣ .

(٢) سورة الجن من الآية رقم ١١ إلي رقم ١٥ .

(٣) سورة الكهف الآية رقم ٥٠.

١ - النفور والإعراض عن المكان الذى يقرأ فيه القرآن:

ومن أثر القرآن الكريم على عصاه الجن أنهم ينفرون نفوراً شديداً من المكان الذى يتلى فيه كلام الله تعالى وذالك لأنهم لا يطيقون سماعه، ومن ثم حذر الرسولﷺ من خلو بيوت المسلمين من القرآن الكريم حيث قال رسول اللهﷺ **«لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، إن الشيطان ينفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة»**(١) وتلاحظ هذا النفور من جراء استماعهم للقرآن، كما كان المشركون يشوشون على قراءة النبىﷺ، أو يصموا آذانهم عن سماعه، وهذا يدلك على الأثر الذى يحدثه القرآن الكريم مهما كان سلباً أم إيجاباً، فالأول عند الكافرين واليهود من الجن والإنس و الثانى عند الموحدين والطائعين من الإنس والجن أيضاً.

٢ - لا سبيل لهم على المؤمنين:

فالقرآن الكريم يحفظ المؤمنين من همزات الشياطين وذلك لما للقرآن من تأثير قوى على الجن حيث قال تعالى **﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾**(٢).

ويقول النبىﷺ **«من قرأ الآيتين من أخر البقرة كفتاه»**(٣) ومن ثم يعلم أن أثر القرآن على المؤمنين يحفظهم من مردة الجن، ومن ثم فإن الشيطان لا يتمكن إلا من نفس الإنسان الذى أعرض عن هداية الله، وأعرض عن القرآن ومن يفعل ذلك يتمكن الشيطان منه، فالقرآن حصن حصين من الشيطان قال تعالى**﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾**(٤).

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحة واللفظ له من حديث أبو هريرة رضى الله عنه كتاب الصلاة باب استحباب صلاة النافلة فى بيته، وجوازها فى المسجد جـ١ / ٥٣٩ برقم٧٨٠.

(٢) سورة النحل من الآية ٩٨ إلى الآية ١٠٠.

(٣) أخرجه البخاري كتاب المغازى باب شهود الملائكة ... جـ٤/ ١٤٧٢ برقم ٣٧٨٦ ، وأخرجه مسلم كتاب صلاة المسافرين ورقها باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة جـ١/ ٥٥٤ برقم ٨٠٧.

(٤) سورة الزخرف الآية رقم ٣٦.

ألا فليحذر المؤمن من هذا المنزلق الخطير لأنه إذا ما وقع فيه، ظل به حتى يصل إلى الدرجة التى يستحوذ الشيطان عليه- والعياذ بالله- قال تعالى ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(١).

٣- الصد عن سبيل الله:

من المعروف أن الشيطان يفسد فى الأرض، ويمثل بها الشر ويعمل دائماً على تدمير حياة الإنسان بزحزحته عن هداية الله، وإبعاده عن منهج الحق والرشاد، لهذا حزرنا الله من كبره، فهو لنا عدو يبعدنا عن هداية الله تعالى ويحاول بكل السبل أن يسلك هذا السبيل لكى يصل إلى غرضه والله يقول ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾(٢) ألا فليحذر المسلمون منهم ومن الغواية التى يحاولون بها الصد عن القرآن وعن ذكر الله وعن الصلاة وعن كل أبواب الطاعات: هيهات لهم. ومن هنا أمر الله عند قراءة القرآن بالاستعاذة من الشيطان قال تعالى ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾(٣) فالاستعاذة بالله تعنى الإعتصام والالتجاء بالله جل شأنه من همز ونفث الشيطان المطرود من رحمة الله تعالى، وإنى أرى أننا فى أمس الحاجة فى هذا الزمان من أن نكثر من ذكر الله تعالى، ومن الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، فنتلفظ بها ليس عند قراءة القرآن فقط؛ بل عند القيام بجميع أعمالنا فى هذه الحياة الدنيا، لأنها تعنى الاعتصام بالله واللجوء إليه فى كل حال.

وقراءة المعوذتين كذلك. تؤثر فى شياطين الجن، وهى بمثابة حرز وحصن وصمام أمان للمؤمن من همزات الشيطان ، وحديث النبى ﷺ خير دليل على هذا يقول «**يا ابن عباس ألا أدلك أو ألا أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعوذون؟ قال بلى يارسول الله، قال: قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس هاتين السورتين**»(٤).

---

(١) سورة المجادلة الآية رقم ١٩.

(٢) سورة الزخرف الآية رقم ٣٧.

(٣) سورة النحل الآية رقم ٩٨.

(٤) أخرجه النسائى فى سنن من حديث بن عباس كتاب الاستعاذة جـ٨ / ٢٥١ وقال الألبانى هذا حديث صحيح.

وذكر الله تعالى بقراءة القرآن يؤثر على الجن فيجعلهم لا يستطيعون إيقاع الضرر بمن يفعل ذلك لأن الشيطان يخنس عند قراءة القرآن الكريم.

كما أن هناك أفراداً من الإنس قد تلبستهم الجن فرادوهم تعباً وإرهاقاً والله يقول ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾ [1] و بقراءة القرآن عليهم تمثلوا للشفاء والحمد لله، وذلك مما برهن على مدى تأثير القرآن على مردة الجن، وهذا أصبح حقيقة، والنبي ﷺ قد دخل على عائشة وامرأة عندها تعالجها وترقيها فقال ﷺ «عالجيها بكتاب الله» [2].

والأمر لا يحتاج إلى مزيد بيان الآن حسبي أن أذكر قوله تعالى ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً﴾ [3] ورسول الله يؤكد على أن قراءة القرآن شديد على الجن ومردته حيث يجعلهم لا يستطيعون المكث طويلاً مع القرآن وحديث أسير أبي هريرة خير دليل لما قال اتركني وسأعلمك آية هي أشد على الشيطان من وقع السيف آية الكرسي فأتى أبو هريرة للنبي وقص عليه الخبر فقال «صدقك وهو كذوب» [4].

* * *

---

(١) سورة الجن الآية رقم ٦.

(٢) أخرجه بن حيان في صحيح من حديث عائشة رضي الله عنها كتاب الرقى والتحائم ذكر الخبر المصرح بإباحة الرقية للقليل بغير كتاب الله ما لم يكن شركاً جـ١٣/ ٤٦٤ وقال شعيب الأرناؤط : رجان ثقات رجال الشيخين.

(٣) سورة الإسراء الآية رقم ٨٢.

(٤) أخرجه البخاري واللفظ من حديث أبي هريرة كتاب الوكالة باب إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً فأجازه الموكل فهو جائز جـ٢ / ٨١٢ برقم ٢١٨٧.

المبحث الثاني: أثر القرآن الكريم علي الجمادات والحيوانات والنباتات:

إن أسعد اللحظات التى تمر على المسلم هى اللحظات التى يكون فيها معايشاً للقرآن الكريم، وفى رياضه الرحب، ومما سبق الحديث عنه إتضح بيان القدرة التأثيرية للقرآن الكريم على الخلق المكلفين سواء كانوا من الجن أو الإنس، وذلك باعتبارهم مدعوين، ولكن الأمر لا يقتصر على هذا وفقط، بل إن القوة التأثيرية للقرآن تتعدى الخلق المكلف إلى غيره من باقى مخلوقات الله تعالى، من جماد وحيوان ونبات وكل مجالات الحياة....إلخ، وإذا كان لكل خلق من خلق الله لغته التى يتعامل بها ويمكن التفاهم له من خلالها، ومن ثم فإن هذه المخلوقات كلها تفهم القرآن حسب اللغة التى حباها الله بها، وحسب المعنى الذى يتبادر من خلال القرآن والإيقاع الصوتى له أثر كبير فى حدوث عملية التأثير القرآن. والآن أبدأ في البيان.

أولاً: الأثر القرآني على الجمادات:

وقبل الحديث عن هذا مباشرة لا بد من وضع معني لهذا الجماد كما هو المتبع في الأبحاث العلمية: ومن هنا أقول ما مفهوم الجماد: لغة «الجامد أي ما جمد من الماء ورجل جامد العين أى قليل الدمع،وناقة جماد أي لا لبن فيها، وسنة جماد أي لا مطر فيها، سنة جامدة لا كلأ فيها ولا عشب ولا مطر، والجماد الأرض التى لم يصيبها المطر»[1] وعلى ذلك يكون الجماد لغة ما لا ماء فيه من أى شئ كان، وذلك حسب المعنى اللغوى.

اصطلاحاً: هيئة معروفة تحدث للشئ إذا ما نزع عنه كل مقوم من مقومات الحياة، أو هي الجبال الرواسي وكل ما يندرج تحتها لا سيما أن هذا الاسم يطلق على جبل معروف بأرض الحجاز قاله ابن الجوزى فى غريب الحديث «وقيل هو الحدود بين المِلْكين واحدها جامد، وفيه ذُكر» جمدان «جبل معروف في المدينة مر عليه رسول الله ﷺ فقال «سيروا هذا جمدان سبق المفردون»[2].

---

(١) لسان العرب ابن منظور جـ٣/ ١٢٩ مادة جمد، مرجع سابق.

(٢) النهاية فى غريب الحديث والأثر ابن الأثير جـ١/ ٨٠٦ طبعة المكتبة العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ/ ١١٧٩م تحقيق طاهر أم الزاوي، محمود الطناحى.

وعلى ذلك يكون الجماد هذا ما يبس من كل شئ، ولكن الغريب الذى يدهش كيف يكون لهذا اليابس تأثر بالقرآن الكريم؟ هذا الجماد الذى عدم الحياة ويتأثر إن هذا لشئ عجاب، والله عز وجل قد أشار إلى هذه الحقيقة فى القرآن قال تعالى ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

هذه الآية تؤكد أن القرآن الكريم يهز النفوس، ويسيطر على القلوب، وهذا عين التأثر به، وكيف لا يحدث هذا والحجارة ذاتها وهى لا عقل لها تعي القرآن، ولا قلب لها لتفهم، ومع ذلك لو نزل القرآن عليها لاهتزت وخشعت، وتصدعت من خشية ربها - سبحان الله - ما هذا الأثر القوى الذى يصل إلى الجماد فيؤثر فيه.

«إنه إيقاع يتخلل القلب ويهزه، وهو يعرض أثر القرآن فى الصخر الجامد لو تنزل عليه، وهى صورة تمثل حقيقة فإن لهذا القرآن ثقلاً وسلطاناً وأثراً مزلزلاً لا يثبت له شئ يتلقاه بحقيقة واللحظات التى يكون لها الكيان الإنساني متفتحاً لتلقى شئ من حقيقة القرآن يهتز فيها إهتزازاً ويرجف ارتجافاً، ويقع فيه من التغيرات والتحولات ما تمثيله فلا عالم المادة فعل المغناطيس والكهرباء بالأجسام أو أشد»[2].

من هذا الكلام تلاحظ أن الإيقاع الشديد الذى يحدثه القرآن فى الجبال لو نزل عليها وهذا استعلاء ورفعة لقدر القرآن الكريم ، وفى هذا يقول بن كثير «يقول تعالى معظماً لأمر القرآن ومبيناً علوا قدره، وإنه ينبغي أن تخشع له القلوب، وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد، فإذا كان الجبل فى غلظته وقسا وته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه؛ لخشع وتصدع من خوف الله ﷻ فكيف يليق بكم أيها البشر أن لا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه، ولهذا قال تعالى ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل.........**» والمعنى لو أنى أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه للتصدع وخشع من ثقله، ومن خشية الله فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن

---

(١) سورة الحشر الآية رقم ٢١.

(٢) فى ظلال القرآن سيد قطب جـ٥/ ١٢٨ مرجع سابق.

أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع ثم قال تعالى «**وتلك الأمثال نضربها.......**» وهذه الآية الكريمة إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته لخشعت وتضرعت من خشية الله؟ فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم؟»[1].

والآية الكريمة في رأى توضح مواعظ القرآن الكريم، وتطرد أي عدو يمكن لك أن تستخدمه فى عدم التأثر بالقرآن، أو أن تتعلل بعدم تدبر القرآن وكأن الآية تجزم لك بهذا وتقول إذا كانت هذه الجبال خشعت من القرآن فما بالك أنت؛ وقد منحك الله وحباك عقلاً وفهماً، وآتاك رشداً وعلماً، ألست أولي بالفهم والتدبر لكلام الله تعالى؟! وهذا المثل قد يستخدمه الداعية عندما تقسو القلوب فيذكرها بالحجارة التى هى من طبيعتها القسوة والغلظة ومع ذلك لو نزل عليها القرآن لخشعت وتصدعت من خشية ربها جل جلاله، وفى هذا يقول الإمام القرطبى «على المسلم أن يتأمل مواعظ القرآن لأنه لا عذر في ترك التدبر، فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها لانقادت للموعظة، ورأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة أي متشققة من خشية الله،والخاشع الذليل، والمتصدع المتشقق وقيل خاشعة لله بما كلفه من طاعة، متصدعاً من خشية الله أن يعصيه فيعاقبه وقيل هو على وجه المثل للكافر «وتلك الأمثال نضربها للناس» أى أنه لو أنزل هذا القرآن على جبل لخشع لوعده وتصدع لوعيده وأنتم أيها المبهورون بإعجازه لا ترغبون فى وعده ولا ترهبون من وعيده»[2] والآية تحمل من مظاهر التأثر الكثير والكثير، ولعل أهم ما يبرز فيها ولا يحتاج إلى عناء وتفكير هو قوله تعالى «**خاشعاً**» إنها تعنى الخشوع والطاعة والانقياد وإظهار كمال الإيمان، وهذا كله ناتج عن الأثر الذى أحدثه القرآن لو نزل على هذه الحجارة، علماً بأن الخشوع صفة للازمة للقلب، ومع أن هذه الحجارة لا قلوب لها إلا أنها تخشع متأثرة عند سماع هذا القرآن - يا الله!!

والأعجب من ذلك أن هذا مظهرٌ من مظاهر التأثر بالقرآن على هذه الحجارة ولعل من صفتها «**التشقق والتصدع**» من شدة التأثر بالقرآن ونزوله، كأن الحجارة لم تستطيع

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٤/ ٤٣٩ بتصرف مرجع سابق.
(٢) الجامع لأحكام القرآن القرطبى جـ١٨/ ٤٠ مرجع سابق.

الصمود إزاء نزول القرآن عليها من شدة تأثرها به ولهذا أكرم الله الإنسان، فنزل عليه القرآن ولم يصيبه بشيء، ومن ثم قال القرطبي:

«إن الخطاب للرسول» أي لو أنزلنا هذا القرآن على جبل يا محمد لما ثبت وتصدع من نزوله عليه، وقد أنزلناه عليك وثبتناك له، فيكون ذلك امتناناً من الله تعالى عليه أن ثبته لما لا تثبت له الجبال ، وقيل أنه خطاب للأمة وأن الله تعالى لو أنذر بهذا القرآن الجبال لتصدعت من خشية الله، والإنسان أقل قوةً وأكثر ثباتاً فهو يقوم بحقه إن أطاع وقدر على رده إن يحصى؛ لأنه موعود بالتواب ومزجور بالعقاب»[1] وإني أؤيد ما ذهب إليه الإمام القرطبي من أن الخطاب عام للأمة كلها حيث إقامة الحجة القاطعة، ودحض أى عذر عليه أن تقدمه الأمة لتتعذر به عند تدبرها للقرآن فلن يقبل على الإطلاق، وذلك بأن الله حباهم بنعمة التثبيت عند نزول القرآن، وهى نعمة عظيمة لا تصمد عندها الجبال الشم الرواسي، وكن هذه الآية تعرض صورة المثل كأنها حية حيث لو نزل القرآن على جبل وأمره الله تعالى بالذي أمر به الإنسان، ونهاه عن الذى ظهر عند الإنسان لصدع وتشقق من خشية الله، وبنى الإنسان أحق بهذا. وبهذه الآية الكريمة يمكن لي أن أقول ما من مؤمن يقرأ القرآن بتدبرٍ وتأثرٍ وتأملٍ وتفكرٍ إلا وتصدع قلبه، مع الفارق الشديد بين التصدعين، والآية ذاتها أعتقد أنها شفاء من الصداع، فإنها لو تليت على من أصيب بالصداع لهدأ. وفى هذا يقول السيوطى «أخرج ابن مردويه وابن جرير عن ابن عباس فى قوله لو أنزلنا هذا القرآن على جبل....... قال: يقول ابن مسعود «إنها رقية الصداع»[2] وعن عبد الله بن عمر قال قرأت هذه الآية عند النبى ﷺ فقال **«ضع يدك على رأسى فإن جبريل لما نزل بها إلى قال لى: ضع يدك على رأسك فإنها شفاء من كل داء إلا السأم والموت»**[3].

والواجب على الدعاة إلى الله أن يستخدموا هذا المثل وغيره للوصول إلى البغية من

---

(١) المرجع نفسه جـ١٨/ ٤٠ .
(٢) الدار المنثور فى التفسير بالمأثور السيوطى جـ٨ / ١٢١ دار الفكر بيروت ١٩٩٣.
(٣) المرجع نفسه جـ٨/ ١٢٤ مرجع سابق.

إنزال القرآن، ألا وهى التدبر والتأمل والاتعاظ، وهذا التدبر يأتي لكل الناس مؤمنهم وكافرهم مع فارق درجة التأثر وكيفية التأثر كما سبق بيانه فعند المؤمن موجبة وعند الكافر واليهود أحياناً سالبة..!!

والله عز وجل يقول فى آية أخرى ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل للهِّ الأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهّ إِنَّ اللهّ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (١). ومما يدل علي عظيم تأثر الجماد للأمر أنه يسبح بحمد الله تعالى وهذا التأثر منهم واضحٌ في القرآن الكريم منه قوله تعالى ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٢) فالجبل يسبح مع داود عليه السلام تأثراً بتسبيح داود وهذا التسبيح كلام الله تعالى إذ ذكره الله في القرآن كثيراً منه

﴿فَسُبْحَانَ اللهِّ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ وليس هذا فحسب بل قد سبح الحصى في يد الرسول ﷺ وسمعه وأسمعه لبعض الصحابة، وهناك أيضاً اضطراب جبل أحد فقال النبي «اثبت أحد فما عليك إلا نبي وصديق وشهيدان» وأفه من الحديث أن سكون الجبل وهدوئه لأن علي ظهره رسول الله يحمل القرآن في قلبه، وهذا سر سكون الجبل . والله أعلم

وهذه الآية توضح قمة الإعجاز التأثيرى على الجبال من جماد وأرض، وفى آية الحشر كان افتراض نزول القرآن على الجبال، وهنا كذلك، فى آية الحشر كان شأن التأثر خشوع وخضوع وتصدع، وهنا يزداد الأمر حيث لو نزل القرآن على الجبال لسيرت الجبال عن أماكنها، وقطعت به الأرض، وفى ذلك يقول ابن كثير «لو كان فى الكتب الماضية كتابٌ سُيرت به الجبال عن أماكنها أو تقطع به الأرض وتنشق أو تكلم به الموتى فى قبورهم ؛

(١) الرعد الآية رقم ٣١.

(٢) سورة الأنبياء الأية رقم ٧٩ .

لكان هذا القرآن هو المنصف بذلك دون غيره أو بطريقة الأولى أن يكون كذلك لما فيه من الإعجاز التأثيرى الذى لا يستطيع الإنسان والجن على أخرهم إن اجتمعوا أن يأتوا بمثله ولا بسورة من مثله، «أفلم ييأس الذين آمنوا» أى من إيمان جميع الخلق ويعلموا ويتبينوا قوله تعالى «أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً» فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجح فى القبول والنفوس من هذا القرآن الذى لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، وثبت فى الصحيح أن رسول الله قال﴾ ما من نبي إلا وقد أوتى ما أمن على قبله البشر وإمنا كان الذى أوتيت وحياً أوحاه الله إلى فأرجوا أن أكون أكثرهم نفعاً يوم القيامة»[1].

وهنا أن معجزة كل نبي انقرضت موته وهذا القرآن حجة باقية على الآباد لا تقضى عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، والعجيب أن المشركين قالوا لمحمد ﷺ لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها أو قطعت لنا الأرض كما قال سليمان يقطع لقومه بالريح فنزلت الآية»[2]

وإني أفهم من هذه الآية أن سبب نزولها يعطى ملخصاً هاماً ألا وهو أن المشركين عندما طلبوا من الرسول أن يسير الجبال ذهباً، ويقطع لهم الأرض فأنزل الله سبحانه هذه الآية ليؤكد قسوة قلوبهم حيث لو أن القرآن نزل على الجماد؛ من جبالٍ وأرضٍ لخشع وتصدع من خشية الله ولو رأوا ذلك أمام أعينهم لما أمنوا فهم قد اقترحوا على رسول الله ﷺ هذا تعجيزاً في نظرهم ولكن لو فصل ذلك حسب زعمهم وطلبهم لكفروا، ومثله قوله تعالى ﴿وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ﴾[3] وعلى ذلك فإن أثر القرآن تجلى على الجبال والجماد وحسب ما طلبوا، ولكنهم عن ذلك معرضون، وعن هذا التدبر والاتعاظ مبتعدون، وهذا منتهى القسوة مع القرآن، وفى هذا

---

(١) أخرجه الشيخان واللفظ للبخارى جـ٤/ ١٩٠٥ كتاب فضائل القرآن باب كيفية نزول الوحى وأول ما نزل – ومسلم فى كتاب الإيمان باب وجود الايمان برسالة نبينا محمد ﷺ.

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢/ ٦٧٨ مرجع سابق بتصريف.

(٣) سورة الأنعام الآية رقم ٨ .

يقول الشوكاني «إن جماعة من الكفار سألوا من رسول الله أن يسير لهم جبال مكة حتى تنفسح فيها أرض طيعة فأمره الله عليه تعالى بأن يجيب عليهم الجواب المتضمن لتعظيم شأن القرآن وفساد رأى الكفار حيث لم يكتفوا به وأصروا على تعنتهم وطلبهم ما لو فعله الله سبحانه لم يبق ما تقتضيه الحكمة الإلهية من عدم إنزال الآيات التى يؤمن عندها جميع العباد، ومعنى سيرت به الجبال: أى بإنزاله وقراءته فسارت عن محال استقرارها «أو قطعت به الأرض» أى قطعت حتى صارت قطعاً متفرقة «أو كلم به الموتى» أى صاروا أحياء بقراءته عليهم فكانوا يفقهونه عند تكلمهم به كما يفقه الأحياء، وجواب لو هو لكان هذا القرآن، والجواب أيضاً لكفروا بالرحمن»[1].

ومما يدل علي عظيم تأثر الجماد بالقرآن ما ذكره الله في سورة هود ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فهذه الآية توضح عظمة تأثر الجماد بالقرآن إن مبدأ العظمة وسر الروعة في الآية أن نوديت الأرض ولم يقتصر الأمر علي النداء فحسب بل ضُم إليه الأمر «ابلعي» وأضاف الماء إلي الأرض، وكذا فعل مع السماء فلو أن كتاباً زحزحت به الجبال عن مكانها ومستقرها ، وتصدعت به الأرض فصارت عليه أنهاراً وعيوناً لكان هذا القرآن لأنه الغاية في الإعجاز بل النهاية في التذكير والإنذار فيا ليت الأمة تدبره وتتأثر كما تتأثر الجبال..

أثر القرآن على الحيوانات:

الحيوانات من مخلوقات الله تعالى التى أودعها فى الكون وذلك لخدمة الإنسان، فهي مسخرة ومذللة له بأمر من الله تعالى، حيث قال تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2] وكل هذه المخلوقات مسخرة بأمر من الله تعالى وهى فى ذات الوقت تسبح بحمد الله ولا تفتر عن ذلك أبداً مصداقاً لقول الله تعالى ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ

---

(١) فتح القدير الإمام الشوكانى جـ٣/ ١١٩ بتصرف.

(٢) سورة الجاثية الآية رقم ١٣.

بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾[1] وإني لا أستطيع أن أغفل هذا الجانب وهو أثر القرآن على الحيوانات، وذلك لسبب مهم وهو أن القرآن الكريم نزل على العرب ويخاطبهم حسب بيئتهم البدوية التى كانت تعرف الناقة والخيل والبغال والطير والغنم وغيرها من هذه المخلوقات التى تلفت الأنظار إلى قدرة الباري في خلقها وتكوينها وبديع صنع الله فيها، بل لم يقتصر الأمر على هذا الحد بل تجاوره إلى أن سميت سور في القرآن بأسماء بعض هذه الحيوانات كالأنعام والنحل والنمل وغير ذلك، ومن ثم كان لا بد من ذكر أثر القرآن على الحيوانات.

مفهوم الحيوان: لغة «الفعل حيا: الحياة نقيض الموت»[2] وهذا اللفظ يعنى في القرآن عندما يقرن بالدار مثل«وإن الدار الآخرة لهى الحيوان» أي لها الحياة الدائمة.

اصطلاحاً: المعنى الإصطلاحى الذى أقصده هنا هو ذات القوائم الأربع الذى يسير على الأرض أو يطير فى الهواء أو فى السماء مع اختلاف فى بعض الأشكال والألوان «الجسم النامي الحساس المتحرك بالإرادة»[3].

ومن هنا نعلم أن هذا اللفظ ورد كثيراً فى القرآن الكريم على اختلاف فى المعنى، وإنما ما أعنيه هنا هو الحيوان بالمعنى الحقيقي الذي خلق على قوائم أربع، أو أجنحة وأعجمي لا بين وغير ذلك من هذه المفارقات، وذلك أن تتعجب لما تعلم أن هذه المخلوقات تتأثر بالقرآن الكريم، ولا عجب إذا كان الجماد وتأثر الحيوان...... ولعل تساؤلاً يطرح نفسه هذه الحيوانات أعجمية لا تفهم شيئاً بل هي مسخرة لنا ومذللة وفقط؟ ولكني أقول هذا خطأ هي مسخرة لنا نعم، ومذللة نعم ولكنها تتأثر بالقرآن وتستجيب حسب الطبيعة التى جعلها الله عليها قال تعالى ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[4].

---

(١) سورة الإسراء الآية رقم.

(٢) لسان العرب ابن منظور جـ١٤/ ٢١١ مادة حيا مرجع سابق.

(٣) التعريفات الجرجاني جـ١/ ١٢٧ باب الحاء مرجع سابق.

(٤) سورة الأنعام الآية رقم ٣٨.

هذه الآية تؤكد أن هذه الحيوانات تتأثر بالقرآن، وذلك لأنها تشارك الإنس فى بعض الخصائص التى لا يعلمها إلا الله تعالى، يقول القرطبى في قول اله تعالى «**إلا أمم أمثالكم** «أي هم جماعات مثلكم فى أن الله ﷻ خلقهم وتكفل بأرزاقهم وعدل عليهم فلا ينبغي أن تظلموهم ولا تجاوزوا فيهم ما أمرتم به، ودابة تقع علي كل ما يدب على وجه الأرض وخص بالذكر ما فى الأرض دون ما في السماء؛ لأنه الذي يعرفونه ويعانونه وقيل هي أمثال لنا فى التسبيح والدلالة، والمعنى وما من دابة فى الأرض ولا طائر إلا وهو يسبح الله تعالى، ويدل على وحدانيته، وقيل إنهم مثلنا فى المعرفة، وإنها تحشر وتنعم فى الجنة، وتعوض عن الآلام التي حملت بها فى الدنيا»[١] وبهذا المعنى قال معظم المفسرين القدامى منهم والمحدثين - ومن الحدثين ما قاله صاحب الظلال «إنه ما من دابة تدب على الأرض وهذا يشمل كل الأحياء من حشرات وهوام وزواحف وفقاريات، وما من طائر يطير بجناحيه فى الهواء وهو يشمل كل طائر من طير..... وغير ذلك من الكائنات الطائرة ما من خلق حي فى هذه الأرض كلها إلا وهو ينتظم فى أمة ذات خصائص واحدة وذات طريقة فى الحياة واحدة كذلك شأنها فى هذا شأن أمة الناس ما ترك الله شيئاً من خلقه بدون تدبير يشمله وعلم يحصيه، وفى النهاية تحشر الخلائق إلى ربها فيقضى بأمره من يشاء»[٢] ومن ثم يفهم أن هذه الحيوانات تتأثر بالقرآن بالطريقة التى حياهم الله عليها، فهم حسب طبيعتهم التكوينية وصدق الله «**هذا خلق الله**» وإني أذكر بعضاً من هذا التأثر مستعيناً بآيات القرآن، ومصطحباً حديث الرسول فى إبراز هذا الأثر العام.

مظاهر التأثر بالقرآن لدى الحيوان:

من مظاهر التأثر بالقرآن لدى الحيوان ما يسمى بالهداية والإرشاد.

أ - الهداية والإرشاد: وهذا تلحظه بوضوح فى قوله تعالى﴿**وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ**

---

(١) الجامع لأحكام القرآن القرطبى جـ٦/ ٣٨٤ مرجع سابق.

(٢) فى ظلال القرآن جـ٢/ ٣٨٤ مرجع سابق.

﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾[1] وتأمل الآية بعين فاحصة وبصيرة واعية فإنك تجد أن الله يقول «وأوحى ربك» إنه الإلهام يقول ابن كثير «المراد بالوحي هنا الإلهام والهداية والإرشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها ومن الشجر ومما يعرشون، ثم هي محكمة في غاية الإتقان فى تسديها ووصفها بحيث لا يكون فى بيتها خلل ثم أذن لها تعالى إذناً قدرياً تسخيراً أن تأكل من كل الثمرات وأن تسلك الطرق التى جعلها الله تعالى مذللة لها أى ممهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة والأودية والجبال الشاهقة ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمينه أو يساره بل إلى بيتها وما لها فيه من فراغ وعسل فتبنى الشمع من أجنحتها وتقي العسل من فيها وتبيض الفراخ من فيها ثم تصبح إلى مراعيها»[2] من الذي جعلها هكذا إنه الله الذى أنزل القرآن وقال فيه ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[3] والذي يعطيك روعة وإندهاشاً كأن هذا الحيوان، يفهم ويعقل الخطأ ولذا أوحى الله إليه، ألست معى فى أن من يلهمه الله أمره وهو من غير العقلاء فيكون عند الأمر لا يتعداه؟

ب - **الامتثال والخضوع**: إنه من أهم مظاهر التأثر الواضح جوها من الآية من مثل الكلمات التالية- اتخذي- كلى- وغيرها، وكأن هذا الأمر من الله على سبيل الوجوب، النحل بطبيعته لم يناقش ولم يحاول بل إنه يتمثل الأمر ويخضع لأمر الله تعالى، وهذا منتهى التأثر بالقرآن الكريم فهو لم يعد نقاشاً وهو فى ذات الوقت لم يبد اعتراضاً ولا امتعاضاً، إنه تسليم كامل وخضوع لا يقبل شكاً ولا ارتياباً، إنها رغم أعجميتها تمتثل لأمر ربها، وتستجيب لنداء الحق، فلا تحيد عنه قيد أنملة واحدة ومن ثم فإنك ترى أن هذا الامتثال يظهر عن أثر القرآن عليهم.

ج - **التنفيذ الفوري بحب واختيار**: إنك إذا ما تأملت حياة الحيوان نجد أن هذا الامتثال لم يكن مجرد شعار وفقط بل هو تنفيذ عملي فمثلاً النحل لما أمره الله بالأكل من

---

(١) سورة النحل الآية رقم ٦٨.
(٢) تفسير ابن كثير جـ٢/ ٧٥٩ مرجع سابق.
(٣) سورة طه الآية رقم ٥٠ .

كل الثمرات نفذ ذلك دون أدنى هوادة، وكذلك لما قال «إسلكى» فعلت ذلك ونفذته تنفيذاً عملياً، وبنظرة علمية على عالم النحل تعلم أن كل ما سبق ذكره حقيقة لا يساورها شك ولا ريب. «ولقد امتاز هذا الحيوان بخصائص عجيبة دالة على مزيد من الذكاء والكياسة وكل هذا على سبيل الإلهام جاء فى حق البشر قول الله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [(١)] .

وقال «وأوحينا إلى أم موسى» وقال «وأوحى ربك إلى النحل» وكل واحد من هذه الأقسام معنى يخصه»[(٢)] وذكر هذا الأمر إتخذى من الجبال بيوتاً أخذ منه البعض أن هذه الحيوانات لا يبتعد أن يكون لها عقول، ولكن أقول إنها تحمل خصائص وطباع للبشر، حيث إن هذه الغرائز والطباع مجهولة عليها. ومن ثم يفهم كيف أن النحل يسمع النداء والقرآن فيتمثل ويتأثر، ويترجم هذا فى صور مختلفة فيها الاستجابة والتنفيذ، والإمتثال والخضوع والخشوع وكلمة الخشوع هى الأخرى أثراً من أثار تأثر الحيوان بالقرآن مكن على الطبيعة التى جعلهم الله تعالى عليها.

د - ضرب المثل بالحيوان للاعتبار: وهذا واضح في قول الله تعالى بشأن الجراد ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ * خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ * مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [(٣)] المتأمل في الآية الكريمة والخاصة بالجراد والذي ضرب به المثل ليوم البعث وذلك لنقرب الصورة فى الأذهان ، والاستدلال بالآية أن هذا الانتشار مظهر من مظاهر التأثر بالقرآن عند الحيوان، وإن كانت هذه طبيعة إلا أن الله جعلهم على هذا للعظة والاعتبار، ومن ثم يقول العلماء واخص بالذكر علماء البيان، إن التمثيل هو القالب الذى يبرز المعاني في صورة حسية تستقر فى الأذهان، بتشبيه الغائب بالحاضر والمعقول بالمجهول، إلى غير ذلك،

---

(١) سورة الشورى الآية رقم ٥٢ .

(٢) تفسير مفاتيح الغيب ، أو التفسير الكبير .الفخر الرازى ج.

(٣) سورة القمر الآيتان ٦/ ٧.

ولكن الأهم هنا هو ضرب المثل بالجراد وذلك للتأكيد على أن يوم البعث يوم شديد، وهو شابه تماماً لهذا الانتشار الجرادى الذي ذكره الله فى آية القمر.

ومن ذلك قول الله تعالى فى سورة الحج ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[1] وهذه الآية توضح ملمحاً مهماً جداً الافتقار الدائم إلى الله تعالى فلا يظن أحد من الخلق أنه وصل إلى حد الاستغناء عن الله، كلا، وإنما المثل الذى ضرب الله بالذباب، يوضح افتقار العباد وضعفهم ومن ثم فهم دائماً محتاجون إلى الله تعالى.

ر -الشكر من الحيوانات لله تعالى: والاعتراف بفضله، والدعاء الدائم له سبحانه أن يتم عليهم النعمة وأن يدخلهم جنات النعيم، وهذا يبدو واضحاً فى سورة سميت بأسماء الحيوانات وهي النمل حيث قال تعالى ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[2] والآيتان إذا ما تأملها الإنسان علم كيف حافظت النملة على أخواتها رغم القحط الذى أصابهم، ومن ثم لا يجدون ملاذاً إلا الله تعالى أن يسقيهم المطر واستجاب الله تعالى، وكان دعائها هذا بمثابة الأثر العظيم الذى وقع فى قلب نبي الله سليمان، ومن ثم دعا سيدنا سليمان ربه شاكراً على نعمه الجليلة، يقول ابن عساكر عن سعيد عن الحسن «إن اسم النملة هو جرس وأنها من قبيلة يقال لها بنو الشيصان وأنها كانت عرجاء، وكانت بقدر الذئب أي خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها فسمعوا قولها واستجابوا، وعن أبى صديق الناجي قال خرج سليمان بن داود عليهما السلام يستسقى فإذا هو بنملة مستلقية على ظهرها رافعة قوامها إلى السماء وهى تقول «اللهم إنا خلق من خلقك ولا غنى بنا عن سقياك إلا تسقنا تهلكنا

(١) سورة الحج الآية رقم ٧٣.
(٢) سورة النمل الآية رقم ١٨/ ١٩.

فقال سليمان ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم»[1].

ومن هنا يعلم مدى أثر القرآن على النمل بدرجة دعائها الله تعالى أن يسقى الناس فيستجيب، ولكن الذى أضفى عليه هذا الزمن العجب العجاب وهو أن كلامها ودعائها الله قد أثر فى نبي من أنبياء الله تعالى يسر الله له لغة الحيوانات، ومن شدة تأثره دعا وراء دعائها شاكراً ربه على نعمته هذه ولعل هذا التسبيح والتحميد لله تعالى من هذه الحيوانات على الدوام لا ينقطع لحظة واحدة ذلك قوله تعالى﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾[2] وأفهم من هذه الآية أن الله فى خطابه للبشر العقلاء عدد ضروب اللغة من لفظ التسبيح يأتى به اسم مصدر سبحان، وأتى به مصدر تسبيح، وجاء بصيغة الماضي سبح، والمضارع يسبح، والأمر سبح، هذا للعقلاء أما عند الحيوانات فالأمر مختلف، ولعل السبب فى ذلك والله أعلم أن البشر قد يغفلون عن تسبيح الله تعالى فنوع الله لهم هذا التسبيح، أما الحيوانات مخاطبها بفعل الاستمرارية «المضارع» وكأنهم لا ينقطعون عن تسبيح الله تعالى أبدا ليلاً أو نهاراً، فسبحان خالق الأكوان... والله أعلم.

والدليل على ذلك من السنة أن أبا هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ **«قرصت نملة نبياً من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله تعالى إليه أفى أن قرصتك نملة أهلكت أمة تسبح بحمد الله تعالى، فهلا نملة ذا....»**[3] ومن هنا تأخذ الحيوانات منزلة بسبب تسبيحهم لله تعالى، والمدهش فى هذا الجانب أن النملة لما قالت **«لا يحطمنكم»** لكنها استدركت فقالت **«وهم لا يشعرون»** قال أبو إسحاق الثعلبي «ورأيت فى بعض الكتب أن سليمان قال لها ضررت النمل، أخفت ظلمي، أما علمت أني نبي عدل، فلم قلت يحطمنكم» فقالت النملة أما سمعت قولي **«وهم لا يشعرون»** مع أنى لم أرد حطم

(١) تفسير ابن كثير جـ٣/ ٤٧٦ بتصريف كيد.

(٢) سورة الإسراء الآية رقم ٤٤.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ ج ٢ / ٤٠٢، برقم ٩٢١٨، وقال عنه شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح، وكذا أخرجه أبو يعلي في مسنده مسند أبي هريرة ﷺ ج ١٠ / ٤١٩، برقم ٦٠٢٨، وقال حسين سليم أسد : إسناده صحيح.

النفوس وإنما أردت حطم القلوب خشية أن يتمنين مثل ما أعطيت أو يفتتن بالدنيا ويشتغلن بالنظر إلى ملكك عن التسبيح والذكر فقال لها سليمان: عظيني فقالت النملة: أما علمت لم سمي أبوك داود قال: لا قالت لأنه داوى جراحة فؤاده، هل علمت لم سمي سليمان بهذا الاسم؟ قال لا؟ قالت لأنه سليم الناحية على ما أوتيته بسلامة صدرك وإن لك أن تلحق بأبيك قم ثم قالت أتدرى لما سخر الله لك الرياح؟ قال لا قالت أخبرك أن الدنيا كلها رياح فيبتسم متعجباً من قولها ثم مضت مسرعة إلى قومها فقالت هل عندكم من شئ نهديه إلى نبي الله؟ قالوا وما قدر ما تهدى له!! والله ما عندنا إلا نبقة واحدة قالت أتوني بها فأتوها بها فحملتها بفمها فانطلقت تجرها فأمرها الله واصف ثم وضعت تلك النبقة بين يديه فقال لها بارك الله فيك فهم بهذه الدعوة أشكر خلق الله، وأكثر خلق الله»[1]

و - من الحيوانات من يكون داعية إلى الله:

يغار على الإيمان بالله وعلى إسلام الوجه لله تعالى، ومن ثم تلمح هذا واضحاً جلياً فى سورة النمل فى فقة الهدهد حيث يقول تعالى ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[2].

والمتأمل فى الآيات الكريمة تأملاً جيداً يجد نفسه أمام حقيقة لا يمكن إنكارها أو البعد عنها ألا وهى أثر القرآن عظيم على كل شئ فى الوجود وحتى الحيوانات فهذا الهدهد يرى قوماً يسجدون للشمس من دون الله فغير وجهه، وينزعج لهذا الأمر الخطير، وكأن هذا الموقف الذى اكتشفه من عبادة هؤلاء القوم للشمس من دون الله، يستحق منه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن الكريم القرطبى جـ١٣/ ١٥٣ بتصرف كبير مرجع سلبق.

(٢) سورة النمل الآيات من رقم ٢٠ إلي ٢٦ .

أن يتخلف عن موكب سليمان عليه السلام وذلك لأنه أمر ينفى العقيدة والإيمان بالله تعالى، ولذلك لما وقف عند سيدنا سليمان وخاطبه عليه السلام كان رد الهدهد كما قال الله تعالى «أحطت بما لم تحط به» إنها كلمات فى متنها القوة، وعزة المتكلم يوم أن يقف الجند أمام القائد ليعلموه أنهم علموا العالم ويعلمه، ولعل السر وراء قوة هذا الهدهد، إنه تغير من أجل الله، كيف تعبد الشمس من دون الله؟!! ومن ثم كانت هذه الجراءة التى لا مثيل لها «وأنت ترى أن نبى الله سليمان فى موكبه الضخم الفخم، ها هوا ذا يتفقد الطير فلا يجد الهدهد، ونفهم من هذا أنه هدهد فما هى معين فى نويته فى هذا العرض، وليس هدهداً من تلك الألوف الملايين التى تحويها الأرض من أمة الهداهد، كما تدرك من افتقاد سليمان لهذا الهدهد سمة من سمات شخصيته، سمة اليقظة والدقة والحزم، فهو لم يغفل عن غيبة جندى من هذا الحشر الضخم من الجن والإنس والطير الذى جمع أخره على أوله، لا يتفرق ونتيكث، ولما حضر الهدهد وهو يعرف حزم الملك وشدته فقد بدأ حديثة بمفاجأة تطفىء موضوع غيبته، وتضمن إصغاء الملك له فأى ملك لا يستمع وأحد رعاياه يقول له أحطت بما لم تحط به، فإذا ضمن إصغاء الملك بعد هذه المفاجأة أخذ فى تفصيل النبأ اليقين الذى جاء به من سبأ، وهى عبادة الشمس من دون الله»[1].

وكأن الهدهد هذا فهم أن السجود لا يكون إلا لله، لا يكون لكوكب ولا نجم من خلق الله أبداً، وهذا منتهى التأثر بقوله تعالى﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا للهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[2] ومن ثم تأثر بهذه الآية وأصبح داعية ولعل قوله تعالى «ألا يسجدوا لله» دليل على هذا ولذا قال الإمام بن كثير«لما كان الهدهد داعياً إلى الله تعالى وداعياً إلى الخير وعبادة الله وحده لا شريك له وأن السجود لا يكون إلا له نهى النبى ﷺ عن قتله»[3] وما زاد الهدهد منزلة أن سليمان عليه السلام بعثه بكتاب بلقيس يدعوها فيه إلى عبادة الله وحده، وذهب الهدهد وألقاه إليها فى أدب جم، فهذه الدواب كلها وغيرها كثير تأثرت بآى القرآن الكريم، ألا

---

(١) فى ظلال القرآن سيد قطب جـ٥/ ١٣٨. مرجع سابق.
(٢) سورة فصلت الآية رقم ٣٠.
(٣)تفسير ابن كثير ج٣ / ٣٧٤ مرجع سابق.

بحق للعشير العقلاء أن يعوا هذا فيتأثروا بكتاب الله،- تعليم الإنسان ما لم يعلمه كبشر فيتعلمه من حيوان وهذا معنى قوله تعالى﴿فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾[1] والنفس ليست بخافية على أحد ولا تحتاج إلى كثير بيان كل ذلك ليعلم أن هذه الحيوانات تتأثر بالقرآن وقطيع أوامر الله تعالى فى كل ما يأمرها بها وصنع من الذى أتقن كل شئ.

أثر القرآن على النبات:

على غرار ما سبق ذكره من الحديث عن تأثير القرآن على الجماد فهناك تأثيره أيضا على النبات وهذا معلوم لا يشك فيه أحد، ولكن هذه المرة سيكون الكلام بحثاً بالطريقة الميدانية، حيث تجرى التجارب على النباتات ، ولتعلم أن النباتات عالم قائم بذاته، وما زال العلماء وسيظلون يجتهدون في دراسته ويقطعون فيه أشواطاً شاسعة من البحث والتنقيب، وقد قسم العلماء النبات إلى عدة أقسام مختلفة بالنسبة لصناعتها التشريحية، أو التناسلية، أو النبتية. «وتنبت النباتات عموماً من بذرة تتوافر لها ظروف خاصة أهمها : حيوية الأجنة منها لتحافظ البذرة على حيويتها لفترة طويلة تتغير فى ذاتها دليلاً لتدل على وجود الله، فقد أمكن استنبات حبات قمح وجدت في قبور الفراعنة، فكل بذرة تنبت في درجة حرارة معينة، والهواء الضروري للنبات، وهو كائن حي يعيش ويحيى ويتنفس بل ويحس فيحزن ويسعد، فلقد أجريت تجارب على نباتات وضعت في مركبات الفضاء وبأجهزة القياس أوضحت التسجيلات صدمات عصبية أصابت النباتات وبدأ عليها الاضطراب، وما أن عادت إلى الأرض حتى عاد إليها الهدوء والاستقرار، وهل غير الله الذي وهب لها هذه الحياة فسبحان الله رب العالمين»[2].

وهذا النبات فيه من آيات الله ما فيه تكوين الغذاء وهو ما يعرف بعملية التحليل الضوئي ويقرر العلماء أن هذه العملية هي أصعب وأعجب عملية تقوم بها الحياة ولا

---

(١) سورة المائدة الآية رقم ٣١ .

(٢) الله والعلم الحديث د/ عبد الرازق نوفل ص٣٨ دار الفكر بيروت.

يمكن لأي تركيبات أو أجهزة أن تقوم بمثل ما تقوم به ورقة خضراء في أي نبات، وفى عام ١٧٧٩ اكتشف العلماء أن النبات يتنفس كالإنسان والحيوان فيأخذ ثاني أكسيد الكربون ويطرد الأكسوجين، ويصحب ذلك التنفس ارتفاع في درجات الحرارة، ويتم التنفس بالليل والنهار، ولقد هيئ الله تعالى النبات بما يتفق مع بيئته التي يعيش فيها مما لا يمكن لغير الله أن يصنعه، فكل نبات له بيئة معروفة، تختلف عن البيئة الأخرى وصدق الله ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾[1].

وإني أقوم بتقرير هذه الحقائق كلها عن النبات وذلك بهدف استنتاج ما يلى:

١- أن النبات يحس ويشعر كما يشعر الإنسان وإن كان ذلك بالطريقة الخاصة به كعالم نبات وهذه مالا يعرفه إلا الله سبحانه وتعالى.

٢- أن النبات يتأثر كما يتأثر الأحياء من البشر والحيوان، ومن ثم فإنها تتأثر بالقرآن الكريم عن طريق الإحساس السابقة ذكره.

٣- أن يعلم الإنسان قدرة الله في هذا الكون الفسيح من إنسان وجماد وحيوان ونبات وغير ذلك وهذا قمة التأثير فى القرآن الكريم

وصدق الله إذ يقول ﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2].

وللنبات أنواعه المتعددة منها المائي، ومنها الصحراوي ومنها النباتات المتسلقة أى ضعيفة الساق، ليس فى مقدورها أن تستقيم بنفسها، ومن حكمة الخالق أنه وجد لها أدوات تسلق، وهناك النباتات أكلة الحشرات ومن نعمة الله وقدرته على النبات أن يسر له

---

(١) سورة الواقعة الآيات من رقم ٦٣ إلي ٦٥ .
(٢) الأنعام الآية رقم ٩٩.

الاحتفاظ بنوعه على الطريقة التي هيئها الله تعالى له، وإنها في نظري لآياتٍ بيناتٍ زودت بها النباتات لتحفظ حياتها من الضياع، ومن النباتات من يعمر طويلاً، فمنه من يعمر أياماً وشهوراً وسنيناً وقروناً وغير ذلك ، ولعل أطول عمر لشجرة هي من نوع يسمى» تكو ديوم «ويبلغ عمرها ستة آلاف عام، وتاريخ النبات فى الأرض ورد في تقرير علمي فى أول فبراير عام ١٩٥٦ ، أن البروفسور «روبر تسون » العالم النباتي المشهور، اكتشف في أعمال المسح الحيوي الذي قامت به شركة هنتج للأراضي الأردنية، قطعة متحجرة لغصن شجرة قديمة، موجودة فى أراضى اللواء الجيوجي وأنه بعد تحليلها في معامل باريس العلمية اتضح أن عمر هذه الشجرة يقدر بنحو ١١٥ مليون سنة وقد أبدى العلماء إهتماماً بهذه الظاهرة التي قد تلقى أضواء على تقدير عمر الكون، وعلى تاريخ تسلسل الكائنات الحية، ومدى الفارق بين كل كائن ونبات وحيوان وإنسان..فسبحان الله الموجود قبل الوجود(١)!!! وصدق الله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٢) ومن الأمور المهمة التي لابد من تقريرها في هذا الشأن هو وجود عملية التزاوج في النباتات، وهذا من حكم الله البالغة التي لا يجد المسلم أمامها من بدٍ إلا التأثر بكلام الله تعالى وذلك حيث يقول سبحانه ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٣).

والمتأمل بتدبرٍ وتأثرٍ في الآيات يلحظ أن القرآن قد أشار إلى حقيقة علمية لم يعرفها العلم الحديث إلا مؤخراً في عام ١٧٢٩م وهى أنه لا يتفق نبات من نوع واحد في صفتها كل الاتفاق، وإن الله جعل من كل الثمرات زوجين اثنين، ولولا هذا ما كان هناك إخصاب ولا ثمار والآية الثانية توضح عملية البيئة النباتية فتقرر أن في الأرض قطعاً متجاورات وجنات

(١) انظر كتاب الله والعلم الحديث د/ عبد الرازق نوفل ص٥٩ مرجع سابق
(٢) سورة الشعراء الآية ٧.
(٣) سورة الرعد الآيتان ٣/ ٤.

وزروع كلها تروى بماء واحد، علماً بأن هناك تفضيل في الطعم والمذاق»[1].

وكل ما سبق يؤكد لك بما لا يدع مجالاً للشك أن النبات يتأثر بالقرآن لأن الإحساس فيه موجود، والشعور موجود ومما يؤكد بالدراسة العلمية على تأكيد تأثر النبات بالقرآن ما قام به أحد الباحثين العرب «باحث عربي - لم يذكر اسمه- عرف بإنتاجه العلمي الغزير على المستويين العربي والدولي، وهو أستاذ جامعي له وزنه واختصاصه في علم فزلجة النبات، وقد اشتهر بتجاربه العلمية الرائدة، فمن تجاربه ما له مساس بموضوع البحث» أنه في عام١٩٩٧م نصب أربعة بيوت عميقة في حديقة كلية العلوم في جامعته، وزرع فيها قمحاً من نوع معين، هذه البيوت الأربع موجودة بحجمها، ملأها نوعاً ما وكماً من التراب الزراعي، وغرس فيها نوعاً موحداً من بذور الحنطة على عمقٍ واحدٍ، وتم تسميدها جميعاً بكميات متساوية من سمادٍ معين، وسمي اسمه وسقيت جميعاً بذات العدد من السقيات، وبكميات متساوية من الماء، ثم اختار إحدى طالباته لتقرأ على بيت من هذه البيوت القرآن الكريم، وكان ما قرأت به الفتاة من القرآن الكريم هو سورة الفاتحة - وسورة يس- وآية الكرسي وكان ذلك مرتين في الأسبوع ولمدة أربعة أشهر، والبيت الثاني: كلف طالبة أن تأتى بنبات وتمزقه وأن تقطع أوصاله، وأن تسمعه كلمات قاسية وذلك مرتان في الأسبوع ولمدة أربعة أشهر، وفى البيت الثالث كلف طالبة ثالثة بضرب النبات وكيه وتعريض وريقاته للتمزيق والقص مرتين في الأسبوع لمدة أربعة أشهر. والبيت الرابع: تركه لينموا نمواً طبيعياً وهو ما أطلق عليه البيت الضابط.

فنحن الآن إزاء أربعة بيوت بيت من النبات تلي عليه القرآن، وآخر عذب نباته، وآخر تلقى نباته التعذيب، ورابع ترك دون شئ.

وكانت النتيجة أكثر من مذهلة لا تكاد تصدق:

لوحظ أن نبات البيت الأول الذي تلي عليه القرآن الكريم قد أذاد طوله أربعة وأربعين بالمائة عن نبات البيت الرابع، البيت النباتي الضابط ازدادت غلته بنسبة مائه

(١) الإعجاز النباتي في القرآن الكريم د/ نظمى خليل أبو العطا ص٢١٨ مكتبة النور القاهرة بدون تاريخ.

وأربعين بالمئة عن الغلة في البيت الرابع.

أما البيت الثاني والثالث: فقد تدنى طول نباته خمسة وثلاثين بالمئة نقصاً ونزل إنتاجه إلى ثمانين بالمئة نقصاً أيضاً»[1].

ومن خلال هذا البحث العلمي يتتج أن النباتات كباقي مخلوقات الله تشعر وتحس وتسمع وتستجيب إما سلبياً وإما إيجابياً وذلك لما حولها من مؤثرات خارجية ولا شك أن القرآن له تأثير قوى على النبات، وصدق الله تعالى ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾[2] وهذا السجود مظهر من مظاهر التأثر بالقرآن الكريم. ولعل هذا التأثر الذي يتمثل في السجود ليس هو المظهر الوحيد بل هناك من المظاهر الأخرى كثيرة مثل البكاء والأنين وهذه حقيقة علمية أثبتها العلم الحديث وأقرها حيث يقول أحد علماء النبات، في هذا الشأن «الحقيقة العلمية تثبت أن النبات يدمع مظاهرة الادماع «GUTTATION» في عالم النبات الزهري وللدموع قنوات دمعية وأجهزة خاصة بها تسمى بالأجهزة الدمعية «HYDATHODES» تفتح إلى الخارج بالثغر المائي«WATERSTOME» وقد ثبت أن نبات القلقاس الهندي « NYMPEEPOLIA/ COLOCACICA» عريض الأوراق يدمع فى الليلة ١ ..سم مكعب من الدموع المحلة بالأملاح والأحماض الأمنية»[3] ولعل هذا الكلام يكون مستغرباً من الوهلة الأولى، ولكن هذا الاستغراب سرعان ما يزول إذا ما علمت أن جذع النخلة بكى وأن لما انتقل منه رسول الله حيث كان يخطب ويقرأ القرآن عليه ومن ثم كان دائم التأثر بهذا الذكر والنبع الفياض ولما انتقل رسول الله من عليه إلى المنبر سمع النبي بكائه وأنينه وليس هذا فحسب فهناك الشجرة التى أرادت أن تسلم على رسول الله وقو قائم وهناك الكثير والكثير من ذلك مما يؤكد وجود التأثر لدى النبات والحيوان والجماد فتبارك منزل القرآن الذي خلق فسوي وقدر فهدى. ومما صدر حديثاً تلك الدراسة التي أجراها.

---

(١) انظر الشبكة الدولية والموقع هو. WWW.NABULS ٢.COM/ TEXT/ELFRIDAY/IZAI/FRIDAY.٥٥

(٢) سورة الرحمن الآية رقم ٦.

(٣) انظر إعجاز النبات فى القرآن د نظمى خليل أبوالعطا ص١٢٧ مرجع سابق ، وانظر النبات العام أحمد مجاهد وأخرون ص٨٢٠ مكتبة ألنجلوا المصرية بدون.

المبحث الثالث: أثر القرآن الكريم على اللغة العربية

من المعلوم لكل ذي عقل أن القرآن نزل بلغة العرب، التي كانوا يتحدثون بها، ولما كان العرب أرباب الفصاحة وفرسان البيان، فقد نزل القرآن بما يفوق هذه الدرجة من البيان والبلاغة، فهو أعظم كتاب وأعجز بلاغة، وإن شئت فقل هو أسمى رائعة خالدة، بل أسمى الروائع خلوداً، وها أنا ذا أكتب النذر اليسير من البلاغة الكتاب العزيز، على اللغة العربية، وكيف أثر فيها؟ وما حدود هذا التأثير؟

ومن الواضح من خلال بحثي وقراءتي عن آثار القرآن تنبن لي أن إعجازه التأثيرى لم يقف عند حد معين، بل اخترق كل الحدود ليصل إلى القلوب، واخترق كل الحدود ليصل إلى المعاني والألفاظ والبلاغة والبيان ومن المعلوم أن أثر القرآن على اللغة إنما هو أثر على الناس بطريق غير مباشر، ومن المعروف أن الناس ينجذبون إلى سحر الألفاظ وسلاسة العبارات، وجودة التراكيب وهكذا وقديما قالوا خير الألفاظ ما طرب منه السامع، وأنس به الجليس، ولذيذ الألفاظ مغناطيس. على أن تتخيل أن هذا في كلام البشر، فما بالكم بكلام رب البشر - سبحانه وتعالى - القرآن الكريم معجز بنظم أسلوبه، وبجرس ألفاظه، وأصوات كلماته. ولكن العجيب أننا قد فقدنا هذه السليقة والحاسة الدقيقة لتحسس هذا النوع من الإعجاز، ولم نعد نتحسسها كما أحس بها الوليد بن المغيرة عندما سمع القرآن الكريم من النبي صلى الله عليه وسلم أول مرة وإني أحاول جاهداً إبراز أثر القرآن في اللغة العربية في عدة نقاط رئيسة وهامة هي كالأتي:

أولاً: الحفاظ على اللغة العربية من الضياع والذوبان فى زمن صراع الحضارات:

من المعلوم - في نظري - أن الحديث عن أثر القرآن في اللغة العربية إنما هو حديث الشيء عن نفسه وذاته، وأعنى بهذا الاصطلاح أن القرآن عربي المبني وتصحيح المعنى والدلالة واللفظ ومن ثم فقد اختار الله- سبحانه وتعالى - له أفصح اللغات وأرقاها سمواً فى اللفظ والمعنى قال تعالى ﴿حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ

تَعْقِلُونَ﴾[1] إن القرآن الكريم قد اجتمع فيه جزالة اللفظ وحسن المعني وأعني بهذا أن اللفظ جذاب والمهني أشد منه استيلاءً وانجذاباً للقلب، وذلك لأنه أفصح الكلام وأبلغه، وكيف لا والكلام عزيز من عزيز وهو الله ﷻ ولما كان القرآن بلسان العرب، وكان العرب أول من تلقاه عن رسول الله ﷺ وظهر عجزهم واضحاً في تحديه، وإن كانت مفرداته من مفرداتهم، وكلماته من حروفهم،وقد أعجزتهم مزايا ظهرت في نظمه وخصائص صادفوها في سياق لفظه وذلك لأنه من الله.

قال تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَتنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[2] وقال تعالى ﴿قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[3] ومن خلال الدراسات حول تاريخ اللغة العربية تبين أنها أقدم اللغات على الإطلاق حسب ما أوضحته كتب التاريخ اللغوي كما أوضحت بعض الدراسات الحديثة أنها هي ذات اللغة التي علم الله بها آدم الأسماء كلها، كما أنها لغة أهل الجنة كما جاء ذكره في حديث النبى ﷺ قال «أحب العرب لثلاث: لأني عربي والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي»[4] ومن ثم فان الإمام الثعالبي في فقه اللغة يعبر عن ذلك تعبيراً دقيقاً، وكأنه يشرح هذا الحديث إذ قال «من أحب الله تعالى أحب رسوله محمداً، ومن أحب الرسول محمداً أحب العرب ومن أحب العرب أحب العربية، ومن أحب العربية عنى بها وثابر عليها، وصرف همته إليها، ومن هداه الله للإسلام وشرح صدره للإيمان، وآتاه حسن سريرة فيه، واعتقد أن محمداً خير الرسل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والالسنة، والإقبال عليها وتفهمها من الدين، إذا هي أداه العلم، ومفتاح الثقة في الدين، وسب إصلاح العاصين والمعاد،ولو لم يكن في الاحاطة بخصائصها، والوقف على مجاريها ومصارفها والبحر في جلائلها ودقتها إلا قوة اليقين في معرفة إعجاز القرآن، وزيادة

---

(١) سورة الزخرف الآية رقم ٣.

(٢) سورة الشعراء الآية رقم ١٩٥.

(٣) سورة الزمر الآية رقم ٢٨.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك كتاب معرفة الصحابة رضوان الله عليهم باب فضل كافة العرب ج ٤/ ٩٧ برقم ٦٩٩٩ قال الحاكم حديث صحيح ،وعلق عليه الإمام الذهبى في التلخيص فقال أظن الحديث موضوعا.

البصيرة في النبوة التي هي عمدة الإيمان، لكفى بها فضلا بحسن أثرة، ويطيبني الدارين ثمره»[1] كلمات من الإمام الثعالبي تنبئ عن عمق اللغة العربية وحبه للقرآن، ولمن نزل عليه وبهذا كله أضفى الله على اللغة العربية نوراً وجلالاً بنزول القران الكريم بها، فقد تقدست اللغة، وكتب لها الخلود الادبى والسرمدي إلى يوم القيامة، حتى وما بعدها حيث حفظ الله القرآن فقال ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[2].

وبحفظ الله عز وجل للقرآن حفظ اللغة العربية من الضياع، أو من أن تذوب في لغات وثقافات أخرى، ومن ثم فاللغة العربية باقية ببقاء القرآن الكريم، ولقد حازت شرفاً ومنزلةً رفيعةً، إذ نزل القرآن بها، وبلسان العرب الخلقي، ولعل هذا هو سر بقاء اللغة العربية وعدم اندثارها، والحفاظ عليها من التيه والضياع، ذلك كله بسبب القرآن الكريم بما كان له من بالغ الأثر في حياة الأمة العربية،وتحويلها من أمةٍ تائهةٍ إلى أمةٍ عزيزةِ الشأن مرهوبة الجانب، قوية بتمسكها بهذا الكتاب العزيز الذي صقل نفوسهم وهذب من طبعهم، وطهر العقول من دنس الوثنية رجس الشرك، وعفن الجاهلية المنتنة، ومن هنا غدا القرآن يؤلف بين قلوبهم بعد تفرقهم، ويجمعهم على حكمه واحدة

لقد نزع القرآن من بين العرب الظلم والاستبداد والاستكبار،ونزع من قلوبهم الإحن والضغائن والأحقاد فقد كان القرآن الكريم ولا يزال الطود الشامخ يتحدى كل المؤثرات ، والمؤثرات التي حيكت وتحاك عند لغة القرآن، يدافع عنها ويزود عن حياضها؟ يقرع أسماعهم صباح مساء ليل نهار، فلما كان القرآن الكريم بهذه المنزلة لا جرم أن المسلمين أقبلوا عليه ودافعوا عنه،واعتبروا أن كل عدوان على القرآن هو عدوان علي اللغة العربية وإن النيل من اللغة العربية هو نيل من القرآن لذلك فإن بقاء اللغة العربية إلي اليوم والي ما شاء الله راجع إلى الدفاع عن القران، لأن الدفاع عنه - لكونه أصل الدين ومستقى العقيدة - يستتبع الدفاع عنها لأنها السبيل إلى فهمه بل لأنها السبيل إلى الإيمان بان الإسلام دين الله، وان القرآن من عند الله لا من صنع احد»[3] ومن يتأمل بوضوح

---

(١) فقه اللغة وسر العربية الإمام الثعالبي ص١/ ٢ بتصرف طبعة القاهرة ١٩٣٨م.

(٢) سورة الحجر الآية رقم ٩.

(٣) موقع على الشبكة الدولية «شبكة صوت العرب» بحوث حول القرآن د/ محمود يوسف الشوربجي.

وتمعن في التاريخ يرى أن كثيراً من اللغات اندثرت باندثار أهلها إلا اللغة العربية فإنها باقية ببقاء القرآن الكريم، ولذلك فأين اللغة الفينيقية.....إلخ وإن هذا الأمر يبدوا واضحاً للعيان لمن يتتبع اللغات وما تعرضت له من انقسام وانشطار واندثار بعد أن كانت لغة عالمية محكمة وصناعية وليست اللغة اللاتينية عنا ببعيدة، فقد كانت لغة وحضارة وسطو وقوة فبقيت أثراً بعد عين، وعلى العكس من ذلك فان اللغة العربية لم تكن لها هذه القوة وهذه المتعة، ليست لغة حضارة وصناعة، إنما كانت لغة صحراوية، بكل ما تفرضه بيئة الصحراء من بساطة وطبيعة عيش، وبعد عن العلوم والمعارف ثم إن العرب قد تعرضوا للحروب والدمار كغيرهم، ولكن مازالت لغتهم قوية ساطعة تنبض بالحيوية والنشاط، وما ذلك إلا بفضل القرآن الكريم، الذي تكفل الله بحفظه، ومن ثم حفظ به اللغة التى نزلت به، ولم يتكفل بحفظ غيره من الكتب المقدسة فبادت اللغة التي نزلت فيها واندثرت [1] زد علي ذلك ما بالقرآن من البلاغة الراقية في المستوى والأداء «يجب أن يعلم أن القرآن في الدرجة العالية من البلاغة التي لم يعهد مثلها في تراكيبهم وتظاهرت عنها درجات بلاغتهم، وهي عبارة عن التعبير باللفظ المعجب عن المعني المناسب للمقام بلا زيادة ولا نقصان مع الدلالة، كما أن القرآن روعي فيه الصدق والتنزه عن الكذب، وهذا ما لم يكن عند بلغاء العرب من الرواد والشعراء ، بل كان أحسن الشعر أكذبه، وكلما صدق شاعر انحط شعره، ولكن القرآن جاء فصيحاً مع التنزه عن الكذب والمجازفة» [2] وكان هذا من أيباب حفظ اللغة العربية ولهذا كله بقيت مصونة من الضياع رغم اللغة العامية التي انتشرت فيها؟ إلا أن اللغة العربية لازالت وستظل تحتفظ برقيها وجمالها، مادام للقرآن الكريم بقاء، وهذا فضل الله.

ثانياً: الرقى بها نحو الجمال:

لقد ظلت اللغة العربية تحتفظ بجمالها وبريقها وذلك بفضل القرآن الكريم إذ هو بذات اللسان، وجنس البيان، ومن ثم فقد أثرى اللغة العربية فى ألفاظها ومعانيها، ووسع

---

(١) المرجع على الموقع نفسه بالانترنت.

(٢) إظار الحق رحمت الله الهندي ج ٣ / ٣٢ بتصرف دار الجيل بيروت بدون.

دائرة الألفاظ وطرائف البلاغة والبيان بها، وأعطاها جمالاً يضاف إلى جمالها، بل إن شئت فقل إنها لا تكتسب الجمال إلا من القرآن، فعذوبة اللفظ ورقة المعنى، وصفاء البلاغة، وحسن البيان كل ذلك من القرآن، وهذا مما لم يتوافر لأي لغةٍ كانت غير اللغة العربية لغة القرآن الكريم، فالبريق اللامع للغة العربية الذي تزهو فخراً وإعجاباً هو القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين، ناهيك عن الوجوه اللغوية التي أضافها فى القرآن الكريم الى اللغة، ولم يكن للعرب بها معرفة من قبل، ويقول الرافعى «إن الوجوه اللغوية التي ابتدعها القرآن في الكلام فصارت من بعده نهج الالسنه والأقلام»[1] ولست أوافق على كلمه ابتدعها فإني اعترض عليها لأنها تشتمل علي معنى لا يليق بمقام القرآن، ولكنني استبدلها بقولي أضافها «ويعلق بعد ذلك على أن القرآن رفع اللغة العربية مكاناً عليا، وبوأها مكانةً مرموقةً في سماء الدنيا بتمامها، وكيف لا ورب العالمين هو الذي انزل القرآن يقول الرافعى «نزل القرآن بهذه اللغة على نمط يعجز قليلة وكثيرة معاً: فكان أشبه شيء بالنور في جملة نسقه، إذ النور جملةً واحدةً، إنما يتجزأ باعتبار لا يخرجه من طبيعته، وهو في كل جزء من أجزائه وفى أجزائه جملة لا يعارض بشيء إلا إذا خلقت سماء غبر السماء وبدلت الأرض غير الأرض، وإنما كان ذلك لأنه صفى اللغة من أكدارها، وأجراها في ظاهرها على بواطن أسرارها، فجاء بها في ماء الجمال أملاً في السحاب وفى طراءة[2] الخلق أجمل من الشباب ثم هو بما تناول من المعاني الدقيقة التي أبرزها في جلال الإعجاز، وصورها بالحقيقة وانطقها بالمجاز، وما ركبها من المطاوعة في تقليب الأساليب، وتحول التراكيب إلى التراكيب، وقد أظهرها مظهراً لا يقضي العجب منه، لأنه جلاها على التاريخ كله لا على جبل العرب بخاصته، ولهذا بهتوا لها حتي لم يتبينوا أكانوا يسمعون بها صوت الحاضر أم صوت المستقبل أم صوت الخلود، وهذا معنى ليس أظهر منه في إعجاز القرآن، فإن اللغة لا تشب عن أطوار أهلها حتى كانت من غرائزهم، وإنما تكون على مقدارهم ضعفاً وقوة ، لأنها صورتهم المتكلمة، وهم صورتها المفكرة، فهي ألفاظ معانيها وهم في

---

(١) تاريخ آداب العرب الرافعى ج ٢/ ٧٤ دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الرابعة بدون.

(٢) طراءة أي دار الإيمان.

الحقيقة معاني ألفاظها»[1] ومن هنا يتبين لكل ذي لب وعقل أن القرآن الكريم منح اللغة العربية قوة ورقياً ما كانت لتصل إليه لولا القرآن الكريم بما وهبها الله من المعاني الفياضة، والألفاظ البراقة التي تصلح لكل زمان ومكان، والتراكيب الجديدة التي لم يصلح للعرب معرفة بها من قبل والأساليب الراقية والرفيعة المستوى ومن هنا تحدث اللغة العربية محط أنظار العالم كله، وأصبح الاقتباس منها مناط الفخر والاعتزاز، ومن ثم فاضت اللغة العربية تتألق وتتباهى على غيرها من اللغات، وذلك بما جازت عليه من محاسن الجمال وانواع الكمال، كل ذلك بفضل القرآن الكريم، ومن خلال ما سبق تبين أنه «لولا القرآن الكريم وأسراره البيانية ما اجتمع العرب على لغته، ولو لم يجتمعوا لتبدلت لغاتهم بالاختلاط الذي وقع ولو لم يكن منه بد حتى تنتقض الفطرة وتختل الطباع، ثم يكون مصير هذه اللغات إلى العفاء لا محالة، إذ لا يخلفهم عليها إلا من أشد منهم اختلاطاً وأكثر فساداً»[2].

هذا بعض ما عبر به الإمام الرافعي عن اثر القرآن في اللغة العربية وليس هذا فحسب بل شهد بهذا الأعداء قبل الأهل والأصحاب، وأنى ذاكر جانباً من أقوال المستشرقين بهذا فهذا «ارتست رينان» يقول «من أعزب ما وقع في تاريخ البشر، وصعب حل سره، بانتشار اللغة العربية، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة باديء ذى بدء فبدأت فجأة في غاية الكمال، سلاسة وأي سلاسة، غنية وأي غنى، كاملة بحيث لم يدخل عليها إلى يومنا هذا أي تعديل مهم، فليس لها طفولة ولا شيخوخة، ظهرت لأول أمرها تامة مستحكمة ومن أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القومية، وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحارى عند أمة من الرجل، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها، وحسن نظام مبانيها، وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم، ومن يوم علمت ظهرت لتأتى حلل الكمال لدرجة أنها لم تتغير أي تغير يذكره، حتى إنه لم يعرف لها في كل

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية الرافعى تحقيق عبد الله المنشاوى ص ٦٢ / ٦٣ يتعرف دار الايمان المنصورة الطبقة الاولى ١٤١٧ه/ ١٩٩٧م.

(٢) المرجع نفسه ص ٦٧ يتعرف.

أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة ولا تكاد تعلم من شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تبارى»[1] وهذا كلام يبين لك عن سر خطير وأكيد في رقى اللغة العربية وبقائها هكذا، حتى إنها لتصل قمم الكمال والجمال، كل هذا بسبب القرآن الكريم الذي حفظها بحفظ الله تعالى للقرآن، وأنها باقية ما بقى القرآن المجيد، ومما يزيد هذا الأمر وضوحاً ما يلي ويقول «جورج سار نوت» ولغة القرآن على اعتبار أنها لغة العرب كانت بهذا التجديد كاملة وقد وهبها الرسول ﷺ مرونة جعلتها قادرة على أن تدون الوحي الالهى أحسن تدوين يجمع دقائق معانية ولغاته، وأن يعبر عنه بعبارات عليها طلاوة وفيها مكانة، وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية إلى مقام المثل الأعلى فى التعبير عن المقاصد»[2] ويقول «بروكلمان» «بفضل القرآن الكريم بلغت اللغة العربية من الاتساع مدى لا تكاد معرفة أى لغة أخرى من لغات الدنيا، والمسلمون جميعاً مؤمنون بهذا، وبهذا اكتسبت اللغة العربية منذ زمن طويل رفيعة فاقت كل لغات العالم الاخرى»[3] ولا يظن أحد أنى أبقى من وراء ذكرى لهؤلاء وأقوالهم، أنى محتاج لأقوالهم حتى أدلل على تأثير القرآن فى اللغة، لا ولكني أردت من وراء ذلك أن أوضح أن الفضل كل الفضل ما شهدت به الأعداء، وهذا هو قصدي.

ثالثاً: جعل اللغة العربية لغة عالمية:

لا جرم أن يعلم أن العرب قديماً - وقبل نزول القرآن - لم يكن لها شأن يذكر، ولم تكن لهم قائمة وسط العالم، أو موقع مميز من الأمم، ومما لا شك فيه أن اللغة صورة مبادأة لحياة الناطقين بها، ومن ثم فليس للعرب ولغتهم أى مزية حتى يقبل العالم على تعلم لغتهم، فليست هذه اللغة لغة علم ومعرفة، ولا حضارة، كل هذا وغيره جعل اللغة العربية تضيع وتتقوقع داخل جزيرة العرب وظل الحال هكذا، حتى انفجر ينبوع الخير

---

(١) اللغة العربية بين حماتها وخصومها ا/ أنور الجندى ص ٢٥ وما بعدها طبعة الرسالة بيروت الطبقة الاولى.

(٢) لغة القرآن الكريم د / عبد الجليل بن الرحيم ص ٥٨٥، ٥٨٦ طبعة الرسالة الحديثة عمان الطبعة الاولى ١٩٨١م.

(٣) تاريخ الأدب العربي كارل بر وكمان ج ١/ ٢٣، ٢٤ دار الفكر بيروت.

ونزل القرآن أن يحمل أسمى وأغلى ما تعرف البشرية من مبادىء وتعاليم، وأقبل العالم إلى تعلم اللغة العربية. «ومما لاشك فيه أن أول ما يجب على من يدخل الإسلام تعلم اللغة العربية لإقامة دينه، وصحة عبادته فأقبل الناس أفواجاً على تعلم اللغة العربية لغة القرآن الكريم ولولا القرآن الكريم لم يكن للغة العربية هذا الانتشار وهذه الشهرة»[1] وهذا أمر من الوضوح بمكان لا يحتاج إلى كثرة تدليل وذلك لأن التغير عن هذا على أرض الواقع مشاهد بالعين، لا يضل شكاً ولا ارتياباً. «وقد اتسع انتشار اللغة جداً حتى تغلغلت في الهند والصين وأفغانستان وحسبنا شاهداً على ذلك ما بكلمه من مشاهير العلماء من تلك البلاد مثل البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه وغيرهم كثير»[2] وهنا أحتاج إلى كلام الشيخ الباكورى حيث يقول «إن اللغة العربية ما كانت تطمع في أن يتعدى سلطانها جزيرتها فتضرب الذلة على لغات نمت في أحضان الحضارة، وترعرعت بين سمع المدينة وبصرها، وتتأثر دونها بالمكان الأسمى، في جمالك ما كان العربي يحلم بها، فضلاً عن أن يكون السيد المتعرف فيها، ولكن القرآن انتزعها فى أحضان الصحراء وأتاح لها ملكاً فسيح الأرجاء، تأخذ منه الألفاظ ومعانيها وأغراضها وأسلوبها، فبعد أن كانت ثروتها فى حدود بيئتها أصبحت غنية فى كل فنون الحياة فأقبل الناس عليها مدفوعين إلى معرفة أحكام الدين»[3] فالقرآن وحد العرب جميعاً علي هذه اللغة ومن ثم ذاع صيتها، وهذا علي غير العادة، إذ من المعلوم أن العرب كانت لهم لهجات شتي ومتعددة وهذه الكثرة كانت أحياناً ما تفرق ولا تجمع حتي علي مستوى القبيلة الواحدة وهذا مشهور، وعندما نزل القرآن بالعربية وحّد العرب لغةً ووجهةً وغايةً، وهذا فضل الله ﷻ علي العرب والعربية.ولأثر القرآن فى اللغة العربية كتب لها السعة والانتشار فى كل بقاع الارض، وذلك رغم التحديات الكثيرة التى تمر بهل اللغة العربية، الا أنها انتشرت بانتشار الاسلام، ودخول الناس فى دين الله افواجا، ومن ثم اتجه المسلمون من غير العرب الى تعلم اللغة العربية رغبة فى اداء العبادات والشعائر الدينية بها، وقراءة القرآن بالعربية، لأن

---

(١) اثر القرآن فى اللغة التحديات المعاصرة د/ محمد يوسف الشوربجى ص ٢٥ من موقع صوت العربية.

(٢) القرآن الكريم والدراسات الادبية د/ حسن عنتر ص ٣٥٩ جامعة دمشق ١٩٩٢م.

(٣) أثر القرآن فى اللغة العربية ا/ أحمد حسن الباقورى ص ٤٩ دار المعارف القاهرة الطبقة الأولى ١٩٦٩م.

قراءة القرآن الكريم تعبد لله تعالى. وبالتالى انتشرت اللغة العربية انتشاراً ماكان ليتحقق لها بدون القرآن الكريم، ونقلت اللغة العربية بفضل القرآن من طور البداوة إلي طور الحضارة، ورفع شأنها بين اللغات الأخري ومن هنا كان لها هذا الانتشار الواسع حتى قيام الساعة.

رابعاً: تقعيد القواعد اللغوية وانضباطها:

ومن المعلوم أن العرب قبل الإسلام كانوا ذوى ملكات خاصة، فكانوا يعتمدون في أفكارهم وخطبهم ما يسمى بالسليقة العربية، فليس للغتهم هذه القواعد المعروفة الآن، وذلك لعدم حاجتهم إليها، وليس أدل على ذلك من أن التاريخ يحدثنا عن كثير من العلماء الذين اعترفوا أن لغتهم استقامت لما ذهب بهم إلى الصحراء لتعلم اللغة العربية النقية التي لم يشبها شائب، ولم يختلط عليها شيء، منهم الإمام الشافعى ﷺ فروعة النظم القرآني، ونقاء ألفاظه، وحلاوة جرسه، وشرف معانيه هذه الخصائص والسمات فاجأت العرب بما لم يكونوا يعرفون من قبل، وهذا التقعيد قد أتى لسببين هامين.

اولهما- انتشار الإسلام واتساع الفتوحات الإسلامية: أدى هذا إلى أن يدخل الناس في دين الله أفواجاً، واحتك العرب بالعجم، وأوشكت اللغة العربية أن يداخلها الغريب، ومن ثم بدأ الإفساد يتطرق إلى اللغة العربية ودليل ذلك ما فعله حذيفة بن اليمامة ﷺ وهو يغازى أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع العراق، إضطر إلى الرجوع إلى الدين قائلاً لعثمان «يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن تختلف فى كتابها اختلاف اليهود والنصارى»[1] ولذا أمر عثمان بجمع الناس علي مصحفٍ واحدٍ.

ثانياً: تفشى اللحن فى القرآن واللغة:

هذا ما حدث فقد ضعفت اللغة العربية مع مرور الأيام وفشا فيها اللحن حتى أنه يذكر أن الوليد ابن عبد الملك كان كثير اللحن، لأنه لم يعترف من حصين القرآن ليكسب لغته حلاوة وجمالاً، وهذا الأمر قد أفزع أبو الأسود الدؤلى فجعله يفكر ويحدثه فى وضع

---

(١) القرآن الكريم الدراسات الارضية د/ حسن عتر ص ٤١٠ مرجع سابق.

كتاب يجمع فيه قواعد النحو، التى هى أساس ضبط الحروف والكلمات مستعيناً فى ذلك بنور القرآن، ومن ثم قال بالعمل على ضبط المصحف بهذا الشكل الموجود الآن حفاظاً على قراءة القرآن من اللحن والخطأ. ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، بل إن الفضل يرجع إلى القرآن فى أنه حفظ للعرب رسم كلماتهم، وكيفية إملائهم، على حين أن اللغات الأخرى اختلفت في هذا» والسر وراء ذلك أن رسم القرآن جعل أصلاً للكتابة العربية ثم تطورت قواعد إملاء العربية بما يتناسب مع مزيد الضبط وتقريب رسم الكلمة من نطقها، فكان للقرآن الفضل فى حفظ رسم الكلمة عن الانضمام عن رسم الغرباء [1]

ولعل صفاء النظم القرآنى فى مفرداته وتراكيبه وأساليبه المتنوعة جعلت العرب تنجذب اليه دون شعور منها، وأصبحت الفواصل القرآنية تؤدى معنى لا يشعر به الا من يتذوقه، ولكي لا يكون الكلام بعيداً عن التطبيق أسوق مثالاً واحداً أؤكد به ما أريد، هو سورة العاديات ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ وَإِنَّهُ عَلَى ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [2].

إن الناظر إلى السورة يلحظ انها احدى عشرة آية، وقد وزعت توزيعاً هو غاية فى التناسق والجلال، على أربعة محاور رفيعة - الاول: أى الثلاث آيات الأول تنتهي بحرف الحاء، الثاني: الآيتان الرابعة والخامسة بحرف العين الثالثة: السادسة: والسابعة والثامنة بحرف الدال - الرابعة - التاسعة - العاشرة بحرف الراء، وانت تلحظ ان نظام عقد المعانى فى السورة رائع كروعة نظامها فالأول قسم جليل بخيل المجاهدين، ثم استطراد مكمل لمعنى القسم ثم المقسم عليه «إن الإنسان لربه لكنود» وهكذا علماً بأن هذه السمات ليست وقفاً على سورة العاديات وحدها، بل يتكرر في كل القرآن كثيراً، ولم تكن هذه الروعة مقتصرة علي اللفظ فقط بل كانت تتعداه إلي المعني «في القرآن معانٍ جديدة لا عهد للعرب بها من قبل في التشريع والاجتماع والمجادلة والرد علي الملحدين، وإثبات

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٦١.

(٢) سورة العاديات كاملة.

وحدانية الله وقدرته، وقد عبر عن المعاني بألفاظ فائقة، وعبارات خارقة، ولا شك أن التعبير بالألفاظ المألوفة والتعبيرات المعتادة أسهل من تخير الأسلوب الرائع للمعاني المستحدثة، فإذا أضفنا إلي هذا تصرفه البديع وملاءمته بين الألفاظ والمعاني كانت البراعة أظهر والبلاغة أتم»[1] فالقرآن قعّد للغة العربية من جهة الألفاظ والمعاني ومن ثم كان له التأثير الأكبر عليها من كل اتجاه ويؤكد الخطابي هذا فيقول «وإنما يقوم الكلام بثلاثة أشياء، لفظ حامل، ومعني به قائم ، ورباط لها ناظم، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور في غاية الشرف والفضيلة فلا لفظ أفصح من لفظ القرآن ولا نظماً أحسن تأليفاً وتلائماً من نظمه، وأما المعاني فلا يخفي علي لبيب أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، وقد توجد هذه الفضائل الثلاث علي التفرق في أنواع الكلام، فأما أن توجد في نوع واحد مجموعة فلم توجد إلا في القرآن الكريم»[2].

خامساً : تهذيب الألفاظ اللغوية :

مما هو معروف أن اللغة عنوان قائليها، وطريقتهم في التعبير عن الأشياء، وإذا كان للبقاع تأثير في الطباع، فإن اللغة تتأثر بحسب الناطقين بها، والمعلوم أن العرب أمة تقطن الصحراء، فكانت تكتب بعض الألفاظ الخشنة الجافة، ويستعملون الوحشي الغريب والعجيب وذلك يحكم طبيعتهم المكانية والزمانية في آن واحد، والمتبع للأدب الجاهلي يلحظ هذه الكلمات يوضح مثل جحيش، وجعراناً.. وغيرها، وذلك كله مما تنفر منه الطباع السليمة، إذ إني احفظ عن بدوى خشن اللفظ جاف العبارة كان يقول مترجلاً.

إنما الحيزبون والدردبيس ... الطخا والنقاخ والعلطبيس.

إنها لغة تنفر المسامع منها حين تروى وتشمئز النفوس، إنما أتى القرآن فحسن من هذه الألفاظ، وهذب منها لأن خير الألفاظ ما طرب منها السامع وأنس منه الجليس، وكما يقال إن لذيذ الألفاظ مغناطيس، والأديب أو الإنسان العادي يلحظ هذا بنفسه

---

(١) مع القرآن الكريم د/ أحمد الحوفي ج ١ / ٣٩ بتصرف مرجع سابق .

(٢) بيان إعجاز القرآن الخطابي ص ٢٤ مرجع سابق.

عندما يعقد مقارنة بين الشعر الجاهلي وشعر الإسلام، انك تجد بوناً شاسعاً والهوة ساحقة شتان بين ألفاظٍ وحشيةٍ غريبةٍ، وبين ألفاظٍ ذات نغم موسيقى، ورقة وعذوبة ليس لها مثيل ولا نظر، والقرآن الكريم فضلاً عن أنه نقل العرب من جفاء البداوة وخشونتها إلى لين الحضارة ونعومتها، فنزلوا عن وحشيتهم وتوخوا العذوبة في ألفاظهم، وقد تخير لألفاظه أجمل ما تخف به نطقاً في الالسنة وقرعاً للأسماع حتى كأنها الماء سلالة، والنسيم رقة، والعسل حلاوة وهو يعد بالمكان الأسمى الذي أدهشهم وحير ألبابهم، وأفهمهم أن البلاغة شيء وراء التنقيب والتفكير وتخير ما يكد الألسن ويرهقها من الألفاظ فكفوا عليه يتدبرونه، وجروا إليه يستمعون، ذلك أن القرآن قد انتهج في تعبيره أسلوباً له حلاوة، وعليه طلاوة، تنتقى فيه الكلمة انتقاءً، في مفردات القرآن الكريم من اللغة العربية بمثابة الباب، وغيرها كالقشور»[1] وهذا ما جعل الإمام العلم الأديب ابن طالون أن يقول «أجمع الناس أن اللغة العربية إذا وردت في القرآن فهي أصح مما في غيره»[2] إن القرآن بفصاحته وروعة ألفاظه العذبة الرقراقة قد أغري العرب جميعاً على محاكات اللفظ فأقبلوا إليه يزفون، ومن بحره ورياضه يستقون وينهلون ومن ألفاظه ومعانيه يقتبسون ويتكلمون، فوضعوا بذلك قواعد علوم البلاغة بغاية الروعة وقمة البلاغة، متكئين فيها على ما فى القرآن من أوجه الإعجاز ناسجين منه أجمل حلة وأحلى طراز، هنا يقول العسكري «وقد علمنا أن الانسان إذا أغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة، لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما اختص الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما به من الأبحاث والاختصار اللطيف، وما ضمنه من الحلاوة، وجلله من رونق الطلاوة، مع سهولة كلمة وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز عنها، وتحيزت عقولهم فيها»[3].

مما سبق يعلم أن القرآن الكريم أثر كثيراً في اللغة العربية بكل أقسامها، من معانٍ إلى

---

(١) انظر موقع صوت العربية موقع سبب ذكره.
(٢) المزهر فى علوم اللغة العربية السيوطى ج ١/ ١٢٩ طبقة مصرية تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم.
(٣) كتاب الصناعتين ابو هلال العسكرى ص ٢، ٣ طبقة مصرية.

بيـان إلى بـديع وجـدوا في القـرآن كـل هـذا، وكأنـه لامـس شـغاف قلـوبهم ورقـت لـه أحاسيسهم ومشاعرهم، تغيرت أحكامهم وقوانينهم، فتبدل حالهم من فصيح إلى أفصح، ومن بليغ إلى ابلغ، فبهذا التأثير الاعجازى الفريد نقلهـم مـن البـداوة إلى الحضـارة، ومـن الذل الى العزة، ومن التقوقع الى الانفتاح، ومـن الحـدود الضـيقة إلى العالميـة المتسـة، ومـن الوحش المستهين إلى السهولة والرقة فى البيان «إن من أثر القرآن الكـريم في اللغـة العربيـة أن جعلها لسان الدولة الإسلامية، ولولاه - يقصد القرآن- لبقيت اللغة العربيـة محبوسـه فى جزيرتها لا تتسلط على امة ولا تهيمن على شعب، ويخلص فى النهايـة إلى أن القـرآن هـو الذى أخرج العرب فعلاً، وشق لهم طريق المجد ومهد للغتهم سبيل السؤدد»[1].

ومن المؤسف حقاً، ويزيدك حسرة وألماً أن ترى من شباب بنى جنسـك مـن العـرب الذين أثر القرآن فيهم من يهجر لغته، لغة القـرآن الكـريم ليسـتخدم ألفاظـاً غريبـة داخـل الكلام العربي، فيخلط بين الصفاء والنقاء وبـين الخسـة والوضـاعة - فمـثلاً مـن يريـد أن يجيب بنعم يقول ok ومـن يريـد أن يشـكرك قـال thank you وهكـذا الـخ كـما أن هنـاك ألفاظاً جرت في الاستعمال العربي وهـى غـير ذلـك مـثلاً كلمـة «تليفـون» تسـتبدل بكلمـة هاتف وكلمة «موبايل» يقال جوال محمول وذلك لأن لابد من المحافظة على اللغة العربية لغة القرآن الكريم. فالقرآن الكريم هذب اللغة العربية من كل لفظ غريـب، ونحـى عنهـا كل لفظ مستهجن أو غريب، كما أنه نحى عنها التقعير فى الكلام ، ومـن ثـم هجـر القـرآن كل هذا الكلام وابدله بكلام سلس وجميل فيه عذوبة، وسلاسة حيث قـال تعـالى ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[2].

ولم يقتصر تأثير القرآن في اللغة عند هذا الحد، بل تعدى هـذا إلى انـه نحـى كثـيراً مـن الألفاظ التي تعبر عن معان لا يقرها الإسلام مثل.

١ - الرباع: وهو ربع الضحية الذى كان يأخذه الرئيس فى الجاهلية.

---

(١) اثر القرآن فى اللغة ا/ احمد الباكورى ص ٤٦ مرجع سابق.

(٢) سورة القمر الآية رقم ١٧ .

٢- النشيطة: وهو ما أصاب الرئيس قبل أن بعد إلى القوم.

٣- المكس: دراهم كانت تؤخذ من بائعى السلع فى الجاهلية فى الاسواق وغير ذلك من الالفاظ التى تحمل معان يرفضها الاسلام ولا يقرها.

سادساً: الاقتباس من القرآن الكريم:

إن القرآن الكريم قد نمّى اللغة العربية وزودها بكثيرٍ من الألفاظ من مثل الصلاة: كانت تعني عندهم الدعاء كان يقال صلّى فلان أي دعا:فلما نزل قول الله تعالى ﴿لِيُقِيمُواْ الصَّلَاةَ﴾ دل ذلك علي صفة معينة وطريقة معينة، وهي عبادة تؤدى خمس مرات في اليوم والليلة وهكذا، ومن ثم غدت اللغة العربية أكثر ثراءً بألفاظ القرآن الكريم، وأطوع آداءً وألين مرونة واستوعبت شتات العلوم والمعارف التي نشأت ثم ازدهرت وكل ذلك بفضل القرآن الكريم، وصارت اللغة العربية وعاءً لضروب الثقافة في اللغة والأدب والبلاغة والحديث.......

ولتأثر اللغة العربية بالقرآن الكريم وضح ذلك في أسلوبهم وأشعارهم ونثرهم ومما يؤثر في هذا ما قاله.

١ - معن ابن أوسٍ في ابن عمه وصبره علي عناده وشره يقول

فما زلت في ليني له وتعطفي	عليه كما تحنو علي الولد الأم
وخفضـــــي له الجناح تألفاً	لتدين القرابة والرحم

ونري أنه متأثر بقول الله تعالى ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾.

٢ - وقول أبي العتاهية في المدح للخليفة المهدي.

أتته الخــلافة منقادة	إليـه تجـــــرر أذيالها
فلم تك يصلح إلا له	ولم يك يصلـــح إلا لها
ولــو رامها أحدٌ غيره	«لزلزلت الأرض زلزالها»

والاقتباس واضح لا يحتاج إلي بيان كما تري.

٣ - قول أبي نواس.

وقينة في مجلس وجوههم ريحانهم قد عدموا التثقيلا

دانيـــــــة عليهم ظلاله «وذللــت قطوفها تذليلا»

إلي غير ذلك من هذا الإثراء الواسع الذي أثر به القرآن في اللغة العربية

وقبل أن أختم هذا المبحث والرسالة كالعادة أسجل شهادة الغرب عن أثر القرآن الكريم في اللغة العربية.

فهذا ريسلر[١] يقول:

«..لما كانت روعة القرآن في أسلوبه فقد [انزل] ليقرأ ويتلى بصوت عال. ولا تستطيع أية ترجمة أن تعبر عن فروقه الدقيقة المشبعة بالحساسية الشرقية. ويجب أن تقرأه في لغته التي كتب بها لتتمكن من تذوق جمله وقوته وسمو صياغته. ويخلق نثره الموسيقى والمسجوع سحراً مؤثراً في النفس حيث تزخر الأفكار قوة وتتوهج الصور نضارة، فلا يستطيع احد أن ينكر أن سلطانه السحري وسموه الروحي يسهمان في إشعارنا بان محمداً ﷺ كان ملهماً بجلال الله وعظمته»[٢].

كان في القرآن فوق انه كتاب ديني خلاصة جميع المعارف.. وظل زمناً طويلاً أول كتاب يتخذ للقراءة إلى الوقت الذي شكل فيه وحدة كتاب المعرفة والتربية. ولا يزال حتى اليوم النص الذي تقوم عليه أسس التعليم في الجامعات الإسلامية. ولا تستطيع الترجمات أن تنقل ثروته اللغوية (إذ يذبل جمال اللغة في الترجمات كأنها زهرة قطفت من جذورها) ولذلك يجب أن يقرأ القرآن في نصه الأصلي»[٣].

---

(١) جاك. س. ريسلر J.S.restler : باحث فرنسي معاصر، وأستاذ بالمعهد الإسلامي بباريس.

(٢) قالوا عن الإسلام عماد الدين خليل ص ١٥٠ مرجع سابق.

(٣) المرجع نفسه.

وقول آخر وهو سارتون[1] لغة القرآن على اعتبار أنها اللغة التي اختارها الله جل وعلا للوحي كانت، بهذا التحديد، كاملة... وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية إلى مقام المثل الأعلى في التعبير عن المقاصد،.. [وجعل منها] وسيلة دولية للتعبير عن أسمى مقتضيات الحياة»[2].

تعقيب: ومن خلال ما سبق الحديث عنه للغة العربية يمكن لي أن أقول إن القرآن الكريم سما باللغة العربية إلي أعلي آفاقها، ووصل بها إلي أسمي آمانيها، ولا يمكن للغة العربية أن تسمو أو يتحقق لها السمو والارتقاء بغير القرآن الكريم، وهكذا رأينا أن التأثر بالقرآن الكريم كان علي كافة المستويات ، شمل الإنس والجن والجماد والنبات والحيوان، وغيره مما سبق بيانه.

***

(١) جورج سارتون (١٨٨٤ - ١٩٥٦) G.Sarton : ولد في بلجيكا، وحصل على الدكتوراه في العلوم الطبيعية والرياضية (١٩١١)، فلما نشبت الحرب رحل الى انكلترا، ثم تحول عنها الى الولايات المتحدة، وتجنّس بجنسيّتها فعين محاضراً في تاريخ العلم بجامعة واشنطن (١٩١٦)، ثم في جامعة هارفارد (١٩١٧ - ١٩٤٩). وقد انكب على دراسة اللغة العربية في الجامعة الامريكية ببيروت (١٩٣١ - ١٩٣٢) والقى فيها وفي كلية المقاصد الاسلامية محاضرات ممتعة لتبيان فضل العرب على التفكير الانساني، زار عدداً من البلدان العربية، وتمرس بالعديد من اللغات، ومنح عدة شهادات دكتوراه كما انتخب عضواً في عشرة مجامع علمية وفي عديد من الجمعيات العالمية، واشرف على عدد من المجلات العلمية.

(٢) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٣٧ - ٣٨.

الخاتمـــة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على خير البشر، سيدنا محمد ﷺ.

وبعـد،،

فلقد عشت مع هذا البحث الذي عنوانه «الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم وأثره في الدعوة إلي الله تعالى» والذي تحدثت فيه عن الإعجاز القرآني من جهة تأثيره، وقوة الجذب الشديدة التي يحدثها في الخلق أجمع، وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يقع في بابين تسبقهما مقدمة وتمهيد ويعقبهما خاتمة، وعنوان الباب الأول: الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم وذلك من خلال دراسة تأصيلية لهذا الإعجاز، وتحدثت في هذا الباب عن نشأة هذا الإعجاز التأثيري وتأصيله علمياً، وعلاقته بأوجه الإعجاز الأخرى، ثم تحدثت عن المعالم التي تميزه وتختص به في نفس الوقت، ثم ذكرت وسائله من خلال آيات القرآن، ثم ذكرت الموانع والحواجز التي تقف حجر عثرة أمام هذا التأثر القرآني وكان هذا مجمل الباب الأول.

وجاء الباب الثاني بعنوان أثر القرآن في الدعوة إلي الله تعالى وقد ضمنته فصولاً أربعة وهي.

الفصل الأول: الرسول ﷺ باعتباره «سيد الدعاة» إلي الله تعالى وقد ذكرت أثر القرآن عليه ظاهراً وباطناً، ليتعلم الدعاة منه إلي أن يقوم الناس لرب العالمين.

الفصل الثاني : أثر القرآن علي الدعاة إلي الله فهم محور هذا الأمر وهم أدوات توصيل هذا التأثير إلي الناس وقد ركزت علي هذا الجانب طويلاً.

الفصل الثالث: بعنوان أثر القرآن علي المدعوين جميعاً وتجلية هذا الأثر حتي أنه يلفت الانتباه.

الفصل الرابع: بعنوان أثر القرآن علي غير البشر من ملائكة وجنّ وجمادات وغير

ذلك، ولم يفتني أن أذكر أثر القرآن علي اللغة العربية حيث إنها لسان الأمة إلي يوم القيامة كما أنها لغة القرآن وانتهيت من هذه الدراسة إلي عدة نتائج أهمها ما يلي.

(١) الحديث عن الإعجاز غدا أمراً مهما جداً وذلك لما يعيشه العالم من عصر الذرة والتقنيات الحديثة ومن ثم كان لابد من دراسة هذا الإعجاز ليتبين للعالم أن القرآن فيه كل شئ جد أو يجد إلي يوم القيامة.

(٢) إفراد الإعجاز التأثيري كوجه مستقلٍ قائمٍ بذاته وليس تابعاً لأوجه الإعجاز القرآني الأخري، وقد تم مناقشة هذا داخل البحث.

(٣) أهمية استخدام التأثير القرآني في الدعوة إلي الله تعالى كسلاحٍ دعوي، ولسنا بدعاً في هذا فقد استخدمه رسول الله ﷺ.

(٤) تبصير الناس بأهمية هذا الإعجاز وفتح الباب للباحثين ليدرسوه عن حب واقتناع، فهو إعجاز لا غناء لداعيةٍ عنه.

(٥) إبراز ما في آيات القرآن من جوانب الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم، ليعي الناس هذا الأمر ويفهموه.

وكانت أهم التوصيات ما يلي:

(١) نشر هذا الإعجاز التأثيري للناس وبثه في حلقات خاصة عبر الإذاعات المرئية منها والمسموعة وبأسلوبٍ شيق وجذاب، وتجلية وسائله وغاياته.

(٢) قيام هيئة الإعجاز العلمي بدورها في جعل هذا الإعجاز وجهاً مستقلاً بذاته ليس تابعاً لغيره، وبذل الجهد في تحقيق ذلك ما أمكن.

(٣) قيام الأزهر بدوره واعتبار هذا الإعجاز مادة تدرس من ضمن المواد التي تخدم دين الله تعالى وهذا بالضرورة يبصر الطلبة بفهم كتاب الله تعالى.

(٤) تجلية هذا الإعجاز من خلال كتبٍ ومؤلفاتٍ علمية حوله وبأسلوب يجذب الإنتباه ويثير الوجدان والعاطفة، فخير الألفاظ ما طرب السمع .

(٥) تنشيط العقل وتوعيته من خلال هذا الحديث عن التأثير القرآني فهو يقوم بدور المنشط للذهن، وإبراز اهتمام القرآن الكريم بثمرة النظر العقلي وهو التدبر والعلم والمعرفة.

(٦) قيام إذاعة القرآن الكريم بعمل ختمة تدبرية للقرآن الكريم يعلن عنها لمن أراد أن يتدبر أو يتأثر والحرص علي ذلك دائماً.

(٧) انطلاق الفكر الإسلامي من خلال التدبر العقلي للقرآن الكريم وذلك في كافة المجالات وعلي كافة المستويات.

***

ثبت المراجع

أولاً: القرآن الكريم كلام الله رب العالمين:

ثانياً: كتب التفسير للقرآن الكريم:

(١) رشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم أبو السعود دار إحياء التراث العربي - بيروت
(٢) تفسير البيضاوي دار الفكر بيروت ١٤١٦هـ / ١٩٩٦ م، تحقيق عبد القادر عرفات.
(٣) تفسير الحافظ بن الكثير دار الشعب الطبعة الرابعة.
(٤) التفسير الحديث د محمد عزة دروزة دار الفكر العبي بيروت ١٩٧٧.
(٥) تفسير المنار الشيخ محمد رشيد رضا.
(٦) التفسير الموضوعي د/ محمد البهي مؤسسة الرسالة بيروت بدون.
(٧) تفسير جزء عم للإمام محمد عبده مطبعة الشعب القاهرة، سلسلة دار الشعب.
(٨) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان الإمام السعدي، دار الفكر بيروت بدون.
(٩) جامع البيان عن تأويل آي القرآن الطبري، دار الفكر بيروت ٥, ١٤هـ / ١٩٩١م.
(١.) الجامع لأحكام القرآن، القرطبى وما بعدها، بتصرف، دار الفكر العربي، بيروت ١٩٧٤م.
(١١) الجواهر الحسان في تفسير آي القرآن الإمام الثعالبي، طبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بدون تاريخ.
(١٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي دار إحياء التراث العربي بيروت.
(١٣) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي المكتب الإسلمي بيروت الطبعة الثالثة ٤, ١٤.
(١٤) معالم التنزيل الإمام البغوي دار المعرفة بيروت، الطبعة الثانية ٧, ١٤هـ / ١٩٨٧م.

ثالثاً: كتب السنة:

(١) الجامع الصحيح أبو عبدالله البخاري دار ابن كثير، اليمامة - بيروت الطبعة الثالثة، ٧, ١٤ هـ - ١٩٨٧م. تحقيق: د. مصطفي ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة - جامعة دمشق.
(٢) سنن ابن ماجه دار الفكر بيروت تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.

(٣) سنن أبي داود السجستاني دار الفكر تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد سنن ابن منصور دار العصيمى، الرباط، ط١ ١٤١٤هـ، تحقيق سعد بن عبد الله آل حميد.

(٤) المجتبى من السنن النسائي، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب الطبعة الثانية، ٦, ١٤ هـ- ١٩٨٦م.

(٥) سنن البيهقي الكبرى البيهقي مكتبة دار الباز - مكة المكرمة، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م تحقيق: محمد عبد القادر عطا المؤلف: محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني.

(٦) صحيح مسلم بن الحجاج دار إحياء التراث العربي - بيروت تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

(٧) صحيح ابن خزيمة النيسابوري المكتب الإسلامي - بيروت، ١٣٩. هـ - ١٩٧.م. تحقيق: د. محمد مصطفي الأعظمي.

(٨) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان محمد بن حبان التميمي مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة الثانية، ١٤١٤ - ١٩٩٣ تحقيق: شعيب الأرنؤوط.

(٩) المستدرك على الصحيحين دار الكتب العلمية بيروت ١٤١١هـ/ ١٩٩.م ط الأولى تحقيق مصطفي عطا.

(١.) مصنف، ابن أبى شيبة، مكتبة الرشد، الرياض، بدون تاريخ.

(١١) مصنف عبد الرازق ابن همام الصنعاني المكتب الإسلامي - بيروت الطبعة الثانية، ٣, ١٤ تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.

(١٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد الهيثمي دار الفكر، بيروت - ١٤١٢ هـ.

(١٣) النهاية في غريب الحديث والأثر: أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي.

رابعاً: المراجع العامة

«أ»

(١) إحياء علوم الدين بتخريج العراقي الغزالي طبعة دار الريان للتراث، الطبعة الأولي ٧, ١٤هـ / ١٩٨٧ م.

(٢) أدب الاختلاف في الإسلام د / جابر فياض مكتبة الفكر بيروت، ١٩٨٥م.

(٣) أدب الحوار والمناظرة د / علي جريشة دار الوفاء المنصورة ١٩٨٩م.

(٤) أدب المفتي والمستفتي عثمان الشهرزوي مكتبة العلوم والحكم ، عالم الكتب – بيروت.

(٥) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، للإمام الشوكانى تحقيق أحمد عناية، دار

الكتاب العربى، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
(٦) أساس البلاغة، الزمخشرى ص١٩ دار صادر بيروت ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩م.
(٧) الإسلام دين الفطرة عبد العزيز جاويش العربي دار الزهراء للإعلام القاهرة ١٤١٤ / ١٩٩٥م.
(٨) الإسلام في عصر العلم د/ محمد أحمد الغمراوى دار الإنسان القاهرة الطبعة الرابعة ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
(٩) الإسلام والفطرة محمد ذكى قاسم دار الفرقان الطبعة الثانية ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
(١٠) الإسلام والفكر العلمى محمد المبارك دار الفكر بيروت.
(١١) الإسلام وحضارة الغد القرضاوى مؤسسة الرسالة بيروت.
(١٢) أسلوب المحاورة في القرآن الكريم د/ عبد الكريم حنفي الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ م.
(١٣) الإشارات العلمية في القرآن الكريم، د/ كارم غنيم، دار الفكر العربى، ط ١ / ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
(١٤) إعجاز القرآن، الباقلانى دار الفكر العربي بيروت.
(١٥) إعجاز القرآن الكريم، محمد فريد وجدي، دائرة المعارف القاهرة.
(١٦) إعجاز القرآن الكريم د محمد بركات في المكتبة الدولية مؤسسة الخافقين ١٤٠٣هـ.
(١٧) الإعجاز في دراسات السابقين، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر، بيروت.
(١٨) أمثال القرآن ابن القيم مخطوط بمكتبة الأوقاف ببغداد تحت رقم ٦٦٨٥، وبمكتبة التراث برقم ٢٩، ومطبوع بدار مكة للطباعة والنشر، تحقيق د/ ناصر بن سعد الرشيد، الطبعة الأولي ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
(١٩) الأمثال من الكتاب والسنة، الترمذي، تحقيق د/ محمد على البجاوي، مكتبة القاهرة ١٣٩٥هـ.
(٢٠) أمثال ونماذج بشرية من الكتاب الكريم، د/ محمد علي طاحون دار هجر للطباعة القاهرة، بدون تاريخ.
(٢١) الانتحار هاتكوف الهيئة العالمية للترجمة، دار العالمية للنشر والتوزيع.
(٢٢) إنسانية الإنسان وبيئته د/ رينيه ديو ترجمة نبيل الطويل دار العالمية للنشر والتوزيع.
(٢٣) البيان في أقسام القرآن الإمام ابن قيم الجوزيه دار الفكر العرب ببيروت.

(٢٤) البيان والتبيين الجاحظ دار الجيل بيروت تحقيق عبد السلام هارون الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

«ب»

(٢٥) بين الإنسان الطبيعي والإنسان الصناعي محمد تقي الأمينى ترجمه د/ مقتدى حسين ياسين و د/ عبد الحليم عويس دار الصحوة للنشر بالقاهرة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥ م.

(٢٦) بين القلب العضلي والقلب المعنوي د/ محمد علي البار مؤسسة الرسالة بيروت بدون.

«ج»

(٢٧) تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدى، دار الحياة، بيروت، بدون تاريخ.

(٢٨) التبيان في آداب حملة القرآن النووي الوكالة العامة للتوزيع دمشق الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

(٢٩) التبيان في علوم القرآن، للصابوني، مكتبة الصابوني الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م.

(٣٠) التخطيط للدعوة الإسلامية وأهميته الأحمدي أبو النور دار التوفيق، القاهرة ط١ ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

(٣١) التدوين في أخبار قزوين للرافعي القز ويني دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٧ م، تحقيق عزيز الله العطار.

(٣٢) تذكرة الدعاة / البهي الخولي بتصرف، دار التراث القاهرة الطبعة الثامنة ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٧م.

(٣٣) تراجم سيدات بيت النبوة بنت الشاطئ، دار الريان للتراث بدون تاريخ.

(٣٤) التصوير الفني للقرآن سيد قطب دار المعارف الطبعة التاسعة بدون تاريخ.

(٣٥) تعارض العقل والنقل، للإمام ابن تيمية دار الفكر بيروت، بدون تاريخ.

(٣٦) التعريفات الجرجاني دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٩ / ١٤٠٥ تحقيق: إبراهيم الأبياري.

(٣٧) التوقيف علي مهمات التعاريف، المناوي دار الفكر بيروت الطبعة الأولى تحقيق د/ محمد رضوان الداية.

«ث»

(٣٨) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن طبعة دار المعارف مصر ١٣٧١/ تحقيق محمد زغلول وآخرون.

«ج»

(٣٩) جلاء الإعجاز الجرجاني الهيئة المصرية العامة للكتاب تعليق محمود شاكر.

(٤٠) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء) ابن القيم دار الكتب العلمية - بيروت.

«ح»

(٤١) الحوار والمناظرة في القرآن الكريم د / خليل زيادة دار المنار القاهرة بدون تاريخ.

(٤٢) حول أدب العصرين الأموي والعباسي الأول، شفيق عبد الرازق دار الفكر بيروت ١٩٨٢م.

«د»

(٤٣) الدر المنثور السيوطي في التفسير بالمأثور دار الفكر العربي بيروت ١٩٩٣م.

(٤٤) دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني د / أحمد جمال العمري.

(٤٥) الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، الشيخ محمد الراوي مكتبة الرشد، الرياض ط ٣ ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

(٤٦) الدعوة الإسلامية في عهدها المكي، مناهجها وغاياتها د: رؤوف شلبى ط دار القلم، الكويت ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م.

(٤٧) الدعوة إلى الإصلاح، د: محمد الخضر حسين، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٦هـ.

(٤٨) دليل الفالحين بشرح رياض الصالحين ابن علاّن المكي دار الكتب العلمية بيروت بدون

(٤٩) الدنيا والدين الماوردي ط دار الريان ط ١، تحقيق محمد فتحي أبو بكر ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨م.

«ر»

(٥٠) زاد المعاد في هدي خير العباد ابن القيم مؤسسة الرسالة - مكتبة المنار الإسلامية - بيروت - الكويت. الطبعة الرابعة عشر، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦م تحقيق: شعيب الأرناؤوط - عبد القادر الأرناؤوط

«س»

(٥١) السيرة النبوية ابن هشام المكتبة التوفيقية، تحقيق د / محمد السرجاني، بدون تاريخ.

«ش»

(٥٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، مؤسسة الرسالة، بيروت، بدون تاريخ.

«ص»

(٥٣) الصحاح في اللغة الجوهرى دار الفكر العربي.

(٥٤) الصحوة الإسلامية القرضاوى. مؤسسة الرسالة بيروت.

«ط»

(٥٥) الطبقات الكبرى ابن سعد دار صادر بيروت، بدون تاريخ.

(٥٦) طبيعة الحوار في القرآن شوقي إبراهيم الطباعة المحمدية القاهرة الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م.

(٥٧) الطراز لأبي يحي بن حمزة، طبعة دار الشعب القاهرة ١٩١٤م.

«ظ»

(٥٨) الظاهرة القرآنية، مالك بن بنى، طبعة دار الفكر، دمشق ٢ , ١٤/ ١٩٧٩م.

«ع»

(٥٩) عقيده المسلم محمد الغزالى دار الدعوة وانظر إحياء علوم الدين الإمام الغزالى ج ٤/ ٤٤٩.

(٦٠) علم وبيان آيات القرآن عبد الرازق نوفل أخبار اليوم العدد ٢٦٥ لسنة ١٩٨٧ م.

(٦١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعلامة بدر الدين العيني بدون تاريخ.

«ف»

(٦٢) فتاوى ابن تيمية. دار المعرفة - بيروت الطبعة الأولى، ١٣٨٦ تحقيق: حسنين محمد مخلوف.

(٦٣) فتح البيان في مقاصد القرآن لأبي الطيب ابن حسن القنوجي طبعة المطابع الأميرية القاهرة الطبعة الأولي.

(٦٤) فتح القدير بشرح الجامع الصغير المناوي ج ٥ / ٥١٣ المكتبة التجارية مصر، الطبعة الأولي ١٣٥٦ هـ.

(٦٥) الفوائد ابن القيم: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الثانية، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م.

(٦٦) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الريان، ط١٩ / ١٤١٢هـ.

«ق»

(٦٧) القاموس القويم للقرآن الكريم / إبراهيم عبد الفتاح ص ١٤٩، ١٥. باب الكاف، طبعة مجمع البحوث الإسلامية، الأزهر ٤ , ١٤ ه/ ١٩٨٣ م.

(٦٨) القاموس المحيط، الفيروز ابادى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط الأولى

١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
(٦٩) القاموس المحيط الفيروز آبادي.
(٧٠) القرآن الكريم آداب تلاوته وسماعه، الشيخ / حسنين مخلوف المجلس الأعلى للشئون الإسلامية العدد ٩٥ القاهرة، السنة التاسعة لعام ١٣٨٩ه، ١٩٦٩م.
(٧١) القرآن المذهل بقلم البروفسور / غاري ميللر بجامعة إساك ترجمه عن التركية / أورخان محمد علي، دار الكلمة المنصورة الطبعة الأولي ١٤٣٢ هـ / ٢٠٠٢ م
(٧٢) القرآن والفلسفة د/ محمد يوسف موسى دار المعارف الطبعة الرابعة بدون تاريخ.
(٧٣) قصص الأنبياء أبو الحسن الندوي مؤسسة الرسالة بيروت بدون تاريخ.
(٧٤) قصص من القرآن محمود زهران مكتبة غريب القاهرة، بدون تاريخ.
(٧٥) القلق الإنسانى د/ محمد إبراهيم الفيومي مكتبة وهبة.
(٧٦) القلق والحصر أندريه لوغال ترجمة وجيه أسعد، دار الكتب العلمية.
«ك»
(٧٧)الكرب والاكتئاب يوغال داديلى الترجمة العربية، دار الكتب العلمية.
(٧٨) الكرب والضغط النفسى بينها مان ستورا ترجمة وجيه أسعد دار الكتب العلمية.
(٧٩) الكلمات الإسلامية في الحفل القرآني، د: عبد العال سالم ص١٢٦/ ١٢٧.
(٨٠) كيف نتعامل مع القرآن، الشيخ / محمد الغزالي دار الوفاء، الطبعة الثالثة، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م.
«ل»
(٨١) لسان العرب بن منظور الأفريقي المصري دار صادر - بيروت الطبعة الأولى، بدون تاريخ.
(٨٢) العلم والديمقراطية في الإسلام د/ همايومن كير.
(٨٣) لمحات في علوم القرآن، د: محمد الصباغ، ط المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٣٩هـ.
«م»
(٨٤) مباحث في علم الدعوة، د: عبد الخالق إسماعيل.
(٨٥) مباحث في علون القرآن الشيخ مناع القطان مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الخامسة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
(٨٦) مختار الصحاح، الرازى دار الكتاب العربي، بيروت الطبعة الأولى ١٩٦٧م.

(٨٧) مدخل إلي الاستدلال القرآني د / عبد الله الشاذلي الطبعة الأولي ٧, ١٤ ه، ١٩٨٧ م.
(٨٨) مدارج السالكين الإمام ابن القيم.
(٨٩) مدخل إلى علوم القرآن وتفسيره، د: فاروق حمودة ط مكتبة المعارف، الرياض ط١/ ١٣٩٩هـ.
(٩٠) المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة وحيد خان. لسان العرب ص ٤٢ / ٦١١.
(٩١) مع الأنبياء في القرآن الكريم عفيف طبّارة دار العلم الملايين بيروت السادسة عشرة ١٩٨٧.
(٩٢) مع القرآن الكريم الشيخ محمود خليل الحصري طبعة الشمولي، الطبعة الثانية ١٣٦٩هـ/ ١٩٧٦ م.
(٩٣) المعجزة القرآنية للقرآن والسنة، عبد المجيد الزندانى من بحوث المؤتمر العالمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، إسلام آباد، باكستان ٨, ١٤هـ/ ١٩٨٧م.
(٩٤) المعجزة الكبرى، الشيخ الشعراوى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
(٩٥) المعجم الفلسفي جميل صليبا دار الكتاب اللبناني، لبنان الطبعة الأولي ١٩٧١م.
(٩٦) المعجم الوسيط، إصدار مجمع اللغة العربية مكتبة الصحوة المنوفية بدون تاريخ.
(٩٧)معجم مقاييس اللغة - ابن فارس دار الفكر بيروت بدون تاريخ.
(٩٨) مفاتح تدبر القرآن د / خالد عبد الكريم الملاحم الرياض الطبعة الأولي عام ١٤٥٢ هـ / ٢٠٠٤ م.
(٩٩) مفاهيم أساسية لفهم القرآن المودودي الدار السعودية للنشر ترجمة د / خليل أحمد الحامدي.
(١٠٠) المفردات في غريب القرآن، الأصفهانى تحقيق محمد كيلانى، ط دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.
(١, ١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ابن القيم: دار الكتب العلمية – بيروت.
(١, ٢) من روائع القرآن تأملات علمية وأدبية في كتاب الله رمضان البوطي. مكتبة الفارابي- دمشق.
(١, ٣)من كتاب الإعجاز البياني للقرآن - عائشة عبد الرحمن. دار الفكر العربي.
(١, ٤) مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقانى، ط الكليات الأزهرية، بدون تاريخ.

(١٠٥) منهج الفن الإسلامي محمد قطب دار الشروق، بدون تاريخ.
(١٠٦) ميادين علم الاجتماع ومناهج البحث العلمي حسين رشوان طبعة الهيئة المصرية للكتاب، الطبعة الأولى.
(١٠٧) المعجزة والإعجاز في سورة النحل، عبد الحميد طهماز، بتصرف دار القلم، ط١/ ١٩٨٧م.

«ن»

(١٠٨) نحو علم نفس اسلامى حسن الشرقاوي.
(١٠٩) نظرات في القرآن الكريم، محمد الغزالى ص١٢٢، دار الكتب الحديثة، ط٥، بدون تاريخ.
(١١٠) نقض مطاعن في القرآن الكريم محمد أحمد عرفة تعليق الشيخ محمد رشيد رضا، مكتبة الزهراء القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٦ م.
(١١١) نور من القرآن في طريق الدعوة والدعاة د/ محمد الحسنين سلسلة دعوة الحق العدد ٨٨ السنة الثامنة عام ١٤٠٩هـ.

* * *

الفهرس

الباب الثاني

أثر القرآن الكريم في الدعوة إلي الله تعالى



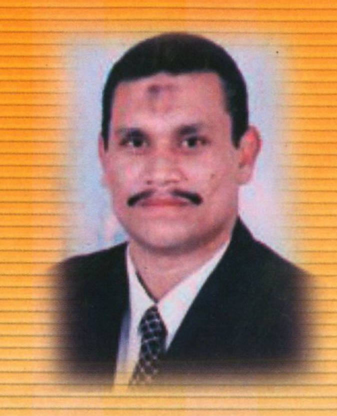
في هذا الكتاب

هذا الكتاب يتحدث عن لون من الإعجاز يغفل عنه كثير من الناس رغم بداهته، وهو الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم.

وقد تضمن الكتابُ الحديثَ عن نشأته وتاريخه، والنصوص التي تدل عليه ، ثم تحدث عن معالم هذا الإعجاز والآداب المُعينة لمن أراد التأثر بالقرآن الكريم ووسائل هذا التأثر وطرقه، ثم نبهت علي الموانع التي تقف حجر عثرة أمام من يريد تدبر القرآن وأثر القرآن في الدعوة إلي الله تعالي .

وتضمن أثر القرآن علي الرسول والصحابة وعلي المؤمنين وكذلك أثره علي أهل الكتاب، ثم أثره علي غير البشر من ملائكة وجنّ وجمادات ونباتات وحيوانات وكذا أثره في اللغة العربية.

د / مصطفي السعيد



د / مصطفي السعيد مصطفي خليل

نال الإجازة العالية (الليسانس) من كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة دور مايو ١٤١٦ هـ / ١٩٩٧م، بتقدير جيد جداً مع مرتبة الشرف.

نال درجة التخصص (الماجستير) في الدعوة والثقافة الإسلامية بتقدير عام ممتاز

نال درجة العالمية (الدكتوراة) فى أصول الدين قسم الدعوة والثقافة الإسلامية بتقدير عام امتياز مع مرتبة الشرف الأولى وعنوانها " الإعجاز التأثيرى للقرآن الكريم وأثره فى الدعوة إلى الله تعالى " عام ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م –

عضو الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة

عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

عضو التدريس بالمعاهد العليا للقرآن الكريم

توزيع

شركة أجيالنا

ت: ٠٢٣٥٤٠٠٥٢٧ محمول: ٠١١٤٩٨٨٥٦٩ ـ ٠١٠٥٠٢٩٥٧٠

abodoha_1957@yahoo.com